مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الوسطى

الغرب المسيحي ■ الدولة البيزنطية ■ اليهود

دكتور شعبان عبد العزيز خليفة

المجلد الثاني



الدار المصرية اللبنانية

الكتب والمكتبات
في
العصور الوسطى

الناشــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٣٥٥٤/ ١٩٩٨
الترقيم الدولى : 9 - 409 - 270 - 977
جمــع : **آرتك**
العنوان : ٤ شارع بنى كعب ـ متفرع من شارع السودان
تليفون : ٣١٤٣٦٣٢
طبـع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : شـوال ١٤١٨ هـــ فبراير ١٩٩٨ م .

مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الوسطى

الغرب المسيحى - الدولة البيزنطية - اليهود

تأليف

الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة

المجلد الثانى

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

القسم الرابع

الدراسة التاريخية الجغرافية للمكتبة الأوربية في الغرب المسيحى

الفصل الأول : العصور الوسطى الباكرة (ق٦ - ٨م)

- إيطاليا - أسبانيا - فرنسا - أيرلندا - إنجلترا - ألمانيا

الفصل الثانى: العصور الوسطى المتوسطة (ق٩ - ١٢م)

أ- الفترة الكارولنجية

- بيبين - شارلمان - خلفاء شارلمان - البلاط الكارولنجى
- الأديرة والكنائس الألمانية - فرنسا - إيطاليا - أسبانيا

الفصل الثالث : العصور الوسطى الوسيطة

ب - الفترة الأتونية

- أوتو الأول - أوتو الثانى - أوتو الثالث - الأديرة والكنائس الألمانية

الفصل الرابع: المكتبة الأوربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر

- إصلاح الأديرة والطوائف الدينية الجديدة
- الكلونيون - السستريون - الكارثوزيون
- القانونيون النظاميون والديريون السابقون - ألمانيا
- النمسا - إيطاليا

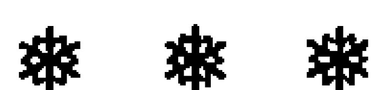
الفصل الخامس: المكتبات الأوربية فى العصور الوسطى المتأخرة (ق ١٣ ـ ١٥م)

- الجامعات والبحث العلمى المبكر ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ أسبانيا
- إنجلترا ـ ألمانيا ـ الطوائف الدينية الجديدة ـ أديرة الراهبات
- جماعة إخوان الحياة العامة ـ مكتبات النبلاء والملوك
- أسبانيا ـ إنجلترا ـ ألمانيا

الفصل السادس: المكتبات الخاصة فى العصور الوسطى المتأخرة

الفصل السابع: المكتبات المفتوحة: الأديرة، الكنائس، المدن فى العصور الوسطى المتأخرة

الفصل الثامن: المكتبات فى الدول الاسكندنافية فى العصور الوسطى المتأخرة



الفصل الأول

المكتبات الأوربية فى العصور الوسطى الباكرة
(من القرن السادس إلى القرن الثامن الميلادى)

مقدمة:

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية على أيدى البربر وتمزقها وبروز عدد من الولايات أو الدويلات أو المقاطعات من أنقاض تلك الإمبراطورية، أخذت الولايات الجرمانية فى التشكل وقام رجال الكنيسة بدور الحفاظ على التقاليد وجرت محاولات عديدة لجمع وحفظ الفكر الوثنى فى الحقبة الجديدة فى إطار المسيحية مما أدى إلى سقوط الثقافة الكلاسيكية وطبقة المتعلمين. أما فى الولايات الرومانسية (الفرنسية) فقد تحللت المجموعات المسيحية الأولى كما سنرى وتقهقر الفكر الذى كان قد بدأ ينمو. وفى الولايات الإيطالية رأينا كيف أخذت الأديرة فى جمع ما أمكن جمعه من التراث الوثنى ونسخه وحفظه للأجيال التالية بفضل كاسيودورس وسانت بندكت.

وكانت المكتبة البابوية فى قصر لاتيران[1] هى الوحيدة التى نجت ودخلت إلى العصور الوسطى من العصور القديمة؛ فى الوقت الذى قام فيه كاسيودوروس وإيزيدور الإشبيلى بإنشاء مؤسسات فكرية جديدة على الرغم من الأيام العاصفة التى هددت الثقافة القديمة والكلاسيكية ودفنت مكتباتها معها. ولقد أصبح الحفاظ على التقاليد الفكرية والتراث الكلاسيكى مسئولية الأديرة، تلك المؤسسات - ويا لسخرية القدر - التى وقفت فى البداية ضد هذا الفكر ووسمته بالوثنية. لقد قام الرهبان بواجبهم فى الحفاظ على المعرفة والفكر عن طريق النسخ الصابر المثابر للنصوص القديمة، محتذين فى ذلك أثر الكنيسة الشرقية. ولم يكن سانت بندكت يرغب فى هذا الاتجاه ولكن خلفاءه تحملوا هذه المسئوليات وتحمسوا لها، بينما كان كاسيودوروس يشجع على هذا الاتجاه بكل وعى وتخطيط كما فصلنا ذلك سابقاً إلا أنه لم يخلف وراءه من يتابع المسيرة.

(١) Lateran Palace.

ومع كل فإن مُثُل كاسيودوروس قد تم غرسها ووجد من ينفذها هناك فى الشمال البعيد حيث برزت ثقافة جديدة فى الجزر البريطانية وانتشرت منها إلى سائر أنحاء القارة وأينعت البذرة وأثمرت فى الحقبة الكارولينجية.

وسوف نحاول أن نتتبع واقع المكتبات فى أوربا التى تمزقت فى الفترة المذكورة من العصور الوسطى، ونبدأ بإيطاليا لأنها وريثة الإمبراطورية ثم نتبعها بسائر الولايات الأوربية إن صح هذا التعبير.



إيطاليا

١ ـ تيودوريك العظيم[1]

لقد شهد القرن الرابع الميلادى بداية النهاية لإيطاليا؛ ومكتبات روما العلمانية وكانت نهاية تلك المكتبات غير المحمية وغير المعروفة قد ساعد عليها وعجل بها الطبيعة الهشة وسريعة الاشتعال لمادة البردى، مادة مقتنيات تلك المكتبات. ذلك أن النيران التى صاحبت هجمات البرابرة المتكررة على روما ساعدت على احتراق محتويات تلك المكتبات بينما بقيت المبانى الحجرية صامدة عدة قرون بعد ذلك. ومع انهيار الفكر والثقافة واختفاء أدواتهما، اختفى أى أمل فى مستقبل المكتبات. وفى ظل الخراب العام الذى غلف الإمبراطورية الرومانية تكون كارثة اختفاء المكتبات الرومانية أمراً ثانوياً يمر دون أن يلاحظ أو يتوقف عنده أحد طويلاً. ونحن لا نعرف كيف دمرت المكتبات الثمانى والعشرون الرومانية التى وصفها قنسطنطين عندما وصف مدينة روما.

لقد وضع حكم الملك الغوطى الشرقى تيودوريك ٤٩٣ ـ ٥٢٦م حداً لفترة الانهيار فى إيطاليا. وبدأ ازدهار الفكر من خلال المجهودات التى بذلها ـ بمساعدة كاسيودوروس ـ لإحياء التقاليد الإمبراطورية وتوحيد الثقافتين الجرمانية والرومانية. وأخذت هذه الجهود تؤتى ثمارها ولكن متأخرة. لقد بدأت عملية إعادة جمع الماضى المجيد ـ الذى كان قد ذهب أغلبه بالفعل ـ على يد الأسر النبيلة فى روما. فاستمر المؤلفون الكلاسيكيون من العصر الذهبى يقرءون وتنسخ أعمالهم وتصحح كنوع من إثبات الذات الوطنية وكان على رأس هؤلاء المؤلفين شيشرون، فيرجيل، ليفى. ومن بين الأسر النبيلة العظيمة التى ظهرت فى هذا الصدد أسرة **نيقوماتشى**[2] **وسماتشى**[3] خلال القرن الرابع وأصبح خلفاؤهم فى القرن الخامس مسيحيين وخدموا فى حكومة تيودوريك وتولوا مناصب رفيعة

---

(١) Theodoric The Great .

(٢) Nicomachi .

(٣) Symmachi .

الشأن، ومن ثم بذلوا أقصى ما يستطيعون للحفاظ على تراثهم الفكرى وأصبح نشاط نسخ الكتب التراثية سمة من سمات ذلك الوقت. وإلى جانب ذلك كان هناك التلخيص والترجمة وجمع المتفرق وتصحيح الخطأ وتحقيق المختلف وتحرير النصوص. ولقد تم بالفعل جمع وحفظ جانب لا بأس به من التراث الكلاسيكى فى ذلك الوقت. وظهرت هناك أسماء قيادية فى هذا الصدد حتى من بين الأرستقراطيين والنبلاء[١] من أمثال **سيماخوس**[٢]؛ **بوثيوس**[٣]، **استريوس**[٤]، **مافورتيوس**[٥] ـ وهى أسماء ترددت كثيراً فى إهداءات الكتب ـ وهى أسماء لم تكتف بمجرد إعادة نسخ وإنتاج الكتب ؛ ولكنهم كانوا يقرءون بروفات الكتب بأنفسهم وفى نهاية الكتاب يسجلون عبارة «**لقد قرأته**»[٦]، «لقد فحصته»[٧]، لقد صححته»[٨]. وكثير من هؤلاء الرجال كانت لهم مكتباتهم الخاصة. وكانت مكتبة بوثيوس على سبيل المثال «**جدرانها مزينة بالعاج والزجاج**»[٩] ولقد كتب **إينوديوس**[١٠] بأن مكتبة **فلافيوس بروبوس فوستوس**[١١] القنصل حامل لقب **برايتوريان برفكت**[١٢] سنة ٤٩٠م كانت تشتمل على كتابات لسانت بول إلى جانب الفلاسفة الإغريق والمؤرخين والطبيعين.

لقد تم إحياء الثقافة العلمانية الكلاسيكية خلال القرن السادس ومطلع القرن السابع، وإن لم يتم استغراقها جميعاً ففى خطاب إلى مجلس الشيوخ بعث به

(١) Patricians

(٢) Symmachus .

(٣) Boethius .

(٤) Asterius, .

(٥) Mavorius .

(٦) Legi .

(٧) Recensui .

(٨) Emendavi .

(٩) Comptos ebore ac Vitro Parietes .

(١٠) Ennodius .

(١١) Flavius Probus Faustus .

(١٢) Praetotrian Prefect .

الملك أثالاريك، يطلب الملك من مجلس الشيوخ المساندة الرسمية لإنشاء مدرسة للخطابة والبلاغة ويقول فيه ــ بمساعدة كاسيودوروس ـ بأن دراسة النحو والبلاغة والمؤلفين القدماء والإنشاء من الأمور الضرورية للدولة. كما شرح كاسيودوروس فى خطاب مؤثر له قيمة وأهمية المؤلفين الرومان سواء للدولة أو الحكومة ولإدارة القانون. وقد سجل جريجورى من تورز سنة ٥٨١م أن أب كنيسة من باريس عندما علم برغبة الملك فى تعيينه أسقفاً فى أفجنون، عبر عن خوفه من أن عفته وطهارته قد يصابان بالأذى من ذلك المجتمع المعقد ذى الشيوخ والفلاسفة القضاة. أما فى الولايات الألمانية فقد ظلت الأداة الحكومية فى أيدى الأقلية المثقفة حتى الحقبة الكارولنجية.

إن معرفتنا بالحياة الفكرية فى عهد تيودوريك محدودة بحدود الكتب اللاتينية فى حقبته، أما الإنتاج الفكرى الغوطى فقد بقى فى الظل، ولم يصلنا سوى عمل واحد غوطى من تلك الفترة ألا وهو الكتاب المقدس الغوطى المنسوب إلى **أولفلاس**[(١)] (بالغوطية **فولفيلا**)[(٢)] والذى كتب فى مخطوطات تبدأ تواريخها من الربع الأول من القرن السادس. وقد أعدت منه ثلاث نسخ فى شمالى إيطاليا، ربما فى بو ـ **ابينا**[(٣)] **ورافينا**[(٤)]. وإلى جانب قطع متباينة طرسية منه محفوظة فى تورينو، ميلانو، وولفنبوتل، جرايسن فإن هناك نسخة واحدة كاملة بحالتها الأصلية بعنوان[(٥)] فى أوبسالا وتش حروفها المفضضة واللازوردية وتطعيمها بالذهب والعاج بأنها مكانها كان فى البلاط الملكى نفسه.

٢ ـ كاسيودوروس (٤٨٥ ـ ٥٨٠م تقريباً).

بموت تيودوريك انتهى دور الدولة فى إحياء التراث الكلاسيكى ولم تعد هناك

---

(١) Ulfilas .

(٢) Wulfila .

(٣) Po - Ebena .

(٤) Ravinna .

(٥) Codex Argenteus .

سوى المؤسسات الدينية وخاصة الكنائس والأديرة للقيام بهذا الدور. وكان من الواضح أن شخصاً مثل كاسيودوروس الذى أدار الشئون الإمبراطورية أيام تيودوريك كرئيس للديوان وخدم بإخلاص عدداً من خلفائه كانت لديه خطة تطوير محددة. لقد اعتزل كاسيودوروس الوظائف الحكومية كما أسلفت فى نحو سنة ٥٤٥م لكى يؤسس ديرًا رغم أنه هو نفسه لم يتنسك أو يصبح راهباً. كان كاسيودوروس رومانيًا تحالف مع الغوط وربط نفسه مع تيودورويك وكتب تاريخاً مطولا عن الغوط.

ولكى يحافظ كاسيودوروس على أصله الأرستقراطى الرومانى فإنه لم يكن يقل حماساً وغيرة على الحفاظ على التراث عن أقرانه وأصدقائه ومع ذلك فقد كانت هناك خلافات مبدئية بينه وبينهم حول معايير اختيار الأعمال التى يبدأ بها وبدلاً من البدء بالأعمال ذات الطابع الوطنى والقيمة الأدبية، أخذ فى جمع المفردات ذات الصلة بالحياة المسيحية والتعاليم المسيحية. وهكذا كان بناء مكتبته مسيحياً ولاهوتيا.

وكان لانهيار الإمبراطورية الغوطية بعد وفاة تيودوريك والمعارك الطاغية للسيطرة على روما، أثره الفادح فى دخول إيطاليا فى فوضى لا حد لها. وقد حدا ذلك بكاسيودوروس إلى أن يدير ظهره للدولة ويشعر بأن إنقاذ الفكر والثقافة لا يأتى إلا فى حماية الكنيسة وكان قد فكر فى بادئ الأمر كما شرحت سابقاً فى إنشاء أكاديمية مسيحية فى روما على غرار تلك التى كانت موجودة فى الأسكندرية ونصيبين وإديسا ولكن على أساس أن تتسع مقرراتها ومناهجها لتعليم رجال الدين والدنيا على السواء. وعلى الرغم من أن البابا آجابيتوس[1] كان يساند الفكرة إلا أن الحرب منعت تنفيذها والنتيجة الوحيدة التى تحققت هى إنشاء مكتبة أقامها البابا فى منزل والديه فى طريق **كليفوس سكوارى**[2]. وهذا

(١) Agapetus .

(٢) Clivum Scuari .

الإحباط الذى أصابه فى تحقيق رغباته فى روما جعله يعود إلى مكان إقامة والديه حيث أقام بعد سنة ٥٤٠م دير فيفاريوم على أراض مملوكه لوالديه وقد عين فى الدير اثنين من الآباء لإدارته ولكن القيادة الروحية كانت له وحده.

ولم تكن الحياة فى ديره تنظمها لوائح محددة على الرغم من أن كاسيودوروس نصح الرهبان باتباع القواعد التى وضعها كاسيان[١] الذى نظم الأديرة والحياة الديرية فى جنوبى فرنسا. وكاسيودوروس كان يعلم تماما أنه ضد الممارسات التى يأخذ الرهبان أنفسهم بها إذ كانوا يجهدون أنفسهم فى الصلوات وإنكار الذات والعمل البدنى الشاق. ولم يكن فى نية مؤسسى الحياة الديرية أن يشجعوا النشاط الفكرى وأن يتخذوا من الأديرة مراكز لتعليم اللاهوت والفكر الدينى أو الموضوعات العلمانية وهى الأمور التى كانوا يعتقدون أنها تشغل الرهبان عن تهيئة نفوسهم للأمور السماوية ورغم أن أوغسطين كان يعترف أن الصلاة ودراسة الكتابات المقدسة والعمل البدنى الشاق من أهم واجبات الراهب فإنه لم يكن ليعتزم حمل الرهبان على التفقه فى المعرفة المسيحية واعتبر ذلك من واجباته هو على النحو الذى سجله فى «**النظام المسيحى**»[٢].

وسوف نجد أن كاسيودوروس لم يقدم لرهبانه سوى الحد الأدنى من التوجيهات المتعلقة بالحياة الروحية، ذلك أن هدفه الأساسى كان النشاط الفكرى وليس الحياة الروحية بمفهومها التقليدى عند المسيحيين وإنما حياة الروح. لقد كانت الخدمة الكبرى التى أسداها إلى العالم هى توجيه الأديرة نحو مسئولية حفظ وبعث التراث والمعرفة. وقد اعتبر أن الدرس والبحث ونسخ الكتب بالنسبة للعقل تقف على قدم المساواة مع الصلاة ولا تقل عنها أهمية. وفى قلب عملية الدرس والبحث يقف الكتابات المقدسة التى كانت بالنسبة لكاسيودوروس ليست فقط مادة للقراءة والترتيل والتحقيق بل أيضاً مادة للبحث الفلسفى والتحليل العلمى. وأهم من هذا أكد كاسيودوروس على أن الدراسات العلمانية يجب أن تأخذ مكانها فى مجتمع الرهبان عندما دفع بأن معرفة الآداب والفنون لا غنى عنها لفهم اللاهوت وهى مكملة له.

(١) Casian.

(٢) Doctorina Christiana.

ورأى كاسيودوروس أن من متطلبات الدرس والبحث وجود الكتاب، ومجموعات الكتب أى المكتبة. وكان مصدر تزويد كاسيودوروس بهذه الأدوات ـ الكتب ـ، تجارة الكتب قد دمر تماماً وكان أسهل وأسرع وأكثر واقعية القيام بنسخ الكتب المطلوبة ومن هنا سعى إلى إعداد طائفة متميزة من النساخين[١] وكانت القاعدة الأساسية أمامهم هى دقة النقل عن الأصل ولم تكن تلك القاعدة لتتحقق فقط بالالتزام الأعمى بالنص الأصلى ولكنها كانت تقضى بضرورة الحصول على أقدم وأدق وأحسن نسخة من الكتاب المخطوط. وإن لم يكن هناك نسخة أم فإن أية نسخة متاحة يمكن الاعتماد وعليها ولا يهمل العمل كلية.

وكان على كل أعضاء مجتمع الدير أن يساهموا فى عملية النسخ هذه. ومن هنا أثيرت قضية نقد النصوص وتحقيق المخطوطات وكان لابد من ظهور فئة المحررين[٢] الذين كان عليهم أن يعارضوا النسخ ويقارنوها[٣] ويضعون على هوامشها الملاحظات[٤] بالحبر الأحمر بل وأكثر من هذا يضعون علامات الترقيم[٥]. وكان هناك حرص على أن يكون خط المحقق مشابهاً لخط النساخ قدر الإمكان ـ كلاهما يجب أن يكون جميلاً ـ وأى فروق بينهما يجب ألا تؤذى عين القارئ.

لقد بدأت أولى خطوات نقد النصوص على عينات من الكتاب المقدس وكان كاسيودوروس نفسه مثالاً يحتذى فى هذا العمل الصعب ذلك أنه أعطى وزناً كبيراً للجوانب النحوية والهجائية وعمد إلى ضرورة تصحيحها. ولقد جمع أعمال كبار اللغويين والنحويين القدماء ووضعها فى المكتبة وكان دائم الحديث عن ضرورة تصحيح الأخطاء الإملائية وحتى عندما بلغ سن الثالثة والتسعين فإنه استجاب لطلب الرهبان وألف كتابه «**عن تصحيح أخطاء الهجاء**»[٦] وهو خطوة طيبة للمساهمة فى النسخ الصحيح.

---

(١) Antiquarii, Librarii .

(٢) Notri

(٣) Contuli .

(٤) Annotati .

(٥) Distinixi .

(٦) De Orthographia .

وكان الاتجاه نحو جمع عدد من الكتابات فى الموضوع الواحد فى مجلد واحد لراحة القراء الخطوة الأولى فى إعداد المجلدات الضخمة التى نطلق عليها الآن اسم المجاميع. وكان وجود ورق أبيض فى بعض المجلدات مبرراً لإدراج كتب أخرى داخل هذا المجلد أو ذاك.

لقد كانت هناك قواعد صارمة لإحكام عملية نسخ ونقل النصوص المقدسة والدينية عموماً. وقد وجه كاسيودوروس معظم جهوده فى نقد النصوص وتحقيقها إلى المزامير، ورسائل الأنبياء وأعمال الرسل. ولكنه فى سنواته الأخيرة وجه اهتمامه نحو فحص الكتاب المقدس فى مخطوطاته القديمة وكان أصدقاؤه يقرؤونها له بصوت مرتفع. وكان قد اتخذ من النسخة اللاتينية للكتاب المقدس[١] أساساً لعمله (وهى النسخة التى أعدها سانت جيروم فى القرن الرابع الميلادى للكنيسة الكاثوليكية الرومانية) واعتبرها نسخة أم تستحق أن تحل محل الأصول. ولكنه كان أيضاً يراجع الترجمات اللاتينية الباكرة ونصح بالرجوع إلى النصوص العبرية كلما أمكن ذلك. وكان لديه ثلاث نسخ من الكتاب المقدس فى مكتبته هى:[٢] ذو المجلدات التسع؛و[٣]؛و[٤] ولقد تميزت الكتب المقدسة المنتجة فى فيفاريوم بجمالها ووضوح خطها فقد كانت هناك فواصل بين الكتب والأجزاء[٥] وقوائم المحتويات[٦] يحرص على وضعها فى تلك المجلدات. وكذلك لتسهيل عملية القراءة كانت توضع علامات الترقيم الثلاث[٧]، وتوحيد الجمل ونهايات السطور[٨] وهى الأشياء التى استخدمها من قبل جيروم. وقد وصلتنا نماذج من نقد النصوص الذى قام به كاسيودوروس على الكتاب المقدس فى[٩] المنسوخ فى

(١) Vulgate.

(٢) Corpus .

(٣) Codex grandior Littera Clariore Conscriptus .

(٤) Codex Minutore Manu .

(٥) Copitula .

(٦) Titulibreves .

(٧) distinctio .

(٨) Scriptum per Cola et Commata :

(٩) Codex Amiatinus .

إنجلترا وكان هذا الكتاب قد انتسخ عن الأصل[1] المشار إليه سابقاً فى فيفاريوم والذى أخذ من روما إلى جيرو[2] سنة ٦٧٨م على يد الراهب كيولفرد[3].

وفى كتاب **التعاليم**[4] الذى يعتبره البعض أول لائحة مكتبية وله قيمة كبيرة فى تاريخ المكتبات؛ قاد كاسيودوروس الرهبان إلى طريق النشاط الفكرى. هذه التعاليم مقسمة إلى جزءين: **الأول** خاص بالإنتاج الفكرى الدينى[5] **والثانى** يتعلق بالإنتاج الفكرى العلمانى[6] وهذا الأخير قسم حسب موضوعات المعرفة البشرية. فى هذه التعاليم بجزئيها يقدم كاسيودوروس دائرة معارف كاملة لما ينبغى أن تكون عليه ثقافة الرهبان كما يراها هو. وهو ليس كتاب تعليمات بقدر ما هو دليل دراسى ومقدمة للعلم وهو ببليوجرافية أو دليل بمصادر العلم وأدوات البحث وربما كان فهرساً بما تضمه وتقتنيه وترصده المكتبة فى دير فيفاريوم ولم لا وكل ما سجل فيه كان موجوداً بالمكتبة بدون استثناء. وهكذا فإنه بمساعدة هذا الدليل وغيره من الكتابات التى توفر عليها كاسيودوروس يمكننا أن نتصور ماكانت عليه المكتبة فى هذا الدير ويمكن إعادة بنائها من جديد. لقد كانت فى المكتبة الكتابات الدينية والأعمال الفلسفية والأدبية. كما كانت هناك كتب المؤرخين المسيحيين؛ كتب الجغرافيا العامة، كتب الطب والزراعة، وبوفرة. إلا أننا لا نجد بين مقتنيات هذه المكتبة أعمال الشعراء من أمثال هوراس، مارتيال، جوفينال، والمؤرخين: سالوست، ليفى، تاكيتوس. ولا ندرى على وجه اليقين ما إذا كانت النصوص القديمة الكلاسيكية تنسخ فى الدير أم لا؛ حيث كان التركيز على الجوانب اللاهوتية والعملية فى مقتنيات المكتبة. ولقد كان للخلفية الفكرية لدى كاسيودوروس ـ حيث أفلاطون وأرسطو هم سادة الفكر فى عصرهم ـ أثرها فى

(١) Codex grandior .

(٢) Jerrow .

(٣) Ceolfrid .

(٤) Institutiones .

(٥) Literis divinis .

(٦) Literis Saecularibus .

صبغ مكتبة الدير بصبغة عالمية . وبقدر ما استطاع مؤسس المكتبة فإن فكر الغرب ـ الوثنى والمسيحى، اللاتينيى واليونانى ـ قد تجمع وتوحد فى هذه المكتبة.

لقد وصف كاسيودوروس بنفسه عملية بناء وتنمية المجموعات والعمل الببليوجرافى الذى قام به ويصف لنا كيف كان يأمر بإحضار الكتب والمعاناة التى كان يعانيها فى البحث عن بعضها بلا جدوى. ويصف لنا كيف درس بتأن كتابات الشرّاح العظماء فى المجلدات التسع للكتاب المقدس من نسخة جيروم. وعلى الرغم من أنه قد خلف نسخة قياسية من المزامير فى المكتبة إلا أنه أعد نسخة أخرى قسم فيها المزامير إلى خمسين كتاباً لتسهيل استخدامها من جانب المستفيدين.

وعلى الجانب الآخر قام كاسيودوروس بجمع تفسيرات وشروح جيروم للإنجيل، جميعاً فى مجلد واحد. كذلك قام بالتعليق على رسائل بولين[1] وخاصة فيما يتعلق بأخطاء النسخ وأضاف تعليقاته الشخصية على جانب كبير منها. وقد أمر بإعداد نسخة خاصة من كتاب فورتوناتيانوس[2] عن الخطابة «فى مجلد صغير يمسك فى اليد لتسهيل مهمة القارئ له». وفى ذلك الوقت المبكر سعى إلى الحصول على ترجمات النصوص اليونانية لمكتبة الدير. لقد كانت المكتبة فى فيفاريوم فى سباق مع الزمن فى سبيل جمع الكتب من كل حدب وصوب وكان يساند ذلك عمليات النسخ التى لا تتوقف من جانب الرهبان. كانت المخطوطات تجمع من كل أنحاء إيطاليا ومن إفريقيا وبلاد أخرى كثيرة وكانت عملية الجمع هذه تساندها ثروة كاسيودوروس الكبيرة ونفوذه واحترامه الواسعان.

لقد قال لنا كاسيودوروس أن المخطوطات الإغريقية كانت مركزة فى الخزانة الثامنة بالمكتبة ويفهم من هذا النص أن المكتبة كانت موزعة على عدة خزائن وأنه

(١) Pauline .

(٢) Fortunatianus .

كان هناك الفصل التقليدى بين **الكتب اليونانية**[١] **والكتب اللاتينية**[٢]. وهذا مانستقيه أيضاً من صورة صفحة العنوان فى نسخة الكتاب المقدس المعروفة باسم كراس أمياتينوس[٣] التى أشرنا إليها من قبل وهى مخطوطة الكتاب المقدس التى حملها الراهب كولفريد من روما إلى جيرو وهذه الصورة تمثل قديساً فى وقاره القديم يكتب وهو جالس أمام خزانة كتب. وعلى الرفوف الخمسة للخزانة وضعت المجلدات الثمانية للمخطوط وقد أضيفت إلى الصورة فيما بعد معلومات تفيد أن القديس هو عزرا[٤] وربما أيضاً عنى بها كاسيودوروس حيث يظهر فى الصورة مجلد من حجم الكوارتو يمثل كتاب كاسيودوروس المقدس المشار إليه فى التعاليم بالكراس الكبير[٥].

إن هذه الصورة أو بمعنى أدق الأصل الذى أخذت عنه هذه الصورة، ترجع إلى وقت كاسيودوروس ومن ثم يمكن أن نكون أمام خزانة الكتاب المقدس فى مكتبة دير فيفاريوم. وربما تكون كل خزانة فى المكتبة قد خصصت لكتب موضوع معين حسبما ورد فى التعاليم . وهذا التجميع الموضوعى جاء نتيجة لجهود كاسيودوروس ومحاولاته لجمع مفردات الموضوع الواحد معاً لتسهيل عملية البحث. وتظهر المخطوطات راقدة على الرفوف فى الخزائن أى أنها فى وضع أفقى وليس رأسى كما هو الحال فى أيامنا وتظهر الصورة الشريط القماش الذى يتدلى من الجلود والذى كان يستخدم فواصل للقراءة وهو الأمر الذى كان يشجع عليه كاسيودوروس؛ وكان يعتقد أن الملامح المادية الخارجية للمخطوط يجب أن تعكس جمال المحتويات وجمال الخط الذى كتبت به. وكان هناك كتاب نموذجى مع عينات من الجلود تعرض فى الدير كى يحتذيها مجلدو الدير.

---

(١) Bibliotheca graecea; .

(٢) Bibliotheca Latina .

(٣) Codex Amiatinus .

(٤) Ezra .

(٥) Codex grandior .

وكان المجلدون كما كان النساخ مسئولين عن جمع المخطوطات المتشابهة فى مجلد واحد كبير، وقد ضمت مكتبة الدير مثل هذه المجلدات التى تضم معاً أعمال النحويين والجدليين والموسوعيين.

وكان هناك عدد من المخطوطات ذات الإيضاحيات. كان هناك مخطوط يشتمل على صور النباتات وهو كتاب من تأليف ديوسقريدس بيدانيوس(١). كما كانت نسخة الكتابات المقدس المعروفة باسم الكراس الكبير المشار إليها مرارًا سابقاً بها إيضاحيات وصور. وكاسيودوروس نفسه يتحدث عن صور لمعبد سليمان وخيمته، هذه الصور التى أشار بيديه(٢) إلى أنه رآها فى مخطوطة كولفريد المذكور سابقاً والتى تظهر كذلك فى كتاب أمياتينوس(٣) على صفحة العنوان المومأ إليها.

كذلك فإن مكتبة فيفاريوم كان عليها أن تحتفظ بنسخ من الكتب التى ألفها كاسيودوروس نفسه. وقد كانت تحرر وتنسخ تحت إشرافه وتتخذ كنماذج تحتذى فى نسخ وتصحيح النصوص المعتمدة. ومن الطريف أن المكتبة كانت تستخدم فى الليل بفضل لمبات الزيت الخاصة التى اخترعها كاسيودوروس بنفسه والتى كانت تغذى نفسها بالزيت تلقائيًا، وساعة الماء التى تدل على الوقت دون حاجة إلى ضوء الشمس.

وللأسف فإن دير فيفاريوم - ومن ثم مكتبته - لم يعش بعد مؤسسه إلا لعدة عقود قليلة. وليس هناك تقرير عن مصير المكتبة. ولكن لوجود وجوه شبه عريضة بين المخطوطات فى دير بوبيو(٤) والتى يرجع تاريخها إلى ما قبل كولومبان(٥)، ومجموعة مخطوطات فيفاريوم؛ وجود ذلك الشبه قاد الباحث النمساوى (الفينى) رودلف بير(٦) إلى أن يستنتج أن بعض المخطوطات قد أخذ من فيفاريوم

(١) Dioscorides Pedanius .
(٢) Bede .
(٣) Codex Amiatinus .
(٤) Bobio .
(٥) Columban .
(٦) Rudolf Beer .

إلى ذلك الدير فى شمالى إيطاليا وأيضاً إلى فينا لتنسخ هناك ولكن حتى اليوم لم يقم أى دليل على هذا الفرض. ولكن يبدو أن أجزاء على الأقل - إن لم يكن كل - من مقتنيات مكتبة فيفاريوم قد وجدت سبيلها إلى المجموعة البابوية فى قصر لاتيران، ومنها تشتتت بين المراكز الفكرية فى الغرب سواء الأصول - كما حدث مع الكراس الكبير الذى رحل إلى جيرو - أو نسخ منها. ونجد مصداق ما نقول مع الترجمات من اليونانية التى أمر بها كاسيودوروس.

وفى الحقيقة نحن لا نعرف مدى تأثير كاسيودوروس على بيئته المباشرة فليس له معاونون يستحقون الذكر وليس له خلفاء مباشرون. وهو عندما يشير إلى بعض أصدقائه ومعارفه ويشكرهم من أمثال بلاتور[١]؛ موتيانوس[٢]؛ إبيفانوس[٣] فإنه لايبدو لنا أنه يحدد عملاً تعاونياً أو مشتركاً بينهم فى تحرير أو ترجمة أو شرح أو تفسير النصوص. وتأثير كاسيورورس يتأتى من كتاباته أكثر من علاقاته أو سلوكياته اليومية وإنشائه للدير كحامل لمشعل الفكر والبحث العلمى. ولأن مثله وفكره تبناها البندكيتون ونشروها فى الأديرة الشمالية كلها فمن هنا يقف كاسيودوروس كأهم معلم أوحد فى العصور الوسطى الباكرة محل دراستنا الحالية. وكصاحب اتجاه يجعل من الأديرة مراكز لتوليد الفكر والحفاظ عليه وليست مجرد مراكز للعبادة وممارسة الطقوس والشعائر الدينية.

وقد عرف عن كاسيودوروس طوال العصور الوسطى أنه جامع الشروح المطولة للمزامير، والتاريخ الثلاثى[٤]، بينما خفت ذكر كتاب التعاليم وربما كان ذلك بسبب أنه كان موجهاً أساساً لرهبانه فى وظيفة محددة هى جمع وتوثيق المخطوطات لدير فيفاريوم وكان أضيق من أن يكون هناك اهتمام عام به وقد حلت محله بعد ذلك لوائح وقواعد **ايزيدور الإشبيلى**[٥]

(١) Bellator .

(٢) Mutianus .

(٣) Eipiphainus .

(٤) Historia Tripartita .

(٥) Isidore .

وبيديه[١] **ورابانوس ماوروس**[٢]. وفى الشرق دعا **سانت بازل**[٣] إلى تعليم الرهبان العلوم الدنيوية إلى جانب العلوم الدينية. أما فى الغرب فقد وقف كاسيودوروس وحيداً يدافع عن أفكارة رغم أنه قد وافق سانت أوغسطين فى نظرته إلى البحث العلمى كما وردت فى كتاب النظام المسيحى[٤].

وفى وقت معاصر لأنشطة كاسيودوروس فى فيفاريوم كانت الآداب والفنون تدرس إلى جانب العلوم الدينية فى الأديرة الأيرلندية وكانت المخطوطات تنسخ هناك بنفس القدر من الهمة والنشاط. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تتبع خطوط مباشرة لتأثيره من كالابريا على الشمال، إلا أن كاسيودوروس على الأقل كان نموذجاً ومثالاً يحتذيه الأنجلوساكسون فى القرنين السابع والثامن وفى الحقبة الكارولنجية كان هناك العديد من الأديرة التى تستفيد بكل تأكيد من «التعاليم» على النحو الذى نستقيه من فهرس دير موروباخ الذى يظهر فيه بوضوح اسم دير فيفاريوم. كذلك فإن عدداً كبيراً من سياسات كاسيودروس قد تم تبنيها وتطبيقها فى دير سانت جال حيث نعت أحد الشعراء كاسيودوروس بأنه بطل الكتاب[٥].

لقد بنى فيفاريوم ـ الدير والمكتبة ـ كله من خلال الجهد الشخصى الخالص لكاسيودوروس وعندما اختفى من الصورة اختفى الدير والمكتبة معه. لقد وقف وحيداً يناضل فى فترة الانتقال بين عصرين. ولقد كانت بصمته الحقيقية فى عالم الأديرة هى إضفاء الصبغة البحثية الفكرية عليها وقد بدأ بذلك فى فيفاريوم. ولابد أن نقف بإجلال أمام الخدمة الجليلة التى أسداها للبشرية عندما أمر بترجمة النصوص الدينية والعلمانية من اليونانية إلى اللاتينية وبالتالى حفظها فى كنائس ومدارس الغرب من الاندثار والضياع.

---

(١) Bede.

(٢) Rabanus Maurus.

(٣) St. Basil.

(٤) Doctorina Christiana.

(٥) Libripotens.

٣ ـ إيجبيوس من لوكولانوم وفيكتور من كابوا[١]

ولد إيجبيوس فى نوريكوم[٢] ـ مقاطعة رومانية تقع الآن فى النمسا ـ وكان صديقاً لكاسيودوروس وقد سعى إلى تحقيق أهداف مشابهة. وكان تلميذًا فى دير سانت سيفيرين[٣] وصحب جثمان القديس عندما نقل إلى قلعة **لوكولانوم**[٤] على خليج نابلى حيث قامت النبيلة بربباريا[٥] بتقديم مأوى منعزل له ولطائفته. ولقد أصبح أب دير بين ٥١٠ ـ ٥٣٥م. ومن هنا ارتبط مع كاسيودوروس **وديونسيوس إكسيجس**[٦] وغيرهما.

وقد عرف دير سيفيرين بمكتبته ونشاط رهبانه فى نسخ الكتب. وكان إيجبيوس يطلب الكتب من أماكن مختلفة لنسخها، حتى الكتب كانت تأتيه من إفريقيا ويقال إن تطوير بعض الخطوط تم هنا فى هذا الدير سنة ٥٩٠م.

ولقد قام إيجبيوس بإهداء النبيلة الرومانية بروبا[٧] مختاراته من أوغسطين على أمل أن تقتنيها فى مكتبتها الغنية . وقد شهد القرن السادس الميلادى نسخ المخطوطات لصالح مكتبة إيجبيوس فى الدير والتى كان يطلق عليها باللاتينية[٨]. وقد وصلتنا نسخ متأخرة من هذه المجموعات. ويفخر هذا الدير بأنه كان فى حوزته نسخة من الإنجيل (العهد الجديد) بخط يد سانت جيروم ونسخة من الكتاب المقدس ترجع إلى القرن الثامن (موجود الآن فى باريس تحت رقم ٩٣٨٩) ويظهر من حرد المتن أنها عورضت على مخطوطة إيجيبوس المؤرخة بسنة ٥٥٨م. ويبدو أن كاسيودوروس قد عرف بهذه النسخة من صديقه إيجبيوس واستعارها منه للاستعانة بها فى أبحاثه عن الكتاب المقدس.

---

(١) Eugippius of Lucullanum and Victor of Capua .

(٢) Noricum .

(٣) Severin .

(٤) Castellum Lucullanum (Castella dell Ovo) .

(٥) Barbaria .

(٦) Dionysius Exigus .

(٧) Proba .

(٨) Bibliotheca Eugippi Presbyteri .

ولقد وصلت إلينا الأغانى الدينية والتراتيل التى أنتجت فى دير سانت سيفيرين فى القرن الحادى عشر مما يعنى أن الدير والمكتبة عاشا بعد وفاة مؤسسهما بقرون عديدة على العكس مما حدث فى حالة دير ومكتبة فيفاريوم.

ولقد شغلت دراسات الكتاب المقدس كثيراً من الباحثين فى ذلك الوقت ويستحق الأسقف فيكتور من كابوا الذكر هنا فى هذا الصدد ويقرن مع كاسيودوروس وإيجبيوس حيث أنه هو الذى أمن الترجمة اللاتينية لإنجيل تاتيان[١] وهو الإنجيل الواحد الذى وفق بين **الأناجيل الأربعة الأصلية**[٢]. وقد أرخ مراجعته وقراءته للمخطوط سنة ٥٤٦ و٥٤٧م. وقد عرفت هذه الترجمة بكراس فيكتور[٣] وربما كانت هذه العبارة هى الخط الشخصى الذى وصلنا عن باحث من العصور الوسطى. كما أنه أعطى اهتماماً خاصاً بدراسة الموضوعات العلمانية وخاصة النحو.

٤ ـ بندكت من نورسيا[٤]

بعد أن أسس كاسيودوروس ديره فى فيفاريوم مات معاصرة الأشهر سانت بندكت فى حوالى ٥٤٧م فى مونت كاسينو، الدير الذى أسسه سنة ٥٢٩م. ومن عجائب الصدف أن دير سانت كاسينو الدير الأم لكل الأديرة الغربية أسس فى نفس السنة التى أغلق فيها جوستنيان مدرسة أثينا ـ أكاديمية أفلاطون ـ بعد وجود إستمر زهاء ٩٠٠سنة.

ونحن لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان كاسيودوروس وبندكت قد التقيا شخصياً أم لا فنحن نفتقر إلى دليل رغم أنهما قد تعاصرا فترة من الزمن. ولكن كانت هناك فروق واضحة بين حياتى الرجلين: بين حياة الرجل الأرستقراطى،

(١) Tatian Gospel .

(٢) Unum ex quatour evangelium .

(٣) Victor Codex .

(٤) Benedict of Nurcia .

رجل الدنيا الغارق إلى أذنيه فى الفكر الكلاسيكى وكان همه الأكبر كيف يساعد فى الحفاظ عليه؛ وبين حياة ذلك الهرميتى ذى المستوى التعليمى المتواضع الذى اعتزل الحياة وعاش فى معزله منتظراً الخلاص.

لقد ترك بندكت دراسته فى روما وعاش فى عزلة عن الناس فى أبناين[1] ومن هناك أسس الطائفة الدينية التى أصبحت مسئولة عن حفظ التراث الفكرى الكلاسيكى وبعث البحث العلمى فى العصر الوسيط، رغم أن ذلك لم يكن مقصد بندكت الأصلى عندما أسس هذه الطائفة ومرجعنا فى هذا الصدد نظام بندكت الذى وضعه تحت عنوان «القواعد»[2] حيث لم ينص فيه على شئ من البحث العلمى أو نسخ الكتب على النحو الذى صادفناه عند كاسيودوروس مثلاً. فقط نجد بعض القواعد المتعلقة بالقراءة كنشاط يومى يقوم به الراهب مثل أنشطة الصلاة والعمل البدنى الذى يشغل أوقات الرهبان بما يوحى أنها كانت مجرد نشاطات عامة.

وكان المقصود بالقراءة هنا أن تخدم وظائف الترقية الروحية والسمو الوجدانى، حيث أن النصوص المقروءة كانت تؤخذ من الكتاب المقدس والشروحات الثقة ومن كتابات آباء الكنيسة على النحو الذى نستقيه من الفصل٩، والفصل ٧٣ من النظام. وإلى جانب القراءة خلال شعائر العبادة والطقوس، كانت هناك القراءة خلال الطعام وبعده (الفصل ٣٨)، كما كانت هناك قراءات فى الاجتماعات العامة (الفصل ٤٢) حيث يجلس كل الإخوان معاً فى صمت مطبق. وكانت قراءة يوم الأحد موسعة وإجبارية.

أما القراءات الخاصة (الفصل ٤٨) فقد تمت معالجتها منفصلة عن القراءة العامة. ذلك أن الساعات المبكرة من النهار كانت تخصص للقراءة الفردية. أما باقى الفترة بعد وجبات الطعام فقد خصصت للقراءة أو النوم. وهكذا فإنه اعتماداً على فصول السنة فإنه يتبقى للقراءة الفردية من ثلاث إلى أربع ساعات من الوقت الخصوصى للراهب.

(١) Apennines.

(٢) Regula.

وكانت بداية موسم الصوم تشهد عملية توزيع الكتب، وهى مناسبة سنوية بهيجة يقوم بها أمين المكتبة؛ وحيث يتلقى كل راهب كتاباً عليه أن يقرأه من الجلدة للجلدة. وكل راهب يقرأ فى خلوته وكانت الزيارات ممنوعة البتة. وفى خلال الساعات المحددة للقراءة كان المشرفون على الدير يمرون على خلوات الرهبان للتأكد من انغماسهم فى القراءة وينزلون العقاب بالمهملين.

والفصل الأخير من النظام (الفصل ٧٣) يتحدث مرة أخرى عن أهمية القراءة ولكنه لا يقدم قائمة موسعة بالكتب التى يجب قراءتها. وليس هناك أبداً أية إشارة إلى نسخ الكتب أو الفكر العلمانى، وذلك أن بندكت لم يفكر إلا فى القراءة الدينية[١] (المقدسة). وكانت القراءة والعمل[٢] بالنسبة له مواكبة تماماً لمثل ونظريات الحياة الديرية المبكرة كما وردت عند الكاسيان، ولم يقصد بها أى غرض آخر ولم يكن يرغب فى أن يقود أتباعه فى أى اتجاه جديد آخر. وقد كان بندكت متأثراً إلى أبعد حد بالكاسيان ومن ثم فإن نشر الفكر الكلاسيكى والحفاظ إليه لم يكن مطروحاً أصلاً عند بندكت. ولكن الذى حدث هو أن الإخلاص للنظام كان يتطلب بالضرورة وجود مخزون من الكتب فى كل دير. وفى الأحوال التى يكون فيها مئات من الرهبان لابد وأن يكون عدد الكتب كبيراً. وكان إعداد هذه الكمية من الكتب مستحيلاً بدون وجود منسخ داخل الدير. ولأن النظام لم يكن ليسمح بالملكية الخاصة للكتب فقد أصبحت مكتبة الدير هى المكان والمصدر الأساسى للحصول على الكتب وهو الأمر الذى أدى بالضرورة إلى تكوين مكتبات الأديرة.

ولتوحيد عملية القراءة كان لابد من تحديد عدد محدود من الكتب ولكن بنسخ كثيرة من كل كتاب. ومجموعات بهذا الشكل لم تكن لتشكل مكتبة بحث أو دراسة علمية. وسكوت مؤسس الطائفة عن قضية التعليم والبحث لا يعنى أنه كان ضد ذلك وإنما كان يعنى نوعاً من الاعتدال والتوسط الروحى.

---

(١) Lectio Divina .

(٢) Lectio et meditatio .

لقد كان دير مونت كاسينو مجتمعا للرجال العاديين ـ عكس دير فيفاريوم ـ لذين عاشوا من عمل أيديهم. وربما لم يكن سانت بندكت نفسه قسيساً. أما سألة التحول من حياة العمل اليدوى إلى النشاط الفكرى والروحى الكامل فقد تمت بعد تدمير مونت كاسينو على يد اللومبارد سنة ٥٨٥م وهروب الرهبان إلى روما؛ إذ أن حياة المدينة جعلت من العمل اليدوى أمرًا مستحيلاً وتحول الرهبان إلى العمل الفكرى بناء على نصائح البابا جريجورى الأكبر أحد أعضاء الطائفة نفسها. هذه الأحداث وتأثير الأفكار الجديدة، خاصة تلك الواردة على روما من الجزر البريطانية كان لها الفضل فى إدخال الصيغة البحثية والدراسية إلى حياة الطائفة والتزاماتها إزاء إنشاء المكتبات.

وبالتالى أصبحت الأديرة البندكية هى المعاقل الوحيدة للبحث والمعرفة فى العصور الوسطى الباكرة.

٥ ـ روما

فى الوقت الذى دمرت فيه المكتبات الوثنية خلال القرن الرابع الميلادى، كانت المكتبات التى تنشأ فى الكنائس المسيحية الجديدة تحل محل تلك التى دمرها ديوقليد. وكانت هذه المكتبات الكنسية هى أول أنواع المكتبات فى العصور الوسطى.

مجموعة البابا وقصر لاتيران

بالقرب من مسرح بومبى أقام البابا **داماسوس الأول**[١] ٣٦٦ ـ ٣٨٤م أرشيفًا فى كنيسة سان لورنزو كان مسئولاً عنه. هذا الأرشيف كان يضم بلا شك مجموعة من الكتب وهناك تساؤل عما إذا كان لهذا الأرشيف أهمية خارج الإقليم، وعلى أية حال لقد كان هذا الأرشيف منفصلاً عن مجموعة الوثائق القديمة التى نشأت فى المركز الإدارى للكنيسة أى قصر لاتيران. هذا القصر الذى عمله قسطنطين للبابا سلفستر ٣١٤ ـ ٣٣٥م كان يعرف باسم **بطريركية لاتيران**[٢]

(١) Damasus I .

(٢) Patriarchium Lateranense .

وأصبح مقر إقامة البابا. وكان البابوات بعد أنوسنت الأول ٤٠١ ـ ٤١٧م يشيرون إلى الأرشيف باسم أرشيف لاتيران وترددت أسماء أخرى باللاتينية للإشارة إليه **كمصدر للتاريخ البابوى**(١).

هذا الأرشيف هو الآخر كان يشتمل على مخطوطات فقد أودع البابا جيلاسيوس الأول(٢) ٤٩٢ ـ ٤٩٦م كتاباته التى يعارض فيها **نسطوريوس وإيوتيكس**(٣)؛ كما أودع فيها البابا جريجورى الأكبر ٥٩٠ ـ ٦٠٤م كتابه الشعائر(٤) والبابا **فيرجيليوس**(٥) ٥٣٦ ـ ٥٥٥م القصيدة البطولية(٦) التى أهداها إليه الشاعر إراتور(٨). وربما تكون مكتبة داماسوس الأول قد أودعت. أيضاً فى هذه الخزانة التى أطلق عليها اسم المكتبة الكبيرة(٨). ومع ذلك فإن الفرضية التى تقول بأن مكتبة داماسوس قد نقلت من قصر داماسوس إلى قصر لاتيران فى وقت مبكر لم يقم عليها دليل حتى الآن فى المصادر التاريخية.

ويتضمن كتاب(٩) سلسلة البابوات المتعاقبين الذين ساندوا تنمية هذه المكتبة بدءاً من كيليستاين الأول(١٠) ٤٢٢ ـ ٤٣٢. ومن الناحية الرسمية كانت المكتبة جزءاً من الأرشيف. ولكن هناك من الدلائل فى القرن السابع مايشير إلى أن ثمة

---

(١) Scrinium, Archivum, Chartarium , bibliotcca romanae ecclesiae, apostolicae pedis.

(٢) Gelasius I.

(٣) Nestorius et Eutyches.

(٤) Homiles.

(٥) Virgilius.

(٦) De actibus apostolorum.

(٧) Arator.

(٨) Multitudo Librorum.

(٩) Lidir Poutificalis.

(١٠) Celestine I.

فصلاً بين الإثنين قد حدث على أساس من الوظيفة والموضوع وذلك فى فترة مبكرة وربما كان ذلك من خلال الإصلاحات التى قام بها جريجورى الأكبر الذى قنن وظائف الأرشيف وأناط به حفظ وثائق المجلس الكنسى وحواصر الرسائل البابوية وإن كنا لا نملك معلومات عن اتجاهات البابا جريجورى إزاء المكتبة ولكننا لو جمعنا التقارير المختلفة التى تعكس رغبته فى الكتب وحبه لها، فإنه يظهرجلياً لنا أنه أحب الكتب والفكر أكثر من أى بابا آخر خلال الألف الأولى للمسيحية؛ على الرغم من حبه وميله لبندكت وإعراضه عن الثقافة العلمانية.

لقد أودع جريجورى كما أسلفت كتابه الشعائر فى المكتبة وقدم على سبيل الهدية كتابه المحاورات وبعض الأناجيل المجلدة تجليداً فاخراً إلى مكتبة اللومبارد ثيوديلند[1] وقد استجاب لطلبية الكتب التى طلبتها ملكة الفرنسيين برونهلد[2] وأصدقائه الأسبان من أمثال ليسميان وليالندر[3]، كذلك أمد البعثات الإنجليزية بالمخطوطات كما أنه لم يدخر وسعاً فى تلبية طلبات الكتب التى كانت ترد من أقاصى العالم المسيحى وعلى سبيل المثال فإنه قد بحث كثيراً دون جدوى عن كتاب «أعمال الشهداء»[4] فى مكتبة لاتيران ومكتبات روما الأخرى حسب طلب **إيولوجيوس السكندرى**[5]. وقد حاول أيضاً العثور ولكنه فشل على كتابات **سانت ايريناؤس**[6] التى طلبتها كنيسة ليون. وقد نظر إليه على أنه مؤسس المكتبة فى ديره الذى أسسه على تل كايلوس باسم **سانت اندرو**[7] (ويسمى التل الآن جبل لاتيران بين البلاتين والأفنتين). ويعتقد أنه مؤسس مكتبة لاتيران التى أعيد إكتشافها فى قدس **الأقداس**[8] ورغم كل هذه الاستنتاجات فليست هناك معلومات موثقة تكشف عن دور هذا البابا العظيم فى إنشاء المكتبات.

(١) Theodelind .

(٢) Brunhilde .

(٣) Liciman and Leander .

(٤) Acts of the Martyrs .

(٥) Eulogius of Alexandria .

(٦) St. Irenaeus .

(٧) St. Andrew at Caelius .

(٨) Capella Sancta Sanctorum .

ولانصادف أى ذكر لمكتبة قصر لاتيران إلا بعد وفاة جريجورى ذلك أن محاضر جلسة المجلس الكنسى لسنة ٦٤٩م تتضمن قائمة طويلة بالكتب التى طلب البابا مارتين الأول[١] من رئيس الأرشيف أن يحضرها من المكتبة الملحقة. وقد ألقت الأبحاث الحديثة كثيراً من الشكوك حول دور المكتبة البابوية فى بعث وحفظ الفكر الكلاسيكى وخاصة اليونانى منه؛ وإن كانت مكتبة لاتيران قد لعبت دوراً كبيراً فى نشر الفكر المسيحى والحفاظ عليه فى الغرب كله فى فترة مبكرة من العصور الوسطى.

لقد عهد بإدارة المكتبة إلى الرئيس[٢] الذى كان رأس الأرشيف والديوان. وكان هذا هو الحال فى القرن السابع الميلادى على النحو الذى نستشفه من واجبات **ثيوفيلاكتوس**[٣] رئيس الأرشيف المذكور سابقاً. وكان البابا **سرجيوس الأول**[٤] ٦٨٧ ـ ٧٠١م هو أول من كسر هذه القاعدة ونقل مسئوليات المكتبة إلى الخازن[٥]. ومن الواضح أن الفصل الكامل بين الأرشيف والمكتبة قد تم على يد البابا أدريان الأول[٦] الذى عثرنا على اسم أول أمين مكتبة فى عهده وكان أيضاً باسم ثيوفيلاكتوس (٧٨١م) وقد خلفه شخص آخر فى أمانة المكتبة باسم ليو[٧] سنة ٨٢٩م وقد ذكر على أنه «ليو: قسيس وأمين مكتبة الكنيسة المقدسة فى روما»[٨]

لقد كان الأرشيف والمكتبة مفتوحين للعامة طبقاً لما قال به جيروم وحيث كانت الرسائل البابوية يمكن الإطلاع عليها من جانب أى باحث أو قارئ. وقد أودع جريجورى الأكبر كتابه: **الشعائر** «حتى يقتنع القارئ المتشكك بأن هذه هى النسخة الأصلية الصحيحة». والزعم بأن المكتبة كانت مصنفة طبقاً لنظام اقترحه

---

(١) Martin I

(٢) Prinicerius .

(٣) Prinicerius notariorum: Theophylactus .

(٤) SergiusI , 687 - 701 .

(٥) Saccellarius .

(٦) Adrian I .

(٧) Leo .

(٨) Leo: aepiscopus et bibliothecarius s. romanae ecclesiae .

البابا جيلاسيوس[١] فى أحد منشوراته لم يقم عليه دليل. وربما كانت كتب الهراطقة تعزل عن كتب المسيحية، وهذا هو الترتيب الذى نستشفه.

ولقد كشفت الحفريات التى أجريت فى قدس الأقداس[٢] وهو الجزء الوحيد الباقى من قصر لاتيران القديم عن مكان مكتبة لاتيران القديمة الباكرة. ففى سنة ١٩٠٠ كشف عن حجرة بها لوحة جدارية تمثل قارئاً جالساً أمام كتاب مفتوح وتدل النقوش على أن تاريخ الإنشاء يرجع إلى وقت قريب من أوغسطين واللوحة كلها ترجع إلى القرن السادس وتدل على أن الديكور هو لقاعة مكتبة مسيحية باكرة. وكان البابا زاخاريوس الأول ٧٤١ ـ ٧٥٢م الذى أسس قصر لاتيران لديه بلكونات[٣] ذات أعمدة وبرج فيه قاعة طعام[٤] جدرانها مزخرفة بمناظر وأبيات شعر فى مواجهة قاعة المطالعة[٥].

٦ ـ بازليكا سانت بيتر[٦]

جرت العادة على تخزين الوثائق ذات الأهمية الخاصة مثل المنشورات والقرارات البابوية، والهدايا التى ترد من بيبين[٧] وشارلمان[٨] والمراسلات من امبراطور بيزنطة إلى البابا فى روما، جرت العادة على تخزينها فى مقبرة سانت بيتر، كان ذلك يحدث بقصد نقلها فيما بعد إلى أرشيف البازليكا حيث لم يكن هناك متسع فى قاعة الاعترافات إلا لكمية محدودة. وكان أول ذكر لاستخدام قاعة الاعترافات كمستودع قد ورد فى عهد البابا ليو الثانى ٦٨١ ـ ٦٨٣.

---

(١) Pope Gelasius: De Libris Recipiendis et non Recipiendis.

(٢) Cappella Sancta Sanctorum.

(٣) Particus.

(٤) Tricilinium.

(٥) Scrinium.

(٦) St. Peter Pasilica.

(٧) Pepin

(٨) Charlemagne.

كذلك جرى ذكر مكتبة سانت بيتر فى فترة مبكرة. ففى نحو سنة ٦٤٦م أو ٦٤٩م رحل الأب تايوس[١] من سراقوسة إلى روما بناء على طلب الملك الغوطى الغربى كنداسونث[٢] ٦٤٠ - ٦٤٩م للبحث عن كتابات معينة للبابا جريجورى الأكبر حيث لم تكن هذه الكتابات متاحة فى أسبانيا. وقد نجح فى مهمته وعاد إلى أسبانيا ومعه الكتابات المطلوبة. وهذه الرحلة التى قصد بها اصطياد بعض المخطوطات موثقة فى خطاب بين الأب تايوس ومعاصره بروليو[٣].

وتذكر بعض المصادر فى القرن التالى (الثامن) أن المخطوط المقصود كان هو كتاب الأخلاق[٤] الذى لم يكن متاحاً فى أسبانيا وقد بحث عنه تايوس فى قصر لاتيران فى مكتبة الكنيسة الرومانية وفى الأرشيف البابوى. ولم يكن ليستطيع العثور على بغيته وسط العدد الكبير من المجلدات، ولكنه عثر عليه بعد ذلك فى قاعة المطالعة الخاصة بسانت بيتر بعد رؤيا رأها فى منامه كشفت له عن مكان الكتاب. وإذا استبعدنا الجانب الأسطورى فى هذه الرواية فإننا نستنتج منها وجود مكتبتين بابويتين.

وقد وصلتنا معلومات أخرى عن أن كيولفرد الأنجلوساكسونى إعتزم إيداع كتاب إمياتينوس[٥] (حوالى سنة ٧٠٠م) فى قاعة الاعترافات فى بازليكا سانت بيتر. كما أن البابا زاخاريوس ٧٤١ - ٧٥٢م أهدى محاضراته العامة إلى المكتبة البابوية. وكانت مكتبة الطائفة لسانت بيتر تضم فقط الكتب الدينية فى البداية إلى أن تلقت هدية مكونة من ٣٥٠مخطوطاً قدمها الكاردينال جيوردانو أورسينى[٦] (١٤٣٤م) مما وسع دائرة مجالاتها ولكن بعد فترة طويلة.

---

(١) Taiys .

(٢) Kindaswinth .

(٣) Braulio .

(٤) Moralia .

(٥) Codex Amiatinus .

(٦) Giordano Orsini .

٧ ـ كليفوم إسكورى[١]

على المنحدر الشمالى لتل كايليان[٢] وعلى الطريق القديم من كليفوس إسكورى قام جريجورى الأكبر بتحويل قصر والديه إلى دير على روح سانت أندرو، وترهب فيه. كان ذلك قبل أن يصبح البابا فى سنة ٥٩٠م. ولقد وصلنا نقش جدران المكتبة فى دليل سياحى أعد عن الولايات البابوية بواسطة رهبان دير ريشيناو. يقول النقش: «فى مكتبة سانت جريجورى فى الدير الذى فى كليفوم وحيث كتب **محاوراته**[٣] يمكن أن نرى الآتى:

جسد القديس المبجل يجلس فى صف طويل

يدرس كلمات قوانين الله السرمدية.

إنه آجابيتوس[٤] الذى يجلس بين القديسين، إنه حقا قسيس

هوذاك الذى أسس مكاناً جميلا لتسكين الكتب.

لقد كانت غرفة مكتبة على الطراز المسيحى القديم بزخرفات على الجدران فوق خزائن الكتب وتعكس هذه الصور عدداً متعاقباً وكبيراً من المعلمين المسيحيين ومثل ذلك المعلم المسمى أجابيتوس الذى أعطى مكان الصدارة بين المعلمين ينزل مؤسس المكتبة تلك المنزلة. وهناك تشابه فى الاسم بين هذا المعلم وبين أحد البابوات الباكر: آجابيتوس الأول ٥٣٥ ـ ٥٣٦م ولقب القديس هنا يشير إلى مكانته كأسقف رومانى. ولقد كان بيت آجابيتوس على نفس التل (كليفوس إسكورى. وبالإضافة إلى ذلك نحن نعلم من كتابات كاسيودوروس أنه عندما كان رئيس ديوان تيودوريك، خطط هو والبابا لإنشاء كلية للاهوت ولكن الأيام العاصفة خلال الحروب المدمرة عطلت تنفيذ المشروع ككل ولكن رغم ذلك فقد نفذ جانب منه ألا وهو إنشاء المكتبة التى سميت باسم المكتبة الرومانية[٥] التى

---

(١) Ad Clivum Scouri .

(٢) Caelian Hill .

(٣) Dialogues .

(٤) Agapetus .

(٥) Bibliotheca romanae .

خشى كاسيودوروس أن تكون قد دمرت أثناء هجمات البربر وتدمير المدينة على يد الملك توتيلا[١] سنة ٥٤٦م. ومن الواضح أن تلك المكتبة التى أسسها البابا آجابيتوس كانت مكتبة بحث مثل تلك التى أسسها كاسيودوروس فى فيفاريوم ولم تكن مرتبطة بأى أرشيف وثائقى. لقد أقام جريجورى المبنى بجانب الدير وقد رسمت الخطوط العامة للمبنى ـ المستطيل مع نهايات مستديرة ـ من جديد عن طريق الأبحاث الأثرية. ومن المؤكد أن الكتب كانت ماتزال فى المكتبة عندما نقل ذلك الزائر نص النقش السابق ذكره فى القرن السابع الميلادى.

٨ ـ روما وتجارة الكتب

رغم الخراب الذى حل بروما خلال قرون الاضطراب والغزو فقد بقيت مركز تجارة المخطوطات فى أوربا وقبل ذلك، وفى أيام السلام كانت روما عاصمة العالم المسيحى ومقصد أعداد لا تحصى من الحجيج، يأتون لزيارة مقابر الرسل أو إكليريين متعطشين للمعرفة يقتفون أثر كلية اللاهوت التى أسسها جريجورى الأكبر. ومنذ القرن السادس زادت أعداد الحجيج زيادة ضخمة وخاصة من الشمال إلى حد الهجرة. وفى روما التفت دور الضيافة من مختلف الجنسيات حول الفاتيكان بدرجة لافتة للنظر. لقد كان الحجاج عند عودتهم يأخذون معهم هدايا تذكارية. ومع هذا فقد كانت رحلة الحج تعتبر بعثة رسمية لشراء الكتب لأحد الأديرة. وقد سبق أن ذكرت شيئاً عن الأسبانى تايوس الذى جاء إلى روما للبحث عن الكتب وشرائها.

لقد قامت روما بسد حاجة مقاطعات الشمال من الكتب ولقد كان الأنجلوساكسون من الحجاج الدائمين. وكان ملكهم إينا[٢] هو مؤسس أول مدرسة فى بورجيا سنة ٧٢٧م. وهى التى تحولت فيما بعد إلى الـ زينودكيوم[٣] سانت سبيريتو فى ساسيا[٤].

(١) Totila .

(٢) Ina .

(٣) Xenodochium .

(٤) St. Spirito in Sasia .

ولم يكن الفرانكيون بأقل تردداً على روما من الأنجلوساكسون. لقد كانوا مرتبطين بروما منذ كلوفيس[1]؛ وكانت دار ضيافتهم فى روما محط رعاية سانت بيتر لفترة طويلة قبل أن يقوم شارلمان بذلك.

وربما كان من بين الحجاج الفرانكيين الراهب الذى صادفناه من قبل يجمع النقوش من مكتبة آجابيتوس. ويصور لنا الدليل السياحى الذى أعده تحول مدينة روما من مدينة وثنية إلى مدينة بابوية وهو فى الحقيقة مصدر فريد للمعلومات عن طبوغرافية روما. ولقد لعبت دور الضيافة فى روما دوراً هاماً فى هجرة الكتب من روما إلى الشمال.

لقد تحمل البابوات مسئولية إنشاء مكان مركزى للكتب المدونة اللازمة لعموم الكنائس ولإمداد الصابئين الجدد فى الشمال بالكتب للعبادة والتعليم. ولقد رأينا من قبل جانباً من نشاطات البابا جريجورى فى هذا الصدد. وفى سنة ٦٤٩م أثناء اجتماع مجلس الكنيسة فى روما، جاءت طلبات كثيرة تطلب كتباً من مكتبات ومناسخ المدينة. لقد كتب البابا مارتن الأول إلى سانت أماندوس[2] فى إلنو - الذى كان قد زار روما سنة ٦٣٠م وعاد بهدايا تذكارية - يخبره بأن طلباته من الهدايا التذكارية أمكن تحقيقها أما طلباته من المخطوطات فإن من الصعب العثور عليها، لأن مخزون النسخ قد نفد وليس هناك وقت لإعداد نسخ جديدة. وقامت الأم[3] جبرترود (توفيت ٦٥٩م) بتأمين المخطوطات لديرها فى نيفيل[4] كما قام واندريل[5] (سانت فيما بعد) مؤسس كنيسة فونتانيل[6] بارسال ابن أخيه جودو إلى البابا فيتاليان[7] ٦٥٧ - ٦٧٢م لإحضار مجموعة هدايا تذكارية لكنائسه

---

(١) Clovis .

(٢) Amandus in Elno .

(٣) Abbess .

(٤) Nevilles .

(٥) Wandrille .

(٦) Fontanelle .

(٧) Vitalian .

الجديدة ولقد عاد إلى دير نورمان مزوداً بالهدايا التذكارية المطلوبة ومعها هدية إضافية: حمل بعير كبير من كتب.

وللأسف لا تتحدث المصادر عن هجرة الكتب إلى الشمال إلا فيما ندر وبطريقة عرضية كتلك التى عرضنا لها سابقاً. على الرغم من أن عدد الكتب والمؤلفين التى تشى بأن مصدرها إيطاليا وخاصة روما ونابلى كبير. إنه من هناك حملت المخطوطات المكتوبة بالأونسيال ونصف الأونسيال[١] إلى الشمال: إلى فرنسا وإلى أديرة اللوار وبيكاردى وانجلترا، تلك المخطوطات التى عرفت هناك باسم الخطوط الرومانية[٢]. وفى البداية كانت الطلبات ترتكز على الكتب الدينية ولكن القرن الثامن شهد بداية طلب الكتب الكلاسيكية القديمة والعلمانية، يدلنا على ذلك شحنة الكتب التى بعث بها البابا بول الأول إلى بيبين سنة ٧٥٧م. ولقد وضعت الفترة الكارولنجية والأوتونية حداً لغربة الغرب عن تراثه الكلاسيكى.

٩ ـ الجالية اليونانية فى روما

لقد كان خط الدفاع الوحيد الباقى ضد طرد الحياة الفكرية بعد وفاة جريجورى الأكبر هو الجالية اليونانية فى روما وكانت هذه المستعمرة تقع على نهر التيبر بين البلاتين والأفنتين. وكانت هذه الجالية مدعومة من قبل الملكية البيزنطية. لقد كان تيار المنفيين الذى لا ينقطع والهاربين أمام الزحف العربى والهاربين من الضغوط الفكرية والثقافية الأخرى يفرون فى اتجاه الغرب وبذلك يستمر الربط بين الغرب والدولة البيزنطية وحضارتها. وكان التزام هذه الجالية بالبحث العلمى والدرس مما أكسب سكانها احتراماً وتقديراً خاصاً فى أعين الإكليريين الرومان وجعلها تفرز عدداً من البابوات المهمين بين ٦٤٢ و٧٥٢م.

لقد كانت للإغريق مناسخهم ومكتباتهم الخاصة كما كانت لهم مدارسهم وكنائسهم

---

(١) Uncial, Half Uncial .

(٢) Littera Romana .

بل وأديرتهم. لقد أرسل البابا بول الأول[1] إلى بيبين بعض المخطوطات الإغريقية من بينها بعض كتابات أرسطو وديونيسيوس الآريوباجيتى[2] وكان من الواضح أن هذه النسخ قد أنتجت داخل المدرسة اليونانية فى روما[3]. والمخطوطات التى وصلتنا من أعمال الجالية اليونانية تكشف عن أن الباحثين هناك كانوا نشطين فى عمل نسخ باليونانية وترجمات لاتينية من الأعمال الإغريقية الأصلية. ومن بين هؤلاء المترجمين كان زخاريوس آخر وأهم البابوات الإغريق ٧٤١ ـ ٧٥٢م؛ الذى ترجم محاورات جريجورى؛ والذى بنى قاعة المطالعة فى قصر لاتيران وراعى المكتبة فى سانت بيتر.

أنحاء متفرقة من إيطاليا خارج روما

بعد تحلل دير فيفاريوم، بقى الدير الذى بناه بندكت فى مونت كاسينو سنة ٥٢٩م، مركز الثقافة اللاتينية الوحيد فى الجنوب. وإذا وضعنا فى اعتبارنا العدد الكبير من الرهبان فى ذلك الدير فإنه لابد وأن تكون فيه مكتبة كبيرة من حجم معقول يتناسب مع عدد هؤلاء الرهبان فى الدير فى مرحلة مبكرة من إنشاء الدير. ولابد أن تكون قراءات هؤلاء الرهبان ذات طابع ترفيهى طالما أن طابع الرَّهبنة والحياة الديرية البندكتية/ الجريجورية والظروف الخارجية للدير لم تتطلب ولم تساند الأنشطة البحثية أو الفكرية، كأنشطة هامة فى الدير. وعندما اضطر الزحف اللومباردى الرهبان إلى الفرار باتجاه الشمال سنة ٥٨١م فإنهم حملوا معهم التعاليم* التى كتبها بندكت بخط يده والمعروفة باسم «القواعد»[4]. وقد منحوا الحماية والأمن فى روما على يد البابا جريجورى الأكبر فى قصر لاتيران. وكانت عودتهم إلى مونت كاسينو سنة ٧١٧م بداية فترة إعادة بناء لهم استمرت حتى الحقبة الكارولنجية.

---

(١) Paul I .

(٢) Dionysius the Areopageti .

(٣) Schola Graeorum .

(٤) Regula .

١٠ ـ الإمبراطورية اللومباردية:

عمد الحكام اللومبارديون المتأخرون إلى مزج عناصر الثقافة الجرمانية واللاتينية معاً وبعد تحولهم إلى الكاثوليكية أصبح تأثير الثقافة اللاتينية أقوى حيث أدرك اللومبارديون أن التعليم والثقافة الخاصة بالشعوب المغلوبة أقوى وأكثر تفوقاً من تعليمهم وثقافتهم هم المنتصرون. وفى **بلاط بافيا**[١] ازدهرت الفنون والآداب وكان طلاب المدارس العليا يتعلمون اللغة اللاتينية والكتب الكلاسيكية. هذه البيئة أنتجت شخصاً مثل بول الشماس[٢] أحسن المثقفين اللومبارديين. وفى هذا الوقت برهنت الأميرة البافارية العازفة ثيوديلندا (ت ٦٢٨م) للملك اللومباردى أجيلولف[٣] على أنها شخصية ذات أهمية وشأن. ولقد شيدت قصرها فى مونزا وزخرفته بقطع فنية لومباردية وألحقت بالقصر كنيسة فخمة. وكان من بين الذخائر التى زودت بها كنيستها: الكتب. وماتزال الكاتدرائية فى مونزا تحتفظ بجلدة كتاب مزخرفة قدمها لها جريجورى الأكبر.

ويحق للإمبراطورية اللومباردية أن تفخر بمناسخها ومكتباتها المعروفة والتى من بينها تلك التى وجدت فى كيفاتى[٤]؛ نونانتولا، مونت أمياتى والتى أسسها جميعاً الحكام اللومبارديون، بينما أديره أخرى كانت موجودة ولكنها لقيت الحماية والدعم من الحكام اللومبارديون ومن بينها: بوبيو؛ فارفا، ومونت كاسينو.

١١ ـ دير بوبيو[٥]

توفر سانت كولمبان سنة ٦١٤م على بناء دير بوبيو وحصل على حماية ورعاية الملك أجيلولف والأميرة ثيودلندا. ولقد كان هذا الدير مصدر أكبر إشعاع فكرى

---

(١) Pavia Court .

(٢) Paul the Deacon .

(٣) Agilulf .

(٤) Civati; Nonantola; Montė Amiati .

(٥) Bobio .

فى كل إيطاليا حتى حل محله دير مونت كاسينو فى القرن الحادى عشر. ذلك أن ثقافة المؤسس ومتطلبات القراءة اليومية للرهبان لا تدع مجالاً للشك فى أن كولومبان قد اعتبر المكتبة من أهم مكونات الدير.

ونحن لا نعرف شيئاً عن المخطوطات الأولى فى هذا الدير. ومعظم المخطوطات التى وصلتنا من هذا الدير ليست من بين أوائله. وصلنا كتاب الصلوات(١) (الآن فى باريس تحت رقم ١٣٢٤٦). وكتاب مجموع الصلوات(٢) (الآن فى أمبروزيانا وميلانو) والذى يقال أنه أنتج فى بانجور بين ٦٨٠ - ٦٩١م وربما أحضر إلى هذا الدير فى شمال إيطاليا بعد مداهمة الدنمركيين(٣) لبانجور سنة ٨٢٤م.

لقد بدأ تكوين مجموعات المكتبة بعد وفاة كولومبان على يد خليفته أتالا(٤) (٦١٥م) الذى طالب بتجليد المخطوطات، كما كان الحال فى فيفاريوم، وكانت المخطوطات تجلب للدير من بعيد ربما من أسبانيا أو أفريقيا.

وهناك من الدلائل ما يكشف عن وجود عناصر أجنبية أثرت فى إنتاج هذا الدير من الكتب فى المنسخ الخاص به فهناك عدة مخطوطات أنتجت فى هذا المنسخ كتبت بالخط الأيرلندى. وهذا التوفيق بين الخطوط داخل القارة وخارجها (أى بين خطوط شمال إيطاليا والميروفنجى) يكشف عن احتمال وجود نساخ أيرلنديين فى بوبيو. وبنفس الطريقة فإن علاقات كولومبان الوثيقة مع الأديرة الفرنسية نتجت عن تعيين خليفة له من الفرنسيين كأب فى الدير.

وعلى الرغم من أن السجلات الرسمية للدير لا تذكر أنه كان هناك مشروع لإعادة استخدام مواد الكتابة المستعملة القديمة التى تحمل معلومات كلاسيكية لكتابة معلومات دينية عليها، إلا أن الطروس الإثنين والعشرين التى وصلتنا من هذا الدير تؤكد ذلك على الأقل خلال القرنين الأولين من حياة الدير. وعلى

(١) Bobio Missal .

(٢) Bangor Antiphonary .

(٣) Danes .

(٤) Athala .

العكس فإن هذا السلوك من جانب رهبان هذا الدير أدى إلى حفظ عدد من كتب الكلاسيكيين فلقد أدت الأبحاث التى جرت فى القرن التاسع عشر إلى اكتشاف عدد من النصوص الثمينة مثل كتاب **الجمهورية لشيشرون**[1]، وقطع من **أمبروزيانا أولفيلاس**[2]، **كراس كارولينوس**[3]، كلها اكتشفت فى طروس وولفنبوتل، كما اكتشف طرس آخر فى مكتبة فينا مختفياً تحت كتابة أحد رهبان بوبيو.

إن طروس دير بوبيو التى وصلتنا وتوزعت على مكتبات عديدة فى تورينو، ميلانو (مكتبة أمبروزيانا)، روما (مكتبة الفاتيكان) فينا، وولفنبوتل وغيرها من الأماكن والتى ترجع إلى ما قبل وقت سانت كولومبان، قد خضعت لبحث ودراسة مستفيضين. لقد ذهب رودلف بير إلى أن أصول طروس دير بوبيو وفيرونا يمكن أن ترد إلى مكتبة دير فيفاريوم التى أسسها كاسيودوروس. وقد أيده فى ذلك عدد آخر من الباحثين ولكن البحث الباليوجرافى والتاريخى لا يؤيدان ذلك فيما ذهب كارل كرست.

لقد أدت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية والتى صاحبت الحروب والاضطرابات الدامية التى اجتاحت أوربا ليس فقط إلى تدمير الأرض والممتلكات ولكن أيضاً إلى نقص حاد فى عدد السكان. وفى خلال القرن السادس الميلادى اختفت الطبقة الشعبية المتعلمة ومن ثم اختفت معها الرغبة فى تعلم العلوم العلمانية وبالتالى توقف إنتاج مثل هذه الكتب وأصبحت قيمة الكتب القديمة للأسف تكمن فى ورقها الذى يمكن إعادة الكتابة عليه وتحميله بنصوص جديدة. ولقد انكمش الطلب على تلك الكتب القديمة بسبب الحروب المتعاقبة وندرة ورق البردى فى الغرب وصعوبة الحصول عليه هناك؛ وأصبح الوضع أسوأ فى الغرب بعد غزو العرب لمصر سنة ٦٤٢م وهم الذين احتكروا تجارة البردى بعد احتلالهم

(١) Cicero = De republica .

(٢) Ulfilas = Ambrosiana .

(٣) Codex Carolinus .

لمصر. و... لابد من ايجاد حل لهذا النقص الحاد فى مادة الكتابة. ولم يكن استخدام ألواح الشمع لكتابة المسودات والمعلومات الوقتية والخطابات والحسابات إلا مجرد حل جزئى للمشكلة. ولأن إنتاج الرقوق لم يكن يكفى الحاجة فقد تم محو الكتب من الكتابات القديمة - الوثنية - من على ورق البردى والرقوق خلال القرن السابع لإعادة الكتابة عليها مرة ثانية فيما عرف بالطروس وكان هذا هو الجزء الثانى من حل المشكلة. ومن الواضح أنه فى إيطاليا فى مراكز النسخ والكتابة مثل الكنائس، مكاتب الادارات المدنية، الأديرة مكاتب، إدارة الأطيان والعزب؛ كانت المخطوطات القديمة تجمع من أماكن مختلفة وتمحى الكتابة منها ويعاد استخدامها.

إننا نستطيع القول بأنه فى إيطاليا فى القرن السادس كانت هناك مكتبات خاصة لدى أفراد عاديين وربما بأحجام معقولة وليست مجرد آحاد من الكتب ولكن افتقارنا إلى السجلات المكتوبة عن مثل تلك المجموعات الخاصة يحيطها بالغموض. لقد كان من الممكن ألا نعرف شيئاً عن مكتبة دير فيفاريوم لولا أن كتب عنها كاسيودوروس فى «تعاليمه». لقد كان النقص الحاد فى المطروح من ورق البردى والرقوق هو المسئول الأول عن اختفاء الجانب الأكبر من كتب اليونان والرومان، رغم وجود عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختفاء مثل إغلاق مدارس البلاغة التى ظلت لقرون عديدة مصدراً أساسياً للكتب المقررة وكتب كبار المؤلفين القدماء ولعله مما يستحق الذكر أن جانباً هائلاً من الطروس يأتى من تلك الفترة على وجه التحديد: من القرن السابع إلى القرن التاسع للميلاد.

١٢ - دير فيرونا(١)

كانت فيرونا تلك المدينة ذات التقاليد العريقة موطناً لدوقة قوية ومحلاً لإقامة ثيودوريك وكان فيها مخزون كبير من الكتب والمؤلفات القديمة ترجع لبداية

(١) Verona.

العصور الوسطى. وفيرونا فى الواقع تمثل نموذجاً فريداً فى تواصل تاريخ المكتبات فيها واستمراره؛ إننا يمكن أن نتتبع المكتبات المحلية والإنتاج الفكرى فيها منذ مكتبة الكنيسة المسيحية الباكرة حتى مكتبات فروع الطوائف الدينية فى الوقت الحاضر. لقد سجل لنا أورسيكينوس[1] الناسخ فى كنيسة فيرونا اسمه سنة ٥١٧م كناسخ لأول مخطوط نسخ هناك وهو كتاب «حياة القديس مارتن من تورز» الذى ألفه سلبيكيوس سيفيروس[2]. وقد أتبع هذا الكتاب بستة كتب أخرى كتبها بخط نصف أونسيال. وقد كان أورسيكينيوس يجمع فى وقت واحد بين نشاطات الناسخ وكبير القراء (المراجعين للنصوص المنسوخة). ونحن لانجد أية إشارة مكتوبة عن منسخ دير فيرونا قبل القرن التاسع الميلادى بعد إشارات أورسيكينوس ومع ذلك فهناك سلسلة من المخطوطات بين القرن السابع والتاسع للميلاد وتحمل بصمات وأسلوب أورسيكينوس وهناك مخطوط متأخر من فيرونا يعرف بـ«شعائر برلين»[3] الذى قدمه الأسقف إجينو[4] ٧٧٢ ـ ٨٠٢م لمكتبة الكاتدرائية قبل أن يغادر فيرونا سنة ٧٧٩م إلى ريشيناو حيث مات.

لقد كان لفيرونا مكانتها المتميزة بين المدن الأخرى فى عالم الكاتدرائيات تشبه مكانة بوبيو بين الأديرة. ورغم وجود مدارس كاتدرائيات فى بافيا، ميلانو، أريزو ومودينا إلا أنها لم يكن لها تأثير يذكر على حركة الفكر فى إيطاليا فى القرنين السابع والثامن. ولأن شبه الجزيرة كانت ممزقة سياسياً ويقتحمها الأجانب من حين لآخر فإنها بالضرورة كانت ساحة لتأثيرات فكرية خارجية. وكانت فوضى الحياة العامة تنعكس بكل تأكيد على الخطوط التى كتبت بها المخطوطات فى ذلك الوقت. ونجد مصداق ذلك فى مخطوط موجود فى مكتبة كاتدرائية لوكا[5] نسخ بين ٧٩٦ و٨١٦م، حيث اشترك فى نسخه أربع وثلاثون ناسخاً على

(١) Orsicinus .

(٢) Sulpicius Severus .

(٣) Berlın Homiary .

(٤) Egino .

(٥) Lucca .

على الأقل ومن ثم نصادف مثل هذا العدد من الخطوط فيه؛ وتختلط فيها الخطوط الإيطالية المحلية مع تلك الغوطية الغربية والكارولنجية الغريبة عن إيطاليا كما نجد فيها تأثيرات ميروفنجية من خطوط وحروف واختصارات. إنه نموذج باليوجرافى لكل أنواع الخطوط كلها مستخدمة فى منسخ إيطالى واحد.



أسبانيا

الغوط الغربيون[١].

لقد عاشت الثقافة المسيحية القديمة فى أسبانيا أطول مما عاشت فى أى مكان آخر حيث تمتعت بحماية حكام الغوط الغربيين وتأييدهم. لقد قادت موهبة الغوط القبلية الفطرية إزاء التعليم، هؤلاء القوم إلى المزج بين العناصر الجرمانية واللاتينية على النحو الذى كان عليه الحال فى إيطاليا تحت حكم ثيودوريك وكما حدث أيضاً فى إيطاليا حيث كانت النتيجة ثقافة رومانية كاملة، كانت النتيجة فى أسبانيا، عقيدة دينية موحدة بعد موت الملك ريكاريد[٢] ونبذ الأريانية[٣] فى إجتماع مجلس الكنائس فى طليطلة (توليدو) سنة ٥٨٩م. ومنذ ذلك التاريخ وصاعداً دعم الملوك الحياة الثقافية ورعوها وأعطوا اهتماماً كبيراً للفكر والكتب. لقد كان الغوط الغربيون هم أكثر الحكام الجرمانيين وضعاً للقوانين، وشغلوا أنفسهم بالشئون الثقافية ورعاية الفكر. وقد وصلتنا قصائد باللاتينية نظمها ملوك منهم مثل: سيسيبون؛ كنديلا؛ ركسوينث؛ وامبا[٤] لقد ساندوا الآداب بنفس القدر الذى دعموا به العلوم والفنون، وجعلوا تنظيمها جزءاً من القوانين الرسمية.

لقد أمر الملك أتيلا الثانى[٥] بإعداد نسخ موثقة من الكتاب الموجود فى الخزانة الملكية عن تاريخ الغوط الغربيين[٦] المؤلف سنة ٥٠٦م، وإرسالها إلى جميع الولايات الخاضعة له. أما الملك ركسوينث ٦٤٩ ـ ٦٧٢م فقد حدد سعر كتاب[٧] (نحو سنة ٦٥٤م) بست سولدات[٨]، بينما رفعها خلفه[٩] إيرفج إلى اثنى عشر سولدات وذلك للمراجعة الشاملة التى أجريت عليه سنة ٦٨١م.

---

(١) Visigoths .

(٢) Reccared .

(٣) Arianism .

(٤) Sisibut; Kindila; Ricesswinth; Wamba .

(٥) Attila II .

(٦) Lex Romana Visigothorum .

(٧) Liber Iudicorum.

(٨) Soldi .

(٩) Erwig .

وبينما كان المعضدون الرئيسيون للدراسة والبحث فى أسبانيا هم أساقفة الكاتدرائيات فقد كان الباحثون الغوط مثل المؤرخ جون من بكلارو؛ إلدفونس؛ فركتوسوس[1] هم أيضاً من العناصر النشطة فى هذا السبيل. وعلى الرغم من أن الثقافة الأسبانية والبحث الأسبانى كانا يصطبغان بالدرجة الأولى بصبغة دينية لاهوتية وذلك بسبب الصراع والخلاف العنيف بين الآريانية واليهودية؛ رغم ذلك إلا أنه كان هناك دائماً رغبة فى الكتب الكلاسيكية والعلوم العلمانية والقانون والتاريخ والعلوم الطبيعية.

والشئ الوحيد الثابت الذى نعرفه عن الفكر الغوطى أنه لم يتم بعثه أو إحياؤه وطبقاً لأحد التقارير الموثوق فيها، أمر الملك ريكاريد بجمع كل الكتب الآريانية ووضعها فى أحد المبانى ثم أحرق المبنى بالكتب حتى صار رماداً. ويقال إن انهيار الفكر الغوطى بدأ بهذا الحادث. كذلك يقال بأن الملك ركسوينث أمر بإتلاف مجموعات القوانين التى صدرت قبله وهدد من يحتفظ بها بغرامة قدرها ثلاثون جنيها ذهبياً. ولعل هذا هو السبب فى أنه لم يصلنا إلا نتف صغيرة من قوانين الملك إيريك[2] ٤٦٦ ـ ٤٨٤م، صاحب القوانين الغوطية الغربية الباكرة. ولم تصلنا حتى الآن أية قطع أدبية باللغة الجرمانية، كما لم تصلنا وثائق غوطية غربية من شبه جزيرة أيبريا حتى اليوم.

إيزيدور الإشبيلى[3]

تجمعت لدى إيسيدور الإشبيلى أسقف أشبيلية (٥٧٠ ـ ٦٣٦م تقريباً) وآخر الرجال الذين ملكوا ناصية الحكومة فى نهاية الحقبة الكلاسيكية؛ كل عناصر الفكر والبحث فى بداية العصور الوسطى بأرقى معانيها. لقد كان وسط مرحلة الانتقال مخضرماً بين ثقافتين متداخلين. وبدون أن يضيف شيئاً من عنده قام إيسيدور بإعداد دائرة معارف علمية عن فكر وموضوعات العصور القديمة تحت

(١) John of Biclara, Ildefons, Fructousus.

(٢) Eurich.

(٣) Isidore of Seville.

عنوان (الأصول)[١] والتى أصبحت المرجع الرئيسى فى العصور الوسطى للباحثين والدارسين. وكان يعتبر حجة العصور الوسطى فى الحكم على المؤلفين الوثنيين فى العصور القديمة.

وفى هذا الحشد العلمى والحكمة المجموعة جرت مناقشة المكتبة والكتاب فى الوضع المناسب من هذا العمل فى الكتاب السادس بعنوان «عن الكتب وإدارة الكنيسة[٢]» وفى الفصل الثالث «عن المكتبة»[٣] يبدأ بدراسة جذور هذه الكلمة ثم يتبعها بتاريخ المكتبات بدءاً من عزرا فى الكتاب المقدس ويناقش تاريخ المكتبات الوثنية رجوعاً إلى سيتونيوس وينتهى فى الفصل السادس بأولى المكتبات المسيحية وارتباطها بسانت جيروم. والفصول من التاسع حتى الرابع عشر تتعلق بعلم الكتاب. وهناك فصول متناثرة تتعلق بمواد الكتابة والفرق بين الكراس[٤] واللفافة[٥] والكتاب[٦] وذلك فى مناقشة مستفيضة، كما ناقش أخيراً النشاط العضلى الفيزيقى للكتابة وأدوات الكتابة تحت عنوان «عن الكتاب وأدواتهم[٧]» واستطرد مدرس الخطوط الكلاسيكية والاختزال وأحال إلى نماذج وعينات فى فصول أخرى.

ومناقشة إيزيدور لموضوع الكتاب ومهنة المكتبة هو أقدم نص صادفناه وحيث فقدنا أى معلومات عن المكتبات من العصور القديمة. وقد ظل الكتاب فى العصور الوسطى يستخدمون هذه المعلومات ولايضيفون إليها شيئاً جديداً. ويمكن أن نرى أثر هذه المعلومات على جدران الفاتيكان حيث زخرف البابا سكستوس الخامس جدران الفاتيكان بصور جصية أخذت من المكتبات التاريخية الواردة فى هذه الموسوعة.

---

(١) Etymologia .

(٢) De libris et officiis ecclesiasticis .

(٣) De bibliothecis .

(٤) Codex .

(٥) Volimen.

(٦) Liber .

(٧) De Librariis et earum instruments .

وكل ما كتبه إيزيدور له أساس فى مصدر من المصادر الفكرية وكانت له مكتبة كبيرة تحت تصرفه ومع هذا فليس لنا أن نبالغ فى قيمة هذه المكتبة، ذلك أن مصادر إيزيدور لم تحدد بدقة، وخاصة تلك الكلاسيكية المتأخرة واللاتينية من العصر المسيحى الباكر على الرغم من أن المصادر الأصلية قد ذكرت بأسمائها. وهذا مما يضفى أهمية خاصة على دراسة المصادر التى رجع إليها إيزيدور، وبالذات تلك التى اعتمد عليها فى عدد من المواضع، والجوانب المتعلقة بالكتب والمكتبات والتى لم تكتمل.

لقد فتح إيزيدور بنفسه أبواب مكتبته فى قصر الأسقفية فى إشبيلية وسمح لنا بأن ندخل إلى خزائنها. وهذه المكتبة كالمكتبات القديمة زينت جدرانها بصور المؤلفين المشاهير وهناك نقوش على الجدران أيضاً تشرح الصور وتسميها كما تحدد نوع الكتب فى كل خزانة. وبعض النقوش تسير على الوجوه الآتية:

«هنا كثير من الكتب الدينية وأيضاً العلمانية.

وإذا أعجبك شئ من هذه الكتابات من فضلك خذها وإقرأها.

إنك ترى أمامك حقولا مليئة بالأشواك وأيضاً غنية بالزهور.

وإذا لم ترغب فى الأشواك، إلتقط الورود».

إن النقش الخامس عشر بين هذه النقوش الجدارية يكشف عن ترتيب خزائن الكتب وهى تسير على النحو التالى:

الكتاب المقدس	خزائن ١، ٢
آباء الكنيسة	خزائن ٣ ـ ٩
الشعراء المسيحيون	خزينة ١٠
المؤرخون	خزينة ١١
المعاصرون؛ جريجورى	
الأكبر ولياندر(١)	خزائن ١٢، ١٣
القانون	خزينة ١٤

(١) Leander.

ولم تذكر الأعمال الفردية . ولا نجد تمثيلاً للمؤلفين الكلاسيكيين (الوثنيين) إلا بين القانونيين. وهناك تحذيرات فى النفش رقم ١٠ من قراءة الشعراء الوثنيين.

وقد ألحق بالمكتبة الصيدلية؛ وقد زخرفت جدارنها بصور القديسين الصيادلة والأطباء من أمثال كوزماس، ودميان والأطباء الإغريق القدامى من أمثال أبقراط وجالينوس[١] (النقوش ١٦ ـ ١٨). وربما يكون قد وضع فى غرفة الصيدلية هذه كتب الطب. وبعد هذه الغرفة تأتى غرفة المراهم والأعشاب وبعدها يأتى المنسخ بنقوشه ٢٥، ٢٦، ٢٧. التى تتوعد النساخ الكسالى بالعقاب وتطلب الهدوء والصمت ممن يستخدمون هذا المنسخ.

البحاثة الأسبان

كان من بين التقاليد العلمية والثقافية فى تلك الفترة العلامات التجارية التى توضع على المخطوطات لتدل على صحتها وقد جرى الإهتمام بها عند طلب المخطوطات والبحث عنها. وكانت تلك العلامات فى الأعم الأغلب عبارة عن حروف مميزة يتلمسها الباحثون فى المخطوطات. وإذا أخذنا تلك العلامات فى الإعتبار مع جودة الخط فإن أسبانيا تحرز قصب السبق فى هذا المضمار من حيث كثرة المخطوطات الحاملة لهذه العلامات. ولكن على الجانب الآخر فإن معلوماتنا عن المكتبات الفردية فى تلك الفترة تكاد معدومة.

ويقال بأن الباحث مارتين أسقف براجا[٢] (ت ٥٨٠م) ومؤسس دير دوميو[٣] فى جالشيا[٤] هو مؤسس أول مكتبة أسبانية. وقد بدأ هذه المكتبة فى الدير بهدية من كتب أحضرها معه من رحلة إلى الشرق ثم تابع تنمية هذه المجموعة برغبة

---

(١) Cosmas; Damian; Hippocrates; Galen .

(٢) Braga .

(٣) Domio .

(٤) Galicia .

شديدة. وكما يقال فإن ليكينوس[١] (نحو سنة ٦٠٠م) كان يجمع الكتب فى كارتيجينا[٢]. أما أول مكتبة فى برشلونة فإنها تعزى إلى الأسقف كويريكوس. وتدلنا كتابات كل من إلدفونس[٤] أسقف طليطلة (ت ٦٦٧م) وجوليان أسقف طليطلة أيضاً ٦٨٠ ـ ٦٩٠م على وجود مكتبة فى كاتدرائية المدينة حيث كانت كتب الصلاة تخزن فى خزائن مزخرفة جميلة. ويقال بأن الملك تشايلدبرت الأول[٥] عاد فى سنة ٥٣١م من حملته المظفرة عند أماليرك[٦] الغوطى الغربى بمجموعة كتب ضخمة من مكتبات الكنائس الأسبانية.

ويظهر أسقف سراقوسة بروليو[٧] ٦٣١ ـ ٦٥١م فى تاريخ الفكر الأسبانى كأكبر جماع للكتب بين الباحثين الأسبان فى تلك الفترة. ويبدو أن عدد الكتب فى مكتبة الكاتدرائية كان كبيراً لأن الدير الملحق بها كان نشيطاً فى النسخ وإمدادها بالكتب لدرجة أن الأسقف كان يتحدث عن أكوام الكتب[٨] وأن حجم المجموعات قد أدى إلى نوع من الفوضى والاختلاط. وكان بروليو يطلب كتب أصدقائه التى ليست عنده. وكذلك كان يطلب من روما كتب جريجورى الأكبر وغيره من الكتاب.

وكما هو الحال دائماً فإن طلبات بروليو لم تكن لتجاب فى كل الحالات كما حدث بالنسبة لشروح أبرنجيوس[٩] على آخر فصول الكتاب المقدس[١٠] حيث لم يعثر له على أثر. (هذا الشرح كان بالغ الندرة فى تلك الفترة وقد توصل إليه

(١) Lecinus.

(٢) Cartegena.

(٣) Guiricus.

(٤) Eldfons.

(٥) Childebert I.

(٦) Amaleric.

(٧) Braulio.

(٨) Strues librorum.

(٩) Apringius.

(١٠) Apocalypse.

الباحثون فى الوقت الحاضر من خلال بعض قطع مخطوطة كوبنهاجن التى عثر عليها فى القرن التاسع عشر). وكان بروليو يطلب الكثير من الكتب عن طريق إيزيدور الإشبيلى سالف الذكر ولكن بعد سبع سنوات كاملة استطاع الحصول على نسخة غير تامة من الأصول[١] والتى كان يتم تداولها فى نسخ مليئة بالأخطاء. ويقال أن بروليو هو الذى أعد النسخة النهائية الكاملة فى عشرين كتاباً. وكان بروليو يسر أيما سرور عندما ترد الكتب المطلوبة من أصدقائه فيما تذكر المصادر.

الأديرة الأسبانية

على العكس من النشاط الفكرى الذى كان موجوداً فى كاتدرائيات المدن الأسبانية، كان ذلك النشاط محدوداً فى الأديرة هناك. وهو موقف مشابه لما حدث فى الفترات الأولى للمسيحية. وطبقاً لبعض الأقاويل فإن الأب دوناتوس[٢] هو مؤسس أول دير أسبانى فى سيرفيناتوم[٣] حين هرب من أفريقيا «ومعه سبعون من الرهبان وعدد كبير من الكتب» . وقد قدم سانت فركتوسس[٤] (ت ٦٦٥م) لبرليو المخطوطات ـ كتابات الكاسيان والسيرة المقدسة كى توضع فى الدير الذى أنشأه. ولم تكن الكتب هى الملكية العامة للرهبان ولكن كان لابد من إنشاء مكتبة تخدم عدة أديرة فى وقت واحد. وكان هذا ماحدث عندما قدم الأسقف جيناريوس سنة ٩١٥م مجموعة من الكتب للاستخدام المشترك بين أديرة: **سان بدرو دى مونت و سانتياجو دى بينالبا و سان أندريه دل فييرزو**[٥]. وكانت محتويات تلك المكتبات الديرية يحكمها التحذير الذى وجهه إيزيدور الإشبيلى «يجب على الراهب أن يقرأ الكتب الوثنية بحذر شديد وخاصة كتب الهراطقة».

(١) Etymologia .

(٢) Donatus .

(٣) Servinatum .

(٤) St. Fructuosus .

(٥) San pedro de montes, Santiaga de Pe´nalba, San Ardrés der Vierzo .

الملكية الأسبانية:

لم تصلنا معلومات موثقة عن وجود مكتبات فى البلاطات الغوطية الغربية ولكن يمكننا القول بأن ملوكاً مثل سيسيبوت، ركسونيث كانت لديهم مكتبات فقد عرف عنهم حبهم للعلم ومساندتهم للبحث العلمى. وهناك مراسلات بين سيسيبوت ٦١٢ - ٦٢٠م مع إيزيدور الإشبيلى الذى يقال بأنه كتب عدة كتب خصيصاً له ومن بينها دائرة المعارف المذكورة سابقاً. ويقال بأن الملك الذى كان مولعاً بالفلك أهدى إيزدور قصيدة عن كسوف الشمس وخسوف القمر. وقد أسلفت بأنه بناء على طلب من الملك كنداسونت أن ارتحل الأب تايوس من سراقوسة إلى روما لإحضار كتب لأسبانيا سنة ٦٤٩م. وهو نفس الملك الذى طلب من الأسقف يوجين الثانى، أسقف طليطلة ٦٤٦ - ٦٥٧م مراجعة كتب الشاعر دراكونتيوس(١). كما خول الملك ركسوينث بروليو فى تصحيح مخطوط ملئ بالأخطاء يقال أنه كان نسخة الملك الشخصية من كتاب القوانين(٢) الذى أمر بوضعه.



ولكن للأسف الشديد فإن الحركة الفكرية الأسبانية والمخطوطات والمكتبات فى أسبانيا قضى عليها بعد هزيمة الامبراطورية الغوطية الغربية فى معركة إكسيرس دى لا فرونتيرا سنة ٧١١م. وباستثناء كتابات إيزيدور التى وصلتنا كاملة، فإن الجانب الأكبر من الإنتاج الفكرى فى فترة الغوط الغربيين قد دمر تماما. وانهالت سيول المهاجرين الأسبان بعدها على المملكة الفرانكية وكان من بين هؤلاء المهاجرين رجال من أمثال: بيرمين؛ ثيودولف الأورليانى؛ أجوبارد الليونى؛ كلوديوس التورينى(٤) وقد أصبحت مدينتا ليون وتورين نقاط تجمعهم الأساسية. ولقد وصل تأثير هذه الهجرة التى حملت التى معها المخطوطات الأسبانية والمؤلفين الأسبان والقوانين الغوطية الغربية إلى منطقة بحيرة كونستانس وبافاريا.

---

(١) Dracontius .

(٢) Farum judcum .

(٣) Xeres de La Fromtera .

(٤) Pirmin' ,Thoadulf of Orleans, Agobard of Lyons, Claudius of Turin .

فرنســـا

مقدمة:

لقد كان تأسيس الإمبراطورية الميروفنجية[1] إيذاناً بإنتهاء فترة الازدهار الفكرى الذى شهده العصر الكلاسيكى المتأخر. كما أذن بانتهاء مكتبات الكنائس ومكتبات قصور الأرستقراطية . ولم تستطع مدارس الأديرة التى حلت محل مدارس البلاغة والنحو فى نهاية القرن الخامس الميلادى ـ دون الحفاظ على تقاليدها ـ أن توقف الانهيار الفكرى الذى انعكس بشدة على الخطابة والكتابة آنذاك. ولأن الحياة الدينية لم يتهددها ما هدد الحياة العلمانية والفكر العلمانى، فقد استمرت الكنائس والأديرة فى حاجة إلى كتب الدين، الكتب المقدسة، كتب الوعظ، المزامير، كتب الطقوس والشعائر، شروح الكتب المقدسة، كتب تعليم رجال اللاهوت الجدد . وكانت هذه الكتب هى النواة التى شكلت مجموعات أية مكتبة ديرية او كنسية أو كاتدرائية. ورغم النقص فى عدد الكتب المتاحة فى مطلع الفترة الكارولنجية فإن عدد المخطوطات التى وصلتنا من الحقبة الميروفنجية فى فرنسا كان كبيرا رغم أننا لا نعرف أصول هذه المخطوطات على وجه اليقين.

الأديرة الفرنسية:

فى فترة الاضطراب والقلاقل هذه كان عدد الذين هربوا إلى الأديرة والمعازل فى فرنسا كبيراً. وربما كان أول شكل من أشكال المجتمعات الديرية فى فرنسا هو المعروف باسم لاورا[2] (كلمة إغريقية نقحرت إلى اللاتينية وتعنى بالنسبة للكنيسة المسيحية المبكرة مستعمرة أوجالية من المعتزلة يعيشون فى أكواخ مستقلة ولكن يرأسهم أب واحد وتربطهم عبادة وصلوات عامة). وقد أسست هذه اللاورا على النمط الشرقى كما كان الحال أيضاً بالنسبة لأهم ديرين فى تلك الفترة: فى الشمال دير سانت مارتن فى مارموتييه[3] بالقرب من تورز وقد

(١) Merovingian Empire .

(٢) Laura or Lavra .

(٣) St. Martin at Marmoutiers .

أسس سنة ٣٢٢م؛ وفى الجنوب دير ليزانز[١] الذى أسسه سانت مونورات أسقف آرلز سنة ٤١٠م فى الجزر المواجهة لسواحل بروفانس.

وكان أبو الحركة الديرية فى فرنسا هو كاسيان[٢] الذى أسس ديرين فى مارسيليا سنة ٤١٤م على غرار طيبة[٣] والذى احتذى نمط الحياة الديرية الشرقية كما صورها فى كتابيه[٤] وهما يمثلان أول قواعد للحياة الديرية وصلت إلينا من فترة الانتقال بين العصور القديمة والوسطى والتى فى خلالها حدث التحول من المجتمع المفتوح الحر نسبياً إلى المجتمع المغلق ذى القواعد الصارمة ونستشف من أولى مجموعات القواعد تلك التى وصلتنا من قيصارية (قسيارية) وترجع إلى سنة ٤٩٩م أن قواعد الدير كانت صارمة وفى أشد عنفوانها. وقد طبقت هذه القواعد فى نفس الوقت تقريباً فى دير سانت كلود فى كوندات فى بيرجندى[٥].

لقد كانت الحاجة إلى الكتب شديدة أيضاً فى تلك المجتمعات المفتوحة التى شجعت على القراءة والعبادة بين عدد كبير من الرهبان. إذ كان هناك ألفا (٢٠٠٠) راهب فى دير سانت مارتين فى مارموتييه و٣٧٠٠ راهب فى دير ليرانز. وكان إنشاء المكتبات أسرع فى تلك الأديرة التى كانت تحرم الملكية الخاصة بين الرهبان بما فى ذلك الكتب ومن ثم كان لابد من إنشاء مجموعات من الكتب كملكية عامة. ففى مناطق جول[٦] كانت قواعد الدير تنبع من توصيات باخوميوس وبازل[٧] التى تقضى بتكوين مجموعات من الكتب وتضمين ذلك فى لائحة الدير كما فعل بندكت. وعلى الرغم من أنه كانت لكل دير مكتبة إلا أن محتوياتها لم تتعد: الكتاب المقدس؛ كتب العبادات والصلوات؛ وكتب

---

(١) Lérins of St. Monorat.

(٢) Cassian.

(٣) Thebais.

(٤) Collations, De Coenobiorum institutis.

(٥) St. Claude at Condat in Burgundy.

(٦) Gaul.

(٧) Bachomius, Basil.

التعاليم مثل سير القديسين وأحاديث كاسيان(١). وكان منسخ الدير يتوفر على إنتاج النسخ. وقد كتب سانت مارتن عن دير تورز فى سيرته(٢): «ليس هناك فن يمارس سوى النسخ». وعلى عكس ذلك كتب سانت فيروليوس(٣) (ت٥٨١م) يقول «الكتابة كانت شغل هؤلاء العاجزين عن تحمل العمل البدنى الشاق»؛ «هذا الذى لا يمكنه حرث الأرض بالمحراث يمكنه أن يخط بضعة سطور على صفحة بأصابعه».

لقد أخذت الكنائس لائحة سانت أوغسطين(٤) كدستور لها. فقد حدد قيصاريوس من آرليز(٥) الذى أسس كنيسة فى مقاطعته (دوقتيه) سنة ٥١٢م؛ ساعتين للقراءة فى لائحته المسماة «تعاليم العذراء»(٦) التى وجهها إلى الراهبات والتى تعتبر أقدم لائحة للراهبات. وكانت تلك القاعدة أيضاً من بين الالتزامات اليومية للرهبان. وكانت وظيفة أمين المكتبة التى كان من بين أهم واجباتها إلى جانب الحفاظ على المخطوطات وإعارتها للرهبان فى مواعيد محددة، من أهم الوظائف فى الدير. وتحت إشراف الأم(٧) قيصرية أخت قيصاريوس قام منسخ آرليز بنسخ مخطوطات ذات شأن كبير.

والحقيقة أن تعليم الرهبان لم يذهب إلى أبعد من حد المرحلة الإبتدائية فى المدارس العادية: قواعد القراءة والكتابة؛ واعتبر ذلك بما فيه الكفاية. وقد طلب قيصاريوس من راهباته «ألا يشغلن أنفسهن بالخرافات» ونفس القاعدة نجدها عند

---

(١) Collations of Cassian.

(٢) Vita.

(٣) St. Ferreolius.

(٤) Regula S. Augustini.

(٥) Caesarius of Arles.

(٦) Regula Virginum.

(٧) Abbess.

تارنات[١] «لا تضيعوا وقتكم فى مجموعات الخرافات العلمانية وأمثالها». لقد اعتبرت الأديرة مدارس للحياة الروحية، وليست مراكز للتعليم. لقد كان هذا هو حال دير ليرانز الذى كان لفترة قصيرة مركز الرهبنة الغربية وكان النموذج الذى وصل بعيداً حتى أيرلندا. ونحن لا نعرف شيئاً عن مكتبة هذا الدير ولم وتصلنا منه مخطوطات. وربما كانت الأديرة المستثناه من تلك الظاهرة هى تلك التى كانت تدرس القانون. لقد أكد سانت يوجندس[٢] (توفى ٥١٦م) على أهمية القراءة فى اللائحة التى أعدها لديره فى كوندات والأديرة الفرعية التى انبثقت عنه. وكان الأب نفسه مضرب المثل فى البحث والدراسة.

وفى القرن السابع الميلادى حذت سائر أنحاء فرنسا حذو سبتيمانيا وبيرجنديا[٣] وحيث لم يكن هناك فى فرنسا فى ذلك الوقت من الأديرة ذات الأهمية سوى سانت مارتن فى ليجيجيه[٤] الذى أسس سنة ٣٦٠م؛ ودير تورز. وبعدهما أنشئ عدد كبير من الأديرة من بينها دير سانت دينيس[٥] (نحو ٦٢٤م) والذى كان تحت رعاية داجوبرت الأول ثم دفن فيه ودير فليرى (نحو سنة ٦٥٣م) والذى اشتهر فيما بعد بمخطوطاته الجيدة.

ورغم الحياة الديرية الخصبة للعهد الميروفنجى، إلا أن الحياة الفكرية والبحثية كانت عديمة القيمة والفائدة. وكان المستوى فى فرنسا أقل بكثير مما كان عليه الحال فى الجنوب ولم يرتفع هذا المستوى إلا بعد أن ارتحل الرهبان من الجزر البريطانية إلى الأديرة الفرنسية حيث قام الراهب ديفنسور[٦] فى ليجيجيه بجمع ماكتبه الكتاب المختلفون عن الفضائل المسيحية تحت عنوان كتاب الفضائل[٧]. وقد

---

(١) Tarnat .

(٢) St. Eugendus or Augendus or St. Oyen or Oyand de Jous (in the Twelfth Century Known as St. Claudel) .

(٣) Septimania and Burgundy .

(٤) Ligugé .

(٥) St. Denis .

(٦) Defensor .

(٧) Scintillarum Liber .

وزع هذا الكتاب فى أنحاء الغرب بأعداد كبيرة طوال العصور الوسطى ممايكشف عن أنه كان فى هذا الدير عدد كبير من الكتب قبل سنة ٧٠٠م.

مدن الكاتدرائيات فى فرنسا

كان من الواضح كما أسلفت أن النشاط الفكرى ونسخ وجمع الكتب فى الكاتدرائيات كان أقوى منه فى الأديرة الفرنسية. وكان الإكليريون الذين يلتحقون بالمدرسة فى ليرانز لابد وأن يثبتوا كفاءتهم كباحثين أولاً فى مدن الكاتدرائيات وعلى سبيل المثال إيكيورس فى ليون وفوستوس فى راينز وقيصاريوس فى آرليز(١). ولقد استمرت الكاتدرائيات فى إنشاء المدارس وإدارة المناسخ فى خصوبة الإنتاج وتكوين المكتبات المتطورة. ولقد أصبحت تلك المدن الدينية مراكز لتخرج الإكليريين وتعليمهم وكان على رأس تلك المدن: آرليز؛ فيينا؛ بوردو؛ كليرمونت؛ أوكسير؛ رايمز،(٢) على الرغم من أن المعلومات عن كل منها على حدة محدودة ونادرة.

وتسلط الأضواء الآن على ليون بسبب كثرة ما وصلنا منها من مخطوطات وحيث لعبت دوراً حيوياً حتى فى العصور القديمة كنقطة إلتقاء فكرى بين فرنسا وإيطاليا لما لها من موقع جغرافى متميز، ذلك على الرغم من تشتتها فى القرن السادس عشر ـ حيث ذهبت مكتبة الكاتدرائية فى ذلك الوقت إلى فرنسا؛ وذهبت مكتبات الأديرة الفرعية فى فيرونا إلى إيطاليا قبل العهد الكارولنجى. وبينما اعتمدت مجموعات المكتبات القديمة الأخرى على الشراء، فقد اعتمدت مكتبات ليون أساساً على نشاط منسخها. وهنا تم إحياء الخط أونسيال القديم وخلفه نصف أونسيال ولم يتأثر هذا الإتجاه بالفساد العام الذى أصاب الخطوط وإنتاج المخطوطات.

(١) Encherius at Lyon; Faustus at Riez; Caesarius at Arles.

(٢) Anles - Vienne, Bordewx, Clermont, Auxerre' Riems.

أيرلنـــــدا

الثقافة الأيرلندية

كانت الثقافة الأيرلندية في العصور الوسطى إحدى إنجازات الكلتيين[١]، حيث مزجت عناصر متنافرة في هوية وطنية واحدة.

والشعب الأيرلندى، رغم أنه لم يكن ضمن الإمبراطورية الرومانية أو يتعرض لها إلا أنه أصبح وريثاً للحضارة الكلاسيكية. وكانت الثقافة اللاتينية قد تشبعت بمؤثرات من الشرق، وشرقى الإمبراطورية الرومانية. وكانت هذه المؤثرات واضحة فى التناقض بين الطبيعة الديرية للكنيسة الأيرلندية، والتنظيم الدينى للكنيسة فى القارة، فى الحياة الانعزالية للرهبان الأيرلنديين، فى الكتابات الدينية الأيرلندية ، معرفتهم باللغة اليونانية ومعرفتهم باللغة العبرية التى لا تقل عن اليونانية، والمؤثرات الشرقية التى تشاهد بوضوح فى الفن الأيرلندى. ومن السهل إكتشاف تلك الاتجاهات وإن كان من الصعب تتبع أصولها. وتتبع تاريخ تحول أيرلندا ــ رغم ما فيه من جوانب أسطورية ــ يلقى بعض الضوء على ما ذهبنا إليه.

لقد دخلت المسيحية إلى أيرلندا عن طريق بعثات تبشيرية من جول[٢] وكان باتريك[٣] (٣٧٢ ـ ٤٦١م) هو الرسول إلى أيرلندا، ويقال أنه تلقى تعليمه الدينى فى مدرسة سانت جيرمانوس فى أكسير وتعرف على الحياة العامة فى تورز وليرانز، التى سادت بين الرهبان الأيرلنديين. وكانت خصائص الحياة الديرية الشرقية التى جلبها كاسيان معه من الشرق إلى فرنسا قد انتقلت إلى أيرلندا وصبغتها بصبغتها الفريدة هناك.

وكان لا يمكن للمستوى الفكرى العالمى فى الأديرة الأيرلندية أن يأتى من

---

(١) Celts .

(٢) Gaul .

(٣) Patrick .

الأديرة الغالية[1] الفرنسية غير المتعلمة نسبياً. ويجب أن يعزى الفضل فى الصدد للمهاجرين اللاتين الأول الذين هربوا من الغزو الجرمانى فى بداية القرن الخامس الميلادى. ومن ثم فقد حملت الثقافة اللاتينية للإمبراطورية الرومانية المنحلة إلى إيرلندا وزرعت هناك بعيداً عن معترك الأحداث الدامية، بينما على أرض القارة كانت تلك الثقافة اللاتينية تأخذ فى الذبول والإختفاء. وهذا هو الافتراض المعقول الذى نراه لازدهار الفكر فى أيرلندا بعيداً عن القارة الأم وإن كان لا يفسر وجود عناصر الثقافة الرومانية الشرقية فى الثقافة الأيرلندية.

والثقافة الأيرلندية هى فى الأساس ثقافة كتاب. والإنجازات الأيرلندية فى مجال الفكر والتعليم أصبحت جزءاً هاماً من التراث الفكرى للغرب. قد تكون الآثار المعمارية الغنية بالزخارف ممثلة فى الكنائس والأديرة قد طمست ودرست ولكن آثارهم فى الكتابة وزخرفة الكتب باقية إلى اليوم. وكلما نظرنا إلى الأناجيل التى أبدعها كلز؛ دورو؛ مولنج؛ أرماغ[2] بحروفها الموشاة وزخرفتها الخيالية الغريبة وتزويقها الجميل فإننا لا يمكن أن نخطئ الطابع الأيرلندى الأصيل.

هذه الثقافة عاشت فى الأديرة التى كانت تمثل شبكة مراكز ديرية مبعثرة داخل المعازل عبر كل أيرلندا. ومن بين الأديرة النشيطة فى هذا الاتجاه: دير أرماغ مركز التحضر فى أيرلندا والذى أسسه باتريك سنة ٤٤٤م وكولونارد[3] الذى أسسته طوائف الفنيان «الاثنى عشر رسولاً من إيرين»؛ ودير كلونماكنواز[4] الذى أسسه كياران سنة ٥٤٤م وبانجور[5] الذى أسسه كومجال[6] سنة ٥٥٩م. وفوق هؤلاء جميعاً يأتى كولومبا «أبو ومؤسس الأديرة»[7] الذى يقال أنه أسس أكثر من

(١) Gallic .

(٢) Kells; Durrow; Mulling; Armagh .

(٣) Patrick' Colonard .

(٤) Clonmacnoise - Ciaran .

(٥) Bangor .

(٦) Comgall .

(٧) Columba - Monasterium Pater et Fondator .

٣٠٠دير فى أيرلندا واسكوتلندا. واعتباراً من بداية القرن السادس وصاعدا وجدت فى هذه الأديرة ثقافة ونشاط فكرى تفوق بمراحل تلك الموجودة فى أوربا؛ وحيث لم تقصر مدارس تلك الأديرة مناهجها التعليمية على مجرد اللاهوت كما حدث فى الأديرة الباكرة التى سبقتها، ولكن كانت تدرس أيضاً العلوم العلمانية؛ بل إن اللغة اليونانية كانت تدرس وفى المرحلة الإبتدائية.

هذه الثقافة الرفيعة لم تقطع علاقة الرهبان بالناس؛ ذلك أن الأيرلنديين الذين ذاقوا حلاوة التعليم المدنى فى مدارس يديرها الوثنى درويدز(١) قبل دخول المسيحية إليها كانوا أول ناس يستخدمون اللغة العامية فى مؤلفاتهم وتدريسهم، بل إنهم استخدموا اللغة العامية فى العبادة وسد الفجوات فى نسيج اللغة اللاتينية فى صلواتهم وقصائدهم. وملأوا هوامش المخطوطات بتعليقاتهم (بلغة جايلك)(٢). وكانت الرغبة فى نشر الفكر الوطنى التى لاحظناها فى الأديرة الإنجليزية والألمانية، إنما جاءت من تأثير الرهبان الأيرلنديين أصحاب الثقافة الأصلية.

واعتباراً من القرن السادس فصاعداً جاء الدارسون من كل حدب وصوب قاصدين الأديرة الأيرلندية لينهلوا العلم: من بينهم دارسون أنجلوساكسونيون ذكرهم بيديه، جاءوا لقراءة الذخائر المكتوبة والمحفوظة هناك.

باتريك (باتريكيوس) وكولومبا الأيونيان(٣)

الدراسة والبحث الأيرلندى بحث تقليدى بمعناه الضيق أى أنه مبنى على تقاليد مركزها الكتاب ولم يكن للكتاب فى ذلك الوقت تقدير عظيم فى أى مكان مثل قدره فى أيرلندا ولا نصادف مدحاً مكتوباً شعراً ونثراً إلا فى أيرلندا كما أحاطت به وبحياة القديسين الأساطير هناك فى أيرلندا.

---

(١) Druids .

(٢) Gaelic .

(٣) Patrick (patricius) and Calumba of Iona .

لقد أحاطت الأساطير بحياة راعى الكتب القديس باتريك (ت نحو ٤٦١م) أول قديس أيرلندى ومؤسس الكنيسة الأيرلندية والحركة الديرية فيها وتشير الأسطورة إلى أناجيله ومزاميره التى كتبها بخط يده، وكيف أنه كان يقدم هذه الكتب المقدسة وكتب الصلوات إلى أتباعه وإلى الكنائس التى أسست حديثاً وخاصة تلك الموجودة فى أرماغ. وكانت كتب هذا القديس تنتقل معه. وعندما أمره الملك ليوجائير(١) هو وزميله درويدز(٢) بإلقاء كتبهما فى النهر أو فى النار «لنرى أى كتبكما تنجو من الضرر»، لعن باتريك النهر فنجت الكتب ولم تصب بأذى. وعندما رجع باتريك من زيارة له لروما حمل معه كمية كبيرة من الكتب والهدايا التذكارية أعطاها له البابا سكستوس الثالث ٤٣٢ ـ ٤٤٠م. ويقال عن باتريك أنه كان نساخاً نشيطاً لايتعب من نسخ الكتب وأن كتبه كانت تفعل المعجزات.

كذلك تحيط الأساطير بالقديس المبعوث إلى الاسكتلنديين والذى مات ٥٩٧م ومن بين إنجازاته إنشاؤه للعديد من الكنائس الصغيرة اشتهرت بسبب مكتباتها مثل: ديرى (٥٤٥م)؛ كيلز (٥٥٠م)؛ دورو (٥٥٣م)؛ وفى اسكتلندا: أيونا(٣) (٥٦٣م).

لقد توفر آدمنان(٤) خليفة سانت كولومبا فى دير أيونا ٦٧٩ ـ ٧٠٤م على وضع كتاب عن حياة كولومبا ملأه بالمعجزات التى قام بها وتحدث طويلاً عن حبه للكتب ورغبته الدائمة فى نسخها وقد قيل أيضاً عن كولومبا أنه نسخ بنفسه ثلاثمائة نسخة من الأناجيل وزعها على الأديرة الثلاثمائة التى أسسها. وإلى جانب أن الرجل كان قارئاً جيداً وناسخاً جيداً للكتب فإنه أيضاً يصحح الكتب التى يكتبها الرهبان. وقد حضرته الوفاة وهو يكتب أحد المزامير فأتمه

---

(١) Leogaire .

(٢) Druids .

(٣) Derry' Kells; Durraw. Iona .

(٤) Adamnan .

خليفته بيثانيوس[١]. وقيل إنه كان يلقى بالكتب فى الماء فلا تبتل ولا تتلف وكانت تنشد كما لو كانت هدايا تذكارية.

وكان كولومبا دائم البحث عن كتب يكتبها بخطه وعندما رفض لونجراد ــ كما رأينا سابقاً ــ إعارته كتبه لنسخها صب لعناته على تلك الكتب. لقد قام كولومبا بنسخ أحد الكتب المنسوبة إلى سانت فنيان سراً وعندما طلب فنيان النسخة التى كتبها كولومبا كحق له رفض كولومبا ذلك فاحتكما إلى الملك ديارمين الذى وقف بجانب فنيان قائلاً فى حكمه بأن النسخة تتبع الأصل كما يتبع العجل أمه. وبسبب رفض كولومبا تسليم النسخة قامت حرب أهلية ونفى كولومبا من أيرلندا.

النساخ الأيرلنديون

عندما نريد تعديد محاسن القديسين فإنها تنطبق على الراهب الأيرلندى المثالى فى القرن السادس فقد كان نسخ الكتب هو واجبه ووظيفته فى آن واحد. وكان لقب كاتب[٢] دلالة على الاحترام الشديد وأفضل كثيرًا للقديس من تعيينه فى وظيفة دينية أعلى. وكان عائدهم المالى من وراء النسخ يرفعهم إلى مرتبة الآباء والأساقفة.

لقد قيل بأن القديس ديجا[٣] كان يقضى الليل كله فى النسخ، بينما يقضى نهاره فى القراءة أو إنجاز أشغال معدنية وأعمال الكنيسة، كما قيل بأنه نسخ ثلاثمائة نسخة من الكتاب المقدس طوال حياته. ولقد سجلت إحدى الحوليات الأيرلندية (حوليات السادة الأربعة)[٤] تاريخ وفيات واحد وستين ناسخاً عاشوا قبل سنة ٩٠٠م، من بينهم أربعون ينتمون إلى القرن الثامن وحده.

لقد أشار النساخ إلى أنفسهم فى حرد المتن فى تلك الفترة أكثر من ذى قبل.

(١) Baitneneus .

(٢) Scriba .

(٣) Dega .

(٤) Annals of the Four Masters .

لقد كتب ناسخ مخطوطة سانت جال من خلوته الخشبية يقول بفرح «إن الوادى المورق يحيط بى من كل جانب، كما تغلفنى آصوات الطيور السوداء؛ وكلما إنحنيت لكى أكتب على الرقوق المسطرة ترن فى أذنى شقشقة العصافير. ومن أعلى إحدى الأشجار ينادينى طائر الكوكو[1] ذو الريش الرمادى. إن الله حقاً يحمينى؛ والكتب هنا يبدو أنها تنسخ نفسها بنفسها تحت غلالة من الأشجار»، وهنا أيضاً فى أيرلندا نسمع شكوى من خشونة الرقوق والبرد ومعاناة النساخ وإحباطاتهم. وهناك قول مأثور لديهم: بينما ثلاثة أصابع فقط هى التى تنسخ إلا أن الجسد كله يعمل معها»

لقد جاءت الكتب التى ينسخ منها النساخون فى أيرلندا نسخهم عن نفس الطريق الذى سلكته الثقافة الأيرلندية، أعنى أساساً عبر فرنسا، ذلك أن الروابط مع روما بدأت تقوى بالتدريج منذ باتريك، وأخذ الحجاج العائدون من زيارتهم لمقابر الرسل يحملون معهم الهدايا التذكارية والكتب. لقد بدأ استيراد الكتب حقاً من روما مع المبعوث الرومى بالاديوس الشماس[2] مبعوث البابا كليستاين الأول فى سنة ٤٣١م والذى أهدى كتبه ومكتبتة للكنيسة.

وتضع الأساطير باتريك مرة ثانية فى مطلع الحجاج الأيرلنديين وحاملى الكتب فى رحلة العودة. كذلك أرسل القديس بريجيد[3] (ت ٥٢٣م) أحد القساوسة إلى روما لتلقى هدية بابوية عبارة عن كتاب الصلوات، كما أرسل البابا بيلاجيوس الأول[4] أناجيل ومجموعة قوانين مع الأسقف فنيان للأديرة الأيرلندية فى رحلة عودته. كما يقال بأن مولايسى[5] الذى رافق كولومبا فى رحلته إلى روما سنة ٥٦٣م ذهب يبحث عن الكتاب المقدس هناك.

---

(١) Cuckoo .

(٢) Peacom Palldius .

(٣) St. Brigid .

(٤) Pelagius I .

(٥) Molaisi .

ضوفى رحلة الهجرة إلى الشمال للكتب المقدسة هاجرت معها أيضاً الكتب العلمانية.

المناسخ والمكتبات وجلود الكتب الأيرلندية

كان المنسخ يعد الكتب التى تستهلك فى مدرسة الدير كما كان للمنسخ أهمية كبرى بالنسبة لمكتبة الدير أيضاً. تلك المكتبة التى كان عليها ليس فقط أن تسد احتياجات الرهبان الروحية ولكنها أيضاً كانت تستخدم كمستودع للنسخ التى تأخذها البعثات التبشيرية معها للتبشير أو الحجاج معهم فى رحلات الحج، كما كان عليها أن تلبى طلبات الرهبان والحجاج وأعضاء البعثات التبشيرية من الكتب التى يحتاجونها من خارج الدير وليست موجودة فيه. وبينما المخطوطات التى وصلتنا تقف دليلاً قوياً على وجود ونشاط المنسخ ووجود المكتبة ونشاطها، فإن المصادر الروائية فى هذا الصدد قليلة.

إن كل دير حتى أصغرها كان لابد وأن يكون فيه حجرة كتب والتى كانت تستخدم أيضاً كمستودع للرقوق؛ ألواح الشمع؛ وأدوات الكتابة والأحبار. وفى الأديرة الكبيرة مثل دير كونارد الذى كان فيه فى القرن السادس أكثر من ثلاثة آلاف راهب ودارس مقيم كان لابد للمكتبة أن تكون كبيرة وتغطى كل فروع المعرفة البشرية فى أيرلندا وتلبى احتياجات هذا العدد من القراء. وكان المصطلح الأيرلندى الدال على المكتبة هو «بيت المخطوطات» وباللاتينية[١].

ولقد شب حريق فى دير آرماغ سنة ١٠٢٠م أخطأ بيت المخطوطات ولكنه دمر مكتبة المدرسة. وقد جرى ذكر لمكتبة المدرسة فى كتاب لنستر[٢] سنة ١١٦٠م تقريباً. كما ورد من نفس الدير مصطلح «خازن الكتب»[٣] للدلالة على أمين المكتبة. وكان عمل الخطاط منفصلاً عن عمل المزوق أو المزخرف.

لقد كان إعداد مواد الكتابة وتصنيعها يتم داخل الدير. وكانت الرقوق أكثر

---

(١) techscrepta .

(٢) Leinster Book .

(٣) Custos Librorum .

خشونة من تلك المتاحة فى القارة الأم ولكن الأحبار السوداء والألوان ماتزال تحتفظ ببريقها حتى اليوم.

وكان من المألوف أن يرى الرهبان الأيرلنديون الجوالون بشعورهم الطويلة المنسابة وجفونهم المكحولة وعصيهم الطويلة يحملون على أكتافهم حقائب جلدية[(١)] لا يخطئ المرء أنها مليئة بالكتب، تلك الحقائب كانت تعلق على الأكتاف بدوبارة ومثقالة. وتربط الأسطورة الأيرلندية بين هذه الطريقة فى حماية الكتب عند حملها ونقلها بقصص عن قديسيهم المفضلين فبينما سانت باتريك فى رحلته إلى روما صادف ستة من الحجاج يصحبهم عدد مماثل من الصبية الصغار تتدلى من أحزمتهم بعض الكتب وقد علمهم كيف يصنعون حقائب الكتب بل وقدم لهم المواد التى يصنعون منها تلك الحقائب حيث أعطاهم معطفه الجلدى الذى كان يستعمله كصديرية فى صلوات الجماعة[(٢)] طيلة عشرين عاماً. ويقال بأن كولومبا أيضاً حمل الكتب بنفس هذه الطريقة وكان يقوم بنفسه بصناعة حقائب الكتب وصناديق الكتب[(٣)]. وكانت الكتب كما مر بنا توضع فى تلك الحقائب التى تعلق بدورها على جدران الخلوات وخطاطيف المكتبة وهى عادة ماتزال مستخدمة فى أديرة الأقباط. وتقول الأساطير بأن سانت لونجراد عندما مات سقطت حقائب الكتب من على الجدران فى كل أنحاء أيرلندا حتى فى خلوة كولومبا نفسه. ويبدو أن عادة تعليق الكتب هنا ذات أصول شرقية والأختام الجلدية الموجودة على حقائب الكتب الأيرلندية شبيهة بتلك النماذج القبطية. ومن بين النماذج التى وصلتنا حقيبة كتب سانت مودوك[(٤)] وغلاف كتاب آرماغ فى دبلن وغلاف كتاب الصلوات فى أكسفورد. إلى جانب حقائب الكتب، استخدم الأيرلنديون أيضاً صناديق الكتب[(٥)] (وبالأيرلندية[(٦)])، وهى شبيهه بالسلة التى توضع فيها الهدايا التذكارية وحيث ترص فيها الكتب فى وضع أفقى .

---

(١) حقيبة الكتب باللاتينية Sacculi, Cethea, Thiaga Satchels .

(٢) Mass .

(٣) Cumdachs .

(٤) St. Maedoc .

(٥) Capsae Librorum .

(٦) Comdach .

وهذه الصناديق كانت أكثر استعمالاً للكتب غير المجلدة ثم شاع استعمالها بعد ذلك في القارة. نستقى شكل هذه الصناديق من عبارة أسيكوس(١) حدّاد باتريك «الذى كان صانع مناضد القرابين والمكتبات رباعية الجوانب».

ويصف سانت ديجا(٢) «جلود الكتب بأن بعضها سادة، بعضها مغطى بالذهب والفضة والأحجار الكريمة» وكانت الجلود المخيطة هى الأكثر شيوعاً على نحو ما نستقيه من الدير الأيرلندى فى بوبيو «إن الأب آتلا يقوى الكتب عن طريق تكييسها».

والخلاصة أن هجمات الفايكنج خلال القرنين التاسع والعاشر أسفرت عن تدمير المكتبات الأيرلندية. وكل دير منها على الأقل لحقه تدمير جزئى إن لم يكن دمر كلية. لقد كان الغزاة المتصرون أعداء للكتب الأيرلندية محبين فقط لكتب إيرين(٣) وتقول المصادر بأنهم دمروا تلك الكتب بالنار والماء معاً. ولقد اصطحب الرهبان الفارون معهم بعض المخطوطات إلى القارة. والتى واجهت هى الأخرى خطراً جديداً: ذلك أن الكتب المنتجة بخطوط القارة قد جبت الأصول المعدة بخطوط غير شائعة وغير مقروءة ومن ثم أعدمت . فمن بين الثلاثين كتاباً الخاصة بسانت جال والمكتوبة بخط اسكتلندى ليس من بينها واحد يمكن تحقيقه بأى قدر من اليقين. ومع ذلك فإن المكتبات الكبرى فى قارة أوربا تقتنى اليوم من أوائل المخطوطات الأيرلندية أكثر مما هو محفوظ فى أيرلندا نفسها؛ ففى سنة ١٠٠٢م طلب الملك برايان بوروما(٤) من الإكليرية أن تشترى كتباً عبر البحر من القارة حيث دمر الفايكنج كتبهم. ومعظم المخطوطات التى وصلتنا بالخط الأيرلندى، إنما هى أساساً ترجع إلى مجموعات الأديرة التى أسسها الأيرلنديون

---

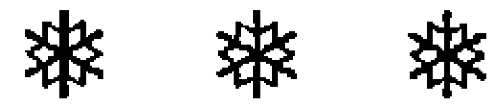
(١) Assicus .

(٢) St. Dega .

(٣) Erin .

(٤) Brian Boroma .

فى القارة الأم؛ والتى جلبها الحجاج معهم أو هرب بها المهاجرون من أيرلندا وحيث من المحتمل أن تكون من نسخ الرهبان الأيرلنديين. إن ذخائر الفكر الأيرلندى التى وصلتنا فى مخطوطات لاتينية محفوظة الآن فى مكتبات فيرتزبرج؛ كارلسرو؛ سانت جال؛ باريس؛ ميلانو؛ تورينو؛ روما.



إنجلترا

بين إنجلترا وإيرلندا:

كانت إنجلترا بلا شك على معرفة بالكتب والمناسخ والمكتبات الرومانية وتجارة الكتب، كجزء من إهتمامها بالثقافة الرومانية ككل. وكانت الكتب اللاتينية تجلب للجزر من القارة الأم وقد شهد القرن الخامس نوعاً من استمرار التبادل الفكرى بينهما. وكانت شروح بيلاجيوس لرسائل بول قد جمعها أحد الكتاب الأيرلنديين أو الإنجليز وأرسلها إلى أيرلندا. وقد وصف لنا **سيدونيوس أبوللينارس**(١) بصورة حية كيف ذهب إلى كليرمونت يبحث عن راهب كان قد اتفق معه على أن يحضر له مؤلفات بعض المؤلفين مثل فوستوس من رايز إلى بريطانيا.

لقد حصَّل الأنجلوساكسون الثقافة الجديدة عن طريقين: فى الشمال من دير أيونا الموجود فى الجزيرة والذى أسسه كولومبا على ساحل اسكوتلندا سنة ٥٦٣م والذى أرسل بعثة ناجحة إلى شمالى إنجلترا إلى أن أوقف نشاطها باجتماع مجلس وايتباى سنة ٦٦٤م، عندما جاءت بعثة من روما إلى إنجلترا ومارست نشاطها فى الجنوب.

ولابد أن يكون هناك فى دير أيونا مكتبة هامة ، وقد حفظت هذه المكتبة مخطوطات مؤسسها محب الكتب والذى كانت مؤلفاته يرجع إليها كما لو كانت هدايا تذكارية؛ كما حفظت نشاطات باحث هام مثل الأب آدمنان (ت ٧٠٤م). ولابد أن يكون **كتاب كلز** قد أنتج فى منسخ دير أيونا قرب نهاية القرن الثامن الميلادى.

وكان **دير نورثمبريا**(٢) يقع كلية تحت تأثير إيرلندا الذى كان مركزاً فى **لندزفارن**، الدير الذى أسسه فى سنة ٦٣٥م **سانت إيدان**(٣)، أحد أتباع كولومبا.

(١) Sedonius Appollinaris .

(٢) Nórthumbria - Lindisfarne .

(٣) St. Aidan .

وتعتبر **أناجيل لندزفارن** أهم إبداعات مدرسة نورثمبريا التى كانت تدار على الطريقة الأيرلندية التى تنظم العمل على أساس تقسيم الواجبات بين الأطراف الداخلة فيه. ولقد توفر على كتابة الأناجيل المذكورة الأسقف إيدفرث(١) ٦٩٨ - ٧١٢م بالخط الأنجلوساكسونى. أما التجليد فقد أعده خلفه إتثلوارد ٧٢١ - ٧٣٧م كما قام الهرميتى بلفريث(٢) بأشغال المعادن والأحجار الكريمة كما قام القسيس ألدرد(٣) بإضافة المصطلحات الإنجليزية إلى النص اللاتينى. ومن السهل إدراك الأثر الأيرلندى فى أعمال الزخرفة والرسم فى مخطوطات نورثمبريا.

وكانت المدارس الأيرلندية مفتوحة للأنجلوساكسون فى شمالى إنجلترا على الرغم من أنه كان من السهل عليهم أن يدرسوا فى أيرلندا ذاتها. ولقد كتب بيديه سنة ٦٦٤م أن كثيراً من الأنجلوساكسون قد درسوا فى أيرلندا وكانوا ينتقلون من خلوة إلى خلوة لتلقى الدروس والكتب من الحكماء الأيرلنديين. ويبدو أنه كان من الضرورى تنظيم مقررات دراسية فى أيرلندا للمتعلمين الإنجليز. لقد كان هناك نحو ألف أنجلوساكسونى من بين ٣٠٠٠ دارس فى بانجور وكانت هناك منطقة مخصصة لإقامتهم عرفت باسم **المثلث الإنجليزى**(٤).

التواجد الرومانى فى الجزر

لقد تصارعت الثقافة الأيرلندية مع الثقافة الرومانية حيث خرجت هذه الأخيرة وحاولت الانتشار من كانتربرى، ذلك أن كانتربرى كانت موطن الكنيسة الرومانية البندكتية التى أسسها سانت أندرو. لقد أرسل البابا جريجورى الأكبر أوغسطين فى سنة ٥٩٦م إلى كانتربرى، وهو الذى قام برفع مستواها كى تكون مقر إدارة بعثات التوسع التبشيرى فى اتجاه الشمال. ولقد كان للتناقض الشديد

(١) Eadfrith .

(٢) Bellfrith .

(٣) Aldred .

(٤) Triam Anglorum .

بين هذه القوى المتصارعة: هبيرنو ـ ساكسون؛ إيطالو ـ ساكسون[1] آثاره العميقة على الفكر وعلى الكتب فى إنجلترا. ولقد كانت هذه الآثار عميقة لدرجة أن الأثر الأيرلندى حدد وبصفة نهائية الخط الذى تكتب به الكتب الإنجليزى أى أنه شكل الخط الإنجليزى وطريقة زخرفة الكتب وتصويرها، بينما الأثر الإيطالى لأنه مهما كان، كان خارجياً عن الجزر ركز على نسخ المخطوطات الإيطالية القديمة وموضوعات الإيضاحيات فى تلك المخطوطات. نرى مصداق تلك الآثار فى أن من بين المخطوطات التى وصلتنا، عشرين فقط بخط الأونسيال الإنجليزى الأصيل بينما الغالبية العظمى هى بخط إنسولار، ذلك الخط المولد من الخطين الأيرلندى والأنجلوساكسونى منذ تروبيه[2] وقد اشتق هذا الاسم لأن الخطين اتحدا وأفرزا خطاً جديداً لا يميل لأحدهما بشكل خاص.

كانتربرى

وطبقاً لما ذكره بيديه فإن جريجورى الأكبر عندما أرسل أوغسطين فى بعثته التبشيرية حملَّة كثيراً من الكتب استخدمها رئيس الدير كنواة لتأسيس مكتبة دير كانتربرى. ومن بين المؤرخين الحوليين الذين كتبوا عن سنة ١٤٠٠م كتب **وليام ثورن وتوماس من إلهام**[3] انهما رأيا هدية جريجورى الأكبر من الكتب فى دير كانتربرى. وحتى المصلح الاجتماعى **جون ليلاند** دهش عندما رأى هذه الكتب قائلاً: «إنها أول كتب فى جميع الكنائس الانجليزية»[4]. ولقد بدأت مكتبة هذا الدير بالفعل بعد نصف قرن من تأسيس الدير عندما قام البابا فيتاليان بترقية الراهب **تيودور الطرسوسى**[5] إلى كبير أساقفة كانتربرى سنة ٦٦٨م. وكان تيودور قد تلقى تعليمه فى أثينا، وكان يعيش فى تلك الفترة فى روما وكان له تابع إفريقى يسمى هادريان ولقد قام تيودور ببناء مدرسة فى دير أوغسطين، هذه

(١) Hibérno - Saxon; Italo - Saxon .

(٢) Traube .

(٣) William Thorne and Thomas of Elham .

(٤) John Leland: "Primitiae Librarum zatius ecclesiae Anglicanae" VitAlian .

(٥) Theadore of Tarsus .

المدرسة الرائعة كانت تدرس فيها إلى جانب اللاهوت؛ الشعر؛ الفلك؛ الرياضيات بل والموسيقى أيضاً. وقد عين هادريان الذى كان بارعاً فى اللغة اليونانية مديراً للمدرسة وأنفق على المكتبة عن سعة.

ومع مرور الوقت أصبحت هناك مكتبتان كبيرتان فى كانتربرى: إحداهما فى كاتدرائية كنيسة المسيح والثانية فى دير البندكتيين فى كنيسة أوغسيطن. وكانت هاتان المكتبتان تعتبران أهم مكتبتين فى كل إنجلترا، إلى أن داهم الملك جورج الثامن أديرة الأمة وبدد كتب كنيسة أوغسطين التى بلغت نحو ثلاثة آلاف مخطوط وأخذ كتب تيودور ووضعها فى مكتبة كنيسة المسيح. وكانت كتب تيودور تضم فيما تضم أعمال هوميروس، يوربيديس، جوسيفوس وكريسستوم وهى جميعاً باللغة اليونانية. وكان الأسقف باركر هو أمين المكتبة المسئول عن المجموعات فى مكتبة كنيسة المسيح فى زمن هنرى الثامن. من جهة ثانية فإن البعثة التبشيرية الرومية جلبت معها بلاشك عدداً من الكتب المكتوبة باللاتينية إضافة إلى كتب مكتوبة باليونانية من روما ونابلى وكان هادريان قبل مجيئه مع تيودور أب دير **نيريدانوم**[١] بالقرب من مونت كاسينو. ومن سوء الحظ فإن كتب تيودور قد احترقت عن آخرها فى الحريق الذى شب سنة ١٠٦٧م ولم ينج من الحريق سوى كتاب **أعمال الرسل**[٢] ربما لأنه كان خارج المجموعة وقت الحريق.

مالمزبرى[٣]

كان أشهر باحث فى كانتربرى هو الشاعر رجل العلم والمعرفة ألدهيلم ٦٤٠ ـ ٧٠٩م.(٤) وقبل أن يتبنى تعاليم تيودور وهادريان كان قد أنهى دراسة مستفيضة فى العلوم الأيرلندية فى دير مالمزبرى وكأب لذلك الدير وبحكم علاقاته بكلا الاتجاهين فإنه فضل المدرسة الأنجلو ـ ساكسونية/ الرومانية وغضب أشد الغضب من بنى جلدته الذين حجوا إلى مراكز العلم الأيرلندية طالما أن الإنجليز

(١) Niridanum .

(٢) Laudianus Codex .

(٣) Malmesbury .

(٤) Aldhelm .

على حد تعبيره يملكون «الشمس والقمر»: تيودور الطرسوسى والأب هادريان. وقد عرف عن ألدهيلم حبه لجمع الكتب وتأسيساً على ذلك فإن مكتبة مالمزبرى لابد وأن تكون كبيرة خاصة وأن قائمة كتب الأب تنطوى على عدد كبير من الكتب الكلاسيكية.

ويرماوث ـ جارو[١]

وكان هناك طالب علم آخر فى كانتربرى لم يعرف عنه أنه باحث ودارس ولكنه من أهم الشخصيات فى مجال علم الكتب والمكتبات، ذلك هو بندكت بيسكوب[٢]. وفى فترة التوفيق بين البعثات الأيرلندية والرومانية التى بدأت مع اجتماع الكنائس (سينود) فى هوايتباى سنة ٦٦٤م كان هذا بندكت موضع ثقة ولفريد من يورك[٣] ـ الذى كان قائد المخلصين الرومان ـ ولقد كان هذا البندكتى من طليعة الزاحفين للحج إلى «مدينة روما الخالدة» وعندما عاد هؤلاء الحجيج إلى بلادهم حملوا معهم الهدايا التذكارية: وصور القديسين، والملابس وحمل المتعلمون منهم الكتب. ولم يكن هناك أثمن بين الكتب المحمولة من كتاب «حياة وإنجازات الرسول بول» المصور والذى نشر فى روما نحو سنة ٧٥٠م

وعلى طريقة سانت بندكت كان هناك فى أوربا مركزان كبيران للتعليم والبحث العلمى فى ليون وليرانز، وقد عرف بهما فى رحلتيه الأوليين اللتين قام بهما سنة ٦٥٣، ٦٦٥م فى صحبة ويلفرد. وفى رحلته الثالثة سنة ٦٦٩م عاد إلى انجلترا وفى صحبته هذه المرة تيودور الطرسوسى الذى كان فى طريق لتولى أسقفية كانتربرى . أما سائر رحلات بندكت فيبدو أنه خصصها جميعاً لاصطياد الكتب بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح. والدير المزدوج الذى أسسه فى نورثمبريا ـ ويرماوث وجارو ـ سنة ٦٧٤م استفاد استفادة حقيقية من هذه الرحلات الكتبية.

---

(١) Wearmouth - Jarrow .

(٢) Benedict Biscop .

(٣) Wilfred of york .

لقد بذل بندكت جهوداً غير عادية فى تأسيس ديره، فقد جلب عمال البناء له من فرنسا، وزين جدرانه بصور من مناطق نائية مختلفة حتى يعلم هؤلاء الجهلة بمناطق العالم المختلفة. وجلب معه أيضاً من روما **جون أرشهنتر**[1] من أتباع سانت بيتر حتى يعلِّم الرهبان الذين لا يعرفون اللغة اللاتينية وآدابها، أمجاد الثقافة اللاتينية والفكر اللاتينى. ومع كل هذا كان همه الأكبر هو مكتبة الدير. نعلم ذلك من التقارير التى كتبها بيديه الذى مر ذكره من قبل ـ والذى كان واحداً من أكبر المستفيدين من المكتبة التى كونها بندكت بعد كد ونصب. ويذكر بيديه أن بندكت لم يكن يرجع أبدًا بيدين خاليتين من الكتب فى كل رحلاته فيما وراء القنال الإنجليزى. ولكنه فى كل مرة كان يرجع محملاً بكتب، وهدايا تذكارية لتجميل الدير. وهكذا فإنه فى رحلته الرابعة سنة ٦٧١م أحضر معه عدداً قليلاً من الكتب فى كل الجوانب الدينية، «بعضها مشترى بأثمان معقولة وبعضها مهدى إليه من الأصدقاء» وكان يجمع الكتب من أنحاء مختلفة ثم يخزنها فى مكان واحد مركزى ريثما يحملها جميعاً معه فى رحلة العودة وغالباً ما كانت فيينا هى هذا المكان المركزى الأثير عنده للتخزين حيث كان له عدد من الأصدقاء المقربين هناك. وقد أسفرت آخر رحلتين له سنة ٦٧٨م و٦٨٤م عن عدد ضخم من المفردات للدير من روما.

ولما دنا الأجل من بندكت سنة ٦٩٠م طلب إلى الرهبان الحفاظ على المكتبة العظيمة التى كونها بجهد جهيد من روما وكان نص عبارته «حافظوا على هذه المكتبة بشدة ولا تدعوا الإهمال يتسبب لها فى أى خراب أو دمار. ولسوء الحظ نسى بيديه أن يمدنا بقائمة مفصلة عن مخطوطات بندكت.

ولقد قام خلف بندكت المسمى كيولفرد بمضاعفة المجموعات التى تركها له سلفه. وهو لم يصحب بندكت إلى روما إلا رحلة واحدة سنة ٦٧٨م. ولما جف نبع الكتب التى ترد إليه من الدول الأخرى فإنه بذل جهوداً كبيرة لكى يبنى المنسخ الخاص بالدير وقام بنفسه على نسخ ثلاث نسخ من **الكتاب المقدس اللاتينى**[2] الذى كتب أصوله جيروم فى القرن الرابع ووضعت هذه النسخ فى المكتبة إضافة إلى نسخة أخرى كان قد جلبها معه من روما. وعندما إستقال من

(١) John Archhanter .

(٢) Vulgate .

عمله كأب للدير حتى يتفرغ لحياته الخاصة فى روما، أخذ إحدى هذه النسخ معه كهدية لبابا روما. وللأسف فإن كيولفرد لم يتم رحلته أبدا إلى روما بل توفى بالطريق فى لانجرس سنة ٧١٦م. والكتاب المقدس الذى قصد إهداءه إلى البابا وصل إلى دير **سان سلفاتور فى جبل أمياتا بالقرب من سيينا**[١] واستمر فى الوجود حتى الآن وعرف باسم **كراس أمياتينوس فى مكتبة لورنتيان** التى بناها آل مديتشى فى **فلورنسا**[٢]

أما النسختان الآخريان اللتان كتبهما كيولفرد لمكتبة ديرماوث وجارو فلم يصلنا منهما سوى أوراق مبعثرة عثر عليها فى إنجلترا. وقد كتبت جميعها بخط أونسيال وأهم كثيرا من أى نسخ أخرى كتبت بخط إنسولار عن الأصول اللاتينية مما يحسب لإنجازات دير نورثمبريا.

والمصدر الرئيسى للتاريخ الببليوجرافى لدير ويرماوث - جارو هو الحوليات التى كتبها ساكن الدير العظيم بيديه (٦٧٣ ــ ٧٣٥م)، وانتاجه الفكرى الغزير لايمكن أن يبرر إلا على ضوء وجود مكتبة قوية كتلك التى أسسها بندكت وطورها كيولفرد. وإلى جانب ذلك كان بيديه ناسخاً ممتازاً كتب كثيراً من المخطوطات بخط يده بدقة الباحث وتفانى المخلص ويقول عن نفسه فى هذا الصدد «كما أملى على نفسى فأنا فى نفس الوقت مؤلف وسكرتير».

وعلى درب تلك الأديرة العظيمة سارت أديرة أخرى وكاتدرائيات مثل: بيرى سانت إدموندز؛ ديرهام؛ لتشفيلد؛ بيتربورو؛ ونشيستر؛ هكسام ــ حيث قام الأسقف أكا بتاسيس مكتبة عظيمة -؛ إكستر؛ نورسلنج - حيث كان بونيفاس طالبًا -. وقد قامت الراهبات أيضاً بنسخ الكتب وتزويقها وكن يعرفن فقط من خلال التوقيع بحروف سانت بونيفاس.

وللأسف لم تصلنا فهارس من الحقبة الأنجلوساكسونية. وإذا حاولنا استرجاع ما كانت عليه مجموعات تلك المكتبات من خلال كتابات ألدهيلم وبيديه فإننا لن نتعرف إلا على الكتب التى قرآها فقط. ونحن كذلك لا نعرف حتى الآن أى شئ عن تنظيم المكتبات الأنجلو ساكسونية.

---

(١) San salvatore de Monte Amiate near Sienna .

(٢) Codex Amiatinus - Laurentian Library - Florence .

يورك وألكوين[١]

كانت الغارات التى شنها رجال الشمال (النورمانيون) على لندزفارن هى بداية تخريب مكتبات نورثمبريا. وإن كانت بعض الكتب ومن بينها الأناجيل المشهورة قد حملها المهاجرون معهم إلى ديرهام.

إلا أنه على الجانب الآخر كان هناك فى الوقت نفسه مركز علم جديد يجرى إنشاؤه على الحدود مع ميدلاند على أطلال أديرة قديمة، ذلك هو دير يورك. فى هذه المنطقة كان هناك كبير الأساقفة ولفرد ٦٦٤ ــ ٧٠٩م يخدم فى **إيبوراكوم**[٢] تلك المدينة التى كانت فى يوم من الأيام مدينة ومركزاً إداريا رومانياً. وكانت الكنيسة فى ريبون قد أعدت نسخة من الكتاب المقدس مكتوبة بحروف من ذهب على رق قرمزى؛ وجلدتها فى جلدة من ذهب «وهى اعجوبة لم يسمع بها من قبل» فيما يذهب بعض الكتاب. ولقد قام ولفرد بعد عديد من الرحلات إلى روما ببناء كاتدرائية فى يورك. وفى سنة ٧٣٢م تولى **إيجبرت**[٣] وهو ساكسونى غربى وتلميذ بيديه وظيفة الأسقفية. وخلال النزاع الذى نشب بين إيجبرت وخليفته **آيلبرت** ٧٦٧ ــ ٧٧٨م[٤] أصبحت يورك مهداً للمعرفة والبحث العلمى وعلى مدى نصف قرن بزت كل المدارس الأخرى فى إنجلترا وربما فى الغرب كله.

وكان تلميذ آيلبرت النجيب هو ألكوين. وكان آيلبرت يراسل لول من ماينز[٥] باسم مستعار هو (كوإينا)[٦] حول طلبات لول من الكتب. وكان يصحب تلميذه ألكوين فى رحلاته إلى مورباخ فى القارة الأم ثم بعد ذلك إلى روما. ولقد عين ألكوين أمينًا لمكتبة آيلبرت ومن هذه الناحية آدار تراث آيلبرت

(١) York and Alciuin .

(٢) Eboracum .

(٣) Egbert .

(٤) Aelbert .

(٥) Lull of Mainz .

(٦) Koaena .

الفكرى منذ استقالة الأسقف سنة ٧٧٨م إلى أن ارتحل هو نفسه إلى فرنسا سنة ٧٨١م. وفى قصيدته عن كنيسة يورك يصف ألكوين مجموعة الكتب التى كونها إيجبرث بأنها «مجموعة كتب سامية للغاية تضم كل أنواع العلوم»؛ ويوجه ألكوين كلامه للقراء قائلاً «هنا ستجد كتابات كل آباء الكنيسة، كل الهبات التى قدمها لايتوم القديم إلىَّ؛ كل التراث الفكرى البراق الذى تلقاه اللاتين من الإغريق؛ الحكمة التى أبدعها العبرانيون من الرفعة السماوية الدافقة وإشعاعات البحث العلمى التى تشع من إفريقيا». وبعد ذلك قام ألكوين بسرد أسماء المؤلفين فى مكتبة إيبراكوم بما فى ذلك كل الكتب الدينية ومختارات من الكتب الكلاسيكية. والقائمة ليست كاملة ونحن نعرف دون أن يقول لنا ألكوين أن القائمة تضم فقط نخبة من الأسماء المعروفة لأن الحصر الكامل للكتب فى المكتبة لايدخل فى اهتمامه.

وعندما تقدم ألكوين فى السن تحسر على مفارقته لمكتبة يورك العظيمة، ومبدياً أسفه لصغر حجم المكتبة وقلة الكتب فى دير سانت مارتن فى تورز وكتب إلى شارلمان سنة ٧٩٦/٧٩٧م يقول:

> «أعطنى تلك الكتب البحثية الجميلة التى تكونت من خلال جهود أستاذى آيلبرت ومن خلال جهودىَ أنا أيضاً. لقد كنت أستطيع قراءتها فى شبابى. وإذا أنت بحكمتك العظيمة وافقت، فسوف أرسل فريقًا من أتباعى إلى هناك كى يحملوا إلى فرنسا بعض «زهور بريطانيا». إن يورك لن تظل تلك الحديقة المسورة ولكنها سوف تفيض على حقول تورز بذخائر الجنة وساعتها سوف تتحقق الكلمة: أيها المحبوب تعال إلى حديقتك وكل الفواكه اللذيذة».

ويقال فى تفسير هذه الجملة الأخيرة بالذات أنها صدرت على لسان آيلبرت قالها لألكوين طالبًا منه أن يأخذ مكتبته عندما استقال من منصبه كأسقف وأن ألكوين ترك المكتبة فى يورك حتى سنة ٧٩٦م عندما نقلها إلى تورز. ويرى البعض أن هذه العبارة الأخيرة تشير إلى تعيين ألكوين أمين مكتبة كاتدرائية يورك

واستعارته بعض كتبها فى فترة متأخرة من حياته، وربما تشير فقط إلى مجرد الرغبة فى نسخ نُسخ منها ترسل إلى فرنسا.

لقد أدخل ألكوين إلى فرنسا مفهوماً عريضاً للبحث والدرس، مفهوم لايقتصر على سن معين ولا يقف عند حد معين. وبالنسبة له كان الفكر العلمانى هو المدخل الصحيح للإشباع الدينى وأحد الأعمدة السبعة التى تقوم عليها المعرفة الحقة وتأسيسًا على ذلك المفهوم لا يمكن استبعاد الإنتاج الفكرى ألكوين باللغات المحلية. وعلى ضوء ذلك فقد طلب رهبان ويرماوث ـ جارو من الكون أن يكتب شرحًا للائحة بندكت بالأنجلوساكسونية.

لقد استمر ألكوين رغم رحيله على علاقته مع بريطانيا، لقد كان يواسى الرهبان الذين يعانون من الغزو الدنمركى لنورثمبريا سنة ٧٩٣م، وكان يحثهم على ألا يهملوا مكتباتهم ومناسخهم؛ مذكراً إياهم بأنه كم نسخ من المخطوطات فى شبابه.

ألفرد الأكبر وأثلستان[١]

بعد أن رحل ألكوين إلى البلاط الفرانكى بدأت الثقافة فى الجزر البريطانية فى الإنهيار. ولكن تأثيرها فى القارة الأم أخذ فى التعاظم وذلك بفضل الباحثين الذين هربوا صوب القارة الأم. لقد دمر رجال الشمال مكتبات الأديرة فى شمال ووسط إنجلترا وفى سنة ٨٥١م تم إحتلال كانتربرى ولندن. وكانت لندزفانووير ماوث ـ جارو قد دمرت من قبل.

ولم تكن هناك أخبار عن يورك. ولم تكلل جهود الملك ألفرد الأكبر ٨٧١ ـ ٩٠١م لدعم والأخذ بيد الثقافة المنهارة إلا بنجاح محدود مؤقت. لقد أعاد الملك بناء الكنائس والأديرة التى كانت سابقاً تزخر بالكنوز من الكتب ودعم الإكليريين الذين يستطيعون ترجمة الكتب اللاتينية. لقد تطلبت نشاطات الترجمة الواسعة التى تمت آنذاك والتى اعتبر ألفرد بسببها منشئ الفكر الإنجلوساكسونى الجديد، تطلبت إنشاء مكتبات قوية فى المقر الملكى فى كل من ونشستر ولندن. ولكن مع ذلك لم تصلنا أيه تقارير تشير إلى وجود تلك المكتبات. ولقد قام الملك بإرسال ترجمة كتاب جريجورى إلى كل الكاتدرائيات.

---

(١) Alfred the Great and Athelstan .

وكان أحد خلفاء الملك ألفرد جمّاعة للكتب ومحبا لها ذلك هو الملك أثلستان ٩٢٤ ــ ٩٤٠م. وقد وصلتنا قائمة كتب قصيرة من مكتبته تكشف عن مدى التنوع في هذه المجموعة ومن بين المؤلفين في هذه المجموعة نجد: بيرسيوس؛ دوناتوس؛ سيدوليوس؛ إيزيدور؛ ألكوين وغيرهم كثيرون. وربما كانت هذه القائمة تكشف عن شحنة الكتب المرسلة إلى دير أوغسطين في كانتربرى حيث وجدت هذه الكتب هناك بعد ذلك. كما قام أثلستان بتقديم مجموعات من الكتب إلى كاتدرائية كنيسة المسيح وغيرها من الكنائس. كذلك كانت شقيقة الملك إديث تقوم بتوزيع نسخ من الكتاب المقدس على كنائس وأديرة جاندرشايم. وكان هناك تبادل للكتب بين البلاط الملكى هنا والبلاطات الأخرى فى القارة الأم. لقد قام أوتو الأكبر زوج شقيقة الملك (إديث) بنسخ كتاب مجموع الأناجيل الذى صار بعد ذلك يتوارثه ملوك إنجلترا. كما تلقى الملك الهدايا من هوج كابيت[١] ملك فرنسا. ومن بين الكتب الألمانية التى تلقاها الملك مخطوطة القصيدة المقدسة الساكسونية القديمة والتى كتبت فى كانتربرى أو ونشستر والتى تم الاحتفاظ بها فى مكتبة جون كوتون، وغيرها من الكتب والقصائد.

الإصلاح الكلونى و ونشستر[٢]

إن إصلاح الحياة الدينية الذى لم يستطع الملك ألفرد إتمامه، توفر على استكماله أمير الكنسية دونستان[٣] (توفى سنة ٩٨٨م) عن طريق تأسيس طائفة كلونى ومن خلال عملية الإصلاح هذه أعطيت الكتب والمكتبات اهتمامًا خاصاً. وعن طريق القارة الأم دخل الخط الكارولنجى والزخرفة والتزويق إلى المناسخ الإنجليزية ودواوين الإنشاء. وكان دونستان ينبه الرهبان إلى ضرورة تجويد الخط ورقة النسخ وكان يراجع بعض المخطوطات بنفسه ومن خلال دير جلاستونبرى بدأ عملية الإصلاح الدينى كأب فى هذا الدير. ومن الأديرة الأربعة التى امتدت إليها يد الإصلاح كان أهمها على الإطلاق دير ونشستر تحت رئاسة الأب آيثلولد[٤] (توفى سنة ٩٨٤م). ولقد أنشئت هناك مدرسة للخطوط وزخرفة

(١) Hughcapet .
(٢) Cluniac Reform and Winchester .
(٣) Dunstan .
(٤) Aethel-Wald .

الكتب امتد تأثيرها طوال فترة الحكم النورماندى. كما قام آيثلوولد ببناء أديرة جديدة مثل دير بيتربورو الذى أوقف عليه عشرين مخطوطاً وعلى غيره من الأديرة .

لقد اهتمت الأديرة الأنجلوساكسونية باللغات المحلية العامية وأحسن نثر أنجلوساكسونى كتبه طالب فى ونشستر هو الأب آيلفريك من آيشام(١) (توفى ١٠٢٠م). وقد كان هناك طالب آخر بنفس الاسم آيلفريك من مدرسة ايثلوولد عندما عين فى وظيفة كبير الأساقفة فى كانتربرى سنة ٩٩٥م إشترط على أى قسيس قبل أن يبدأ فى ممارسة عمله أن يتملك عشرة كتب عبادة. ومن ثم بدأ الإكليريون من جديد فى اقتناء الكتب. وكان من بين الهدايا الكثيرة التى قدمت مباشرة قبيل الغزو النورماندى سنة ١٠٦٦م إلى مكتبات ديرهام، جلاستونبرى، سانت أوليانز وإفيشام. مجموعة من ستين كتاباً قدمت لدير سانت بيتر فى إكستر بواسطة الأسقف ليوفريك(٢) (١٠٥٠م). وهذه الكتب موجودة الآن بين مقتنيات كاتدرائية إكستر ومن بينها كتاب أكستر. وهو أشهر مجموعة قصائد شعرية أنجلوساكسونية. وكان من بين الواهبين رجل عادى اسمه ألدرمان أيلفريك وزوجته فيريدج قدماً لكنيسة المسيح فى كانتربرى فى سنة ٨٥٠م كتاب أوريوس(٣) (موجود الآن فى ستوكهولم) وهو كتاب استخلصوه من القراصنة. وكثير من المخطوطات الثمنية الأنجلوساكسونية التى كانت مقتناة فى كنيسة المسيح وسجلت فى فهرس أعد سنة ١٣٣٠م وقدمت للمكتبة بطرق مشابهة.



(١) Aelfric of Eysham .

(٢) Leofrie .

(٣) Cadex Aureus .

الأيرلنديون والأنجلوساكون
على أرض القارة الأم

عرف عن الأمة الاسكتلندية حب الرحلات والمغامرات بحيث أصبحت نمط حياتهم، كما عرف عن الأيرلنديين ذلك لدرجة أنهم انسخلوا عن العالم وأصبحوا يبحثون عن الوحدة والإنفراد حتى فى المحيط. وكان لرغبتهم الشديدة فى خدمة العمل المقدس ونشر الدين أكبر الأثر فى هجرتهم وحملهم ثقافتهم وكتبهم إلى جميع أنحاء القارة.

ففى سنة ٥٩٠م غادر كولومبان[١] وإثنا عشر من أصدقائه دير بانجور قاصداً الارتحال إلى مملكة ميروفنجيا لرفع مستوى الحياة الدينية فى تلك المملكة. وكانت الأديرة الثلاثة التى أسسها فى بيرجنديا وهى أناجريى، لوكسويل، فونتين[٢]؛ مراكز إشعاع دينى فى كل أنحاء فرنسا واستمر تأثيرها فى النمو والازدياد حتى بعد نفى مؤسسها خارج فرنسا على يد الملكة برونهلدة سنة ٦١٠م[٣]. وفى نانتس[٤] - حيث أرغمته الرياح العكسية على تغيير وجهته عن وطنه - أبحر كولومبا فى نهر الراين ليبدأ عمله من جديد فى ألمانيا قرب بحيرة كونستانس، ذلك أن مرض تلميذه جال (جاللوس)[٥] اضطره إلى تغيير خططه وأسس دير شتياج سنة ٦١٣م واضطر كذلك إلى أن يقبل حماية ملوك اللومبارد وختم حياته بتأسيس دير بوبيو فى إيطاليا سنة ٦١٤م.

لقد كان كولومبا أهم راهب أيرلندي حرص على أن يحمل معه ثقافته الأيرلندية إلى القارة الأم. لقد حمل معه أجمل مظاهر الحياة الديرية وحياة الرهبنة وأعنى به الجانب الفكرى البحثى والتعليمى وإخلاصه التام للعقيدة والإيمان وحدهما وإلتزامه بإنكار الذات والسمو الروحى. ورغم كل الصعاب التى واجهته فى حياته، وكل العقبات التى وضعت فى طريقه وكل المخاطر التى

(١) Columba (Columban; Columbanus) .

(٢) Anagray, Luxuil, Fontaine .

(٣) Brunhilde .

(٤) Nantes .

(٥) Gall (Gallus) .

صادفته وعدم الاستقرار فى حياته فإن كولومبا بسبب تعليمه فى بانجور. أصبح رجل الإنجازات التعليمية والعلمية الكبيرة. وتعكس مجموعة القواعد الدينية التى وضعها فى لائحته للأديرة التى أسسها وكتاب التعاليم الذى ألفه، روح الفداء الأيرلندية التى تقوم على السمو الروحى وإنكار الذات. وتعكس خطاباته وقصائده الشعرية معرفته وحبه للمؤلفين الكلاسيكيين وكان فى بعض قصائده ينصح الشباب ــ وهو رجل مسن ــ بقراءة أعمال فرجيل وهوراس إلى جانب أعمال المؤلفين الكنسيين كما كان يفعل هو فى سن الشباب. ومن الثابت لنا أن كتبه وقصائده كان تتاح فى أديرته وكانت تنسخ وتقرأ بكثرة على النحو الذى نصادفه فى تطور الحياة الفكرية فى دير لوكسويل ودير بوبيو.

بونيفاس[(١)]

بينما كان كولومبا يعمل فى فرنسا وشمال إيطاليا وجاللوس يعمل فى سويسرا، كان بونيفاس ثالث المبشرين البريطانيين العظماء رسولاً إلى شمالى ووسط ألمانيا. لقد كان بونيفاس أنجلوساكسونى وككل الرهبان تلقى بونيفاس تعليمه الديرى فى إكستر ونيرسلينج فى إنجلترا ومن ثم غادرها فى بعثة تبشيرية إلى بلاد الفريزيان (هولندا) وقد أحضر معه حكمة الأنجلو ساكسون وغرسها فى أرض خصبة هى ألمانيا فى دير فولدا[(٢)] الذى أسس سنة ٧٤٤م على يد ستورمى البافارى[(٣)] بتشجيع من كبير أساقفة ماينز.

لقد كان بونيفاس محباً عظيماً للكتب وتظهر فى خطاباته دائماً طلبات الكتب من أماكن مختلفة ومعظمها موجه إلى مصادر إنجليزية. وكان يتوجه إلى تلميذه الأب دودو[(٤)] للحصول على كتب من مكتبته وخصوصاً شروح خطابات سانت بول وإلى كبير أساقفة كانتربرى نوتهلم للحصول على نسخة من المراسلات بين

---

(١) Boniface .

(٢) Fulda .

(٣) Sturmi .

(٤) Duddo .

أوغسطين وجريجورى الأكبر. وفى سنة ٧٣٥م طلب الحصول على نسخة من أعمال بيديه، الذى كان قد توفى حديثاً ،من الأب هويتبيرت[١] فى ويرماوث وكرر هذا الطلب من كبير أساقفة يورك إيجبرت. كذلك طلب بونيفاس كتاب الأنبياء الذى كتبه أستاذه ومعلمه وينبرت من نيرسلنج بخط الأونسيال حيث أن ضعف بصره لم يكن فى ذلك الوقت يمكنه من قراءة الحروف الصغيرة المتشابكة كما يقول فى إحدى رسائله. وهناك الكثير جداً من الطلبات المشابهة للكتب لم تكن متاحة فى ألمانيا.

وكان من المهم جداً لراهبات إنجلترا المتعلمات أن يلبين طلبات بونيفاس. فقد طلب إلى **الأم إيادبورجا**[٢] ذات مرة أن تعد نسخة من رسائل بيتر الموجودة فى مكتبة دير ثانيت باستخدام الذهب الذى كان عليها أن تتلقاه من قسيس كنيسة **إيوبان**[٣]. ولم تكتف بإرسال هذا الكتاب وإنما أرسلت معه أيضاً كتباً إنجيلية أخرى. وكثيراً ما كان يطلب إليها إرسال كتب معينة ولكنها تفشل فى الحصول عليها. وعلى العكس من إنجلترا كانت روما مصدراً خصباً لإمداده بالكتب ولم تخيب ظنه أبداً. ولقد أرسل إليه البابا جريجورى الثانى **كتاب القانون**[٤] الذى وضعته الكنيسة الرومانيةُ بعد تنصيبه أسقفاً للبعثة التبشيرية مباشرة فى سنة ٧٢٢م. كما دبر له الكاردينال الشماس جيمولّلوس[٥] نسخة من سجل جريجورى الأكبر وهو النسخة التى أرسلها بونيفاس بعد ذلك إلى إيجبرت فى يورك.

لقد كان بونيفاس يحمل كتبه دائماً معه فى رحلاته. وعندما هجم الجنود الفريزيان على صناديق الكتب التى كانت فى صحبة القديس العجوز فى رحلته الأخيرة ــ وهو ماحدث أيضاً مع آخرين كانت معهم أحمال من كتب ــ فوجئوا

(١) Hwetbert .
(٢) Eadburga of Thanet .
(٣) Eoban .
(٤) Codex Canonum .
(٥) Deacon Gemmullus .

كما يقول كاتب سيرة بونيفاس، **واليبالد**[1] «بصناديق كتب وليس صناديق ذهب وكتابات دينية وليس فضة» ولما ترك الفريزيان الصناديق أرسلت مباشرة إلى موطنه فى فولدا مع عظام أعضاء البعثة ومن بين الكتب كان هناك مجلد يحمل علامة الشرطة المائلة التى تركها سيف قاتله الفريزيان. وقد كتب **أوتلوه**[2] الراهب فى دير إميرام[3] يؤكد أنه رأس العلامة فى فولدا عندما نفى إليها (١٠٦٢ ــ ١٠٦٦) وقد أعاد البحث العلمى الحديث بناء القائمة الببليوجرافية للكتب التى كانت بصحبته فى رحلته الأخيرة. وهذه القائمة المعنونة **(كتب بونيفاس)**[4] محفوظة الآن فى كاتدرائية فولدا. وهذه القائمة تتضمن ثلاثة أعمال فى عدة مجلدات نسردها على النحو الآتى:

* **كراس فيكتور**[5] وهو إنجيل مكتوب بخط أونسيال للأسقف فيكتور من كابو سنة ٥٤٦م. عليه تعليقات بلغة أيرلندية محلية تكشف عن أنه ربما وصل إليه عن طريق أيرلندا.

* **كراس رايجنترودس**[6] وقد سمى باسم المرأة التى تملكته وتتضمن كتابات معاوية للأديان بخط لوكسويل. وهذا المجلد هو الذى يحمل علامة السيف الذى قتل به بونيفاس.

* **أناجيل كادموج**[7]. والتى سميت باسم النَّساخ الذى نسخها فى مطلع القرن الثامن الميلادى.

وجلدة كل كتاب من هذه الكتب قديمة قدم الحليات والمحتويات فى الكتاب

(١) Wallibald.

(٢) Otloh.

(٣) Emmeram.

(٤) Codex Bonifatiani.

(٥) Victor Codex.

(٦) Ragyntrudis Codex.

(٧) Cadmug.

نفسه كما أنها فريدة فى نوعها قيمة فى شكلها. وهى من أقدم النماذج التى وصلتنا من جلود وبصمات وصناعة العصور الوسطى.

رفقاء السفر والخلفاء:

كان كولومبا وجاللوس وبونيفاس هم حملة الثقافة من الجزر البريطانية إلى القارة الأم . وإلى جانب هؤلاء كان ثمة عدد كبير من أتباعهم جاسوا خلال فرنسا.

وكان هناك سيل من المهاجرين الأيرلنديين والأنجلوساكسون إلى أرض القارة فى القرن التاسع تحت وطأة الغزو والخطر المتمثل فى الفايكنج. أو كما كتب **هيريك من أوكسير**[1] عن تشارلز الأصلع «لماذا؟ يجب أن أذكر أيضاً الأيرلنديين، لقد هاجروا كلهم تقريباً إلى شواطئنا غير مبالين باتساع البحر بيننا وقد أحضروا معهم خليطاً من الفلاسفة».

هؤلاء الناس جاءوا كمبشرين ومدرسين للأديرة والبلاط.

لقد كان النشاط التبشيرى للأيرلنديين والأنجلو ـ ساكسون على نفس القدر من الأهمية لنشر الثقافة والخط والفكر والمكتبات. إن سجل نشاطاتهم فى إنشاء الأديرة يتواكب مع إنشاء المكتبات فى شمالى فرنسا وألمانيا. وكل دير جديد يعنى كنيسة جديدة ومدرسة جديدة ومنسخاً جديداً ومكتبة ويعنى مجمعاً جديداً للكتب. هناك كانت تجمع الكتب وتحفظ وتنسخ ومعها تجمع هدايا الكتب والمبادلات لتقدم فيما بعد إلى الأديرة الفرعية الجديدة.

لقد كانت الكتب هى أثمن المقتنيات التى يحملها الراهب فى الحقيبة الجلدية على كتفه. وكان الضيف العابر لا يترك شيئاً للدير الذى استضافه أثمن من كتاب. وكانت المكتبة المحمولة التى تنتقل مع صاحبها فى رحلته ذات دلالة أهم وأعظم من استخدامها فى العبادة والقراءة: لقد حملت معها ثقافة الجزر البريطانية إلي حيث يرحل رجالها كما قال كولومبا أبو الرهبان الأيرلنديين الرحالة.

---

(١) Heiric of Auxerre .

ظهر فى دير لوكسويل مستوى جديد لإنتاج الكتب وهو الدير الذى أسسه كولومبا سنة ٥٩٠ ولم يلبث هذا المستوى أن انتشر فى كل أنحاء فرنسا. لقد كان هنا فى لوكسويل ظهور الحروف الأولى المزخرفة وقد سميت باسم هذا الدير. هذا الانسجام فى كتابة الحروف الأولى وتنسيقها وزخرفتها وصل إلى مستوى عالٍ وعلى العكس مما نتوقع جاء خالياً من أية عناصر أيرلندية. وأقدم مخطوط أنتج فى هذا الدير بهذه الكيفية هو رسائل أوغسطين وهو الآن فى مكتبة مورجان وقد كتب سنة ٦٦٩م. وأجمل نموذج يحمل هذا الأسلوب عبارة عن كتاب العبادات(١) الذى أنتج سنة ٧٠٠م. وهذا النص هو مصدر هام للمعلومات عن العبادة عند طائفة سانت جال، وقد كتب بكل تأكيد فى بورجانديا ولا نستطيع أن نجزم بأن لوكسويل هو مصدره الأصلى.

وهناك نحو ١٦ مخطوطة أنتجت قبل منتصف القرن الثامن فى لوكسويل وصلت إلينا. والمخطوطات المتأخرة منها والتى من بينها كراس راجنترودس الذى أشرنا إليه من قبل تشير إلى فترة الانهيار التى بدأ فيها غزو العرب لأوربا وهناك كتاب تراتيل دينية (موجود فى باريس: المكتبة الأهلية برقم ٩٤٢٧) ينظر إليه الباليوجرافيون ومؤرخو الفن على أنه أكمل نموذج وصل إلينا من مدرسة الخطوط فى لوكسويل، كتب وزخرف فى دير **سانت جوليان فى موريجنى**(٢) بالقرب من باريس فى نهاية القرن السابع. ويبدو أن المنطقة فى وحول باريس كانت تضم عدداً من المناسخ الهامة. وأنه فى هذه المنطقة وليس فى دير لوكسويل تطور خط الكتاب الميروفنجى.

لقد وصل تأثير لوكسويل إلى الجنوب حيث شمالى إيطاليا إذ أرسل بعض الخطاطين إلى هناك، وإلى الشرق حيث ألمانيا وحتى دير **جرانفلدن**(٣). ومن

(١) Missale Gallicanum .

(٢) St, Julien in Morigny .

(٣) Granfelden .

الثابت تاريخياً أن الأب الثانى فى دير لوكسويل: يوستاس (المتوفى سنة ٦٢٩م)[١] إرتحل يعظ حتى وصل إلى بافاريا. وهناك عدد كبير من الأديرة فى فرنسا كانت تعمل بالقواعد التى أرساها كولومبا.

وفى الشمال كان الدير الإبن لدير لوكسويل هو دير كوربى الذى أسسته فى سنة ٦٦٠م الملكة باثلدس[٢] وحيث جلبت له الأب والرهبان من الدير الرئيسى فى بيرجنديا. ومنذ نشأته الباكرة كانت الدراسة والمدرسة مدعومان بمكتبة قوية ذات مستوى عال. ولكن أقدم المخطوطات فى الدير الإبن لابد وأن يكون أحدث من أحدث أى مخطوط مماثل فى الدير الأب. وكانت معظم المخطوطات فى المكتبة عبارة عن نسخ مأخوذة عن أصول لاتينية قديمة ولكن بخط أونسيال، هذه الأصول الإيطالية كان قد جلبها **الأب جريمو**[٣] سنة ٧٣٩م من روما إلى كوربى. وتحت تأثير هذه الأصول الإيطالية، تقدم منسخ كوربى من خط إلى خط من الخطوط الرئيسية، هذا التقدم الذى التحم مع الاصلاحات التى أدخلها شارلمان على الكتابة الأوربية.

لقد كانت هناك مستعمرة ديرية أيرلندية أخرى ليست ببعيدة عن كوربى، أسست فى نفس الوقت معها فى بيرون[٤]، وضعت فى هذه المستعمرة كل الهدايا التذكارية وكل متعلقات بعثة فورسى[٥] التبشيرية. وكان الأب كيلان (توفى سنة ٧٠٦م)[٦] يراسل الأنجلو ـ ساكسونى أدلهلم وطلب منه نسخة من أشعاره. كما كانت هناك مراسلات منتظمة مع دير سانت ركواير[٧] (سنتولا) الذى أسس سنة ٦٢٥م بالقرب من فم الخليج سوم[٨] على يد القديس

---

(١) Eustace .

(٢) Bathildis .

(٣) Grimo .

(٤) Péronne .

(٥) Fursey .

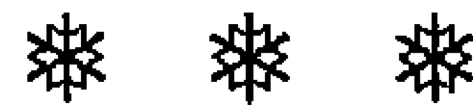
(٦) Cellan .

(٧) Requier (Centula) .

(٨) Somme .

ريتشاريوس. وللأسف الشديد فإن المعلومات التاريخية الفكرية الببليوجرافية عن هذه الأديرة الثلاثة الأيرلندية التى أنشئت فى سوم تختلط ببعضها البعض اختلاطا شديداً وقد عملت كنقطة انتشار للفكر والكتب من أيرلندا وأسكوتلندا إلى سائر أنحاء القارة فى هذه الفترة.

حتى الدير النورماندى **فونتنيل** الذى أسسه فى ٦٤٩م سانت واندريل[١] الفرنكى وعرف باسمه كان أيضاً متأثراً بالأيرلنديين. فقد قضى مؤسسه بعض الوقت فى دير بوبيو وتبنى لوائح كولومبا. وبعد تأسيسه مباشرة أخذ واندريل فى طلب المخطوطات له من روما وكانت تلك المخطوطات ترسل إليه بانتظام من هناك. وبفضل مجهودات الآباء: واندو ٧٤٧ ــ ٧٥٤؛ جيروولد ٧٨٩ ــ ٨٠٧؛ انسيجيس ٨٢٣ ــ ٨٣٣ نمت المكتبة نمواً كبيراً. وقد أعدت لمكتبة هذا الدير قائمة مقتنيات الكتب التى تلقاها الآباء فى دير فونتنيل[٢]، وهذه القائمة التى بدأها واندو واستأنفها من جاءوا بعده تمثل أول فهرس كتب فرنسى. وقد قام قسيس يدعى هادريوم (هادريان) بأعمال الكتابة والتدريس فى المنسخ الناجح فى هذا الدير حيث كان الخط المستخدم فى البداية هو الخط الرومانى[٣].



(١) Fontenelle - St. Wandrille .

(٢) Gesta Abbatum Fontanellensium .

(٣) Lettera Romana .

ألمانيا

أنشئت الأديرة الفرنسية أساساً فى القرن السابع الميلادى، بينما فى غربى ووسط ألمانيا تأخر إنشاؤها ربما لمائة سنة من تلك الفرنسية أى فى القرن الثامن الميلادى. فقد أنشئ دير **إيخترناخ** فى لوكسمبرج سنة ٦٩٨م على يد **ويليبرور**[١] الأنجلو ـ ساكسونى الذى توفى هناك سنة ٧٣٩م. أما دير ماينز فقد أسسه الراهبان الإنجليزيان بونيفاس ولول كقاعدة حضرية فى ألمانيا تكون بمثابة نقطة إلتقاء للأديرة الأنجلو ـ ساكسونية وقام بونيفاس ببناء دير فولدا كدير ابن لدير ماينز. وكان من بين أصدقاء بونيفاس الرجل الإنجليزى بوركهارت الذى كان أسقف فيرزبرج وأكمل تنصير منطقة نهر مين الذى بدأ على يد البعثة التبشيرية الأيرلندية بقيادة كيليان[٢] المتوفى سنة ٦٨٩م.

وبينما كانت البعثات الإنجليزية تمارس نشاطها التبشيرى أساساً فى غربى وشمالى ألمانيا. فإن البعثات الأيرلندية كانت أقوى أثراً فى جنوبى البلاد حيث كانت لها أقدام راسخة ثابتة فى سانت جال. وكان هناك عدد من الأساقفة الجوالين يجوبون تلك المناطق. وربما كان من بينهم كوربنيان[٣] الذى أسس دير فرايسنج[٤] سنة ٧٢٢م؛ وكان منهم كذلك إميرام الذى توفى سنة ٦٢٥م وينظر إليه على أنه مؤسس الحياة الدينية فى ريجنتزبرج. وعلى نهج بونيفاس قام الكلتيون (الأيرلنديون) بتأسيس حياة علمية دراسية فى تلك المناطق الألمانية وكان رائدهم فى هذا الاتجاه الباحث الأصيل فيرجيل[٥] الهندسى الأسقف والأب فى دير سالسبورج ٧٤٧ ـ ٧٨٤م والذى كانت خلافاته الدينية العلمية مع بونيفاس مثار تنوير للكنيسة الألمانية. وكما قام بونيفاس بتنظيم تنصير بافاريا بنجاح شديد

---

(١) Echternach - Willibrord .

(٢) Killian .

(٣) Corbinian .

(٤) Freising .

(٥) Virgil (Feirgil) .

كامتداد للكنيسة الفرنكية، قام الكلتيون بتنصير مناطق الجنوب الألمانى.

وفى الجنوب الألمانى تنافس الرهبان الفرنكيون الغربيون بشدة مع الأيرلنديين في عمليات التبشير والتنصير، حيث قام الرهبان من دير لوكسويل بالوعظ فى بافاريا منذ سنة ٦٢٠م. وقام بيرمين[١] ـ الذى يحتمل أن يكون موطنه هو سبتيمانيا ـ بتأسيس ديرى رشيناو(٧٢٤م) ومورباخ (٧٢٧م) وأرسل الرهبان أبعد من هذا إلى الجنوب لتأسيس دير فى نيدرالتياخ[٢]. وعلى بيرجشتراس قام رهبان جورزى فى اللورين بتأسيس دير فى لورك[٣] سنة ٧٢٤م.

لول من ماينز ــ خاتمة المطاف[٤]

لقد واصلت الأديرة المذكورة سابقاً مسيرتها الدينية والفكرية خلال القرون التى تلت وحتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى وكانت حتى ذلك الوقت أقوى المواقع فى تاريخ المكتبات. وقد تم تكوين مجموعات تلك المكتبات خلال الحقبة الميروفنجية. على الرغم من أنه فى ألمانيا لم تكن هناك سجلات تكشف عن تلك المؤسسات حتى الحقبة الكارولنجية. لقد كانت الكنيسة، المدرسة،المكتبة هى العناصر الأساسية المكونة لأى دير. وكان أى مجتمع ديرى لديه مخزونه من الكتب منذ بداية تأسيسه. وكان مؤسسو الدير يحضرون الأشياء الضرورية معهم. وبهذه الأساسيات كان تاريخ مكتبة الدير يبدأ على الرغم من أن بعض تلك الأشياء قد يكون أسطورياً.

وتكشف المخطوطات الباقية التى وصلتنا من تلك الفترة عن الدور الذى قامت به البعثات التبشيرية الأيرلندية الأنجلوساكسونية. واستمرت الأديرة الأم فى إمداد الأديرة الأبناء بالكتب. وقد رأينا كيف توجه كل من بونيفاس وألكوين إلى الأديرة الأم بطلباتهما من الكتب. وقد حذا حذوهما لول رفيق بونيفاس وخليفته فى دير ماينز ٧٥٤ ـ ٧٨٦م.

(١) Permin .

(٢) Niederaltaich .

(٣) Lorch .

(٤) Lull of Mainz .

لقد كانت طلبات لول من الكتب محصورة أساساً فى كتابات بيديه وخاصة شروحاته للكتاب المقدس؛ ومن هنا كان توجهه فقط إلى دير بيديه فى ميرماوث - جارو. ومع ذلك فإن الأب جوثبيرت[١] لم يستطع فى البداية أن يرسل إليه سوى سيرة حياة بيديه التى كتبها سانت كوثيبرت[٢] لأن يدى الأب وأيادى النساخين الآخرين كانت تتجمد من البرد غير العادى فى شتاء ٧٦٣ ـ ٧٦٤». ومن ديلون طلب لول أشعار دولهلم. ومن ملدرد (ملرت)[٣] أسقف وركستر طلب القصائد الرمزية للشاعر أوبتاتيانوس فورفوريوس. ومن كبير الأساقفة آيلبرت (كوآينا)[٤] فى يورك طلب كتاب وصف العالم وشروحات بيديه على الكتاب المقدس. وكان لول يقول لهم فى خطاباته «قد أكون مغالياً فى طلباتى ولكن أعتقد أننى لا أثقل عليكم أو أكلفكم مالاً».

وعلى الجانب الآخر كان لول نفسه يتلقى طلبات كتب من الباحثين الآخرين. لقد أرسل إليه الأسقف كاينهارد يطلب كتباً فى تعليم المسيحية وعبادتها إلى جانب كتب علمانية فى الطب خاصة التى كان يأمل عن طريقها أن يستكمل المكتبة الطبية الغنية فى ونشستر. وهذا يصور لنا مدى المستوى الذى وصلت إليه المكتبات الألمانية والمهام التى كانت ملقاة على عاتقها. وهذه المراسلات والطلبات تكشف لنا عن ملاحظة هامة وهى أن لول كان يهتم بالإنتاج الفكرى العلمانى إلى جانب الكتب الدينية؛ على العكس من حياة معلمه الباكرة: بونيفاس. لقد أصبح لول المبشر لول الباحث.

لقد كان للمعلمين فى مدارس الأديرة أثر هام فى اجتذاب الطلاب والباحثين الفرنكيين. هذا هو جريجورى من أوترخت[٥] الذى كان مديراً لمدرسة رائعة ولودجر من مونستر عادا من دراستهما فى إنجلترا وروما بكميات كبيرة من

---

(١) Guthbert .

(٢) Cuthbert .

(٣) Mildred (Milret) .

(٤) Aelbert (Koaena) .

(٥) Gregory of Utrecht - Ludger of Münster .

الكتب. كما استمر استيراد الكتب من الجزر البريطانية خلال القرن التاسع. لقد قام الباحثون الأيرلنديون المهاجرون من أيرلندا باصطحاب مكتباتهم معهم وأشاروا كثيراً إلى مجموعاتهم من الكتب فى كتاباتهم. ومن المؤكد أن عدد هذه المخطوطات التى هاجرت مع الأيرلنديين إلى أوربا كان كبيراً إذا حكمنا عليه من خلال مجموعات باحث مثل **سيدوليوس سكوتوس**[1]. لقد قام **ماركوس ومونيجال**[2] بوقف كتبهما على دير سانت جال وهما راهبان من بانجور. وقام الراهب الأيرلندى **دونجال**[3] بإهداء ٢٩ مخطوطة إلى دير بوبيو.

إن الكتب التى كانت ترد إلى الدير من الخارج كان لابد وأن يضاف إليها الإنتاج الفكرى الذى ينتجه المنسخ فى الدير. وكانت تلك المناسخ تستعمل الخطوط الأيرلندية فى البداية وتتبع الأسلوب الأيرلندى فى إنتاج الكتب ولكن لم تلبث بعد ذلك أن استخدمت وطورت الخطوط والأساليب المحلية. وإن كانت بعض الأديرة التى أسسها الأنجلوساكسون استمرت بعناد فى استخدام الخطوط والأساليب الأنجلوساكسونية. ومع مرور الوقت طورت أوربا خطاً اشتقته من الخطوط الأيرلندية أصبح بعد ذلك هو الخط الوحيد المستخدم فى منطقة الراين ــ مين؛ وقد ضمت هذه المنطقة أساساً، ماينز، فولدا، فيرزبرج على الرغم من أن هذا الخط شاع فى إيخترناخ، فيردن، فرايسنج؛ سالبورج وغيرها من المناطق. ومع مرور الوقت حل هذا الخط محل الخط الكارولنجى فى القرن التاسع.

وهكذا فإن البحث فى تاريخ المكتبات فى تلك الفترة يكشف عن الدور الهام الذى قامت به الأديرة فى إنشاء المكتبات وتطويرها وإنشاء المناسخ لإنتاج الكتب وطلب الكتب من مصادر خارجية. كما يكشف عن الدور الخلاق الذى قام به الرهبان الأيرلنديون الأنجلوساكسون فى الفترة قبل الكارولنجية.

وإلى جانب المخطوطات الأيرلندية والأنجلوساكسونية، جاءت هناك مخطوطات

(١) Sedulius Scotus .

(٢) Morcus and Maengal .

(٣) Dungal .

من مصادر أخرى رغم أنها كانت محدودة العدد؛ كتلك التى سجلت فى فهرس دير سانت جال؛ الكتب المكتوبة بالخط الأسكتلندى[١] وكانت هناك مخطوطات إيطالية أرسلت إلى الجزر البريطانية من روما ونابلى وبعد ذلك أحضرت إلى القارة الأم مع البعثات التبشيرية. كما قام الرهبان الأسبان و لفرنكيون الغربيون بجلب المزيد من المخطوطات. أما المخطوطات ذات الأصول الإيطالية اللومباردية فقد جاءت مباشرة عبر الألب. ويمثل فهرس كتب بونيفاس الذى أشرنا إليه من قبل أحسن نموذج على الكتب المهاجرة.

فى هذه المكتبات نجد كتباً ألمانية إلى جانب الكتب اللاتينية؛ ذلك أن ميلاد المكتبة والألمانية تواكب مع ميلاد الأدب الألمانى. وقد أدت الحاجة إلى البعثات التبشيرية والمدارس إلى استخدام اللغة الألمانية. وكانت بدايات ظهورها فى كتب الشروح والترجمات. وكان للغة المحلية؛ مكانها الصحيح فى الأديرة الألمانية إلى جانب اللغة اللاتينية كما كان الحال فى الأديرة بالجزر البريطانية حيث كان الرأى السائد ــ كما أشار إلى ذلك ألكوين كثيراً ــ هو أن الشخص يمكنه فهم الأفكار بطريقة أدق إذا كان يعبر عنها بلغته الخاصة.



(١) Libri Scottice Scripti .

الفصل الثانى

العصور الوسطى الوسيطة
القرن التاسع ـ القرن الثانى عشر

مقدمة

لقد أزهرت الجهود الأيرلندية والأنجلوساكسونية التى تفاعلت عن طريق عناصرها على أرض أوربا، أولى المكتبات الأوربية فى العصور الوسطى. تلك الزهور التى تلقحت وخصبت عن طريق العلاقة الحميمة بين الامبراطورية الجديدة وإيطاليا بما لها من تراث فكرى غنى فى العصور القديمة. وتحت رعاية العائلتين المالكتين ـ وكلتاهما مثقفتان متفتحتان للأفكار الجديدة ــ بدأ التطور يعطى ثماره وأكله فى التربة الخصبة للإمبراطورية الكارولنجية . ففى بلاطات الكارولنجيين والأوتونيين[1]، وفى الأديرة والكنائس تلاحمت التقاليد الوثنية القديمة والمسيحية القديمة بعناصر مولدة ليست من أصلهما ليشكلا معاً ثقافة جديدة أطلق عليها اسم النهضة الكارولنجية. هذا المفهوم له أيضاً دلالته وانعكاسه على تاريخ المكتبات إذا لم نفكر فى بعث القديم وإنما فى تقوية وتدعيم النشاط الروحى والفنى والفكرى. وتتميز الفترة الكارولنجية بالبحث عن مؤلفى الحقبة الكلاسيكية ومولد اللغات الجرمانية. كما ترك لنا الألمان القدامى الأولون والأنجلوساكسون بصماتهم واضحة فى مخطوطات هذه الفترة.

ولم يؤد تفكك الامبراطورية الكارولنجية إلى تغيير فى الوحدة الفكرية للغرب المسيحى. ذلك أن أراضى الراين وجنوبى ألمانيا ردت الجميل للغرب: إنجلترا ــ أيرلندا ــ إيطاليا؛ لما تلقته منه من كنوز أدبية وفلسفية، كما أن إنجازات هذا الغرب ممثلة فى أعمال بيديه؛ أدلهلم؛ ورابانوس موروس كان قد تم قبولها والإقبال عليها فى مناطق أخرى ولم تعد تعتبر أجنبية. ولم يعد الراين؛ والألب؛ وبايرينيس[2] والقنال الإنجليزى عوائق وحدوداً. بل حتى اختلاف اللغات لم تعد تفصل بين الناس. فهم جميعاً لديهم اللغة اللاتينية كلسان عام. كما أعطتهم

(١) Carolingians and Ottonians .

(٢) Rhine, Alps, Pyrenees .

المسيحية نظرة عامة للحياة. وأصبح الغرب كله مشاركاً فى المبادلة المنظمة والمنتظمة ليس فقط بالكتب وإنما بالعلماء والحكماء والإكليريين والرهبان.
ولم يكتف الأيرلنديون والأنجلو ساكسون باحضار الكتب معهم إلى أوربا وإنما أيضاً عملوا فى المناسخ ولفترات طويلة أحياناً كثيرة، كما كانوا يتوقفون كثيراً للحج إلى روما. وعلى الرغم من أن تيار الثقافة من الجزر البريطانية قد خف في القرن العاشر إلا أنه لم يتوقف. وقد بقيت التأثيرات الأيرلندية ـ الاسكتلندية واضحة فى الخطوط والاختصارات وزخرفة الكتب وتزويقها حتى القرن الثانى عشر.

لم يكن مركز الثقافة الجديدة، الجنوب الرومانى وإنما الأراضى شمالى الألب. هنا عاش أخلاف القبائل الجرمانية بثقافة متقدمة ونظام راق للتعليم. وقد تبع ازدهار الحياة الثقافية والسياسية تطور هائل فى المناسخ والمكتبات. وبلغت مكتبات الأديرة أقصى ازدهار لها، والقرون التى تلت فترتنا هذه، كانت مرحلة إنتقال ثم انهيار لها. ومع انهيار السلطة الامبراطورية، انهار دعم وحماية المكتبات والكتب. وحل التفسخ والانهيار محل الوحدة والازدهار. وقد أدى الإصلاح الكلونى وما صاحبه من قوة الكنيسة إلى أن تصبح المكتبات لاهوتية كنسية أكثر، وقد ساد هذا التيار فى ألمانيا حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ بينما فى فرنسا أدت اليقظة الفكرية التى صاحبتها نزعة بحثية مبكرة؛ وبداية العهد الغوطى إلى نهضة جديدة. ويمكننا أن نطلق على الفترة كلها من القرن الثامن وحتى القرن الثانى عشر عصر مكتبات الكنائس والأديرة. وكان لضيق الأفق الذى أديرت به حركة إصلاح الأديرة أثره البالغ فى تضييق نطاق محتويات تلك المكتبات. ولكن مع نهاية القرن الثانى عشر كانت الأديرة ومكتباتها قد فقدت احتكارها كمراكز للثقافة والتعليم وتركت الساحة تدريجياً للجامعات الجديدة ونمو البحث العلمى. ولابد من أن نذكر هنا أن الحقبة الكارولنجية والأوتونية إنما تشغل نصف الفترة الوسيطة التى نحن بصدد دراستها.

الفترة الكارولنجية

ببين[١]

ليست لدينا معلومات كثيرة عن دور ببين أول ملوك الأسرة الحاكمة سوى خطاب تلقاه من البابا بول الأول ٧٥٧ ـ ٧٦٧م من روما فيه ذكر لبعض الكتب التى طلبها الملك من البابا ويقول كارل كرست فى هذا الصدد أن هذه الشحنة من الكتب، ربما يكون أصلها من الجالية اليونانية فى روما لأن هذه الكتب جميعاً باليونانية ولا نعرف لمن طلبت هذه الكتب. وهناك افتراض أن هذه الكتب طلبها أحد الباحثين الأيرلنديين فى البلاط الملكى ووسَّط الملك إلى بابا روما فى هذا الصدد.

ورد بابا روما على طلب الملك يسير على النحو الآتى:

«لقد أرسلنا إلى صاحب الجلالة المعظم جداً

«كل الكتب العظيمة التى استطعنا الحصول عليها، وهى كتب التراتيل

«التى تغنى أفراداً وجماعة، إلى جانب رسائل أرسطو فى الهندسة

«وكتب ديونسيوس الآريوباجتى فى الهندسة؛ وكتاب الهجاء.

«وكتاب النحو، وهى جميعاً مكتوبة باليونانية الفصحى

«ومرسل أيضاً ساعة ليلية».

شارلمان[٢]

على الرغم من أن شارلمان كان مصدر الوحدة السياسية بين أجزاء الامبراطورية، إلا أنه فى نفس الوقت قام بدور الزعيم الروحى وقائد الوحدة الثقافية والتعليمية لشعب الامبراطورية. لقد ألف بين قوى الأيرلنديين والدارسين الأوربيين وأضاف إليهم العناصر الإيطالية المؤثرة وأضفى على الثقافة كلها طابعاً ألمانياً فريداً بما جبل عليه من إرادة شخصية حديدية. لقد كنا نرى ممثلين لكل

(١) Pepin

(٢) Charlemagne

وجهات النظر حول الإمبراطور: ألكوين الأنجلوساكسونى، بيتر البيزى الإيطالى؛ بول الشماس اللومباردى؛ ثيودولف الأسبانى الأورليانزى. ولقد ذابت العناصر الأجنبية مع العناصر المحلية فى وحدة أقوى بكثير من عناصرها الفردية. ونستطيع أن نمثل لهذه الوحدة من موضوعنا فنحن هنا نتحدث عن الخط الكارولنجى؛ زخرفة الكتاب الكارولنجى؛ والتى هى مجرد عناصر فردية فى الحركة المكتبية والكتبية الكارولنجية.

لقد أصبح البلاط الملكى هو مركز الحياة الثقافية والسياسية فى الامبراطورية وبينما الأطفال أبناء النبلاء الفرنكيين يتعلمون طبقاً للنمط الإنجليزى فى مدرسة القصر، كانت هناك أكاديمية كاملة من الباحثين والعلماء تتملق الامبراطور، وعائلته، وبلاطه. وكان المنسخ والديوان يغصان بالحركة والنشاط. وكانت مكتبة القصر تنمو باطراد كما كان الأرشيف ينمو بسبب النشاط الإدارى المكثف تحت الإشراف المباشر للإمبراطور.

ومن المؤكد أن ألكوين الذى وصل إلى البلاط سنة ٧٨١م وقام بدور مستشار الإمبراطور فى شئون التعليم والبحث العلمى، وقد لعب دوراً كبيراً فى بناء وتنمية مقتنيات المكتبة. ومع ذلك فقد كانت المكتبة نتاجاً لحب الامبراطور للكتب وميوله هو كجامع لها. لقد كان شارلمان أول جماع للكتب فى العصور الوسطى كما كانت مكتبته أول مكتبة وطنية ومكتبة بلاط فى العصور الوسطى.

وطبقاً لمايقول به اينهارت فقد جمع شارلمان كمية ضخمة من الكتب. فقد نصح ألكوين جوندرادا[١] بالبحث عن كتابات أوغسطين حول النفس الخالدة فى الخزانة الملكية، وحيث كان الدير ـ كما كتب هو إلى أنجلبرت ـ يجد كتباً فى العلوم العلمانية والعلوم الدينية كما أبدى أحد الرهبان الذين كانوا يعملون عند شارلمان دهشته لكثرة مافى المكتبة من الكتب قائلا «كيف يحصى الدير كل هذه الكتب التى جمعتها أوامر جلالتكم من جميع بلاد العالم».

---

(١) Gundrada

وكانت المجموعات الأولى فى المكتبة تمثل الهدايا التى تلقاها الامبراطور من أصدقائه أو صيادى الكتب الذين يعرفون حبه للكتب. لقد طلب الكتب من البابوات فى روما؛ وقد أرسل له البابا ليو الثالث شحنة كبيرة بين ٧٩٥ ــ ٨١٦م من بينها مخطوط كتبه فيراندوس القرطاجنى(١) والذى قام كبير الأساقفة هيلدبالد باستنساخ نسخة منه لمكتبة كاتدرائيته. وكثير من الكتب أحضرها الباحثون الذين كانوا يجيئون إلى البلاط. وكان ألكوين نشيطاً فى طلب الكتب من الأديرة الإنجليزية التى كان يرسل إليها سيلا من الطلبات لنسخ الكتب. ومعظم الكتب الدينية التى وردت إلى مكتبة البلاط أهديت إلى الامبراطور، وأشارت إلى الامبراطور باعتباره راعياً للمؤلف وملهماً له. كما كانت هناك أيضاً هدايا من كتب علمانية. فنجد على كتاب قدمه بول الشماس (أريد أن أضيف شيئاً لمكتبتك) وقدم ملخصه لكتاب المؤرخ فيستونس. كما قدم الإكليرى آدم كتاباً فى النحو لديوميديس، كما أرسل ماجنو كبير أساقفة سنس(٢) ٨٠١ ــ ٨١٨م أحد الكتب التى جمعها فى القوانين القديمة. وكلما كان الكتاب قديماً كلما كانت الهدية قيمة.

وفيما يتعلق بالمؤلفين القدماء الذين كانت مؤلفاتهم موجودة فى المكتبة نجد أكثرهم من المؤلفين المغمورين وأقلهم من المشاهير. أما فيما يتعلق بكتب العصور الوسطى فقد كانت إضافات ألكوين جميعها مشكوك فى صحتها ونسبتها: مجموعات أوغسطين؛ مراسلات الإسكندر الأكبر مع ملك البراهمانيين ومراسلات الرسول بول مع سينيكا. أما فيما يتعلق بالمؤلفين الذين كانت لمؤلفاتهم تأثيرات على المعاصرين لشارلمان ــ وعلى سبيل المثال: سيتونيوس، الذى كان له تأثير كبير على آينهارت وفيتروفيوس الذى كان أستاذ المعماريين الكارولنجيين ــ فإن مؤلفاتهم كانت تنسخ وتوزع من البلاط الامبراطورى ونفس

(١) Ferrandus of Carthage

(٢) Sens

الكلام ينطبق على الشعراء من أمثال نمزيانوس وكالبورنيوس صقلوس[١] والفيزيائى كوينتوش سيرينوس[٢] الذى نسبت قصيدته الطبية خطأ إلى والده (ت٢٠٢م) وقد نسخت هذه القصيدة وقدمت إلى الامبراطور على يد باحث اسمه يعقوب[٣]

لقد كانت المكتبة هى المؤسسة المسئولة عن جمع الأعمال الرئيسية من الإنتاج الفكرى فى أحسن وأدق نَسخة منه وأصحها . بل وأيضاً نسخ هذه الأعمال وتوزيعها على المراكز الثقافية والتعليمية فى عموم الإمبراطورية. لقد سعى شارلمان ومساعدوه من الباحثين إلى الحصول على أحسن نسخ وأصحها لإنتاج النصوص على أساسها. ويمكننا تتبع جهودهم فى هذا الصدد فى الكتب الدينية ونصوص الكتاب المقدس وكتب الشعائر والطقوس على وجه الخصوص.

واستئنافاً لرومنة طقوس العبادة (كانت إغريقية فى البداية) والتى بدأها بيبين بإدخال أغانى دينية رومانية، قام شارلمان بإحلال الطقوس الجالية (الغالية)[٤] محل تلك الرومانية. وفى نحو سنة ٧٢٠م أرسل إلى البابا أدريان الأول يطلب منه تعميد البابا جريجورى الأكبر وقد أرسلت شهادة التعميد إلى البلاط الفرنكى على يد جون من رافينا ويقول كارل كرست بأن هذا التعميد لم يكتبه جريجورى بنفسه ولكن محتواه ربما يكون قد أملاه. وهذا التعميد يعرف عادة باسم التعميد الهادريانى[٥]. وأصبح هذا التعميد كتاب صلاة الجماعة[٦] الرسمى للإمبراطورية الفرنكية وقد وزعت منه نسخ عديدة على الكاتدرائيات والكنائس. وقد وصلنا حتى الآن نحو خمسة عشرة نسخة من التعميد الهادريانى (الأدريانى) هذا «منسوخة من الأصل الموثق المحفوظ فى تلك المكتبة».

(١) Nemesianus, Calpurnius Siculus

(٢) Quintus Se'renus

(٣) Jacobus

(٤) Gallicon

(٥) Hadrianum

(٦) Mass Book

وقد عهد إلى ألكوين القيام بتصحيح ومراجعة الكتاب المقدس تلك المهمة الجليلة الشاقة وكذلك مراجعة وتنقيح العهد الجديد والعهد القديم وخاصة الإصدارات التى توفر عليها أشخاص من ذوى الكفاءة المحدودة. وكانت نتيجة ذلك نص سليم دقيق للكتاب المقدس عرف باسم كتاب ألكوين المقدس ظل الإصدارة المعتمدة ولم يماثله إصدار آخر حتى صدرت نسخة السوربون فى القرن الثالث عشر.

لقد اهتم شارلمان بكتب الطقوس والشعائر، اهتمامه بكتب العبادة والكتاب المقدس. ولذلك عهد إلى بول الشماس[١] الذى كان قد خبر أحسن المصادر وأعمقها فى دير مونت كاسينو، بتجميع طقوس وشعائر آباء الكنيسة فى إصدارة واحدة معتمدة من مجلدين بخط واضح، خالية من الأخطاء بحجم معقول سهل التناول مرتبة على حسب سنوات الكنائس وكانت نتيجة هذا العمل كتاب طقوس شارلمان، أكبر وأشهر مجموعة طقوس فى العصور الوسطى والتى ظلت تطبع مراراً فى بداية العصر الحديث.

وفى سنة ٧٧٤م تلقى شارلمان من الأب هادريان (أدريان) نسخة من مجموعة قوانين[٢] ديونسيوس أكسيجوس والتى نقحها هادريان وأضاف إليها ومن ثم عرفت باسميهما بعد ذلك ديونسيو ـ هادريانا[٣]. وقد أصبحت هذه القوانين هى القواعد الرسمية الدينية للكنيسة طوال العصور الوسطى. وثلاث نسخ من النسخ الفرنكية الكثيرة تقرر مصادرها بوضوح شديد حيث نجد فيها جميعاً العبارة الآتية:

«هذه النسخة مأخوذة من النص الأصلى الصحيح الذى طلب الأب هادريان إعداده فى روما، والذى بفضل مجده العظيم أعطاه للملك حاكم الفرنكيين واللومبارد والنبلاء فى روما».

(١) Paul The Deacon

(٢) Collectio Canonum of Dionysius Exiguus

(٣) Dionysio - Hadriana

ولعل أثمن ما نسخ لشارلمان فى إيطاليا لائحة سانت بندكت[1] التى أعدت له فى مونت كاسينو حيث كانت النسخة الخطية التى كتبها سانت بندكت بنفسه. هذه النسخة أشرف على إعدادها الأب ثيودمار بعد سنة ٧٨٧مباشرة. وعلى الرغم من تدمير نسخة خط يد سانت بندكت إلا أن النسخ التى اعتمدت على نسخة شارلمان حفظت النص صحيحاً دقيقاً طوال العصور الوسطى.

لقد طلب شارلمان بنفسه إعداد نسخ من كتب حددها؛ بعضها كى يوضع فى مكتبة القصر، والبعض الآخر لاهدائه. وهكذا فإنه فى نهاية القرن الثامن كان فى حوزة كنيسة سانت ماكسيمن نسخة من شروح لأسفار الثمانية[2] جمعت من كتابات آباء الكنيسة على يد القسيس الفرنكى ويجبود[3]. هذا المخطوط الرائع يبدأ بالعبارة التالية «أعد هذا الكتاب بناء على أوامر شارل ملك الفرنجة واللومبارد ونبلاء روما». أما كتاب أوريوس[4] الذى سمى باسم ناسخه (أناجيل جوديسكاليك). فقد نسخ للملك شخصياً كما طلب الملك إعداد نسخة صحيحة من المزامير مع إهداء شعرى أعده القسيس داجولف إلى البابا أدريان. وكانت إهداءات الإمبراطور من الكتب إلى الكنائس والأديرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوظائف المكتبة حيث أنيط بها توزيع نسخ من الإصدارات الموثقة الموجودة لديها. وكانت النسخ التى تلقتها المكتبات من شارلمان فخراً لها فى أديرة كثيرة مثل: لورك؛ بندكتبيرن؛ مونستر؛ جروس مونستر فى زيورخ؛ آنيان، باربى بالقرب من ليون.

وكانت مهمة المكتبة فى إعداد النسخ القياسية والحديثة من النصوص مدعاة تعاون وثيق مع مدرسة القصر والباحثين الذين قاموا بدور المحررين لتلك النصوص. ويقال إن شارلمان نفسه كان يساهم فى هذه الأعمال العلمية. لقد وصفه الناسخ جوديسكالك بأنه «حريص، عامل، حكيم وخبير بالكتب». كذلك

---

(١) Regula St. Benidict

(٢) Octateuch

(٣) Wigbod

(٤) Codex Aureus (Paris NL 1203)

قارن الراهب ونيتار فى دير سانت جال حرص الإمبراطور على دقة النسخ والكتابة بشجاعته منقطعة النظير فى المعارك ضد الأعداء.

وكانت المكتبة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأرشيف الإمبراطورى، الذى كان بالإضافة إلى تسميته بالأرشيف يسمى أيضاً بيت الكتابات كما يوصف بأنه بيت المحفوظات[١]. وكان مدير الأرشيف يشغل منصباً هاماً فى البلاط. وهناك قصة طريفة تدور حول المكتبة ورغم شكنا فى صحتها إلا أنها تلقى بعض الضوء على كيفية سير الأمور الكتبية والمكتبية فى تلك الفترة. فقد كتب هنكمار كبير أساقفة رايمز أن فيلكس من أورجيل[٢] طلب الدخول إلى مكتبة البلاط فى إكس ـ لا ـ شابيل بعد أن أغرق الأمين المساعد بالهدايا وذلك لكى يزوّر مخطوطة هيلارى من بواتييه[٣] حتى يتفق مع معتقداته الهيراطيقية. لقد كانت المكتبة انعكاساً للحياة الفكرية فى عصر شارلمان وفى بلاطه ولتيار الثقافة الذى أشع منها.

وطبقاً لما قال به آينهارت فقد كانت الكتب المفضلة لدى شارلمان هى كتب أوغسطين وخاصة كتاب(مدينة الله)[٤]. وفى أثناء وجبات الطعام كانت الكتب التاريخية وسير الأبطال القدماء، تقرأ بصوت عال وهى ممارسة شبيهة لما كان يحدث فى الأديرة من عادات القراءة أثناء الأكل.

ولا نستطيع أن نزعم أن الكتب اللاتينية كانت تمثل كل محتويات المكتبة، لقد كانت هناك أيضاً كتب بربرية تشتمل على أغانى الحرب لديهم وأعمال الحروب التى خاضها ملوك البربر القدماء سعى شارلمان إلى جمعها ونسخها. وكانت هناك أيضاً كتب النحو الفرنكى ومجموعة القوانين المدنية التى سنها. وكذلك مجموعة الطقوس الدينية باللاتينية المحلية أو اللغات الألمانية والتى أصدرها مجلس تورز للأساقفة سنة ٨١٣م.

(١) Archivum; Scrinium; Armarium

(٢) Felix of Urgel

(٣) Hilary of Poitiers: De Fide

(٤) Civitas Dei

وطبقاً لما قال به آينهارت مرة أخرى فإن وصية الإمبراطور الأخيرة وإرادته السنية قد اشتملت على تعليمات بخصوص المكتبة وتقضى هذه التعليمات ببيع الكتب بثمن عادل لمن يرغب فيها وتوزع حصيلة البيع على الفقراء. ولا نعرف هل نفذت هذه التعليمات أم لا، إلا أننا من تتبع سيرة مكتبة البلاط خلال سنوات لويس الأول (التقى) الأولى فى الحكم نستنتج أن التعليمات لم تنفذ إلا بالنسبة لجزء فقط من الكتب الامبراطورية وربما كانت كتب شارلمان الشخصية.

إننا نعرف الصورة الكاملة لما كانت عليه مكتبة القصر والدور الذى لعبته فى الحياة العلمية والسياسية،إلا أننا لا نملك مثل هذه الصورة لما كان عليه النسخ والمدرسة فى القصر؛ اللذين أشار إليهما مؤرخو الفن باعتبارهما قضية مسلماً بها حيث أنه لا يمكن أن يكون هذا المستوى من إنتاج الكتب وزخرفتها فى نفس مكان اختزان واستعمال الكتب ومن ثم لابد أن يكون هناك منسخ فى مكان آخر بالقصر وربما كان ملحقاً بالمكتبة أو بالقرب منها. وكانت النسخ التى تخرج منه تختم بخاتم يدل على صحتها والنص الذى تحمله.

لقد كان اهتمام شارلمان أبعد من مجرد تكوين مكتبة بلاط تضم الأعمال الفكرية لكل الامبراطورية. ولم تنصب فقط على تقديم نسخ هدايا للمكتبات الأخرى لقد امتدت كذلك إلى أراضى الصيد المخصصة لكل دير لتأمين إمداد الأديرة بالجلود اللازمة لصناعة الرقوق للأديرة والمكتبات. وكذلك تلك اللازمة لتجليد الكتب.

لقد أراد الإمبراطور أن يعد قائمة رسمية شاملة بما تشتمل عليه المكتبة من مقتنيات وقد عهد بذلك إلى وكلاء الملك الذين كان من مهامهم أن يحصروا ممتلكاتهم الملكية وممتلكات المؤسسات الدينية ويرفعون تقاريرهم إلى الملك. لقد أنيط بهم أيضاً حصر المخطوطات فى السجلات التى يعدونها. وقد وصلتنا نماذج من تلك السجلات فيما يعرف بأقدم سجلات بافاريا من دير استافلس عن سنة ٨١٠م وعدد الكتب فى هذا السجل متواضع جداً (فقط سبعة عشر مخطوطاً)

ربما يكشف عن أن المجموعة المحصورة هى مجموعة فرعية هامشية وليست مجموعة مكتبة كنيسة كبيرة أو دير. كما يكشف ذلك أيضاً عن رؤية الإمبراطور بضرورة أن يكون فى كل دير وفى كل كنيسة مهما صغرت مجموعة من الكتب لاستخدام الناس والصالح العام. وكان عدد الكتب اللازم لطقوس العبادة معقولاً وإلى جانب كتب العبادة كان هناك عدد آخر لاستخدام الإدارة وتعليم الصبية فى الدير أو الكنيسة. وكان القسيس يلام لوماً شديداً إذا لم يقم بتنمية مجموعات المكتبة عما تسلمها عليه أول قيامه بالوظيفة.

لقد كان ثمة حرص شديد على أن يكون نص الكتاب صحيحاً دقيقاً حتى تلك التى يستخدمها أبسط القساوسة فى أصغر الكنائس، كما كان هناك حرص على تشجيع التعليم على النحو الذى تقرر فى الاجتماع العام(١) سنة ٧٨٩م وتكرر الاجتماع كثيراً بعد ذلك. وكان نسخ الكتب عمل يناط بالكبار وحدهم والنساخ الراسخين ولم يكن يعهد به إلى الصبية والأولاد.

وكان المثال والنموذج الذى رسخته المكتبة الملكية فى هذا الصدد هو الذى احتذى وساد فى ذلك الوقت ويمكن أن نلحظ ذلك بوضوح فى القواعد التى حكمت عملية النسخ. وتقضى هذه القواعد بعدم الاعتماد على النسخ غير الموثوق فيها وفى صحتها بل يجب البحث عن أحسن النسخ ومقارنتها ببعضها البعض ووضع ملاحظات المقارنة فى الهوامش. وكانت النسخ الممزقة أو المفككة من الكتب الكلاسيكية يعاد نسخها ويحل محلها نسخ جديدة. وأصبحت فرنسا وليس إيطاليا أرض التقاليد الكلاسيكية والتراث القديم. ولقد أكد لاخمان(٢) أن أحسن الإصدارات لكتب المؤلفين الكلاسيكيين كانت تنتج فى الأديرة الكارولنجية، وكان يعاد إنتاجها مرات ومرات. وكان المثل الشائع هناك هو «دع النساخين يؤدون عملهم بأقصى درجة من الدقة».

لم يكن الاهتمام بنسخ النص فقط وإنما كان الاهتمام أيضاً بإنتاج الكيان المادى

(١) Admonitio Generalis

(٢) Lachmann

للكتاب كذلك ـ مثل حسن الخط، الزخرفة، التجليد ـ . لقد صاحب الاهتمام بمحتوى الكتاب إهتمام آخر بتحسين الخطوط والإيضاحيات. وكانت هذه الفترة هى الفترة التى شهدت مولد الخط الكارولنجى الصغير. ولقد أدى البحث فى الخطوط السابقة على هذا الخط أنه لا يمكن أن يكون من اختراع شخص بعينه ــ ألكوين كما ذهب ديلزيل ــ بل على العكس فإن الخط الكارونجى الصغير يرقى إلى مستوى الخطوط العالمية متفوقاً على كثير من الخطوط الأخرى. وقد جاء هذا الخط الجديد فى سياق البرنامج العام الذى قاده شارلمان للإصلاح الفكرى.

كذلك ظهر أسلوب جديد فى إيضاحيات الكتب حل محل الأسلوب القديم. ظهر فيه التنويع وقلت فيه النمطية . وإن كانت ماتزال هناك آثار ميروفنجية وإيطالية قديمة فى إنتاج إيضاحيات الكتب فى تلك الفترة.

خلفاء شارلمان: بيوس الأول (التقى) وأبناؤه

كانت وفاة شارلمان إيذاناً بتفسخ الإمبراطورية العالمية، ومع ضعف السلطة المركزية ضعفت المكتبة والمدرسة والمنسخ مما أفسح المجال لازدياد أهمية المراكز الثقافية والفكرية الإقليمية.

وحاول بيوس الأول التقى (٨١٤ ـ ٨٤٠م)أن يسير على خطى والده. وعندما كان ملكاً على أكويتين(١)، أنشأ هناك مكتبة بالتعاون مع آخر كبير أساقفة رايمز: إيبو(٢) الذى عمل أميناً لها. وطوال السنوات الأولى من حكمه كان ذكر مكتبة البلاط يتردد من حين لآخر. فكما يحدث فى الاجتماعات الكنسية الباكرة فى روما من استخدام لمكتبة قصر لاتيران، كان المشتركون فى اجتماعات آخن سنة ٨١٦م يستفيدون من الكتب العديدة الموجودة فى مكتبة البلاط التى سمح الإمبراطور بالتردد عليها. كما كان يسمح للباحثين بالانتفاع بها على النحو الذى قال به الشماس أمالاريوس(٣) الذى ذكرت المصادر أنه كان يجمع مجموعة من

(١) Aquitaine

(٢) Ebbo

(٣) Deacon Amalarius

القواعد التى تضمن فى لوائح الكاتدرائيات. وهذه إشارات معبرة تؤكد على أن المكتبة الكارولنجية قد استمرت فى الوجود. وقد قال عنها كبير أساقفة رايمز هنكمار الذى زار مدرسة القصر وأفاد من المكتبة أن عدد الكتب فيها كبير إلى حد ما.

وحوالى سنة ٨٢٨م كان مدير مكتبة القصر هو جيروارد(١) الذى كان فى نفس الوقت كبير معمارى الملك، وهو نفس المنصب الذى شغله آينهارت من قبل.

وكما فعل أبوه من قبل فإن لويس الأول التقى كان يجمع حوله الباحثين ومنهم على سبيل المثال: **بندكت من آنيان؛ أمالاريوس من متز (ماينز)؛ هلدوين من سانت دينس؛ رابانوس ماوروس**[٢]. وكان للكتب التى أهدوها إليه أثر كبير فى إثراء المكتبة. ومع ذلك فقد جاءت الهدية الكبيرة والأهم من بيزنطة.

فى سنة ٨٢٧م قام الإمبراطور **مايكل الثانى**[٣] بإرسال مخطوط جميل رائع بخط أونسيال يضم كتابات ديونسيوس ـ الأريوباجيتى الأفلاطونى الجديد المسيحى ــ الجدلية والذى كان لكتاباته صدى واسع فى الغرب ومكانة عالية بين الباحثين هناك تقارب الكتابات الدينية المسلم بها. وكان هناك فى القرن التاسع بالفعل ترجمتان لهذا النص اليونانى الصعب أقدمهما تلك التى طلبها لويس الأول وتمت تحت إشراف الأب هلدوين من دنيس الذى أشرت إليه من قبل ٨٣٢ ـ ٨٣٥م، والثانية التى حلت محل الأولى وكانت أوسع انتشاراً هى تلك التى أعدها جون اسكوتس[٤] إريجينا فى نحو سنة ٨٦٠م تحت رعاية شارل الأول الأصلع. والمخطوط موجود الآن فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤٣٧ وكان قد أهدى إلى دير سانت دينيس.

---

(١) Gerward

(٢) Benedict of Aniane; Amalarius of Metz Hilduin of St. Denis; Rabanus Maurus.

(٣) Michael II the Stutterer

(٤) John Scotus Erigena

وقد جنح أبناء لويس الأول أيضاً نحو الثقافة والفكر ولكن اللاهوتى منها. وتدل سجلات الأديرة الفرعية وتقارير الاجتماعات الكنسية إنهم استمروا على درب أسلافهم فى دعم المعرفة وتشجيع العلم والبحث وتنمية وتوسيع مجموعات الكتب فى مكتباتهم. وعلى الرغم من أن شارل الأصلع كان أضعف الحلقات السياسية فى أسرته الملكية إلا أنه بكل تأكيد كان أعظم جماع للكتب فى تلك الأسرة.

وفى سنة ٨٥٢م قام **لوثير الأول**(١) بإهداء نسخة من الأناجيل المطعمة بالعاج والكريستال والذهب والأحجار الكريمة إلى **دير بروم**(٢)، حيث وافته المنية هناك كراهبٍ بعد ذلك بسنوات قليلة (٨٥٥م).

أما لويس الثانى (الألمانى) ٨٤٣ ــ ٨٧٦م فعلى الرغم من حياته البسيطة المستقيمة عكس إخوته الآخرين ــ فقد أعطى العلم والبحث أهمية كبيرة وأحلهما منزلة عالية. واجتذب العلماء إلى بلاطة، وكان من بينهم **جريمالد وباتوريتش**(٣) الأبوان فى ديرى سانت جال وريجنزبرج على التوالى. كما أنه كان يدخل فى مناقشات وجدل دينى مع رابانوس. وكان يطلب قراءة كتبهم بصوت عال حوله. وقد قام رابانوس بإهدائه كتابه الكبير (عن العالم)(٤) وهو عبارة عن تلخيص كتاب الأصول لإيزيدور والذى أشرت إليه مراراً من قبل وطلب إليه النظر فيه وتنقيحه هو والباحثون الذين يتحلقونه.

ومن المؤكد أنه كانت هناك مكتبة قيمة فى قصر لويس الثانى، على الرغم من أنه لم تصلنا تقارير عن مثل تلك المكتبة أو عن مدرسة القصر. ومن الممكن أن تكون قد ضمت كذلك مجموعات الأدب الألمانى العالمى القديم. ومما يذكر أن أوتفرين من فيزنبرج(٥) قد أهدى مجموعة أناجيله إلى الملك. كما أن الملك عندما

(١) Luthair I

(٢) Prüm

(٣) Grimald of St. Gall; Baturich of Regensburg

(٤) De Universo

(٥) Otfrid of Weissenberg

كان صبياً تلقى من الأسقف أدالرام من سالسبورج(١) مجلداً ضخماً جامعاً يضم الأعمال الدينية الموجودة فى دير سانت إميرام وغير ذلك من هدايا الكتب التى قدمت له وخاصة من دير ريجنزبرج، الأثير لدى الملك.

البلاط الكارولنجى

لقد بدأ الانهيار الثقافى يدب سريعاً فى أوصال الإمبراطورية بعد جيل واحد من أبناء لويس وطالما بدأ هذا الانهيار فإنه قد لحق بالبلاط نفسه.

وعلى زمن شارلمان كانت نساء البلاط يشاركن فى العمل الفكرى، فقد بعث ألكوين شرحه على كتاب جون(٢) إلى الأميرتين جزلاً وروترود(٣) وطلب إليهما أن تعدا نسخة منه مؤكداً على ضرورة مراعاة الفواصل بين الأقسام والفصول وإعداد قائمة محتويات للكتاب. كما أعار لهما رسائل بيديه لكى تنسخاها. وقد حذت الراهبات حذو سانت ليوبا(٤) بإعداد مخطوطات مزخرفة بعناية للعبادة وتعديد النسخ للإيداع فى المكتبة وهى مسائل ضرورية فى كل دير. وقد ذهبت قراءات هؤلاء النسوة لما هو أبعد من مجرد حياة وسير القديسين. لقد قرأن الأدب الكلاسيكى بل وتذوقن الشعر اللاتينى والألمانى.

لقد ضم شارلمان إلى بلاطه باحثين علمانيين إلى جانب هؤلاء الإكليريين ومن بينهم: أنجلبرت؛ آينهارت؛ نتهارت وغيرهم من عظماء رجال الإمبراطورية.

والغموض الذى يغلف محتويات كل المكتبات طوال تلك الفترة بدءاً بمكتبة العصر فنازلاً، يزيله إلى حد ما سجلات مكتبتين لاثنين من النبلاء الألمان فى إيطاليا. المكتبة الأولى صاحبها هو مارجريف إيبرهارد من فرايئول(٥) وهو زوج إبنة لويس الأول التقى أقطعه لوثير(٦) إقطاعية شمالى إيطاليا. ولقد كان نصيراً

---

(١) Adalram of Salizburg

(٢) Book of John.

(٣) Gisla and Rodtrud

(٤) St. Lioba

(٥) Margrave Eberhard of Friaul

(٦) Lothair

للباحثين وراعيا لهم، أهداه سيدوليوس اسكوتس قصيدة تشيد به. وكان من بين أصدقائه العلماء: رابانوس ماوروس؛ هنكمار؛ جوديسكالك. وتعكس مكتبة إيبدهارد طريقة تفكيره وتعدد إهتمامه وذوقه العام. ووصيته الأخيرة المكتوبة فى تريفزو سنة ٨٦٣م تقسم محتويات المكتبة بين أبنائه الخمسة وبناته الثلاث، وسجل المكتبة يضم ٥٣مخطوطة معظمها لاهوتى ومع ذلك فإنه إلى جانب كتابات أوغسطين وإيزيدور نجد عدة مخطوطات قانونية ومخطوطات فى التاريخ وكتاب فى علم النفس وتقارير عسكرية ورواية أبوللونيوس من تاير[١] وكتاب وصف العالم المنسوب إلى أيتيكوس إستر[٢] (ربما كان ذلك اسما مستعاراً لفرجيل، أسقف وأب دير سالزبورج ٧١٠ ـ ٧٨٤م كما سلف وربما نسب خطأ إلى إستر هذا). وكان من بين كتب القانون مجموعة القوانين المدنية الألمانية التى نسخها لوبوس من فيربير[٣] خلال فترة دراسته فى ديرفولدا وقد زوده بإيضاحيات وإهداء شعرى له.

أما المكتبة الثانية فإنها تخص الكونت البيرجندى إيكارد[٤]. وكانت ذات طبيعة قريبة من المكتبة السابقة، مكتبة إيبرهارد. وكان قد وصفها فى وصيته الأخيرة سنة ٨٦٧م. ويتردد فى السجلات اسم نيبلونج[٥] كاسم لعائلة إيكارد عبر أجيال عديدة ومما يدل أيضاً على أنه لم يكن رومانياً خالصاً وجود (الأناجيل الألمانية)[٦] بين قائمة كتبه وهذا الاسم كان يستخدم أساساً للإشارة على أناجيل أوتفريد من ويزنبرج ثم مؤخراً على أناجيل تايتان. هذا الكتاب أوصى به صاحب المكتبة إلى الأم بيرترودانا بينما بقية المجموعة قسمت بين عدد من الأساقفة. وهنا أيضاً نصادف عدداً كبيراً من الكتب اللاهوتية ولكن من بينها كانت هناك كتب فى

---

(١) Appolonius of Tyre

(٢) Aethicus Ister

(٣) Lupus of Ferriére

(٤) Eccard, Burgundiam Count

(٥) Nibelung

(٦) Evangelium Theudiscum

التاريخ مثل الحوليات الفرنكية التى كتبها جريجورى من تورز وكتب فى القانون وكتب الأدب.

الأديرة والكنائس الألمانية

١ ـ منطقة الراين الأعلى وبحيرة كونستانس

تطورت مدن الأديرة والكنائس حيث انتشر التعليم فيها وازدهر قبل الفترة الكارولنجية تحت حكم شارلمان إلى مراكز ذات نفوذ وقوة وثروة، إذ بسط شارلمان حمايته على تلك المدن وقد أدى ذلك بالتالى إلى ازدهار الحياة الفكرية فيها. وبعد وفاة شارلمان كانت هذه المراكز هى وحدها مصدر الإشعاع الثقافى وحاميات الكتب والمكتبات. وقد درست فى مدارسها علوم اللاهوت والآداب والكتب الكلاسيكية وأيضاً اللغة الألمانية. وكانت المناسخ الملحقة تعمل أساساً فى خدمة المكتبات. وتبدو أهمية تلك المناسخ فى العدد الكبير من الكتب المسجلة فى فهارس تلك المكتبات فى القرن التاسع. وحيث كانت عملية النسخ تياراً دافقاً يربط الأديرة معاً تحت مظلة الاهتمامات الدينية المشتركة وكانت المخطوطات تتحرك بين الأديرة فى كل إتجاه: هدايا، تبادل، نماذج للنسخ؛ إعارات للإستخدام الفردى.

وكانت الحياة الفكرية مركزة أساساً فى غربى البلاد، ونستطيع أن نتتبع تطورها فى العديد من المواضع المتفرقة بدءاً من الجنوب ثم شمالاً مع مجرى نهر الراين، بادئين بطبيعة الحال بالأديرة ثم الكنائس. وسوف نؤجل الحديث عن شرقى البلاد عندما نعالج الفترة الأوتونية.

دير سانت جال[١]

لم يكن جاللوس (سانت جال فيما بعد) مجرد مؤسس للدير فى سنة ٦١٣م كما مر بنا ولكنه أيضاً كان مؤسس مكتبة ذلك الدير. وتنسب الأحاديث إليه عدداً من الآثار وقاموساً لغوياً[٢] مازال موجوداً حتى اليوم فى مكتبة الدير

St. Gall Monastery (١)
Vocabularius (٢)

(تحت رقم ٩١٣ مخطوطات). وهذا العمل يستمد قيمته من اسم المؤسس رغم أن هذه النسبة مشكوك فيها، حيث يعتقد أن العمل يرجع إلى فترة متأخرة نسبياً.

والمعلومات الموثوق فيها عن مكتبة دير سانت جال تبدأ من منتصف القرن الثامن. فنحن منذ ذلك التاريخ نقرأ عن المنسخ وعن أسماء الرهبان الذين عملوا كنساخ فيه وأهمهم على الإطلاق ونيثار[١] والذى عمل خلال فترة الأب جون ٧٦٠ ـ ٧٨٢م. وأول تاريخ موثق عن المكتبة يبدأ مع الأب جوزبيرت[٢] ٨١٤ ـ ٨٣٦ لأنه بدأ فى هذه الفترة إصدار **سجل سانت جال**[٣] والذى يمدنا بمعلومات وفيرة وخاصة الأقسام التى كتبها الراهب **إيكهارت الرابع**[٤]. ولقد وضع جوزبيرت خطة عمل طموحة لبناء كنيسة جديدة ودير سنة ٨٢٩م. كما اهتم اهتماماً بالغاً بتعليم الرهبان وتدبير الأدوات الأساسية لذلك ويطالعنا السجل المذكور بقوله بأن «الأب طلب كتابة عدد كبير من الكتب والتصحيح الجاد لعدد آخر من الكتب إلى حد جعل الكتب الموجودة فى الدير ترفع من قدره».

لقد بدأ العهد الذهبى لدير سانت جال مع الأب جريمالد ٨٤١ ــ ٨٧٢[٥] والذى كان سابقاً تلميذاً لألكوين وشماساً لـ لويس الألمانى ــ ولقد اشتهرت مدرسة الدير من خلال الجهود التعاونية غير العادية لاثنين من الإكليريين الأيرلنديين وهما: **الأسقف ماركوس وابن أخيه موينجال (مارسيللوس)**[٦] الذى كان قبل ذلك الأب فى دير بانجور. لقد أوصى ماركوس بكتبه إلى الدير وكذلك فعل موينجل (توفى سنة ٨٦٩) بعد أن أمضى فترة خصبة من حياته مديراً لمدرسة الدير الداخلية. لقد تضافرت جهود تلاميذ موينجل:

---

(١) Winithar

(٢) Gozbert

(٣) Casus s. Galli

(٤) Ekkhart IV

(٥) Grimald

(٦) Marcus; Moengal (Marcellus)

نوتكر بالبويوس وتوتللو(١) مع راتبيرت(٢) الأكبر منهما سناً، وجعلوا من سانت جال مركزاً هاماً للفكر والأدب والموسيقى وهى مكانة رفيعة حققها الدير واكتسبت السمعة الطيبة له أثناء إدارة الأسقف الأب **سلومون الثالث** ٨٨٩ ـ ٩٢٠م(٣).

لقد كان العصر الذهبى للدراسة والبحث العلمى فى سانت جال هو فى نفس الوقت العصر الذهبى للمكتبة فقد كانت المركز الفكرى فى الدير. وتشير الحجرة الفسيحة الرائعة التى خصصت للمكتبة فى المبنى الجديد لدير جوزبيرت إلى أهمية المكتبة ومكانتها فى حياة الدير. لقد كانت المكتبة قريبة من الديوان وتحتل الطابق العلوى فوق المنسخ وتحتها كانت مقاعد النسَّاخ. وكان الرهبان يكدون فى نسخ الكتب، حتى ازدادت المجموعات وربت من خلال جهودهم ومن خلال الهدايا التى قدمت لها. ولقد كتب أحد تلاميذ نوتكر أن الرهبان كانوا يستغلون حتى ساعات الفراغ فى الليل لينسخوا الكتب.

والأسقف سولومون الثالث نفسه آخر الآباء العظماء فى الدير كان يدعم المكتبة بكل ما استطاع وهو باعتباره تلميذاً لـنوتكر فإنه كان ناسخاً ممتازاً وقد شارك بنفسه فى (**الأناجيل الكبيرة**)(٤) وهى موجودة الآن فى مكتبة سانت جال تحت رقم ٥٣ مخطوطات. وكان أصل هذا الكتاب قد كتبه سنترام(٥) الذى أدهشت يداه الموهوبتان كل الناس شمال الألب. ويقال أن سولومون قد شارك فى الزخرفة الفنية للحروف الأولى وقام توتللو الذى كان موهوباً فى كل فنون الكتاب بتطعيم الجلود بالعاج وتزيينها بمناظر من دير سانت جال. كذلك تم هنا إعداد نسخة من **المزامير**(٦) تتضمن ثلاث إصدارات لاتينية وواحدة إغريقية

---

(١) Notker Balbulus; Tutilo

(٢) Ratpert

(٣) Solomon III

(٤) Euangellium Longum

(٥) Sintram

(٦) Psalterium

مكتوبة بحروف لاتينية (منقحرة) وكان ذلك سنة ٨٠٩م بتكليف من الأسقف سولومون وقد حصلت عليه الكنيسة فى بامبرج وتسمح بنسخه من حين لآخر.

وكانت وظيفة أمين المكتبة من أرقى الوظائف وأجلها فى الدير. وقد شغل هذه الوظيفة **لويتهارت**(١) ٨٥٨ ـ ٨٨٦م عندما كان الأب جريمالد أباً للدير وقد خلفه فيها **أوتو**(٢) وبعد فترة نوتكر سنة ٨٩٠م. لقد كان نوتكر نموذجاً مشرفاً لغيره من النساخ وقد خرج من بين يديه عدد وافر من النسخ من بينها مخطوط إغريقى يضم رسائل الرسل عانى كثيراً فى إعداده؛ حيث لا يمكن لغيره أن يقوم به لأن لديه خلفية إغريقية.

إننا نستطيع تكوين صورة حقيقية عن مكتبة سانت جال إذا وضعنا فى اعتبارنا الكتب اللاهوتية الموجودة فيها ــ ذلك أن هناك فهرساً قد أعد بها منذ منتصف القرن التاسع على يد أمين المكتبة لويتهارت آنذاك واستمر حتى ٨٨٠م. وقد اقتصرت الكتب العلمانية على القانون، الكتب المدرسية وبعض كتب تاريخية متفرقة. لقد كان الباحثون من الجزر البريطانية ممثلين فى تلك المجموعات: أدلهلم؛ بيديه؛ ألكوين. ولكن مما يلفت النظر أنه قد أعدت قائمة مخصوصة بـ«الكتب الثلاثون المكتوبة بالخط الإسكتلندي»(٣) التى على الرغم من أنها كانت من ذخائر ونفائس مقتنيات المكتبة إلا أنها اعتبرت أجنبية. ومن المؤكد أن هذه القائمة لم تشمل كل المقتنيات الأيرلندية ـ الاسكتلندية، لأن العمل الأيرلندى فى الدير امتد فترة أطول وكان هناك عدد كبير من الأيرلنديين بين الرهبان. ففى نهاية القرن العاشر أنجز الراهب الأيرلندى **فايلان**(٤) مخطوطاً هناك فى سانت جال وفى هذا المخطوط ذكر نفسه وثلاثة آخرين من الرهبان الأيرلنديين. ولابد أن نشير هنا إلى غياب الكتب الكلاسيكية عن المكتبة فليس هناك سوى كتاب واحد لفرجيل وسط الكتب المكتوبة بالخط الاسكتلندى وربما كانت تلك سياسة المكتبة منذ

---

(١) Liuthart

(٢) Uto

(٣) Libri Scottice Scripti

(٤) Faelan

البداية. على الرغم من أن ما وصلنا من مخطوطات هذا الدير وثقافة الرهبان فى سانت جال بعد ذلك تؤكد تغير هذه السياسة خاصة فى العهد الأوتونى.

ومن المؤكد أن هذه المكتبة قد اصطبغت بصبغة لاهوتية خاصة، يؤكد ذلك الـ(**قائمة مختصرة بالكتب الموجودة فى دير سانت جال**)[1] بالإضافة إلى القوائم الأخرى التى وصلتنا وهى فى معظمها قوائم متخصصة. وهى تشمل قائمة الإضافات فى عهد الأب جريمالد ٨٤١ ـ ٨٧٢م؛ قائمة الكتب التى أوصى بنسخها الأب هارموت ٨٧٢ ـ ٨٨٣، وقد كان هو نفسه ناسخاً ماهراً وصديقاً للراهب أوتفريد من فيزنبرج، ثم أخيراً قوائم المجموعات الشخصية للآباء المذكورين والتى أوقفت جميعها على المكتبة الرئيسية. وتشير الفهارس/ السجلات إلى وجود مكتبة فى المدرسة إلى جانب المكتبة الرئيسية للدير.

دير ريشيناو[2]

على العكس من دير سانت جال كان دير ريشيناو ذا صبغة غوطية ومؤسسة فرانكية وكان الرجل الذى أسس هذا الدير ويدعى **بيرمين**[3]، فى سنة ٧٢٤ على جزيرة فى الجزء السفلى من بحيرة كونستانس، قد جاء من مناطق الغوط الغربيين فى سبتيمانيا. وقد ذهب للوعظ فى الراين العلوى بناء على طلب من **شارل مارتل**[4] وكان رفقاؤه وبعض من رهبانه الأولين من الغوط الغربيين. ولم يأت تأثير الأيرلنديين والأنجلو ساكسون على الدير إلا فيما بعد ويبدأ العصر الذهبى لدير ريشيناو مع **والدو** ٧٨٦ ـ ٨٠٦م؛ **هيتو** ٨٠٦ ـ ٨٢٣[5] وقد أخذ يصطبغ بالصبغة العلمية ويخرج الكوادر على يد **والافريد سترابو**[6] الأب فى الدير ٨٤٢ ـ ٨٤٩م، الذى كان عالماً يقف على قدم المساواة مع نوتكر فى سانت جال

(١) Brevarium Librorum de coenobio s. Galli

(٢) Reichenau

(٣) Pirmin

(٤) Charles Martel

(٥) Waldo; Heito

(٦) Walafrid Strabo

ورابانوس ماوروس فى فولدا. ولقد لعبت المكتبة دوراً هاماً بارزاً فى هذا الجانب العلمى للدير. ويمكن تتبع نشأة المكتبة منذ عهد بيرمين الذى يقال أنه أحضر خمسين مجلداً معه من فرنسا. وفى عهد خلفه الأب إيتو ٧٢٧ ـ ٧٣٤[١] تم إمداد الأديرة الفرعية فى بفافر، مورباخ، نيدرالتايخ بالكتب من الدير الأم فى ريشيناو. هذه النتف وغيرها من المعلومات عن الفترة المبكرة من حياة الدير والمكتبة نحصل عليها من شخص يدعى **جاللوس أوهايم**[٢] وهو راهب من رادولفزيل الذى كتب فى نحو سنة ١٥٠٠م عن تاريخ المكتبة خلال الفترة من عهد بيرمين وحتى عهد الأب رودهيلم ٨٣٦ ـ ٨٤٢م[٣]، وقد اعتمد فى كتاباته هذه على سجل طويل ملفوف صادر عن الدير فى القرن التاسع الميلادى. ونحن نقرأ فيما كتبه عن خصوبة إنتاج المنسخ، والهدايا من الكتب التى تدفقت على المكتبة من كل حدب وصوب، والرقوق القيمة التى كان الرهبان يحضرونها معهم من بلاد بعيدة. ومن بين هؤلاء الرحالة الرهبان الأب بيتر ٧٨٢ ـ ٧٨٦م؛ الذى جاء بمزامير إغريقية من روما؛ ثم والدو ٧٨٦ ـ ٨٠٦، الذى جاء بمخطوطات معه من بافيا وهو دير فرعى كان يعمل فيه أسقفاً من ٧٩١ ـ ٨٠١م؛ والأسقفان إيجينو وراتولد من أساقفة فيرونا وقد ختما حياتهما فى ريشيناو سنة ٨٠٢م؛ ٨٤٧م على التوالى وكانا فى الغالب مسئولين عن المخطوطات اللاتينية.

وكانت هناك عمليات تبادل مثمرة بين هذا الدير وأديرة الفرنكيين الغربيين من نفس الطائفة الدينية. ومن بينها على سبيل المثال دير توزز حيث كان الرهبان من ريشيناو يبعثون للدراسة على يد ألكوين وإلى سانت دينيس حيث يدرسون على يد والدو ٨٠٦ ـ ٨١٤؛ وعلى يد الأب إيرلبالد ٨٢٣ ـ ٨٣٨م؛ كما كانوا يبعثون أيضاً إلى كوربى وربما وصلوا إلى بيرون. وفى سنة ٨١٧م أرسل الراهبان تاتو وجريمالت إلى دير إنده لكى ينسخا نسخة معيارية من لائحة سانت بندكت. وما

---

(١) Etto

(٢) Gallus Oheim

(٣) Rudhelm

تزال هذه النسخة موجودة حتى الآن فى دير سانت جال (رقم ٩١٤ مخطوطات).

ولقد جاء عدد لا بأس به من كتب المكتبة كهدايا من الحجاج أو المهاجرين الأيرلنديين. ومع ذلك فإن معظم الكتب جاء عن طريق النسخ فى الدير نفسه بين نهاية القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع. وكانت هناك حركة دائبة فى الكتب بين الدير والمراكز الفكرية الأخرى القريبة مثل: كونستانس؛ موورباخ؛ وسانت جال بصفة خاصة. لقد كانت المخطوطات تنتقل إما للاستخدام أو النسخ وكان يتم التبادل بها كنسخ مكررة أو الإهداء.

وفى وقت مبكر مثل وقت سانت بيتر نقرأ عن وجود إنتاج فكرى فى مكتبة الدير باللغة الألمانية. كما أن الساكسونى إثيلفرد الذى أصبح راهباً فى ريشيناو قد أوصى بكتبه المكتوبة باللغة الساكسونية إلى مكتبة الدير. ولقد أصبح دير ريشيناو مركزاً للدراسات الكارولنجية حول الكتاب المقدس؛ وأنتج أعمالاً قيمة فى هذا الصدد منها الدراسات التى صدرت باسم والافرد إسترابو. كما أصبح هذا الدير مركزاً لتوزيع تلك الدراسات وخاصة المكتوبة منها **باللغة الألمانية القديمة العليا**(١). ومن بين المراكز التى كانت تودع فيها تلك الدراسات الدير الفرعى فى نيدرالتايخ فى بافاريا.

ولقد كانت المكتبة محظوظة حقاً عند تولى إدارتها شخص غير عادى مثل الراهب ريجنبرت. ورغم أن معلوماتنا عن حياته الشخصية قليلة إلا أن نشاطاته المكتبية موثقة جيداً. فقد تولى إدارة المكتبة لمدة خمس وعشرين سنة حتى وفاته فى سنة ٨٤٧م إذ كان شخصاً لا يمل ولا يتعب فى استنساخ الكتب للمكتبة وبذل أقصى جهد فى تنمية المجموعات. وفى وثيقة ملفوفة من رق ـ مفقودة الآن ولكن منها نسخة ترجع إلى القرن السابع عشر ـ كتبها ريجنبرت بنفسه نجد حصراً بالمقتنيات والإضافات إلى المكتبة فى سنة ٨٢١/ ٨٢٢ عندما تولى أمانة المكتبة وكان بها آنذاك ٤١٥ مجلداً وحتى سنة ٨٤٢م.

(١) Old High German

وكما هو الحال فى الأديرة الأخرى كان يغلب على المجموعة هنا كتب اللاهوت. ومع ذلك كانت هناك مجموعة أخرى متنوعة من الكتب العلمانية، أكثر تنوعاً مما صادفناه فى دير سانت جال: هنا نجد كتباً فى التاريخ؛ الرياضيات؛ القانون؛ الطب؛ الكلاسيكيات ولكنها جميعاً كانت كتباً دراسية وليست بحثية. والشعر الوحيد الذى كان موجوداً هو قصيدة لفرجيل. وقد سجلت الكتب التى أنتجها ريجنبرت ومنسخه بعناية شديدة فى السجل وقد بلغت اثنين وأربعين كتاباً وقد وصلنا عدد من هذه الكتب وتعكس نصاً وهوامش خط يد هذا الرجل الذى أتقن عمله إتقاناً شديداً. ونجد على بعض تلك الكتب العبارة الآتية التى دأب على كتابتها «صديقى العزيز. تحت يدك نص كتب بجدية، التقطه، افتحه واقرأه بصوت عالٍ واحرص على ألا تدمره ثم أغلقه وأعده إلى مكانه».

كذلك كان والافريد سترابو لا يقل أهمية للمكتبة فقد امتدحه نوتكر لأنه جاء بثروة العبرانيين، وأثينا وروما إلى أرض الألمان المحبوبة وكانت وفاته فى سنة ٨٤٩م علامة على نهاية دير ريشيناو بنفس السرعة التى ازدهر فيها.

دير مورباخ[١]

أسسه أيضاً بيرمين سنة ٧٢٧م حيث نفى من ريشيناو. ولقد أمده الأب إيتو ٧٢٧ - ٧٣٤م بعدد من الكتب من ريشيناو، شأنه شأن كل الأديرة الفرعية من ذلك الدير. وكان ألكوين الذى زار الدير ضيفاً عليه قد امتدح أسلوب الرهبان فى الحياة وإخلاصهم للمدرسة والتعليم، وربما لم نكن لنعرف إلا قليلاً عن هذا الدير لولا أن الراهب **سيجسموند مسترلين**[٢] قد قضى بعض الوقت سنة ١٤٦٤م فى هذا الدير. وفى تلك الفترة قام مسترلين بعمل نسخة من وثيقة ملفوفة تتضمن فهرس المكتبة الذى كان قد أعد سنة ٨٤٠م كما حدث فى دير ريشيناو حيث استخدمت لفافة من رق لتسجيل محتويات المكتبة. والفهرس غير

(١) Murbach

(٢) Sigismund Meisterlin

كامل على مايبدو لأنه لا يتضمن كتباً مقدسة، أو دينية، أو القانون الكنسى، وربما يفسر ذلك أن أول اللفافة غير مقروء، لأن الجزء المقروء منه يبدأ بالكاد بكتابات سايبريان[1]. وتظهر محتويات الفهرس الصلة الوثيقة بالدير الأم: فمن بين ٣٠٢ مخطوطة مسجلة فيه نجد ٤٤ منها تخص الأب **إسكر**[2] وقد أضيفت إلى المجموعة قبل سنة ٨٧٦، ومعظم باقى المجموعة تكرر ما كان موجوداً فى ريشيناو. ومن المدهش أن مقتنيات هذا الدير من الكتب الكلاسيكية تشابه أكثر تلك المقتناة فى دير سانت جال وليس تلك المقتناة فى ريشيناو وينتهى الفهرس بأربعين كتاباً من الكلاسيكيات أبرز هؤلاء المؤلفين (لوكيتيوس).

ومن المؤكد أن مجموعات دير مورباخ كانت تضم فى تلك الفترة مخطوط اللغة الألمانية العليا القديمة وشروحات جونيوس والتى وصلت ملكيتها إلى فرانسسكوس جونيوس فى القرن السابع عشر.

إن ارتباط تاريخ مكتبة الدير بأسماء علماء ومفكرين مثل **بيتوس رينانوس؛ جوهان فروين؛ سيخاردوس**[3]، يجعلنا نعتقد أن الفهرس المذكور ليس تسجيلاً كاملاً لكل مقتنيات المكتبة. ومن الخصائص الطريفة فى الفهرس المذكور أنه لا يسجل المقتنيات وحسب وإنما يشير إلى الفجوات فى المجموعات على نحو ما كان يفعل كاسيودوروس فى تعاليمه. وينتمى دير مورباخ إلى تلك المراكز التى انتعشت فيها الثقافة الكارولنجية خلال القرن التاسع. والاسم القديم لهذا الدير هو فيفاريوم الأجنبى للتفريق بينه وبين فيفاريوم كاسيودوروس فى جنوبى إيطاليا.

دير فيزنبرج

عندما نأتى إلى دير **ألساتيان فى فيزنبرج**[4] فى منتصف القرن التاسع فإنه يبرز

---

(١) Cybrian

(٢) Isker

(٣) Beatus Rhenanus' Johann Froben' Sichardus.

(٤) Alsatian

على السطح الراهب أوتفريد الذى توفر على تجميع **موضوعات الأناجيل**(١) وأهدى كتابه هذا إلى لويس الثانى الألمانى. ويمكن أن نعده بين الناسخين فى المنسخ أو على الأقل كان مرتبطاً به بشكل أو بآخر ويكشف خط كتاب موضوعات الأناجيل عن نوع الخط السائد فى فيزنبرج ومن المؤكد أنه نفذ تحت إشراف أوتفريد. وربما تكون مخطوطة فيينا من هذا الكتاب قد كتب جزءاً منها أوتفريد نفسه وتوفر على تصحيحها شخصياً. وباعتباره مديراً لمدرسة الدير فثمة احتمال أن يكون قد ساهم فى تنمية مجموعات المكتبة وخاصة فيما يتعلق بإضافة كتب معلمه رابانوس ماوروس من دير فولدا. ورغم أن مكتبة الدير ومنسخه كانا معروفين إلا أن المعلومات التى وصلتنا عنهما جد محدودة. ولقد وصلنا أحد فهارس المكتبة وهو الفهرس الذى أعد تحت إشراف الأب فولمار (المتوفى ١٠٤٣م)، وهذا الفهرس لا يكشف عن شئ ذى قيمة خاصة مميزة وباستثناء **كتاب المزامير الألمانية فى ثلاث مجلدات**(٢) فسائر كتب المكتبة عبارة عن كتب لاهوتية ولعل أهم ما خرجنا به من مكتبة هذا الدير هو عثورنا على سجل استعارة يحدد الأشخاص الذين استعاروا كتباً من المكتبة. هذه القائمة وهى واحدة من بواكير سجلات الاستعارة ترجع إلى الفترة الكارولنجية وقد جلدت هذه القائمة فى نهاية أحد مخطوطات المكتبة فى فيزنبرج والذى يحمل رقم ٣٥ الآن فى مكتبة وولفنبوتل. وتكشف القائمة عن أن شروط الإعارة كانت ميسرة. فلم تكن الإعارة قاصرة على القساوسة والرهبان فى هذا الدير وإنما كانت مفتوحة وتظهر أسماء نساء استعرن المزامير. وكانت الكتب أيضاً ترسل خارج الدير حيث تستخدم فى أديرة أخرى قريبة مثل: كلنجين؛ أندلاو، وأخرى بعيدة مثل: فرايسنج. ويبدو أن الأسقف والدو فى فرايسنج ٨٨٤ ـ ٩٠٦ وهو شقيق الأسقف سولومون الثالث فى كونستانس كان عنده **الإنجيل الألمانى**(٣)، وربما

(١) Gospel Hormony

(٢) Psalterium Theutonice in 3 Voluminibus

(٣) Evangelium Theodiscum

كانت هذه نسخة أوتفريد التى حصل عليها والدو من قسيس يدعى سيجهارد. هذه النسخة سلط عليها بياتوس رينانوس الضوء فى سنة ١٥٣٠م إذ وقعت فى يده عندما كان يبحث فى مكتبة كاتدرائية فرايسنج عن أعمال ليفى.

ويمكن أن تقاس أهمية منسخ ومكتبة فيزنبرج بطريقة أكثر دقة بواسطة المخطوطات الثمانية والثمانين التى نقلت إلى مكتبة الدوقية فى وولفنبوتل سنة ١٦٨٩م حسب الدليل المادى المكتوب الذى تحت أيدينا حتى الآن. وإبتداء من قطع الكتاب المقدس الغوطى المسمى **بكتاب كارولينوس**(١) فإن المجموعة كلها تعتبر تراثاً رائعاً للفترة الكارولنجية والفترة التى قبلها.

دير لورك(٢)

قام الرهبان الفرنكيون الغربيون ببناء هذاالدير الغنى على برجستراس وقد أسس الأسقف شرودجانج من متز كنيسة هنا سنة ٧٦٤م وأوقف عليها متعلقات سانت نزاريوس. وكان الرهبان الأولون من سكان هذ الدير قد جاءوا من دوقية الأسقف المشار إليه، دوقية جروزيه. ولقد كان هذا الدير أثيراً عند شارلمان. ولويس الثانى الألمانى وإبنه لويس دفنا فيه.

ولا نعرف إلا القليل عن النشاط الفكرى فى الدير، إلا أن رهبان هذا الدير كانت لهم علاقات وثيقة مع دير فولدا. وهناك ثروة هائلة من الوثائق حول الدير نفسه ولكن ليس هناك الكثير حول المكتبة وتطورها. وهذا الموقف يرفع كثيراً من قيمة القائمة التى وصلتنا من القرن التاسع عن مقتنيات المكتبة وتضم مداخل ثلاث فهارس. وهى ليست أشمل سجل فقط ولكنها أكثر الفهارس التى وصلتنا عن هذه الفترة من حيث التفاصيل. فلقد بذل مجهود واضح فى تسجيل الأعمال الفردية داخل المجاميع. والأعمال التى ليست لها عناوين أخذت منها كلمات البداية، والأعمال غير المجلدة سجلت كلمات البداية فى كل ملزمة. وثروة

(١) Codex Corolinus

(٢) Lorsch

المعلومات الببليوجرافية المقدمة عن كل عمل فى هذه القائمة كاملة بحيث لا تضيف القوائم الأخرى التى وصلتنا من روما وغيرها عن نفس الفترة إلا أقل القليل من المعلومات. ويضاعف من آلامنا أن تبددت المجموعات الموصوفة فى هذا الفهرس شذر مذر.

لقد كانت مجموعات مكتبة دير لورك تنمى عن طريق الصلات مع فولدا ، كولون، ترير وأكثر من هذا عن طريق التبادل مع الأديرة الأجنبية فى فرنسا وإيطاليا والأراضى الواطئة. وطبقاً للسجلات التى وصلتنا من الأراضى الواطئة فإن قسيساً يدعى **جيروارد من غنت**[١] بالقرب من **نيجميجن**[٢] قد أوقف على دير لورك سنة ٨١٤م ثلاثة وعشرين كتاباً. هذه الكتب إما أن تكون قد جاءت من إيطاليا إلى الأراضى الواطئة مباشرة. أو جاءت مع المبشرين عن طريق إنجلترا. ومن بين تلك الكتب كان كتاب تعاليم كاسيودوروس وكتاب فيرجيل.

وكما حدث بالنسبة لمعظم الأديرة الكارولنجية فقد ازدهرت الحياة الفكرية لفترة قصيرة ثم خفتت. والمخطوطات التى وصلتنا من هذا الدير وكلها تقريبا ترجع إلى الفترة الكارولنجية الباكرة تكشف عن أن الأمير **أوتنريتش**[٣] استولى عليها فى القرن السادس عشر وحملها إلى مقره وانتهى بها المآل إلى مكتبة الفاتيكان.

لقد كانت مكتبة لورك أغنى من مكتبة مورباخ فيما يتعلق بالكتب الكلاسيكية. يدلنا على ذلك أنه كان من بينها كتاب **رومانوس لفيرجيل**[٤] وهو الآن فى مكتبة بالاتين فى روما وكتب أخرى للمؤلف الكلاسيكى ليفى وقد اكتشفها فى سنة ١٥٢٧م شخص يدعى **سيمون جرينايوس**[٥] والجزء الذى وصلنا من العقد الخامس من تاريخ ليفى كتب فى القرن الخامس الميلادى فى إيطاليا. وتملكه قسيس هولندى من دورشتد بالقرب من أوترخت. وهو أقدم مخطوط فى كل هولندا.

---

(١) Gerward of Ghent

(٢) Nijmegen

(٣) Otteinrich

(٤) Romanus of Virgil

(٥) Simon Gryneaus

ولعل أجمل مخطوطات لورك على الإطلاق والمسجل فى فهرس من أوائل القرن التاسع هو ذلك الإنجيل المكتوب بماء الذهب بخط أونسيال فى لورك فى القرن التاسع. وعنوانه يسير على النحو الآتى «**إنجيل مكتوب بالذهب ومزخرف مزين برقائق العاج**»[١] وهو يعرف بكراس أوريوس[٢]. وقد انشطر هذا الكتاب الآن إلى أربعة أشطار. النص نفسه موجود فى مجموعة باتيانى فى كالزبرج وفى مكتبة البلاتين فى الفاتيكان بروما. أما رقائق العاج فقد تفرقت بين المتحف المسيحى فى روما، ومتحف جنوب لنجستون فى لندن[٣]. ويبدو أن مكتبة دير لورك كانت تفخر بالجلود الغالية فإلى جانب الإنجيل الفخم سابق الذكر يسجل الفهرس كتاب وعظ جلدته مطعمة أيضاً بالعاج. وثلاث مجلدات أخرى مزينة تزييناً أنيقاً بالذهب والعاج، أمر بها الأب سيتلمان ٩٧٢ ـ ٩٩٩م.

٢ ـ أراضى الراين وهيسى[٤]

ليس هناك فى كل مناطق ألمانيا مناطق تأثرت تأثراً شديداً بالمبشرين الأنجلوساكسون قدر تأثر مناطق الراين وهيسى. بالإضافة إلى أن هذه المنطقة كانت المقر المفضل للبلاط والإدارة الامبراطورية حيث كانت القصور فى آخن؛ نجمفيجن، إنجلهايم والمقر الأساسى فى ماينز[٥]. ومع كل ذلك فإن ثروات أديرة تلك المنطقة من المخطوطات اختفت كلية. وربما كان سبب ذلك هو التدمير الكلى خلال الغزو النورماندى الكاسح سنتى ٨٨١ ـ ٨٨٢م والذى غطى كل مناطق الراين الشمالية ولم يتوقف حتى بلغ متز. ومعظم المخطوطات القديمة الناجية عبارة عن كتابات دينية حملها المهاجرون مع ما حملوه من مقتنيات الكنيسة وهى مجرد عينات لما كان عليه فن إنتاج الكتاب وخاصة تلك المنتجة فى

---

(١) Evangelium Scriptum cum aure pictum habens tabulas eburneas.

(٢) Codex Aureus

(٣) Museo Cristiana, South Kingston Museum

(٤) The Rhineland and Hesse

(٥) Aachen, Nijmwegen, Ingelheim, Mainz

المناسخ الملحقة بمدارس القصر ودير آدا[1]، ذلك الإنتاج الذى ترسخ فى أرض الراين.

دير إخترناخ[2]

أسس هذا الدير القديس **ويليبرورد**[3] (توفى سنة ٧٣٩م) وقد غدا هذا الدير أثناء حياة مؤسسه وطناً ومقراً لمجموعة من النساخ الأنجلوساكسون. وكانت النصوص الأصلية الخاصة بهم قد أحضرت إلى هذا الدير إما عن طريق الرهبان الأنجلوساكسون أو تم إنتاجها هنا فى الدير بواسطة ناسخين من الجزر البريطانية ثم بعد ذلك رغبوا فى التقليد على النحو الذى كان يحدث فى ترييير. وفى القرن التاسع كانت هناك تأثيرات واضحة على هذا الدير من شمالى فرنسا فيما عرف بالأسلوب الفرانكوساكسونى ففى ذلك الوقت كان دير سانت ماكسمين فى ترير ينتج الكتاب المقدس الخاص به والذى اشتهر فى أنحاء كثيرة. هذا العمل الذى لم يعرف أنه كان فى حوزة الدير حتى القرن الثانى عشر كان هدية من أخت شارلمان (آدا) التى اعتزلت فى ماينز وأنفقت على الدير بسخاء. ونحن لا نعرف كم كان حجم المجموعة فى مكتبة هذا الدير، والتى يرجع معظمها إلى الفترة الكارولنجية، ولا حجم المجموعة التى أهديت إليه من دير سانت ماتياس فى ترير حيث دمر الغزو النورماندى أغلبها. كما أن ما بقى من مخطوطات قليلة من مدرسة القصر نقلت إلى كاتدرائيات آخن وزانتن[4].

وفى سنة ٨١٤م قام لويس التقى بتأسيس دير كورنيلمونستر على نهر إنده بالقرب من آخن لكى يكون موئلا للراهب الأثير عنده: بندكت من آنيان [5]. وقد أسس هذا الدير كأحسن ما تكون الأديرة وحتى يكون نموذجاً لكل الأديرة فى الإمبراطورية. وإلى هذا الدير أرسل الراهبان جريمالت وتاتو من ريشيناو لكى

---

(١) Ada

(٢) Echternach

(٣) Willibrard

(٤) Aachen, Xanten

(٥) Benidict of Anian

ينسخا نسخة من لائحة بندكت. بمساعدة المجموعات الممتازة فى هذا الدير من الكتب فى تلك الفترة الباكرة استطاع بندكت الآنياتى أن يجمع كل القواعد المتعلقة بالعمل الديرى وألف منها لائحته الشهيرة **كتاب التعاليم**[١] . وهناك فهرس من القرن التاسع يحمل تأشيرة على هامشه تقول بأن: «الأب فى دير إنده نقل هذه الكتب من هنا» والتأشيرة وضعت أمام بعض نسخ الكتاب المقدس، وكتب الترانيم وكتب الأدعية والصلوات.

وفى القرن التاسع، أصبح دير بروم[٢] الذى أسس سنة ٧٢١م أكثر أديرة منطقة الراين نشاطاً من الناحية الفكرية. هذا الدير الذى يقع فى جبال ايفل كان يتمتع بحماية الامبراطور بيبين. وازدادت مكانته عندما اختاره الامبراطور لوثير لكى يكون الدير الذى يترهب فيه سنة ٨٥٢م. ولذلك قدم له الامبراطور هدية قيمة هى مخطوطة **أناجيل بروم**[٣] التى كتبت فى تورز. وكان الأب ماركوارد ٨٢٩ ـ ٨٥٣م هو الذى توسط لدى لوبوس من فيريير ليبعث بكثير من الكتب إلى ألمانيا. ولكن لم يلبث أن دمر النورمان الدير مرة ثانية ٨٨٢ و٨٩٢م.

دير فولدا

أنشئ هذا الدير سنة ٧٤٤م على يد أحد طلاب بونيفاس وهو طالب من بافاريا، وذلك نيابة عن أستاذه. واتباعاً لنهج بونيفاس الدينى فقد استمر التأثير الأيرلندى قائماً وسيطر حتى نهاية طوال القرن التاسع. لقد كانت فولدا المركز الجغرافى للمنطقة التى ساد فيها خط إنسولار (الجزر البريطانية) حتى سنة ٨٣٠م. أما التأثيرات البافارية فإنه يمكن تتبعها فى المخطوطات الألمانية العليا القديمة الرئيسية التى أنتجها دير فولدا. ولكن بعد وصول رابانوس ماوروس ٨٢٢ ـ ٨٤٢م، أصبح للثقافة الفرنكية اليد العليا وحل الخط الكارولنجى محل الخط الأيرلندى إنسولار. وغدا دير فولدا أشهر مركز ثقافى فكرى فى كل أنحاء أوربا

---

(١) Codex Regularum

(٢) Prüm Gospels Codex

(٣) Prum

وتدفق إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم كما كانوا قبل ذلك يتدفقون على تورز. لقد كان رئيس المنسخ هو الرجل المتعلم الراهب **رودولف**[١] المتوفى سنة ٨٦٥م. الذى كان لمعرفته بالإغريقى تاكيتوس[٢] الفضل الأول فى إحياء ذكر هذا المؤرخ الرومانى فى العصور الوسطى ولولاه لاندثر ذكر هذا الرجل وكتابه الذى ربما لم توجد منه نسخ إلا فى فولدا. وبمجئ ماجينهارت[٣] خلف رودولف كان مجد فولدا الذهبى قد ولى.

لقد كانت المكتبة انعكاساً حقيقياً للحياة الفكرية فى دير فولدا خاصة أيام رابانوس ماوروس. ولقد تألفت المجموعة الأساسية فيها من نسخ أخذت من أصول موجودة فى الجزر البريطانية، على نحو ما نستنتج من المخطوطات التى وصلتنا فى المجموعة المسماة باسم بونيفاس فى روما. وإضافة إلى تلك النسخ نجد الهدايا التى جاء بها الرهبان من إيطاليا وخاصة من مونت كاسينو الدير الذى كانت له علاقات وثيقة مع فولدا. كذلك فإن العلاقات مع الأديرة المجاورة والمراكز الثقافية قد سهلت تبادل النسخ مما كان له أثر كبير على نمو المجموعات بخطى سريعة. فقد كانت هناك علاقات مع ماينز؛ يورك؛ فيرزبرج ولقد كان لجهود رابانوس العلمية أثرها فى إقامة علاقات مع فيزنبرج، ريجنزبرج، سانت جال، ريشيناو، كورى. لقد دأب آباء الدير فى فترة مبكرة منذ تولى بوجولف ٧٧٩ ـ ٨٠٢؛ راتجار ٨٠٢ ـ ٨١٧[٤] على إرسال الرهبان إلى الغرب الفرنكى كمبعوثين فى المراكز الثقافية فى آخن وتورز. لقد اجتذبت مكانة فولدا العلمية ومكانة رابانوس الشخصية (الذى كان تلميذاً لألكوين فى تورز) الباحث الفرنكى الغربى لوبوس الفيريبرى إلى فولدا.

ولقد استفادت المكتبة كثيراً من المنسخ القائم فى الدير. ففى عهد الأب الثانى

---

(١) Rudolph

(٢) Tacitus

(٣) Maginhart

(٤) Baugulf, Ratgar

للدير صديق شارلمان بوجولف تم تعيين آينهارت رئيساً للمنسخ. ولكن تحت ضغط تنفيذ خطة البناء الطموحة فى عهد راتجار لم يكن لديه متسع من الوقت لدفع خطط البحث العلمى والمعرفة فى الدير، بل وذهب إلى أبعد من هذا فحرم رابانوس ــ كمدرس ـ من مجموعة كتبه الخاصة. ومع كل هذا فقد سانده الأب إيجيل ٨١٧ ـ ٨٢٢م[١] فى برامج الدراسة والبحث فى الدير ومؤخراً لقى التأييد من رابانوس نفسه ٨٢٢ ـ ٨٤٢م (توفى ٨٥٦م). ولقد سجلت حوليات الدير أن رابانوس كانت لديه مكتبة شخصية من النفاسة والضخامة بحيث لاتحصى كتبها. ولقد مدح رابانوس مكتبته هذه فى خطاب كتبه إلى أمين المكتبة جيرهوه[٢] .

لقد كتب هذا التقريظ شعراً باللاتينية وسوف أحاول ترجمة المعانى فقط دون الالتزام بالوزن والقافية:ـ

ماذا أقول كى أوفى الكتب حقها من الثناء

تلك الكتب التى فى عهدتك أيها الأخ الحبيب

حيث فيها يجد الإنسان كل شئ من الأشياء

التى أراد الله أن يعلمها للبشر وأرسلها إلى العالم

من عرشه العلوى خلال الكلمات المقدسة فى الإنجيل

وفيها كل حكمة العالم التى أنتجها البشر فى كل العصور.

كذلك كان الرهبان فى دير فولدا على علم تام بالشعر الذى كتبه ألكوين، وحيث كانت أشعاره تزين مدخل المنسخ.

وفى مجال إحياء التراث الفكرى الكلاسيكى يحتل دير فولدا مكاناً متميزاً.

---

(١) Eigil

(٢) Gerhoh

وكانت المكتبة تقتنى أعمال عدد كبير من المؤلفين القدامى نذكر منهم فقط على سبيل المثال: شيشرون، طبعة سيرفيوس من فيرجيل، كولوميلا، فيتروفيوس النحويون، ثم المؤرخون: سيتونيوس، إفيانوس مارسيللينوس؛ جوستن، هيجزيبوس[١] وربما أيضاً تاكيتوس. كذلك وصلنا جانب كبير من **الأدب الألمانى العالى القديم** فى مخطوطات أصلية أنتجت فى الدير أو فى نسخ انتسخت من تلك الأصول ومن بينها الأغانى الشعبية، الترانيم، والشروحات، وكتابات المبشرين مثل كتب الاعترافات وكتب الطقوس وعبارات التعميد وكتب الصلوات والبركات وهى جميعاً تؤكد على دور فولدا كنقطة إنطلاق للمبشرين فى اتجاه الشمال الوثنى.

وفى الفترة التى تولى فيها الأب راتجار والتى وسمت بأنها فترة (ضد الفكر) قسمت مجموعة المكتبة إلى قسمين حيث عزلت المجموعة القديمة عن تلك المتأخرة التى أضيفت فى عهد رابانوس حيث كان رابانوس حريصاً على تجميع كتب العامة أى التى تخدم عامة الناس وليس فقط الصفوة كما كان حريصا على جمع كتب الشروح والتعليقات. وقد ساعدت مكتبة فولدا رابانوس وتلميذه والافريد على تجميع شروح وتعليقات أعمال إيزيدور وكذلك ترجمة كتاب تاتيان[٢] والتى يقال بأن نسخة فولدا كانت الوحيدة لهذه الترجمة وقد نقلت إلى دير سانت جال فى وقت مبكر (القرن العاشر) وقد ساعدت كثيراً فى إعداد النسخة الألمانية من الأناجيل.

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نكون فكرة كاملة عن مكتبة دير فولدا ذلك أنه لم تصل إلينا سوى قطع متناثرة من ثلاثة فهارس لمجموعات الدير فى عصرها الذهبى. وأهم هذه القطع وجدناها مجلدة مع فهرس من دير يورك. ومصير مجموعات المكتبة هو الآخر مصير مأساوى إذ أنه بعد إهمال شديد ونسيان

---

(١) Cicero; Servius' edition of Virgil; Columella; Vitruvius; Suetonius; Ammianus Marcellinus, Justin, Hegesippus, Tacitus.

(٢) Tatian

للمكتبة تم اكتشافها فى نهاية العصور الوسطى عل يد الإنسيين وخاصة ذلك العالم الإنسى **بوجيو براتشيولينى**(١) والذى قام بنقل مجموعة المخطوطات الكلاسيكية من المكتبة سنة ١٤١٧م. وفقدت المكتبة عدداً كبيراً من كتبها خلال انعقاد مجلس الكنائس فى كونستانس، إذ قام الأب جوهان بجمع كتابات آباء الكنيسة وشحنها إلى كونستانس سنة ١٤١٤م ولم تعد هذه المخطوطات أبداً بعد ذلك إلى فولدا وقد استعملت هذه المخطوطات استعمالاً عنيفاً خلال القرن السادس عشر ثم اختفت بدون أية آثار خلال حرب الثلاثين عاماً، عندما غزا السويديون منطقة الفولدا سنة ١٦٣١م. ومن حسن الحظ أن المجموعات قد فهرست أربع مرات بمستويات مختلفة من الدقة والإحاطة فى منتصف القرن السادس عشر. هذه الفهارس تصف مجموعة من حوالى ألف مجلد ترجع إلى العصر الكارولنجى ولم يصل إلينا من هذه الثروة إلا عدد جد ضئيل، حوالى خمسين مجلداً مبعثرة بين كاسل، بازل وغيرها من الأماكن وهى المخطوطات التى خرجت من الدير قبل كارثة ١٦٣١م.

أما مقتنيات الدير نفسها التى بقيت فيه فلم يصلنا منها شئ البتة، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المخطوطات التى أنتجت فى الدير لصالح الكنائس المختلفة مايزال موجوداً. وتكشف تلك المخطوطات عن نوع فريد من الزخرفة كان يمارس فى منسخ هذا الدير فى بداية عمل المنسخ ومن الأمثلة عليها ترجمة حياة الأب إيجيل وكتاب مسح الأراضى الزراعية. كذلك تكشف تلك المخطوطات عن أن عملية تصوير النصوص فى ذلك الدير كانت قد تطورت تطوراً عظيماً فى نهاية القرن التاسع وازدهرت فى الفترة الأوتونية. وكما حدث فى تورز وريشيناو كانت كتب العبادة تنسخ هنا بكثرة وتوزع على أماكن مختلفة. وكانت آخر الإشارات إلى نشاط المنسخ والمكتبة فى دير فولدا هى تلك التى وصلتنا من القرن الثانى عشر، حيث طلب الأب **ماركوارد** ١١٥٠ ـ ١١٦٥م(٢) من راهب يدعى اسم **ايبرهارد**(٣) أن يجمع وثائق الدير كلها فى كراس واحد على نحو ما كان يحدث

---

(١) Poggio Bracciolini

(٢) Marquard

(٣) Eberhard

باستمرار فى لورك. وبعد ذلك بقليل قام الأب الرئيسى روجر آخر آباء الدير ١١٧٦ ــ ١١٧٧ بإعداد عمل ضخم عن سير وقصص القديسين فى فولدا ويقع فى ستة مجلدات كبار ولكن هذا العمل للأسف فقد.

دير هيرسفيلد[١]

قام **لول**[٢] رفيق درب وخليفة سانت بونيفاس بإنشاء دير هيرسفيلد لإحداث نوع من التوازن مع دير فولدا، الذى لم يكن يعترف إلا بصعوبة بالإدارة الحضرية فى ماينز، وكان ذلك فى سنة ٧٧٠م. وعلى العكس مما حدث فى دير فولدا استمر انتعاش وازدهار دير هيرسفيلد ممثلا فى المدرسة والحياة الفكرية والروحية حتى نهاية الفترة الكارولنجية. وحتى نهاية القرن الحادى عشر لم يقدم الدير باحثاً أصيلاً شهيراً مثل **لامبيرت**[٣] مؤرخ هنرى الرابع. ومن المؤكد أن احتياجات هذا المؤرخ الكبير كان لابد لسدها من مكتبة كبيرة فى الدير. وكان من الممكن أن نتيقن من تلك الحقيقة لو أن تاريخ الدير الذى كتبه لامبيرت قد وصلنا. وكل ما نعرفه فقط هو أن الأب جوزيبرت ٩٧٠ ـ ٩٨٥م قدم للمكتبة مجموعة ضخمة من الكتب. كذلك قام أوتلوه[٤] الراهب فى سانت إميرام بإهداء بعض المخطوطات لتلك المكتبة، ربما عندما كان طالباً فى مدرسة الدير المزدهرة (١٠٢٤م) أو عندما نفى إلى فولدا ١٠٦٢ ـ ١٠٦٦م.

وإذا وضعنا أيضاً فى اعتبارنا إهتمام الإنسيين فى هيرسفيلد فلن يكون هناك شك فى قيمة المكتبة وأهميتها على الرغم من أن الإنسيين لم يركزوا إهتمامهم إلا على الكتب الكلاسيكية فقط. والقائمة التى أعدها أحد رهبان الدير بالكتب التى حملها بوجيو براتشيولينى خلال السنوات ١٤٢٥ ـ ١٤٢٩ على النحو المشار إليه سابقاً ضمن كتب أخرى تتضمن خطب شيشرون، والكتب العشرة الأولى من

---

(١) Hersfeld

(٢) Lull

(٣) Lambert

(٤) Otloh

ليفى وكتب فروتينوس وكتب سيتونيوس عن النحو، وأعمال إميانوس مارسيللينوس، وعمل لا يقدر بثمن هو العمل الوحيد لتاكيتوس؛ وهو ثروة عن تاريخ الألمان أرضاً وشعباً وقد أخذ هذا العمل سنة ١٤٥٥م، المدعو **إينوخ الإسكولى**[١] إلى إيطاليا وظل النسخة الأم الوحيدة لكل النسخ التى ولدت منه بعد ذلك. وقد تضمن هذا السجل كذلك نسخة قديمة جدا من (رسالة المنطق) التى ألفها **أبوليوس**[٢] والتى استخدمها **سيخاردوس**[٣] سنة ١٥٢٧م. ولم يصلنا من هذه القائمة كلها سوى ست ورقات من أعمال إميانوس آخر من رآها كان جيلينيوس سنة ١٥٣٥م، ملزمة واحدة من كتاب الفلاحة[٤] ومخطوطة واحدة كاملة هى التاريخ الرومانى الذى وضعه بول الشماس. يلقى بعض المؤرخين اللوم على رهبان الدير، فى عملية تدميره حيث أنهم آثروا أن يجلسوا على أنقاض الدير بدلاً من أن يستجيبوا لنداء الإصلاح.

٣ـ ساكسونيا

ديركورفى[٥]

توفر الرهبان الأجانب من غير الألمان على إقامة أهم الأديرة فى ساكسونيا المسيحية ولقد بنى دير كورفى سنة ٨٢٢م على يد رهبان من كوربى[٦] تحت رعاية لويس الأول التقى ثم أرسلت مجموعات المخطوطات من الدير الأم إلى دير (كوربيا الجديدة). ولعل الكتاب الوحيد فى مخطوطات هذا الدير والذى وصلنا من فترة ما قبل الفترة الكارولنجية والذى أنتج فى هذا الدير كورفى هو شروح سانت جيروم على المزامير[٧] والذى أشرنا إليه كثيراً من قبل والمكتوب بخط

---

(١) Enoch of Ascoli

(٢) Apuleius

(٣) Sichardus

(٤) Agricola

(٥) Corvey

(٦) Corbie

(٧) Breverium Hieronymi in Psalmos

الأونسيال (موجود الآن فى مكتبة وولفنبوتل تحت رقم ٢٦٩). كذلك فإن الكتاب المزخرف الشهير الجامع لأعمال تيرنس يمكن تتبع أصوله فى نسخة فى مدرسة كوربى. وكتاب أعمال **تيرنس**[١] هو ثمرة جهود قام بها اثنان من الرهبان لتجميع هذه الأعمال وقد أشارا إلى نفسيهما على أنهما: هرودجار وآدلريتش[٢] وقد عملا تحت إشراف أول اثنين من آباء الدير فى كورفى هما أدلارد ٨٢٢ ـ ٨٢٦م وفارين ٨٢٦ ـ ٨٥٦م[٣] . كذلك يمكن أن نتتبع أصول كتاب هامبورج عن قواعد القانون الكنسى والمدنى فى نسخة موجودة فى كوربى ترجع إلى نهاية القرن التاسع. وقد منح الدير حق الإقامة إلى لويس الأول التقى مع هدية قيمة هى الكتاب المقدس المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وكانت الكتب التى أحضرت من كوربى تمثل نواة المكتبة فى دير كورفى ثم لم تلبث المجموعات أن نمت عن طريق النسخ داخل منسخ كورفى. وكان لوجود بعض الباحثين الفرنكيين الغربيين أثر كبير فى دفع عملية النسخ وعلى رأسهم لابد وأن نذكر أدلارد من كوربى وهلدوين من سانت دنيس[٤] وكان هذا الأخير قد نفى إلى دير كورفى.

وكان الرهبان الذين يرتحلون من الدير فى بعثات تبشيرية باتجاه الشمال كانوا يحملون معهم بعض الكتب. فهذا هو **أنسجار**[٥] مدير مدرسة الدير التى افتتحت ٨٢٢م يحمل معه أربعين كتاباً فى رحلته إلى السويد، ورغم أنه قد أصبح كبير أساقفة هامبورج إلا أنه لم يقطع صلته بالدير. هذه الصلات ربما عادت بالضرر على مجموعات مكتبة الدير ذلك أن أنسجار قد دأب على استعارة بعض الأصول من مكتبة الدير ووضعها لمدد طويلة فى مكتبة الكاتدرائية فى هامبورج وعندما دمرت الكاتدرائية والمكتبة أثناء الغزو النورماندى سنة ٨٤٥م، دمرت تلك الأصول معها مما سبب خسارة كبيرة لمكتبة الدير فقد كتب **رمبيرت**[٦] خليفة

(١) Terence

(٢) Hrodgar; Adelrich

(٣) Adelord; Warin

(٤) Adalard of Corbie; Hilduin of st. Denis

(٥) Ansgar

(٦) Rimbert

أنسجار وكاتب سيرته (٨٦٥ ـ ٨٨٨م) أنه رأى مكتبة كاتدرائية هامبورج وشاهد كتباً من كورفى فيها قبل الغزو النورماندى.

وكان أول ذكر رسمى لمكتبة دير كورفى قد وقع فى سياق وصف العديد من الكتب التى أحضرها معه إلى الدير الراهب جيرولد[١] ممثلاً للإمبراطور لويس التقى عندما التحق بالدير سنة ٨٤٧م. ونحن لا نعرف محتويات هدية جيرولد من الكتب ولكننا نعرف قيمة جيرولد العلمية من خلال الوصف الذى وصفته به بعض المصادر من أنه «رجل يعرف فى كل الموضوعات»[٢] . ومثل هذا التقدير لهذا العالم، والمستوى الفكرى العالى الذى عرف عن هذا الدير والذى أفرز فيلسوفاً يقف على قدم المساواة مع فلاسفة الإغريق القدماء هو **الأب بوفو الثانى** ٩٠٠ ـ ٩١٥م[٣] ، مثل هذا كله لابد وأن يؤكد لنا وجود مكتبة قوية فى هذا الدير. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الدير كان فى حوزته كتاب تاريخ تاكيتوس الشهير (الحوليات) والذى تم تجليده بخطابات بلينى ويرجع البعض علاقات كورفى بدير فولدا إلى هذا المخطوط الذى أخذه البابا ليو العاشر إلى روما سنة ١٥٠٨م.

وبسبب الاضطرابات والأيام الرديئة والغزو النورماندى انتهى العصر الذهبى مع عهد بوفو الثانى المشار إليه.

مونستر وفيردن[٤]

لعل أهم مدن الكاتدرائيات التى أسست فى ساكسونيا الغربية كانت مدينة ميمجرنافورد[٥] التى تعرف الآن باسم مونستر. وكان أول أساقفتها هو الأسقف لودجر ٧٤٤ ـ ٨٠٩م[٦] وهو فريزيان درس على يد سانت جريجورى فى مدرسة

(١) Gerold
(٢) Vir omni Scienta eruditus
(٣) Bovo II
(٤) Münster and werden
(٥) Mimigernaford
(٦) Ludger

كاتدرائية فى أوترخت ثم على يد ألكوين فى يورك وقام بزيارة روما ومونت كاسينو بين ٧٨٤ ـ ٧٨٧م.

وقد كان لودجر منذ شبابه محباً للكتب . وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات أنه كان فى طفولته يكتب الكتب عل مواد صنعها بنفسه من لحاء الشجر. وفى أثناء عودته إلى أوترخت حمل معه كثيراً من الكتب من ذخائر لورك. وقد نظم مدرسة الكاتدرائية على نمط أوترخت ويورك وطبق لوائح بندكت، كما تعلمها فى مونت كاسينو فى ديره الجديد فى فيردن على نهر الرور. وكان هذا الدير قد أسس سنة ٨٠٠ تقريباً. ويعزى إلى لودجر تأسيس جميع المكتبات فى كل المؤسسات التى رأسها ومنها مكتبة كاتدرائية مونستر ومكتبة دير فيردن اللتان أوقف عليهما كتباً كثيرة. وهذه مجرد استنتاجات عقلية وليس أدلة نقلية مكتوبة فى مصادر وصلتنا. وفى سنة ١٥٢٧م دمرت النار مكتبة كاتدرائية مونستر تدميراً تاماً فى الطابق الثانى فوق صالة المدخل. وكانت هناك لائحة كاملة صارمة قد وضعت للمكتبة سنة ١٣٦٢م. والحقيقة أنه لم يصلنا أى كتاب من هذه المكتبة الباكرة فى فستفاليا.

ولقد كان دير فيردن أكثر حظاً من مونستر فقد وصلنا منه بعض مخطوطاته ولو أنها قليلة ومعظمها موجود الآن فى مكتبة الدولة فى برلين منذ ١٨٢٣م وترجع إلى عهد لودجر وإن لم يرتبط اسمه بأى منها. وهناك مخطوط عن رسائل الرسول بول يحمل حاشية من القرن التاسع عشر تقول بأن هذا المخطوط من نسخ لودجر نفسه. وهناك من الأبحاث الحديثة ما يؤكد على أن لودجر كان قد اقتنى كتاب **أرجنتيوس من أولفيلاس**[1] . ونفس الشئ ينطبق على كتب أخرى فخمة مطعمة بالعاج. كذلك يؤكد الباحثون على أن بعض الكتب الجيدة قد تم إنتاجها فى منسخ دير فيردن ويرددون أن هذا الدير كان من المراكز الدينية والعلمية الهامة فى شمالى ألمانيا فى الحقبة الكارولنجية.

---

(١) Codex Argenteus

٤ ـ مدن الكاتدرائيات الألمانية

فى مدن الكاتدرائيات، كانت تنشأ داخل الكاتدرائية مدرسة تقوم بإعداد الإكليريين المدنيين وتعليمهم. وكان لابد من إنشاء مكتبة فى الكاتدرائية لسد احتياجات العبادة، والإدارة، والتعليم الذى يتم فى المدرسة وخاصة تعليم قوانين الكاتدرائية، وقد عرضنا فيما سبق لإحدى مكتبات الكاتدرائيات فى مونستر. ونستأنف هنا الحديث عن سائر مكتبات الكاتدرائيات.

كولون [١]

عندما تذكر كاتدرائية كولون فإنه يقفز إلى الذهن كبير الأساقفة **هيلدبالد** ٧٨٩ـ ٨١٩[٢] الذى كان أهم شخصية دعمت المكتبة فى كاتدرائية سانت بيتر فى كولون والذى كان فى نفس الوقت مستشاراً للإمبراطور شارلمان. ومن بين الممتلكات القديمة لمكتبة الكاتدرائية الآن نجد اثنى عشر مخطوطاً مكتوباً عليها التمليكة الآتية: «هذا الكراس ملك كاتدرائية سانت بيتر، وقد كتب فى عهد أبينا التقى هيلدبالد» مما يؤكد أنها كانت جزءاً من مكتبة هيلدبالد. ويحتمل أن يكون إنتاجها قد تم فى كولون حيث يوجد فيها نوع من التوحيد فى الإخراج والخط مما يستبعد معه أن تكون قد أنتجت فى المناسخ العادية التى كانت تعمل فى ذلك الوقت. ولا نصادف إلا قليلاً من المخطوطات بخط إنسولار أما الخط الغالب فهو الأسلوب الكارولنجى مع تأثيرات واضحة من تورز. ولعل أمتع هذه المخطوطات من وجهة نظر فن إنتاج الكتب هو ذلك المخطوط الشهير: شروح سانت أوغسطين على المزامير والذى يقع فى ثلاثة مجلدات والذى توفرت مجموعة من عشر راهبات على نسخه. وكانت كل راهبة فى المجموعة مسئولة عن نسخ ثمانين ورقة وكل راهبة ناسخة تعرف بنفسها فى نهاية الأوراق التى كتبتها. وهى طريقة الممارسة المألوفة فى توزيع ملازم الكتاب على عدد من النساخ لنسخة فى وقت واحد.

---

(١) Cologne

(٢) Hildbald

وفى كتاب فيراندوس[1] حيث جلد معه فهرس المكتبة لسنة ٨٣٣م، نصادف ملحوظة تقول بأن هذا الكتاب نسخة من أصل أرسله البابا ليو الثالث كجزء من هدية أرسلها إلى شارلمان. وهناك مخطوطات أخرى من الواضح أنها قد طلبت بواسطة هيلدبالد من الدول الأجنبية خاصة شمالي فرنسا وألمانيا. كما حمل بعضها من رحلاته المتعددة إلى الخارج. وفى مرحلة متأخرة هناك نسخة من الكتاب المقدس مكتوبة فى تورز، أرسلها الأب هيرمان الأول ٨٩٠ ـ ٩٢٣م كهدية للمكتبة. وكان خلفاء هيلدبالد متحمسين بنفس القدر لتنمية المكتبة وتوسيع نطاقها. ولقد أعد لهذه المكتبة فهرس تحت إشراف الأسقف هيلدبالد سنة ٨٣٣م[2] يسجل أكثر من مائة مخطوط ثلثها على الأقل موجود فى مكتبة الكاتدرائية الآن والتى تضم نحو سبعين مخطوطة ترجع للفترة ما بين القرن السابع إلى القرن العاشر. كذلك وصلنا سجلان للإعارة أحدهما معاصر لفهرس ٨٣٣م والثانى يرجع إلى القرن الحادى عشر. وقد أهملت مكتبة كولون إهمالاً شديداً وغلفها النسيان حتى أعيد كشفها فى القرن الخامس عشر على يد نيقولاس من كوزا[3] .

وتعتبر مكتبة كاتدرائية كولون أقدم مكتبة فى كل ألمانيا ظلت فى مكانها الذى أنشئت فيه حتى اليوم. ولم تكن مكتبات الكاتدرائيات فى ماينز وترير على نفس قدر الحظ لمكتبتنا هذه؛ حيث أن تدميرهما بدأ فى القرن السادس عشر واستأنف التدمير أثناء الاحتلال الفرنسى وعملية التحول إلى العلمانية.

ماينز

ترجع بدايات كاتدرائية ماينز إلى فترة أسقفية كل من بونيفاس ٧٣٧ ـ ٧٥٤م؛ لول ٧٥٤ ـ ٧٨٦؛ رابانوس ٨٤٧ ـ ٨٥٦، تلك الفترة التى وصفت بأنها فترة الأسقفية الحضرية ولابد أن المكتبة فى عهد لول كانت تضم مجموعة قوية متميزة

---

(١) Codex Ferrandus

(٢) Hadebald

(٣) Nicholas of Cusa

كما أن خلفاءه الذين كانوا إكليريين ممتازين ساهموا فى صيانة المكتبة وتنمية مجموعاتها. كما كان لوجود باحثين ممتازين من أمثال رودولف من فولدا؛ إيكهارت الثانى؛ إيكهارت الرابع؛ مارينوس سكوتس أثر كبير فى تنمية المكتبة وتوسيع نطاق مجموعاتها. ولكن للأسف لا توجد معلومات مباشرة يقينية عن هذه المكتبة. وهناك مخطوط من القرن الثامن أو التاسع هو الآن فى فيزبرج يحمل الملحوظة الآتية «هذا الكتاب ملك لكاتدرائية سانت مارتن» (اسم كاتدرائية ماينز). وهناك مجلد آخر عبارة عن دراسة تقييمية لكتاب (مدينة الله) لأوغسطين من إعداد جوثانوس يحمل ملحوظة تقول بأنه كتب بناء على أمر كبير الأساقفة العظيم ويليجيس٩٧٥ ـ ١٠١١م وقد حرره وراجعه بنفسه وبمساعدة تلاميذه وقدم هدية للكاتدرائية. ولم يعد فهرس كامل دقيق للمكتبة إلا فى سنة ١٤٧٩م.

وعدد كبير من مخطوطات ماينز موجود الآن فى مكتبة بالاتين فى روما ومكتبات أخرى فى ميونيخ وفيزبرج وجوثا. ونحو ٢٥٪ من هذه المخطوطات يقع ما بين القرنين الثامن والعاشر وتؤكد وجود منسخ فى كاتدرائية ماينز. ولأن كاتدرائية ماينز أسست على يد الأنجلوساكسون وكانت لها علاقاتها الوثيقة مع دير فولدا من خلال بونيفاس ورابانوس فقد ساد الخط الأيرلندى (إنسولار) معظم المخطوطات الأولى وحتى القرن التاسع والتى أنتجت فى ماينز. وربما كان مخطوط ليفى المفقود قد كتب بالخط الأنجلو ـ ساكسونى. كذلك فإن تجليد هذه المخطوطات وزخرفتها يشى بأنها قدمت من ماينز.

وبحكم سطوة السلطة الدينية للأساقفة فى الكاتدرائية من خلال الكنيسة الألمانية فإن الكتب الكنسية كانت تمثل نسبة كبيرة من مجموعات المكتبة. ولقد حاول أحد البندكتيين دس نسخة من القرارات المزورة[1] فى منسخ كنيسة ماينز. إن ستة من مخطوطات ماينز الموجودة الآن فى روما عبارة عن مجموعة قوانين كنسية، وهناك أيضاً مخطوطة هامة جداً تمثل النسخة الأصلية من كتاب ديونيسيوس[2] أول

(١) False Decretals

(٢) Dionysiana

قانون حقيقى كتبة ديونيسيوس إكسيجوس. والذى لا يوجد منه سوى نسختين فقط واحدة فى ماينز والثانية فى فولدا وهذه الثانية مأخوذة أو نسخت فى ماينز. وبناء على ذلك فقد سقط الرأى الذى يقول بأن مخطوطات ماينز الباكرة إنما جاءت من فولدا ويصبح العكس صحيحاً أو على الأقل يثبت لنا أن منسخ ماينز كان نشيطاً وقوياً.

وإلى جانب مكتبة الكاتدرائية فى ماينز كانت هناك مجموعة كتب كبيرة فى دير سانت ألبان منذ سنواته الأولى. وعلى الرغم من نقلها بعد ذلك إلى مكتبة الكاتدرائية فإن مكتبة **سانت ألبان**[١] كانت تضم بعض مخطوطات نادرة منها كتاب (أجناس الساكسون القدماء) وهى النسخة الوحيدة من هذا الكتاب التى وصلتنا.

ترييير

ترييير مدينة قديمة ازدهرت فيها الثقافة المسيحية منذ الامبراطورية الرومانية، قام فيها أوسونيوس[٢] بالتدريس، وقضى فيها جيروم بعض حياته. ولقد استمرت مكتبة الكاتدرائية فى الحفاظ على تقاليد المكتبات المسيحية القديمة، فى العصور الوسطى. ومن الثابت لنا أن هذه المكتبة قد عاشت فى العصر الكارولنجى ولكن للأسف الشديد ليست هناك وثائق تتحدث عن هذه المكتبة.

والمخطوطات الجميلة التى أنتجت فى ترييير فى عهود الأسقفين إيجبرت ٩٧٧ـ٩٩٣؛ بالدوين ١٣٠٧ ـ ١٣٥٤ كانت جزءاً من ذخائر الكاتدرائية أكثر منها جزءاً من مقتنيات المكتبة. ولم يكن هناك حتى القرن السادس عشر حصر بمقتنيات المكتبة حتى أعدت قائمة تضم ثلاثين مخطوطاً منسوبة إلى مكتبة الكاتدرائية من بينها كتاب فى القوانين الكنسية باللغة الألمانية العليا القديمة. ومن المؤكد أن هذه المجموعة كانت مجرد جزء صغير من مقتنيات المكتبة.

---

(١) St. Alban

(٢) Ausonius

متـــــز

ازدهرت الحياة الدينية فى المنطقة الواقعة حول متز بعد وقت الأسقف كروديجانج ٧٤٢ ـ ٧٦٦م. وهو الذى وضع نظاماً عاماً للقوانين الكنسية. وكان ذلك أيضاً فى صالح مدرسة الكاتدرائية والمنسخ اللذين انتعشا فى ظل الأسقف دروجو ٨٢٣ ـ ٨٥٦م[١] وهو أحد أبناء شارلمان. لقد قامت مدرسة متز بإعداد العديد من المخطوطات الجميلة للكاتدرائية وكان من بين تلك المخطوطات **كتاب الشعائر** الذى أعده دروجو نفسه (موجود الآن فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٩٤٢٨ لاتينية). ومن الجدير بالذكر أن مدرسة متز تأثرت تأثراً كبيراً بمدرسة رايمز. لقد بلغت الزخرفة والتجليد فى مخطوطات متز حدا رائعاً تضارع تلك المنتجة فى ماينز كما كانت مطعمة بالعاج، كما يدلنا على ذلك **كتاب فيفيان المقدس**[٢] والذى كان ملكاً لشارل الأصلع، أثمن القطع الموجودة الآن فى تورز. هذا العمل يكشف عن المستوى الراقى الذى وصل إليه منسخ متز.

ولم يصلنا من هنا أيضاً تقارير مكتوبة عن مكتبة كاتدرائية متز فى فترتها الباكرة. ومع ذلك فإن التقرير الذى كتبه **جان بابتست كولبيرت** سنة ١٦٧٥م[٣] وقوائم الكتب التى أرسلت إلى باريس سنة ١٨٠٢ تكشف جميعها عن نفاسة مجموعة هذه المكتبة.

فيرزبرج[٤]

ترتبط بدايات مكتبة كاتدرائية فيرزبرج بنشاط البعثات التبشيرية الأيرلندية والأنجلوساكسونية فى منطقة نهر مين. ومنذ القرن الحادى عشر وبصمات أسقف سانت كليان واضحة على مجموعات المكتبة فى **كليان**[٥] ـ وهو القديس

---

(١) Drogo

(٢) Vivian Bible

(٣) Jean Baptiste Colbert

(٤) Würzberg

(٥) St. Kilian

الأيرلندى الذى أرسل إلى الفرنكيين وتوفى سنة ٦٨٩م - كذلك نجد بصمات البريطانى بوركهارت أول أسقف لهذا الدير ونجد تفاصيل نشاطاته المكتبية مسجلة فى سيرته. وأقدم المخطوطات التى وصلتنا من هذه المجموعات ترجع إلى بدايات نشأة المكتبة وتشمل تلك المخطوطات ثمانى قطع بخط أونسيال من بينها الكتاب المقدس الذى يعتقد أنه كان فى حوزة القديس كليان نفسه ثم بوركهارت من بعده وهذه البقايا المبكرة من مجموعة كانت كبيرة فى يوم من الأيام يمكن تتبع أصولها فى أيرلندا وإنجلترا وكذلك فرنسا. وكانت المخطوطات الإيطالية الباكرة ترد عن طريق إنجلترا، وقليل منها كان يخترق المناطق اللومباردية إلى ألمانيا. ويعتبر مخطوط (رسائل بول)(١) المزود بشروح أيرلندية ومخطوطات أخرى فى مناطق متفرقة من القارة من بين أقدم المخطوطات الأيرلندية التى لم تزحزح من أماكنها الأصلية. وقد ساد فى هذه الكاتدرائية أيضاً خط إنسولار الذى كان غالباً ما يوجد فى منطقة فولدا - فيرزبرج -ماينز وكان مايزال موجوداً فى فيرزبرج فى الثلث الأول من القرن التاسع. ويكشف الفهرس الذى أعد سنة ٨٠٠م - وهو الآن جزء فى مجلد آخر - ويضم ستة وثلاثين كتاباً عن وجوه شبه قوية مع المجموعات التى كانت موجودة فى مكتبة فولدا مع أن مجموعات فيرزبرج أقدم وأقوى. كذلك كشفت السجلات عن وجود عمليات تبادل بين المكتبتين؛ وأيضاً الإعارات من هذه المكتبة إلى مكتبة فولدا والمكتبة القريبة منها فى هولزكيرشن(٢) وعندما أرسل الأسقف همبرت ٨٣٣ - ٨٤٢ فى طلب نسخ بعض الكتابات من رابانوس، وبعث بالرقوق اللازمة للنسخ، امتدح ثراء مكتبة الكاتدرائية من الكتابات المكتوبة باللغة الألمانية. وكان همبرت وخلفه الأسقف جوزبالد ٨٤٢ - ٨٤٥م قد عملا حثيثاً على تنمية المكتبة وتوسيع نطاقها.

لقد وصلنا عن هذه المكتبة فهرس آخر يرجع إلى نهاية القرن العاشر. واليوم هناك مالايقل عن ٢٠٠ مخطوط وصلتنا من هذه المكتبة ترجع إلى القرنين الثامن

---

(١) Pauline Epistles

(٢) Holzkirchen

والتاسع، وهى جميعاً تحمل علامات تؤكد أنها من مقتنيات مكتبة الكاتدرائية فى فيرزبرج. ولقد كانت مجموعة المكتبة من أهم المجموعات فى وقتها؛ ساندت العملية البحثية والتنمية العلمية واللاهوتية فى ذلك الحين.

وبعد أن تم اكتشاف مجموعات هذه المكتبة فى دهاليز الكاتدرائية سنة ١٦٣١م نقلت المخطوطات إلى السويد. ولقد قام عميد الكاتدرائية **كريستوف فرانز فون هوتن**(١) بالتعرف سنة ١٨١٧م على المجموعة وإعادة اكتشافها من ناحية الكتابة، وهذا الاكتشاف يشبه اكتشاف كتاب مراسيم الكاتدرائية فى فيرونا سنة ١٧١٣ على يد **فرانسسكو إسكيبونى مافى**(٢). ويوجد من مخطوطات هذه الكاتدرائية ١٨٣ مخطوطة فى مكتبة جامعة فيرزبرج. وقبل عملية اكتشاف هذه المجموعة والتعرف عليها فى السويد كان ٤٦ مخطوطاً منها قد أخذت سبيلها إلى حوزة كبير الأساقفة وليام لود ومنه شقت طريقها إلى مكتبة بودلى فى جامعة أكسفورد.

كونستانس(٣)

كانت مكتبة كاتدرائية كونستانس تعتبر واحدة من أهم مكتبات الجنوب الغربى إن لم تكن أهمها على الإطلاق. وقد بنى الباحثون رأيهم هذا بناء على المجموعات التى بيعت منها إلى دير **فاينجارتن**(٤) سنة ١٦٣٠ بواسطة كاتدرائية فرعية لم تكن راغبة فى تلك المجموعات واليوم يوجد من هذه المجموعات ٣٣١ مخطوطة فى شتوتجارت وفولدا. وأول فهارس هذه المكتبة يرجع إلى سنة ١٣٤٣.

وتدل المخطوطات التى وصلتنا على وجود منسخ فى كاتدرائية كونستانس خلال الحقبة الكارولنجية. ونوع الخط فيها والزخرفة تشبه إلى حد بعيد تلك التى كانت موجودة فى دير سانت جال وريشيناو. هذان الديران اللذان كانت

(١) Christoph Franz von Hutten
(٢) Francesco Scipione Maffei
(٣) Constance
(٤) Weingarten

لهما علاقة وثيقة مع كاتدرائية كونستانس. وقد تم اكتشاف مخطوطة من «أنبياء العهد القديم» مكتوبة بخط أونسيال إيطالى يرجع إلى القرن الخامس الميلادى وأخرى ترجع إلى القرن الخامس عشر ممزقة بوحشية واستخدمت فى تجليد كتب أخرى حديثة. وبتتبع تلك الجلود وجد أنها كانت من مخطوطات مقتناة فى مكتبة كاتدرائية كونستانس فى القرن التاسع. ونفس الشئ حدث لمخطوط إيطالى فى القانون الكنسى يرجع للقرن التاسع، حيث استخدم فى تجليد كتب أخرى حديثة. وفى خلال الحقبة الأوتونية كان الأسقف سالومون الثالث ٨٩٠ ـ ٩١٩م من أهم الأساقفة الذين لعبوا دوراً كبيراً فى تنمية مكتبة الكاتدرائية كما كان نشطاً فى بناء وتنمية مقتنيات المكتبة فى دير سانت جال التى كانت أيضاً تحت سلطته ورعايته.

٥ ـ فرنسا

شارل الثانى الأصلع، الامبراطور ٨٤٣ ـ ٨٧٧

لقد وجدت عملية إحياء الدراسات الكلاسيكية الأرض الخصبة فى فرنسا، ويرجع ذلك جزئياً إلى الرعاية الكريمة من جانب شارل الأصلع. ومرة ثانية نجد الباحثين الأيرلنديين فى المقدمة. كذلك مد لويس التقى يد الرعاية الإمبراطورية إلى الباحثين من أمثال: **ديكويل؛ دونجال**[١] فى سانت دينيس. وبنفس الطريقة أوى بلاط شارل المفكر العظيم **جون اسكوتس إيريجينا**[٢]؛ أعظم مفكرى العصور الوسطى على الإطلاق. وبرز من بين الباحثين الفرنكيين الأسقف الألمعى هنكمار من رايمز. وكان أمين مكتبة البلاط هو الأب هيلدوين من سانت أومير سنة ٨٧٦م.

---

(١) Decuil; Dungal

(٢) John Scotus Erigena

والحصر الشامل لممتلكات الكنيسة ومن بينها مقتنيات المكتبة والذى أمر بإعداده الامبراطور شارلمان تم فى فرنسا حيث قام الملوك المحليون بإعداد هذا الحصر تنفيذاً للأمر الامبراطورى. وقام لويس التقى وشارل الأصلع ومعه هنكمار بإكمال الحصر سنوات ٨٤٥، ٨٥٣، ٨٨١م. ولقد كان حب الامبراطور للفخامة مدعاة إلى إنتاج كتب تتميز بالروعة، ونجد ذلك فى نسخ الكتاب المقدس، الأناجيل، المزامير وغيرها مما أمر الامبراطور بإعداده وجاء من أفخم وأفخر ما أنتجته صناعة الكتب فى الحقبة الكارولنجية.

ومن الواضح أنه لم يكن هناك منسخ فى بلاط شارل. وبدلاً من ذلك كانت المخطوطات يتم إنتاجها لحساب البلاط فى مناسخ الأديرة الكبيرة وخاصة فى تورز وإلى حد ما فى سانت دينيس وكوربى. وكانت الوصية الأخيرة للامبراطور سنة ٨٧٧ تقضى بتوزيع كتبه بين أولاده وكنائس: **سانت دينيس؛ سانت أماند؛ كومبين**(١).

لوبوس من فيريير(٢)

كانت معرفة المؤلفين الكلاسيكيين مسألة أساسية بالنسبة للباحث الفرنسى. وكان الباحث الفرنسى لوبوس من فيريير أعظم باحث فى ذلك الوقت واستحق عن جدارة لقب **الإنسى الأول**. لقد فاق الرجل بمراحل أقرانه فى دراسته ومعرفته بشيشرون ذلك الكاتب الرومانى الذى لم يكن يعرف كثيراً فى العصور الوسطى. كما كان لوبوس يحاكى مؤلفه الرومانى الأثير فى كتابته وأسلوبه. وكان فريداً بين أقرانه فى أنه يرى أن دراسة الفكر الكلاسيكى هى غاية فى حد ذاتها وليست أداة لدراسة اللاهوت والتمكن منها. وكان أول باحث يسعى إلى النقد الأدبى وإقامة وتحقيق النصوص القديمة. ومن هنا فإن منهج تأصيل البحث العلمى كان يأخذ فى الظهور. وقد وصفه لوبوس نفسه فى خطاب إلى صديقه المعجب به آينهارت (بأنه ضرورة للوصول إلى الحقيقة).

---

(١) St. Denis, St. Amand; Compéigne

(٢) Luppus of Ferrieeres

لقد ولد لوبوس فى فرنسا لأسرة بافارية وتتلمذ على يد رابانوس ماوروس فى فولدا سنة ٨٢٨م. وأثناء عمله فى المنسخ فى دير فولدا جمع للباحث **إيبرهارد من فرايول**[١] مجموعة القوانين المدنية التى جلدت كأحسن ما يكون وزخرفت بالصور وأبيات الشعر. وقد عاد إلى دير فيريير سنة ٨٣٦م وواصل دراسته للأدب الكلاسيكى وهو راهب وهو أب للدير أيضاً حتى وافته المنية سنة ٨٦٢م. لقد كان هدفه النقد النصى والفيلولوجى لاقامة النص ولذلك كان يسعى للحصول على أحسن النسخ من المخطوطات.

وكانت مراسلاته كلها تقريباً مع الأخرين والتى ربما يكون تلميذه **هيريك من أوكسير**[٢] قد جمعها تفيض بطلبات الكتب التى يقبل عليها الباحثون الإنسيون. وكان مثلهم فى السرية التى يحيطون مخطوطاتهم بها. والمصادر التى لم يكن يستطيع الحصول عليها من دير فليرى القريب منه كان يحصل عليها من أديرة أخرى مثل: تورز، سنز، رايمز، بروم، فولدا، بل ومن أديرة بعيدة مثل يورك فى إنجلترا. لقد طلب من آينهارت فى دير **سيلنجنشتادت**[٣] الذى كان فهرسه فى حوزته أن يرسل له كتابات شيشرون فى البلاغة وكذلك كتب أولوس جوليوس الى فولدا، كى يستطيع مقارنتها بما لديه من نسخ لنفس الكتب. وكثيراً ما فكر فى طلب الكتب مباشرة من فولدا ولكنه لم يفعل وبدلاً من ذلك أرسل الى صديقه الأب **ماركوارد فى بروم**[٤] ليرسل راهباً من عنده لإحضار ترجمة سيتونيوس التى كانت فى دير فولدا فى مجلدين متوسطى الحجم إليه لكى ينسخها. ومن المؤكد أن لوبوس كان على علم بنسخة فولدا من كتاب **فاليريوس ماكسيموس**[٥]. ومن الواضح أن طلبات كتب سيتونيوس وجوزيفوس التى كان على راهب بروم: إيجيل أن ينسخها كانت قد وجهت أيضاً إلى دير فولدا. وكان

---

(١) Eberhard of Friaul

(٢) Heiric of Auxerre

(٣) Selingenstadt

(٤) Markward of Prüm

(٥) Valerius Maximus

إيجيل قد قضى فترة فى فيريير وكذلك أصبح موضع ثقة لوبوس. ومع ذلك فإن طلبات لوبوس الخاصة برسائل شيشرون وجهت إلى راهب آخر اسمه آنسبالد فى دير بروم أيضاً. وقد احتاج لوبوس تلك الرسائل لتسديد الناقص فى نسخة بروم من كتاب شيشرون الذى ترجمه الشاعر السكندرى: **أراتوس من سولوا**(١). وقد طلب من تورز كتاباً على بردى لشروح بوثيوس على شيشرون كذلك كان الأب ماركوارد يتوسط بين لوبوس ودير سيلنجشتادت.

كذلك لم يتردد لوبوس فى طلب الكتب من البابا بندكت الثالث ٨٥٥ - ٨٥٨م فقد طلب كتاب الخطابة لشيشرون؛ وشرح دوناتونس على تيرنس وكلها مخطوطات كان لوبوس قد شاهدها فى روما سنة ٨٤٩م.

ولكن على الجانب الآخر لم يكن لوبوس يبدى أى استعداد لتنفيذ طلبات الآخرين من الكتب. فقد بلغنا أنه رفض طلب هنكمار لكتاب **شروح بيديه على بول** بسبب حجم وقيمة الكتاب.

لقد عرف عن دير فيريير أنه كانت به مكتبة عظيمة بسبب حماس ورغبة الأب هناك. ولكنها دمرت سنة ١٥٦٢م على يد **الهوجونوت**(٢). ولقد وصلنا عدد من الأعمال التى نسخها لوبوس بخط يده مثل كتاب فاليريوس ماكسيموس من برن. وقد سجل **إيمانويل فون سيفيروس**(٣) ١٦ مخطوطة إما كتبها لوبوس بخط يده أو نقدها وحللها من بين الكتابات اللغوية لشيشرون (الآن فى المكتبة الوطنية فى فيينا تحت رقم ١٨٩ مخطوطات).

منطقة اللوار - تورز(٤)

على الرغم من أن ألكوين قد أسس ديراً فقيراً فى الكتب إلا أنه عندما أصبح «أباً» للدير. فإنه قد أوجد هناك منسخاً ومجموعة من الكتب فى دير سانت

---

(١) Aratos of Soloi

(٢) Huguenots

(٣) Emmanuel von Severus

(٤) Loire region - Tours

مارتين فى تورز منذ فترة طويلة قبل أن يأتى الكوين اليها. وفى السنوات الأخيرة من القرن الثامن أنتج منسخ الدير نسخة من العقد الثالث من تاريخ ليفى اشترك فى كتابتها ثمانية نساخ ذكروا أسماءهم فيها. والأصل الذى أخذت عنه هذه النسخة يرجع إلى القرن الخامس الميلادى وكان قد أستعير من دير كوربى.

ومنذ عين ألكوين «أباً» للدير فى سنة ٧٩٦م فإنه قد انصرف انصرافاً أعمى إلى تنقيح ونسخ الكتاب المقدس ومارس فقط مهامه كأب للدير فى سانت مارتين منذ ٨٠١م حتى وفاته فى ٨٠٤م. فأسس مكتبة وبعث بالنساخ إلى يورك ينسخون الكتب لتنمية مجموعاتها. ولقد دمرت المكتبة عن آخرها مع أرشيف الدير أثناء الغزو النورماندى للمدينة فى سنة ٨٥٣م ولذلك لا نجد ذكراً للمكتبة فى المصادر المختلفة.

ومما يذكر أن ألكوين أثناء إدارته للدير طالب كبير أساقفة سالزبورج «أرنو» بإعادة كتب **أمبروزيوس**(١) التى أخذها ابن أخيه هيلديجار من دير سانت مارتين كذلك فإنه قد أرسل إلى **أنجيلبرت**(٢) أب دير سانت ريجويير طالباً كتاب تاريخ الغوط الذى كتبه **جوردانيس**(٣). وكان الراهب **فادلويز**(٤) من دير ريشيناو قد زار تورز أثناء وجود ألكوين ونسخ كتباً من مكتبة تورز وبعث بها إلى دير ريشيناو.

وذكر فى بعض الوثائق أيضاً أن لوبوس من فيريير الذى مر ذكره من قبل وقد كان شغوفاً كما رأينا بالبحث فى مؤلفات شيشرون وحياته قد سمع بوجود شروح للمؤلف بوثيوس على بعض كتب شيشرون في مكتبة تورز فبعث إلى أمين المكتبة فى نحو سنة ٨٤٩ واسمه: **أماليك**(٥) يطلب نسخ هذه الشروح. كما بعث أيضاً إلى كبير أساقفة الدير **أورسمار**(٦) يطلب منه بعض الكتب.

(١) Ambrosius
(٢) Angiebert
(٣) Jordanis
(٤) Vadilleoz
(٥) Amalric
(٦) Orsmar

ونستطيع أن نحصل على بعض المعلومات عن منسخ الدير من قصيدة عن «المنسخ»(١) تلك التى نظمها ألكوين وزين بها جدران المنسخ فى تورز وكذلك فى فولدا. وقد كتبت القصيدة باللاتينية. وسوف أحاول نقل معانيها إلى العربية دون التزام بوزن أو قافية:-

ليحتل هولاء الذين يكتبون القانون الإلهي
والأقوال المقدسة للآباء المقدسين أماكنهم هنا.
وليتهم يكونون واعين ألا يكتبوا الأفكار السطحية
بين الكلمات، حتى لا ترتكب الأيادى من وراء ذلك خطية.
وليتهم يكدون فى إنتاج الكتب السليمة فى أفكارها
وبذلك تطير ريشة الناسخ فى خطوط مستقيمة.
وليتهم يفصلون المعانى فى كتبهم بالشارحة وشبه الشارحة
وليتهم يضعون المسافات والنقط في أماكنها الصحيحة.
خشية أن يقرأ القارئ معلومة خطأ أو يختلط عليه الأمر
فيتوقف أو يطير فوق المعلومة أثناء القراءة، أمام
الأخوة الطيبين فى الكنيسة.
إن نسخ الكتب المقدسة هو عمل نبيل فى حد ذاته
وهو مكافأة أيضاً للناسخ.
إنه أفضل للرجل أن ينسخ الكتب من أن يحرث أرض النبيذ.
فهذا الأخير قد يخدم بطنه،
ولكن الأول يغذى روحه.

ومن المؤكد أن ألكوين قد أعاد تنظيم المنسخ ولكن عدداً قليلاً جداً من الكتب هو الذى يعزى إنتاجه الى الوقت الذى كان فيه ألكوين أباً للدير. ويعزى إلى خلفائه الآباء: **فريدوجيس ٨٠٧-٨٣٤؛ أدالارد ٨٣٤-٨٤٣؛**

(١) De Scriptorio

فيفيانوس ٨٤٤-٨٥١م[١]، أن بلغ المنسخ أقصى ازدهاره ونشاطه على النحو الذى نستنتجه من المخطوطات التى وصلتنا عنه. وفى الحقيقة لا يوجد سوى مخطوط واحد يحمل علامة ملكية المكتبة من فترة باكرة. وكانت معظم المخطوطات - حوالى ٣٠ كتاباً مقدساً وإنجيلاً مزخرفة ومزينة بدرجة عالية من الفخامة، وكتاب حياة سانت مارتين التى كتبها سولبكيوس سيفيروس، وكتب دينية وتاريخية وكتب في علوم علمانية ونصوص كلاسيكية - كانت معظم هذه المخطوطات قد أنتجت في المنسخ بهدف البيع أو الإهداء أو بناء على طلبات خارجية، ولهذا أفلتت من كارثة التدمير التى وقعت سنة ٨٥٣م. وفي الحقيقة لا نصادف منسخاً فى كل الغرب المسيحى نسخ كل هذه الكمية من الكتب بهذا التنوع مثلما فعل منسخ دير سانت مارتين فى تورز.

منطقة اللوار - فليرى[٢]

تتأتى أهمية مكتبة دير **سانت بنوا - سير - لوار**[٣] فى فليرى من ثروتها الهائلة من الكتب الكلاسيكية. وذلك لأن مدارس منطقة اللوار كانت تعطى ثقلاً ووزناً كبيراً فى دراساتها للمؤلفين الكلاسيكيين.

لقد استفاد الدير فائدة كبيرة من رئاسة **تيودولف**[٤]، الشاعر الملكى وأسقف أورليانز والذى حكم أيضاً فليرى أهم دير فى دوقيته ٧٩٨-٨١٨م. وتيودولف الأسبانى المثقف قال عن نفسه إنه كان يقرأ بالنهار والليل، ليس فقط كتب الدين المسيحى وإنما أيضاً كتب المؤلفين الوثنيين الذين كتبوا كثيراً من الحقائق بين أغلفة كتبهم. وكان هو نفسه الذى أنشأ المدرسة والمكتبة فى الدير، تلك المكتبة بسبب حبه للفخامة والأبهة اقتنت كثيراً من المجلدات الجميلة.

ويبدو أن الهجمات المتكررة للنورمانديين ٨٥٦، ٨٦٥، ٨٨٣م لم تدمر المكتبة

---

(١) Fridugis; Adalard; Vivianus

(٢) Loire Region - Fleury

(٣) Saint - Benoit - Sur - Loire

(٤) Theodulf

فقد وصلنا من هذه المكتبة ثلاثة عشر مجلداً فخماً من الذخائر مكتوبة بخط الأونسيال. ولقد أصبح دير فليرى عموداً من أعمدة الكلونيين بعد أن تم إصلاح مذهب الدير على يد الأب **أودو** الكلونى. ولقد اكتسبت مكتبة الدير وضعاً متميزاً من خلال المؤلفين الذين اقتنت كتبهم ومن خلال جهود الآباء **أبّـو** ٩٨٨-١٠٠٤م[1] وخلفائه وعلى رأسهم **جوزلين** ١٠٠٤-١٠٢٩م. ولقد احتل الدير فى تلك الفترة مكانة سامية بين الأديرة البندكتية بسبب نشاطات النسخ المكثفة التى قام بها الرهبان هناك. وفى سنة ١١٤٦م ضمن الأب **مكاريوس**[2] دخلاً منتظماً للمكتبة عن طريق جزء من الرسوم التى تدفع للإدارات المختلفة في الدير يخصص للمكتبة، بدلاً من رسوم التعليم التى كان طلبة المدرسة يدفعونها وهى ثمن كتابين عن كل طالب للمكتبة. وربما لأول مرة فى تاريخ مكتبات الأديرة يبنى مبنى خصيصاً لمكتبة هذا الدير في مطلع القرن الحادى عشر وذلك لحماية مقتنيات المكتبة من الحريق إذا نشب فى مبانى الدير.

وإن كانت المكتبة قد أفلتت من التدمير أثناء غزوات النورمانديين على النحو المشار إليه فإن هذه المكتبة وهى التى كانت تعد واحدة من أهم وأغنى مكتبات الأديرة فى العصور الوسطى قد دمرت وتشتت مجموعاتها خلال حروب الهوجينوت سنة ١٥٦٢م.

شمالىّ فرنسا - كوربى[3]

كان العصر الذهبى لدير كوربى فى عهد الأب **أدالارد** ٧٧٥-٨٢٦م المستشار ورئيس أول الديوان الامبراطورى لشارلمان. وكان الباحثان الرئيسيان فى الدير: **رادبيرتوس و راترامنوس**[4] هما أكثر رجال الدين تنوراً فى كل فرنسا. وكان النشاط العظيم للمنسخ فى هذا الدير قد جعل من المكتبة أهم مكتبة فى كل

(١) Abbo, Gauzlin

(٢) Macarius

(٣) Northern France - Corbie

(٤) Radbertus; Ratramnus

شمالى فرنسا. وأقدم الفهارس التى وصلتنا من هذا الدير يرجع إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وأكثر هذين الفهرسين تفصيلاً يغطى ٣٤٢ مخطوطة دون أن ندخل فيها الكتب المقدسة والأناجيل وكتب الطقوس. ومن الطريف أن يلجأ **أدالهارد**[١] إلى هذا الدير على نهر ويزر عندما اعتزل الحياة العامة سنة ٨٢٢م.

شمالى فرنسا - سانت ركوير (سنتولا)[٢]

كان الأب **أنجلبيرت**[٣] ٧٩٠-٨١٤م لدير سانت ركوير بمثابة عنصر الازدهار الرئيسى، ذلك أن أنجلبيرت كان (هوميروس) الأكاديمية الفرنكية وعضواً من المقربين جداً إلى شارلمان مما أهله لأن يطلب لهذا الدير الدعم السخى من الامبراطور الذى لم يبخل عليه بشئ. وقد انعكس حب أنجلبيرت للفخامة على الدير فأعاد بناء الكنيسة وقدم للمكتبة خدمات جليلة. وقد قام بنفسه على إعداد فهرس أو قل قائمة بمقتنيات المكتبة سجل فيها ٢٠٢ مجلداً من بينها مجلد أناجيل مكتوب بماء الذهب ومجلد بجلدة مغطاة برقائق الفضة وجوانبها برقائق الذهب والمعادن الثمينة. وربما كان هذا المجلد مسجلاً ضمن مجموعة **أدا** وهى المجموعة التى تتألف من تسعة مخطوطات كارولنجية مزخرفة زخرفة جميلة وجلودها مغطاة برقائق العاج والذهب والفضة، وربما تكون قد أنتجت فى منسخ البلاط الكارولنجى ويعتقد أن هذا المجلد الإنجيلى قد قدم هدية إلى أنجلبيرت من شارلمان.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن ألكوين طلب من صديقه، تاريخ الغوط لجوردانيس سنة ٨٠١م على نحو ما قدمنا سابقاً. وأبيات الشعر التى تزين مدخل غرفة الكتابة فى هذا الدير يعتقد أن ناظمها هو الراهب **ميكون**. والفهرس الذى

---

(١) Adalhard

(٢) St. Requier (Centula)

(٣) Angilbert

أعد بناء على أمر من الامبراطور لويس التقى سنة ٨٣١م يسجل ٢٥٦ مجلداً كمجموع كلى لمقتنيات المكتبة هذه المجلدات تحتوى على ٥٠٠ عمل من بينها ١٩٥ عملاً دينياً فقط. ولم يصلنا من هذه المكتبة الكارولنجية سوى مخطوطتين فقط.

شمالى فرنسا ـ سانت فاست(١)

أنشئ دير سانت فاست فى أرّاس سنة ٦٥٨م(٢) وفقد مجموعته الأساسية من الكتب خلال هجمات النورمان وحريق سنة ٨٨٦م. وقد تلقت المكتبة الجديدة التى أنشئت بعد الحريق مجموعة قيمة من الكتب تتألف من ٣٣ مجلداً من الأب **سايوولد**(٣) الذى لجأ إلى الدير هرباً من إنجلترا.

شمالى فرنسا ـ سانت بيرتين في سانت أوميير(٤)

أعطى شارلمان الرهبان حق الصيد ليضمن لهم مورداً دائماً للحصول على الجلود اللازمة لتجليد الكتب، خلال إقامة قصيرة له فى دير سانت بيرتين فى ٢٦ مارس سنة ٨٠٠م.

وكان فى الدير راهب يدعى **جونتبيرت**(٥) عرف عنه مهارته الشديدة فى إنتاج المخطوطات الجميلة. وقد وصلتنا قائمة مرتبة هجائياً بالمؤلفين بمقتنيات المكتبة تضم ٣٠٥ مجلدات سنة ١١٠٤م. ولا تشمل هذه القائمة كتب الأناجيل والكتاب المقدس ولكن أيضاً الكتب الدراسية التى كانت تدرس هناك. والقائمة غنية بالكتابات التاريخية والكتب الكلاسيكية.

---

(١) St. Vaast,

(٢) Arras

(٣) Seiwold of Bath

(٤) St. Bertin in St. Omer

(٥) Guntbert

شمالى فرنسا ـ سانت أماند[1]

أنشى دير سانت أماند سنة ٦٣٩م وتشير سيرة حياة مؤسس الدير سانت أماندوس إلى أنه قد أحضر للدير كتباً من إيطاليا. ومن الأفراد الذين دعموا مكتبة الدير بكتب كثيرة نصادف **أرنو البافارى**[2] الذى أصبح أباً للدير سنة ٧٨٢م ثم بعد ذلك أسقفاً فكبير أساقفة سالزبورج وكان هذا الرجل محباً عظيماً للكتب وراعياً أعظم للمكتبات.

والحقيقة أن العلاقة بين مدرسة الخطوط فى سانت أماند ومدرسة الخطوط فى سالزبورج لم يكشف عنها اللثام بعد ومازال غامضة بسبب نقص الوثائق الخاصة بذلك.

ومن بين الواهبين لهذه المكتبة الراهب الشاعر **ميلون**[3] (ولد سنة ٨٠٩م) وابن أخيه هكبالد (٨٤٠-٩٣٠م) المؤرخ الموسيقى. وهذا الأخير قدم ١٨ مخطوطة جميلة للمكتبة معظمها عبارة عن كتب كلاسيكية وربما كانت جميعها من نسخه شخصياً. ولأن الدير يقع على حدود دولية فهناك مخطوطة نادرة تتضمن أثراً ألمانياً قديماً **(أغنية لويس)** وأقدم قصيدة فرنسية **(قصيدة القديس إيلالى)**.

وهناك فهرس أعد عن هذه المكتبة فى القرن الثانى عشر يستحق الذكر هنا لأن جامع هذا الفهرس يعدد أسماء ناسخى الأصول التى أخذت منها مجموعة المكتبة. والمخطوطات فى الفهرس مرقمة من ١-٢٢١ وقد ذكرت أسماء عشرين ناسخاً، يضاف إليها سبعة أسماء أخرى يمكن الحصول عليها من حرد المتن فى المجلدات التى وصلتنا من مقتنيات المكتبة وجل هذه الأسماء تنتمى إلى القرن الحادى عشر والثانى عشر على الرغم من أن المنسخ كان قد بدأ إنتاجه الخصب فى القرنين الثامن والتاسع للميلاد.

St. Amand (١)

Arno the Bavarian (٢)

Milon (٣)

وتبدو ملامح الفترة الكارولنجية واضحة فيما نجا من المخطوطات من التدمير النورماندى، بسبب أن كثيراً من المخطوطات التى أنتجت فى منسخ الدير أعدت لحساب جهات أخرى خارجية مما حفظها بعيداً عن مكتبة الدير التى خربت.

وطبقاً لما ذكره **أندريه بوتيمى**(١) فإن بعض المخطوطات التى تدخل في عداد المجموعة الأنجلو - فرنكية المزخرفة، قد تم إنتاجها فى سانت أماند.

شمالى فرنسا ـ فونتانيل (سانت واندريل)(٢)

لقد قيض لهذا الدير سلسلة متواصلة من الآباء الذين عملوا على تنشيط المكتبة ودعمها إلا أن الأب **أنسيجيس**(٣) قد بز هؤلاء جميعاً فى دعمه للمكتبة. ففى مشروعاته الإنشائية المعمارية فى الدير وضع خطة لإنشاء مبنى خاص للمكتبة أطلق عليه **بيت الكتب**(٤) كان موقعه فى مواجهة صالة الطعام فى الدير. ومبنى خاص للأرشيف يطلق عليه **بيت الوثائق**(٥) كان موقعه فى مواجهة مبنى المبيت. وكان لدى أنسيجيس ثلاث مخطوطات دينية ثمينة مكتوبة بالخط الرومانى على رق قرمزى ومجلدة برقائق العاج. ومما يذكر أنه كان قد قدم لمكتبة الدير هدية مؤلفة من ٣٢ مخطوطاً وقدم أخرى ضعف هذا العدد هدية للدير البيرجندى فى فلافجنى.

وقد دمر النورمانديون الدير والمكتبة معاً فى سنة ٨٥٨م.

وسط وجنوبى فرنسا ـ سانت دنيس(٦)

كان دير سانت دنيس دير المملكة الفرنسية الأول وكان مدفن الملوك الفرنسيين المفضل وكان فى حوزته ثروة ضخمة. وكان لابد لهذه المكانة أن تنعكس على

---

(١) Andre' Boutemy

(٢) Fontanelle (St. Wanderille)

(٣) Ansegis

(٤) Domus Librorum

(٥) Domus Cartorum

(٦) St. Denis

مكتبة الدير. وترجع بدايات المكتبة إلى بدايات الدير نفسه والذى أسس سنة ٦٢٤م. وقد وصلتنا مخطوطتان لفيرجيل بالحرف الكبير من الشكل **الأوغسطى** والشكل **الرومانى**(١) وكلتاهما من دير سانت دنيس. كذلك وصلنا مخطوطة لـ ترينس (الآن فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٧٨٩٩) من الواضح أنها نسخة من أصل قديم. ويرجع الفضل إلى الأب **فاردولف**(٢) ٧٩٣-٨٠٦ فى دعم وتشجيع نشاطات النسخ كما أن اثنين من خلفائه توفرا على تنمية المجموعات بشكل واضح وهما **والدو** الذى ذهب إلى هذا الدير من ريشيناو بناء على أوامر شارلمان ٨٠٦-٨١٤م؛ هيلدوين ٨١٤-٨٥٥؛ ٨٥٩، الخبير بالمخطوطات الإغريقية واللغة الإغريقية. وكان الملوك الفرنسيون وخاصة الملك شارل الأصلع الذى كان سخياً للغاية فى عطاياه لمكتبة دير سانت دنيس. ورغم هجمات النورمان فى سنة ٨٥٧، ٨٦٥م إلا أنها ظلت من أحسن المكتبات فى كل فرنسا. وكانت مجموعات المكتبة قبل الحرب الدينية التى قامت سنة ١٥٧٦ مباشرة تصل إلى ١٥٢٣ مخطوطة مصنفة فى ٤٣ قسماً. كما أن خزانة كنيسة الدير كانت تضم مجموعة كبيرة من الجلود الفاخرة كانت ١٥ جلدة منها موجودة حتى سنة ١٦٣٤م.

وسط وجنوبى فرنسا - جيرمان - دى - برى(٣)

توفر الملك الفرنسى **تشايلدبيرت**(٤) على تأسيس دير جيرمان ـ دى ـ برى فى منتصف القرن السادس، وكان مدفناً للملوك الميروفنجيين حتى زمن **داجوبيرت الأول**(٥). وقد وصلتنا من هذا الدير مجموعة من المخطوطات ترجع إلى ماقبل القرن الثامن؛ من بينها نسخة من المزامير من القرن السادس بخط الأونسيال

(١) Augustoeus; Romanus

(٢) Fardulf

(٣) Germain - Des - Prés

(٤) Childbert

(٥) Dagobert I

جلبها الملك تشايلدبيرت من أسبانيا سنة ٥٤٢م، وكتاب مقدس باللاتينية أرسله جوستنيان إلى تشايلدبيرت، ومزمور وقطع من أعمال فيرجيل مكتوبة **بخط روماني سريع**[١] (ينسب هذا الخط إلى **ماركوس توليوس تيرو**[٢] صديق ووراّق شيشرون). ومن بينها أيضاً نصوص مكتوبة على ورق بردي وأشياء أخرى. والحقيقة أننا لا نستطيع الوقوف على حجم المجموعات فى هذه المكتبة لأنه لم يصلنا منها فهرس من العصور الوسطى؛ يضاف إلى ذلك عامل أخطر وهو أن دير جيرمان - دى - بري أصبح نقطة تجمع عامة للمورين الفرنسيين ولمخطوطاتهم من كل نوع وأصل ولذلك لايمكن معرفة ما كان للدير وما ليس له. وكل ما نستطيع قوله هو أن هذه المكتبة كانت المكتبة الثانية لا أول لها بين المكتبات العظيمة فى القرن الثانى عشر.

وسط وجنوبى فرنسا - رايمز[٣]

كانت رايمز مدينة تتويج الملوك الفرنسيين وقد طورت لنفسها الخط الكارولنجى الصغير المميز لها. وفى عهد **هنكمار** ٨٤٥-٨٨٢م[٤] تطورت مكتبات المنسخ ومدارس الدير تطوراً عظيماً مما وضع رايمز بين المراكز العلمية الفرنسية الرئيسية؛ مما جعل هنكمار يهدى بعض المخطوطات المزخرفة إلى الكاتدرائية وإلى ديرى **سانت ريمى وسانت ثييرى**[٥]، وقد وصلنا ٢٢ مخطوطة تحمل عبارة تدل على أنها هدية منه. وقد استمر ازدهار المكتبة فى عهد **فولكو** ٨٨٣-٩٠٠م[٦] والذى كان من بين المدرسين فى مدرسته **هوكبالد** من **سانت أماند**[٧] و **ريميجيوس** من

(١) Notae Tironiae,

(٢) Marcus Tullius Tiro

(٣) Reims

(٤) Hinkmar

(٥) St. Remi; St. Thierry

(٦) Fulco

(٧) Hucbald of St. Amand;

أوكسير[1]. ويعزى الفضل إلى هنكمار فى إعداد حواصر الكتب فى كنائس وأديرة رايمز.

وسط وجنوبى فرنسا ـ ليون[2]

بعد أن اشتعل أوار الصراعات الدينية المذهبية، وجد كثير من الفرق الجنوبية المعارضة للفرق الشمالية في ليون المركز المناسب لإدارة هذا الصراع. وكان تأثير المهاجرين الأسبان قوياً للغاية ليس فقط فى ليون و أوليانز وإنما أيضاً فى كوربى وكثير من الأماكن الأخرى.

ولقد ازدهرت مؤسسات التعليم العالى فى ليون ازدهاراً كبيراً حتى تلك المكتبات القديمة، فى عهد كبير الأساقفة **ليدرادوس** ٧٩٨-٨١٣م[3]، الذى كان ذات يوم أمين مكتبة وسفيراً لـ: شارلمان وفى عهد تلميذه النجيب الأشهر: **أجوبارد** الأسبانى ٨١٦-٨٤٠م[4]. ولقد أمر ليدرادوس بكتابة عدد كبير من المخطوطات لتقديمها هدايا للكاتدرائيات، وتشير السجلات إلى أن آجوبارد كذلك كان سخياً فى هداياه هو وخلفاؤه.

وقد ظهر تقليد متأخر يسمى شارلمان بمنشئ المكتبة في الدير القريب من ليون وهو دير إل ـ إستى ـ بارب[5].

٦- إيطاليا

روما

تصادفنا مشكلة كبيرة عند دراسة المكتبات فى روما وهى مشكلة غير متوقعة على الإطلاق، وهى توقف التقارير عن المكتبات فى روما تماماً فى النصف الثانى

---

(١) Remigius of Auxeree

(٢) Lyons

(٣) Leidradus

(٤) Agobard

(٥) Ile - Ste - barbe

من القرن الثامن الميلادى. والاستثناء الوحيد من هذه المشكلة هى القوائم المنتظمة التى كان يصدرها مدير إدارة المكتبات فى قصر لاتيران، وهى الإدارة التى استقلت بذاتها فى عهد البابا **أدريان الأول**[١]. وتبدو أهمية هذه الوظيفة من أن شاغليها جميعاً - باستثناء أمين المكتبة العالم **أناستاسيوس**[٢] - بعد سنة ٨٢٩م كانوا من الأساقفة المحليين. وكان أمين المكتبة فى نفس الوقت هو الذى يؤرخ الرسائل[٣]، وهى وظيفة مهمة أيضاً فى الديوان. وكان لقب الشخص الذى يجمع بين هذين العملين هو (**أمين المكتبة ومسئول الرسائل**)[٤] وتأريخ الرسائل كان عملاً منوطاً بأمين المكتبة عامة حتى وقت **كليستاين الثانى**[٥] ١١٤٣-١١٤٤م. وقد خلع بندكت الثامن عظيم الشرف على كبير أساقفة كولون: **بيلجرم**[٦] عندما أسماه أمين مكتبة سنة ١٠٢٣م. وكان المستوى الرفيع لهذه الوظيفة من دواعى احترام المكتبة نفسها وتقديرها، نلاحظ صدق ذلك فى عهد سانت بيتر الذي جاء إلى المكتبة على شرفه كثير من الشخصيات على رأسها شارلمان؛ الإمبراطور البيزنطى ميخائيل، ومن الباحثين من أمثال رابانوس ماوروس الذي فرح جداً عندما قبل كتابه فى المكتبة. ولم يجد البابا جريجورى الخامس حرجاً فى أن يعلن سنة ٩٩٨، أن كل أب جديد في دير ريشيناو عليه أن يدفع ضريبة من كتب للدير: كتاب صلاة وشعائر؛ كتاب رسائل الرسل؛ كتاب أناجيل.

وفى فترة الدراسة التى نحن بصددها، استمر المنسخ فى الأداء وانتعش فقط بسبب الدخل الذى كان يحققه من وراء النسخ لحساب الآخرين وخاصة كتب الدين الرومانية، وقوانين الكنيسة. ومن الأمثلة الدالة على تلك الانتعاشة طبيعة الكتب الكبيرة التى طلبها شارلمان، كما عرف عن لوبوس منْ فيريير وجربرت

(١) Adrian I

(٢) Anastasius (bibliothecarius)

(٣) Datarius

(٤) Bibliothecarius et Cancellarius sedis apostolicae.

(٥) Celestine II

(٦) Pilgrim

أنهما أيضاً طلبا نسخ كتب كلاسيكية من منسخ القصر. وكانت المبالغة فى تذهيب وتفضيض الكتب الدينية فى مناسخ روما مدعاة لاستياء شخص مثل **ليودبراند من كريمونا**(١) قائلاً بأن الذهب الذى يصنع منه الآخرون أسلحتهم يضيعه الرومان فى زخرفة وتذهيب مخطوطاتهم.

جنوبي إيطاليا(٢)

عاشت دوقية **بنيفنتو**(٣) بعد انهيار الامبراطورية اللومباردية، وانصرف الباحثون والعلماء إلى بلاطات **أراخيس** وشريكته **آدلبرجا**، ابنة **ديزيدريوس**(٤) ملك اللومبارد وراعية **بول الشماس**(٥). ولقد انتعشت ثقافة بافيا هنا في هذا المكان. وقام كل من جون ومارينوس رئيسا نابلى في منتصف القرن العاشر بدور الوسطاء بين بيزنطة - التي كانا يدينان لها بالولاء - والغرب. وكان أحد العلماء المقربين منهما ويدعى ليو كبير قساوسة نابلي قد عمل فى بيزنطة سفيراً، وأخذ يبحث هناك عن الكتب وعاد بكتاب **قصة الإسكندر** للكاتب ذى الاسم المستعار **كاليستينز**(٦)، وقد توفر على ترجمته إلى اللاتينية. وطبقاً لما رواه جون فإنه قد كون مكتبة كبيرة في نابلى وذلك بإغراء الباحثين بجمع وتحرير أكبر عدد من الكتب فى نسخ صحيحة سليمة. وكان من بينها كتب لمؤلفين مشهورين في ذلك الوقت مثل ليفى، جوزيفوس، ديونسيوس الآريوباجتي.

جنوبى إيطاليا - مونت كاسينو(٧)

في سنة ١٧١٧م بدأ **بتروناكس من برسشيا**(٨) بناء على أوامر من البابا

---

(١) Liudprand of Cremona

(٢) Southern Italy

(٣) Benevento

(٤) Arachis; Adelberga Desiderius

(٥) Paul the Deacon

(٦) Pseudo - Callisthenes

(٧) Monte Cassino

(٨) Bertronax of Breccia

جريجورى الثانى فى إعادة بناء الدير الذى كان موجوداً بالقرب من مونز كازينوس. وكان هذا الدير قد هجر منذ ٥٨١م. وقد قدم البابا الثانى **زاخارياس** الكتب[١]، وأخذ الرهبان من كل أنحاء الغرب في القدوم الى الدير. وهنا نقابل **ويكيبالد**[٢] الأنجلو ساكسونى الذي أصبح فيما بعد أسقف إيكشتات[٣] واستورمى تلميذ بونيفاس الذى درس مجتمع مونت كاسينو كي يقيم مجتمعاً مماثلاً فى فولدا. وجاء إلى الدير أيضاً آدلهارد من كوربى. وهنا نستطيع تتبع بدايات الحياة الفكرية وصلات الدير مع المراكز الثقافية الأخرى فى الشمال. ولقد زار شارلمان مونت كاسينو سنة ٧٨٧م وطلب إلى الأب **تيوديمار**[٤] إعداد نسخة عن **لائحة** بندكت التى بخط يده. وبعد ذلك دعا شارلمان أكثر الرهبان علماً ـ بول الشماس ـ إلى بلاطه عدة سنوات (٧٨٢-٧٨٧). وقد ظلت للمدرسة مكانتها فى مونت كاسينو حتى داهمها العرب سنة ٨٨٣م. وبعد ذلك عانت المدرسة والدير فترة اضطراب وقلق حيث عاش الرهبان فى المنفى فى **تيانو**[٥]، ولقد دمرت لائحة بندكت هنا في الحريق، كما دمرت أيضاً في كابوا.

وكل ما وصلنا من مخطوطات هذا الدير ترجع إلى فترة النشاط الثانية. وقد شهدت هذه الفترة أيضاً ظهور الخط الإيطالى الجنوبى والذي ظهر أولاً في القرن الثامن وبلغ أقصى نضج له فى مخطوطات القرن العاشر والتى كتبت فى المنفى في كابوا (٨٩٦-٩٤٩م).

والمكتبة التى دمر العرب الجانب الأكبر منها بكل تأكيد لابد وأن تكون مجموعاتها قيمة، ذلك أن الآثار الفكرية التى خلفها بول الشماس تشى بأنها اعتمدت على مصادر قوية كانت موجودة فى تلك المكتبة. والمخطوطات التى

---

(١) Zacharias

(٢) Willibald

(٣) Eichstatt, Sturmi

(٤) Theodemar

(٥) Teano

وصلتنا من مجموعات المكتبة، توحى بأن المكتبة كانت تقتني في النحو والعلوم الطبيعية وليس فقط في اللاهوت وعلوم الدين. لقد حرص هذا الدير على حرية البحث ولذلك كانت القاعدة هى أن الباحث حر فى أن يعتنق ما يشاء ويبحث في أي موضوع. وكانت القاعدة المتبعة تكمن فى بيت الشعر الآتى:

هولاء الذين يتمتعون بصحبة ربات الفكر

يهربون من الحياة الضيقة.

ولا يعيشون محاطين بالبوابات أو محدودين بالحواجز

* * *

شمالى إيطاليا - بوبيو[١]

بينما حالت الحوادث الخارجية دون تقدم الحياة الفكرية في مونت كاسينو، كان دير بوبيو فى شمالى إيطاليا فى أوج ازدهاره وشهرته. ولأن هذا الدير كان يقع على الطريق إلى روما ويضم آثار ومتعلقات كولومبا، بوبيو فإنه مثل دير سانت جال كان محط رحال الحجاج الأيرلنديين على وجه خاص.

ويقال بأن دونجال المدرس الأيرلندي الشهير والذى عاش لفترة فى سانت دنيس وبافيا، يقال بأنه مات هنا في بوبيو بعد سنة ٨٣٠م وقد أوقف على الدير ٢٩ مخطوطة. وفى القرن التاسع الميلادى كان منسخ الدير في بوبيو أخصب المناسخ إنتاجية وكانت مكتبة الدير أهم وأضخم مكتبة في كل شبه الجزيرة الإيطالية، ولهذا السبب وصلنا فهرس عن تلك المكتبة يضم ٦٦٦ مخطوطة، ويعتبر هذا الفهرس وثيقة تاريخية رغم ما به من فجوات.

ولقد أدار الدير خلال الجزء الأول من القرن التاسع الأب والا ٨٣٣-٨٣٥م[٢]. ولذلك فإنه قد حدد لكل من أمين المكتبة والأرشيفى مهامهما. وجعل

---

(١) Bobio

(٢) Wala

لأمين المكتبة رعاية المخطوطات، تقديم تسهيلات القراءة وإدارة المنسخ. وقد ضمنت قواعد **والا** إستقلال كل من الوظيفتين عن بعضهما بما لم يكن مألوفاً في ذلك الوقت.

ولقد بدأ انهيار دير بوبيو مبكراً فى القرن التاسع عندما أصبح الدير ومنصب الأب فيه محل أطماع الامبراطور، ثم أصبح فى القرن العاشر محل نزاعات داخلية مما أثار قرف الأب **جيربرت من أوريلاك** ٩٨٣-٩٨٤م[١] وأدى به إلى ترك منصبه بعد سنة واحدة. وقد انتهى الانهيار إلى تبديد المكتبة على النحو الذى لاحظه **آنجيلوس ميرولا**[٢] سنة ١٤٩٣م. وكان الورثة الأساسيون لمجموعات هذه المكتبة: مكتبة الأمبروز ومكتبة الفاتيكان فى القرن السابع عشر ومكتبة تورينو فى القرن التاسع عشر.

شمالي إيطاليا - نوفاليزا[٣]

لقد أنشىء دير نوفاليزا على يد الرهبان الفرنكيين فى نفس الوقت الذى أنشئ فيه دير بوبيو علي يد الرهبان الأيرلنديين. وبسبب إنشائه سنة ٧٢٦م فى ممر الألب على جبل **مونت سينس**[٤] فقد كان دير نوفاليزا يمثل نقطة قوية في سياسة شارلمان الإيطالية الخارجية. وفى خلال عهد الأب **فرودوان** ٧٧٣-٨١٠م[٥] نمت مجموعات المخطوطات نمواً كبيراً. وكان الأب **إلدراد**[٦] نفسه نشيطاً فى جمع الإنتاج الفكرى ومن المعروف أنه تلقى المخطوطات من أماكن بعيدة ربما من **الشماس فلوروس**[٧] بالقرب من ليون نفسها.

وعندما داهم العرب المنطقة سنة ٩٠٦م هرب الرهبان مخلفين وراءهم كنوز

---

(١) Gerberr of Aurillac

(٢) Angelus Merula

(٣) Novalesa

(٤) Mont Cenis

(٥) Frodoin

(٦) ELdrad

(٧) Deacon Florus

الدير جميعها بما فى ذلك كتب المكتبة والتى قيل أنه كان فيها آنذاك ٦٠٠٠مخطوط (!!)، وقد لجأ الرهبان إلى تورينو ولم يعودوا بعد ذلك أبداً إلى نوفاليزا. ولكن لا ينبغى أن نأخذ عدد الكتب المذكور على علاته ولقد قيل إن العرب أحرقوا المكتبة والدير. وعندما أعيد بناء الدير بعد ذلك التاريخ تم جمع ٩٥٠مخطوطاً كلها ترجع إلى العهد الكارولنجى على النحو الذى ورد فى حولية الدير المسماة: حوليات نوفاليزا[١].

إن بقايا هذه المكتبة ومعظمها عبارة عن جلود كتب اكتشفت في القرن السادس عشر ترجع إلى العصور الوسطى الباكرة وتكشف عن وجود منسخ على درجة عالية من التقدم. وأهم البقايا التي وصلتنا كتاب **الشهيد أدونيس**[٢] (الآن في برلين مجموعة هاميلتون ٤) كما وصلنا بعض الإيضاحيات الفنية من كتاب صلوات تكشف عن نشاط كبير في عملية النسخ فى القرنين الحادي عشر والثانى عشر.

شمالي إيطاليا - فيرونا[٣]

إمتدت يد الإصلاح الكارولنجي أيضاً إلى دير فيرونا وخاصة فى عهد الأسقف **راتولد**[٤] ٧٩٩-٨٤٠م (توفى ٨٤٧م) والذى مثل سلفه **إيجينو**[٥] قضى السنوات الأخيرة من حياته في ريشيناو. وكانت **المدرسة الدينية**[٦] التى أسست كما ورد في سجلات الدير سنة ٨١٣م. وقد حباها الله في بداية حياتها مديراً رائعاً تمثل في كبير الشمامسة **باسيفيكوس**[٧] والذى امتد نشاطه أيضاً إلى

(١) Chronicon Novaliciense
(٢) Martyrologuin Adonis
(٣) Verona
(٤) Ratold
(٥) Egino
(٦) Schola Sacerdotum
(٧) Archdeacon Pacificus

المنسخ والمكتبة وظل في موقعه حتى سنة ٨٤٦م فى الإشراف عليهما لإرتباط أنشطة المنسخ والمكتبة بأنشطة المدرسة. وقد عرف عنه أنه كتب بنفسه أو أشرف على كتابة ٢١٨ مخطوطاً ويعزى إليه اختراع **آلة لمعرفة الوقت أثناء الليل**(١). كذلك اشتهر الرجل لأنه ـ ضمن أشياء أخرى ـ أعد كتاباً جامعاً بالوفيات مرتباً زمنياً. لقد استمر في أسلوب النسخ على نفس النمط الذى ورثه من سلفيه **أورسيكينوس وإيجينو**(٢). وقام بمفرده بتطوير وابتداع الخط الكبير. ويقدر عدد الناسخين الذين عملوا تحت إدارة باسيفيكوس بنحو خمسين ناسخاً. ولكن خط فيرونا حل محله بعد ذلك خط كارولينا.

ويرجع الفضل في إنتاج العديد من الكتب في القرن التاسع إلى مدرسة الدير: مدرسة فيرونا. وفي القرن العاشر الميلادي وضعت المكتبة تحت رعاية الأسقف الألمعي النجيب **راثيريوس**(٣) الذي كان يقدر مقتنياتها وخاصة القديمة والتي استخدمها في تعليم الإكليريين وطلاب الدراسات الكلاسيكية. وكان راثيربوس نفسه يقرأ هنا خطابات شيشرون وبليني بل وحتى كتابات كاتولوس، وكان ينسخ شعر هذا الأخير بنفسه، والذي لولاه لما وصلنا، لأن شعر هذا الشاعر العظيم لم يصلنا إلا عبر المخطوطة الوحيدة في فيرونا.

٧- أسبانيا

عندما فتح العرب أسبانيا لم يعملوا على أسلمة السكان هناك وإنما تركوا لهم حرية العقيدة فبقي العدد الأكبر منهم على ديانتهم المسيحية وإن حملوا الجنسية العربية وأطلق عليهم من هذا المنطق اسم **(المسيحيون العرب)**(٤). وكان لهذا بطبيعة الحال انعكاسه على العمل الفكري فى الغرب المسيحى حيث استمرت مدن مثل قرطبة وإشبيليه وطليطة على وجه الخصوص مراكز للثقافة المسيحية بنفس

(١) Horologuin nocturnum

(٢) Ursicinus, Egino

(٣) Ratherius

(٤) Mozarabs

القدر الذي كانت عليه كمراكز للثقافة الإسلامية العربية وقد عالجنا ذلك في كتابنا عن (الكتب والمكتبات في العصور الوسطى: الشرق المسلم والشرق الأقصى) وفي هذه المراكز كانت الكتب تنسخ وتنشر وكانت تجمع في مكتبات يؤمها القراء والباحثون المسيحيون. وكان لانقسام الكنيسة الأسبانية في القرن الثامن أثره على العمل الفكرى كما كان نتيجة له كذلك.

ويهمنا فى هذا البحث التركيز على الجانب المسيحي دون الإسلامى لأنه المقصود هنا في سياق هذا الكتاب. ففى سنة ٨٤٨م **إيلوجيوس**[١] قس كنيسة قرطبة برحلة إلى الشمال قادمة إلي دير **سانت زاخارياس في البايرنيس**[٢]. وقد أغدق أب دير زاخارياس على إيلوجيوس بثروة من الكتب **لأوغسطين، فيرجيل، جوفينال، هوراس، بروفيريوس، أفينوس،**[٣] وترانيم الشعراء المسيحيين. وقد حمل إيلوجيوس هذه الذخائر معه إلى قرطبة. وتقرير هذه الرحلة التاريخية مفيد جداً لسببين: الأول أنه يكشف عن أن الثقافة المسيحية كانت ماتزال حية في كنيسة قرطبة حتى فى ظل عبد الرحمن الثانى وتكشف عن الرغبة الشديدة فى الدراسات الكلاسيكية بدليل الكتب التى حملها إيلوجيوس إلى قرطبة والتى انعكست أيضاً على ما كتبه فيما بعد هو وزميله **ألبار**[٤]. والسبب الثانى أنها تكشف عن ثروة الكتب الهائلة التى كانت موجودة في أديرة الشمال الذى لم يدخله العرب والنسخ المتعددة من الكتاب الواحد.

وفى شرقى أسبانيا كان لمقاطعة الحدود - **مارش**[٥] الأسبانية - التي أسسها شارلمان سنة ٨١٠م، أثر كبير فى فتح **قطالونيا**[٦] أمام الغزو الفكرى الفرنكى. وفى الممالك التى تشكلت على الساحل الشمالى -

---

(١) Eulogius

(٢) St. Zacharias in the Pyrenees

(٣) Augustine, Virgil, Juvenal, Horace, Prophyrius, Avienus.

(٤) Albar

(٥) March

(٦) Catalonia

ليئون، أستورياس، كاستيل[1] ـ وجدت ثقافة كتبية فريدة من نوعها سواء فى خط الكتابة أو زخرفة الكتب، وقد نشأت هذه الثقافة بمعزل عن المؤثرات الغربية وإنما فقط تأثرت بمؤثرات عربية صرفة وموزاعربية (إن صح هذا التعبير الأخير). وكانت مدن الكاتدرائيات والأديرة عبارة عن نقاط تجمع للنازحين من الجنوب العربى، وفى نفس الوقت كانت مراكز نشطة لتجميع الكتب ونسخها. ويقال بأن مكتبات الأديرة وحدها تجمع فيها فى ذلك الوقت حوالى ١٥٠٠ مخطوط. وكانت صناعة الكتاب فى تلك الدولة الصغيرة مثار الدهشة والإعجاب لتقدمها رغم الحروب التي خاضتها مع العرب (الموريين). والعجيب ليس فقط فى كمية المخطوطات التى وصلتنا والتى لم يحدث لها أى دمار حتى القرن التاسع عشر، وإنما أيضاً فى كمية ونوعية الكتب المزخرفة والمزينة بدرجة عالية من الفخامة والأبهة.

الكنائس والأديرة الأسبانية

فى سنة ٧٨٥م وفى دير أستورياس فى ليبانا كتب **بيتوس**[2] شروحه الأوسع انتشاراً على كتاب **السفر الأخير من العهد الجديد**[3]. وكانت زخرفة هذا الكتاب أهم وأخطر عملية رسم وتصوير للكتب تمت فى شمال غربى أسبانيا (المدرسة الموزاعربية) في الوقت الذى أعطت فيه المنطقة الشمالية الشرقية كل اهتمامها لزخرفة وتزيين الكتاب المقدس (مدرسة قطالونيا).

وكانت كاتدرائية **أورجيل**[4] تملك مجموعة كتب من أحسن وأهم المجموعات في كل قطالونيا، وقد وصلنا سجل من سنة ١١٤٧م يسجل ضمن ما يسجل أعماله هوميروس، فيرجيل، شيشرون، هوراس، وغيرهم من المؤلفين الوثنيين الكلاسيكيين.

León, Asturias, Castile (١)

Beatus (٢)

Apocalypse (٣)

Urgel (٤)

وترجع أولى الكتابات الباكرة عن مكتبة كاتدرائية ليئون أهم كاتدرائية في كل الشمال الأسباني خلال القرن الحادى عشر إلى سنة ٨٦٠م، كما وصلنا فهرس مكتبة كنيسة **أورفيدو**[١] إلى سنة ٨٨٢م وهو يسجل واحداً وأربعين مخطوطاً. ولقد نقلت إلى باريس فى سنة ١٨٧٨م مجموعة من المخطوطات تؤكد ثراء استخدام الخط الغوطى الغربى، وكانت هذه المخطوطات مطمورة في كنيسة **سيلو**[٢]. وهذه المخطوطات تؤكد على مدى مكانة المنسخ الذي كان موجوداً هناك.

وفى المناطق المسيحية العربية (الموزاعربية) كانت مكتبات الكاتدرائيات في قرطبة وعلى وجه خاص فى طليطلة على قدر كبير من الأهمية ومع ذلك لم تصلنا وثائق عنها فى الفترة المبكرة ربما لطغيان أخبار المكتبات الإسلامية عليها. وقد وصلنا من طليطلة وحدها ٢٩ مخطوطة مكتوبة بالخط الغوطي الغربي. ويبدو أن مكتبة كاتدرائية **ريبول**[٣] في قطالونيا قد فاقت كل المكتبات الأسبانية. فقد كانت مكتبة ريبول سنة ٩٧٩م تحتوى فقط على ٦٥ مخطوطة وفى سنة ١٠٤٧م ارتفع هذا العدد طبقاً للحصر الذى تم بعد وفاة الأب **أوليفا**[٤]، إلى ٢٤٦مخطوطة وهذا الفهرس هو أكثر الفهارس التى وصلتنا من حيث التفاصيل التي ينطوي عليها. وقد وصلتنا فهارس من كاتدرائيات أسبانية أخرى مثل: **فيش، تورتوسا، برشلونة**[٥] ومن أديرة عديدة مثل: **ساهاجون، كاردينا، ألبلدا، كوجولا** وغيرها[٦].

وكان الملوك هم أكثر الشخصيات إهداء للكتب إلى المكتبات فقد قدم **ألفونسو الثانى، الكاستو** ملك استورياس الكتب إلى أورفيدو فى سنة ٨١٢م. كما قدم

(١) Orviedo

(٢) Silo

(٣) Ripoll

(٤) Oliva

(٥) Vich; Tortosa , Barcelona

(٦) Sahagún; Cardena; Albelda; Cogolla

أوردنا الثانى ملك ليئون[1] الكتب الى كثير من الأديرة وعلى سبيل المثال قدم لدير ساموس[2] سبعة وعشرين مجلداً سنة ١٩٢٢م. كما كان الأساقفة أيضاً أسخياء في تقديم الكتب للمكتبات في دوقياتهم.

وإذا عولنا كثيراً على حرود المتن الواردة فى المخطوطات باعتبارها وثائق تاريخية سليمة، فإننا يمكن أن نؤكد مطمئنين أن الأديرة نفسها كانت هى أماكن إنتاج الكتب حيث توجد المكتبة والمنسخ ومزخرفو الكتب ومجلدوها. وتعكس محتويات تلك المكتبات المستوى الثقافى العالى الذى كان موجوداً في تلك المناطق فقد وجدت الكتب الكلاسيكية وكتب الآداب جنباً إلى جنب مع كتب الدين واللاهوت التقليدية والمخطوطات المزخرفة المزينة، وفي المكتبات الأسبانية كنا نجد كتب هوراس وجوفينال التى كان من الصعب أن نجدها في أماكن أخرى من أوربا.

طليطلة[3]

في غضون القرن الثانى عشر تفوقت المراكز الثقافية المسيحية فى طليطة على أديرة الشمال الأسبانى وذلك بفضل التأثيرات العربية الإسلامية هناك والتى بدأت واضحة جلية اعتباراً من ١٠٨٥م. ففى السنوات مابين ١١٢٦-١١٥١م أسس مركز طموح للترجمة على مستوى راق بناء على طلب من الأسقف ريموند[4]. هذا المركز كان الجسر الموصل بين الغرب والعالم العربي لمدة قرن على الأقل. ولقد أصبحت طليطلة هى المكان الذى تترجم فيه الكتب العلمية العربية وخاصة شروحات العلماء العرب على أرسطو، والكتب الطبية وكتب العلوم الطبيعية الإغريقية، وكان الباحثون المسيحيون غالباً هم الذين يتوفرون على ترجمة تلك الكتب من اللغة العربية. وظلت طليطلة بيت الكنوز والذخائر الفكرية العربية

(١) Alfonso II, el Casto, Ordona II

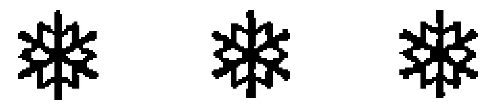
(٢) Samos

(٣) Toledo

(٤) Raymond

ربما حتى نهاية القرن الثالث عشر. وإلى جانب ذلك كانت المناسخ المسيحية في أوج نشاطها فى المدينة وقد تطور الخط الأسبانى القديم هناك حتى أصبح يعرف بالخط **الطليطلى**[1]. هذا المزيج العظيم من الإنتاج الفكري فى طليطلة كان يمثل التحدي الحقيقى للغرب المسيحى.

ومن الأحداث المؤثرة أيضاً فى مسيرة الإنتاج الفكرى الأسبانى والتى أذنت أيضاً ببزوغ فترة جديدة، حركة الإصلاح الدينى التى قام بها الكلونيون فى عهد ألفونسو السادس ١٠٧٢-١٨٠٩م، والتى أكدت على سيادة الخط الكارولنجى الصغير في مطلع القرن الثانى عشر. وكان الخط الكارولنجي قد تسلل إلى قطالونيا فى بداية القرن التاسع الميلادى وفى سنة ١٠٩١م إتخذ مجلس ليئون قراراً بوقف استخدام الخط الطليطلى فى الكتب الموجهة للكنائس. وكذلك فإن مدرسة طليطلة التى كان يؤمها أساساً طلبة غير أسبان كانت تستخدم خط كارولينا منذ إفتتاحها.



(١) Toletana

الفصل الثالث

العصور الوسطى الوسيطة

الفترة الأوتونية[1]

تميزت العقود الأخيرة من الأسرة الكارولنجية بازدياد الاضطراب والفوضى واقتحام الشعوب الأجنبية لأراضى الامبراطورية. وتحت وطأة تلك الغزوات والهجمات دمرت الكنائس والأديرة بما فيها بطبيعة الحال من المكتبات وعانى الفرنكيون الغربيون معاناة شديدة تحت وطأة هجمات النورمان الذين دمروا تورز سنة ٨٥٣ ثم بعدها ترير ثم دمرت الأديرة فى جبل **إيفل**[2] سنة ٨٨٧م. وكان الجنوب قد دمره العرب الذين تركوا بصماتهم التخريبية فى مونت كاسينو واضحة جلية سنة ٨٨٧م؛ فارفا سنة ٨٩٨م؛ نوفاليزا سنة ٩٠٥م. وقد أشاع المجريون الفوضى والخراب فى شمالى إيطاليا وألمانيا وحطموا زهور الرهبنة فى بافاريا بإحراقهم **نونانتولا**[3] سنة ٨٩٩م. وقد ظهروا أمام بوابات دير فولدا سنة ٩١٥م ولكن الأب الشجاع **هوجى**[4] ردهم على أعقابهم. كذلك قام المجريون في سنة ٩٢٦م بالهجوم على سانت جال ولكن تم إنقاذ المكتبة بنقلها في خلال إحدى عشرة ساعة إلى ريشيناو.

وكان لإعادة بناء قوة الامبراطورية على يد الحكام الألمان أثره فى تغيير الأوضاع إلى الأحسن. وقد سارت النهضة الأوتونية على نفس خط النهضة الكارولنجية الباكرة فكان تشجيع العلم والبحث العلمى ورعايتهما من دأب الأسر النبيلة مما أدى بالقطع إلى استفادة الكتب والمكتبات من الوضع الجديد.

(١) Ottonian Era

(٢) Eifel

(٣) Nonantola

(٤) Huoggi

١ - أوتو الأول[1]

أعاد أوتو الأول للبلاط الإمبراطوري الهيبة التي كان عليها أيام شارلمان. وهو مثل شارلمان عمل على اجتذاب العلماء والباحثين إلى البلاط. وبينما كانت الأسماء اللامعة في بلاط شارلمان فرنسية، فإن الأسماء التي لمعت في بلاط أوتو الأول كانت إيطالية. ومن الطريف أنه كان في قلب دائرة الباحثين الذين يتحلقون أوتو الأول شقيقه **برونو**[2] الذي كان ينقل معه كتبه حيثما ارتحل على غرار العلماء المسلمين وخاصة الكتب الكلاسيكية التي هام بها.

وكانت الكتب تأتي إلى مكتبة البلاط أيضاً من إيطاليا فمما يذكر عن النحوي **جونزو**[3] أنه حمل معه إلى ألمانيا ثروة من الكتب قوامها مائة مخطوط من بينها كتب لأفلاطون وكتب لأرسطو (من طبعات فالسيديوس وبوثنوس) وكتب لشيشرون وكتب مارتيانوس كابللا. وكان قريبه **إستيفان من نوفارا**[4] الذي كان يدرس في فيرزبرج قد أهدى كتبه إلى كاتدرائية سانت كيليان في فيرزبرج. كذلك تسجل الوثائق أن الأساقفة الألمان عندما كانوا يعودون من الحج إلى روما كانوا يحملون معهم الكتب والهدايا التذكارية ويقدمونها لمكتبات الكنائس والأديرة في ألمانيا وعلى رأس هؤلاء الأساقفة: **تيودوريك من متز؛ إيرشانبالد من ستراسبورج؛ أوتوين من هيلدشايم؛ ويبولد من كامبراي**[5].

٢- أوتو الثاني[6]

كان أوتو الثاني الذي أطلقت عليه الراهبة الساكسونية روزويثا اسم «سليمان الجديد» من المشجعين للعلم والمحاطين بالعلماء. وكاد حبه للكتب أن يقضي على مكتبة سانت جال ذلك أن أوتو الأول عندما زار سانت جال لآخر مرة سنة

(١) Otto I

(٢) Bruno

(٣) Gunzo

(٤) Stephan of Novara

(٥) Theoderic of Metz; Erchanbald of Strassburg; Otwin of Hildsheim; Wibold of Cambrai

(٦) Otto II

٩٧٢م طلب ابنه (أوتو الثانى) فتح المكتبة وحمل منها معه كمية كبيرة من أحسن مخطوطاتها ولم يعدها إلى الدير ثانية إلا تحت إلحاح من الباحث إيكهارت الثانى الذى كان فى زيارة للبلاط.

٣- أوتو الثالث[١]

بلغت التأثيرات الأجنبية أقصى مداها فى عهد الامبراطور أوتو الثالث ابن الامبراطورة **ثيوفانو**[٢] البيزنطية والذى كان من بين مدرسيه جون فيلاجاثوس من كالابريا وجربرت من فرنسا. ومن خلال قائمة باثني عشر مخطوطاً اشتراها أوتو الثالث من بياسنزا يمكن أن نستشف روح الثقافة والاتجاه الفكرى لدى الامبراطور الشاب الذى قال عنه صديقه جربرت ذات يوم «إغريقى المولد، رومانى الطبع، امبراطورى الفكر» ومن هنا فإنه قد جمع تراث الإغريق وحكمة الرومان. وهذه القائمة تؤكد أن هذه المجموعة من الكتب لم تكن مجموعة أستاذ جون فيلاجاثوس ثم استولى عليها الامبراطور بعد وفاته سنة ٩٩٨م. تلك القائمة تضم أعمال المؤرخين ليفى و أوروسيوس، والشعراء بيروسيوس وفلجنتوس كما تم تعليق وشرح بوثيوس على فورفوريوس وكتاب إصلاح الهجاء لإيزيدور الأشبيلى وكتابين فى الدين وكتاب فى الطب.

ولقد قام هنرى الثالث بتقديم بعض كتب مكتبة أوتو الثالث إلى مكتبة كاتدرائية بامبرج ومن بين تلك الكتب المخطوطة الطبية المشار إليها، وقائمة الكتب التى بيعت إليه من بياسنزا وكتاب ليفي - وهو عبارة عن مخطوطة من القرن الخامس الميلادى مكتوبة بخط أونسيال وكانت هذه المخطوطة قد تمزقت في القرن الخامس عشر. وإلى جانب تلك المخطوطات التى تعرفنا عليها يمكن تتبع أصول مخطوطات أخرى فى مكتبة هذه الكاتدرائية ترجع إلى مكتبة الامبراطور ومستشاره جربرت.

* * *

(١) Otto III

(٢) Theophano

ويمكن أن نتتبع الأيادى البيضاء التى لأسرة أوتو على الحياة الفكرية فى زمانهم من كمية المخطوطات المزخرفة والثمينة التى قدموها للكنائس والأديرة أكثر مما كتب عنهم فى السجلات. وأقدم المخطوطات التى وصلتنا ترجع إلى عهد أوتو الثانى وأوتو الثالث ونجد فى كتاب الأناجيل الذى وصلنا من إخترناخ أن المذهب حفر حروف أوتو الثالث وأمه ثيوفانو المشار إليها من قبل.

لقد أوقف **هنرى الثانى**[١] كثيراً من المخطوطات الثمينة على الكاتدرائية التى أنشأها فى بامبرج. كذلك كان للمناسخ التى انتشرت فى عهده أبلغ الأثر فى إثراء الحياة الفكرية بالمخطوطات التي أنتجها وأيضاً إثراء مقتنيات المكتبات ولا يرقى إلى مستوى إصلاحاته الفكرية سوى الإصلاح الدينى. وهناك وجوه شبه كثيرة بين المخطوطات التى وصلتنا من عهد هنرى الثانى وهى جميعاً تؤكد على أن مصدرها هو دير ريشيناو؛ فمن هذا الدير خرجت المخطوطات الأولى التى أمر بإعدادها هذا الامبراطور الساكسونى.

وعلى غرار الحكام قام رجال عظماء بإنشاء ودعم المراكز الفكرية الخاصة بإنتاج الكتب وتطوير صناعته منهم: الأسقف إيجبرت من ترييير، والأسقف جيرو من كولون، وغيرهما كثيرون.

٤- جربرت من أوريلاك[٢]

كان جربرت من أوريلاك ٩٥٠-١٠٠٣م من ألمع الباحثين فى البلاط الامبراطورى وكان يسيطر على كل علوم العصر وكان يتفوق على الجميع فى فهم واستيعاب العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية التى ربما يكون قد تعلمها من العرب خلال دراسته فى برشلونة. وعلى الرغم من أنه قضى معظم حياته في ريمز مدرساً ثم بعد سنة ٩٩١م كبيراً للأساقفة إلا أن علاقته بالبلاط كانت متينة وثيقة. وكان مربياً فى البلاط في عهد أوتو الأكبر سنة ٩٧٢م وقد رقَّاه أوتو

---

(١) Henry II

(٢) Gerbert of Aurillac

الثانى إلى وظيفة أب في دير بوبيو بمكتبته الغنية العظيمة سنة ٩٨٣م وكانت تربطه صداقة حميمة مع أوتو الثالث، واستمرت خططه الداعمة للمكتبات والحياة الفكرية حتى بعد أن أصبح بابا روما تحت اسم البابا **سلفستر الثانى** ٩٩٩-١٠٠٣م[١].

لقد سار جربرت على نفس النهج الفكري الذي سار فيه قرينه لوبوس من قرن سبقه. وهو مثل لوبوس رغب فى دراسة الكلاسيكيات وحاول جمع كتب المؤلفين الوثنيين ماوسعه ذلك وشرح شيشرون، وحصّل دائرة واسعة من المعرفة التى انتشرت فى عصره. وهو أيضاً مثل لوبوس وجد أنه من الضرورى جمع الكتب اللازمة لمواصلة دراسات أعلى. وفي ريمز اجتهد فى تفسير الكلاسيكيات وخاصة مؤلفات أرسطو وجمع الكتب لنفسه وللمكتبات الشهيرة هناك.

لقد بعث بطلبات الكتب وعروضها إلى كل الأنحاء. لقد طلب المساعدة لمكتبته من الأب إيبرهارد في تورز، وبمساعدة من أصدقائه استطاع أن يجمع مبلغاً كبيراً من المال لشراء المخطوطات من روما، إيطاليا، ألمانيا، بلجيكا.

كذلك قام إيبرهارد الأب فى تورز بطلب الكتب من جربرت فقد كان الأب راغباً فى كتاب بوثيوس عن الفلك والذى يقع فى ثمانية مجلدات ويوجد فى دير بوبيو ولذلك طلب من الراهب راينهارد فى بوبيو أن ينسخ له نسخة من هذا الكتاب هو وغيره من المخطوطات وكتب فى رسالته إليه يقول «إنك تعلم عمق رغبتي فى البحث فى كل البلاد عن كتب المؤلفين الإيطاليين. من فضلك استنسخ لى نسخاً من **فلك** مانليوس (بوثيوس)؛ **وخطابة** فيكتورينوس **وعيون** الطبيب ديموثينس. وسوف أدفع لك كل التكاليف». كما قام إيبرهارد بطلب كتاب الفلك من أسقف برشلونة ليوبيتوس وطلب كتاب الحساب الذى ألفه جوزيف الأسبانى من الأب جيرالد من أوريلاك.

وهكذا فإن الطلبات كانت متبادلة بين الطرفين. وكان جربرت بذلك قادراً على

---

(١) Sylvester II

استعارة نسخ من مكتبات أخرى مقابل نسخ من مكتبته. وبهذه الطريقة استطاع أسقف رايمز أدالبيرو أن يتلقى نسخة من **فلك** بوثيوس فى مقابل نسخة من شروح قيصر. وتمكن الشماس ستيفانوس فى روما أن يتلقى نسخة من قصص القديسين فى مقابل أعمال سيتونيوس وسيماخوس وهكذا حدثت الكثير جداً من المبادلات.

٥- النساء فى البلاط

لم يكن تعليم النساء فى تلك الفترة منتشراً، ولم يكن يوجد إلا فى الأديرة وحدها وكان تعليمهن في الأعم الأغلب قاصراً علي نسخ الكتب وكتابة الرسائل وربما فن الإملاء.

وكانت الراهبات يقرأن الشعر لشعراء الرومان ومن الأمثلة البارزة كما قدمت سابقاً على الراهبات المتعلمات الراهبة **روزويثا من جاندرشايم**[١] وكانت تدرس العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أيضاً وكانت من المستفيدات الكبار من المكتبة الموجودة في الدير. وكانت تعادل تيرنس فى درامياته، كما حاولت فى درامياتها أن تعالج قضايا صعبة آنذاك مثل قضايا الموسيقى والأرقام.

ولو حاولنا الدخول داخل نساء البلاط فسوف نجد نساءً متعلمات كثيرات يساهمن فى الحياة الفكرية داخل البلاط وربما خارجه أيضاً فهذه هى **ماتلدة**[٢] شريكة هنرى الأول فى الدوقية، وهذه هى **إديث** و **آدلهيد** زوجتا أوتو الأكبر[٣] وكذلك نجد ثيوفانو البيزنطية التى أشرنا إليها من قبل. هؤلاء النسوة كن أجنبيات ومع ذلك ساهمن فى الحياة الفكرية وقدمن إنجازات كبيرة للحركة التعليمية فى البلاد. وإلى جانب هؤلاء نجد من نساء البلد عديدات أخريات مثل: **هيدوج من أسوابيا**[٤] وهى بنت أخت أوتو الأكبر التى نسبت إليها إنجازات تعليمية كبيرة.

(١) Rosewith of Gandersheim

(٢) Matilde

(٣) Edith; Adelheid

(٤) Hedwig of Swabia

لقد كانت تناقش كتب فيرجيل مع راهب سانت جال الشهير: إيكهارت الثالث فى قلعة هوهنتفيل وأدخلت الراهب الشاب بوركهارت (الأب بوركهارت الثانى فى سانت جال ١٠٠١-١٠٢٢) إلى عالم اللغة اليونانية وآدابها. وأغرقت تلاميذها بهدايا الكتب السخية وخاصة كتب هوراس وغيرها من الكلاسيكيات. وقد قرر إيكهارت الرابع أنه رأى تلك الكتب فى مكتبة دير سانت جال بعد ذلك.

٦- الأديرة والكنائس الألمانية

منطقة بحيرة كونستانس

قام الأباطرة الأوتونيون ـ مثل أسلافهم الكارولنجيين ـ بدعم وتوسيع نطاق الحياة الروحية والفكرية داخل الأديرة فى عموم الامبراطورية. وبينما حلت أسماء جديدة محل القديمة فإن ديرى سانت جال وريشيناو قد تجاوزا دون غيرهما الانهيار العام الذى حل بالأديرة واستطاعا أن يقفزا إلى مرحلة جديدة ثانية من الازدهار. ولقد ظهر نوع جديد من النمو والازدهار داخل المراكز الثقافية فى البلاد الأصلية للعائلة الامبراطورية فى الشمال والشرق. لقد شهدت الفترة الكارولنجية ازدهار أديرة أرض الراين، بينما فى الفترة الأوتونية فقد انتقل الازدهار إلى أديرة بافاريا وساكسونيا حيث حل الدور عليها.

سانت جال

أعقب العصر الذهبى لسانت جال، فترة من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار والخلاف الداخلى فى بداية القرن العاشر الميلادى وذلك بعد حركة العلمانية التى قادها الأب سلومون الثالث[١]. ولقد عاد الدير إلى فترة من الازدهار الجديد في عهد الأب بوركهارت الأول ٩٥٨-٩٧١م وهو قريب لأوتو الأكبر كما شهد مع بوركهارت الثانى ١٠٠١-١٠٢٢ فترات الازدهار وفترات الانهيار.

---

(١) Solomon III

في بداية العصر الفضى هذا قام إيكهارت الأول وإيكهارت الثانى بدعم الحياة الفكرية وتأييدها بكل ما استطاعا، إذ قام إيكهارت الأول (توفى ٩٧٣م) بنشر طبعة من قصيدة **والثاريوس**[١]؛ كما قام إيكهارت الثانى (توفى ٩٩٠م) بإدارة مدرسة الدير بكفاءة منقطعة النظير. ولقد تفوق عليهما فى الشهرة **نوتكر لابيو** (توفى ١٠٢٢م)[٢] الذي كان صاحب مدرسة في النثر الألمانى وقد أعطى لقب الشرف (تيوتونى) أى الألمانى[٣].

وفى سنة ١٠٢٢م مات الأب بوركهارت الثانى فى الوباء أثناء صحبته للامبراطور هنرى فى رحلته الأخيرة إلى روما. وكان الجنود العائدون قد حملوا معهم الوباء إلى الدير مما أدى إلى ذبول زهرة الرهبنة ومعها نوتكر نفسه فى الدير. وقد شهدت الكارثة كذلك نهاية الحياة الفكرية فى دير سانت جال. ولقد كان إيكهارت الرابع (توفى ١٠٦٠م) خليفة ذا إمكانيات متواضعة. وكان كتابه (**تاريخ سانت جال**)[٤] عبارة عن تجميع لأمجاد الماضى وأسف على ما آل إليه الحال فى الجوانب الفكرية. ولم ينقذ الموقف فى الدير سوى حركة الإصلاح الكلونية التى قادها الأب نوربيرت[٥].

ويبدو أن العصر الذهبى الثاني لدير سانت جال قد امتد إلى المدرسة دون المكتبة وكما وصل إنتاج الكتب وزخرفتها إلى نوع من الجمود فى الشكل فقد وصلت المكتبة أيضاً إلى نقطة التجمد. ولم تصلنا أية فهارس من تلك الفترة والتقارير المبعثرة غير المتصلة عن المجموعات تتحدث عن الانهيار أكثر مما تتحدث عن النمو.

وفى سنة ٩٢٦م قام المجريون بتهديد الدير وفر الرهبان والآباء إلى الجبال.

---

(١) Waltharius

(٢) Notker Labeo

(٣) Teutonicus

(٤) Casus S. Gall

(٥) Norbert

ومع ذلك تم إنقاذ ذخائر الدير ومجموعات المكتبة وذلك بنقلها إلى دير ريشيناو. وقد وجد المجريون الدير خاوياً مهجوراً وخزائن المكتبة خالية من أية كتب وذلك أن **ويلبورادا** كان قد حذر الأب من اقتراب المجريين من الدير. ورغم إعادة المقتنيات إلى الدير بعد ذلك إلا أن عدداً من القطع الثمينة كانت قد نهبت. يضاف إلى ذلك أن حريقاً شب سنة ٩٣٧م أتى على بعض مقتنيات المكتبة وسرق البعض الآخر أثناء إطفاء الحريق.

وفى سنة ٩٦٦م كلف أوتو الأكبر ثمانية من الأساقفة وثمانية من الآباء بالتفتيش على الدير وعندما جاءوا إلى المكتبة دهشوا لمجموعة المخطوطات الجميلة ولفن الكتاب الراقى الذى بلغه الرهبان هناك.

ومن علامات الانهيار الباكرة فى هذا الدير، تلك الاجراءات التى اتخذها الأب **جيرهارد** ٩٩٠-١٠٠١م[١] فقد باع ورهن كثيراً من المخطوطات النفيسة ومن بينها الرقوق التى نسخها الخطاط الماهر **سنترام**[٢].

ولكن بعد تولى الأب بوركهارت الثانى ١٠٠١-١٠٢٢م، انتعشت المكتبة مرة أخرى ووجدت نصيراً لها ففى خلال عهده تم إنتاج العديد من المخطوطات ومن بينها مخطوطات دينية مزخرفة.

كما تم إنتاج العديد من الكتب الكلاسيكية ومن بينها كتب جوفينال. وليس ثمة شك فى أن جهود نوتكر **الألمانى** كانت مفيدة للمكتبة وفى صالحها تماماً. وتقتنى مكتبة دير سانت جال حتى الآن مخطوطات ترجماته والتى تجعل من المكتبة أهم مستودع للكتابات الألمانية العالية القديمة.

ويعتبر الخطاب الذى أرسله نوتكر إلى راعيه الأسقف **هوجو من سيتين**[٣] وثيقة ببليوجرافية مفيدة. ففى هذا الخطاب يعرض نوتكر أن يرسل نسخاً من

(١) Gerhard

(٢) Sintram

(٣) Hugo of Sitten

أعماله التى عددها فى الخطاب لو أن الأسقف أرسل إليه أولاً الرقوق والأموال التى يسدد بها أجور النساخين. وقد أرسل الأسقف إلى نوتكر بعض الكتب على سبيل الاستعارة من بينها كتب لشيشرون وشروح لبعض كتبه أيضاً وهى نفس الكتب التى طلبها أب دير ريشيناو. ولكن نوتكر اشترط قبل أن يرسلها إلى هناكِ أن يتلقى من دير ريشيناو كتباً أخرى فى مقابلها على سبيل الرهن وخاصة كتاب شيشرون فى البلاغة وشروح فيكتورينوس.

واعتباراً من عهد إيكهارت الرابع لم يعد هناك ذكر للمكتبة فى الوثائق المختلفة الخاصة بدير سانت جال ولم يعد أحد يسمع عنها حتى الصرخات التى أطلقها **بوجيو**(١) عندما زار الدير مع زملائه من مجلس كونستانس فى سنة ١٤١٦م.

دير ريشيناو

بعد فترة نشاط وازدهار فكرى ومكتبى ران على هذا الدير منذ منتصف القرن التاسع نوع من التوقف والتجمد إن لم نقل التقهقر فى دير ريشيناو. ولقد استمرت مدرسة الدير فى أداء رسالتها المحددة لها فى ظل الأوتونيين كما كانت من قبل. ومما يذكر أنه بعد وفاة والافريد فى سنة ٨٤٩م لم يشهد التاريخ الفكرى للدير سوى اسمين لامعين أولهما: الأب **بيرنو** ١٠٠٨-١٠٤٨م(٢) **وثانيهما**: الراهب **هيرمانوس كونتراكتوس**(٣). وتعزى أهمية الأب بيرنو الذى تعلم فى فليرى وبروم إلى تفوقه فى الجانب الدينى فقط. أما هيرمانوس فقد كان متعدد المواهب، كان شاعراً وموسيقياً وفلكياً ولاهوتياً فى آن واحد. وقد أدى الرجلان للدير خدمات علمية وفكرية جليلة ولكن بعد رحيلهما توقف هذا النشاط أو كاد بل لم يعد هناك دعم للدير، ذلك الدير الذى أنشأه الرجل العظيم بيرمين كما أسلفت.

---

(١) Poggio

(٢) Berno

(٣) Hermanus Contractus

وإذا كنا نعد دير ريشيناو من بين الأديرة الألمانية الأولى فى الفترة الأوتونية فإنما يرجع ذلك إلى البراعة في زخرفة وتزيين الكتب المنتجة فى هذا الدير. لقد كان هذا الدير هو الذى يعد الكتب التى يقدمها الأباطرة والملوك والأساقفة والآباء هدايا وهبات ومن ثم كان لابد وأن تكون على مستوى راق فى الكتابة والزخرفة. ففى سنة ٩٩٨م قام البابا جريجورى الخامس بتكليف الأب **آلاويتش الثانى**[١] بإمداده بالكتب الدينية. وإذا حكمنا على إنتاج هذا الدير من واقع العدد القليل من الكتب المزخرفة التي وصلتنا من ريشيناو والموجودة الآن فى **كارلسروه**[٢] (وهى مستودع معظم الكتب التى وصلتنا من ريشيناو) فإن مكتبة الدير لم تتلق إلاعدداً محدوداً من الكتب التى تم إنتاجها فى مَنسخ الدير.

وكان للإصلاحات الصارمة التى قام بها الأب **إيمو** ١٠٠٦-١٠٠٨م[٣] أثرها السلبى على المكتبة، حيث فقدت بعض مقتنياتها ولكن عوض ذلك الإنجازات التى قام بها خلفه محب الكتب الأب برنو سابق الذكر والذى أمضى فى أبوته للدير فترة طويلة (نحو أربعين سنة). وفى تلك الفترة وبعدها تم الحفاظ على مجموعات الكتب وصيانتها ولكن دون تنمية لها تذكر. وكانت الخسارة الكبيرة الأولى التى منيت بها قد حدثت فى القرن الخامس عشر عندما قام الآباء المجتمعون فى مجلس كونستانس بطلب الكتب وشحنت إليهم فى العربة ونسوا أو تناسوا إرجاعها مرة أخرى.

وفى سويسرا كانت هناك مكتبات أديرة تستحق الذكر من بينها مكتبة دير **بيانفيلمارياشتين** الذى أسس سنة ١٠٨٥م؛ **آينشادلين** الذى أسس سنة ٩٣٤م[٤]. حيث قام الأب جريجورى ٩٦٤-٩٩٦م الأرستقراطى الساكسونى وقريب عائلة الأوتونيين بإثارة موضوع المكتبة وضرورة الاهتمام بها وفعلاً وجدها

(١) Alawich II

(٢) Karlsruhe

(٣) Immo

(٤) Bienwilmariastein, Einsiedeln

كأحسن ماتكون. لقد كانت لهذا الدير صلات وثيقة مع الأديرة الأخرى. وكان في النصف الأول من القرن الثانى عشر من بين المراكز المعدودة فى الخطاطة والنسخ وزخرفة الكتب وكان له آثاره الطيبة على الأديرة الأخرى في سويسرا واسوابيا.

لقد قام الأب **فرووين** ١١٤٧-١١٧٨م[١] الراهب فى دير سانت بلاسيين بإنشاء واحدة من أهم المكتبات وواحدة من أهم مدارس الخطوط والرسم فى **إنجليبرج**[٢] سنة ١١٢٠م. بحيث أن خلفاءه ومنهم **بيرختهولد** ١١٧٨-١١٩٧؛ وعلى وجه الخصوص **هنريش**[٣] ١١٩٧-١٢٢٣م تسلموا بعده منسخاً قوياً فى أوج عصره الفنى.

إلى جانب هذه الأديرة كان هناك دير **مورى** (أسس ١٠٢٧م)؛ **ريناو** (أسس قبل ٨٤٤م)[٤]؛ **شافهاوزن** (أسس ١٠٥٠م)؛ **بفافرز** (أسس ٧٣٠م)[٥] وبعض الفروع فى كاتدرائية زيورخ قبل ٨٧٦م.

دير فينجارتن[٦]

أسس **فيلف الثالث**[٧] دير فينجارتن سنة ١٠٩٤، وقد تلقى الدير مجموعة من المخطوطات المنتجة فى إنجلترا والفلاندرز. وقد جلبها إلى هذا الدير **فيلف الرابع** وشريكته **جوديث**[٨] اللذين كانا زواجهما الأول فى برايتون. وقد أصبحت تلك المخطوطات هى النموذج الذى احتذته مدرسة الزخرفة والتذهيب فى دير فينجارتن. وقد تم إنتاج عدد كبير من المخطوطات فى العقود الأخيرة من

(١) Frowin
(٢) Engelberg
(٣) Berchtold, Heinrich
(٤) Muri, Rheinau
(٥) Schaffhausen; PfäFers
(٦) Weingarten
(٧) Welf III
(٨) Welf IV, Judith

القرن الثانى عشر. وفي عهد الأب بيرتولد ١٢٠٠-١٢٣٢ شب العديد من الحرائق فى الدير مما تسبب فى خسائر متكررة فى مجموعات المكتبة. ومن بين المقتنيات النادرة فى المكتبة كتاب **أغانى فينجارتن**[١] الشهير الذى صدر سنة ١٣٠٠م فى المنطقة القريبة من كونستانس واقتنته المكتبة سنة ١٦١٣م.

منطقة بافاريا[٢]

تم تنصير بافاريا فى القرن الثامن على يد رهبان واعظين أيرلنديين وأنجلوساكسون وفرنكيين. ولقد قسم بونيفاس الأنجلوساكسونى الكنيسة البافارية الشابة - التى كان البابوات واللومبارد والغوط الغربيون قد سيطروا عليها سياسياً - إلى دوقيات: سالزبورج، فرايسنج، باساو، رجنزبرج وأتبع المنطقة كلها إلى الحاضرةماينز؛ كما فعل ذلك أيضاً مع إيخشتات وفيرزبيرج اللتين أنشأهما إنشاءً. وبهذه الطريقة نما التأثير الفرنكى نمواً كبيراً فى بافاريا التى كانت منذ سنة ٥٥٥م تعتمد على الامبراطورية الميروفنجية. وفى ذلك الوقت كانت الأديرة الهامة قد تم إنشاؤها على يد دوقات **أجيلفينج**[٣]. وبعد سقوط الدوق **تاسِّيلو الثالث البافارى سنة ٧٨٨م**[٤] والذى كان قد أنشأ أديرة كثيرة قام شارلمان برفع بافاريا إلى مستوى مقاطعة الكنيسة المستقلة وجعل من سالزبورج مقر كبير الدوقات فى سنة ٧٩٨م. ومن ذلك الوقت فصاعداً شقت الثقافة الكارولنجية طريقها إلى الكاتدرائيات والأديرة فى بافاريا.

ولقد دمر الهجوم المجرى تلك الآمال الوليدة فى بداياتها. ولم تنشأ المكتبات فى بافاريا إلا فى العهد الأوتونى.

سالزبورج[٥]

يعزى إنشاء المكتبة فى سالزبورج إلى الباحث الأيرلندى فيرجيل

---

(١) Weingartener Leider handschrift

(٢) Bavaria

(٣) Agilfing

(٤) Tassilo III of Bavaria

(٥) Salzburg

٧٤٧-٧٨٤م؛ الذى أعد كتاب الدير عن: **سياسات الأديرة**[1]. وأوقف على الدير كتاب الأناجيل بخط إنسولار الذى أعده كوثبيرت. وربماكان كتاب **(العالم)** لـ: **آيثيكوس إيستر**[2] الذى ترجمه جيروم من اليونانية، من تأليف فيرجيل هذا ووضع عليه اسماً مستعاراً. وكانت كتب الشعائر أيضاً المنسوبة إلى **جون كريسستوم**[3] والتى كانت لها شعبية كبيرة فى العصور الوسطى متاحة فى سالزبورج وفرايسنج. وكان لمكانة خليفة فيرجيل، آرنو ٧٨٥-٨٢١، أثر كبير فى وضع المكتبة فى سالزبورج.

لقد كلف شارلمان آرنو بأن يدير دير سانت أماند فى منطقة الحدود الحساسة منذ سنة ٧٨٢م ولقد كان أميراً كنسياً ذا تعليم عال. وكان صديقاً مخلصاً لألكوين وقد وصلنا خطاب من ٣٤ حرفاً فقط موجهاً من ألكوين لأرنو، هذه الحروف القليلة، تكشف عن مدى تقدير الأب في تورز لأعمال صديقه البعيد فى الشرق فى سالزبورج. وهذه الصداقة والعلاقة مع ألكوين وتورز كانت مفيدة للمكتبة من حيث تبادل المخطوطات والباحثين بين الديرين. لقد سافر الرهبان من سالزبورج إلى تورز. وجاءت المخطوطات من تورز على سبيل الاستعارة والمقابلة فى النسخ. ولقد سافر **ويتو**[4] تلميذ ألكوين إلى سالزبورج للتدريس هناك سنة ٧٩٨م. ولقد قال **ألكوين** عن **أرنو** ذات مرة إنه ليس فقط يملك مكتبة كبيرة ولكنه أيضاً يسيطر على محتوياتها.

لقد أحضر أرنو كتباً معه من سانت أرماند إلى سالزبورج وكان حريصاً على تنمية مقتنيات المكتبة عن طريق النسخ المحلى. ومن سجل وفيات سالزبورج فى القرن الحادى عشر نجد معلومات تؤكد أنه نسخ فى المكتبة ١٥٠ كتاباً، كما يذكر السجل أن المكتبة كان فيها عدد كبير من كتب الكوين. وهذه المعلومات

---

(١) Virgil: Liber Confraternitatum

(٢) Aethicus Istre

(٣) John Chrysostom

(٤) Witto

تؤكد أن دير سالزبورج كان يضم منسخاً كبيراً كان يتم فيه نسخ المخطوطات وزخرفتها.

ولقد واصل خلفاء أرنو عمله، فيقال أن **آدالرام** ٨٢١-٨٣٦م[١] قد جلب إلى **لويس الألمانى**[٢] مخطوطة أوغسطين التى جلدت فيها قصيدة موسبللى. وكان لويس هذا من الأشخاص الذين طلبوا إلى المنسخ إعداد مخطوطات لحسابهم وحيث ازدهر المنسخ فى عهد لويفرام ٨٣٦-٨٥٩م[٣]. ولقد وصلتنا المخطوطات التى أعدها المنسخ لحساب مدرس **سالزبورج بالدو**[٤] فى منتصف القرن التاسع وهى موزعة الآن بين ميونيخ، و فيينا، جراز.

وكان لفصل الكاتدرائية عن دير سانت بيتر فى عهد الأسقف فريدريتش الأول ٩٥٨-٩٩١، أثره فى تقسيم المكتبة بينهما.

فرايسنج[٥]

كانت مدرسة كاتدرائية فرايسنج فى ظل الأسقف **آربيو** ٧٦٤-٧٨٤م - أقدم مؤلف فى بافاريا - هى أكثر مدارس الشرق الألمانى احتراماً. وقد جاء آربيو من **مايانو** بالقرب من **ميرانو** فى جنوبى **تيرول**[٦] وجلب معه آثار اللومبارد والرومان إلى فرايسنج حيث سادت قبل ذلك الثقافات الأيرلندية والأنجلوساكسونية والفرنكية. ومما يذكر أن **آرنو** و**ليدراو** قد أتما دراستهما هنا فى دير فرايسنج وهما أسقفا الحاضرتين سالزبورج وليونز وسارا على نهج أستاذهما فى إنشاء المكتبات فى الكاتدرائيات التى عملا بها. وكانت مدرسة الكاتدرائية فى فرايسنج تدرس أساساً قواعد اللغة، ويتضح ذلك جلياً من محتويات أقدم فهارس المكتبة هناك والذى وصلنا من مطلع القرن التاسع. ونجد فى هذا الفهرس كتاب قواعد اللغة

---

(١) Adalram

(٢) Louis the German

(٣) Liuphram

(٤) Baldo

(٥) Freising

(٦) Arbeo, Maiano, Mirano, Tyrol

الذى وضعه ألكوين ونجد الشرح الشهير **لإيركانبرت**[1] (المدرس والأسقف فى فرايسنج ٨٣٦-٨٥٤) على دوناتوس. وكذلك كتب النحو التى وضعها المؤلفون الوثنيون القدماء مع كتب فيرجيل والترجمة اللاتينية لهوميروس، كما نجد دواوين شعر كتبها شعراء مسيحيون. وكما هو الحال فى فهرس مورباخ نجد قائمة بتسعة عشر كتاباً «كلها نملكها ونستعملها» على حد تعبير الفهرس متبوعة بقائمة الكتب المرغوبة (التى لا نملكها بالفعل) على حد تعبير الفهرس أيضاً. ومن بين الكتب المرغوبة: المؤرخون جوزينوس وفريكولف ومارتيانوس كابللا وترنس؛ وفى نهاية الفهرس ورد ذكر لتاريخ وفاة ألكوين الذى كانت له مكانة كبيرة فى فرايسنج وفى سالزبورج.

ولم تكن مدرسة الكتابة فى فرايسنج تقل أهمية عن مدرسة الكاتدرائية. ولقد وصلنا عن منسخ الكاتدرائية أكثر من مائة مخطوطة وقطعة وكلها ترجع إلى الفترة الكارولنجية. كذلك وصلنا عدد كبير من المخطوطات التى اقتنتها كاتدرائية فرايسنج من المناسخ الأخرى أيضاً من الحقبة الكارولنجية وخاصة من منسخ سالزبورج. وقد وصلنا منها كتب أناجيل وكتب شعائر وطقوس.

إن إنتاج الكتب فى فرايسنج يمكن تتبع بداياته فى منتصف القرن الثامن، وفى تلك البدايات بل وحتى فى عهد الأسقف آربيو يمكننا أن نلحظ تأثيرات أنجلوساكسونية وكذلك تأثيرات قبل - وكارولنجية فى جنوب شرقى ألمانيا، لقد تمتعت المناسخ والمكتبات بدعم وتأييد من الأسقف هيتو ٨١١-٨٣٦م[2] والذى امتدح فى زمانه شعراً ونثراً لما أداه من خدمات جليلة للكنيسة والتعليم فى عهده. ونحن نعلم أنه قد أمر بنسخ مخطوطات كثيرة وصلنا منها نحو أربعين. كما عين لجاناً لتنقيح وتصحيح نسخ الكتاب المقدس.

وفى تلك الفترة أيضاً عرفت الأبجدية الأنجلوساكسونية فى فرايسنج.

---

(١) Erchanbert

(٢) Hitto

لقد قام الباحث والدو ٨٣٣-٩٠٦م وهو تلميذ نوتكر بالبولوس بنسخ العديد من الكتب وخاصة كتابات ألكوين. ويقال أيضاً أنه استعار الكتب من فيزنبرج وخاصة كتاب أناجيل دير أوتفريد الذى يفترض أن القسيس سيجيهارت هو الذى نسخه بين سنتى ٩٠٢-٩٠٥.

والمخطوطات التى وصلتنا من فرايسنج وأخذت إلى ميونيخ تكشف عن أهمية فرايسنج فى تاريخ الفكر والإنتاج الفكرى بطريقة أوضح مما تكشف عنه الوثائق القليلة المبعثرة. وأغلب تلك المخطوطات ترجع إلى الحقبة الكارولنجية. وقد احتفظت معظم المخطوطات بجلودها الأصلية والتى أعدت لها خصيصاً نحو سنة ١٠٠٠م فى ورشة التجليد التابعة لكاتدرائية فرايسنج.

باساو[١]

تؤكد المصادر القليلة المبعثرة عن باساو أن الأسقف **مادالوين**[٢] أوقف فى سنة ٩٠٣م على كاتدرائية باساو مجموعة كتبه القيمة. وقد تألفت هذه المجموعة من ٥٦ مجلداً. وتلقى محتويات هذه المجموعة الضوء على الحياة الفكرية الراقية الرحبة فى تلك الفترة الكارولنجية هذه المجموعة تنطوى على كتب لاهوتية؛ تراجم القديسين: من بين هذه التراجم ترجمة سانت سيفيرينوس، وهى ترجمة محلية كتبها إنجبيوس؛ وهناك أيضاً لوائح مجالس الكنائس المختلفة، قرارات شارلمان وخلفائه المتعلقة بالكنيسة؛ القوانين المدنية للبافاريين، والفرنكيين والألمان؛ الآداب واللغات وخاصة النحو والشعراء من بينهم فيرجيل وتعليقات سيرفيوس عليه؛ وقصص أفينوس (نحو سنة ٤٠٠)، وكتب بوثيوس مع شروحها.

من جهة ثانية قام الأسقف **بلجريم ٩٧١-٩٩١م**[٣] وهو متخرج من مدرسة **نيدرالتايخ**[٤] ببذل أقصى ما يستطيع لانعاش وتقدم أسقفيته. ولقد ألَّف قصيدة

---

(١) passau

(٢) Madalwin

(٣) Pilgrim

(٤) Niedraltaich

جعلته فى مصاف شعراء اللاتين، ويعتقد أنه كذلك هو مؤلف أغنية **نيبلونجز**[١] التى تعتبر قطعة من الأدب الألمانى العالى الوسيط، المكتوب باللاتينية والتى جعل قصيدة **الشكوى**[٢] المشار اليها تكملة لها.

إيخستات أوجزبرج[٣]

لو تتبعنا نشأة الدير فى هذه المنطقة على يد النبيل الأنجلوساكسونى سانت **ويليبالد**[٤] فلن نجد هناك أثر لأية مخطوطات كارولنجية فى دوقية إيخستات. وكل ما نستطيع قوله أن سيرة حياة سانت بونيفاس التى كتبها ويليبارد. وسير القديسين التى كتبتها **هوجبيرج**[٥] الراهبة فى **هيلدنهايم**[٦]، ربما تكون قد كتبت فى إيخستات أو فى دير قريب فى نفس المنطقة. ولكن الجسم الرئيسى للمخطوطات الكارولنجية التي تعكس يقيناً الأصول الأنجلوساكسونية التى لا نشك فى أنها كانت كثيرة فى مكتبات الكاتدرائية وفروعها والأديرة وفروعها، هذا الجسم الرئيسى للمخطوطات للأسف فقد ولم يصل إلينا.

وهناك من الدلائل ما يكشف عن أن مكتبة كاتدرائية أوجزبرج كانت مكتبة عظيمة كبيرة الحجم فمن هذه المكتبة استعار **فروموند من تجرنسى**[٧] بعض الكتب الكلاسيكية والتى كتب فروموند عنها كتابه: **الوفرة التى لاتنضب**[٨]. كذلك يتضح من المخطوطات التى وصلتنا قدرة المنسخ الذى كان موجوداً فى الكاتدرائية على الإنتاج الراقى الجيد على النحو الذى نشاهده فى كتاب الأناجيل الذى كتبه الأسقف **هانتو**[٩] (٨٠٩-٨١٥ تقريباً). هذا الإنجيل المكتوب بماء الذهب والفضة

---

(١) Nibelungentied

(٢) Die Klage

(٣) Eichstatt - Augsburg

(٤) Willibold

(٥) Hugeburg

(٦) Heildenheim

(٧) Froumund of Tegerensee

(٨) Inexhausta Abundance

(٩) Hanto

والمزخرف بالمنمنمات من الواضح أنه القطعة الوحيدة التى وصلتنا من المجموعة القديمة فى الكاتدرائية والتى نجت من تخريب الدوق **ولف الثانى** سنة ١٠٢٦م(١). أما الأشياء الأخرى فى مجموعات الكاتدرائية فإنها ربما تكون قد كتبت جزئياً فى أوجزبرج فى أوقات متأخرة وربما تكون جزئياً قد جمعت من أماكن أخرى. وتشير فهارس ١٠٦٣ و ١٠٩٦م الى نوع من الاستمرارية فى المجموعة إلا أن هذه الفهارس للأسف لاتسجل إلا الكتب اللاهوتية فقط.

وإلى جانب مكتبة الكاتدرائية كانت مجموعة كتب الأسقف برونو ١٠٠٥-١٠٢٩م ذات شهرة خاصة فى أوجزبرج. وقد وضعت هذه المجموعة فى الدير البندكتى **سانت أولرخ**(٢). وكانت به كاتدرائية فرعية يعيش فيها رهبان من تجيرنس. وقد تجمعت فى سانت أولرخ مجموعة ضخمة من المخطوطات من خلال النشاط المحموم للمنسخ فى مكتبة الدير. وقد وصلتنا المجموعات الأولى التى جمعها أول آباء الدير **ريجنبالد** ١٠١٢-١٠١٥م(٣) والذى جاء من سانت جال إلى هنا. كما أرسل الأب سيجيهارد (المتوفى ١٠٩٤م) أحد الرهبان إلى أسبانيا للبحث عن مقتنيات القديسين وسير حياتهم.

لقد كانت أوجزبرج أو ما حولها مقراً لأحد المناسخ الباكرة فى حوالى ٨١٤م. وقد أنتج فيه كتاب الصلوات الشهير: **صلوات فيزوبرون**(٤). وهو واحد من أوائل الكتب التذكارية المكتوبة باللغة الألمانية. وهنا أيضاً كتبت حوليات **جلفر بايتانى**(٥). كما وصلنا أيضاً كتابان من كتب الاعترافات باللغة الألمانية العليا القديمة.

---

(١) Welf II

(٢) St. Ulrich

(٣) Reginbald

(٤) Wessobrunner Gebet

(٥) Guelferbytani Annals

نيدرالتايخ[١]

توفر على إنشاء دير نيدرالتايخ فى دوقية باساو، الدوق البافارى **أوديلو** سنة ٧٤١م[٢]، بإيعاز من بيرمين، وقد سكنه رهبان من ريشيناو. ولما كان ذلك كذلك فإن المكتبة والجو الفكرى العام قد اصطبغا بصبغة ريشيناو على بحيرة كونستانس ونقلت تلك الصبغة وزرعت فى الدير على نهر الدانوب. وكان للعلاقة الحميمة بين الديرين أبلغ الأثر فى تنمية المكتبة والمنسخ فى الدير الجديد. وربما يكون **إيبرزوند**[٣]، أول آباء الدير هو مؤلف (قوانين البافاريين)[٤] بناء على أوامر من الدوق أوديلو والامبراطور بيبين. وفى عهد الأب **أوتجار** و الأب **نجوزبالد**[٥] ـ وهذا الأخير كان أول رئيس ديوان الملك لويس الألمانى ـ صدرت عن المنسخ مخطوطات مزخرفة وجميلة للغاية.

وبعد سلسلة متعاقبة من الانهيارات والانتكاسات خلال الاحتلال المجرى، قام الأب **جودهارد** ٩٩٦-١٠٢٢م[٦] بتجديد الحياة الديرية ورفع مستوى التدريس والتدريب وطبقاً لحوليات الدير ارتقى بالمدرسة إلى مستويات جديدة لم تعرفها من قبل، وغرس فى الدير حياة ثقافية وفكرية جديدة. لقد كانت جهود **جودهارد** وإصلاحاته فى دير هنرى الثانى ذات أثر فعال فى دفعه إلى الأمام. وقام الرجل أيضاً بجهود مماثلة فى دير تجرنسى (١٠١١م، وفى هيرسفيلد ١٠٠٥م) وأنهى حياته الدينية خليفة للأسقف بيرنوارد فى دير هيلدشايم ١٠٢٢-١٠٣٨م. وقد أسفرت جهود جودهارد الفكرية عن رفع المستوى العام للمخطوطات المنتجة هناك والارتقاء بنوعيتها. وكان جودهارد فى شبابه قد جمع عدداً كبيراً من الكتب

---

(١) Neidraltaich

(٢) Odilo

(٣) Eberswind

(٤) Lex Baiuvariorum

(٥) Otgar; Cozbald

(٦) Godehard

اللاهوتية والفلسفية. وقد نسخ بخط يده ضمن أعمال أخرى نسخة جميلة من الكتاب المقدس على رق أعده بنفسه من جلود الحيوانات.

بندكتبيرين(١)

توفرت أسرة **هوسى**(٢) الأرستقراطية على تأسيس دير بندكتبيرين، والذى كرسه سانت بونيفاس للمذهب سنة ٧٥٢م، وقد دمره المجريون سنة ٩٥٠م. وقد أفلتت مجموعة المخطوطات من الدمار، وقد نمت بعد ذلك نمواً كبيراً فى منتصف القرن الحادى عشر وذلك عن طريق الإضافات المتعددة من مجموعات الراهبات فى دير **كوشل**(٣) الذى دمره المجريون أيضاً والذى كان مجاوراً لدير بندكتبيرين. وكانت بين الديرين روابط وعلاقات وثيقة. والمخطوطات التى جاءت إلى هذا الدير من كوشل كانت عبارة عن هدية من الأميرة الفرنكية **كيسيلا**(٤). وهذه الهدية موثقة فى احدى الوثائق الصادرة عن الأميرة. وإن كان البعض يرى أن هذه الوثيقة من وثائق القرن الحادى عشر المزورة.

وإذا قارنا المقتنيات الحالية فى مكتبة الدير بالفهارس التى وصلتنا عنها من القرن الحادى عشر فإننا سوف نكتشف أن الخسائر والمفقودات كبيرة. ومع هذا فقد نجح **برنارد بيشوف**(٥) فى تتبع تطور الخط المستخدم فى منسخ هذا الدير من مجموعة المخطوطات التى وصلتنا هذه.

وقد زعم دير بندكتبيرين أنه تلقى هدية من شارلمان عبارة عن نسخ من أهم الكتب المقتناة فى المكتبة الامبراطورية بالبلاط وذلك فى عهد الأب **إيليلاند**(٦)، ومن بين هذه النسخ كتاب تعاليم سانت بندكت. إلا أن هذا الزعم فيما ذهب **كارل كريست** لم يقم عليه دليل حتى الآن. وإن كانت المجموعات الأولى التى

(١) Benedictbeuren
(٢) Housi
(٣) Kochel
(٤) Kisyla
(٥) Bernard Bischoff
(٦) Eliland

كونها الأب **لاندفرد** أول آباء الدير[1] وتدعيمها عن طريق المنسخ الرائع فى الدير، كلها أمور تشى بشئ من حقيقة هذا الزعم.

فيزوبرون[2]

قام الدوق تاسِّيلو سنة ٧٥٣م بإنشاء دير فيزوبرون وجلب له الرهبان من نيدرالتايخ، إلا أن المجريين دمروه سنة ٩٥٥م. وقد قتل الأب وستة من الرهبان فى هذا الهجوم.

ومن ثم فقد توقف هذا الدير عن العمل حتى القرن الحادى عشر حين أعاد إعماره وسكنه رهبان من ريجنزبرج وتجرنسى.

والحقيقة أن مكتبة الدير والتى ترجع إلى الحقبة الكارولنجية لم ينقل منها شئ ووصلتنا على حالها. والقطعة الثمينة المعروفة باسم «**صلوات فيزوبرون**» والتي ترجع إلى سنة ٨١٤م، وكذلك كتاب الأناجيل الجميلة الخط، وصلتا إلينا فى هذه المكتبة ويقال إنهما أنتجتا فى الدير الذى فى دوقية أوجزبرج.

تجرنسى (بحيرة تيجرن)[3]

أنشئ دير تجرنسى - دير سانت كويرينوس[4] - بين سنتى ٧٥٦-٧٦١م على يد الكونت **أدالبيرت** والكونت **أوتكار من عائلة هوسى**[5] المشار إليها سابقاً. وقد تفوق هذا الدير على كل أديرة بافاريا. وبسبب الدعم والتأييد المستمر من جانب الحكام الكارولنجيين، أصبح هذا الدير واحداً من أهم الأديرة فى كل الامبراطورية. وقد أعاد الامبراطور أوتو الثانى بناء الدير سنة ٩٧٨م ولم يلبث الدير أن تجاوز محنة التدمير التى لحقت به من جراء الغزو المجرى؛ وعملية العلمانية التى قام بها الدوق أرنولف. وقد استدعى هذا الدير آباء من ذوى

(١) Landfrid

(٢) Wessobrunn

(٣) Tegernsee

(٤) Quirinus

(٥) Adalbert; Otkar

المكانة والكفاءة فى دير سانت ماكسيمين ودير سانت إميرام، .وقد جاءوا ومعهم خلفية ثقافية عالية وخبرة فنية راقية فى إنتاج الكتب.

ولم تصلنا من مخطوطات الفترة الكارولنجية من هذا الدير سوى مجموعتين أو ثلاث مجموعات صغيرة، أنتجتها مدرسة الكتابة التى كانت موجودة فى ديرتجرنسى هذا. وماعدا ذلك فقد دمر جميعه إما على يد المجريين أثناء غزوهم للدير أو بسبب الحوادث المؤسفة التى لحقت تباعاً بهذا الدير على مر القرون. وأقدم مجموعة المخطوطات التى وصلتنا منذ زمن **تاسيلو** كتبها ناسخ اسمه دومينيكوس.

وقد وصلتنا مجموعة مخطوطات قليلة من هذا الدير من تلك التى اقتنتها المكتبة من مصادر خارجية من بينها قطعة من فيرجيل ترجع إلى القرن الثامن الميلادى، ومجموعة **الصلوات والشعائر الرسمية فى باساو**(١)، ومجموعة شروح باللغة الألمانية العالية القديمة، وتقويم بالخط الأنجلوساكونى يرجع إلى النصف الأول من القرن الثامن والذى ربما يكون مستخدماً فى تجرنسى أو فى الدير القريب منه فى إلمونستر(٢) فى القرن التاسع فى سجل الوفيات؛ وإلى جانب هذه المخطوطات هناك إعلانات ومنشورات من شارلمان؛ قرارات مجالس محلية؛ وكتابات أخرى خاصة.

ومنذ بداية نشأة هذا الدير كان دعم الفكر والنشاط الأدبى مسألة أساسية فيه. وفى عهد الأب جوزبيرت ٩٨٢-١٠٠١م، والأب بيرنجر ١٠٠٣-١٠١٢م عين الراهب فروموند سابق الذكر فى ديوان الدير وفى أثناء عمله هناك توفر على تجميع كتاب الخطابات سواء تلك التى توافرت له فى الديوان أو من مصادر خارجية وأضاف إليها بعض شعره مما جعل من كتابه هذا وثيقة هامة عن الحياة الفكرية فى هذا الدير والمنطقة المحيطة به وتكشف عن علاقاته الفكرية مع ريجنزبرج، أوجزبرج، فيرزبرج وكذلك تكشف عن النشاط المحموم الجم

(١) Passau Formelsammlung

(٢) Ilmmünster

للمنسخ فى تجرنسى. وكانت طلبات الكتب ترسل وتستقبل من قبل مكتبة الدير، كما كانت طلبات الرقوق كثيرة وهامة أهمية المخطوطات نفسها.

وكان آباء الدير أنفسهم يشاركون فى البحث عن أصول ينسخونها. وقد كتب الأب جوزبيرت إلى كل مكان تقريباً يطلب الجزء الثالث من **التاريخ الثلاثى**[١] والذى لم يكن موجوداً فى تجرنسى.

كما كتب أيضاً إلى الأب **راموولد**[٢] فى سانت إميرام يطلب منه **مجموع كاسيان**. كذلك كان هناك نقص فى نسخة الدير من هوراس كان السبب فى مراسلات متواصلة كتبها الأب فروموند إلى ريجنزبرج، وكذلك الأب جودهارد الذى عين مصلحاً لفترة محدودة فى الدير ١٠٠١-١٠٠٢م، كتب إلى ديره فى ألتايخ يطلب رسائل شيشرون.

وكان التأكيد على أن المخطوط المستعار يجب أن ينسخ فى الحال ويعاد بأسرع مايمكن دون أى تشويه، كان الهدف منه اكتساب ثقة أصحاب المخطوطات، ولكن يبدو أن هذه القاعدة لم تتبع دائماً. وقد رأينا أن الصديقين المثقفين فروموند وريجنبالد فى دير سانت إميرام كانا يعملان معاً فى تعاون تام. وقد قام فروموند بالإضافة إلى عمله فى الديوان والمدرسة بنسخ العديد من المخطوطات بنفسه سواء فى دير تجرنسى أو فى غيره من الأماكن، وذلك لأن النسخ كان متعته الخاصة. ولذلك كتب إلى **فيختوانجن**[٣] يطلب رقوقاً. وقد أحضر فروموند معه من دير بانتاليون في كولون كتب بوثيوس وشروحها والتى كان قد نسخها مرتين هناك فى كولون. وكان يعتزم مبادلة النسخة الثانية باستعارة أعمال جوفينال وبيرسيوس من أوجزبرج.

ومن بين خطابات فروموند نجد رسالة غاضبة إلى صديق له يطلب فيها كتاب بوثيوس الذى استعاره منه ورده إليه فى حالة قذرة سيئة وممزقة وقد ضاع منه

---

(١) Historia Tripartita

(٢) Ramwold

(٣) Feuchtwangen

الورقتان الأوليان. لقد كان فرموند نموذجاً مشرفاً لكل الناس سواء للناسخين فى الدير أو للطلاب والرهبان الذى تعاملوا معه. وفى كتاب شروح **ريميجيوس على كتابات سيدوليوس**(١) نجد حرد المتن الآتى:

«أنا فروموند بدأت فى نسخ هذا الكتاب الصغيرة، ولكن أولادنا، الذين تعلموا على يدى أتموا نسخه رغبة منهم فى مد يد المساعدة لى».

كريمزمونستر(٢)

أسس هذا الدير على يد الدوق **تاسِّيلو** سنة ٧٧٧م(٣)، وقد عمره رهبان من **موندسى**(٤). وقد أضفى عليه شارلمان صفة الدير الامبراطورى. وكان **فاتربريسنج** أول آباء هذا الدير(٥) وهو دوق سابق قد انحدر من أسرة **بريسينج** الأرستقراطية البافارية مثل معاصره الأسقف آرنو فى سالزبورج. ولم تصلنا مخطوطات من الوقت الباكر لإنشاء الدير. وقد كان للغزو المجرى آثار مدمرة تماماً للدير ومكتبته التى كانت قد بلغت درجة عالية من الازدهار والنمو في القرن التاسع.

ولكن بعد مائة سنة من هذا التخريب قيض الله لهذا الدير أباً جديداً سنة ١٠١٣م هو الأب **سيجمار**(٦)، الذى استدعى إليه من وظيفته فى دير **نيدرالتايخ** سابق الذكر.

وقد بدأ الأب الجديد فى إعداد حصر بالكتب. وكل ماوجده فى الدير مجرد ستين مخطوطة. ومن بين هذه الستين مخطوطة نجد ثلاثة على الأقل ترجع إلى القرن العاشر وثلاثة من مطلع القرن الحادى عشر وقد وصلتنا جميعاً كاملة. كما وصلتنا قطع من اثنتى عشرة مخطوطة من القرن التاسع. وهذه المخطوطات

(١) Remigius - Sedulius

(٢) Kremsmünster

(٣) Tassilo II

(٤) Mondsee

(٥) Fater - Preysing

(٦) Sigmar

جميعاً مما أنتج داخل الدير، إضافة إلى مخطوطات أخرى من القرن التاسع جلبت إلى الدير من مواقع أخرى واقتنيت فى مكتبته. وأقدم هذه المخطوطات الخارجية قطع من كتاب الأنبياء ترجع إلى زمن الأسقف آرنو من دير سالزبورج، ويرجح أنها كتبت قبل سنة ٨٠٠م. وهناك أيضاً قطع مزخرفة ومصورة من كتاب الأناجيل الأربعة، من القرن التاسع وتتضمن صوراً شخصية للشخصيات الإنجيلية. وهذه النماذج تكشف عن وجود علاقات وثيقة بين دير كريمزمونستر وسالزبورج وموندسى. وقطع الأناجيل الأربعة المشار إليها أقدمها كتبت فى منتصف القرن التاسع فى مدرسة فرايسنج وتشتمل إضافة إلى الأناجيل الأربعة على تقديم، ونسخ من بعض الوثائق وملاحظات تاريخية.

وفى عهد الأب سيجمار فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر تمتعت المكتبة بفترة من الازدهار والتقدم. وفى نهاية القرن الحادى عشر قدم إلى الدير الأب **ديتريتش**(١)، وهو من أتباع حركة إصلاح هيرساو، ومعه عدد من الرهبان من جورزى فى اللورين. وقد أحدث تقدماً هائلاً فى عمل المنسخ فى القرن الثانى عشر.

موندسى(٢)

يعتبر دير موندسى فى النمسا العليا هو أقدم الأديرة البندكتية على الأرض النمساوية. وقد أسسه الدوق **أوديلو**(٣) سنة ٧٤٨م وقد عمره رهبان من مونت كاسينو، ومنذ سنة ٨٣١م أصبح تابعاً لدوقية ريجنزبرج. وقد وصلتنا قطع من ترجمات الأناجيل باللغة الألمانية العليا القديمة، وغير ذلك من النصوص من الفترة بين ٧٩٠-٨٢٠ بالإضافة إلى شروح وتعليقات باللغة الألمانية العليا القديمة من القرن العاشر. وهى جميعاً أنتجت فى دير موندسى هذا. وقد وصلتنا بعض

---

(١) Dietrich

(٢) Mondsee

(٣) Odilo

الوثائق التى تشير إلى أن **لويتولد**[1] كان يعمل فى هذا الدير فى منتصف القرن الثانى عشر مؤلفاً، وشاعراً ورساماً.

وقد بلغت مجموعات الكتب في مكتبة الدير فى نهاية العصور الوسطى أكثر من ۹۰۰ مخطوطة منها ٥٩١ مخطوطة مؤرخة فى القرن الخامس عشر. ولكن هذه المخطوطات تشتت وتبعثرت وقد وصل جانب كبير منها إلى المكتبة الوطنية فى فيينا. ولم يصلنا فهرس لهذه المكتبة حتى الآن من العصور الوسطى. وكل معلوماتنا عن هذه المكتبة ترجع إلى القرن الخامس عشر وحده.

ريجنزبرج

كان موقع هذا الدير فى البداية معسكراً للجيش الرومانى. ثم أصبح العاصمة الإدارية للحكام البافاريين. وباعتبارها مقر آخر الكارولنجيين فقد غدت ريجنزبرج بسرعة مركزاً للحياة الدينية والفكرية فى بافاريا.

وفى بداية القرن الثامن شيد دير فى المكان الذى دفن فيه المبشر إميرام وسمى باسمه. وقد وصلتنا من مكتبة هذا الدير قطع من مخطوطة طبية مكتوبة من القرن السابع، وكتاب شعائر من بداية القرن الثامن وقطع من مؤلفات سيدوليوس وكلها جلبت إلى مكتبة الدير من الخارج. أما أقدم مخطوط وكتب فى منسخ الدير فإنه يرجع إلى منتصف القرن الثامن.

ويمكننا أن نتلمس فى خط ريجنزبرج خصائص أنجلوساكسونية وإيطالية من العصر الكارولنجى وقبله. ولذلك نفتقد التجانس والانسجام والاتساق فى خطوط الكتب قبل القرن التاسع الميلادى. وتذكر المصادر أن الأسقف الأب **باتوريتش** ۸۱۷-٨٤٧م[2] مستشار **لويس الألمانى**[3]، قام بحركة إصلاح للكتابة والخطوط واسعة النطاق آنذاك. وفى ذلك الوقت أيضاً كان **الخط الترونى**[4]

(۱) Liutold

(۲) Baturich

(۳) Louis the German

(٤) Nota Tironianae

الذى اشتق فى دير سانت إميرام نتيجة للعلاقة الوثيقة بمكتب المستشار الامبراطورى، مستخدماً أيضاً هناك. وقد بذل باتوريتش جهداً كبيراً ليرفع من قدر هذا الدير ومكانته. وإن لم يكن هو المؤسس الفعلى للمكتبة فإنه قد قام بالكثير من أجل إنعاشها وتقدمها. وقد جلب إلى هذه المكتبة الكثير من الكتب التى نسخت فى دير فولدا سابق الذكر؛ حيث أرسل باتوريتش بعض الرهبان الموهوبين للدراسة فى مدرسة ذلك الدير الشهيرة.

ولقد أسفرت محاولات باتوريتش الناجحة لإدماج دير موندسى فى النمسا العليا المشار إليه فى دوقيته ريجنزبرج سنة ٨٣١م عن نتائج هائلة فى إنتاج الكتب فى المنسخين الموجودين فى موندسى وريجنزبرج على السواء. وبينما وصلنا من هذا الدير ستون مخطوطة ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع، فإنه لم يصلنا من النصف الثانى من القرن التاسع سوى عشرة مخطوطات فقط كتبت فى هذا الدير. وإذا كانت تلك نتيجة طبيعية فإننا نستنتج منها أن نشاط النسخ فى منسخ الدير فى تلك الفترة قد تقلص. وهى ظاهرة عامة لوحظت فى كل الأديرة في جنوب شرقى ألمانيا. ومن الممكن أن يكون هناك فتور عام بدأ فى النشاط الفكرى فى المنطقة آنذاك.

ومن الجدير بالذكر أن لويس الألمانى الذى جعل مقامه فى ريجنزبرج قد قام بإهداء العديد من الكتب للدير، كما قام بإحلال الراهب **جوندبيرت**[1] الناسخ فى دير سانت إميرام محل الإكليرى **إيليفاس**[2] فى ديوانه العام.

ولقد تواكبت إدارة الأب **راموولد** للدير ٩٧٥-١٠٠٠م[3] والذى استدعى من دير سانت ماكسيمين فى ترير، لإصلاح دير ريجنزبرج، مع تعيين الأسقف **ولفجانج ٩٧٢-٩٩٤م**[4] فى ريجنزبرج؛ مما جعل هذه الفترة من أزهى الفترات

(١) Gundpert

(٢) Elefas

(٣) Ramwold

(٤) Wolfgang

فى تاريخ الدير. إذ كان الأب راموولد يعتبر الكتب أهم مقتنيات الدير، حيث قال فى تعاليمه إن المعلومات الموجودة فى الكتب هى أهم معلم للبشرية جمعاء. وقد أنشأ الأسقف ولفنجانج قاعة مطالعة كبيرة فى الدير فى بداية تعيينه كما أنشئت مكتبة من الطراز الأول فى الدير فى عهد **ريجنبالد**(١). وقد وصلنا فهرس للمكتبة من تلك الفترة يسجل ٥١٣ مخطوطة. وقد عمل ريجنبالد بلا ملل أو تعب لزيادة مقتنيات المكتبة. وقد كان معروفاً بين معاصريه بنهمه وجوعه إلى الكتب. ولم نجد فى تلك الفترة إلا عدداً محدوداً من الكتب الكلاسيكية مما يشير إلى صرامة القواعد التى كانت متبعة فى إقتناء الكتب فى ريجنزبرج.

ولم تصلنا وثائق أو سجلات عن مكتبة الدير فى عهد هنرى الثانى، رغم ازدهار عملية زخرفة وتصوير المخطوطات التى وصلتنا منه ودعم الامبراطور المتواصل للمكتبة فى ذلك الوقت.

بامبرج

قام الامبراطور هنرى الثانى بالإغداق على المؤسسة الدينية التى أسسها فى بامبرج بكرمه الامبراطورى. كما قام بتقديم كتب العبادة الخطية الجميلة إلى الكنائس وخاصة الكاتدرائية التى أسسها سنة ١٠١٢م. وقد جلب الكتب لها من أحسن مناسخ ذلك الوقت وخاصة من ريجنزبرج وريشيناو وقد زخرفت وزينت ببذخ شديد بنفس مستوى مخطوطات مكتبة الامبراطور نفسه. وإلى جانب مكتبة الدير كان للكاتدرائية مكتبتها الخاصة التى قدم لها الامبراطور بعض الكتب مما خلفه له أسلافه وخاصة الامبراطور أوتو الثالث. ومن مجموعة أوتو الثانى حصلت المكتبة على نسخة من المزامير التي أمر الامبراطور بنسخها له فى منسخ سانت جال فى عهد الأسقف الأب سالومون الثالث. ومن الصعب تحديد أى الكتب فى تلك المكتبة كانت ملكاً شخصياً للامبراطور هنرى الثانى نفسه.

وتكشف المجموعة الرئيسية فى مكتبة بامبرج عن أن الامبراطور أراد أن يمثل

(١) Reginbald

فيها كل ثقافة وفكر مملكته بكل أبعادها: ألمانيا، إيطاليا، فرنسا. وكل هذه الثقافات كانت موجودة فيها. فقد جمع الامبراطور فى رحلاته إلى روما المخطوطات الإيطالية سنة ١٠٢٢م، وكذلك جمع المخطوطات من تورز وريمز. كما جاءت المخطوطات من دير كلونى فى برجنديا، ومن الأديرة البلجيكية فى **لوبز و ستابلو** وكذلك من الدير النورماندى فى **جوميجز**[١] ومما يلاحظ على مكتبة بامبرج أنها رغم غناها وثرائها فإن عدداً قليلاً من الكتب بها هو الذى تم إنتاجه فى منسخها.

وإلى جانب كاتدرائية بامبرج فقد قام هنرى الثانى بإنشاء دير **ميشلزبرج**[٢] سنة ١٠١٥م وأهدى مكتبته كتاب تعاليم سانت بندكت وسانت كولومبان وكتاب **الشهداء** الذى ألفه **بيديه**[٣] الذى نسخ للامبراطور خصيصاً فى دير **سيوون فى كياميسى**[٤].

منطقة ساكسونيا[٥]

تعتبر ساكسونيا موطن أسرة الأوتونيين وقد تنافست مع بافاريا فى الهبات والعطايا الامبراطورية. وفى خلال تلك الفترة تطورت حياة فكرية وثقافية غنية، دعمتها المناسخ والمكتبات فى الأديرة والكاتدرائيات هناك.

ساكسونيا الشرقية

كانت مدرسة الكاتدرائية فى **مجدبرج**[٦] التى كان يدعمها الامبراطور أوتو الأكبر بسخاء شديد، أعظم المراكز الثقافية هناك ولفترة طويلة. ولقد تلقت الصفوة الساكسونية تعليمها هناك فى ظل مديرها **أوهتريك**[٧] (توفى ٩٨١م)؛

---

(١) Lobbes, Stablo, Jumiéges

(٢) Michelsberg

(٣) Bede, Martyrologium

(٤) Seeon - Chiemsee

(٥) Saxony

(٦) Magdberg

(٧) Ohtric

والذى اعتبره معاصروه (شيشرون الجديد) وتكشف سيرة تلميذ أوهتريك العظيم **آدالبرت من براغ**(١) أن المدرسة كانت تؤمها حشود من التلاميد وكانت بها مكتبة جيدة كبيرة. وكان الرئيس **والتهارت**(٢) ٩٨٤-١٠١٢م يمتلك مجموعة خاصة من الكتب الدينية والعلمانية على السواء تبددت بعد وفاته. وقد تحدث أيضاً عن المدرسة والمكتبة **تيتمار من ميرزبرج**(٣) الذى تعلم فى تلك المدرسة وكتب عن المكتبات فى ميرزبرج.

والحقيقة أننا لا نعرف الشئ الكثير عن بدايات المكتبات فى كاتدرائيات **هالبرشتادت؛ كويدلنبرج؛ ميرزبرج؛** ولاعن **دير بيرج**(٤) بالقرب من مجدبرج. وكان هناك أيضاً العديد من الأديرة الصغيرة مثل هيرفورد الذى أسس سنة ٨٢٢م والذى يرجع إلى مؤسس دير كورفى والذى يعتبر هيرفورد الدير الإبن له؛ ومثل دير جاندرشايم الذى أسسه لويدولف سليل الأسرة الأوتونية سنة ٨٥٢م وكويدلنبرج ونوردهاوزن اللذين أسستهما الملكة ماتلدة. ومن بين الذخائر التى شقت طريقها إلى هذه الأديرة؛قطع من مخطوط مزخرف فى ديركويدلنبرج يرجع إلى القرن الرابع الميلادى وهو مخطوط إيطالى مسيحى. ومخطوطة كلاسيكية مزخرفة أيضاً معروفة باسم **حوليات رافينا**(٥) والتى تعزى إلى مجدبرج، ومخطوطتان أيضاً فى دير كويدلنبرج بالخط الترونى. ومخطوطات أيضاً من ديرفولدا استقر بها المقام فى كورفى ومجدبرج وميرزبرج وكذلك مخطوطة **«الأشياء الطبيعية» لمؤلفها رابانوس ماوروس**(٦)؛ الذى أهداه المؤلف لصديق شبابه المثقف هيامو أسقف هالبرشتادت ٨٤٠-٨٥٣م؛ الذى أسس كاتدرائية تلك المدينة. إن هجرة هذه المخطوطات نحو الشرق تكشف عن وجود انتقال مباشر

---

(١) Adalbert of Prague

(٢) Walthart

(٣) Thietmar of Merseburg

(٤) Halberstadt; Quedlinburg; Merseburg Berge

(٥) Annales Ravennates

(٦) De rerum naturis / Rabanus Maurus

للكتب إلى المناطق المتنصرة حديثاً فى الشرق الأوربى والتى كونت المجموعات الأولى فى مكتبات تلك المناطق، والتى أدت أيضاً إلى نمو المناسخ وازدهارها وقدرتها الفائقة فى سنة ٩٥٠م على إنتاج كتاب الأناجيل الرائع الموجود الآن فى مكتبة مورجان.

هيلدشايم[١]

من خلال الجهود التى بذلها الأسقف **بيرنوارد** ٩٩٣-١٠٢٢م[٢]، ارتفع شأو دير هيلدشايم بحيث أصبح أهم مركز ثقافى وفنى فى ساكسونيا الوسطى. لقد قدم **بيرنوارد** الشئ الكثير للكنائس فى دوقيته ولم يقل عطاؤه كذلك للمدرسة والمنسخ والمكتبة فى الكاتدرائية. لقد أنشئت مكتبة الكاتدرائية على يد الأسقف **أتوين** ٩٥٤-٩٨٤م[٣] والذى صحب أوتو الأكبر إلى إيطاليا ٩٦٢م وعاد بكتب كثيرة دينية وعلمانية. وكان أول أمناء هذه المكتبة هو **ثانجمار**[٤] مدير مدرسة الكاتدرائية. وكان فى نفس الوقت معلم بيرنوارد. وعاش بعد تلميذه وكتب سيرته المنهجية الرائعة. كتب ثانجمار عن تلميذه يقول «لقد أسس بيرنوارد المنسخ ليس فى الكاتدرائية وحدها ولكن فى أماكن أخرى وجمع مكتبة كبيرة ليس فى العلوم الفلسفية (العلمانية) وحدها وإنما أيضاً فى العلوم اللاهوتية». وللأسف شب حريق دمر جانباً كبيراً من المكتبة سنة ١٠١٣م. ولقد كان الأسقف بيرنوارد يضع أهمية خاصة على الجوانب الجمالية والفنية فى الكتب. وعلى حد تعبير كارل كرست «لم يكن يسمح بأن يهمل الجانب التصويرى فى الكتب» وينطبق ذلك أيضاً على الشكل الخارجى للكتاب على نحو ما يتضح من كتاب الأناجيل الذى أنتج لحساب الأسقف فى كاتدرائية هيلدشايم.

---

(١) Heldesheim

(٢) Bernward

(٣) Otwin

(٤) Thangmar

لقد كانت هناك كذلك مكتبة فى دير سانت مايكل الذى أسسه بيرنوارد سنة ١٠١٥م. وقد قدم ثانجمار لهذه المكتبة خمسة وخمسين كتاباً.

ولقد أصبح **جودهارد**[١] الأب فى دير نيدرالتايخ أعظم خليفة لأسقف هيلدشايم العظيم ١٠٢٢-١٠٣٦، واستمر فى دعم فنون الكتاب كما فعل سلفه العظيم.

بادربورن[٢]

قام **ماينفيرك**[٣]، تلميذ بيرنوارد فى هيلدشايم باحتذاء أستاذه فى بادربورن الذى تولى العمل فيه بين ١٠٠٩-١٠٣٦م. لقد أسس المدرسة التى حازت قصب الشهرة تحت إدارة الأسقف **إيماد** (عماد)[٤] ١٠٥٧-١٠٧٦م والقانونى **ثيوديريك**[٥] تلميذ لانفرانك. لقد قامت المدرسة بتعليم العلوم الكلاسيكية **والعلوم الرباعية**[٦] (الحساب ـ الهندسة ـ الفلك ـ الموسيقى) كما سعى إلى جمع كتبها ونسخها. لقد أثرى إيماد مكتبة الكاتدرائية بالمخطوطات الثمينة ومن بينها كتب أفلاطون وفيلو. ولقد اهتم اهتماماً خاصاً بتصوير المخطوطات وزخرفتها. ويمكننا أن نرى أسلوب بادربون في زخرفة المخطوطات فى كتاب الأناجيل الذى أنتج فى الكاتدرائية وفى دير **أبدنجهوف**[٧] الذى أسسه ماينفيرك سنة ١٠١٥م. وكانت المكتبة فى أبدنجهوف تنافس مكتبة الكاتدرائية بفضل دأب الرهبان فى نسخ الكتب وكان نتيجة ذلك قدرتها على جمع مجموعة من المخطوطات التاريخية.

Godehard (١)

Baderborn (٢)

Meinwerk (٣)

Emad (٤)

Theoderic (٥)

Quadrivium (٦)

Abdinghof (٧)

كورفي[1]

لقد دفعت إنجازات أوتو الأكبر العمل الفكرى فى كورفي دفعات قوية إلى الأمام. وهى الدفعات التى أدت إلى إنتاج أعظم عمل فكرى فى العصور الوسطى وأعنى به موسوعة التاريخ المعروفة باسم **(أعمال الساكسون)**[2] الذى كتبه فيدوكند. لقد أدت قراءات فيدوكند الواسعة ومعرفته العميقة بالمؤلفين الوثنيين القدامى من أمثال ليفى وساللوست ومعرفته بأصول القبائل الجرمانية، أدت جميعها إلى إثراء مكتبة الدير إثراء لاحدود له. إن عمل التاريخ الذى ألفه فيدوكند يشير إلى العلاقات والروابط التي كانت قائمة بين الأديرة الشمالية ودير مونت كاسينو والتى بدأت تنتعش فى ذلك الوقت. ووجود مخطوطة من كتاب فيدوكند من القرن الحادى عشر فى دير مونت كاسينو تشير إلى وجود الأصل فى دير كورفى وقد أحضر هذا الأصل إلى مونت كاسينو حيث نسخ هناك بخط إيطالى جنوبى.

وفى المقابل تلقى دير **نهر فيزر** هدية من هنرى الثانى عبارة عن نسخة من كتاب **التاريخ الرومانى** لمؤلفه **إتروبيوس** فى نسخة أصلية بخط **لاندولفوس ساجاكسى** الذى أكمل تاريخ إتروبيوس فى فترات لاحقة[3].

منطقة أرض الراين[4]

كما رأينا فى العصر الكارولنجى، هنا أيضاً فى الفترة الأوتونية، وصلتنا معلومات عن المناسخ أكثر بكثير مما وصلنا عن المكتبات فقد طلب **إيجبرت الأول من ترير ٩٧٧-٩٩٣م**[5] مخطوطات من ريشيناو يتخذها نماذج للنسخ فى منسخه

(١) Corvey

(٢) Rerum Gestorum Saxonicarum/ Widukind

(٣) Historia Romana/ Eutropius, Landolfus Sagax

(٤) Rhine land

(٥) Egbert I of Trier

ولكن خطته هذه لم تنفذ وانتهت بوفاته. وبدلاً من ذلك وضع منسخ ترير خطته الخاصة ونموذجه الخاص فى إنتاج المخطوطات. بل أصبح هذا المنسخ نموذجاً يحتذى فى إنتاج المخطوطات وعلى سبيل المثال قام ديركولونيا فى عهد الأسقف **إيفرجر** ٩٨٥-٩٩٩م[١] بتقليد أسلوب مدرسة العصر فى ترير وكوربي فى أقصى الغرب، بينما قام دير ريشيناو بتقليد أسلوب بحيرة كونستانس فى مخطوطاته.

سبير[٢]

وجدت فى كاتدرائية سبير مكتبة قوية ذات مجموعات طيبة، يدلنا على ذلك أنه كان فيها بعض كتب هنرى الثانى الشخصية والتى انتهت اليوم إلى مكتبة الاسكوريال فى أسبانيا وكارلسرو فى ألمانيا، كما زادت شهرتها بعد ذلك حينما إكتشف فيها الإنسيون بعض الكتب العظيمة التى كانت مغمورة فيها دون أن يعرفها أحد. ولكن للأسف فإن كثيراً من الذخائر فى هذه المكتبة قد احترق فى الحريق الذى أصاب المكتبة والكاتدرائية سنة ١٦٨٩م. ومن الطريف أن الشاعر **والتر من اسبير** الذى كان يدرس فى مدرسة الكاتدرائية قد ضمن كتابه عن **القديس كريستوفر**[٣] الذى أعده سنة ٩٧٣ قائمة بالكتب التى قرأها مع تلاميذه فى المدرسة وهى بطبيعة الحال كانت موجودة فى المكتبة. والقائمة كلها كتب كلاسيكية لمؤلفين قدماء عرفوا فى الفترة الأوتونية، وتعطى فكرة عن المجموعات التى كانت موجودة فى مكتبة الكاتدرائية من الكتب الوثنية. ويكمل تلك الصورة الفهرس الذى أعد عن المكتبة سنة ١٠٥١م ولكنه لا يدرج سوى الكتب الدينية فقط.

---

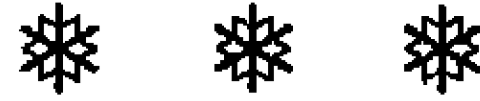
(١) Everger

(٢) Speyer

(٣) Walter of Speyer / Passio S.Christophori

استراسبورج

أول معلوماتنا عن مكتبة كاتدرائية استراسبورج هى أمر أصدره الأسقف **راخيوس**(١) سنة ٧٨٨م يطلب فيه نسخ كتاب عن التعاليم الكنسية لاستخدامه فى كنيسة استراسبورج والذى احتفظ به الأسقفان **إيرشنبالد** ٩٦٥-٩٩١م و **فيرنر الأول**(٢) ١٠٠١-١٠٢٩م من بعده. وقد قام إيرشنبالد بإحضار كتب أخرى للأساقفة الأوتونيين معه من إيطاليا. وكانت كتب الأسقف فيرنر فى هذه المكتبة تحمل عبارة (هذا الكتاب هدية إلى مريم القديسة من الأسقف فيرنر)(٣). ومن بين الكتب التي قدمها للمكتبة كتب شيشرون و كوينتليان، وقد أعيدت هذه الكتب إلى إيطاليا فى القرن الخامس عشر واستقرت فى مكتبة لورنت فى فلورنسا. وربما كانت تلك الفترة ـ القرن الخامس عشر ـ فترة إهمال للمكتبة على النحو الذى صوره **جيلر فون قيصرزبرج** سنة ١٤٨٢م(٤). ومع كل ذلك الإهمال فقد ظل بالمكتبة قدر لا بأس به من الكتب التى جمعها كل من إيرشنبالد وفيرنر لها، ولكن المجموعة تبعثرت وتبددت بعد حركة العلمنة التى ظهرت فى القرن السادس عشر.



(١) Rahcios

(٢) Erchanbald; Werner I

(٣) Werinharius episcopus dedi S. Mariae

(٤) Geiler von Kaisersberg: "nelegentia bibliothecae et Librarum preciosorum"

الفصل الرابع

العصور الوسطى الوسيطة
المكتبة الأوربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر

١- مقدمة

أعقب الفترة الأوتونية الشفافة المتنورة المزدهرة عقود من الانهيار العام، والإهمال الشديد فى معظم المرافق؛ ثم لم يلبث التطور السياسى أن مهد السبيل إلى تحولات جذرية متواصلة. وكان العداء للبابوية والمعارك من أجل وحدة الامبراطورية من أسباب ضعف الحكام **السالير و الهوهنزتاوفن**[١]. ولم يعد البلاط الامبواطورى مصدر الإشعاع الثقافى الذى ساعد فى الحقبتين السابقتين (الكارولنجية والأوتونية) على إنشاء المكتبات وإنتاج الكتب. لقد انتهت وإلى الأبد الوحدة التى كانت موجودة فى تلك الفترتين، وحل محلها تفتت ثقافى، أعقبه نوع جديد مختلف تماماً من العمل الفكرى ذو اتجاه لاهوتى بحت. وكانت المثل الروحانية الجديدة قد تشكلت على ضوء الإصلاحات الدينية التى قادها دير جريجورى وغيره من الأديرة والتى أدت إلى تطوير الحياة الديرية فى اتجاه الحياة الكنسية العامة. كما أدت هذه الإصلاحات إلى صراعات مع السلطات المدنية حول علاقات الكنيسة بالدولة.

وقد أخذ الاتجاه الجديد بين المجتمع نحو ثقافة متنورة، صورة جديدة أصبح الكتاب فيها أداة لاغنى عنها، أخذت معها مناسخ الأديرة تنشط نشاطاً محموماً ولكن غلب على إنتاجها الطابع الدينى اللاهوتى البحت. مع أقل القليل من الكتب الجدلية الدعائية التى صاحبت الصراع الدينى السياسى.

---

(١) Salier; Hehenstaufen

وكانت القيادة الدينية ترغب فى قصر مقتنيات المكتبات على ماينتج داخل المناسخ من كتب دينية ومن ثم أصبح الإنتاج الفكرى العلمانى والكتب الوثنية الكلاسيكية أقل أهمية بل وانحسر الاعتماد عليها فى عملية التعليم والتدريس. وأهملت أو كادت عمليات الزخرفة والتصوير فى المخطوطات لأنها فى اعتقاد رجال الكنيسة تقلل من الخشوع؛ ولو أنها تسربت إلى بعض كتب العبادات.

إن حركة الإصلاح الدينى الكلونى التى سادت الأديرة الأوربية لم يكن تأثيرها متوازناً بنفس القوة فى كل أنحاء القارة. ففى ألمانيا على سبيل المثال وحيث كانت سطوة الرهبان القدماء ماتزال مسيطرة لم يكن للإصلاح الدينى قوة كبيرة واستمرت طريقة التعليم القديمة قائمة بنفس المناهج والمقررات فى أديرة مثل بسانت جال؛ هيرسفيلد؛ كورفى؛ تجرنسى على العكس من التحولات الجذرية التى حدثت فى دير سانت إميرام. ولقد حمل القرن الحادى عشر كله بحركات الإصلاح هذه، على الرغم من ضعف هذه الحركة قرب نهاية ذلك القرن رغم المحاولات المستميتة التى قام بها دير هيرساو لإحيائها. وجاء القرن الثانى عشر ببعث جديد قوى لدرجة أننا يمكن أن نتحدث عن نهضة حقيقية على الأقل فى الدول الرومانسية (فرنسا).

لقد كان لتكثيف الحياة الدينية أثره المعاكس على الحياة الفكرية والثقافية. كما كان له أثره على المؤسسات الدينية نفسها وأعنى بها الأديرة والكنائس مما أدى إلى نشوء شكل جديد للمعرفة والعلم والفكر أطلق عليه إصطلاح «**البحثية**»[(١)]. وقد بلغت الفلسفة الجديدة أقصى تطور لها فى غربى أوربا وخاصة فى فرنسا. بينما فى ألمانيا كان المناخ السائد هو العداء لهذه الفلسفة الجديدة بسبب الصراع بين الكنيسة والدولة؛ ومع هذا فقد وجدت هناك مدارس وحياة فكرية مزدهرة ومناسخ نشطة ومكتبات متطورة هنا وهناك.

---

(١) Scholasticism

وفى ظل هذا المناخ استمر إنتاج الكتب الدينية فى الزيادة، واستمرت زخرفة كتب العبادة على وجه خاص ولكن بأساليب جديدة بعد انهيار الأسلوب الفنى الأوتونى فى الزخرفة.

واستمرت هناك بقية من الإتجاه نحو الفكر الكلاسيكى حتى فى الأديرة التى عمتها حركة الإصلاح الدينى. ومع نهاية القرن الثانى عشر بدأ تأثير الغرب يدعم وجوده ويثبت أقدامه. وكانت أهم أداة لهذا التأثير هى مقررات ومناهج المراكز التعليمية الفرنسية، والتى عمت ألمانيا القرن الثانى عشر. وكانت أوعية المدرسة الجديدة فى الفكر هى الكتب التى تدفقت فى موجات متلاحقة من فرنسا إلى خارجها والتى جعلت من هذه الدولة مركز الحياة الفكرية فى العصور الوسطى. وكان الأدب الفرنسى القديم جزءاً هاماً من تلك الحياة الفكرية وقد اعتبر نموذجاً وموضوعاً للأدب الألمانى العالى الوسيط.

إصلاح الحياة الديرية والطوائف الدينية الجديدة؛ أوتلوه[١]

إرتفعت الصرخة لإصلاح الحياة الديرية فى وقت واحد فى كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا فى خلال القرن العاشر الميلادى. وكانت هذه الصرخة أكثر إرتفاعاً فى فرنسا وحيث هيأت الأديرة التى دمرها النورمانديون الفرصة كاملة لإعادة بناء هيكل الحياة الديرية. وقد جاءت بدايات الإصلاح متزامنة متواكبة فى كل من بيرجانديا واللورين. وكانت أقوى حركات الإصلاح وأبعدها أثراً هى حركة **كلونى**[٢] التى سادت منطقة اللوار (فليرى) وامتدت إلى انجلترا نفسها. كذلك كان من بين حركات الإصلاح القوية حركة **لوثر** التى خرجت من مقرها فى دير **جورزى**[٣] وكان لها تأثيرها الفعال فى كل ألمانيا حتى سادت حركة كلونى

(١) Otloh

(٢) Cluny

(٣) Lotharingian - Gorze

وأخذت دور الريادة تحت رعاية هنرى الثانى. وقد انتعشت حركة الإصلاح الكلونية هذه فى الدير الذى أسسه **وليام من هيرساو**[1].

وقبل أن ندخل فى تفاصيل حركات الإصلاح لابد من الإشارة إلى طائفة دينية قام بها الراهب **أوتلوه** والتى كان لها تأثير روحانى خاص فى الأدب.

والراهب أوتلوه (١٠١٠-١٠٧٠م) كان مديراً لمدرسة سانت إميرام (ريجنزبرج) وقد عاش فترة التحول العظيم فى القرن الحادى عشر. وكان فى شبابه قد عشق الأدب الكلاسيكى القديم وأقبل عليه بنهم. وقد أصابه مرض - عقاباً له على قراءته شعر الشاعر **لوكان**[2] [شاعر رومانى ولد فى أسبانيا عاش بين ٣٩-٦٥م] - أدى به إلى دخول الدير سنة ١٠٣٢م. وهناك أصبح متديناً وتنم كتاباته عن شفافية خاصة. وقد بلغ قمة الشفافية عندما كان يصف حياته الفكرية ونشاطاته فى سيرته الذاتية المعنونة: **كتاب الإغراءات**[3].

ومن الغريب أن يصبح أوتلوه باحثاً لاهوتياً غزير الإنتاج؛ وإلى جانب ذلك التأليف والبحث وإدارة المدرسة عشق نسخ الكتب بدون ملل أو سأم أو كلل وحيث كرس له كل لياليه وأجازاته. وكان فى طفولته الباكرة يحاول تعليم نفسه الكتابة وبسبب ذلك كون طريقة خاطئة فى الإمساك بالقلم وهى طريقة استمرت معه طوال حياته ولم يفلح المدرسون فيما بعد فى تصحيحها. وكان يشعر بعاطفة جياشة نحو قلمه الذى لم يفارقه طوال حياته بدءاً من حياته المدرسية فى مدارس تجرنسى، هيرسفيلد؛ ثم فيرزبرج. وبعد أن عمل أيضاً لم يفارق قلمه فى دير سانت إميرام بدءاً من سنة ١٠٣٢. وقد توقف فقط فى فترة النفى ١٠٦٢-١٠٦٦ فى فولدا؛ وفى أمورباخ سنة ١٠٦٧م. وفى سيرته الذاتية يعدد لنا المخطوطات التى كتبها وهى: ١٩ كتاب صلاة، ثلاثة نسخ أناجيل، إثنان كتب تعاليم، ٤ كتب صلاة الفجر. وكان يكتب الكتب ليس فقط لدير سانت إميرام

(١) William of Hirsau

(٢) Lucan

(٣) Libellus de suis temptationibus

ولكن أيضاً للأديرة المجاورة وللأشخاص. حيث ذكر أنه كتب سبعة مخطوطات لدير فولدا واثنين لكل من دير هيرسفيلد؛ ألتايخ؛ تجرنسى وكذلك كتب عدة مخطوطات لأديرة: ريجنزبرج؛ أمورباخ؛ لورك؛ ريشيناو وغيرها. ومن بين أصدقائه الذين نسخ لهم كان وليام من هيرساو الذى تلقى منه أربعة كتب.

ولم يكن أوتلوه ينسخ اعتباطاً وإنما كان يختار الأعمال الكاملة لمؤلف ما مثل أوغسطين، أو يسد فجوات فى مجموعات المكتبة. وعلى سبيل المثال فقد نسخ فى فولدا كثيراً من الكتب غير الموجودة فى دير سانت إميرام، وعندما عاد إلى ديره نسخ سبعة كتب كان دير فولدا فى حاجة إليها. وقد وصلنا العديد من الكتب التى نسخها ولكنها لا تمثل إلا عدداً محدوداً من إنتاجه الغزير.

لقد كان أوتلوه مثالاً فذاً للراهب ـ الناسخ الذى طالما نشده المصلحون. فقد كان عمله هو النموذج السائد فى أديرة الإصلاح الدينى رغم كثافة إنتاجها، ومن المدهش أن كل الكتب التى نسخها أوتلوه كانت كتباً دينية وخارج الكتب الدينية كانت تأملات روحية للتنوير والإشراق الروحى. وليس هناك أى أثر لكتب كلاسيكية على الإطلاق على الرغم من معرفته السابقة بالأدب العلمانى والمؤلفين الكلاسيكيين، ويذكر كارل كرست فى هذا الصدد أن أوتلوه اعتبر نسخ الكتب الكلاسيكية والأدب العلمانى غير ضرورية للكمال الروحى وخارج إطار الراهب المثالى.

الكلونيون(١)

أسس دير كلونى سنة ٩١٩م. ومنذ بداية هذا الدير كانت له مكتبة قوية. وقد جلب **أودو**، وهو أحد الرهبان الأوائل ـ وكان سابقاً فى دير تورز، ثم أصبح الأب الثانى فى دير كلونى ٩٢٤-٩٤٢م ـ معه إلى الدير مائة مخطوطة. ولم ينتصف القرن حتى تم تعيين أول أمين مكتبة فى هذا الدير وكان راهباً اسمه

(١) Cluniacs

مايولوس[١]. وكانت وظيفته مساوية لوظيفة كل من مشرف المخازن والأرشيفجى. ولما أصبح هذا الراهب نفسه أباً للدير بين سنتى ٩٤٥-٩٩٤م كان من الضرورى أن يساند المكتبة ويعمل على تطويرها. وقد قام خلفه **أوديلو**[٢] بزيادة عدد النساخين ومزخرفى الكتب فى الدير وقدم للمكتبة نسخة هدية من شروحه على سانت بول التى أعدها خصيصاً لهنرى الثانى لتوضع فى ديره فى بامبرج.

وقد بلغ دير كلونى أوج ازدهاره الروحانى فى عهد **بيتر الصالح** ١١١٢-١١٥٥م[٣]. وبيتر هذا هو الذى مول الترجمة اللاتينية **للقرآن الكريم فى طليطلة** وكان من أقوى المؤيدين للمكتبة وهو الذى كتب إلى **جيزيلبرت**[٤] الهرميتى يقول:

«إنه أكثر فائدة أن تضع يدك على القلم من أن تضعها على المحراث؛ أن تنثر كلمات الله على سطور الصفحات، من أن تنثر البذور على خطوط الأرض فى الحقول. إنك عندما ترى كلمات الله على الصفحات وقت الحصاد، أعنى عندما يكتمل الكتاب فإنك تسد جوع القارئ وسوف يغذى الخبز السماوى جوعه الروحى الأبدى».

وفى حوالى منتصف القرن الثانى عشر ـ فى ظل إدارة بيتر الصالح ـ كان لدى دير كلونى أكبر مكتبة فى كل فرنسا. وقد قام **ديليزل**[٥] بجمع بقايا هذه المجموعات التى بددها الزمن كما سنرى فيما بعد تحت اسم «**ركائز كلونى**»[٦].

وبعد وفاة بيتر الصالح هذا أخذ دير كلونى فى الانهيار على الرغم من أن

---

(١) Maiolus

(٢) Odilo

(٣) Peter the Venerable

(٤) Gizelbert

(٥) Delisle

(٦) Fonds de Cluny

المكتبة حظيت برعاية الآباء المتعاقبين. وفى القرن السادس عشر بلغت مجموعات مكتبة الدير نحو ٢٠٠٠ كتاب وهى بكل المعايير أكبر مجموعة فى كل فرنسا. ولكن للأسف قام الهوجينوت سنة ١٥٦٢م بتدمير الجانب الأكبر منها أثناء غزواتهم البربرية. وفى سنة ١٧١٠م ذكر الموريَّان: **إدموند مارتين**(١) و **أورسين دوراند** أنهما شاهدا فهرساً على لوح خشبى كبير الحجم لهذه المكتبة، وكان هذا الفهرس قد أعد مباشرة بعد وفاة بيتر الصالح وسجل ٥٧٠ مخطوطة هجائياً بالعنوان.

أما الفهرس الذى أعد سنة ١١٥٨م فإنه يعكس الاتجاهات الحديثة فى العصور الوسطى المتأخرة نحو الفكر الكلاسيكى، حيث كانت كل كتب شيشرون موجودة وهو أمر غير عادى، كما كان هناك ثلاثة كتب لفيرجيل، أربعة للمؤلف الكلاسيكى جوفينال، ثلاثة لأوفيد، اثنان لهوراس، ثلاثة للمؤلف ترنسى. كما كانت هناك قصص **آيسوب**(٢)؛ رغم العداء للأدب الكلاسيكى الذى كان الآباء أودو؛ مايولوس؛ هيجو يبدونه تجاهه. ونذكر القارئ أنه هنا فى هذه المكتبة ـ وغيرها ـ كانت قاعدة الصمت المطبق تحتم على الرهبان استخدام لغة الإشارة عند طلبهم استعارة الكتب الوثينة وهى هرش الأذن كما يفعل الكلب. ولقد كان هناك فصل بين الكتب الكلاسيكية والكتب الأخرى **«لأن الوثنيين لا يستحقون أن يوضعوا جنباً إلى جنب مع المؤلفين الأحياء»** وربما كان ذلك هو تفكير الأب بيتر الصالح.

ولقد وصلنا من مكتبة هذا الدير قائمتان تضمان استعارات الرهبان فى موسم الصيام عن سنوات ١٠٤٢ و ١٢٥٢م.

السستريون(٣)

أدت عوامل مختلفة إلى أن يفقد الكلونيون إحساسهم القوى بالإصلاح

---

(١) Edmond Marténe; Ursin Durand

(٢) Aesop

(٣) Cistercians

الدينى ومن بين تلك العوامل الصراعات الداخلية بين أفراد الطائفة، تزايد ثروات الأديرة وإهمال العمل اليدوى.

وفى سنة ١٠٩٨م قام **روبرت من مايلزمى**[١] بتأسيس طائفة السستريين فى **سيتو** بالقرب من **ديجون**[٢]. وبوصول سانت برنارد من كيلرفو سنة ١١١٣م إلى الدير أخذت الطائفة فى الانتعاش والسيادة على سائر الطوائف.

ولقد خلق هؤلاء السستريون مناخاً غير فكرى واتجهوا نحو تقوية العمل اليدوى الشاق بين الرهبان. ولقد قاوموا أية خلفية فكرية لعقيدتهم وطلبوا من أتباعهم الانصياع الأعمى للتكريس المطلق. وبينما اتجه الكلونيون نحو الزخارف الدينية وأعطوها أهمية كبرى كما اتجهوا اتجاهاً روحانياً بحتاً مع إهمال العمل اليدوى، فقد اتخذ السستريون موقفاً مختلفاً ومعارضاً. وكان متحدثهم الرسمى المواجه للقديس بيتر الصالح هو القديس برنارد. وقد اعترض متحدثهم الرسمى (سانت برنارد) على أية جوانب مظهرية بما فى ذلك الكتب المزخرفة الفاخرة لكل الطوائف القديمة وطالب بإزالة الحليات الذهبية والأحبار الملونة من كتب العبادات. ولقد سجل أحد السستريين فى جنوبى ألمانيا تعليقاً على المناظرة التى جرت بين الكلونيين والسستريين سنة ١١٥٠م، وجهات نظره قائلاً «أى نوع من العمل الكمالى والغبى أكثر من إسالة الذهب واستخدامه فى كتابة الحروف الأولى؟ إن **الكتابة بالذهب**[٣] لاتفعل أكثر من إرهاق عين القارئ وزغللتها».

وتقرر تعاليم الطائفة الصادرة سنة ١١٣٤م كراهية سانت برنارد للفن العلمانى وتنص صراحة على «كتابة كل شئ بلون واحد من الحبر وبدون أية صور أو زخارف» كما حرمت التعاليم استخدام أية معادن ثمينة أو مواد غالية الثمن فى جلود الكتب. وهذا المدرس المحافظ وضع بداية النهاية لمدرسة تصوير وزخرفة المخطوطات التى كانت قد بدأت فى السنوات الأولى لدير سيتو، تلك المدرسة

(١) Robert of Milesme

(٢) Citeaux; Dijon

(٣) Litterae aurae

التى أسسها ثانى أب للدير وهو **استيفان هاردنج** ١٠٩٨-١١٠٩م[١] الذى كان كتابه المقدس رباعى المجلدات آية من آيات الإبداع الفنى.

لقد كانت القراءة واستخدام الكتب عملاً واسع الانتشار بين السستريين. وكانت أدوات الكتابة من بين أهم مفردات الراهب. وكان النساخ منهم يستعملون صالة واسعة ذات خلوات كمنسخ وكانوا يعفون من العمل فى الحقول فيما عدا وقت الحصاد.

وكانت مخطوطات السستريين تتميز بخطوطها الواضحة الخالية من أية زخارف، ومحتوياتها تذكرنا بالفترة الوسيطة الباكرة. وكان الاستثناء الوحيد هو محاولة الأب استيفان هاردنج لإنتاج نص نقدى تحليلى للكتاب المقدس عن طريق مقارنة جميع النسخ وإضافة تفسيرات اليهود. ولم تجر حتى القرن الثالث عشر الميلادى أية محاولة جادة للنشاط الفكرى الخلاق، وجاءت من جانب **طائفة الشحاذين**[٢] تلك الطوائف التى نظر اليها السستريون نظرة استخفاف وعلى أنهم أغبياء.

وقد اعتبر السستريون أنفسهم مبدعين ومطورين فى مجال المكتبات وإدارتها. وأهم شئ بالنسبة لهم كانت المكتبة الرئيسية فى الدير الأم فى سيتو والتى وصلنا منها حتى الآن ٣١٢ مخطوطة بقيت حتى اليوم فى ديجون. وقد أعد للمكتبات فهرس سنة ١٤٨٠م بناء على طلب الأب **جان دى سيرى**[٣] بعد الانتهاء من عملية الترميم التى استمرت سنتين. وهذا الفهرس يسجل ١٢٠٠ مخطوطة منها ٥٠٩ مخطوطات فى المكتبة الرئيسية.

أما مقتنيات المكتبة العظيمة السسترية الأخرى فى كليرفو فقد كانت أسعد حظاً فى الوصول إلينا. وهذه المكتبة تلقت جزءاً كبيراً من مقتنياتها القديمة من مؤسس الدير سانت برنارد سنة ١١١٥م ومن أصدقائه وتلاميذه، ومع نهاية القرن الثانى

(١) Stephan Harding

(٢) Mendicant Orders

(٣) Jean de Cirey

عشر كان هناك ما لايقل عن ٣٤٠ مخطوطة. وقد وصلنا فهرس لهذه المكتبة عن سنة ١٤٧٢م ويسجل ١٧١٤ مخطوطة. وهذه المخطوطات موزعة الآن بين عدد من المكتبات فى **تروى و مونبلييه**[١].

ومن بين الأديرة الفرعية لدير سيتو، نذكر دير **بونتجنى**[٢] الذى أسس سنة ١١١٤م وقد تميزت مكتبته بمجموعتها الفنية من المخطوطات القيمة.

الكارثوزيون[٣]

كان الكارثوزيون أكثر الطوائف الدينية التزاماً بقواعد الحياة الدينية الديرية، ولكنهم فى نفس الوقت، أكثر الطوائف إنتاجاً للكتب. لقد أسست هذه الطائفة فى سنة ١٠٨٤م فى الوادى الوحيد فى **جراند تشارتريز** على يد **سانت برونو من كولونيا**[٤] (المعروف باسم سانت **برونو الكارثوزى**) ١٠٣٠-١١٠١م. ويجب ألا نخلط بينه وبين الأسقف برونو من كولونيا أيضاً ٩٥٣-٩٦٥، شقيق الامبراطور أوتو الأول. ولقد قام الرئيس الخامس للدير **جوجيو الأول**[٥] بوضع تعاليم الطائفة سنة ١١٣٤م. وكانت تعاليم الصمت المطبق الصارمة قد جعلت استخدام رهبان هذه الطائفة فى التدريس أو الوعظ مسألة مستحيلة. ولذلك جعلت وسيلة الاتصال بينهم هى الكلمة المكتوبة. ونجد فى تعاليم جيوجو فى الفصل الثامن والعشرين «طالما أننا لانستطيع أن ننطق كلمات الله بأفواهنا فلننطقها بأيدينا. وكل كتاب نكتبه يصبح وساماً على صدر الحق» أما جيوجو الثانى ١١٧٣-١١٨٠م فقد أعلن أن النسخ هو «**عمل خاص**[٦]» لطائفة الكارثوزيين.

(١) Troyes; Montpellier

(٢) Pontigny

(٣) Carthusians

(٤) Grande Chartreuse; St. Bruno from Cologne

(٥) Guigo I

(٦) Opus Spciale

لقد قررت «التعاليم» أن الرهبان الجدد يتسلمون مجموعة من الأدوات الكتابية. كما وضعت تلك التعاليم فى الفصل الثامن والعشرين أيضاً القواعد الخاصة باستعارة وصيانة الكتب. وقررت الساعة صفر من أيام الآحاد لتوزيع مواد الكتابة وتركت لرئيس التكريس أن يحدد أى الكتب تقرأ وأيها تنسخ (الفصل السابع من التعليمات) ووضعت شروط العمل والدخول إلى المنسخ والمكتبة. وحررت هؤلاء الذين يعملون فى النسخ والتجليد من قواعد الصمت المطبق (الفصل الثانى والثلاثون من التعاليم) والإصدارات التى تلت من هذه التعاليم سنة ١٢٥٩، ١٣٦٨م وسعت وفصلت فى تلك القواعد وخاصة فيما يتعلق بمسائل تحرير وتصحيح النصوص. وقد أنيطت قرارات التحرير برئيس الدير الذى يستشير فى هذا الصدد الرهبان القدامى من ذوى الخبرة.

لقد أثارت حمية الكارثوزيين إزاء الكتب إعجاب معاصريهم، فقد كتب **جويبرت من نوجنت**(١) (توفى ١١٢٤م) يقول بأن الرهبان الكارثوزيين العظماء فى الدير الأم جمعوا مكتبة عظيمة غنية على الرغم من فقرهم ونكران ذواتهم. كما وصفهم بيتر الصالح سابق الذكر بأنهم لايتعبون أبداً فى صمتهم وقراءتهم وصلاتهم وعملهم اليدوى وخاصة عملية النسخ. ومما يجدر ذكره أن نسخ الكتب الدينية كان مسموحاً به فى أيام الآحاد.

ومن المثير للدهشة حقاً أن هذا الدير عقب إنشائه فى وادى جراند تشارتريز كانت لديه واحدة من أهم المكتبات فى كل فرنسا. وقد جمعت بقايا مجموعات هذه المكتبة ووضعت فى جرينوبل حيث توجد حتى الآن. وبصفة عامة فإن الكارثوزيين كانوا حريصين عموماً عند إنشاء أى دير فرعى أن يضعوا فيه مجموعة قيمة من الكتب.

القانونيون النظاميون و الديريون السابقون.(٢)

لقد اجتذبت حركة الإصلاح فى دوائرها القانونيين النظاميين أيضاً ونعنى بهم

(١) Guibert of Nogent

(٢) Canons Regular and Premonstratensians

الإكليريين المدنيين الذين عاشوا الحياة العامة بعيداً عن الأديرة، فى الكاتدرائيات منذ زمن **كروديجانج من متز** ٧٤٢-٧٦٦م[١]. ولم يكن لهم حتى حين ثورة الإصلاح أى دور عام ملحوظ. ولكنهم منذ بدء دوقية ريمز فى نحو نهاية القرن الحادى عشر بدأوا يطبقون تعاليم أوغسطين التى انتشرت فى فرنسا فى تلك الفترة. ولأن تعاليم أوغسطين قد عاشت كإطار عام فقط إلى ذلك الوقت فإنهم قد بدأوا فى ممارستها عملياً بما فى ذلك التفاصيل الخاصة بالمكتبات والقراءة. وفى الإصدارة التى وسعها **سانت فلوريان**[٢] من تعاليم أوغسطين بدءاً من القرن الثالث عشر نجده يفرق بين العمل اليدوى الذى يمارس داخل الدير والعمل اليدوى الذى يمارس فى الحقول. وجعل نسخ الكتب ضمن العمل اليدوى داخل الدير. وكان النسخ يناط بالضعاف بدنياً من الرهبان، على الرغم من استخدام الرهبان الجدد فى النسخ والتجليد، وكان هناك مصحح بروفات يقرأ ويصحح كل مخطوط، وكان كل قانونى يتلقى مجموعة كاملة من الأدوات الكتابية يقدمها له الدير كذلك كانت القانونيات تقمن بنفس الدور.

لقد نظم القانونيون أنفسهم فى طبقات عرفت أحياناً باسم «قانونيو سانت أوغسطين» كان من بينها طبقة سانت فيكتور فى باريس (١١١٠م) والتى حققت شهرة واسعة ودرجة رفيعة من النشاط الفكرى. لقد وضع سانت فيكتور تعليمات مفصلة للمكتبة ولخازن المكتبة. وكانت مكتبة هذه الطبقة من أهم المكتبات فى باريس، مما جعل **رابليه**[٣] يعبر عن عميق تقديره لمحتوياتها.

إن المجموعات الأوغسطية يجب أن تحسب ضمن ثروة المكتبات الديرية فى انجلترا، لقد كان هناك دير مغمور وصغير فى يورك يقتنى ٦٤٦ مخطوطة فى نحو سنة ١٣٧٢م.

ولقد ساعدت التعليمات الصارمة التى وضعها القانونيون فى توحيد وإدماج

(١) Chrodegang of Metz

(٢) St. Florian

(٣) Rabelais

بعض الأديرة معاً كما حدث مع دير **بريمونتريه**[١] بالقرب من ريمز والذى أسس سنة ١١٢٠م على يد **نوربيرت من جينب**[٢] وهو ابن دوق إكزانتن. وكان لوجود هذه التعليمات الصارمة بين القانونيين أثر فعال فى إعطاء الديريين السابقين الفرصة لخلق تقاليد فكرية بينهم رغم أنهم وضعوا قيوداً وحدوداً لمجالات هذا الفكر. لقد بقيت هذه الطبقة مركزة فى بريمونتريه. ولكن مع ترقية نوربيرت إلى درجة أكبر أساقفة مجدبرج سنة ١١٢٥م فتح أبواب ألمانيا الشرقية لبعثات تبشيرية من الديرين السابقين وقد حققوا فى هذه المنطقة نجاحاً كبيراً.

٢- ألمانيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.

الحكام الألمان.

إنحصرت مساهمات **الحكام الساليين**[٣] فى مجرد طلب إعداد كتب لهم مزخرفة زخرفة مفرطة فى مناسخ الأديرة المختلفة فى المملكة. وكانت هذه الكتب فى الأعم الأغلب كتب عبادة وطقوس، دأب الحكام على تقديمها للكنائس الكبيرة، وبينما كان الدير المفضل لدى الأباطرة الأوتونيين هو دير ريشيناو فإن الأباطرة الساليين كانوا يفضلون دير **إيخترناخ**[٤] وفى هذا الدير أعد كتاب الأناجيل الرائع المعروف باسم **(الكتاب الذهبى)**[٥] لحساب هنرى الثالث بقصد تقديمه إلى كاتدرائية سبيير وهو موجود الآن فى مكتبة دير الاسكوريال. كما طلب أيضاً إعداد نسختين أخريين لكنيستى: **بريمين وجوسلار**[٦]. وبعد وفاة الإمبراطور كان هناك كتاب أناجيل يعد لحسابه فى منسخ دير سانت إميرام، قدمته

(١) Prémontré

(٢) Norbert of Gennep

(٣) Salic Rulers

(٤) Echternach

(٥) Codex aureus

(٦) Bremen; Goslar

أرملته **أجينيس من بواتييه**[١] إلى دير مونت كاسينو. ومما يذكر أيضاً أن منسخ دير تجرنسى كان موضوع حماية هنرى.

لقد كان لدى هنرى الثالث هذا اهتمام كبير بالأدب والفكر - على العكس من أبيه الذى اعتبره البعض معتوهاً - بيد أن هنرى الرابع لم يشاطره مثل هذا الإهتمام الكبير بل كان اهتمامه بالفكر محدوداً. وقد قدم هنرى الرابع هذا إلى دير هيرساو نسخة من الكتاب المقدس من أصل إيطالى، وكتاب أناجيل كان مملوكاً للامبراطور نفسه. وهذا الكتاب كان من إعداد المنسخ فى مدرسة ريجنزبرج وهو موجود الآن فى مكتبة كاتدرائية **كريكو**[٢]. ومن المعروف أن دير هيرساو كان من أديرة الإصلاح الدينى وقد قاد حركة الإصلاح فيه وليام من هيرساو وكان الدير موضوع حماية الامبراطور هنرى الرابع هذا.

ومن بين الحكام **الهوهنزتاوفن**[٣] لايستحق الذكر فى هذا الصدد سوى **فردريك الأول** بربارو**ساً**. ذلك أن **فردريك الثانى**[٤] حصر اهتماماته الفكرية فى مملكته فى إيطاليا السفلى. وللأسف لم تصلنا معلومات كثيرة عن فردريك الأول. ومن المعلومات القليلة التى وصلتنا عنه أنه طلب إعداد كتب صلوات وطقوس لحسابه فى ديرتجرنسى. ولقد أهدى إليه **بورجنديو بيزانوس**[٥] نسخة من ترجمته لكتاب نميزيوس عن الفلسفة الأرسطية سنة ١١٥٩م. ويذكر كارل كرست أن تقارير **جوتفريد من فيتربو**[٦] - رئيس الديوان الملكى عن مكتبات فردريك لايمكن الاعتماد عليها كلية لأن كاتب هذه التقارير كان يخترع أشياء لا

(١) Agnes of Boitiers

(٢) Crecow

(٣) Hohenstaufens

(٤) Fredrick I, Barbarossa

(٥) Burgundio Pisanus

(٦) Gottfrid of Viterbo

وجود لها. ويوجد نسخة من تقارير فردريك[١] هذه (١١٨٣م) فى المكتبة الأهلية بباريس تتضمن قائمة بأراضى الامبراطور ويصف بفخر القصر الملكى فى هاجيناو. ويقول التقرير إن خزائن الكتب الإمبراطورية مملوءة عن آخرها بكتب الأدباء والمؤرخين وكتب القانون والتشريعات. كانت هناك كتب فى الفنون وكل دواوين الشعراء والكتب العظيمة لأرسطو وأبقراط ووصفات الصحة التى وضعها جالينوس. ويقول جوتفريد فى نهاية تقريره «هنا وفى آخن كتبت هذا الكتاب الذى يجدد الماضى ويسجل تاريخ الإمبراطورية».

وفى نهاية القرن الثانى عشر قام كل من هنرى الأسد، دوق بافاريا وساكسونيا؛ والكونت هيرمان الأول أمير ثورنجيا بطلب إعداد عدد من المخطوطات لحسابهم الشخصى.

وقد أعدت الكتب التى طلبها هنرى فى منسخ دير **هلمارزهاوزن**[٢]. أما الكتب التى طلبها هيرمان وبعضها مصور فقد أعدت فى مدرسة الخطوط التابعة لدير ثورنجيا - ساكونيا. وليس هناك ما يدل على أن هذين الأميرين كانت لهما مكتبات شخصية رغم أن هيرمان كان من رعاة الشعر الألمانى العالى الوسيط.

وكان النبيل **الجلف**[٣] هنرى هو الذى طلب من خلال رؤساء ديوانه تجميع دائرة المعارف الألمانية التى كان أعدها **لوكيداريوس**[٤]. كذلك تمت ترجمات ألمانية للروايات الفرنسية حسب طلب الدوقة **ماتلدة إبنة إليانور من بواتييه**[٥]. ومن العجيب أن أياً من مخطوطات هؤلاء الأمراء والنبلاء لم تصل إلينا. ولم يكن

---

(١) Speculum Regum

(٢) Helmarshausen

(٣) Guelph (Guelf)

(٤) Lucidarius

(٥) Mathilde daughter of Eleanore of Poitiers

هناك أى تأثير خارجى على زخرفة كتب الشعر الألمانى، التى بدأت تظهر بكميات كبيرة فى منطقة ريجنزبرج فى ذلك الوقت.

مكتبات الأديرة والكاتدرائيات فى بافاريا

سالزبورج

بدأت سالزبورج نشاطاً محموداً فى مجال إنتاج وزخرفة المخطوطات فى عهد كبير الأساقفة **جبهارد** ١٠١٦-١٠٨٨م[١]. وقد أدى ذلك إلى أن تحل محل ريجنزبرج فى هذا الصدد كمركز ريادى فى جنوب شرقى ألمانيا وقد بلغت أوج ازدهارها فى ظل إيبرهارد ١١٤٧-١١٦٤م. إن هذا التركيز على زخرفة الكتب المقدسة بالذات ومخطوطات الهدايا يلقى ظلالاً من الاتهام بعدم العناية بمكتبة الكاتدرائية، على الرغم من أن إيبرهارد الرجل المتعلم الذى درس فى باريس ساند المكتبة قدر استطاعته. وقد وصلنا فهرس للمكتبة معاصر لفترة إيبرهارد فيه ٢٦٦ مخطوطة يغلب عليها الطابع اللاهوتى، وأعد له ملحق بالكتب العلمية أو الدراسية يعطى فكرة عن الاتجاه الكلاسيكى للمقرارات التى كانت تدرس فى مدرسة الكاتدرائية.

باسَّاو[٢]

باعتبار باسَّاو حاضرة لوادى الدانوب الأسفل فقد كان عليها أن تقدم الكتب الدينية لكل المؤسسات الدينية لأبعد الأماكن حتى فيينا. وقد لقيت محاولات استيطان مقاطعة الحدود الشرقية التى قادها الأسقف بلجريم، استجابة كاملة من جانب **ألتمان**[٣] أسقف باساو ١٠٦٥-١٠٩١م. ولذلك قام ألتمان باستبدال الكنائس الخشبية فى دوقيته بمبانى من الحجر، وأدخل الإصلاحات الكلونية إلى

---

(١) Gebhard

(٢) Passau

(٣) Altmann

الأديرة وقدم الكتب والمدرسين وطور الحياة الروحية فى تلك المؤسسات. وأسس أول فرع للقانونيين النظاميين فى ألمانيا فى كاتدرائية سانت نيقولاى فى باساو؛ وأسس المكتبة هناك بثلاثين مخطوطة كان جلبها من روما. وعندما قام الأسقف **أوتو من لوندزدورف**[1] بإعادة تنظيم هذه المكتبة سنة ١٢٥٤م كان بها نحو ٢٥٠ مخطوطة أضاف اليها أوتو ثمانين مخطوطة أخرى. وعند وفاة أوتو فى سنة ١٢٦٥م قدمت مكتبته الشخصية وقوامها ١٥٠ مخطوطة إلى مكتبة الكاتدرائية. وكان من ضمن كتبه كتاب صغير **لآرتوسيوس** باللغة الغالية؛ وقصيدة آرتيللا[2].

فرايسنج[3]

يعزى الفضل فى إحياء مجد فرايسنج إلى الأسقف **أوتو من بابنبرج**[4] ١١٣٨-١١٥٨م.

ومن المعروف عن أوتو هذا أنه ابن **مارجريف ليوبولد الثالث**[5] ملك النمسا، ونصف شقيق للملك كونراد الثالث، وعم فردريك بارباروسا وشقيق كونراد الثانى كبير أساقفة سالزبورج. وقد تتلمذ على يد كل من بيتر أبلارد؛ هيجو من سانت فيكتور؛ جلبرت دى لا بوريه فى باريس. وقد أصبح راهباً سستيرياً فى دير موريموند ثم عين أسقفاً كما رأينا فى فرايسنج ومنذ ذلك الوقت عمل على رفع شأن تل الكاتدرائية وقد أعطى للدراسات الكلاسيكية اعتبارها وقيمتها الحقيقية. وأثرى المكتبة بنسخة من كتاب أرسطو (**أورجانون**)[6] باللاتينية وهو كتاب كان قد أحضره معه من فرنسا. ومن الطبيعى أن نتوقع أن يكون أوتو قد جلب معه من فرنسا إلى مكتبة الكاتدرائية الكتب العلمية التى تعرف عليها فى

(١) Otto of Londsdorf

(٢) Artusius; Artilla

(٣) Freising

(٤) Otto of Babenberg

(٥) Margrave Leopold III of Austria

(٦) Organon

باريس وخاصة أنه هو الذى أدخل الأسلوب العلمى فى التدريس عن طريق المناظرة والجدل إلى مدرسة الكاتدرائية فى فرايسنج. ولكن للأسف لم تصلنا كتب من هذا النوع عن هذه المكتبة.

لقد كان أوتو واحداً من أهم المؤرخين الألمان فى العصور الوسطى، وقد انتشرت حولياته انتشاراً واسعاً وخاصة فى مكتبات الأديرة فى بافاريا والنمسا. وقليل من الكتب التى ترجع إلى فترة أوتو هى التى وصلتنا وموجودة الآن فى مكتبة ولاية ميونيخ.

وليس لدينا سوى معلومات قليلة عن مكتبة الكاتدرائية فقد وصلنا فى مخطوطتين إشارات إلى أنهما كانتا تعاران لأعضاء فى هيئة الكاتدرائية. وللحصول على مزيد من المعلومات عن المكتبة لابد من العودة إلى مكتبة دير **وايهنستيفان**[1] الذى أسسه الأسقف هيتو ٨١٦-٨٦٥م على التل المواجه للكاتدرائية والذى تفوقت مدرسته تماماً على مدرسة الكاتدرائية فى القرن الحادى عشر. وقد وصلنا فهرس هذه المكتبة من القرن الثانى عشر. وفيه عزل للمخطوطات المستخدمة فى العبادة عن تلك المستخدمة فى القراءة بصوت عال؛ عن الكتب الدراسية التى تستخدم فى المدرسة، عن تلك الكتب الموجودة في المكتبة. كما يكشف هذا الفهرس عن الجهود التى اتخذت لنشر العلم وخاصة **العلوم الأربعة**[2]، وإتاحة الفرصة أمام الباحثين فى عملية الاقتناء.

ريجنزبرج وبروفننج[3]

أعقبت حقبة راموولد و ولفيجانج، حقبة أوتلوه بروحها الصارمة الوثابة. وقد استمرت مدرسة ريجنزبرج فى ازدهارها ولكن الدراسات اللاهوتية فيها أفسحت المجال فقط لدراسة الموسيقى؛ والرياضيات؛ والعلوم الطبيعية التى برع

---

(١) Weihenstephan

(٢) Quadrivium

(٣) Regensberg and Prüfning

فيها **وليام** الذى أصبح فيما بعد أبا لديرجيرساو. إلا أننا لانسمع عن المكتبة إلا أقل القليل.

وفى القرن الثانى عشر هجر دير سانت إميرام وحل محله دير بروفننج الذى عمّره رهبان من هيرساو سنة ١١٠٩م. وقد تمت فهرسة مجموعة مكتبة بروفننج سنة ١١٦٥م مباشرة بعد وفاة مؤسسها الأب **إيربوس الأول** ١١٢١-١١٦٢م(١). لقد كان أمين المكتبة فى عهده هو و **ولفجر**(٢). وكان الاهتمام الأول فى هذا الدير مركزاً على زخرفة الكتب وليس على محتوياتها وبالتالى جاءت الحياة الفكرية فى المرتبة الثانية. ولذلك كانت ورشة زخرفة الكتب المتأثرة بمدرسة سالزبورج تثرى مكتبات كلا الديرين بمخطوطات رائعة الحسن والإخراج

وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر نشأ فى ريجنزبرج وخاصة فى دير بروفننج مركز للحياة الفكرية والنشاط الثقافى أثر تأثيراً جذرياً على مقتنيات المكتبات النمساوية فى **ملك؛ هيليجنكروز؛ أدمونت؛ سيكاو وغيرها من الأماكن**(٣). نستشف ذلك من كتابات المؤلف ذى الإسم المستعار من مدينة ملك (**هونوريوس من أوتون**)(٤)، ومن فهرس المؤلف الذى أعده أمين مكتبة بروفننج المشار إليه ولفجر؛ ومن كتاب: **الأسطورة النمساوية الكبرى**(٥). والذى يمثل أكبر تجميعة للأساطير فى العصور الوسطى، وغير ذلك من النصوص فى المكتبات النمساوية والتى تم إنتاجها فى ريجنزبرج وحولها.

تجرنسى(٦)

ساعد ثراء هذا الدير على تكوين حياة فكرية ونشاط ثقافى خلاق استمر

(١) Erbos I

(٢) Wolfger

(٣) Melk; Heliginkreuz; Admont; Seckau

(٤) Honorius of Autum

(٥) Magnum Legendarium Austriacum

(٦) Tegernsee

خلال القرون من الحادى عشر وحتى الثالث عشر. وقد دخلت مدرسة التصوير التى ابتدعت أسلوباً جديداً فى الرسم فى عهد محب الكتب الأب **إيلنجر** ١٠١٧-١٠٤١م[١] ـ وقد كان هو نفسه رساماً ومزخرفاً ـ فى منافسة حادة مع منسخ الدير فى هذا الصدد. وفى هذه المدرسة تم إنتاج المخطوطات المزخرفة لحساب هنرى الثانى؛ وكونراد الثانى؛ وهنرى الثالث وكان عطاؤهم سخياً بحيث أعطوا الأولوية على من عداهم. وفى سنة ١٠٥٤م قدم رهبان الدير لهنرى كتاباً مقدساً مزخرفاً.

وكان لدى الأب **إيبرهارد الثانى** ١٠٦٨-١٠٩١م[٢] خزائن كتب فى الدور العلوى من بازلكا سانت مايكل، وكان يشجع النشاط الخلاق الذى يقوم به الراهب فيرنر الذى كان موهوباً فى الخط والزخرفة. وفى ذلك الوقت دخل إلى الدير الأرستقراطى **ريجينفرد**[٣]، وقدم للدير كثيراً من الكتب للمكتبة.

وفى القرن الثانى عشر وحيث حل الانهيار بأماكن كثيرة،و بلغ هذا الدير شأواً عظيماً تحت إدارة الأب **روبيرت** ١١٥٤-١١٨٦م[٤] وفى مدرسة الدير كان العالم فيرنر يدرس الكلاسيكيات بهمة ونشاط. وفى منسخ الدير كان النساخ يعملون بجدية غير مسبوقة. وكان الكثير من المخطوطات يتم إعداده لتزويد مكتبة الدير بها، كما كان يتم إنتاجها لحساب الآخرين من خارج الدير، فهذا هو فردريك الأول يطلب كتب الصلوات والتعاليم بعدما سمع عن تفوق هذا الدير وتميزه فى إنتاج المخطوطات وعن المستوى الرفيع للناسخين فيه. كذلك طلب إلى فيرنر إعداد خريطة للعالم بمساعدة الأب روبيرت. ومما يذكر عن هذا الدير أن مواد وأدوات الكتابة التى كان يستعملها ـ الرقوق والأحبار ـ كانت من الأنواع الفاخرة التى تحسده عليها الأديرة الأخرى.

---

(١) Elinger

(٢) Eberhard II

(٣) Reginfrid

(٤) Rupert

وكثيراً ما كانت تأتى إلى الدير طلبات استعارة وكانت تلبى كلها طالما كانت فى الإمكان. وكان من بين الشخصيات البارزة فى طلبات الاستعارة هذه الكونت **برتولد من آندكس**[١]. وكان فى سنة ١١٨٠م قد طلب استعارة كتاب بلينى الذى قام الأب إيلنجر بزخرفته بصور الحيوانات وكتب أخرى لبطليموس وكتاب بالألمانية عن الدوق أرنست. كما كان الأدب الشعبى متاحاً فى تلك المكتبة، مثل تلك الأغنية القديمة عن مؤسس الدير مما يدخل فى باب المصادر التاريخية. ويقال أن أحد رهبان هذا الدير قد أعد مخطوطة عن القصة الوسيطة الباكرة وقدمه لهنرى الثالث سنة ١٠٤٣م.

بندكتبيرن[٢]

كان هذا الدير قد دمر عن آخره ولذلك قام الأب إيلنجر سنة ١٠٣١م بإعادة بنائه. وقد قام الأب ورهبانه من تجرنسى بإحضار الكتب معهم إلى الدير، أى الكتب الأساسية اللازمة لإعادة بناء المكتبة. وتولى المنسخ إنتاج عدد كبير من الكتب مما أدى إلى زيادة واضحة فى المجموعات الأولى المتواضعة وقد استعار الأصول لنسخها من دير تجرنسى. وقد استمر نشاط المنسخ حتى القرن الثالث عشر. وقد وصلنا فهرس مؤرخ بسنة ١٢٥٠م يشتمل على ٢٦٧ مخطوطة. ومن الغريب أن هذا الفهرس لايتضمن كتاباً هاماً يقال أنه أنتج فى هذا الدير فى القرن الثالث عشر هو كتاب «**كارمينا بورانا**»[٣]. ويقول كارل كرست بأن عدم إدراج هذا المخطوط فى الفهرس يشكك فى أن يكون هذا العمل من إنتاج منسخ هذا الدير.

فيزوبرون[٤]

كان هذا الدير مهجوراً ثم أعيد إعماره بين سنتى ١٠٥٧ و ١٠٦٥م وكانت له

Berthold of Andechs (١)

Benedictbeuren (٢)

Carmina Burana (٣)

Wessobrunn (٤)

سمعة طيبة ووزن بين الأديرة. وفى هذا الدير كما سبق أن أشرت خلال السنوات ١٠٨٠-١١٢٠م كان للراهبة دايمود[١] نشاط نسخى محمود وبسبب تواضعها الشديد فإنها لم تستخدم اسمها فى حرد المتن فى الكتب التى نسختها رغم أنها نسخت وحدها ٤٥ مخطوطة طبقاً لقائمة أعدتها بنفسها. وقد تضمنت هذه الكتب كتب عبادات والعديد من كتب اللاهوت الأخرى.

وفى سنة ١٢٤٠م أعد أمين المكتبة **كونراد بوزو**[٢] فهرساً تضمن ١٣٩ مخطوطة بعد استبعاد كتب الصلاة. ولكن كما حدث فى كثير من الأديرة الأخرى ماتت الرغبة فى المكتبات ونسخ الكتب، ولم تبعث إلا فى القرن الخامس عشر مع حركة الإصلاح الدينى.

شييرن[٣]

وجد فن زخرفة الكتب أرضاً خصبة ودعماً قوياً فى بافاريا السفلى فإلى جانب دير سانت إميرام وبروفننج، نشأ مركز ثالث لتصوير الكتب، هذا المركز كان فى دير شييرن، حيث وجد فى هذا الدير فى بداية القرن الثالث عشر موهبة فذة فى تصوير الكتب تمثلت فى راهب يدعى **كونراد**[٤]. وكان فى نفس الوقت أمين مكتبة مثالى ومثقف على درجة عالية من العلم. وكان عمله الأساسى إنتاج كتب صلاة الفجر. وكان يعمل تحت إشرافه عدد كبير من مزخرفى الكتب الذين يكنون له كل تقدير.

وقد اشتهر دير شييرن بإنتاج الكتب المصورة. وكانت عبارة عن نصوص مصحوبة دائماً باسكتشات بسيطة، وهو نمط شاع فى الإنتاج الفكرى الألمانى. ولقد شهدت المنطقة حول ريجنزبرج وشييرن إنتاج أول مخطوطات مصورة باللغة

---

(١) Diemud

(٢) Cornrad Bozo

(٣) Scheyern

(٤) Conrad

الألمانية فى مجال الشعر مثل إنيادة هنريتش فون فيلدكه و «مريم العذراء لفيرنر»[1] الموجود الآن فى برلين. وغير ذلك من الأعمال التى وصلتنا من هذا الدير.

بامبرج[2]

بلغ منسخ ومكتبة دير ميشيلزبرج[3] أوج مجدهما فى القرن الثانى عشر. يدلنا على ذلك التقرير الثقة الذى وضعه الرئيس بورخارد[4] الذى كانت المكتبة فى عهدته بين ١١١٢-١١٤٧م. لقد خلف لنا بورخارد ٢٦ قائمة كتب، اثنتان منها تكشفان عن زيادة الكتب فى عهده كأمين للمكتبة، وهناك قوائم بالكتب التى أهداها الرهبان أو نسخوها للمكتبة. هذه القوائم فى مجملها تحصر ١٤٥ مخطوطة كانت هى كل مقتنيات المكتبة من بينها ١١٨ مخطوطة تم إعدادها فى منسخ الدير. وقد وصلتنا قصيدة طريفة فيها حصر لسبعة عشر نساخاً كانوا يعملون فى نسخ الكتب فى الدير وتصف هذه القصيدة إنجازات كل منهم. وكان واحد منهم مصوراً وآخر مشرفاً ولكن القصيدة تصفهم جميعاً بالصبر والأناة ودقة العمل. وهذه الصورة المتكاملة للعمل فى منسخ دير بامبرج لم نتعود عليها، كما لم نتعود نحن الوقوف على تفاصيل العمل فى تصوير المخطوط؛ كما وقفنا عليها فى هذا الدير. وفى تقرير بورخارد أيضاً نجد تعليقات فقط على المخطوطات مجهولة الأصل والهدايا التى قدمها الراهبان: فروتولف و ثييمو قبل سنة ١١٢٢م[5].

وإذا توجهنا صوب مكتبة كاتدرائية بامبرج فإن المعلومات التى وصلتنا عنها هى بصفة عامة محدودة وقليلة الجدوى. وكان إنتاج المخطوطات المزخرفة فى هذه

---

(١) Eneide/ Heinrich von veldeke; Marianleben/ Werner

(٢) Bamberg

(٣) Michelsberg

(٤) Burchard

(٥) Frutolf; Thiemo

الكاتدرائية يتم قبل ترك الأسقف أوتو لبامبرج متوجهاً إلى **بوميرانيا** سنة ١١٢٧م(١)، وفى فهرس لهذه المكتبة وضعت ملحوظات أمام ٩٦ مجلداً وصفت بأنها «**كتب بدون زخارف ذهبية أو فضية أو عاجية**»(٢). ومن الأدلة الهامة عن وجود كتب كلاسيكية في مكتبة الكاتدرائية وازدهار هذه الدراسات فى مدرستها أنه فى سنة ١٢٠٠، استعار (**الأستاذ ريتشارد**)(٣) مائة وثلاثين عملاً من هذا النوع.

وتكشف الفهارس التى وصلتنا من مكتبات بامبرج عن تنوع مقتنياتها وكبر حجم المجموعات في الكلاسيكيات والكتب العلمانية. هذه المجموعات مكنت راهب دير ميشيلزبرج «**فروتولف**» سابق الذكر (المتوفى سنة ١١٠٣م) والمعروف بالواهب، مكنته من أن يؤلف كتابه الشهير «**الحوليات**»(٤) أوسع وأشمل تاريخ للعالم وأكمل عمل من نوعه شهدته العصور الوسطى.

مكتبات الأديرة والكاتدرائيات فى ساكسونيا

مرة أخرى فى هذه الفترة كما فى الفترة السابقة نواجه بنقص شديد وفقر فى المعلومات الخاصة بالمكتبات فى ساكسونيا. ومن النتف التى تبعثرت هنا وهناك عن تلك المنطقة نعرف أن الكاتدرائيات والأديرة كانت تتلقى هدايا وهبات كثيرة. ولقد تلقت مكتبة الكاتدرائيات التى ترجع إلى سنوات ٨٤٠-٨٥٣م مجموعة كتب كبيرة خاصة **بالقانونى ماركوالد**(٥) (الذى توفى سنة ١١٤٧م فى تروى). والتى تضمنت محاضراته وعظاته ذات الأسلوب الرومانسى المبكر فى ساكسونيا. كما قدم الشماس **هاردراد**(٦) ١١٥١-١١٧٩م إلى مكتبة الكاتدرائية نسخة من إنجيل مرقص فى تجليد رومانسى ضمن مجلدات أخرى.

(١) Bomerania

(٢) Librisine auro et argento et abore

(٣) Majister Richard

(٤) Chronicon

(٥) Markwald

(٦) Harderad

وفى ميرزبورج قام الأسقف **ويجبرت** ١٠٠٤-١٠٠٩م[١] وهو طالب سابق فى مجدبورج بتقديم مجموعة مخطوطات إلى مكتبة الكاتدرائية تحمل عبارة «**ويبرتوس الفقير**»[٢] كما قام **تيتمار**[٣] الذى قرظ سلفه ويجبرت فى كتاباته بزيادة وتنمية مجموعات المكتبة. كذلك قام الأسقف فيرنر ١٠٥٩-١٠٩٣م الذى أسس دير سانت بيتر بتقديم عدة مخطوطات لهذا الدير من بينها نسخة من حوليات تيتمار بخط يده.

وقد استمرت مدرسة كاتدرائية هيلدشايم فى ازدهارها كما ازدهرت مكتبتها فى عهد الأسقف **برونو** بصفة خاصة ١١٥٣-١١٦٢، والأسقف **بيرنو** ١١٩٠-١١٩٤م[٤] لقد قدم برونو هدايا قيمة للمكتبة من بينها مخطوطات طبية. وترك تعليمات إلى أستاذ يدعى إيكارد بتقديم كتبه اللاهوتية إلى الكاتدرائية، فى حالة ما إذا لم يعد من رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة.

كذلك فإن دير **جودهارد**[٥] قد تلقى كثيراً من المخطوطات اللاهوتية بفضل الجهود التى بذلها الأب فريدريتش ١١٣٦-١١٥١.

إن هذه النتف العابرة إنما تدل على استمرار المكتبات القديمة واستمرار الرغبة فيها من جانب المؤسسات الأم. ومع هذان فقد كان هناك مكانان فقط يحظيان بهدايا وهبات الشخصيات الهامة هذا المكانان هما: **مندن وكورفى**.

منـدن[٦]

قام الأسقف **سيجبرت** ١٠٢٢-١٠٣٦م[٧] بتأسيس منسخ فى هذا الدير، وقد

---

(١) Wigbert

(٢) Wipertus Pauper

(٣) Thietmar

(٤) Bruno, Berno

(٥) Godehard

(٦) Minden

(٧) Sigebert

استعار الأصول التى ينسخها من دير سانت جال البعيد. ويبدو أن هذا المنسخ كان يعمل فقط بتعليمات شخصية من الأسقف ولم تكن هناك خطة عامة له. حيث توقف عمله الدؤوب فى مخطوطات الكنيسة بمجرد وفاته.

وقد حصل العمدة الكبير عمدة براندنبورج ١٦٤٠-١٦٨٨ : **فردريتش وليام**(١) على عشر من هذه المخطوطات أحضرها إلى مكتبته فى برلين ١٦٨٣. وفى تلك الأثناء كانت هذه المخطوطات التى كانت توصف بأنها «**كتب ليست محلاة بالفضة وإنما بالذهب والجواهر**»(٢) ماتزال محتفظة بجلودها المذهبة تلك، إلا أنها فقدت تلك الجلود الفاخرة فى زمن فردريتش.

وكانت مندن كذلك هى المكان الأصلى لأحد الفهارس الذى أعد سنة ١٠٥٠م والذى يسجل ٥٦ عملاً أنتجت فى مندن؛ وجمعت فى ثلاثة وثلاثين مجلداً لحساب برناردوس. ومع استثناءات قليلة كانت هذه الأعمال قد أعدت لأغراض التدريس وتعطينا فكرة عامة عن مجالات التدريس وطرقه فى مدرسة كاتدرائية مندن. هذه المجموعة كانت تدور حول موضوعات: اللغة؛ البلاغة؛ الجدل؛ الشعر؛ والمؤلفين الكلاسيكيين الوثنيين وتخدم كمجموعة نموذجية فى مدارس الكاتدرائيات والأديرة فى القرن الحادى عشر والثانى عشر. وقد قادت طبيعة المدرسين والطلاب الجوّالة فى ذلك الزمان إلى إقامة علاقات وثيقة بين المدارس، وكذلك إلى تجانس فى مجموعات الكتب وتشابهها فى تلك المدارس. كما تفسر بروز عدد كبير من الكتاب وتمهيد الطريق إلى ظهور البحث العلمى.

كورفى(٣)

من بين آباء دير كورفى يبرز **ويبالد** ١١٤٦-١١٥٨م(٤) بصفة خاصة والذى عمل كأب ومستشار ورئيس ديوان لثلاثة أباطرة. ولثقة كونراد الثالث به نقله من

(١) The Great Elector: Friedrich William

(٢) Libri auro gemmisque nec non argento ornanti

(٣) Corvey

(٤) Wibald

ستابلو[1] إلى كورفي. وكان قد خلف وراءه في ستابلو مكتبة عظيمة. وتكشف مراسلاته عن الجهود العلمية التى بذلها هناك. كذلك تكشف القائمة الطويلة بالكتب التى اقترحها على القانونى **مانيجولد من بادربورن**[2] (الرسالة رقم ١٦٧) عن معرفة غير عادية بالكتب الكلاسيكية الرومانية والمؤلفين الرومان. وكان المؤلف الأثير لديه هو شيشرون. وكان يحاول جمع الأعمال الكاملة له قدر الاستطاعة. وكان يبحث عن كتب شيشرون لمكتبة الدير على نهر فيزر. ولقد قام **رينالد من دازل**[3]، رئيس هيلدشايم ١١٤٨-١١٥٤م بإرسال مخطوطات شيشرون المتوافرة لديه إلى ويبالد. ولكن عندما طلب ويبالد من رينالد أن يعيره كتاباً لأوريجن وآخر عن فنون الحرب، رفض إلا برهن.

ومما يحمد للأب ويبالد فى سعيه لجمع الأعمال الكاملة لشيشرون أنه جمعها كلها في مجلد واحد. ومن حسن الحظ أن هذا المجلد وصلنا (وهو موجود الآن فى مكتبة برلين تحت رقم ٢٥٢ مخطوطات لاتينية) وكان قد أخذ إلى ديز إيرفورت ثم إلى برلين سنة ١٨٣٢. ويعتبر أكمل تجميع لأعمال شيشرون فى العصور الوسطى. ولهذا العمل أهمية قصوى فى قضية نقد النصوص لاعتماده على العديد من المصادر التى فقد بعضها ولم يصلنا.

ومن بين الأديرة التى كانت واقعة تحت تأثير كورفى ذلك الدير الصغير فى **نورتهايم**[4] الذى أسسه الكونت أوتو عدو هنرى الرابع. وهذا الدير كالدير الأم كانت به مجموعة كتب جيدة فى الكلاسيكيات.

إيرفورت[5]

بدأ دير إيرفورت يحتل مكانته كمركز فكرى فى منطقة **ثورنجيا**[6]، وانتهت

(١) Stablo

(٢) Manegold of Poderborn

(٣) Reinald of Dassel

(٤) Northeim

(٥) Erfurt

(٦) Thuringia

هذه المكانة مع إنشاء الجامعة وأكاديمية **امبوليانا**(١). وكان الدير على تل سانت بيتر قد أنشئ طبقاً لرواية داجوبيرت سنة ٧٠٦م ثم أعيد بناؤه سنة ١٠٦٠م، وعمره رهبان جلبوا من هيرساو وكان من بينهم الأب فيرنر سالف الذكر ١١٢٧-١١٣٨. وقد أعيد تنظيم المكتبة والمنسخ باستخدام أصول من جنوبى ألمانيا. وقد عوقت الحرائق المتعددة نمو المكتبة والمنسخ معاً.

مكتبات الأديرة والكاتدرائيات فى أرض الراين

فى هذه الفترة أيضاً استمرت مناسخ أرض الراين في إنتاج المخطوطات الفاخرة. وقد بلغت ورشة إنتاج الكتب فى إيخترناخ درجة عالية من الشهرة بين نظيراتها. كذلك استمر إنتاج أنواع فاخرة من الكتب فى مدينة كولونيا متأثرة فى ذلك بمدينة ترير، تلك المدينة البلجيكية فى القرن الثانى عشر.

كذلك نصادف إنتاجاً متميزاً من المخطوطات فى الأديرة المختلفة مثل: سانت مارتين، سانت بانتليون، سانت جيريون، سانت أبوستلن.

ترير(٢)

لا توجد مصادر معلومات مكتبية بالمعنى الضيق عن مكتبات ترير وتاريخها. وكل مانخرج به من هذه المنطقة الواسعة من مصادر أولية مباشرة ذات أهمية هو فهرس دير سانت ماكسيمين فى ترير. وقد تسببت الهجمات النورماندية على الدير سنة ٨٢٢ فى تدمير الجزء الأكبر من مقتنيات المكتبة ولم ينج منها سوى كسرة صغيرة. وقد أفاد الدير فى فترة لاحقة من أفضال الامبراطور الساكسونى، عندما رفع أوتو الأكبر دير سانت ماكسيمين إلى مستوى **الأديرة الامبراطورية**(٣). وقد انتعشت الحياة الروحية فى الدير تحت تأثير الإصلاح الدينى اللوثرى وقد تم إنتاج العديد من المخطوطات فى منسخ دير سانت ماكسيمين فى القرن العاشر

---

(١) Ampoliana

(٢) Trier

(٣) Abbatia imperialis

وبقيت فيه بعد ذلك. ويكشف أحد الفهارس التى أعدت للمكتبة فى القرن الثانى عشر عن محتويات شبيهة بتلك التى سادت الفترة الكارولنجية. ويشتمل هذا الفهرس على ١٥٠ مخطوطة فقط وربما لم يكن كاملاً. ومن بين المخطوطات التى يجب أن نتوقف أمامها فى المكتبة كتاب عن **اللغة الألمانية**(١)، وثلاثة كتب مكتوبة بالخط الاسكتلندى. ومن الفهرس الذى أعد سنة ١٣٩٣م فى عهد الأب **روريتش**(٢) لانجد سوى ٦٨ مخطوطة مما سجل فى الفهارس السابقة مما يدل على حدوث تغييرات جوهرية فى مقتنيات المكتبة.

ويرى كارل كرست أن كلا الفهرسين جاء مخيباً للآمال حيث لانجد أثراً للكتب الكلاسيكية. ولكن يبدو أن مكتبة الكاتدرائية كانت تضم مجموعة لابأس بها من تلك الكتب الكلاسيكية، نستشف ذلك من بعض الإشارات الببليوجرافية التى بعث بها مدير مدرسة الكاتدرائية إلى الأسقف. هذه الإشارات الببليوجرافية التى صيغت على شكل قصيدة يبدو أن كاتبها هو الباحث الرئيسى وأمين المكتبة لمجلس سانت بيتر والذى كانت وصيته الأخيرة سنة ١٠٧٥م.

الأديرة الألمانية للراهبات(٣)

لم تستطع الأديرة الصغيرة فى ألمانيا أن تقدم إضافات لا بأس بها فى مجال الكتب والمكتبات فى القرن الثانى عشر. وتعكس التعليمات التى جمعها **آبلارد** لصديقته **هلواز**(٤) فكرته عن المهمة الأساسية السليمة للراهبة. فقد نصح الراهبات بالتضلع فى المعرفة الكلية الشاملة. وألح على ضرورة وجود المكتبة وعهد بها إلى نائبة الأم فى الدير. وقال بأن نائبة الأم يجب ألا تشغل نفسها بتعليم الموسيقى والغناء (الإنشاد) بل أيضاً تختار الكتب للقراءات العامة وتشرف على خزائن الكتب، وتعير الكتب وهى المسئولة الأولى عن تنمية مقتنيات المكتبة. وفى سبيل تحقيق هذه الغاية، أناط بها مسألة الإشراف على نسخ

(١) Liber teuthonicus

(٢) Rorich

(٣) German Convents

(٤) Abelard, Heloise

وزخرفة الكتب. ولقد تحقق هذا النموذج المثالى فى أدمونت، فيزبرون وإلى حد كبير فى الأديرة الصغيرة فى غربى ألمانيا. ولقد شهد دير **روبيرتزبيرج**[١] على فم نهر **ناهى** الجهود العظيمة التى بذلتها الأم **هيلدجارد**[٢] فى مجال نسخ المخطوطات ١١٥١-١١٧٩. وبعض مخطوطاتها الآن موجودة فى فسبادن ومنها قصة حياتها. وفى نفس هذا الدير كتبت حياة قديسة أخرى هى القديسة **اليزابيث من شوناو**[٣] والتى كتبت فى نفس الفترة تقريباً ١١٥٢-١١٦٤. ويبدو أن رسم وجهى القديستين قد تم بالتعاون بين فنانين، على الأقل بالنسبة لمخطوطة هيلدجارد. ذلك أن الألوان الفاخرة والقدرة على الابتكار والمزج بين الشكل والمعنى أعطت صورة غير مسبوقة ولا نظير لها من الرضى على وجهها.

وعلى العكس من تعاليم آبلارد فإن «**حديقة المباهج**»[٤] التى كتبتها وصورتها الأم هيراد من **لاندزبرج**[٥]، الأم فى دير **أودلنبرج** الصغيرة كدائرة معارف عامة للراهبات، جاءت مجرد كتاب تعليمى بحت. ورغم الثراء الواضح فى إيضاحياته والأصالة فيها إلا أن الألوان الباهتة للصور فى النسخ المتاحة قللت من قيمة العمل. ولقد احترق هذا المخطوط باحتراق المكتبة سنة ١٨٧٠. لقد تعلمت هيراد فن الرسم من سابقتها **ريلنديس**[٦]، وطورته فى دير أدمونت فى النمسا وهو الدير الذى عرف بتميزه فى إنتاج الكتب.

إن أعمال هؤلاء النسوة الراهبات سبقتها أعمال لراهبة أخرى هى **جوتا من شوارتزنتان**[٧]، الراهبة الأوغسطينية التى زخرف التقويم الذى وضعته بصور حية

---

(١) Rupertsburg

(٢) Hildegard

(٣) Elizabeth of Schönau

(٤) Hortus deliciarum

(٥) Herrad of Landesberg abbess of Odilienberg Convent

(٦) Relindis

(٧ Juta of Schwartzentann

لكل شهر من الشهور، وقد وضع صوره هذه، الراهب **سنترام من مارباخ** سنة ١١٠٤م[١].

الأديرة الاسكتلندية فى ألمانيا

تمخضت هجرات الكلتيين إلى القارة الأم فى القرن الحادى عشر عن إنشاء العديد من الأديرة الاسكتلندية فى جنوبى ألمانيا. وقد جاءت بواكير دوافع إنشاء هذه الأديرة على يد الراهب الأيرلندى الرحال **ماريانوس اسكوتوس**[٢]، الذى أنشأ دير سانت جاكوب فى ريجنزبرج سنة ١٠٧٦م. وقد حذا حذوه كثيرون. وقد أنشئ عديد من الأديرة إهداء لروحه فى فيرتزبورج، ايرفورت؛ كونستانس. وقد عمر دير فيينا برهبان جلبوا من ريجنزبورج سنة ١١٦١. ومثل أسلافهم الأيرلنديين عمل هؤلاء الرهبان بالتدريس والبحث وإنتاج الكتب بهمة لا تعرف الملل أو الكلال. وكما كان ماريانوس آخر آباء هؤلاء الرهبان الرحالة كان آخر قديس كتب أيرلندى. ورغم أن الأساطير تنسب إليه كتابات كثيرة إلا أن الكتاب الثقة المكتوب بخط يده والذى وصلنا هو مخطوطة فيينا التى تتضمن رسائل بول مع تعليقات أيرلندية والمؤرخة ١٠٧٩م. ولقد بدأ ذوبان الأديرة الاسكتلندية فى المجتمع الألمانى فى القرن الخامس عشر، واختفى الرهبان الأيرلنديون وباختفائهم اختفت مكتباتهم.

إصلاح الأديرة وظهور طوائف ديرية جديدة

هيرساو[٣]

نتعرض الآن لبعض الأديرة التي دانت بوجودها إلى حركة الإصلاح، وللرجل الذى أعطى الدفعة القوية الراهب الكلونى المثالى **وليام أب دير هيرساو** ١٠٦٩-١٠٩١م[٤]. لقد كان وليام هذا هو الذى جمع التعاليم للكلونيين

(١) Sintram of Marbach

(٢) Marianus Scotus

(٣) Hirsau

(٤) William Abbot of Hirsau

المعروفة باسم **تعاليم هيرساو**[١] والتى كانت لها بصماتها الواضحة على كل الأديرة وحياة الرهبنة فى ألمانيا. ورغم أنه كان راهباً مرتبطاً بحياة الرهبنة والحياة الديرية الصارمة، إلا أنه كان واسع الأفق، واسع النظرة إلى المستقبل أكثر من كل معاصريه. وقد رفض نظرة التطرف التى لم تكن ترى إلا المزامير فى الأديرة. ورغم أنه هو نفسه لم يكن لديه وقت للكتب الكلاسيكية إلا أنه كان يرى ضرورة تعليم العلوم العلمانية إلى جانب العلوم اللاهوتية. وكان وليام يرى أن النسخ هو من أهم واجبات الراهب ولقد تتبعه فى هذا الاتجاه صديقه وتابعه تلميذه فى مرسة سانت إميرام فى ريجنزبرج أوتلوه سابق الذكر.

لقد غيرت التعليمات الجديدة التوصيف القديم للخازن وأدمجت وظيفته مع وظيفة رئيس المنشدين. ويذكر **تريتميوس**[٢]، مؤرخ هيرساو، أنه كان فى المنسخ اثنا عشر ناسخاً كانوا يعملون تحت إشراف مصحح متعلم. ولقد تكونت هناك مكتبة ثرية وصفها فهرسها الذى أعد لها بعد ١١٦٥ بأنها «بلاشك ثروة لا تقارن بها أى مكتبة أخرى». ولقد حذا حذو الدير الأم فى هيرساو مائة وخمسون فرعاً تقريباً. ولقد كانت زخرفة كتب العبادة تتم بعناية فائقة بكل معنى كلمة زخرفة عند الكلونيين ورفعت شأن مدرسة هيرساو فى فن تصوير الكتب، والتى سادت أيضاً فى أديرة زويفولتن؛ بلاوبيرن؛ بروفننج.

لقد وجدت الطوائف الديرية الجديدة فى مناطق الحدود الشرقية والشمالية أرضاً خصبة للعمل خلال فترة الاستيطان. وفى داخل الحدود الألمانية الأصلية نشأ معظم الأديرة على يد السستريين الذين كانت رئاستهم فى **ماريموند**[٣] فى

---

(١) Consuetudines Hirsaugienses

(٢) Trithemius

(٣) Marimond

تشامبين (التى أسست ١١١٥م) وكان أول أب لدير ماريموند هو الأب أرنولد الذى كانت له علاقات وثيقة مع كولون. وكان أول دير سسترى فى ألمانيا قد أنشئ سنة ١١٢٢م فى كامب[١] فى دوقية كولون.

وكان قدره أن يصبح الدير الأم لعديد من الأديرة الفرعية. وبعد دير كامب توالت الأديرة: وولكينرايد؛ إبراخ؛ بفورتا سنة ١١٢٧ ثم فى هيلزبرون ١١٣٢م؛ ثم فى ألتنبرج ١١٣٣م؛ ثم فى سالم ١١٣٤م؛ ثم فى اميلونجزبورن وكايزهايم سنة ١١٣٥م؛ ثم فى مولبرون سنة ١١٣٨م ثم فى ألتزل ١١٦٢م؛ ثم فى لوكوم ١١٧٠م، ثم فى مارنفيلد سنة ١١٨٥م؛ ثم فى هيسترباخ سنة ١١٨٩م ثم فى مارينستات سنة ١٢١٥م. ولقد عمر دير إيبرباخ ١١٣١م، ودير همرود ١١٣٤م برهبان جلبوا من كليرفو.

ولقد عمرت الأديرة السسترية فى النمسا برهبان من هيليجنكروز الذى حظى بعد تأسيسه مباشرة فى سنة ١١٣٤م بزيارة أوتو من فرايسنج الذى أصبح أباً لدير موريموند ١١٣٢-١١٣٨م.

كذلك نجح الديريون السابقون[٢] فى إنشاء عديد من الأديرة ففى كابنبرج أسس الدير سنة ١١٢٢م، وأتبع بدير آخر فى ويندبرج سنة ١١٢٥م. أما دير ماريا فى مجدبورج فقد أسس على يد نوبيرت سنة ١١٢٩م؛ ودير لنختستدين فى سنة ١١٣٠م، ودير رومرزدورف سنة ١١٣٥م، ودير ليتزكاو و دير آرنشتين سنة ١١٣٩م. ودير استروهو سنة ١١٤٠م، ودير فيزيناو سنة ١١٤٥م، ودير تيبل سنة ١١٩٣، ساين ١٢٠١م.

كذلك لابد وأن نذكر هنا بعض أديرة القانونيين النظاميين الذين كان لهم دور فعال فى هذا الصدد من بينها دير سانت نيقولى فى باساو الذى أسسه الأسقف ألتمان سنة ١٠٦٧م الذى كان أداة فعالة فى نشر البيوت الأوغسطية فى وادى

(١) Kamp

(٢) Premonstratensians

الدانوب. وثمة دير آخر هام أسسه القانونيون النظاميون هو دير هامزليفين الذى أسس سنة ١١١٢م، واشتهرت مكتبته بالكتب الكلاسيكية. وهذا الدير هو الذى قضى فيه هيجو من بلاكنبورج ـ الذى أصبح فيما بعد القديس هيجو فى باريس ـ سنى تعليمه. ومن بين الأديرة الأخرى التى أسسها هؤلاء القانونيون النظاميون خلال فترة الإصلاح نجد: اندرزدورف سنة ١١٢٠م، نيومنستر - بوردزهولم فى سنة ١١٣٦م ثم ريدوزف سنة ١١٥٩م.

٣- النمسا

لقيت الرهبنة الجديدة نجاحاً منقطع النظير فى النمسا، حيث كان الاستيطان هناك على أشده. ومع تأسيس دوقية النمسا فى ١١٥٦م استقرت الحدود الشرقية لألمانيا آنذاك. ولقد بدأ البندكتيون الاستقرار فى النمسا فى القرن الحادى عشر. وفى القرن الثانى عشر لحق بهم القانونيون النظاميون ثم السستريون ثم الديريون السابقون.

وكما هو الحال فى كل أنحاء أوربا العصور الوسطى، ترتبط بدايات المكتبات وتاريخها إرتباطاً وثيقاً بالأديرة وتاريخها. ولقد بدأت الأديرة الباكرة هنا فى النمسا فى عهد دوقات **أجيلوفنج**(١). وفي عهد الامبراطور شارلمان دفع بالحدود فيما وراء نهر **إنز**(٢)، تلك المنطقة التى كانت تابعة ولفترة طويلة لدوقية بافاريا بالمعنى السياسى والدينى على السواء. أما مناطق ألباين فقد كانت تابعة تماماً لسالزبورج التى اكتسبت وضعها من قرار شارلمان بجعلها حاضرة دينية سنة ٧٩٨م. وكان وادى الدانوب هو مسئولية باساو، ومن الناحية الدينية يتبع دوقية سالزبورج إلى أن أنشئت دوقية النمسا المستقلة سنة ١٤٦٩. ومن بين الأديرة العديدة التى أنشأها الدوق تاسيللو (٧٤٨-٧٨٨م) فى النمسا كانت هناك الأديرة الباكرة الآتية: موندسى سنة ٧٤٨؛ كريمزمونستر ٧٧٧م؛ ماتسى بالقرب من سالزبورج

(١) Agilofing

(٢) Enns River

٧٨٤م؛ دير إنيخين فى كارنتن والذى أسس سنة ٧٦٩م كدير فرعى من دير فرايسنج. أما أديرة ماريا سال فى كارنتن وسانت فلوريان وسانت بولتن فقد جرى تأسيسها فى القرن الثامن.

وباستثناء مكتبة دير كريمزمونستر فإننا لانعرف إلا أقل القليل عن المكتبات ومقتنياتها فى الأديرة الباكرة فى النمسا. ومع ذلك فإننا نفترض أن تكون هذه المكتبات قد جرى تزويدها عن طريق الأديرة الشقيقة فى الغرب وخاصة تلك الموجودة فى بافاريا. بيد أن الغزوات المجرية قد دمرت كما رأينا تلك الأديرة الباكرة ومكتباتها. ومن ثم يعتبر القرنان الحادى عشر والثانى عشر أهم فترة فى حياة الأديرة والمكتبات الديرية فى النمسا. ومن الناحية العملية البحتة كان لكل منطقة خصوصيتها وعلاماتها المؤثرة فى تاريخ المكتبات والعمل المكتبى. وفى النمسا ربما أكثر من أى مكان آخر كانت هناك تقاليد مكتبية خاصة ظلت محتفظة بها ربما حتى يومنا هذا.

لقد شهد **وادى الدانوب**[1] إنشاء الأديرة الآتية فى التواريخ المثبتة قرين كل منها:

ملك ٩٨٥م

لامباخ ١٠٥٦م

سانت فلوريان ١٠٧١م

جونفيج ١٠٧٢م

جارستن ١٠٨٠م

رايخرزبرج ١٠٨٤م

كلوسترنبورج ١١٠٦م

سيتنستين ١١١٢م

جلينك ١١٢٠م

---

(١) Danube Vally

ميليجنكروز ١١٣٤م

زيفتيل ١١٣٨م

ألتنبورج ١١٤٤م

فيلهيرنج ١١٤٦م

جيراس ١١٥٣م

الدير الاسكتلندى فى فيينا ١١٥٨م

(برهبان من اسكتلندة وأيرلندة)

ليلنفيلد ١٢٠٦م

شلاجل ١٢١٨م

أما فى منطقة استيريا[١] فقد أسست فيها الأديرة الآتية فى التواريخ الموضحة قرين كل منها:

أدمونت ١٠٧٤م

سانت لامبرخت ١٠٧٦م

راين ١١٢٩م

سيكاو ١١٤٠م

فوراو ١١٦٣م

وفى منطقة كارنتن[٢] أسست الأديرة الآتية فى التواريخ الموضحة قرين كل منها:

أوسياخ ١٠٢٤م

جورك ١٠٧٢م

ملشتات ١٠٨٨م

---

(١) Styria

(٢) Kärnten

سانت بول ١٠٩١م

فيكترنج ١١٤٢م

وكما أشرت من قبل فإن الغالبية العظمى من تلك الأديرة كانت أديرة بندكتية بالدرجة الأولى والقلة كانت لطوائف أخرى فقد كان للقانونيين النظاميين الأديرة فى: كلوسترنيوبورج؛ سانت فلوريان؛ رانجزبيرج؛ سانت بولتن؛ سيكاو؛ فوراو ثم ماريا سال. وكان للسستريان الأديرة فى: راين؛ فيلهرنج؛ زيفتيل؛ ليلنفلد؛ هيلجينكروز؛ فيكترنج وستامز. أما الديريون السابقون فقد استقروا فى شلاجل؛ فيلتن؛ جيراس.

أما الدير الكارثوزى الباكر فى الامبراطورية الألمانية فقد أسس سنة ١١٦٥م على يد مرجراف **أوتوكار الخامس** فى سيز[١] بالجزء اليوغوسلافى من إستيريا.

* * *

لقد اكتسب النشاط الفكرى فى سالزبورج فى منطقة ألباين طابعاً هاماً بعد تأسيس أدمونت سنة ١٠٧٤م وإنشاء دوقية جورك بعد الجهود العظيمة التى بذلها الأسقف **جيبارد**[٢] سنة ١٠٧٢م. وتدين المستوطنات الجديدة فى وادى الدانوب بوجودها أساساً للأساقفة من باساو الذين قاموا تحت إشراف كل من بلجريم و ألتمان بالتوسع فى سياسة الاستيطان شرقاً. وقامت كاتدرائية باساو وديرها بإمداد أديرة الدانوب بالكتب والباحثين. وقد عرف عن المكتبة التى أسسها الأسقف أوتو من لونزدورف ١٢٥٤-١٢٥٦ فى باساو أنها كانت تعير الكتب إلى ريخرزبرج ولامباخ وجارستن وسانت فلوريان وسانت بولتن. كما عرف أن الأديرة التابعة لطائفة واحدة كانت تتبادل الكتب فيما بينها. ومن الأمثلة على ذلك العلاقات الوثيقة بين دير كلوسترنيوبورج وفرعه فى سانت نيقولاى فى باساو.

---

(١) Margrave Ottokar V - Seiz

(٢) Gebbard

أما الأصول التى كانت تعتمد للنسخ منها فقد كانت تأتى أساساً من مكتبات بامبرج فى المنطقة المحيطة بـ ريجنزبورج. ومن خلال الجهود التى بذلها السستريون والقانونيون النظاميون، أخذ عدد كبير من المؤلفات والكتابات الفرنسية طريقه إلى مكتبات الأديرة النمساوية.

لقد أخذ تيار الكتب المتدفق من الخارج يساعد فى زيادة عدد الكتب المنسوخة فى مناسخ الأديرة النمساوية التى كان نشاطها فعلاً نشاطاً خلاقاً وإنتاجيتها عالية. والحقيقة أن المعلومات التى وصلتنا عن المكتبات النمساوية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر معلومات قليلة وهزيلة لعل أهمها هى تلك الهدية القيمة التى قدمها شقيق الامبراطور هنرى إلى مكتبة دير جونفج فى القرن الثانى عشر وكان قوام هذه الهدية أربعة وخمسين مخطوطاً.

وكان من بينها كتاب ديونيسيوس باللغة اليونانية والذى يشتمل على جداول وخريطة للعالم. ويرى كارل كرست أن هذه النسخة ربما ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر. ومن بينها كذلك قصيدة بعنوان «وصف العالم المعمور» وربما كانت لنفس المؤلف ديونيسوس. وفى هذه المجموعة العديد من المخطوطات المصورة يبرز فيها لفافة مصورة عن حرب تروجان.

ولقد وصلنا فهارس بعض مكتبات الأديرة من القرن الحادى عشر والثانى عشر: فقد وصلنا من مكتبة دير كريمزمونستر فهرسان ١٠١٢م، ١٠٤٠م؛ كلوسترنيوبورج؛ لامباخ؛ جونفج؛ زيفتيل؛ سانت لامبرخت. وهذه الأخيرة جميعاً وصلتنا فهارس منها ترجع إلى القرن الثانى عشر. ومن سانت فلوريان وصلتنا قوائم استعارة تضم من بين ماتضم كتب لوكان وأوفيد. وقد وصلنا من القرن الثالث عشر فهارس أكثر. ومن بينها فهارس مكتبات أديرة: كلوسترنيوبورج؛ كريمزمونستر؛ ليلنفلد؛ لامباخ؛ ألتنبورج؛ بومارتنبرج؛ زيفتيل؛ فوراو.

وتحمل المخطوطات التى وصلتنا من تلك المكتبات أدلة دامغة على ازدهار تلك

المكتبات وعظمتها، تلك المخطوطات التى أنتجت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. ومن بين تلك المخطوطات ذخائر باللغة الألمانية العليا الوسيطة عبارة عن كتب أسئلة وأجوبة وقصائد دينية من كلوسترنيوبورج؛ ملك؛ فوراو؛ موندسى؛ سيكاو؛ ملشتات.

وعلى نفس قدر المعلومات القيمة الموجودة فى تلك المخطوطات تجئ زخرفة جلود تلك المخطوطات وتبلغ الزخرفة قمتها منذ البداية فى المخطوطات الدينية وتلك التى تقدم كهدايا. وإن كانت مثل تلك المخطوطات قليلة نسبياً فى القرن الحادى عشر إلا أنها كثيرة فى القرن الثانى عشر، بسبب التقدم الذى حققته المناسخ فى ذلك القرن. لقد بدأ هذا الاتجاه فى سالزبورج التى ساد أسلوبها فى الزخرفة فى المنطقة كلها وقد نقلت عنها المناسخ الأخرى بدرجة أو أخرى من المهارة والإتقان كما حدث فى أديرة: أدمونت؛ موندسى؛ سانت لامبرخت.

وكانت الأديرة النمساوية هى الأخرى حريصة على تسجيل تواريخها وأحداثها، وهى التواريخ التى اتخذت شكل الحوليات أيضاً متأثرة فى ذلك بالنمط البافارى.

ويدين دير فوراو لرئيسه الثانى **بيرنهارد** الأول ١١٨٥-١٢٠٢م[١] بمجموعته الثمينة من الشعر الألمانى **والحوليات الامبراطورية**[٢]. وهى أول تاريخ عالمى شامل فى اللغة الألمانية، ونأخذ عينة على الأديرة النمساوية من دير أدمونت.

أدمونت[٣]

أسس هذا الدير فى سنة ١٠٧٦م كبير أساقفة سالزبورج **جبهارد**، وجلب له الرهبان من دير سانت بيتر فى سالزبورج. وهو فى نفس الوقت الذى أنشأ مكتبة الدير وقدم لها المجموعات الأولى هدية من عنده. ولقد عانى الدير الفتى من

---

(١) Bernhard

(٢) Kaiserchranik

(٣) Admont

جراء الصراعات الداخلية والغزو الخارجي والتخريب. ولقد نظمت الحياة الروحية لرهبان الدير بعد اللوائح الصارمة التي جاءت من هيرساو، كما تأثرت تلك الحياة بمؤثرات من سالزبورج رغم بقاء الرهبان على علاقات وثيقة بدير هيرساو والأديرة الأخرى مثل سانت إميرام، بروفننج، سانت مايكل فى بامبرج، كريمزمونستر وغيرها.

وكان الأب **جوتفريد الأول** ١١٣٨-١١٦٥م[١] يراسل باستمرار جيرهوه فى دير ريخرزبرج وغيره من الباحثين فى زمانه. ولقد ساعد فى تنمية المكتبة وقام بنفسه على تأليف عدد من الكتب بينها كتب الشعائر. ولقد طلب مخطوطات من دير تجرنسى لنسخها فى أدمونت. ووضع أسس مدرسة للدير حازت شهرة واسعة وتقديراً عظيماً. وقد أدت جهود هذه المدرسة إلى تطوير مكتبة الدير تطويراً عظيماً وقد سار أخوه **إيرمبيرت**[٢] (المتوفى سنة ١١٧٧م) عندما أصبح أباً للدير على هديه فى تنمية المكتبة وتأليف الكتب حيث كتب عدة شروح على الكتاب المقدس.

ولقد وصلتنا من القرن الثانى عشر أسماء عدد من أمناء المكتبة فى أدمونت من بينهم **بيتر دى أربونا**[٣] (أربونا مدينة على بحيرة كونستانس) الذى أعد فهرساً بمقتنيات المكتبة سنة ١٣٧٠م وآخر سنة ١٣٨٠م والفهرس الأول تضمن ٦٢٣مخطوطاً والثانى ٨٠٥ مخطوطات. وقد بدأت الفهرسة فى نفس الوقت الذى تم فيه وضع القواعد الخاصة بإدارة المكتبة. وقد وصلنا من مكتبة أدمونت اليوم ١٠٦٠ مخطوطة من بينها ٢٢١ مخطوطة مزخرفة نصفها تقريباً (١٣٠ مخطوطة) ترجع إلى ماقبل ١٢٠٠م.

كذلك فإن الدير الصغير الذى أنشئ بالقرب من أدمونت سنة ١٢٢٠م كان

---

(١) GottFried I

(٢) Irimbert

(٣) Peter de Arbona

يقطنه راهبات متعلمات قمن بنسخ العديد من المخطوطات. وقد عبر البابا إنوسنت الثانى عن عظيم إمتنانه وشكره للراهبات اللائى أهدينه مخطوطاً رائعاً يتضمن سيرة إحدى القديسات فى هذا الدير إدمونت. وقد أهدى جيرهوه من ريخرزبورج شرحه للمزامير إلى راهبات الدير. وكان من بين الراهبات النشيطات فى النسخ **ريلندس**(١)، التى أرسلها الأسقف إيبرهارد من بامبرج سنة ١١٥٦م لتنفيذ البرنامج الإصلاحى الجديد فى دير بيرجين بالقرب من نيوبورج على نهر الدانوب. ومن بيرجين وسمها الامبراطور فردريك بربروسا لتصبح الأم فى دير أوديلنبرج فى هوهنبورج فى الألزاس حيث كانت السلف العظيم للراهبة الشهيرة هيراد من لاندزبرج؛ التى أشرنا إليها من قبل.

٤- اللورين(٢)

كانت **متز**(٣) بمثابة المركز الفكرى لمنطقة اللورين الكنسية والتى كانت تدار من مدينة **تريير**. وفى مدينة متز كانت هناك مكتبة كاتدرائية عظيمة القدر. وفي خلال الفترة الأوتونية قام الأسقف تيودوريك الأول كما أسلفت ٩٦٥-٩٨٤ بمساعدة العلم والبحث العلمى ومما يذكر عنه أنه أوقف مجموعة كتب كبيرة جلبها معه من إيطاليا على ديره: **سانت فنسنت**(٤) ولقد وصلنا فهرس يسجل المخطوطات التى كانت موجودة فى ديرى سانت فنسنت وسانت سيمفوريان، رغم أن هذا الفهرس أعد فى دير سانت آرنولف القريب منهما.

ولعل أهم الأديرة فى هذه الدوقية على الإطلاق هو دير **جورزى**(٥) الذى عُمِّر برهبان من دير لورك أرسلهم من هناك المؤسس **كروديجانج سنة ٧٦٤م**(٦). وفى القرن العاشر أصبح هذا الدير مصدر حركة إصلاح دينى مستقلة ولا علاقة

(١) Relindis

(٢) Lorraine

(٣) Metz

(٤) St. Vincent

(٥) Gorse

(٦) Chrodegang

لها بالحركة الكلونية التى عمت كل ألمانيا، بينما هذه الحركة ظلت محصورة فى منطقة اللورين الأسفل. ولقد احتلت المكتبات والمناسخ فى أديرة اللورين مكانة عظيمة ومن حسن حظنا أن مكتبة جورزى هذه قد وصفت وصفاً جيداً فى فهرس وصلنا عنها يرجع إلى القرن الحادى عشر. ورغم أن هذه المكتبة قد تبددت بعد حركة العلمنة التى قامت فى الدير سنة ١٥٧٢م، إلا أن مخطوطاتها قد وصلنا منها عدد لا بأس به موزعة الآن بين برلين وإبينال وجورلتز و لندن وأكسفورد وباريس وغيرها من المدن، كذلك وصلنا فهرس لمكتبة من نفس الحجم كانت فى دير سانت **إيفر فى تول**(١).

ومن المؤكد أن ثراء مكتبات الأديرة فى منطقة اللورين الأسفل إنما تعزى أساساً إلى وفرة إنتاج المناسخ هناك من المخطوطات وخاصة تلك المزخرفة المزدانة بالصور والرسوم والمجلدة تجليداً فاخراً طبقاً لأسلوب مدرسة ماس(٢). ومن بين الأديرة الغنية بمخطوطاتها والتى وصلتنا عنها فهارس أديرة: **لوبس؛ ستافيلوت؛ برون**(٣). ومن أديرة الدرجة الثانية من حيث المجموعات المقتناة فى مكتباتها يمكن أن نذكر هنا في هذا المقام دير **سانت هوبرت فى آردنيس ودير أفليجيم**(٤) ـ والذى أتبع له دير ماريالاخ سنة ١١١٢م ـ هذان الديران الأخيران وصلتنا عنهما فهارس تكشف عن محتويات المكتبات فيهما. وقد وصلنا فهرس من دير **سانت مارتن فى تورناى**(٥) يسجل ١٦٨ مخطوطة ويرجع إلى القرن الثانى عشر؛ وتؤكد حوليات الدير ذلك. ورغم أن هذا العدد قليل إلا أنه كبير إذا قيس بمكتبات الأديرة المجاورة. ويرجع الفضل فى هذا العدد من المخطوطات إلى جهود الأب رودولفوس (القرن الحادى عشر). وكانت مخطوطات هذا الدير تعتبر نماذج

---

(١) St. Ever - Toul

(٢) Maas School

(٣) Lobbes, Stavelot, Brogne

(٤) St. Hubert in Ardennes; Afliguem

(٥) St. Martin / Tournai

للنسخ والمقابلة والتصحيح. وقد ذكر أحد المصادر اللاتينية «أنك إذا ذهبت إلى الدير فإنك سوف تجد على الأقل اثنى عشر راهباً جالسين على مقاعدهم فى صمت مطبق ينسخون الكتب بإتقان ويزخرفونها بفن أصيل».

أما دير **لوتيخ**[١] فهو يتفوق على كل ما عداه من أديرة المنطقة. هنا قام الراهب الأيرلندى **سيدوليوس اسكوتوس**[٢] (٧٤٨م) بتنظيم المحاضرات والمقررات في الموضوعات العلمية. وقد دخل على مقررات الدراسة فى مدرسة الكاتدرائية فى مطلع القرن الحادى عشر تجديد شامل. وكان للكاتدرائية مكتبة عظيمة القدر اعتمد عليها بعض المؤلفين ومنهم **إيجبرت** فى تأليف بعض الكتب الشاملة.

ولقد وصلنا من مكتبة دير **سانت لورنتيوس**[٣] فهرسان يرجعان إلى تلك الفترة. كما اشتهرت مكتبة دير **سانت جاكوب**[٤] الذى أسس سنة ١٠١٥م وذلك بسبب مجموعة البارون **هوبش**[٥] التى قدمها للدير بعد تأسيسه.

٥- إيطاليا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر

روما وبولونا[٦]

استمرت مكتبة قصر لاتيران فى الازدهار فى هذه الفترة أيضاً. وفى فترة **الصراع على السلطة**[٧] طلب مجلس **البلاط البابوى**[٨] إعداد جرد كامل

---

(١) Lüttich

(٢) Sedulius Scotus

(٣) St. Laurentius

(٤) St. Jacob

(٥) Hüpsch

(٦) Roma and Bologna

(٧) Investiture Struggle

(٨) Curia Romana

لمجموعات المكتبة البابوية هذه. وفى هذه الفترة قام الكاردينال **ديوزديدت**[١] باستخدام مجموعات المكتبة والأرشيف فى قصر لاتيران لإعداد مجلد جامع للقوانين الكنسية المعروف باسم «**كراسى القوانين**[٢]» الذى أهداه للبابا فيكتور الثالث ١٠٨٦-١٠٨٧. كما استخدم كذلك جزءاً يسيراً من المكتبة/ الأرشيف القريبة من **البلاديوم**[٣] التى عرفت فيما بعد باسم مكتبة البرج. هذا البرج الذى دمر سنة ١٨٢٩م. ويعتقد **دى روس**[٤] أن مكتبة وأرشيف قصر لاتيران كانا موجودين فى هذا البرج فى نهاية القرن الحادى عشر فى عهد البابا هونوريوس ١٢١٦-١٢٢٧م دمرت المجموعة عن آخرها سنة ١٢٤٤م. ويرى كارل كريست أن مجموعات مكتبة قصر لاتيران وكذلك الوثائق الأرشيفية قد دمرت معاً مع القصر نفسه فى فترة الصراع وعدم الاستقرار التى أعقبت بابوية هونوريوس الثالث المشار إليه؛ بينما جزء يسير من الأرشيف اللازم لإدارة العمل فى الفاتيكان ومجلدات السجل البابوى كانت محفوظة فى ديوان الإنشاء الذى نقله البابا إنوسنت الثالث من القصر إلى الفاتيكان. ومن هذا المنطلق فإن المكتبة البابوية التى جاءت بعد ذلك لاتتضمن مخطوطات إلا من القرن الثالث عشر ولم ترث أى شئ من المكتبة السابقة عليها وكان بينهما فترة انقطاع كبيرة مما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يبق شئ «**من كنوز الكنيسة الرومانية**[٥]» التى جمعها البابوات عبر أكثر من ألف سنة.

وخلال القرون التى نحن بصددها لم يكن هناك بكل تأكيد أى اهتمام بالعلم أو البحث العلمى. وانصب جل اهتمام البابوات على توجيه الكنيسة وإحكام قبضتها على البلاد والعباد وكان للقانون الكنسى الذى سنه مجلس البلاط البابوى نظير فى القانون الرومانى الذى سن فى بولونا. وقد استمرت مدرسة القانون فى

(١) Deusdedit

(٢) Codex Canonum

(٣) Palladium

(٤) De Rossi

(٥) The saurus eccleciae Romanae

بولونا فى الوجود فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وقد وصلتنا الوثيقة الأصلية التى بمقتضاها منحها فردريك بربااروسا بعض الامتيازات سنة ١١٥٨م. وكان التدريس فى هذه المدرسة يتم عن طريق أساتذة القانون وليس رجال الدين وكان للمدرسة منسخ يساند عملية التدريس بإنتاج الكتب اللازمة لذلك. وكانت تجارة المخطوطات محكومة تماماً وموضوعة تحت إشراف السلطات الجامعية كما رأينا ذلك تفصيلاً من قبل. ومن خلال تنقلات الطلاب والأساتذة انتقلت المؤلفات القانونية إلى جميع أنحاء العالم. واستخدام المخطوطات والكتب فى الجامعات لم يوثق قبل القرن الثالث عشر كما رأينا أيضاً من قبل. ولم تكن هناك فى تلك الجامعات مكتبة رئيسية وإنما كان الوراقون المنتمون للجامعة لديهم رصيد من الكتب للإيجار أو البيع. وكان للباحثين كذلك مجموعات كتبهم الشخصية.

الجنوب الإيطالى ـ الأديرة البازلية(١)

منذ القرن الثامن الميلادى كان هناك تيار هجرة من اليونانيين يتدفق من الشرق إلى جنوبى إيطاليا هرباً من الزحف العربى على الدولة البيزنطية وقد حمل اليونانيون معهم المخطوطات والفكر كما رأينا من قبل إلى تلك البقعة من إيطاليا. ولقد أسس الرهبان البازليون أديرتهم في المناطق الوعرة التى يصعب الوصول إليها من جبال كالابريا وبازليكاتا. وفى هذه الأديرة غرسوا أعمدة الكنيسة الإغريقية فى تلك المنطقة المهلّنة من إيطاليا.

وكما قام **سانت بازل**(٢) بغرس روح البحث العلمى في الحياة الديرية الطائفية فإن حركة الإصلاح التى قام بها **تيودور من استوديوس**(٣) قد أمدت هذه الأديرة البيزنطية بمكتبات ومناسخ كبيرة. ومن هنا أصبحت الأديرة فى جنوبى إيطاليا منذ القرنين العاشر والحادى عشر مراكز هامة لتجميع وإنتاج المخطوطات.

---

(١) Basilian Cloisters

(٢) St. Basil

(٣) Theodore of Studios

ولعل أهم مخطوطة تذكارية تكشف عن هذه الهجرة الثقافية هى كتاب **«كراس روزانا[١]»**.

وهى عبارة عن إنجيل على رق قرمزى من كاتدرائية روزانا يرجع إلى القرن السادس الميلادى. وللعلم هذا المخطوط لم يتم إنتاجه فى إيطاليا. ولكنه جلب إلى إيطاليا فى وقت سابق ووضع فى دير **سانتا ماريا دل باتير** البازلى[٢]. ومؤسس هذا الدير هو الراهب **بارتولوماؤوس دى سيميرى**[٣]، الذى كان أيضاً مؤسساً لمكتبة الدير الشهيرة والتى جلب لها المخطوطات معه من القسطنطينية. ومهما يكن من أمر فإن كاتدرائية روزانا قد أصبحت مركز الحركة البازلية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر.

لقد كانت روزانا هى المكان الذى انطلق منه الرسول العظيم **سانت نيلوس**[٤] فى رحلته صوب الشمال لبناء العديد من الأديرة والتى كان آخرها دير **جروتا فيراتا**[٥] فى جبال الألب والذى أسس سنة ١٠٠٤م. وقد وصفت الأساطير نيلوس بأنه قديس الكتب كما وصفت كتابات آدمنان القديس الأيرلندى كولومبان.. لقد كان نيلوس خطاطاً ماهراً غير عادى وكان أستاذاً فى الاختزال. وقد خصص جانباً كبيراً من يومه فى نسخ الكتب. وكان يقوم برحلات كثيرة حتى إلى روما نفسها بحثاً عن الكتب. وكان يترك هدايا من الكتب فى الأديرة التى يمكث فيها أو يتوقف بها. وكثير من المخطوطات تنسب إليه. وفى دير جروتا فيراتا نجد على الأقل ثلاث مخطوطات بخطه. وقد بث نيلوس هذه الروح فى الرهبان الذين عملوا معه فجدوا واجتهدوا فى نسخ الكتب. وقد حمل نيلوس هذا النشاط الخلاق المنتج للكتب إلى دير جروتا فيراتا رغم أنه لم يعش فيه طويلاً إذ مات فى نفس سنة إنشاء الدير.

(١) Codex Rossanensis

(٢) Santa Maria del Patire

(٣) Bartholomaeus de Semiri

(٤) St. Nilus

(٥) Grotta Ferrata

ومن الطريف أن تنتعش الأديرة البازلية فى ظل النورمان والهوهنزتاوفن، فقد تقدمت المكتبات فى تلك الأديرة تقدماً ملحوظاً وفى وقت متعاصر على نحو مانلحظه فى أديرة: **روزانا؛ سانت نيقولا دى كاسول فى ابوليا**[1]**؛ سانت إليادى كاربون فى بازليكاتا**[2]**؛ سانت سلفاتورى دى بوردونارى بالقرب من ميسينا**[3].

وقد أدت عمليات الطلينة المستمرة إلى الاختفاء التدريجى لهذه الأديرة الهللينية واختفاء مكتباتها معها، تلك المكتبات التى كانت قد وصلت فى فترة دراستنا هذه إلى أحجام معقولة. وكان لحركة إصلاح الأديرة البازلية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ومركزة مكتباتها جميعاً فى مكان واحد، أثر كبير فى نقل مجموعات ضخمة من المخطوطات القيمة إلى روما ومن بعدها فى القرن الثامن عشر إلى مكتبة الفاتيكان. وبفضل رعاية البابوات فإن دير جروتافيراتا هو الوحيد من بين ١٥٠٠ دير بازلى الذى مازال موجوداً وفى مكتبته الآن ٦٥٣ مخطوطة يونانية. بينما المقتنيات الأساسية تبعثرت فى أنحاء عديدة ولم يبق منها سوى ذلك الجزء اليسير الموجود الآن فى الدير من الكتب اليونانية.

الجنوب الإيطالى - مونت كاسينو[4]

قاد الأب **أليجيرنوس** فى سنة ٩٤٩م[5] الرهبان المنفيين فى كابوا راجعا بهم إلى دير مونت كاسينو وبالتالى أعيد بناء هذا الدير للمرة الثالثة. وفى هذه المرة حظى الدير برعاية البابوات والأباطرة بل وحتى النورمان وقد عاش فترة ذهبية دامت نحو قرنين من الزمان. وكان أزهى عهد داخل هذه الفترة الذهبية هو عهد الأب **دزيديريوس الثالث** ١٠٥٨-١٠٨٧م[6] وهو الذى أصبح فيما بعد البابا

(١) Rossana; St. Nicola di Casole in Apulia;

(٢) St. Elia de Carbone in Basilicata;

(٣) St. Salvatore de Bordonare near Messina

(٤) Monte Cassino

(٥) Aligernus

(٦) Disiderius III

فيكتور الثالث. وكان المظهر الخارجي للدير يعكس عمق الحياة الروحية داخل الدير. وفى ذلك الوقت كان هناك من بين رهبان الدير باحثون وعلماء على قدر كبير من الأهمية منهم: **ليو من أوسيتا**، مؤرخ الدير؛ **اماتوس**؛ مؤرخ النورمان؛ الشاعر **ألفانوس**؛ ثم الفيزيائى **قسطنطين أفريكانوس**[(١)] الذى أدخل الطب اليونانى والعربى إلى الغرب من خلال الترجمات التى قام بها. وقد أخذ الأب **ثيوبالد** ١٠٢٢-١٠٣٥م[(٢)] على عاتقه مهمة تنمية مقتنيات المكتبة التى ورثها صغيرة محدودة. وكان المنسخ فى عهد الأب دزيديريوس الثالث، الذى كان يديره ليو المشار إليه ـ أمير النساخ ـ ذا إنتاجية عالية غير عادية.

لقد ساد نمط الكتابة والزخرفة الخاص بمونت كاسينو كل جنوبى إيطاليا والذى على غراره أنتجت مئات من المخطوطات فى: بنيفنتو؛ كابوا؛ نابلى؛ كافا، ساليرنو، بارى، بل وحتى دالماتيا. وكان الأب ديزيديريوس ينسق إنتاج الكتب فى جميع مجالات المعرفة البشرية. وكانت مكتبة الدير تهتم اهتماماً خاصاً باقتناء الكتب الكلاسيكية ومن بين المؤلفين الكلاسيكيين نصادف فارو، تاكيتوس، أبوليوس. وكان بول الشماس يهتم اهتماماً خاصاً بكتب التاريخ. ونصادف فى المكتبة كتب تاريخ الشمال الأوربى مثل تاريخ **جريجورى** من **تورز** المسمى بـ «**تاريخ الفرنكيين**» وتاريخ ويدوكند المعروف باسم: «**تاريخ الساكسون**»[(٣)]. ومن المجموعات التى تدعو إلى الفخر مجموعة الكتب الطبية التى وضعتها مكتبة مونت كاسينو فى خدمة مدرسة الطب فى ساليرنو.

لقد أخذ الآباء الألمان أيضاً دورهم فى تطوير مونت كاسينو والإضافة إلى مكتبته قبل ازيديريوس. فهذا هو الأب **ريتشر** ١٠٣٨-١٠٥٥م[(٤)] يأمر بنسخ

---

(١) Leo of Ostia; Amatus, Alfanus; Constantinus, Africanus.

(٢) Theobald

(٣) Gregory of Tours / Historia Francorum, Widukind / Rerum Gestarum Saxonorum.

(٤) Richer

تاريخ تاكيتوس ربما عن أصل باللغة الألمانية، ويحضر نسخة تاريخ ويدوكند «تاريخ الساكسون» المشار إليه إلى مكتبة الدير. كما قامت الامبراطورة آجنسى أرملة هنرى الثالث بتقديم نسخة إنجيل رائعة إلى الدير سنة ١٠٧٣م.

وقد بدأ انهيار دير مونت كاسينو فى القرن الثانى عشر. وفى القرن الثالث عشر جرت محاولات انتعاش محدودة ففى زمن شارل الأول من أنجو ملك نابلى، جاء إلى الدير طابور من الآباء الفرنسيين، وحدثت انتعاشة بسيطة فى عهد الأب **بيرنهارد إجليريوس** ١٢٦٣-١٢٨٢م[١].

ولقد حل الخط الغوطى محل الخط **البنيفنتى**[٢]، الذى ظهر لآخر مرة فى المخطوطات سنة ١٢٩٥م، ولكنه ظل مستخدماً فى الوثائق حتى منتصف القرن الرابع عشر.

وفى سنة ١٣٤٩م وقع زلزال رهيب دمر المكتبة عن آخرها، وقد قدم لنا بوكاتشيو صورة حية لموقف المكتبة من الزلزال ولكنها مبالغ فيها إلى حد ما.

الجنوب الإيطالى ـ النورمان فى صقلية

لقد وضع ميزان الثقافة والفكر فى القرن الحادى عشر والثانى عشر فى يد الجنوب الإيطالى بما فى ذلك أداة الثقافة والفكر: المكتبات. فبالإضافة إلى بعث دير مونت كاسينو إلى الحياة؛ والأديرة البازلية المزدهرة، ومدرسة الطب فى ساليرنو؛ كان هناك ازدهار الحياة الفكرية فى بلاط باليرمو: مفهوم جديد كلية للثقافة والفكر ـ ثقافة كل الناس ـ يولد فى بلاط الحاكم النورماندى. لقد اجتذب ملك صقلية **روجرز الثانى** ١١٠١-١١٥٤م[٣] الباحثين والعلماء إلى بلاطه من المناطق الثقافية الثلاثة المتضاربة فى مملكته؛ وأسس مركزاً للترجمة ينافس مركز طليطلة، جعل الإنتاج الفكرى اليونانى والعربى متاحاً للغرب. وقد وصلنا معلومات عن وجود مكتبة هامة فى البلاط تعج بالكتب اليونانية والعربية

(١) Bernhard Aiglerius

(٢) Benventan

(٣) Roger II

واللاتينية ولكن هذه المعلومات مقتضبة ومحدودة لاتكون إطاراً عاماً لما كانت عليه تلك المكتبة.

وسط وشمالى إيطاليا: فارفا[١]

أنشئت أهم أديرة وسط وشمالى إيطاليا خلال فترة اللومبارد. وكان دير **فارفا** من أوائل الأديرة فى منطقة لاتيوم. وقد أسس هذا الدير سنة ٦٨٠م على يد **توماس من سافوى**[٢] وتحت رعاية الدوق اللومباردى فارولد من سبوليتو. وكان آباء هذا الدير من الفرنكيين، بينما الرهبان كانوا من الفرنكيين واللومبارد أيضاً. وقد قام شارلمان برفع هذا الدير إلى رتبة الأديرة الامبراطورية. ولقرون عديدة كان الأباطرة يجعلون فارفا محطتهم الأخيرة قبل دخول روما. وقد اصطبغ هذا الدير بصبغة جرمانية خالصة حتى فرض بابوات روما سيطرتهم عليه منذ ١١٢٢م.

كان منسخ دير فارفا كبيراً على نفس الوزن السياسى الذي كان للدير. وكان ينتج المخطوطات بالخط الذى عرف باسمه (**الحرف الفارفى**)[٣] الذى حل محل الخط الصغير القياسى الذى ساد فى منطقة لاتيوم، روما، سوبياكو. وكان أول ذكر للمكتبة هو ذلك الذى وصلنا من عهد الأب **ألانوس** ٧٦١-٧٦٩م[٤]. ويبدو أن المكتبة بلغت أقصى ازدهار لها فى عهد الأب العظيم هيجو ٩٩٧-١٠٣٩م، الذى أدخل الإصلاحات الكلونية إلى الدير.

ولقد قام الباحث **جورجيو بروجنولى**[٥] بإعادة تمثيل مقتنيات المكتبة فى منتصف القرن الثانى عشر وذلك من واقع خمسة فهارس وصلت إلينا. وقد

---

(١) Farfa

(٢) Thomas of Savoy

(٣) Littera farfensis

(٤) Alanus

(٥) Giorgio Brugnoli

وصلتنا قائمة استعارات تتضمن أسماء ٦٤ راهباً وأسماء الكتب التى استعاروها - كتاب لكل منهم - فى بداية موسم الصيام. ولكن كارل كرست يقول بأن هذه الكتب استعاروها من مكتبة دير كلونى وليس من مكتبة فارفا.

وسط وشمالى إيطاليا: نونانتولا[١]

أنشئ دير نونانتولا سنة ٧٥٣م بالقرب من مودينا ووسم ديراً امبراطورياً. وكان ينافس دير فارفا فى الثروة ومجموعات الكتب فى مكتبته خلال القرن العاشر رغم التدمير الذى حدث على يد المجريين سنة ٨٩٩م. وقد نفى مؤسسه اللومباردى أنسلم إلى دير مونت كاسينو على يد الأب ديزيديريوس سالف الذكر، وعند عودته أحضر كميات كبيرة من الكتب معه إلى الدير. ولعل ذلك يفسر التأثير القوى للخط البنيفنتى على منسخ نونانتولا.

ومن بين مقتنيات المكتبة أقدم مخطوطاتها المعروفة باسم **وصفات إيكيريوس من ليون**[٢]، المكتوب بخط أونسيال فى القرن السادس الميلادى وكان قد أهدى للمكتبة من أول أب للدير. وهذا المخطوط موجود الآن فى مكتبة فيتريو إيمانويل فى روما (تحت رقم ٧٧) ضمن واحد وأربعين مخطوطاً من مكتبة نونانتولا هذه. هذا المخطوط من أنسلم ومخطوط آخر في نفس المجموعة من الأب **أنسفريد** ٨٢٥-٨٣٧م[٣] يدلان على أن جانباً من مقتنيات المكتبة قد نجت من التدمير الذى أحدثه المجريون. والفهارس المتأخرة التى وصلتنا تكشف عن التقدير الكبير الذى كان الرهبان يكنونه لمكتبتهم. وفى هذه الفهارس نجد أعمال **نيقولو دى نيقولى** و **أمبروجيو ترافرسارى**.

وسط وشمالى إيطاليا - فونط أفيلانا[٤]

تكتسب مكتبة دير فونط أفيلانا الأوغسطى شهرتها وقيمتها من الجهود الكبيرة

---

(١) Nonantola

(٢) Formulae/ Eucherius of Lyons

(٣) Ansfrid

(٤) Fonte Avellana

التى بذلها من أجلها **بيتر دميان** ١٠٣٥-١٠٥٨م؛ وتلميذه **جون من لودى**[١] وقد زادت مجموعاتها من خلال النسخ العديدة التى نسخت لها والمجموعات التى قدمها لها المهدون. ولقد بلغت المكتبة والمنسخ أوج ازدهارهما خلال القرن الثانى عشر. وعندما زار **دانتى** هذا الدير، وجده فعلاً فى حالة انهيار.

وسط وشمالى إيطاليا ـ بومبوزا[٢]

كان دير بومبوزا الواقع عند فم نهر **بو** من ناحية بحيرة **كوماتشيو**. وهذا الدير أيضاً وسم ديراً امبراطورياً منذ عهد أوتو الثالث. وقد حقق شهرته اللامعة فى عهد الأب جيودو (توفى ١٠٤٦م) الذى التحق بعد ذلك ببلاط هنرى الثالث. وقد عثرنا على خطاب كتبه إكليرى يدعى **هنريكوس**[٣] مؤرخ بسنة ١٠٩٣م يعزو إنشاء مكتبة هذا الدير إلى الأب جيروم والذى من خلال أمين مكتبته البارع - **بونوس**[٤] - استطاع الحصول على ما أمكنه الوصول إليه من مخطوطات؛ ونسخ نسخاً كثيرة من مخطوطات أخرى.

هذا الخطاب الذى كتبه هنريكوس يصف لنا سبعة وستين مخطوطاً وهى تمثل الكتب العلمية فقط من المجموعات لأن الخطاب لم يتناول كتب الطقوس أو الإنشاء أو الكتب الدراسية. وقد جاء الوصف مفصلاً ودقيقاً يصلح معه لأن يكون نموذجاً لفهرسة مخطوطات العصور الوسطى. وفى هذا الوصف نجد تحليلاً للمجاميع مع إعطاء الكلمات الأولى لكل عمل فى المجموعة. ويدافع الكاتب عن اقتناء الأب للكتب الكلاسيكية فى مجموعات الدير. ومع ذلك فهو لايسجل لنا فى خطابه سوى سينيكا والعقد الأول من تاريخ ليفى. وقد وصلتنا قائمة أخيرة بمقتنيات مكتبة الدير ولكنها غير مفصلة وقد أعدت هذه القائمة سنة

---

(١) Peter Damian, John of Lodi

(٢) Pomposa

(٣) Henricus

(٤) Bonus

١٤٥٩م مباشرة قبيل إغلاق الدير بسبب سوء الأحوال المناخية.

وسط وشمالى إيطاليا – فيرونا[١]

كان المنسخ فى دير فيرونا دائم النشاط غزير الإنتاج رغم أنه لم تصلنا معلومات عن المكتبة قبل القرن الثالث عشر، حين ورد ذكر المكتبة وأمين المكتبة، وحيث وصلتنا بعض قوائم الإعارات. وكان **الإنسيون** هم أول من وضع يده على قيمة المكتبة ومابها من مصادر وبالتالى قام الباحثون بزيارات عديدة لها بدءاً من بترارك وحتى مطلع القرن التاسع عشر.

وفى كاتدرائية كريمونا وبسبب النزعات البحثية لدى الأسقف **أولدريك**[٢] فقد تولى إنشاء مكتبة جيدة يمر عليها مؤرخو المكتبات مراً سريعاً وحيث جمع هذا الأسقف ٦٤ مخطوطة منها ٣١ مخطوطة من ممتلكاته الخاصة. وقد أعد لها فهرساً فى سنة ٩٣٤.

منطقة بيمونت والكاردينال جوالا – بشيرى[٣]

فى دوقية بيمونت نصادف مكتبة ومنسخاً عظيمين فى كاتدرائية المنطقة. ويرجع تاريخ المكتبة الفرعية إلى عهد الأسقف **وورموند** (توفى ١٠٠٢م)[٤]. كذلك فإن الأنشطة البحثية التى قام بها الباحث الأسبانى المتمكن **كلوديوس**[٥]، أسقف تورينو تشير إلى وجود مكتبة عظيمة القدر فى كاتدرائية تورينو. والمعلومات التى وصلتنا من كاتدرائية **نوفارا**[٦] تشير إلى أنه كان فيها مكتبة صغيرة لم يزد عدد المخطوطات فيها عن ثمانين مخطوطة فى سنة ١١٧٥م.

---

(١) Verona

(٢) Olderic

(٣) Piemont Region and Cardinal Guala - Bechieri

(٤) Wormond

(٥) Claudius

(٦) Novara

وتذكر المصادر أن أسقف **فيرسيللى** ٩٢٤-٩٦٠م[١] كان يدعم مكتبة كاتدرائية. وقد تفوقت مكتبة دير أندرياس على مكتبات المنطقة كلها بفضل جهود الكاردينال يعقوب جوالا - بشيرى زميل البابا إنوسنت الثالث التى بذلها لتنمية مدينته فيرسيللى سنة ١٢١٩م. وقد أوقف الكاردينال على دير المدينة سنة ١٢٢٧ مجموعة كتبه وقوامها مائة مخطوطاً. وكانت مجموعة شخصية كبيرة بمقاييس ذلك الزمان. وقد تضمنت وثيقة الوف وصفاً دقيقاً للمخطوطات، وعلى سبيل المثال فإنه فيما يتعلق بنسخ الكتاب المقدس الست والعشرين فى هذه المجموعة والتى كان يوليها الكاردينال اهتماماً خاصاً، أعطيت نبذات وصفية عن نوع الخطوط المستعملة فى كل منها «خط رومانى»، «خط بولونى»، «خط لومباردى»، «خط إنجليزى»، «خط أرتينى»، معظم المخطوطات كانت مكتوبة بالخط الباريسى مما يكشف عن الأصول التى جلبت منها تلك المخطوطات. ولقد توقف الكاردينال فى باريس فترة من الوقت سنة ١٢٠٨ فى بعثة بابوية وعقد صفقات مع جامعة باريس ودير سانت فيكتور. وقد طلب مساعدة الإخوان فى سانت فيكتور والقدوم إلى ديره فى فيرسيللى لتقديم النصح والمشورة. كذلك أحضر العديد من المخطوطات معه من بعثته البابوية إلى إنجلترا بين ١٢١٦-١٢١٨م. وهناك احتمال بأن المخطوط الشهير المعروف باسم كراس فيرسيللى[٢] والذى يتضمن قصائد شعرية أنجلوساكسونية قد جلبه معه من رحلته هذه، رغم أنه لايظهر فى قائمة إهداءاته للدير. والمجموعة فى مجملها عبارة عن كتب لاهوتية مع عدد محدود من كتب القانون. كذلك لانجد أثراً لكتب البحث العلمى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت فى الجامعة الفتية؛ جامعة باريس وخاصة كتاب **بيتر** آبيلارد ذائع الصيت.



---

(١) Vercelli

(٢) Codex Vercellensis

الفصل الخامس

المكتبات الأوربية فى العصور الوسطى المتأخرة
(من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر)

أ - مقدمة

مع نهاية القرن الثانى عشر انتهى عصر مكتبات الأديرة العظيمة وأخذ نجمها فى الأفول. كما بدأت الطوائف الدينية القديمة فى الأفول وأخذت تفقد تأثيرها الذى كانت تمارسه من قبل، رغم محاولات الإصلاح التى جرت عليها فى القرن الخامس عشر والتى لم تثمر إلا فترات إنتعاش قصيرة. ولم تستطع مكتبات طوائف الشحاذين أن تسد الفجوة التى حدثت.

وكان التطور الذى حدث فى صناعة الكتاب وإنشاء المكتبات قد جاء من خلال قوى جديدة فى الحياة الفكرية والثقافية؛ حيث وسعت الجامعات مناهجها وطورتها لتشمل العلوم العلمانية ولتصبح مراكز البحث والتعليم الجديدة. وكان أساتذة الجامعات يحاولون جهد الطاقة تحرير أنفسهم من الفكر والثقافة الديرية مما مكنهم من إفراز نوع جديد غير مسبوق من الباحثين العلماء. وكان توسع وزيادة واستقلال الثقافة غير الدينية والفكر العلمانى، والذى عبر عن نفسه باستخدام اللغات المحلية، أمراً طبيعياً لامفر منه. وجاء الطلب على الكتب من فئات فى المجتمع لم تكن محسوسة من قبل ولم نسمع بها من قبل. وأصبحت بلاطات الأمراء، وقصور النبلاء وصوامع الباحثين العلمانيين هى مراكز الحياة الفكرية الجديدة.

وكان لاتساع رقعة النشاط الفكرى هذا أثره بالضرورة فى زيادة الطلب على الكتب، زيادة لم تستطع الطرق القديمة فى إنتاج الكتب تلبيتها. وحدثت تحولات جذرية ثورية فى طرق إنتاج الكتب. وبدأ الورق رخيص السعر يحل محل

الرقوق الغالية العزيزة وحل الخط الغوطى محل الخط الصغير. وحلت مهنة الخطاطة المنظمة التى ظهرت فى المدن على يد نساخين محترفين مهرة محل خطاطة الأديرة العشوائية على يد الرهبان. لقد بحثت مهنة النسخ الجديدة عن طرق جديدة لتسويق منتجاتها ووضعت بذلك أسس تجارة الكتب وصناعة النشر. ومع نهاية العصور الوسطى، واختراع الطباعة على يد يوحنا جوتنبرج انتهى عصر الكتاب الوسيط المخطوط فى أوربا؛ انتهى دون أن يغير فى محتويات أو بنية المكتبات.

هذه التغيرات الكثيرة والمتنوعة كان ولابد أن يتبعها تطور ملحوظ فى أنواع المكتبات لكى تلبى احتياجات الحياة الفكرية الجديدة. وبينما بقيت مجموعات المكتبات الدينية القديمة ساكنة، كان تيار الحياة يتدفق فى المكتبات الجامعية، ومكتبات الأمراء والنبلاء، وكانت أنشطة جمع الكتب فى المكتبات الخاصة تشيع بين الباحثين والعامة.

وتضطرنا المؤثرات العالمية التى أثرت فى الحياة ووجوه الشبه فى تلك المؤثرات إلى أن نتخلى عن المعالجة التاريخية الجغرافية التى اتبعناها سابقاً وتقسيم الحقبة التى نحن بصددها تقسيماً آخر يعتمد على أنواع المكتبات التى أفرزتها تلك الحقبة ونبدأ بطبيعة الحال بالمكتبات الجامعية ثم مكتبات الطوائف الدينية ثم مكتبات النبلاء ثم سائر فئات المكتبات الخاصة ثم المكتبات المفتوحة ونختتم بمعالجة خاصة عن المكتبات الاسكندنافية لطابعها المتميز الذى مازالت عليه حتى اليوم فى نهاية قرننا العشرين. ولأن تلك البقعة من أوربا كان لها أثرها وخطرها فى حقبتنا هذه.

ب - الجامعات والبحث العلمى المبكر

كما قادت فرنسا حركة الإصلاح فى القرن العاشر فإنها نفسها هى التى احتضنت بدايات حركة البحث العلمى. ففى هذا البلد الذى انهار فيه البحث العلمى فى العصور الوسطى، بدأت تحيا فيه وتبعث منه التقاليد الفكرية الكارولنجية بعيداً عن قبضة الكنيسة وتدخلها فى المدارس المتميزة فى أوليانز وتشارترز.

لقد بدأ فى القرن الحادى عشر الفصل الحاد بين الدراسات الإنسية والدراسات اللاهوتية. لقد وقفت العقيدة فى مواجهة العلم؛ والسلطة فى مواجهة العقلانية؛ واللاهوتيون فى مواجهة الجدليين، وقفوا نداً لند فى مواجهة عنيدة.

وفى القرن الثانى عشر مهد **أنسلم** الطريق نحو المصالحة باعطاء العقل والمنطق مكانه الصحيح داخل العقيدة والإيمان. وقام **أديلارد** بإكمال الطريق الذى بدأه أنسلم حين حاول جمع الإيمان والمعرفة فى وحدة واحدة مبنية على العقل والمنطق. ولقد حققت الأنظمة العلمانية الاعتراف بها واكتسبت نوعاً من الأهمية بتحالفها مع اللاهوت. وقام باحثو ذلك القرن بالاتجاه صوب الكلاسيكيات التى أثريت دراساتها عن طريق إضافة العلوم اليونانية والعربية إليها وأصبح البحث عن مصادر جديدة للمعرفة والبحث عن كتب جديدة والاتجاه المحموم صوب الترجمة كلها كانت علامات مميزة لتلك الفترة.

لقد أسست مدارس للمترجمين فى طليطلة وباريس. وكان أهم إنجازاتها ترجمة أعمال أرسطو التى لم تكن تعرف حتى ذلك الوقت إلا من خلال جزء صغير من كتاباته فى المنطق. وفى القرن الثانى عشر عرف كتابه **الأورجانون**(١)، وأصبح متاحاً. وفى القرن الثالث عشر أصبحت كل أعمال أرسطو مع شروحها العربية معروفة فى الغرب.

لقد خلقت الحركة الفكرية حاجة ماسة إلى أدوات المعرفة وقد انتشرت فى ذلك الوقت المقولة التى تقول بأن «ديراً بدون مكتبة هو كالقلعة بدون أسلحة»، تلك المقولة التى قالها **جودفرى بريتويل** حوالى سنة ١١٧٠م(٢). إن طالب البحث العلمى كان يحتاج إلى مكتبة مزودة بكتب الماضى وكتب الحاضر على السواء.

لقد ولدت **حركة البحث العلمى**(٣) فى مدارس الكاتدرائيات ومدارس الأديرة

---

(١) Organon

(٢) Godfrey Breteuil

(٣) Scholasticism

الفرنسية قبل أن تتطور وتشتد داخل أروقة الجامعات وحجراتها. وعلى عكس ما كان الإنسان يتوقع فإن العديد من فهارس المكتبات الفرنسية من القرن الحادى عشر والثانى عشر لاتعكس إلا استجابة محدودة للحركة الجديدة. حقاً لقد كانت هناك بعض الكتب الكلاسيكية تحتل مساحة أكبر من ذى قبل إلى جانب الكتب الدينية وكتابات آباء الكنيسة وكانت دراسات أرسطو وكتبه تزداد باستمرار. ولكننا لانجد أى أثر لكتابات قادة حركة البحث العلمى الجديدة فى تلك المكتبات، رغم نشرها فى السوق فكتابات أنسلم كانت تنشر من حين لآخر، وكتابات بيرنارد وهيجو من سانت فيكتور كانت أيضاً منشورة ومتاحة، وكذلك كتابات **جلبرت دى لابوريه و وليام من كونشس**(١) كان يمكن العثور عليها من حين لآخر. كذلك ظهرت فى سنة ١٢٠٠م الأدلة الرائعة التى لاغنى عنها والتى ألفها علماء بارعون مثل **بيتر لومبارد: الجمل**(٢) **وبيتر كومستر: تاريخ البحث العلمى**(٣) وهى من الأعمدة الأساسية التى كان يجب أن تقتنى فى تلك المكتبات. وللأسف لانجد هذه الكتابات التى تبشر بالنهضة وتحض على اتباع البحث العلمى سواء فى مكتبات الأديرة القديمة مثل كوربى؛ سانت أماند؛ سانت بيرتين؛ سانت مارتيال دى ليموج أو فى الأديرة الجديدة مثل دير **بك**(٤) الدير الذى درّس فيه أنسلم ولانفرانك وقاما فيه بنشاط علمى بارز. وربما كان الدير الوحيد الذى حفل بهذه الكتابات واهتم باقتنائها هو دير **نورمان**(٥)، الذى تظهر تلك الكتابات فى فهرسه بكميات كبيرة.

كذلك الحال فى مكتبات الكاتدرائيات التى حملت مدارسها الفكر الجديد فالمرء

(١) Gilbert de la Porrée; William of Conches

(٢) Peter Lombard/ Sentences

(٣) Peter Comester/ Historia Scholastica

(٤) Bec

(٥) Norman

يبحث عبثاً عن كتب الفكر الجديد فلا يجدها حتى مدرسة كاتدرائية **تشارتز**[(١)] التى كانت مكتبتها تقتنى كميات كبيرة من الكتب وخاصة تلك الكتب التى أهداها كل من **ثييرى من تشارتر وجون من سالزبورى**[(٢)] (مات الأول ١١٤٨م ومات الثانى ١١٨٠م على التوالى) وكانت تضم عدداً من كتب الفكر الجديد إلا أنها استبعدت من المكتبة ولم تضمن فى فهارسها. ونفس الوضع نجده فى **أورليانز** مركز الدراسات الكلاسيكية وفى **لائون** حيث كان الطلاب يقصدون فى بداية القرن الثانى عشر.

ومن هذا العرض السريع لموقف مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات وبالتبعية مكتباتها من الفلسفة الجديدة والفكر الجديد فإننا لابد وأن ندرك أن الفكر الجديد لايمكن أن يتطور داخل مراكز التعليم القديمة، بل خارجها وكانت كتب الفلسفة الجديدة يتم تداولها من يد إلى يد بين الأساتذة والطلاب لفترة طويلة قبل أن تقتنيها المكتبات، تلك الأماكن الطبيعية الصحيحة لأدوات الفكر. وربما كان العداء الذى تكنه المكتبات التقليدية للفكر الجديد دافعاً لها إلى عدم تضمينه فى فهارسها. وفعلاً لانجد أثراً لهذا الإنتاج الفكرى الجديد فى فهارس المكتبات قبل القرن الثالث عشر. وذلك عندما بدأت الجامعات ومكتباتها تأخذ دورها فى حماية ودفع الفكر الجديد. وسوف نعرض فيما يلى لهذا الدور الذى ظهر جلياً فى العصور الوسطى المتأخرة.

باريس

فى خلال القرن الثانى عشر أصبحت باريس هى البؤرة المحورية للحياة الفكرية فى فرنسا، وإن شئنا الدقة فى كل وسط أوربا. ولقد تفوقت مدارس باريس وأساتذتها تماماً على قريناتها وأقرانهم فى بروفانس. وفى نهاية القرن الثانى

---

(١) Chartres

(٢) Thierry of Chartres, John of Salisbury

عشر تفوقت المدرسة التى أنشأها رئيس كاتدرائية نوتردام على جزيرة فى نهر السين على كل المدارس الدينية فى سانت فيكتور وكل المدارس فى **جبل سانت جنفييف**[١] وحيث كان آبلارد يقوم بالتدريس. لقد أنشئ **مجمع باريس الدراسى**[٢] وذلك بإدماج المدارس الموجودة وبمساعدة قيمة من **فيليب أوغسطوس** سنة ١٢٠٠م. ولم يكن المجمع مؤسسة جديدة بل كان خطوة ثورية باتجاه تركيز الكل فى واحد. وكان من أهم خصائص الجامعة الجديدة ونظيراتها أنها كانت **جامعة مفتوحة**: مؤسسة تعليمية للجميع[٣].

ويجب أن نتوقف برهة أمام كلمة **جامعة** حيث أن هذا المصطلح لم يكن يعنى جمع كل العلوم وفروع المعرفة البشرية، بل يعنى اجتماع أو جمع الأساتذة **والطلاب فى مجمع واحد معاً**[٤]. وحيث أن المناهج الدراسية لم تتبلور نحو جميع فروع المعرفة البشرية إلا فى وقت متأخر من العصور الوسطى وبعد نشأة الجامعات بفترة طويلة، ولم تأخذ الصبغة التعليمية الرسمية المقننة إلا بعد أمد طويل. وكان التدريس فى بداية أمر الجامعة عبارة عن محاضرات عامة يحضرها من يشاء ومن أى سن ومن أى مستوى تعليمى. وعلى العكس من الجامعات القديمة فى ساليرنو وبولونا فقد طورت جامعة باريس - التى بدأت أصلاً بعلوم اللاهوت - مناهجها على أساس الكليات الأربع مع حذف القانون العلمانى. وكان لوجود قادة حركة البحث العلمى فى جامعة باريس أثره الفعال فى دفع هذه الجامعة إلى المقدمة على جميع جامعات القرن الثالث عشر. وكان تنظيم هذه الجامعة نموذجاً احتذته كل الجامعات الأخرى فى أوربا شمالى جبال الألب.

السوربون

كما أشرت من قبل كانت أقدم كليات باريس قد أنشئت سنة ١١٨٠م ولكن

---

(١) Mount St. Genviéve

(٢) Studium Parisienne

(٣) Studium Generale

(٤) Universitas magistrorum et scholarium

جامعة السوربون نفسها لم تؤسس إلا فى سنة ١٢٥٠ على يد **روبرت دى سوربون**[١] وقد فاقت كل ماعداها من مؤسسات علمية. وقد أصبحت مركزاً للدراسات اللاهوتية وكان فيها أكبر مكتبة فى كل العصور الوسطى الأوربية. وربما كانت المكتبة التى تقترب منها وتقارن بها المكتبة البابوية فى **أفجنون**[٢]. وقد ظلت أهم مكتبة جامعية فى العصور الوسطى. وفى نفس الوقت المكتبة التى وصلتنا عنها معلومات غزيرة، حيث بقيت لنا الفهارس وقوائم الاستعارات حتى من السنوات الأولى. وقام **ليوبولد ديليزل** بإعداد دراسة عظيمة عن تلك المكتبة من واقع المخطوطات التى وصلتنا منها ومن واقع الوثائق المعاصرة لنشأتها وتطورها.

لقد بدأت مكتبة السوربون بالهدايا وكان المهدون الأول من بين أعضاء هيئة التدريس فى الكلية نفسها إشارة إلى العرفان بالجميل قدموا لها مكتباتهم الخاصة. وكان اسم المهدى وتاريخ الإهداء يسجلان فى المخطوط والفهرس على السواء. وقد قدم لنا ديليزل قائمة بأسماء المهدين وهى غير كاملة، وتضم ١٧٠ إسماً. ونصادف من بينها أسماء مهدين من كل الدول الأوربية - فإلى جانب فرنسا نجد انجلترا، ألمانيا، هولندا، إيطاليا، أسبانيا، بولندا. . . ـ وإلى جانب الهدايا كانت الفجوات تسد عن طريق النسخ، الشراء، التبادل. وأصبحت المجموعات فى عهد الملك **فيليب الرابع، العادل** أقوى مجموعة فى العاصمة الفرنسية وأكبرها. ففى سنة ١٢٩٠ بلغت المجموعة ١٠١٧ مخطوطة، ارتفعت فى سنة ١٣٣٨م إلى ١٧٢٢ مخطوطة حسبما يكشف عنه فهرس تلك السنة.

هذا الفهرس الأخير يكشف كذلك عن أسلوب ممارسة عملية الفهرسة فى العصور الوسطى حيث كان يعطى عن كل مخطوط وصفاً دقيقاً عن محتوياته، والكلمات الاستهلالية فى الصفحة الثانية أو الثالثة والصفحات الأخيرة، ثم اسم

---

(١) Robert de Sorbon

(٢) Avignon

(٣) Leopold De Lisle

المهدى والثمن الأساسى للمخطوط وقت اقتنائه. وهذا البيان الأخير أدرج لأهميته فى حالة استعارة المخطوط وفقدانه. ونفس هذه البيانات كما رأينا كانت تدرج فى المخطوط نفسه.

وفى سنة ١٢٨٩م تم تقسيم المكتبة إلى اثنتين: **المكتبة الكبرى و المكتبة الصغرى**(١). وذلك على حسب درجة الاستعمال والضغط على الكتب. واستمر هذا التقسيم حتى بداية عصر الطباعة. وكانت المكتبة الكبرى مفتوحة للجميع وتضم مجموعة المراجع والمصادر التى لا تعار خارج المبنى، كما كانت تضم الكتب المساندة للمناهج والمقررات. هذه الكتب كانت تربط بسلاسل حديدية إلى القمطرات كما رأينا من قبل ولم يكن يسمح بتحريكها من مكانها إلا بإذن رئيس الكلية. وكانت الكتب الأساسية فى كل مقرر دراسى موجودة هناك باستمرار ومتاحة فى كل وقت. أما المكتبة الصغرى فقد كانت مجموعاتها متاحة للاستعارة الخارجية وكانت غالباً ما تضم نسخاً مكررة ومجموعات ليس عليها إقبال كبير من جانب القراء.

وقد وصلنا عن تلك السنة وصف ملخص لمجموعات الكتب فى المكتبة التى قدرت كما رأينا بعدد من المخطوطات يصل إلى ١٠١٧ مخطوطة وكما قلت سابقاً زادت فى سنة ١٣٣٨م، إلى ١٧٢٢ مخطوطة. من بين هذه المخطوطات كانت هناك ٣٣٠ مخطوطة مسلسلة فى المكتبة الكبرى التى كانت تسمى آنذاك بقائمة المطالعة أو قاعة المراجع بمصطلحات اليوم. وبالتالى فإن المجموعة المتبقية وقوامها أكثر من ألف مخطوطة كانت توضع فى المكتبة الصغرى المخزنية. ومن الطريف أن قوائم الحصر الراجعة إلى العقود الأولى من حياة المكتبة تصف المجموعات المخزنية وصفاً دقيقاً بينما تكتفى بالنسبة للمجموعات فى المكتبة الكبيرة بأنها مسلسلة. والسبب فى ذلك واضح أم مجموعات المكتبة الكبيرة لا خوف عليها لأنها لا تعار ولكن الخوف على الكتب التى تعار، فعندما تفقد يجب أن تعوض

(١) Libraria magna et Libraria Parva

بنفس مواصفاتها. وقد أعد فهرس تفصيلى فيما بعد للمجموعات فى المكتبة الكبيرة ولكنه لم يصلنا. ولكن الزمن جاء علينا بقوائم الرفوف الخاصة **بالقمطرات**(١) الست والعشرين التى كانت موجودة فى قاعة المطالعة وملخصات موضوعية لمحتويات المخطوطات الثلاثمائة والثلاثين فى تلك القاعة، كما جرى تحليل محتويات الأعمال الضرورية داخل «المجاميع» كلا على حدة. كما وصلتنا فى نفس تلك القوائم رقم الطلب أو قل رقم الترفيف وهو عبارة عن حرفين حرف يدل على القمطر داخل مجموعة القمطرات وحرف يدل على الكتاب داخل مجموعة الكتب فى القمطر الواحد.

وكان مدير المكتبة - **أمين المكتبة**(٢) - ينتخب سنوياً من قبل أعضاء هيئة التدريس. وإلى جانبه كان هناك **أمين مساعد**(٣)، يساعده فى إدارة المكتبة. وكان استعمال مجموعات المكتبة متاحاً ليس فقط لأعضاء هيئة التدريس بالكلية الذين كان مع كل منهم مفتاح للمكتبة، ولكن أيضاً لجميع الناس الذين لهم علاقة ما بالجامعة. وكان السماح بالاستعارة الخارجية سخياً لكل من يريد. وكانت لأعضاء هيئة التدريس كما رأينا من قبل امتيازات كثيرة. أما الأعضاء من خارج الجامعة والذين يرغبون فى استخدام المكتبة والاستعارة الخارجية فقد كان عليهم أن يقدموا رهناً أو وديعة بقيمة الكتاب الذى يستعيرونه. ومن الطريف أنه كانت هناك سجلات استعارة مفصلة. والمعلومات التى كانت تسجل فى هذه السجلات هى: اسم المستعير، عنوان الكتاب، رقم الكتاب، ثمن الكتاب، الكلمات الأولى فى الصفحات الثانية أو الثالثة والصفحتان الأخيرتان من المخطوط وعدد الملازم فى الكتاب وذلك للتأكد من النسخة عند ردها من المستعير. وقد كانت لهذه السياسة التحررية فى الإعارة عيوبها وعلى سبيل المثال فإنه فى سنة ١٣٣٨م وحدها كان هناك ٣٠٠ مخطوط من بين ١٧٢٢ مخطوطاً إما مستعاراً أو وضعت

---

(١) Scamni

(٢) Bibliothecarius

(٣) Parvus Bibliothecarius

فى غير مكانها المحدد ولم يستدل عليها. وكانت نتيجة ذلك منع الاستعارة الخارجية من المكتبة الصغرى لغير أعضاء الجامعة فى القرن الخامس عشر؛ وأصبحت المكتبة فى حالة من الفوضى، وزاد الوضع سوءاً مع دخول الطباعة بالحروف المتحركة.

ولقد أدركت رئاسة جامعة السوربون أهمية ثورة الطباعة التى اجتاحت أوربا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر؛ وسعوا حثيثين إلى جلب أول طابع إلى فرنسا سنة ١٤٧٠م. وفى سنة ١٤٨١م أقامت الجامعة مبنى خاصاً لمطبعة الجامعة وكان هذا المبنى لم يزل موجوداً فى خلال القرن السابع عشر.

المكتبات الأخرى فى باريس

لم تكن السوربون سوى كلية واحدة بين مجموعة كليات فى باريس وكان لكل كلية بطبيعة الحال المكتبة الخاصة بها. ومن الطريف أن الطوائف الدينية المختلفة التى كانت تبعث بطلابها للدراسة فى باريس تنشئ مكتبات لهم فى سكنهم الجامعى. وكان من بين الطوائف الدينية الهامة التى أقامت مثل تلك المكتبات: مكتبة سانت جال التى أسسها الدومنيكان؛ نوتردام؛ سانت جنفييف؛ سانت فيكتور؛ سانت جيرمان دى بيرى؛ سانت بيرنار.

وكان إنشاء جامعة باريس عاملاً أساسياً لإنشاء مكتبات جديدة فقد وصلتنا معلومات ولو قليلة عن مكتبة كلية القانون، ومكتبة الدراسات الطبية التى أسست بإيعاز من الملك فيليب الرابع، العادل. ومن الطريف أن الطلبة الوافدين من دول أجنبية كانت دولهم تقيم لهم فى فرنسا مكتبات خاصة بهم، ذلك أنه داخل جامعة العصور الوسطى كان طلاب كل «أمة» يشكلون مجتمعاً مستقلاً بذاته وكانت دولهم تمدهم بكتب خاصة بهم من عندها.

لقد كان جو الانفتاح الذى اصطبغت به كلية السوربون أثره فى انفتاح مكتبات باريس عموماً. وكانت هذه المكتبات تتلقى هدايا كثيرة من الكتب توضع فى خدمة الطلاب والباحثين. ومن الطريف أنه قد تجمع فى مكتبة السوربون عدد

كبير من فهارس مكتبات باريس كانت فى مجموعها تمثل فهرساً مركزياً لتلك المكتبات؛ وهو مايمثل حلقة هامة فى تاريخ الفهرس الموحد.

لقد كانت باريس هى مدينة المكتبات الأولى فى أوربا كما كانت مركز التعليم العالى فيها. مما حدا بالمفكر العظيم بترارك أن يعقد المقارنة بين روما وباريس على النحو الآتى:

«إحداهما عاصمة العالم وملكة المدن والثانية هى درع التعليم فى زماننا» ويصف ريتشارد دى بيرى الإنجليزى باريس متعجباً بقوله إن فى باريس مكتبات تبعث رائحة أحلى من غرف التوابل... إنها جنة خضراء المباهج، فيها ثمار من كل أنواع العلوم. وكان فى باريس كما شرحنا تفصيلاً تجارة كتب رائجة أدت بكل تأكيد إلى إنشاء مكتبات خاصة كثيرة؛ وعلى رأسها مكتبات أساتذة الجامعة.

وفى الأقاليم الفرنسية كانت هناك جامعات وفيها مكتبات تساند العملية التعليمية والبحثية وقد وصلنا من تلك الجامعات مصادر أولية كثيرة مثل اللوائح والتقارير والسجلات، وهى تكشف عن أن مكتبات تلك الجامعات كانت تحتذى حذو جامعة باريس. وكثير من كليات تلك الجامعات كانت له مكتبته الخاصة التى تقوم على الهدايا والنسخ والشراء والتبادل. ولعل أحسن نموذج على الجامعات الإقليمية فى فرنسا هى جامعة تولوز التى كان فيها سبعة كليات التى وصلتنا عنها معلومات قيمة.

إيطاليا وأسبانيا

رغم المعلومات الغزيرة والمستفيضة التى وصلتنا عن صناعة الكتب وتجارتها فى كل من إيطاليا وأسبانيا والتى أتينا على جانب منها فى بداية هذا البحث فإن المصادر تكاد تصمت عن ذكر أى شئ عن المكتبات الجامعية فى هذين البلدين. وربما كان ذلك راجعاً إلى اعتماد تلك الجامعات أساساً على الكتاب المقرر وقد عرضنا من قبل كيف كانت تلك الجامعات تقوم بتعيين وراقين لنسخ وتأجير أو بيع الكتب المقررة للأساتذة والطلاب وتشرف على هذه العملية إشرافاً يكاد يكون

تاماً. ومن ثم فإن اعتماد كل من الأساتذة والطلاب على ذلك الكتاب المقرر قلل الحاجة إلى وجود مكتبة للجامعة أو للكلية يرجع إليها الطلاب والأساتذة. ويذكر كارل كرست أيضاً فى هذا الصدد أن الأديرة الكثيرة والكنائس الموجودة فى مدن أو بالقرب من مدن الجامعات فى تلك المناطق فتحت أبواب مكتباتها لأساتذة وطلاب تلك الجامعات للاستفادة منها مما قدم عاملاً آخر للتقليل من الحاجة إلى مكتبات جامعية فى تلك الجامعات. وقد قدمت بالتفصيل إجراءات ولوائح إنتاج الكتب وتوزيعها فى جامعات بولونا، فلورنسا، بادوا. وصمت لوائح تلك الجامعات عن ذكر المكتبات الجامعية يرجح عدم وجود مثل هذه المؤسسات.

لقد كان الموقف فى أسبانيا شبيهاً بالموقف فى إيطاليا حيث حذت جامعات الدولة التى أسست فى القرن الثالث عشر فى بلنسية، سلامانكا، فالادولين، ليريدا حذو جامعة بولونا بل تكاد تكون قد استعادت بنيتها ولوائحها. ونقتطف من لوائح الجامعة التى أقرها **ألفونسو العاشر، الحكيم**[1]، الفقرة الآتية الخاصة بإنتاج الكتاب المقرر وتسويقه فى الجامعات الأسبانية.

«على الوراقين أن يقدموا فى متاجرهم أحسن الكتب من حيث الكتابة واكتمال النص ودقته مع الشروح التى قد تكون مفيدة للطلاب فى كتابة كتب جديدة، أو فى التعليق والتحليل على كتب موجودة بالفعل».

انجلترا

فى العصور الموسطى المتأخرة التى نحن بصددها ازدهرت المكتبات الأنجلوساكسونية ونمت نمواً كبيراً تحت تأثير المكتبات اللاتينية. ففى كانتربرى قام أنسلم ولانفرانك والرهبان من بِكْ بإحداث إصلاحات جذرية فى المكتبات وحملوا الرهبان هناك على الجد والنشاط فى نسخ الكتب. وكانت مكتبة ديرهام فى القرن الثانى عشر تقتنى ٥٤٦ مخطوطة، وحذا حذو هذين الديرين كثير من المؤسسات الأنجلوساكسونية. وفى ظل النوماندييين نمت مجموعات الكتب نمواً

---

(١) Alfonso X

ملحوظاً في دوفر، روشستر، سانت أولبانز، جلاستونبرى، إيفيشام، ووركستر، هيرفورد، لنكولن.

وإلى جانب المكتبات الموجودة في الأديرة والكاتدرائيات، بدأت مكتبات الجامعات تكتسب نوعاً من الأهمية. ولم تصلنا معلومات عن المكتبات الجامعية في انجلترا قبل القرن الرابع عشر.. وفي أكسفورد على العكس من باريس كانت هناك **مكتبة جامعة** تفوق في مجموعاتها كل مكتبات الكليات. وتأسيس مكتبة جامعة أكسفورد يرجع إلى الأسقف **توماس كوبهام**[1] الذى أسس في سنة ١٣٢٠م قاعة مطالعة فوق قاعة الاجتماعات العامة بالجامعة. وكان للسخاء الذى أبداه همفرى دوق جلوكستر (المتوفى سنة ١٤٤٧م) إزاء مكتبة جامعة أكسفورد، أثره البالغ في وضع هذه المكتبة في المرتبة الأولى بين المكتبات الإنجليزية.

وعلى الجانب الآخر كانت كل كلية على حدة تعتبر إقامة مكتبة من بين وظائفها الأساسية، ومن ثم أنشئت هذه المكتبات بعد فترة وجيزة من إنشاء الكلية نفسها: كلية ميرتون سنة ١٢٧٤م، الكلية الجامعية ١٢٩٢م، أوريل ١٣٢٩، باليول ١٣٣٦م، كلية اكسيتر ١٣٦٦م.

أما **الكلية الجديدة**[2] التى أنشئت سنة ١٣٨٠م فقد تلقت في نفس تلك السنة من مؤسسها ٢٤٠ مخطوطة هذا المؤسس هو **وليام من وايكهام**[3]، أسقف ونشستر.

وقياساً إلى أكسفورد كانت المكتبات الجامعية في كامبرذج متواضعة جداً. وقد جرى ذكر المكتبة الرئيسية في الجامعة لأول مرة سنة ١٤٣٨. ومن بين مكتبات الكليات في هذه الجامعة لم يرد ذكر المكتبة في اللائحة إلا في أقدم هذه الكليات: **كلية بيتر**[1]، التى وضعت في لائحتها سنة ١٣٤٤م بنوداً خاصة

---

(١) Thomas Cobham

(٢) New College

(٣) William of Wykeham

بالمكتبة، وهى الوحيدة التى تقارن بنظيراتها فى جامعة أكسفورد.

لقد أعيدت صياغة الممارسات المكتبية فى المكتبات الجامعية الإنجليزية على ضوء تلك الممارسات فى جامعة باريس. وكانت الكتب فى المكتبات الجامعية الرئيسية للاستخدام الداخلى فقط بينما كان من الممكن الاستعارة الخارجية من مكتبات الكليات. وكانت المكتبة الرئيسية تحتفظ بالمجموعات دائمة وكثيرة الاستعمال مربوطة إلى القمطرات بسلاسل حديدية كمجموعة مرجعية. وكانت لوائح المكتبات التى تنقح سنوياً تحدد شروط استعمال الكتب داخلياً وشروط الاستعارة الخارجية وسد الثغرات كلما ظهرت. ومن الجدير بالذكر أن الجامعات الإنجليزية أعطت اهتماماً بالغاً لمبانى المكتبات الجامعية مما أثرى فن معمار المكتبات الإنجليزى.

ألمانيا

كانت ألمانيا بعيدة عن حركات الإصلاح الفكرى الكبيرة التى حدثت فى الغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولم تساهم إلا بقدر محدود صغير فى النهضة التى حدثت فى القرن الثالث عشر. ولم تنشأ فى ألمانيا جامعات على غرار الجامعات الفرنسية إلا فى منتصف القرن الرابع عشر. ووثائق الترخيص التى وصلتنا تدعو تجار الكتب والنساخ ومزخرفى الكتب إلى الإقامة والالتحاق بالأكاديميات الجديدة وتمنحهم نفس الامتيازات الممنوحة فى الجامعات الفرنسية. ورغم ذلك فإن دور الوراق أى تاجر الكتب كموظف فى الجامعة لم يكن له نفس الأهمية التى كانت له فى إنجلترا وإيطاليا وفرنسا كما رأينا من قبل. ومصطلح تاجر الملازم[٢] لانجد له ذكر فى لوائح الجامعات الألمانية.

لقد تطور موقف الجامعات الألمانية تطوراً غير متسق ولامنظم، ولم تشغل الجامعة الألمانية نفسها بتنظيم تجارة الكتب. وكان هناك بدلاً من ذلك طريق آخر أمام الدارسين للحصول على النسخ الصحيحة الكاملة من النصوص الدراسية:

(١) Peter house

(٢) Petie

أن يذهبوا مباشرة إلى الوراقين والناسخين المحترفين للحصول على مايريدون، وكان الطلاب من جهة ثانية يكتبون مباشرة من إملاء الأستاذ عليهم. ويسبب هذا الإجراء فإن نوعية النصوص الأكاديمية فى ألمانيا لم ترق أبداً إلى المستوى العالى الذى بلغته فى جامعات الدول الرومانسية (الفرنسية).

وفى ذلك الوقت بدأت ألمانيا تدخل تجربة الكتب الورقية بكثرة بدلاً من كتب الرقوق غالية السعر وما صاحب ذلك من تعدد الخطوط المكتوبة بها والتى كانت بدون أية ضوابط وظلت كذلك حتى دخول الطباعة.

وإذا قورنت مكتبات الكليات فى ألمانيا بنظيراتها فى الغرب أعنى فرنسا وانجلترا فإنها تبدو متواضعة للغاية. ومن المهم أن نشير إلى أن مكتبات الجامعات الرئيسية (أى العامة وليس الكليات، بمعنى المركزية) فى ألمانيا قد بدأت مبكرة عن تلك المكتبات فى انجلترا. وقد تطورت من مجرد مكتبات كليات إلى مكتبات مركزية فى الجامعات. وكقاعدة كانت أكبر مكتبات الكليات ـ وغالباً مكتبة كلية الآداب ـ هى التى تتحول إلى مكتبة للجامعة أى تصبح المكتبة المركزية. ونستعرض فيما يلى الخطوط العامة للمكتبات الجامعية فى ألمانيا على ضوء الجامعات التى نشأت فيها:

جامعة براغ[1]

كانت جامعة براغ هى أولى الجامعات فى ألمانيا حيث أسست سنة ١٣٤٨م وتمثلت فيها كل خصائص النظام الألمانى فى توزيع الكتب المقررة. لقد كان **توزيع الكتب المقررة**[2] محدداً بصرامة فى لائحة كلية الآداب لسنة ١٣٦٧م وقد تم تعديلها بلائحة أخرى سنة ١٣٩٠م. ومن جهة أخرى فإننا يمكن مطمئنين أن نقول بأن حجم مجموعات مكتبات الكليات الاثنى عشر فى الجامعة كانت تضارع مجموعات مكتبات الكليات فى جامعة باريس. وكان أهم تلك المكتبات مكتبة

---

(١) Prague

(٢) Pronuntiato

كلية كارولينا[1] التى أسسها الامبراطور شارل الرابع سنة ١٣٦٦م. ففى سنة ١٣٧٠م تلقت هذه الكلية ١١٤ مخطوطة هدية من **وليام من هازنبرج**[2]، الذى جمع كمية من المخطوطات أثناء صحبته لأسقف براغ إرنست فون باردوبتز فى فرنسا وخاصة من أفجنون. وقد وصلنا من هذه الكلية **سجل بالكتب**[3]، يصف محتويات تسع من قمطرات الكتب (رفوف الكتب المسلسلة) التى كانت موجودة فى المكتبة قبل ١٣٧٠م. وقد غاب عن هذه المكتبة ومن ثم عن هذا الفهرس الإنتاج الفكرى الإنجليزى الذى كان من الواضح أنه يقتنى بكثرة فى مكتبة كلية **الأمة البوهيمية**[4]، وحيث نصادف كتابات كل من **وايكليف**[5] والكتاب الجدليين بأكملها، على النحو الذى يكشف عنه فهرس تلك المكتبة. وبالإضافة إلى هذا الفهرس وصلتنا قوائم هجائية بمقتنيات ثلاث مكتبات أخرى. وهذه الفهارس الأربعة الأخيرة تصف مجموعة من الكتب قوامها ١٨٦٦ مخطوطة من بينها ٩١٤ كتاباً أى حوالى النصف فى مكتبة كلية الأمة البوهيمية وحدها؛ بما يدل على الثراء الفكرى فى جامعة براغ، ولقد وصلنا معظم تلك المخطوطات رغم انسحاب الألمان من براغ سنة ١٤٠٩م، ورغم الحرائق والثورات فى تلك المناطق والتى بدأت أولاً فى كلية كارولينا ثم امتدت إلى الكنائس والأديرة سنة ١٤٢٠م.

جامعة فيينا

كانت جامعة فيينا هى ثاني الجامعات التى تقام في شرقى ألمانيا سنة ١٣٦٤م. وقد تطورت مكتبة الجامعة من تحت عباءة مجموعات كلية الآداب كما ألمحت سابقاً. وجاءت المجموعات الرئيسية من الهدايا التى قدمها أفراد عديدون من

(١) Collegium Carolinum

(٢) William of Hasenberg

(٣) Registrum Librarum

(٤) Bohemian Nation

(٥) Wycliffe

بينهم الرياضى **جوهان فون جموندن**[(1)] سنة ١٤٤٣م. وفى سنة ١٤٧٣، أقيم مبنى مخصوص لهذه المكتبة، جمعت فيه أيضاً مجموعات الكليات الأخرى.

وقد قصرت لائحة سنة ١٤٤٣م استخدام مجموعات هذه المكتبة على أعضاء كلية الآداب فقط!! والذين كان من حقهم أن يعطوا مفاتيح المكتبة لقاء مبلغ يسمى «ضريبة المفتاح» ولكن هذا الامتياز سحب فيما بعد على سائر «دكاترة» الكليات الأخرى.

وقد اتبعت المكتبة أيضاً نظام الكتب المربوطة بسلاسل الحديد ولم يكن يسمح باستخدام هذه الكتب إلا بعد دفع ضريبة المكتبة (رسم المكتبة)، وهو شرط وضعه جوهان فون جموندن نفسه على الهدية التى قدمها للمكتبة. ومن الواضح أن حصيلة هذه الرسوم (الضرائب) كان يستخدم فى تنمية المجموعات. وكانت الطرق الأولى فى تزويد المكتبة بالمخطوطات هى الهدايا والإرث من أعضاء هيئة التدريس. وكانت أسماء المهدين توضع فى سجلات المكتبة وتنقش على المخطوطات نفسها. وكانت الإعارة الخارجية تتم فى أضيق نطاق وفى حالات استثنائية وبعد دفع رهن أو تأمين وبعد تصريح العميد بذلك.

وقد وصلنا عن هذه المكتبة فهرس من ثلاث نسخ يرجع إلى سنة ١٤١٥م. إحدى النسخ تحفظ لدى العميد، والنسخة الثانية لدى أمين المكتبة والثالثة تربط بجدار المكتبة للإطلاع من قبل القراء.

ولقد أنشئت وظيفة أمين المكتبة سنة ١٤١٥م أيضاً وكان أمين المكتبة يتغير كل سنة يوم ١٣ من أكتوبر، وهو **يوم سانت كولومان**[(2)].

أسست مكتبة كلية الطب سنة ١٤١٩م على يد الطبيب النمساوى (الفينى) **نيقولاس فون هبرزدورف**[(3)] الذى قدم بيته وكتبه كلها لكلية الطب. وقد تبع

---

(1) Johnnes von Gmunden

(2) St. Coloman,s Day

(3) Nicholas Hebersdorf

هذه الهدية مشتريات كثيرة للكتب وميراثات متعددة. وقد أعد لمجموعات هذه الكلية فهارس فى سنوات ١٤٣٩، ١٤٤٧، ١٤٤٩ مما يكشف عن الزيادة المستمرة فيها.

لقد كان من خصائص المكتبات الأكاديمية الألمانية أنها لم تكن تتاح إلا لأعضاء هيئة التدريس والخريجين فقط. **لقد كانت مكتبات أساتذة فقط**(١) وكانت بعيدة جداً عن حرية الإتاحة الموجودة فى مكتبات جامعة باريس. وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن هذه المكتبات لم ترتفع أبداً إلى مستوى نظيراتها الأجنبيات سواء فى كم المجموعات أو كيفها فلابد من الاعتراف بأن عمر المكتبات الجامعية الوسيطة لم يكن نقطة مضيئة فى تاريخ المكتبات الألمانية فيما يذهب كارل كرست نفسه. ومع ذلك فقد كان ثمة استثناءات: مكتبات جامعة هايدلبرج التى حققت فخامتها وازدهارها من وراء رعاية النبلاء لها. ولقد كانت المكتبات الجامعية تستفيد من الهبات والميراثات فى كثير من الأحيان كما استفادت هيدلبرج من **مارسيليوس من إنجهن**، إيرفورت من **امبلونيوس**، فيينا من **جوهان جموندن** وجامعة **جريفزوالد** من **هنريش روبناو**(٢).

لقد اكتسبت الجامعة فى براغ وفيينا صفة جامعات الدولة حيث قام بتأسيسها الأمراء. وكانت هناك فوارق واضحة بينها وبين جامعات المدن التى أسست فى كولون (١٣٨٨)؛ إيفورت (١٣٩٢) والتى كان لها فلسفة مختلفة فى التعليم العالى. وفى جامعة هيدلبرج التى أسست سنة ١٣٦٨م نجد لمسات «الإمارة» واضحة فيها حيث بلغ الاهتمام بالكتاب والمكتبات أقصى درجاته فى فترة ماقبل الإصلاح.

جامعة كولون(٣)

كانت جامعة كولون منذ بداية نشأتها مركزاً للدراسات اللاهوتية. لقد قام

---

(١) Librariae magistrorum Facultatis

(٢) Greifwald

(٣) Cologne

ألبرتو سماجنوس وماستر إيكهارت[١] بالتدريس فى مجمع باريس الدراسى سابق الذكر. كما درس **توما الإكوينى** هناك. كما قضى اللاهوتى الفرنسسكانى **دونز إسكوتوس**[٢] (توفى ١٣٠٨م) سنواته الأخيرة هناك. لقد كانت هذه الجامعة التى أسست سنة ١٣٨٨م قلعة حصينة للتقاليد والعراقة على نحو ما كانت عليه جامعة لوفان التى أسست سنة ١٤٢٦م على غرار جامعة كولون هذه.

إن المرء ليتوقع من مثل هذه الجامعة أن تكون لديها مكتبات ذات إمكانيات عالية ومجموعات قوية. ولكن للأسف حتى المكتبة الوحيدة الكبيرة فى كلية الآداب كانت مخيبة للآمال. لقد وضعت فى الدور العلوى من مبنى كلية الآداب الذى أقيم سنة ١٤٢٧. ويكشف فهرس سنة ١٤٧٤م الذى جاء على شكل لوح خشب عن حجم المجموعة ٣٤٢ مخطوطة فقط وزعت على ١٥ منصة خشبية. وكانت المجموعة كلها كتباً لاهوتية مع كثير من أعمال توما الإكوينى وألبرتوس ماجنوس، بينما كانت الكتب العلمانية غائبة تماماً وكتب الآداب فقيرة هزيلة.

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت كل من كلية الحقوق والطب فيها مكتبة صغيرة. وأكثر من هذا ولأسباب غير مفهومة قامت هاتان الكليتان سنة ١٥٧٨م بتوزيع مجموعاتها وتقسيمها على ثلاث مدارس ثانوية فى كولون.

جامعة إيرفورت[٣]

كانت مدينة إيرفورت مركزاً **للحياة الجديدة**[٤]، ولذلك جاءت جامعتها انعكاساً للنظرة الجديدة إلى الحياة وخاصة الحياة الفكرية وشدت نفسها بعيداً عن التقاليد الحتمية التى وضعت جامعة كولون نفسها فيها. وتقف مكتبة الجامعة التى أسست

---

(١) Albertus Magnus, Master Eckhart

(٢) Thomas Acquinas; Duns Scotus

(٣) Erfurt

(٤) Vita moderna

سنة ١٣٩٢م شاهدا على ذلك. وطبقاً لقائمة رفوف وصلتنا عن سنة ١٤٧٢م بيانات عن ٨٠٠ مخطوط بما يجعلها مكتبة أكاديمية بالمعنى الصحيح فى ذلك الوقت. ومما يجدر ذكره أن المكتبة قد أسست مع تأسيس الجامعة نفسها.

وفى سنة ١٤٠٧م كانت مكتبة كلية الآداب تحتل حجرة خاصة بها فى نفس مبنى الكلية ونقلت فيما بعد إلى مبنى خاص حيث دمرت المجموعات جزئياً فى اضطرابات سنة ١٥١٠م. وبعد ذلك تم ترميمها ولم شعثها وأصبحت مكتبة كلية الآداب هى فى نفس الوقت **مكتبة جامعة إيرفورت**[١] كما نستنتج ذلك من وضع المكتبة تحت الإشراف المباشر لرئيس الجامعة. وكان كلما عين أمين مكتبة جديد، كان رئيس الجامعة وليس العميد هو الذى يجرد المجموعات. ولقد وصلتنا فهارس المكتبة منذ ١٤٠٧م ومنها نكتشف أن المجموعات كانت تلبية مباشرة لاحتياجات أعضاء هيئة التدريس. وكانت لوائح المكتبة جزءاً من لوائح الجامعة ولعل من أقدم تلك اللوائح التى وصلتنا لائحة سنة ١٤١٢م التى تلغى امتيازات أعضاء هيئة التدريس وتسمح باستعارة الكتب خارج المكتبة حتى للخريجين والطلاب.

وفى ذلك الوقت كانت مجموعات مكتبة جامعة ايرفورت تفوق مجموعة أية مدينة أخرى فى شمالى ألمانيا. وكانت هناك علاقات وثيقة بين مكتبات جامعة إيرفورت وكثير من مكتبات الأديرة الموجودة فى المنطقة: البندكتية فى سانت بيتر؛ الكارثوزية فى سلفاتوربرج وكذلك الأديرة الأوغسطية.

ومن بين مكتبات الكليات فى جامعة إيرفورت التى يجب أن تذكر مكتبة **كلية أمبلون**[٢] التى أسسها **أمبلونيوس راتنك دى بيركا** (١٣٦٤-١٤٣٥)[٣]. لقد كان أمبلونيوس الطبيب واللاهوتى هو أهم جمَّاع كتب فى ألمانيا العصور الوسطى. وكان يشبه إلى حد كبير ريتشارد دى بيرى فى حبه ومحاربته لجمع الكتب بنفس

---

(١) Libraria Universtatis Erfordsensis

(٢) Amploniana

(٣) Amplonius Ratinck de Berka

الأسلوب الذى ساد العصور الوسطى. وإذا حكمنا عليه من واقع مجموعات كتبه فسوف نجد أنه أكثر ثقافة وأعمق علماً من الأسقف الإنجليزى حيث كان فى مكتبته مجموعة كبيرة من كتب الطب والكلاسيكيات. كذلك فإن أمبلونيوس فعل مالم يستطعه الرجل الإنجليزى، وهو تقديم مجموعاته إلى مكتبة الجامعة.

لقد استطاع أمبلونيوس أثناء عمله عميداً فى كلية سانت فيكتور فى ماينز التى ذهب إليها سنة ١٤١٧م، أن يجمع كمية كبيرة من الكتب رغم كل الظروف التى أحاطت به أثناء عمله هناك. وفى الفترة التى قام فيها بتأسيس كليته فى إيرفورت سنة ١٤١٢ كان عدد الكتب التى جمعها قد بلغ ٦٣٥ مخطوطة، أعطته المدينة مكاناً لوضعها فيه. وضع أمبلونيوس مجموعته هناك ووعد بزيادتها وتنميتها. وكان من أساسيات الهبة أن قام أمبلونيوس بعمل فهرس لها بين ١٤١٠-١٤١٢م. هذا الفهرس وصلنا، وقد أضيف إلى المجموعة بعد ذلك أكثر من ٤٠٠ مخطوطة. ولقد وضع أمبلونيوس مجموعة من القواعد لإدارة وتنظيم وتجليد واستخدام هذه الكتب فى لائحة صدرت سنة ١٤٣٣م.

وبعد عقود قليلة من هذا التاريخ قام صديق أمبلونيوس الريفى **نيقولاس من كوزا**[١] بتقديم مكتبته إلى المستشفى التى أنشئت فى **كيوس**[٢]. ومن حسن الحظ أن كلا المكتبتين اللتين أنشأهما الرجلان وصلتا إلينا ـ ولو مع خسائر طفيفة ـ وهى أجمل هدية من العصور الوسطى وبداية العصر الحديث.

جامعة هيدلبرج[٣]

أنشئت جامعة هيدلبرج سنة ١٣٨٦، وقد ازدهرت أيما ازدهار بسبب الدعم الذى لقيته من أسرة **ويتلزباخ فى بالاتينيت**[٤]. لقد كان فى اعتقاد **روبيرت الأول** المؤسس أن وجود المكتبة فى هذه المؤسسة الأكاديمية ضرورى لنجاح

(١) Nicolas of Cusa

(٢) Kues

(٣) Heidelberg

(٤) Wittelsbach of the Palatinate; Rupert I

العملية التعليمية فى مؤسسته وفى الوثائق المؤسسة للجامعة نجد دعوة حارة إلى **تجار الكتب والوراقين وتجار الرقوق والنساخ والمزخرفين**(١) للالتحاق بالجامعة وتعدهم بنفس الامتيازات التى تمنح لأقرانهم فى جامعة باريس. وأعلنت الجامعة كذلك عن قبولها لهدايا الكتب التى سوف تضعها فى خدمة كل مجتمع الجامعة من طلاب وأساتذة. وجاءت الكتب من مصادر متعددة للكليات المتخصصة: القانون، اللاهوت، الطب. كما قدمت مجموعة كبيرة من الكتب لمكتبة كلية الآداب سنة ١٤٤٢م. وفى تلك السنة أصبح هناك مكتبتان: واحدة للجامعة (المركزية) والثانية خاصة بكلية الآداب؛ نقلاً معا بعد ذلك إلى مبنى جديد أقيم خصيصاً ليكون مكتبة. خصص الطابق الأرضى منه لمكتبة كلية الآداب والعلوى لمكتبة الكليات المتخصصة الثلاثة (القانون - اللاهوت - الطب).

وقد وصلنا جرد لممتلكات الجامعة سنة ١٣٩٦م يتضح منه أن مجموعة الكتب بلغت ٣٧٥ كتاباً منها ٢١١ كتاباً فى اللاهوت وقوانين الكنيسة ورثت فى سنة ١٣٩٠ عن أعضاء ماتوا.

وفى نفس هذه السنة قدمت للمكتبة أثمن هدية تلقتها فى ذلك الوقت المبكر، عندما قدم لها مديرها الأول **مارسيليوس من إنجهن** (المتوفى سنة ١٣٩٦م)(٢) والتى تضمنت ٣٠٠ مخطوطة فى كل فروع المعرفة البشرية. وفى سنة ١٤٣٢م بلغت المجموعة نحواً من ٨٧٤ مخطوطة. وبعد عدة سنوات قدم لويس الثالث حاكم بلاتين ١٥٢ مخطوطة أصبحت أساس المكتبة الجديدة للكليات العليا التابعة **لكنيسة الروح القدس**(٣). وقد أعد فهرس تجميعى للمكتبات الثلاث حصر ١٦٠٠ كتاباً فى ٨٤١ مجلداً سنة ١٤٦١.

ومن ثم يتضح لنا أن النية قد انصرفت منذ البداية، بداية إنشاء جامعة هيدلبرج أن يكون فيها مكتبة جامعية على الرغم من أنها لم تفتح ولم تتح لكل

(١) Librarii, Stationarii, Pergamenari, Scriptores, illuminatores

(٢) Marsilius of Inghen

(٣) Church of the Holy Spirit

الجامعة منذ البداية حيث لم يكن مصرحاً للطلبة باستخدامها على الرغم من أن لوائح سنة ١٤٥٢م كانت تحتم وجود نسخة من الكتب المقررة لكل ٢-٣ طلبة. وإلى جانب هذه المكتبات الثلاث الكبيرة كانت مساكن الطلبة تضم مجموعات صغيرة من الكتب، إضافة إلى مكتبة كل كلية على حدة وهى صغيرة أيضاً.

وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت مجموعات الكتب فى جامعة هيدلبرج، التى ربما كانت أكبر مجموعة فى ألمانيا آنذاك تمثل كل فروع المعرفة البشرية. وكانت فى حقيقة الأمرتمثل التيارين: الحديث الذى نشأت من أجله الجامعة أساساً والقديم الذى أدخلته إلى دراساتها بعد سنة ١٤٥٢م. لقد كانت جامعة عصرية فى وقتها ولكنها لم تساير التقدم بعد ذلك. وكانت قيمة المكتبة فى الواقع ترجع إلى مجموعات الكتب القيمة التى قدمها لها كونتات بالاتين، ذلك أن مكتبة القصر عندما ضمت إلى مكتبة كنيسة الروح القدس على يد **الكونت المنتخب أوتنريتش** وأضيف إليها **أولرخ فوجر**[١]، جعلت من البلاتينيت **أكبر مستودع للإنتاج الفكرى الألمانى**[٢].

جـ - مكتبات الطوائف الدينية القديمة

فى بداية القرن الثالث عشر بدأت الأنظمة الدينية بصفة عامة فى الانهيار وقد أصبح النظام البندكتى مثالاً على ذلك الانهيار الثقافى والاقتصادى الذى عم الأديرة الرئيسية وفروعها، وقد استمر ذلك الانهيار حتى الإصلاح الذى دخل عليها فى القرن الخامس عشر.

ففى الأديرة القديمة والغنية نادراً ما كان الرهبان يقومون بعمليات النسخ، وإذا قاموا بها فإنهم لم يكونوا يؤدونها كما ينبغى. ثم لجأت الأديرة بعد ذلك إلى استئجار **ناسخين محترفين**[٣] بالأجر ليقوموا بذلك. ومن المؤسف أن تأتى سنة

(١) Count Utteinrich; Ulrich Fugger

(٢) Optimus Germaniae Litteratae thesaurus

(٣) Scriptores Conducti

١٢٩٠م وتصبح مهارات الكتابة فى الأديرة أمراً منسياً غير معروف بالمرة حتى فى الأديرة الشهيرة مثل مورباخ، سانت جال وغيرها وتغلق المناسخ الديرية أبوابها. ومما يذكر فى الوثائق أن الأب بيرنارد قد استأجر نساخين محترفين فى دير **فوراو**[١]. وبعد أن كان الأب كونراد (توفى ١٣٠٠م) يفخر بأنه كان ينسخ الكتب بيده، أصبح فى الأديرة نساخ يدفع لهم. كان الأمر كذلك فى كل أوربا: ألمانيا وفرنسا وانجلترا. ففى كوربى كان الرهبان خلال القرن الثالث عشر يشترون الكتب ومن حين لآخر يستأجرون النساخ بصفة منتظمة واستمر ذلك فى القرون التالية. ومن المحزن أن ينص على استئجار النساخ فى لوائح بعض الطوائف كما حدث فى حالة **القانونيين النظاميين**[٢] فى سانت فيكتور (باريس) حيث تقول اللائحة: «ومن واجبات أمين المكتبة أن يستأجر ويشرف على **النساخين الذين ينسخون بالأجر**»[٣].

وفى مكتبات الأديرة أهملت المناسخ اهمالاً تاماً. وقد تباطأ فيها إنتاج الفهارس أو كاد يتوقف، وكان عدد المخطوطات الجديدة المضافة إلى الرصيد هزيلاً. وأصبحت مكتبات الأديرة للأسف مصدراً هاماً من مصادر الدخل للدير حيث كانت الكتب ترهن أو تباع. وليست تلك الصورة هى الاستثناء بل كانت هى الصورة العامة: ففى سانت جال تخلص الأب **رومو**[٤] ١٢٧٤-١٢٨١م من أحسن الكتب. وفى دير سانت أولرخ فى أوجزبرج تسبب الأب **ماركواند**[٥] فى خسارات فادحات للمكتبة حيث كان يرهن الكتب للدومنيكان، أو يعيرها بدون إيصالات أو وديعة. وفى بامبرج فى سنة ١٢٥٧م قام الأب **فردريتش**[٦] برهن **كتاب مكتوب بماء الذهب**[٧] ومخطوطات أخرى للمرابين اليهود؛ وهو نفس

(١) Vorau

(٢) Canons Regular

(٣) Scriptores qui pro pretio Scribunt

(٤) Rumo

(٥) Marquand

(٦) Fredrich

(٧) Liber aureus

مافعله الأب **ديمور** ١١٢٥-١١٣٩م[١] فى وقت سابق فى دير **لورك**. أما المكتبة فى دير ريشيناو فإنها لم تذكر من القرن الحادى عشر مما يدل على إهمالها. وفى دير فولدا كان الأب **روتجر** (المتوفى ١١١٧م)[٢] آخر من أضاف إلى المكتبة وبقيت بعد ذلك بدون إضافة تذكر ذلك أن الفهارس التى أعدت فى القرن السادس عشر لها لاتقدم جديداً بعد هذا التاريخ. وفى كورفى كان الدير سخياً كريماً فى إعارة مخطوطاته للأديرة الأخرى وعدم المطالبة بها لدرجة أن ثمانية وعشرين مخطوطاً من مكتبته تظهر فى فهرس وسجلات دير السستريان فى **أميلونجزبورن**[٣].

وإذا كانت الوثائق تؤكد انهيار مكتبات الأديرة على هذا النحو فإن المصادر الأدبية هى الأخرى تقف شاهدة على العصر؛ فقد صور **دانتى**[٤] القديس بندكت يشكو من تحلل طائفته الدينية قائلاً **«وهكذا فإن تعاليمى تصبح إهداراً للرقوق»**[٥]. وقد كتب **بنيفينوتو دا إيمولا**[٦] ١٣٧٠م تعليقاً على مقولة دانتى تلك: إن مكتبات الأديرة البندكتية قد تخلفت تخلفاً شديداً وأخذ مثالاً على ذلك من تلك الزيارة التى قام بها **بوكاتشيو**[٧] إلى مكتبة دير مونت كاسينو الأشهر حيث وصفها بوكاتشيو:-

«النباتات المتسلقة سدت النوافذ؛ المكتبة مفتوحة على مصراعيها، الكتب ممزقة تالفة مغطاة بالأتربة، وليس هناك أى قدر من الحماية ضد اللصوص» هذا المنظر لإحدى المكتبات التى كانت عظيمة أذرف الدمع من عينى بوكاتشيو الفلورنسى.

---

(١) Diemo

(٢) Rutger

(٣) Amelungsborn

(٤) Dante

(٥) "La Regolamia: rimasa é per danno de la Carte"

(٦) Benenvenuto da Imola

(٧) Boccaccio

وفى سانت جال وصف جيوفانى بوجيو براتشيولينى[١] حالة شبيهة بحالة مونت كاسينو. هذه الصور فى حقيقة الأمر تكشف عن اتجاهات الرهبنة الجديدة فى العصور الوسطى المتأخرة ومحاولتها التحرر من ربقة الحياة الديرية التى يسجنون فيها. كما تكشف عن أن المكتبات الديرية التى كانت فى يوم من الأيام مفخرة للدير وعلامة من علامات تميزه لم تعد كذلك فى فترتنا هذه.

وفي انجلترا خارج أرض القارة الأم صوَّر ريتشارد دى بيرى، أحوال المكتبات الإنجليزية بنفس الطريقة، وهو يكتب عنها كتابة خبير شاهد عيان للمكانة والوظيفة التى كان يحتلها هناك وتردده عليها؛ يقول دى بيرى:

«**خزانة الكتب**، حيث كانت الكتب الفخيمة أهملت الآن ونسيت وقبرت فيها الكتب ولم يعد يمسها أحد. مغطاة ببقايا طعام الفئران، تمزقها الديدان والحشرات إرباً إرباً. تلك الذخائر التى كانت فى يوم من الأيام ملفوفة بالتيل القرمزى الناعم ترقد الآن مغلفة بقماش النسيان الخشن وأتربة الإهمال السوداء».

يقول كارل كرست، ورغم الصورة العامة السوداء هذه فقد كانت هناك حالات استثنائية من بينها على سبيل المثال دير **كريمزمونستر** فى عهد الأب **فردريتش فون آيخ** ١٢٧٥-١٣٢٥م[٢] حيث عاش هناك بين سنتى ١٢٩٠-١٣٢٦م واحد من ألمع خطاطى ومزخرفى ومصممى المخطوطات ذلك هو أمين المكتبة، كاتب الحوليات، المؤرخ، العالم، حارس المعرفة والمعلم أيضاً: **بيرشتولد من كريمزمونستر**[٣] ويشار إليه عادة فى الإنتاج الفكرى باسم **بيرناردوس نوريكوس**. هذا الشخص كان موضوعاً لكتابات عديدة، إلى أن جاء **جورج ليدنجر**[٤] وقدم أدلة مقنعة تدل على أنه كان شخصية وهمية من اختراع

---

(١) Giovanni Poggio Bracciolini

(٢) Kremsmünster, Freidrich von Aich

(٣) Berchtold of Kremsmünster (Bernardus Noricus)

(٤) Georg Liedinger

أفنتينوس. وأخيراً قام **ويلبرورد نيومولر**(١) باستخدام الأسلوب الباليوجرافى الببليوجرافى وأثبت أن بيرناردوس نوريكوس هو نفسه بيرشتولد من كريمزمونستر؛ ومن ثم أحيا من جديد شخصية عظيمة كان قد أعلن عن وفاتها ودفنها.

ومن جهة ثانية قام الأب **إنجلبرت من أدمونت**(٢) مع شخصيات أخرى فى زمانه بنشاطات فكرية عديدة نجمت عنها مكتبة عظيمة شاملة فى تلك الفترة. كما كان **بيير دى فيرى**(٣) الأب فى **كليرفو** من جمَّاعى الكتب المشهورين، وخلف لنا عدداً من الفهارس من إعداده.

الطوائف الدينية الجديدة: الشحاذون (الصعاليك)(٤)

بينما نعى ريتشارد دى بيرى على الرهبان تحولهم المتزايد والمطرد نحو العلمانية، فإنه كان سخياً كريماً فى كلامه عن الطوائف الجديدة (الشحاذون):-

«لو تصادف أن كنا فى منطقة كان للرهبان الشحاذين فيها دير فإننا لا نعدم وجود مكتبة تستحق الزيارة. هنا وسط الفقر المدقع، نجد أحسن الثروات. إنهم كالنمل يعمل بلا كلل فى جمع الطعام، وكالنحل يدأب دائماً فى عمل العسل. إن إنجازاتهم كانت الأخطر من نوعها لأنهم كانوا يكدون فى جمع الكتب مثل العمال الذين جاءوا للعمل فى حقول عنب الرب فى الساعة الحادية عشرة. لقد استطاعوا فى ساعة واحدة أن يجمعوا كمية كبيرة من الكتب المقدسة أكبر بكثير مما يفعله عمال حقول العنب».

لقد تأسست طائفتا الرهبان الشحاذين فى وقت واحد تقريباً: الفرنسيسكان سنة ١٢٠٩م والدومنيكان سنة ١٢١٢م. وكانت مسألة العلم والمعرفة ونسخ الكتب وجمع المخطوطات بالنسبة لهما مسألة ثانوية جانبية. وكان أتباع هاتين

---

(١) Aventinus, Willibrord Neumüller

(٢) Engelbert of Admont

(٣) Pierre de Virey

(٤) Mendicant Orders

الطائفتين تنحصر حياتهم اليومية فى محاربة الهراطقة وتمتلئ بالوعظ والإرشاد. وتحول الرهبان من رهبان منعزلين عن الحياة، بعيدين هناك فى الأديرة يعيشون فى هدوء؛ إلى رهبان يعيشون وسط الناس فى صخب المدينة ونشاطاتها اليومية. وقد بدأت النشاطات الفكرية خارج الأديرة فى ذلك الوقت، وقت تأسيس هاتين الطائفتين وخاصة فى الجامعات. ولمدة قرن من الزمان سيطر هؤلاء المنديكانيون على الجامعات وكان إحياء أعمال أرسطو وفلسفته أهم إنجازاتهم.

وإذا حكمنا من واقع حجم النشاط الفكرى الذى قاموا به فإنه لابد أن تكون لديهم مكتبات كبيرة. ولكن المعلومات عن تلك المكتبات كما المخطوطات التى وصلتنا عنهم قليلة ومبعثرة. وهذا هو حال المكتبتين اللتين كانتا لهم فى باريس، حيث قام ريتشارد دى بيرى بزيارتهما، ومكتباتهم فى أكسفورد.

وكانت الظروف مهيأة تماماً فى إيطاليا وألمانيا لإحياء الفكر الكلاسيكى، إلا أن مجموعات الكتب التى جمعها هؤلاء الرهبان الصعاليك فى أديرتهم تبددت شذر مذر مع بداية العصر الحديث، وخاصة تحت وطأة حركة العلمنة.

ورغم اختفاء هذه المخطوطات وصدمتنا بسبب هذا الاختفاء إلا أنه اختفاء غير مفهوم إلى حد ما، .ذلك أن مكتبات هؤلاءالرهبان الصعاليك (الشحاذون) جاءت مواكبة لروح العصر العملية وقصد بها الدراسة والبحث العلمى ولذلك جمع فيها الإنتاج الفكرى النافع فقط، ومع ظهور الطباعة والمطبوعات وتصاعد حدة الخلافات الدينية الجديدة، تضاءلت قيمة المكتبات القديمة وأصبحت محتوياتها موضة قديمة ولم تلبث أن أهملت. وأكثر من هذا فإن مخطوطات هؤلاء الصعاليك لم تكن لتروق لجمّاعى الكتب لأنها كانت فى مجملها تفتقر إلى عوامل الجاذبية التى سادت العصر كما لم تكن مزخرفة الزخرفة التى تجعلهم يقبلون عليها ويهتمون بحفظها والإبقاء عليها. ولقد قام الرهبان الصعاليك هؤلاء ببيع هذه الكتب والتى لم ينسخوها بأنفسهم بل كانوا مجرد جامعين لها لأن

أسلوب حياتهم كما أسلفت لم يترك لهم وقتاً ينسخون أو يكتبون فيه. يضاف إلى ذلك أن فقرهم أو وجوب أن يكونوا فقراء وضع قيوداً حادة على مناسخهم، فالزخرفة ممنوعة وخاصة **البصم بالذهب**(١). استخدام الورق الرخيص بدلاً من الرقوق. هذا التقتير يتضح كأشد مايكون فى مخطوطات الفرنسيسكان وخطهم الدقيق الذى تزدحم به الصفحات والإسراف فى استخدام الاختصارات والورق الرخيص جداً.

ولم يكن هناك خطاطة جميلة ولا خط محسّن آنذاك يدلنا على ذلك أن روجر بيكون عندما أراد أن يهدى كتابه (**المجموع**)(٢) إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٦م لم يكن ناسخاً حسن الخط يكتب له النسخة المهداة. وكان النساخون القادرون على كتابة **الخط المحسّن الجميل**(٣) هم من الأجانب وكانت هناك مخاطرة وقوع أخطاء فى الكتابة إذا نسخوا النص.

ونتناول فيما يلى ملامح إنتاج الكتب وإنشاء المكتبات لدى الطوائف الدينية فى المرحلة الجديدة أعنى العصور الوسطى المتأخرة.

الفرنسيسكان(٤)

لم يكن القديس **فرانسيس**(٥) يهتم بالبحث العلمى اهتمام سلفه العظيم **بيتر داميان** ١٠٦٧-١٠٧٢م(٦) الذى أدخل الرهبنة الكلونية إلى إيطاليا؛ ودون الرجوع إلى الخلف كثيراً كان للبحث العلمى نصيب لدى هذه الطائفة منذ فترة مبكرة رغم الخلاف المستمر لدى أعضائها حول المذهب. ففى سنة ١٢٣١م كان هناك إثنان من الفرنسيسكان من أشهر الأساتذة المعلمين فى باريس واكسفورد هما

(١) aureus litterae

(٢) Opus Maius

(٣) Lettera bona

(٤) Franciscans

(٥) St. Francis

(٦) Peter Damian

ألكسندر من هيل و زوبيرت جروستست[١] وقد فاقهما فى الشهرة والمقام العلمى **جان دى فيدنزا بونافنتورى**[٢]، الذى غير أستاذيته فى باريس ليصبح رئيساً عاماً للطائفة سنة ١٢٥٦م.

ولقد احتدم الجدل حول ملكية الكتب أكثر من احتدامه حول تكريس الفقر بين أعضاء الطائفة. ثم شاءت قيادة الطائفة أن تنزع فتيل هذا الصراع المذهبى بإعلان أن الكتب الكثيرة فى الأديرة هى ملك لكل الطائفة وأنه مسموح فقط للرهبان أن يستعملوها ويفيدوا منها. وأن هذا القرار يتمشى مع رأى مؤسس الطائفة وأن الكتب فى حقيقة الأمر هى أدوات للدرس والوعظ. وقد صوت **أوبرتينو من كاسال**[٣] على هذا الحل للنزاع خلال الاجتماعات الصاخبة لمجلس الطائفة فى فيينا سنة ١٣١١م. ومنذ ذلك الوقت قننت مكتبات أديرة الطائفة ووضعت فى إطارها.

وكانت أكبر مكتبات طائفة الفرنسيسكان، تلك التى وجدت فى الدير الأم: **الدير المقدس** (ساكرو كونفنتو) فى أسيسى[٤]. وقد وصلنا من هذه المكتبة فهرس عن سنة ١٣٨١م. هذا الفهرس إضافة إلى ماوصلنا من مخطوطات ويقدر بنحو ٥٠٪ منها موجودة الآن فى **المكتبة العامة** فى أسيسى[٥]، يكشف عن أهمية تلك المكتبة ومجموعاتها. هذه المكتبة كانت مقسمة إلى قسمين: **المكتبة العمومية** وتضم ١٨١ مخطوطة. **والمكتبة السرية**[٦] وتضم ٥٣٧ مخطوطة والتى تعار فقط لأعضاء الطائفة والخريجين. هذا التقسيم يتبع النظام الباريسى الذى صادفناه من قبل. وهذا الفهرس كفهرس مكتبة السوربون يعطى تفاصيل ببليوجرافية هامة عن كل مخطوطة مثل: اسم المؤلف وعنوان العمل وعدد الملازم والكلمات الأولى

---

(١) Alexander of Hale; Robert Grosseteste

(٢) Jean de Fidenza Bonaventure

(٣) Ubertino of Casale

(٤) Sacro Convento at Assisi

(٥) Bibliotheca Communale

(٦) Bibliotheca publica; Bibliotheca Secreta

والختامية فى النص. وكان لكل مخطوط رقم طلب على حسب مكانه على الرفوف (القمطرات). وكان الفهرس يساعد على الوصول إلى الكتب فى المكتبة العمومية المسلسلة بسلاسل من حديد وكذلك فى المكتبة السرية التى كانت الكتب فيها موضوعة فى دولابين فقط. وكان عدد الملازم يسجل سواء فى الفهرس أو على المخطوط نفسه، كما كانت الملازم داخل المخطوط ترقم ترقيماً مسلسلاً. وكان كل رقم من هذه الأرقام يوضع فى شكل هندسى على هيئة تاج تشع منه الأشعة ويوضع هذا الرقم فى بداية ونهاية كل ملزمة. وهذه الخاصية فى ترقيم المخطوطات انفردت بها مكتبة أسيسى، وتساعد بسهولة على التعرف عليها.

كانت مكتبة **ساكرو كونفنتو** هذه تقترب فى حجم مجموعاتها من مكتبة جامعة بولونا (**المجمع الدراسى**) التى اشتملت على ٥٣٩ مخطوطة فى سنة ١٤٢١م. وكانت مكتبات سينا، أنطونيانا فى بادوا ثم سانت كروس فى فلورنسا تأتى جميعها فى المرتبة الثانية من حيث حجم المجموعات. وفيما يتعلق بمكتبات الشمال كانت مكتبات باريس واكسفورد هى أكبر المكتبات حجماً.

وفى أكسفورد كانت مكتبة الفرنسيسكان تنقسم إلى قسمين: **مكتبة الدير ومكتبة الباحثين والطلاب**(١). وكان روبرت جروستست أسقف لنكولن المثقف المشار إليه من أقوى المعضدين لمكتبة أكسفورد وقدم كتبه الخاصة **لمكتبة الدير** سنة ١٢٥٣م.

ولقد كان الإقبال الشديد على جمع الكتب من جانب الفرنسيسكان سبباً فى كثير من الانتقادات التى وجهت لهم. ومن بين من وجهوا لهم النقد ريتشارد **فيتزرالف** كبير أساقفة **أرماغ**(٢) الذى كانت له علاقات وثيقة بالبابا أنوسنت الرابع سنة ١٣٥٧م، والذى قال للبابا إنه من المستحيل عليه وعلى أتباعه وطلابه أن يحصلوا على أية كتب في الآداب، اللاهوت، والقانون والطب لأن الفرنسيسكان، كانوا يشترون الكتب بكميات كبيرة وقد كونوا منها مكتبات عظيمة فى أديرتهم.

---

(١) Bibliotheca Conventus; Libraria Scholarum et Studentius

(٢) Richard Fitzralph of Armagh

والحقيقة أن مكتبات الأديرة الفرنسيسكانية فى ألمانيا كانت ضئيلة القيمة إذا قورنت بأديرتهم فى الدول الأخرى. وقد وصلتنا فهارس من مكتباتهم فى ريجنزبرج سنة ١٣٥٧م، نورمبرج سنة ١٤٤٨م. وفى شمالى ألمانيا أسس الفرنسيسكان أديرة فى: **جورلتز** ١٣٤٨م[١]، وهو واحد من أقدم أديرتهم وتبعته بعد ذلك أديرة **برونشفيج**، **ألتنبورج**، **زيفيكاو**[٢] أما فى أرض الراين فكان لديرهم فى كولون الأهمية الكبرى.

الدومنيكان[٣]

كان الرهبان الدومنيكان امتداداً لطائفة القانونيين ولذلك اقتفوا أثرهم وتقاليدهم فى جمع الكتب. وكانت تكليفات البابا لهم محددة جداً وتقضى بمحاربة الهرطقة وشرح القوانين الكنسية كما وضعها توما الإكوينى. تلك التكليفات أضفت على الرهبان الدومنيكان قيمة علمية. ومن هنا كانت الكتب هى أداة هذه القيمة العلمية وكانت المكتبة ضرورة من ضرورات كل دير.

وقد تضمنت (التعاليم) وسجلات الأديرة، العديد من القواعد المنظمة لحصول الرهبان على الكتب واستخدامها. كما أن القواعد الفردية لكل دير على حدة بدءاً من الرئيس العام **همبرت الرومانى**[٤] ١٢٥٤-١٢٦٣م تعطى فكرة واضحة عن الممارسات المكتبية. ومن واقع كتابات همبرت الرومانى وفهرس نموذجى وصلنا من إحدى المكتبات الجيدة لهذه الطائفة يمكننا الحصول على معلومات جيدة عن مكتبات الدومنيكان. فقد قال همبرت «**إن المعرفة هى منحة سماوية وتنساب كما ينساب الماء من نبع الجنة خلال قنوات لكتب**»[٥].

(١) Gorlitz

(٢) Braunschweig; Altenburg; Zwickau

(٣) Dominicans

(٤) Humbert of Romans

(٥) Sapientis coelestis est sicut fons qui de caelo venit per canalem librorum

ومن تعليماته أن المخطوطات يجب أن تكتب بخط واضح مقروء. وكانت وصيته بعدم استخدام التذهيب فى زخرفة المخطوطات بأية حال. وكانت النصيحة أيضاً للرهبان بعدم تضييع الوقت فى نسخ الكتب والأفضل شراؤها أو كراؤها أو تأجير النساخين المحترفين لنسخها وكانت الدراسة والبحث أهم عندهم من النسخ.

وقد فهم التمسك بالفقر والإمساك عن ملكية الكتب بمعنى أكثر حرية عند الدومنيكان منه عند الفرنسيسكان. فقد سمح للرهبان الجدد بالحصول على المال من أجل شراء الكتب الضرورية وسمح للإخوان بتملك الكتب. وكان مسموحاً لهم أن يأخذوا الكتب معهم وأن يتبادلوا بها ولكن لا يمكنهم بيعها أبداً. وعند الوفاة تصبح الكتب ملكاً للطائفة. وقد وصلتنا وثيقة من دير فى برشلونة تتضمن قائمة بالكتب الخاصة بكل راهب على حدة.

ويمكننا القول مطمئنين بأن مكتبات طائفة الدومنيكان كانت لاهوتية بحتة على الأقل فى بداياتها. وعلى عكس مكتبات الأديرة الباكرة؛ يلاحظ على مكتبات الدومنيكان نقص كتابات آباء الكنيسة. وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة الدراسة فى مدارس تلك الأديرة ومناهجها ذات الصبغة البراجماتية. وكانت كتب الفلسفة التى أهملت فى البداية قد بدأت تظهر مع منتصف القرن الثالث عشر. وفى داخل هذا الإطار العلمى الذى وضع الدومنيكان أنفسهم فه كانت مكتباتهم ممتازة.

ومن الملاحظ أن مجموعات تلك المكتبات قد تبددت، وربما تكون قد أدمجت فى مكتبات أخرى أنشئت فى وقت لاحق. ولم يتبق فى مكانها سوى مكتبتين اثنتين ترجعان إلى القرن الثالث عشر. هاتان هما **سانت كاترينا فى بيزا**[١]. وبيت الدومنيكان فى فيينا.

وكان لدير **سانت دومنيكا**[٢] فى بولونا ـ مدفن مؤسس الطائفة ـ نفس المكانة

(١) St. Catherina in Pisa

(٢) St. Dominica

والأهمية التى كانت لدير أسيسى الفرنسيسكانى. وطبقاً لفهرس ١٣٩٠م كان فى مكتبة الدير أكثر من ٥٠٤ مخطوطات، ظلت موجودة حتى عصر نابليون. كذلك فإن مكتبات أديرة **سانت ماريا نوفللا** فى فلورنسا؛ **سانت جيوفانى إى باولو**(١) فى فينسيا، وأيضاً تلك التى فى أديرتهم فى تورينو ونابلى كانت على مستوى طيب ومجموعاتها لا بأس بها. أما مكتبة ديرهم الشهير فى باريس، دير **سانت جاك**(٢) والتى كانت هدية مقدمة من سانت لويس والتى كانت تعتبر البيت الروحى للطائفة فقد أتت عليها النيران تماماً فى القرن السادس عشر. وهو نفس ماحدث بالنسبة لمكتباتهم فى أكسفورد وكمبردج. وفى الحقيقة لانعرف مصيرالكتب التى كانت موجودة فى المجمع الدراسى فى كولون والذى وصلنا منه شرح **ألبرتوس ماجنوس** على إنجيل متى وكتاب **تاريخ الحيوان**(٣).

والحقيقة أن مكتبات الدومنيكان فى ألمانيا قد وصلت إلينا بطريقة أفضل وحالة أحسن مما وصلنا من مكتبات الفرنسيسكان: ففى بازل وليبزج (دير بولينا)، أصبحت المكتبات منهما جزءاً هاماً بعد ذلك فى مكتبات الجامعة. فمكتبة بازل كانت تصل إلى خمسمائة مخطوط بما يعتبر أكبر مجموعة بين مكتبات الأديرة الدومنيكانية فى كل ألمانيا. وقد ارتفعت قيمتها كثيراً بعد الهدية القيمة من المخطوطات اليونانية إلى قدمها الكاردينال **جون من راجوزا** سنة ١٤٤٣م(٤). وقد ظلت مكتبات أديرة فرانكفورت **وسويست**(٥) نشطة فعالة حتى فترة العلمنة. وقد وصلنا فهرس من ريجنزبرج عن سنة ١٣٤٧م ومجموعة قواعد مكتبية من برن عن سنة ١٣٢٦م. وتكشف المخطوطات المصورة التى وصلتنا من مكتبة الدومنيكان فى نورمبرج عن أن هذه المدينة فى نهاية العصور الوسطى كانت تهتم اهتماماً كبيراً بزخرفة المخطوطات متأثرة فى ذلك بمدرسة براغ فى هذا الصدد.

(١) St. Maria Novella; St. Giovanni e paolo

(٢) St. Jacques

(٣) Historia Animalium

(٤) John of Ragusa

(٥) Soest

أديرة الراهبات

كما أشرنا قبل ذلك لماماً كانت هناك راهبات ناسخات منذ عهد **قيصاريوس من آرلز**[١]. وكن ينسخن الكتب المكتوبة باللاتينية. وكان مجال اهتمامهن الأكبر بكتب الإنشاد التى كن يزخرفنها. وفى خلال القرن الرابع عشر، احتلت أديرة الراهبات أهمية خاصة بعد أن بدأت فى إنتاج مخطوطات من نوع جديد، حول موضوعات جديدة لم تكن مطروحة من قبل وهى تلك المخطوطات التى تتصل بورع وتقوى النساء، والنساء الصالحات، المكتوبة بلغات محلية. والتنسك الجديد هذا خرج من طائفة الدومنيكان ولم يلبث أن انتشر من خلال القيادات الروحية فى أديرة الراهبات. ولأن جل الرهبات لم يكن يعرفن اللاتينية فقد كان الوعاظ يعظوهن ويرشدونهن باللغة الألمانية. وكانت الراهبات الصغيرات يسجلن الشعائر ويتواصلن مع أساتذتهن ويتبادلن الكتب مع الأديرة الأخرى. ومن هنا نشأ نوع جديد من الإنتاج الفكرى النسوى لم يكن موجوداً من قبل شجع عليه بيرنارد من كليرفو، وانتشر على يد أساتذة الرهبنة الألمانية وأثرته الراهبات بالخبرات الشخصية، والحكايات العامة والإلهام النفسى. لقد كان إنتاجاً فكرياً شخصياً يعبر عن النفس والتجربة الخاصة باللغة الألمانية.

ووصول المواعظ وخاصة مواعظ المعلم إيكهارت إلينا يرجع الفضل فيها إلى النسخ التى نسختها الراهبات. وكانت الأم **جيرترود** ١٢٥١-١٢٩١م[٢] وقد سبق ذكرها مراراً من قبل من الدير السسترى فى **هلفتا**[٣]، تحمل راهباتها على الجد والاجتهاد في نسخ الكتب. وكانت **صوفى بنت إيرل مانسفلد**[٤] من الناسخات المجيدات وأختها من المزخرفات الراسمات للمخطوطات. وكانت حركة الراهبات

---

(١) Caesarius of Arles

(٢) Gertrude

(٣) Helfta

(٤) Sophie/ Earlof Mansfeld

فى إنتاج الكتب أقوى في الجنوب. وكانت المراسلات بين **مارجريت إبنر**[١] و**هنريتش فون نوردلنجن**[٢] باللغة الألمانية الأولى من نوعها. وفى **توس** قامت **إليزابيث شتاجل**[٣] بكتابة تراجم مختصرة عن الراهبات فى ديرها، وهى أول محاولة لتراجم مجمعة فى ألمانيا. كذلك توفرت على جمع خطابات ورسائل **هنريتش سوسو**[٤]. وكان لكل دير من أديرة الراهبات والتى بلغ عددها فى بداية القرن الرابع عشر فى المناطق الثيوتونية الدومنيكانية، سبعين ديراً، - فى مقابل من ٤٦ إلى ٤٨ ديراً للرجال - مكتبته الخاصة به.

وأول معلومات تصلنا عن مكتبات أديرة النساء ترجع إلى القرن الخامس عشر عندما بدأت حركة الإصلاح العامة فى الأديرة ففى التعليمات المعنوية **(واجبات رئيسات الأخوات فى طائفة الوعظ أى الدومنيكان)** نجد تحديداً قاطعاً لمسئوليات أمينات المكتبات وقواعد تنظيم واستخدام المكتبات. ويمكننا تكوين فكرة واضحة عن محتويات تلك المكتبات من الفهارس التى وصلتنا من أديرة الراهبات فى **دلفت و فوننشتين**[٥] بالقرب من سانت جال حيث نجد فيها: كتب جميع الشعائر والطقوس وكتب التكريس وكتب الصلاة الألمانية جميعاً، وكتب الزهد والتصوف بالإضافة إلى بعض الكتابات الترفيهية. ومن الطريف أن مكتبة دير الراهبات الأوغسطينى فى **إنزجهوفن** بالقرب من **سيجمارنجن**[٦] لم يكن فيها سوى مخطوطات باللغة الألمانية بينما دير الراهبات السسترى فى **جونترستال**[٧] بالغابة السوداء ودير الراهبات الدومنيكان فى سانت كاترين فى سانت جال لم يكن فيهما سوى كتب باللاتينية. ومهما يكن من أمر فإن دير سانت كاترين فى

---

(١) Margaret Ebner

(٢) Heinrich Von Nördlingen

(٣) Töss; Elsbeth Stagel

(٤) Heinrich Suso

(٥) Delft; Wonnenstein

(٦) Inzighofen; Sigmaringen

(٧) Günterstal

نورمبرج قد تفوق على الكل بمجموعته من المخطوطات الألمانية التى قدرت بنحو ستمائة مخطوط وهو عدد كبير بالنسبة للمجال الضيق الذى كان يتحرك فيه. وربما لم يكن يقترب من هذا الرقم سوى مجموعة دير سانت جون فى. **جرونر فيرث**[1] بالقرب من استراسبورج الذى أسست مكتبته سنة ١٣٦٧م على يد **رولمان ميرزوين**[2] وعدد من جماعة أصدقاء الله من أوبرلاند.

وقد وصلنا فهرس ثلاثى الأجزاء من سانت كاترين عن السنوات ١٤٥١ـ ١٤٦١ يسجل قراءات وقت الطعام لأيام محددة ـ قائمة الرفوف لمجموعة الكتب الأساسية المكونة من ٣٥٠ مخطوطة تبعاً للرفوف المنضدة عليها ـ وأخيراً ١١٣ مخطوطة فى العهدة الشخصية للراهبات. وقد سجل أمام كل مخطوط المصدر الأصلى له. ونستطيع أن نرى أى المخطوطات أحضرتها الراهبات الجدد للانضمام إلى الدير وأيها جاءت عن طريق الإهداء. ومن واقع الفهرس يمكننا القول بأن الغالبية من المخطوطات جاءت عن طريق النسخ المحلى فى الدير. ولم تقم الراهبات بالنسخ فقط وإنما قمن أيضاً بأعمال الزخرفة والتصوير. ومعظم المخطوطات التى كتبتها الراهبات وصلتنا فى غير الأماكن الأصلية لها، بينما مجموعة واحدة هى التى وصلتنا فى مكانها الأصلى تلك هى مكتبة دير الراهبات البندكتى: **سانت والبورج فى إيخشتات**[3].

شرقى ألمانيا

المارش (مقاطعة الحدود)[4]

كان لترقية **نوربيرت من جنيب**[5] إلى رتبة كبير أساقفة مجدبورج سنة ١١٢٦م وضع طائفة الديريين السابقين أمام هدف جديد وهو تنصير مناطق الحدود عبر

(١) Grüner Wörth

(٢) Rulman Merswin

(٣) St. Walburg in Eichstatt

(٤) The March (Border Province)

(٥) Norbert of Gennep

نهر إلب ومن ثم نشأت فى تلك المناطق دوقيتا هافيلبرج و براندنبورج سنة ١١٢٩م و ١١٣٨م عى يد رهبان من ديرسانت ميرى فى مجدبورج على التوالى وكان كل من أنسلم و فيجر[١] أسقفاً على التوالى أيضاً. وقد أنشئ دير جيريكو[٢] سنة ١١٤٤م كواحد من الأديرة الأولى هناك. وقد اعتبر الإخوة العاديين أميين يناط بهم فقط العمل اليدوى وتحرم عليهم القراءة فى الكتب بينما القساوسة يناط بهم الوعظ ودراسة الكتابات المقدسة. وفي كاتدرائيات الدوقيتين تم تكوين مجموعات قيمة من الكتب. وقد وصلنا منها عدد محدود وقطع متناثرة نقلت إلى برلين فى القرن التاسع عشر.

وقد أنشئت أديرة أخرى فى فترة لاحقة حيث أنشئ دير سانت ميرى للراهبات على هارلونجربرج[٣] بالقرب من براندنبورج فى القرن الخامس عشر سنة ١٤٣٥م تحت رعاية الأسقف ستيفان بوديكر، وفى سنة ١٤٤١م باع السستريون فى دوبريلو ٦٢ مخطوطة[٤] من دير بوهيميا فى بلاس إلى دير الراهبات سانت ميرى. وفى سنة ١٤٦٢م قام الفنان الشاب هارتمان شيديل[٥] بتزيين حجرة المكتبة برسومات تصويرية للعلوم المختلفة ربما كانت الأشمل والأجمل من نوعها فى العصور الوسطى.

ومع نهاية القرن الثانى عشر بدأ نشاط الديريين السابقين يفتر وأخذ السستريون فى التفوق عليهم. وقد قامت الكثير من أديرتهم العديدة بالمساهمة فى نشر العلم والثقافة؛ وقد امتد هذا النشاط نحو الشمال. وفى مارش (مقاطعة الحدود) كان أول دير هناك هو دير دوبريلو الذى أسس سنة ١١٦٥م ثم تلته أديرة عديدة كان من أهمها:

---

(١) Anselm, Wigger

(٢) Jerichow

(٣) Harlungerberg

(٤) Stephan Badeker; Dobrilugh

(٥) Hartmann Schedel

زينا ١١٧٠م - **لهنين** ١١٨٠م - **كورين** ١٢٥٨م - **نيزل** ١٢٦٨م - **هيلجنجرابيه** ١٢٨٩م(١). وقد اعتبر السستريون العمل العقلى هو وسيلتهم الأولى فى استيطان وإعمار المناطق الحدودية؛ ومع هذا لم يبدأ نشاطهم الفكرى الخلاق إلا فى القرن الرابع عشر مما جعل الأديرة السسترية فى القرن الخامس عشر تحتل مكانة مرموقة. وقد وصلنا فهرس من **جينا** عن سنة ١٥١٤م(٢) عرفنا منه أن مكتبة دير لهنين كانت تضم آنذاك ٩٨٦مجلداً، وأن مكتبة دير **ألتزل**(٣) كان بها ٩٠٦ مجلدات. وفى ذلك الوقت كانت المجموعات تضم بالفعل عدداً من المطبوعات. ولم تصلنا من تلك المجموعات أعداد متوازنة من الكتب. فلم يصلنا من لهنين سوى قطع يسيرة، بينما أصبحت المجموعة التى وصلتنا من ألتزل، أصبحت النواة الأساسية فى مكتبة جامعة ليبزج. وفى دير زينا أقيمت مطبعة وصلنا سنها واحد من أوائل المطبوعات فى مقاطعة مارش وهو **مزامير مايو** المطبوع سنة ١٤٩٥م.

وفى القرن الثالث عشر ظهرت طائفة الرهبان الشحاذين (الصعاليك) فى مقاطعة مارش. كما أسس هناك ١٧ ديراً للفرنسيسكان وسبعة أديرة للدومنيكان. ولعل أنجح أديرة الدومنيكان هو دير **كولن** على نهر سبيرى(٤) الذى أسس سنة ١٤٧٧م ليقوم بدور **المجمع الدراسى**(٥) فى مقاطعة ساكسونيا. وقد وصلنا من مكتبة هذا الدير عشر كتب مطبوعة وهو عدد قليل إذا فحصنا أرقام الطلب المسجلة فيها وأدركنا أنه كان فى هذه المكتبة ما بين ٣٠٠-٤٠٠ مجلد.

وفى عبارة سريعة يقرر الراهب **إتزن** الفرنسيسكان أن ديره فى **برنزلاو**(٦) كان

---

(١) Zenna - Lehnin - Charin - Neuzelle - Heiligengrabe

(٢) Jena

(٣) Altzelle

(٤) Cölln on Spree River

(٥) Studium Generale

(٦) Etzen; Brenzlau

يقتنى أحسن مجموعة كتب فلسفية. ومع ذلك فإنه لم يصلنا من مجموعات الفرنسيسكان سوى واحد وخمسين مخطوطة وثمانية وتسعين مطبوعاً. وكانت كاتدرائية برلين تقوم بدور نقطة تجميع مجموعات الأديرة الدومنيكانية المبعثرة ولكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً فى هذا الصدد.

• ساحل بحر البلطيق

لم تمض عقود قليلة إلا وكانت الطوائف الدينية قد مدت بعثاتها التبشيرية باتجاه بحر البلطيق، ففى سنة ١١٥٠م بنى الديريون السابقون ديراً ضخماً على **يوسدوم**[١]. ولم ينشئوا غيره هناك. وقد نشط السستريون نشاطاً ملحوظاً فى هذا الصدد؛ فقد غطت أديرتهم كل ساحل بحر البلطيق من **دوبران** سنة ١١٧١م أقدم دير لهم مروراً بدير **دارجون** ١١٧٢م، ثم **إلدينا** ١١٩٩م ثم **كولباتز** ١١٧٣م، **أوليفا** ١١٧٥م ثم **بلبلن** ١٢٥٨م[٢]، ثم استمر التوسع باتجاه **ليفونيا**[٣]. ومع كل ذلك التوسع لم يصلنا من مكتبات هذه الأديرة سوى عدد محدود من الكتب. وقد حصلت مكتبة جامعة **جريفزوالد** عن طريق مكتبة كاتدرائية **فولجاست**[٤] على عدد كبير من المطبوعات التي كانت موجودة فى دير إلدينا سابق الذكر. كما أن نفس مكتبة جامعة جزيفزوالد قد حصلت على بعض المخطوطات والكتب المطبوعة التى كانت موجودة فى دير «القانونيين النظاميين» فى **جازينتز**[٥] الذى أسس سنة ١١٦٠م. كذلك جمعت بقايا المخطوطات والمطبوعات من أديرة طائفة الرهبان الصعاليك فى جريفزوالد مع بقايا مكتبة الجامعة القديمة فيها وكونت منها جميعاً مكتبة كاتدرائية سانت نيقولاى.

ولعل أهم مكتبات الكاتدرائيات فى منطقة البلطيق كانت هى مكتبة كاتدرائية

---

(١) Usedom

(٢) Doberan; Dargun; Eldena; Kolbatz; Oliva; Pelpin.

(٣) Livonia

(٤) Greifswald; Wolgast

(٥) Gasenitz

لوبيك، حيث يكشف فهرس أعد للمكتبة سنة ١٢٩٧م عن وجود مجموعة قيمة. وفى نفس الوقت يكشف عن طريقة متقدمة فى فهرسة المخطوطات وفريدة فى كل ألمانيا ولكن ربما جاءت على غرار الممارسات الفرنسية فى الفهرسة.

سيليزيا(١)

كانت سيليزيا أرضاً للعديد من الأديرة، ففى سنة ١١٠٩م استقر الرهبان الأوغسطيون الفرنسيون فى مرتفعات **زوبتن**(٢). وبعدهم جاء السيستريون واكتشفوا الأرض الخصبة الجديدة. وفى سنة ١١٧٥م قام رهبان من **بفورتا**(٣) بتعمير الدير الذى هجره البندكتيون فى **ليوبوس**(٤). وبعده قام السستريون بإنشاء العديد من الأديرة: **تريبنتز** ١٢٠٢م، **هنريتشاو** ١٢٢٢م، **رودن** ١٢٥٨م. كما أخذوا من الأوغسطيين دير **كارمنز** سنة ١٢٤٧م، ومن البندكتيين دير **جروساو**(٥) سنة ١٢٩٢م. وقد أبقى الأوغسطيون على ديرهم فى منطقة برسلاو من زوبتن والذى كان قد أسس سنة ١١٥٠م؛ وكذلك على ديرهم الذى أسس فى **ساجان** سنة ١٢١٧م(٦) وكان للدومنيكان ديرهم بالفعل فى برسلاو الذى أسس سنة ١٢٢٦م.

ويبدأ تاريخ مكتبات تلك الأديرة مع تأسيس الأديرة نفسها. والمخطوطات التى وصلتنا منها هى المصدر الأساسى لمعلوماتنا عنها. حقاً لقد تعرضت المجموعات الأولى لعمليات تدمير متكررة أثناء هجمات المغول، الهوسيين، السويديين ولكن وصلنا من أديرة سيليزيا الواحد والتسعين نحو ثلاثة آلاف مخطوط، موجودة الآن فى مكتبة سيليزيا المركزية. والمكتبات التى ماتزال فى مواقعها الأصلية وفى نفس مبانيها هى **ليوبوس**، **ساجان**، **جروساو** بما يقف شاهداً على الفترة

---

(١) Silesia

(٢) Zobten

(٣) Pforta

(٤) Leubus

(٥) Tribnitz; Heirichau, Rauden, Karmenz, Grüssau

(٦) Sagan

النمساوية الزاهرة. ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن مكتبة كاتدرائية برسلاو التى كانت قد أنشئت فى القرن العاشر كانت قد دمرت مع مخطوطاتها البالغة ٥١٦ مخطوطة، وذلك أثناء الغزو السويدى الذى وقع سنة ١٦٣٢م. وقد نجا من التدمير جانب من مكتبات الكنائس فى **لجنتز و جلوجاو**[١] . وحتى الحرب العالمية الثانية كان فى كنيسة **جولدبرج**[٢] النموذج الوحيد على قاعة المطالعة الوسيطة فى كل ألمانيا كاملة بكل خزائن الكتب ورفوفها ومجلداتها المسلسلة بسلاسل الحديد.

الفرسان التيوتونيون فى بروسيا[٣]

على الرغم من أن الهدف الأساسى لجماعة الفرسان التيوتون لم يكن نشر الثقافة أو العلم، فإنهم لم يهملوا كلية سلاح الكتب والمكتبات. وكانت لوائح هؤلاء الفرسان مثل لوائح الدومنيكان قد أخرجت الملكية الخاصة للكتب من قاعدة الفقر العامة منذ سنة ١٢٦٤م، ولم تكتف بذلك بل قدمت المال لشراء الكتب. ومع ذلك فإنه لايجوز إخراج الكتب من الدير ولايجوز لصاحب الكتب أن يأخذها معه وفى حالة وفاة الراهب فإنها تؤول إلى ملكية الطائفة العامة لتوزع على الأديرة المختلفة بالطريقة التى يراها رئيس الإقليم مناسبة. ومن هنا ظهرت فى أديرتهم مكتبات صغيرة فى البداية نمت مع الوقت عن طريق الهدايا، والنسخ، والشراء حسب المناسبات. والحقيقة أن المعلومات عن مكتبات هذه الطائفة قد بدأت فى الظهور بعد سنة ١٢٩١م.

كانت طائفة التيوتون فى بروسيا تملك أراض شائعة لاحدود لها مما حمَّلها مسئوليات فكرية وثقافية واسعة. مثل رفع مستوى التعليم إلى حد راق للغاية، والتخطيط لإنشاء جامعة فى **كولم** سنة ١٣٨٦م[٤] على غرار جامعة بولونا.

(١) Liegnitz; Glogau

(٢) Goldberg

(٣) Tuetonic knights in Prusia

(٤) Kulm

كذلك فإن الثقافة التيوتونية حرصت على استلهام التاريخ والقصص والشعر التيوتونى ونشرت أسلوباً فريداً فى الفن. ولم يهمل التيوتون ثقافة الكتب بعد تنظيم دولتهم وإدارتها إدارة راقية. لقد وضع التيوتون كتاب **الإدارة الكبير (اللوائح)**(١) حوالى سنة ١٤٠٠ وفيه حصر شامل لكل ماينجزه الموظفون فى مرافق الدولة وقد استمر هذا الكتاب السجل حتى العصر الحديث. ويضم فهارس ثلاثة وستين مكتبة. ورغم ضخامة رقم المكتبات إلا أن مجموع المخطوطات فى هذه المؤسسات ممثلة فى فهارس هو ٩٩٣ مخطوطاً وهو رقم يكشف من جهة ثانية عن محدودية المجالات التى كان يتحرك فيها هؤلاء الفرسان وهى: كتب العبادات، كتب القانون، كتب الإدارة، كتب الترفيه. وطبقاً لذلك فإن عدد الكتب التى كانت موجودة فى مكتبة كل دير كان بالضرورة محدوداً. وعلى سبيل المثال فإن أكبر تلك المكتبات كانت مجموعاتها: ٨٠ مخطوطة فى **مارينبورج**؛ ٧٣ مخطوطة فى **كونيجزبرج**؛ ٥٦ مخطوطة فى **إلبنج**؛ ٣٥ مخطوطة فى **دانزج**(٢) وسائر الأديرة كانت مجموعاتها تدور بين ١٢ مخطوطة فأقل. وكان ثلثا المجموعات كلها (٦٨١ مخطوطة) عبارة عن كتب دينية. وكانت الكتب الدينية فى ٥٠٪ من تلك المكتبات هى النوعية الوحيدة الموجودة. ولم نصادف فى تلك المكتبات أية كتب إدارية رغم أهميتها فى ذلك الوقت فى تلك الدولة. ويبدو أن الملكية الشخصية للكتب لم تكن مستبعدة تماماً من قواعد هذه الطائفة يدلنا على ذلك أن السير/ **ديتريتش بيبنهاوزن** كان يملك ٤٥ كتاباً وحده(٣).

وربما ترجع محدودية المداخل فى الفهارس التى وصلتنا عن تلك المكتبات أن تلك الفهارس لم تكن تسجل سوى كتب العبادة وحدها، باعتبارها أدوات العمل الرئيسية فى الكنائس. يتضح لنا صدق ذلك إذا فحصنا فهرس دير القلعة فى **تابياو**(٤). هذا الفهرس أخذ إلى مكتبة دوقية كونيجزبرج فى سنة ١٥٤١م أو

(١) Grosse Amterbuch

(٢) Mareinburg; konigsburg, Elbing, Danzig

(٣) Sir Dietrich Bebenhausen

(٤) Tapiau

١٥٤٣م فى مصادر أخرى ويضم ٣٥٠ مخطوطة ليس من بينها سوى عشرين مخطوطة فقط فى الطقوس والشعائر الدينية. وكانت سائر الكتب تغطى معظم فروع المعرفة البشرية وخاصة الأدب التيوتونى. وفى سنة ١٤٧٠م أصبحت مكتبة تابياو هى المكتبة المركزية للطائفة وبعد فترة وضعت الوثائق الأرشيفية أيضاً فى هذا المكان. وظروف إنشاء الأرشيف المركزى هنا غير واضحة. وقد تكرر فى المصادر قصة نقل مكتبة دير **السيد الكبير**(١) من مارينبورج إلى القلعة الحصينة فى **تابياو** عندما اندلعت حرب الثلاثة عشر عاماً ١٤٥٤-١٤٦٦، كما أضيفت إليها مخطوطات قيمة أخرى من القلاع التى تم الاستيلاء عليها.

لقد استأجرت أديرة **السيد الكبير** النساخين فى مارينبورج، وكلفت الطلاب الذين يدرسون فى دول أجنبية على حساب الطائفة أن ينسخوا الكتب التى تقع تحت أيديهم وشراء البعض الآخر. كما قامت تلك الأديرة بتنقيح اللوائح التى تحكم ملكية الكتب وأيلولتها إلى الملكية العامة للطائفة. كما توفرت على إنشاء قاعات مطالعة فى قلاع الطائفة.

ولم تهمل عملية زخرفة الكتب فى الأديرة كما كانت بعض عمليات النسخ تتم بداخلها. وكانت المكتبة عادة ما تناط بأحد الرهبان الإكليريين، والذى عهد إليه أيضاً بتوزيع قراءات وقت الطعام والإشراف عليها. ومن الجدير بالذكر أن طائفة السيد الكبير قد أخذت منهج قراءات وقت الطعام من طائفة فرسان التيوتون وتأثرت بها تأثراً واضحاً.

لقد كان للمكتبات قيمة كبيرة فى الأراضى التى يحكمها الفرسان التيوتون. وعندما قام البابا **نيقولاس الخامس** بإرسال **إينوخ من اسكولى**(٢) فى مهمة للبحث عن المخطوطات الكلاسيكية فى الشمال سنة ١٤٥١م، وجه خطابات التوصية التى بعث بها مع الرسول إلى السيد الكبير **لودفيج فون إيرلخزهاوزن**(٣). ومنذ

---

(١) Grand Master

(٢) Nicholas V; Enoch of Ascoli

(٣) Ludwig Von Irchshausen

بداية إنشاء الأديرة فى تلك المناطق سنة ١٢٤٦م، قام البابا إنوسنت الرابع بتقديم المساعدة إلى الأديرة البروسية وإرسال الكتب إلى تلك المؤسسات الجديدة. وتدين الأديرة والكنائس بالفضل لهذه المساعدات، التى عن طريقها تفوقت مكتباتها من حيث المجموعات اللاتينية على مكتبات طائفة الفرسان كماً ونوعاً فى نهاية العصور الوسطى. وتكمن قوة مكتبات الفرسان فى المخطوطات الألمانية وحدها.

وفيما يتعلق بمكتبات الكاتدرائيات، وصلتنا معلومات مؤكدة وكثيرة عن مكتبة كاتدرائية **فراونبرج**(١)، وذلك من واقع قوائم الحصر التى وصلتنا منها عن الفترة بين ١٤٤٦ و ١٤٥٤ ومنها يتضح لنا أن المجموعات بلغت ٢٥٠ مخطوطة من بينها المخطوطات التى قدمها الأسقف **جون الثالث أبكزير** ١٤١٥-١٤٢٤م، أسقف **إيرملاند**(٢)، أثناء مجلس كونستانسى. وكانت مكتبة قلعة الأسقف فى هيلزبرج تملك ٧٧ مخطوطة. أما مكتبة كاتدرائية كونجزبرج فقد ورد ذكرها في سجلات هدايا المخطوطات التى قدمها الأساقفة سنة ١٣٢٧م و ١٣٧٤م. ومن الجدير بالذكر أن تلك المخطوطات قد جرى إنتاجها فى مناسخ: **فيشهاوزن وماريىنفردر**(٣).

وربما كانت أهم مكتبات الأبرشيات فى بروسيا هى تلك التى أسسها القسيس **أندرياس سلومو**(٤)، سنة ١٤١٣م فى كنيسة سانت ميرى فى دانزج. وقد وصلنا من مكتبة مستشفى إليزابث فى دانزج فهرس عن سنة ١٤٤٣م، فيه تسجيل لمجموعة مختارة من الكتب اللاتينية ومشيراً إلى وجود مجموعة أخرى صغيرة فى حجرة خاصة تستخدم كمخزن للكتب قليلة الاستعمال. لقد تم تدمير الجانب الأكبر من مكتبات الأديرة والكنائس فى هذه المناطق، والكتب التى لم تدمر أخذت غنائم خلال الغزوات العسكرية المتعاقبة والتى كانت آخرها غزوات

(١) Frauenberg

(٢) John III Abeczier; Ermland

(٣) Fishhausen; Marienwerder

(٤) Andreas Slommow

السويديين. وليس لدينا فى الواقع معلومات محددة عن مقتنيات أو مصائر المكتبات الفنية التى وجدت فى أديرة السستريين فى **أوليفيا** و **بلبلين**(١).

فترة ما قبل الإصلاح(٢)

كان للجيشان الفكرى الذى تجمع فى خلال القرن السابق على الإصلاح الدينى أثره فى نفخ الحياة فى الأديرة القديمة وبعث شئ من الروح فى مكتباتها المحتضرة. وكانت إحدى نتائج هذا البعث العودة إلى اللوائح والتعاليم الديرية القديمة. ونتيجة أخرى هى إحياء الرغبة فى دراسة المصادر الكلاسيكية وجمعها من مظانها المختلفة. وقد تزاوج تشجيع العلم والمعرفة مع الاتجاه إلى الزهد والتقشف، وكان الراهب العالم الزاهد جيروم(٣) هو قديس تلك الفترة المفضل والمثال الذى يحتذى. وكانت العودة إلى هذا النموذج تقتضى بالضرورة إحياء الاهتمام بالمنسخ والمكتبة وإحلالهما المكانة اللائقة التى كانا عليها من قبل أو أكثر. وكانت إعادة إنشاء تلك المؤسسات داخل الأديرة هو أهم نشاط فكرى ظهر فى تلك الفترة.

ملك وبيرسفيلد وجون رود(٤)

لقد خرجت الصيحات الأولى للإصلاح الدينى فى الأديرة من الأديرة البندكتية، وقد قاد ذلك إلى حركة دير **ملك** فى النمسا، والتى شملت أيضاً الأديرة البافارية والتى لم تكن حتى ذلك الوقت قد ارتبطت بالدير فى **كاستيل**(٥) فى البلاتينيت الأعلى. لقد قاد حركة الإصلاح فى دير ملك كل من الأب **نيقولاس سيرنجر** ١٤١٨-١٤٣٥ والرئيس بيتر من روزنهايم ١٤١٨-١٤٢٣م

---

(١) Oliva; Pelplin

(٢) Pre - Reformation Period

(٣) Jerome

(٤) Melk; Bursfeld; John Rode

(٥) Kastl

وكان كل منهما قد قضى فترة عدة سنوات فى دير الإصلاح فى سوبياكو بالقرب من روا. ولقد كان المصلحون الآباء المثقفون أساتذة فى جامعة فيينا، ذلك أن كل الرجال الذين لعبوا دوراً فى حركات الإصلاح والتوحيد كانوا طلاباً وأساتذة فى تلك الجامعة.

لقد كان للإيقاع الفكرى الصادر عن جنبات فيينا أثره الخلاق في تنمية مجموعات الكتب فى الأديرة النمساوية والألمانية الجنوبية. هذه المجموعات تعطينا صورة واضحة عن الإنتاج الفكرى النمساوى والبحث العلمى فى النمسا؛ ذلك أن مجموعة المخطوطات فى دير ملك والبالغ عددها فى القرن الخامس عشر ٧٨٠ مخطوطة كان جُلَّها لمؤلفين نمساويين. ونفس هذا الوضع نجده فى موندسى؛ تجرنسى؛ وغيرهما من مكتبات الأديرة النمساوية والبافارية.

فى شمالى ألمانيا قام **مجمع بيرسفلد**[1] الدينى بتوحيد مجموعة الأديرة البندكتية التى دخلها الإصلاح الدينى وعددها ١٨٠ ديراً فى نظام واحد. لقد بنيت تعاليم دير بيرسفلد على نهر فيزر على تلك القواعد التى وضعها الأب **جون رود** ١٣٨٨-١٤٣٩م لديره فى ترير. لقد كان رود أستاذاً فى جامعة هيدلبرج وكان على قناعة تامة بأهمية وجود مكتبة قوية فى حياة أى دير. وكان همه الأول إصلاح مجموعات المكتبة فى دير سانت ماتياس (ترير)؛ فأعاد تنظيمها وتزويدها وأصبحت إنجازاته فى ترير النموذج الذى يحتذى لكل أعضاء مجمع بيرسفلد.

وفى أى مكان وصلته حركة الإصلاح التى اندلعت من **ملك وبيرسفلد** وتأثر بها، نجد نشاطاً فكرياً ملحوظاً يدب فيه؛ وحياة جديدة تبعث فى المنسخ والمكتبة. وأصبحت عملية نسخ الكتب عملية محترمة من جديد، كما أعيد تنظيم وفهرسة المجموعات القديمة. وهناك من الدلائل مايشير أيضاً إلى إعادة تجليد كتب المكتبات فى تلك الفترة، بعد أن كانت معظم جلود الكتب قد تلفت. ويلاحظ صدق ما نقول من توحيد شكل الجلود فى جمع الكتب التى وصلتنا من تلك

(١) Bersfeld Congregation

المكتبات فى العصور الوسطى. وكانت الزيادة التى حدثت فى مجموعات الكتب فى تلك المكتبات تتطلب بالضرورة مساحات أوسع مما أدى إلى بناء مبان خاصة للمكتبات فى مواقع جديدة مختلفة عن تلك القديمة. وكان التقدم الهائل فى العمل المكتبى يلاحظ كأوضح مايكون فى التطورات التى حدثت فى منطقة **إتحاد ملك**.

وفى منتصف القرن الرابع عشر قام الأب ألبرت بالاهتمام البالغ المباشر بمكتبة دير سانت إميرام فى ريجنزبرج، فأنشأ قاعة مطالعة جديدة سنة ١٣٤٦م وأمر بإعداد قائمة حصر بمقتنياتها سنة ١٣٤٧م، سجل فيها ما يربو على ٢٥٠ مجلداً كانت مرتبة موضوعياً بمجالات موضوعية عريضة على ٣٢ قمطراً. وقام الأب بإهداء مجموعات من كتبه إلى المكتبة وحدد شروط استخدامها سنة ١٣٥٧م. وقد تم إعداد فهرس جديد كملحق للفهرس القديم سنة ١٤٧٥م. وثمة فهرس جديد أعده سنة ١٥٠٠م الأخ **ديونسيوس منجر**[١]، استخدم فيه أسلوباً متقدماً فى الفهرسة. فى هذا الفهرس تم عزل مخطوطات الرقوق، عن مخطوطات الورق عن الكتب المطبوعة، وتم ترقيم ملازم كل مخطوطة. وفى ذلك الوقت كانت معظم الكتب مخطوطة ومن بين المخطوطات كانت هناك ٤٢٠ مخطوطة على رق.

وكانت هناك إجراءات شبيهة فى دير **تجرنسى** الذى كانت تربطه بدير مِلْك علاقات تبادل وثيقة بالكتب. وكانت الزيادة فى الكتب تأتى أساساً من كتب الأساتذة الذين يدرسون فى الجامعة. ومما يذكر فى هذا الصدد أن الأب كونراد ١٤٦١-١٤٩٢م قام بتزويد المكتبة بـ ٤٥٠ مخطوطة اشتراها بألف ومائة جنيه هذا بخلاف الهدايا والكتب المنسوخة فى الدير. وفى سنة ١٤٩٤ كانت مجموعات مكتبة دير تجرنسى تضم ١٧٨٨ كتاباً مخطوطاً مما جعلها أهم مكتبة فى كل جنوبى ألمانيا. وقد حافظ منسخ الدير على مكانته وشهرته العالية التى اكتسبها

(١) Dionysius Menger

من إنتاجه للرقوق والأحبار والأصباغ قد وضع خبراته كلها فى هذا الصدد فى كتاب أصدره سنة ١٥٠٠ بعنوان (**زخرفة الكتب**)[١]، موجود الآن فى مكتبة الولاية فى ميونيخ تحت رقم ٨٢١ وهو كتاب ثمين يندر وجوده.

وفي دير سانت أولرخ فى أوجزبرج كانت لإدخال حركة إصلاح مِلْك فيه سنة ١٤٤١م أثره فى خلق نشاط محموم فى أعمال المنسخ. وقد سجل **ليونهارد فاجنر في حولياته عن المنسخ**[٢] هذا النشاط، والإصلاحات التى أدخلت على الخطوط. كذلك شيد مبنى جديد للمكتبة فى سنة ١٤٧١م.

وفى دير ميشلزبرج بالقرب من بامبرج قام الأب **أندرياسلانج** ١٤٨٢-١٥٠٢م[٣] بنشاطات مكتبية محمودة، والفهرس الذى أعد للمكتبة فى عهده مايزال موجوداً وهو مجلد مع قائمة الأجهزة المكتبية التى كانت تستخدم فى التجليد والتى تكشف عن وجود ورشة تجليد محترمة فيه.

ولم تقف مكتبات الكاتدرائيات بمعزل عن تلك الإصلاحات فدخلت إليها نشاطات فكرية خلاقة هزت كياناتها. وقد وصلنا فهرس كبير من مكتبة كاتدرائية سالزبورج يسجل فقط مقتنيات المكتبة منذ سنة ١٤٣٣ فصاعداً.

لقد أقيمت أول مطبعة فى دير سانت أولرخ سنة ١٤٦٦م ثم تبعته أديرة أخرى فى هذا الصدد. ومع انتشار الطباعة واتساع الإنتاج الفكرى الإنسى بدأت المرحلة الجديدة تضغط وبعنف على الأديرة القديمة، لقد جلجلت كما تجلجل الخطب الشعرية الرنانة على خشبة المسرح معلنة نهاية عهد وبداية عهد جديد، كان يمثله شخص مثل **تريتميوس**[٤] الباحث المستنير فى مجمع بيرسفلد وأكبر مستخدم للمكتبات فى عهده والرجل الذى غنى لنساخى المخطوطات ومدحهم فى رسالة له عن «**مدح النسخ اليدوى**»[١] صدرت سنة ١٤٩٢م.

---

(١) Liber illuministrarius

(٢) Leonhard Wagner/ Proba Centum Scripturum

(٣) Andreas Lang

(٤) Trithemius

(٥) De Laude Scriptorum manualium

الأوغسطيون وإخوان الحياة العامة و جيرارد جروت[1]

حل محل الطائفة الأوغسطية الأصلية فى القرن الرابع عشر فرع من فروع سانت أوغسطين هى طائفة **الهرامتة**[2]. وهى طائفة متنورة متعلمة كانت تلقى الدعم والتأييد من البابوات والأمراء. وكان معظم أعضاء هذه الطائفة يعملون أساتذة فى الجامعات وكان لهم تأثير واضح على حركة المكتبات وإنتاج الكتب. وكان الهرامتة فى أفجنون قد وضعوا فى أيديهم إدارة الذخائر والمكتبة البابوية. وكانت مكتبتهم فى باريس التى أهداها **جايلز الرومى** سنة ١٣١٦م[3] كتبه من أهم المكتبات على الإطلاق. كذلك فإن مكتبة ديرهم فى إيرفورت فى ألمانيا تستحق الذكر بين مكتبات الأديرة ولعله من نافلة القول أن نذكر أن **مارتن لوثر**[4] كان من رهبان هذا الدير لفترة طويلة.

وكان دير **سانت توماس**[5] فى براغ والذى بلغ أوج عظمته فى الفترة الكارولنجية، قد استمر أيضاً فى نشاطه فى هذه الفترة. ومن المعروف أن شارل الرابع قد وضع هذا الدير تحت رعايته. ولقد قام كبير أساقفة براغ: **إرنست باردوبتز**[6] بإهداء مكتبة هذا الدير بعض المخطوطات. كما ترك **جوهان من نيوماركت**[7] كتبه فى هذا الدير، وكان بين هذه الكتب مؤلفات ليفى ودانتى. وكان جوهان فى طريقه إلى إيطاليا سنة ١٣٦٨م. وقد وصلنا فهرس من هذا الدير يرجع إلى فترة **ما قبل الهوسايت**[8] يسجل نحو ٣٠٠ مخطوطة معظمها كان مسلسلاً بسلاسل الحديد فى الديوان، والمذبح والمكتبة.

(١) Augustinians; Brethren of Common life; Gerard Groote

(٢) Hermites

(٣) Giles of Rome

(٤) Martin Luther

(٥) St. Thomas

(٦) Ernest Pardubitz

(٧) Johann of Neumarkt

(٨) Pre-Hussite

لقد وقعت حركة إصلاح شبيهة بتلك البندكتية فى أديرة (القانونيين النظاميين) الأوغسطيين فى الأراضى الواطئة فى نهاية القرن الرابع عشر. وكان جيرارد جروت هو قائد تلك الإصلاحات. وكان جروت نفسه من جماعًى الكتب وقد رأى فى الكتب أداة أساسية فى توصيل تعليماته ومواعظه ورسائله الفكرية إلى الناس. ورغم أن إتحاد الأديرة الأوغسطية التى دخلها الإصلاح لم يتم إلا بعد وفاة جروت فى سنة ١٣٨٤م إلا أن ذلك كان ثمرة من ثمرات جهوده الخاصة. كما كانت حركة **إخوان الحياة العامة** كذلك من بين ثمراته. لقد أسس أتباع جروت أول دير أوغسطى إصلاحى فى **وندشايم** بالقرب من **زوول** سنة ١٣٨٦م[١] وفى نفس الوقت قام **إخوان الحياة العامة** بإنشاء أولْ دير لهم فى **ديفنتر**[٢].

ولما كانت الطائفتان ترفضان أسلوب الوعظ والإرشاد الخطابى فقد رأتا فى الكتب أداة هامة لتنفيذ أهدافهما رغم اختلاف الطرق. وكان الرهبان فى دير وندشايم ينسخون الكتب العلمية، ونادراً ما كانوا ينسخون الكتب بالأجر واهتموا أيما اهتمام بمكتباتهم.

لقد كرس إخوان الحياة العامة أنفسهم للإنتاج الفكرى الروحانى باللغات المحلية وأقاموا المشروعات لإنتاج وبيع هذه الكتب لدائرة واسعة من القراء. لقد غطت كتبهم كل مجالات الحياة العصرية فى حينها، وكان لها أيضاً بعض الأثر فى الأديـرة البندكتية. لقد بعدت هذه الكتب عن الصبغة العلميـة الدراسية البحتـة ونزلت إلى مستوى الجموع البسيطة فبدلاً من المجادلات والحوارات المستفيضة والشروح والتعليقات الضافية والحواشى المفصلة التى كانت تصدر فى مجلدات ضخام، إن الإنتاج الجديد يظهر على شكل رسائل قصيرة مختصرة ومجموعـات من الطقوس والشعائر فى شكل أدلة صغيرة الحجم. ولم يكن بالإنجاز الهين أن تصدر هذه الطائفة كتباً دينية باللغة الألمانية تدفع بها إلى الناس

(١) Windesheim; Zwolle

(٢ Deventer

وتضعها فى أيدى العامة بعد أن كانت الكتب تصدر باللاتينية وتقتصر على الصفوة من المتعلمين.

لقد دخل أهم أتباع جروت: **جيرهارد زيربولت فون زوتفن و جوهان بوش** فى خصومات فكرية مع الدومنيكان(١).

وندشايم

لقد خرجت حركة الإصلاح ونمط الفكر الجديد خارج حدود الدير الأصلى الهولندى منذ سنة ١٣٩٥م، وامتدت حتى شملت ستة وثمانين دير للرهبان وستة عشر ديراً للراهبات. ولقد كان جوهان بوش (المتوفي ١٤٧٩م)، والذى أرخ تأريخاً جيداً لهذه الحركة الإصلاحية، كان أحد أعمدتها البارزين وكان أنجح من عمل على إدماج الأديرة الأوغسطية الألمانية فى بوتقة واحدة. لقد كان رهبان وندشايم يمثلون طائفة علمية اهتمت أيما اهتمام بدراسة نصوص الكتاب المقدس، كما أنتجوا لنا نسخاً صحيحة، بعلامات ترقيم دقيقة من الكتاب المقدس كما اهتموا كذلك بحسن الخط والمظهر العام لمجلدات الكتاب.

لقد كان فى أديرة وندشايم مكتبات عظيمة الشأن. ويعزى إلى التقى **توماس من كمبس**(٢) الذى كان ناسخاً عظيماً، قوله «إن الدير بدون مكتبة كالمنضدة بدون طعام، والنافورة بدون ماء، والحديقة بدون زهور والمحفظة بدون نقود». وقد جرت عادة هذه الأديرة على تقسيم مجموعات الكتب بين مكتبتين: مكتبة البحث ومكتبة القراء أو مكتبة الباحثين ومكتبة القراء العاديين وهذه المكتبة الأخيرة كان يوضع فيها الكتب الألمانية. لقد اقتبست أديرة وندشايم اللوائح المنظمة للعمل فى مكتباتها وترتيب الكتب واستخدامها والإفادة منها وواجبات أمين المكتبة من لوائح سانت فيكتور فى باريس. وقد بدأ بهذا الاقتباس أديرة الراهبات ثم تلتها أديرة الرهبان.

---

(١) Gerhard Zerbolt Von Zutphen; Johnnes Busch

(٢) Thomas á kempis

لقد دمرت مكتبات الإتحاد فى هولندا فى فترة مبكرة عن تدميرها فى وندشايم سنة ١٥٨٠م. وقد وصلتنا بقايا المخطوطات الألمانية ووزعت على المكتبات القائمة الآن، وعلى سبيل المثال فإن مجموعة **بوديكن**[١] توجد الآن فى **مونستر**؛ مجموعة ليبزج توجد الآن فى مكتبة جامعتها؛ وتوجد الآن فى كييل وكوبنهاجن بعض أصول مكتبة **بوردزهولم**[٢]. كما توجد مجموعات من **ساجان** الآن فى **برسلاو**، والمجموعة الأصلية من **ربدورف** فى إيرلانجن.

رودنتز[٣]

كان دير القانونيين النظاميين فى رودنتز الذى أسس على نهر إلب سنة ١٣٣٣م هو معقل حركة الإصلاح التى بدأت فى بافيا (إيطاليا) وانتشرت إلى سائر أديرة القانونيين فى بوهيميا، مورافيا، سيليزيا، بولندة، النمسا، بافاريا. وقد جعل الكاردينال **نيقولاس من كوزا**[٤] تعاليم رودنتز إجبارية على كل أديرة القانونيين فى مقاطعة سالزبورج.

وفى مجال المكتبات والكتب كانت الإصلاحات التى دخلت عليها فى رودنتز محدودة مقارنة بتلك التى أدخلت فى أديرة الأوغسطيين في الغرب. وكانت المكتبات فى أديرة القانونيين بالنمسا وبافاريا تختلف اختلافاً طفيفاً عن نظيراتها البندكتية. لقد حدد يوم عيد العذراء (٢ يوليو) من كل عام ابتداء بسنة ١٤٥١ يوم زيارة للمكتبة فى سانت فلوريان ثم وسع نطاقه ليشمل أديرة الطائفة جميعها.

وفى خلال فترة حركة **الهوسايت**[٥] حمل المهاجرون من أديرة بوهيميا معهم عدداً غير قليل من المخطوطات إلى أديرة النمسا وبافاريا وسيليزيا وعلى سبيل

---

(١) Boeddeken

(٢) Bordsholm

(٣) Raudnitz

(٤) Nicholas of Cusa

(٥) Hussite

المثال قام الأب يعقوب من دير **سيدلتز** السسترى قرب **كوتنبرج**[(١)] (بوهيميا) بنقل صناديق إكليرية ومعدات كنسية ووثائق ومخطوطات إلى كلوسترنيوبورج، لكى تكون فى مأمن. وبعد انتقال السلطة والتاج الامبراطورى من آل لوكسمبورج إلى آل هابسبورج الذين استولوا على مكتب السجلات والوثائق الحكومية، نقلت كتب الإدارة والتنظيم ومجموعات الوثائق والخطابات من الدواوين البوهيمية إلى مكتبات الأديرة النمساوية.

جماعة إخوان الحياة العامة

على عكس الأوغسطيين الذين ارتبطوا بحياة العزلة فى الدير؛ كان إخوان الحياة العامة طائفة من تلك الطوائف الحرة التى تضم قساوسة مدنيين وأفراداً من عامة الشعب تعيش طبقاً لقوانين فردية خاصة دون حاجة إلى أخذ العهد أو التكريس. وكان هدفهم المطلق هو تجديد معنويات الناس عن طريق الكتب **«إخوان يعظون ليس عن طريق الكلمات المنطوقة وإنما عن طريق الكلمات المكتوبة»**[(٢)] ولذلك نظروا إلى الكتب نظرة احترام وتقدير، واتخذوا من إنتاج الكتب وبيعها وسيلة يتكسبون بها عيشهم ويحققون بها غاياتهم حيث إن تعاليمهم كانت تحظر عليهم الشحاذة والاستجداء. وهم من معقلهم الأصلى فى ديفنتر انطلقوا بسرعة عبر شمالى وغربى ألمانيا. وفى سنة ١٤٠١م **توفر هنريتش فون آهوس**[(٣)] على تأسيس بيت الطائفة فى مونستر، ومركز الشعب فى وستفاليا، بينما أصبحت هلدشايم وكولون مراكز الاستقرار لهم فى وسط وغربى ألمانيا. كما أصبحت أديرة الراهبات التى أسسها جروت فى ديفنتر سنة ١٣٧٤م مراكز هامة لنسخ الكتب.

لقد كانت عملية نسخ الكتب بالنسبة لإخوان الحياة العامة واجباً ووظيفة يومية. لقد نسخوا الكتب من أجل استخدامها فى العبادة ومن أجل تزويد

---

(١) Sedletz; Kuttenberg

(٢) Fratres non Verbo, Sed Scripto Proedicantes

(٣) Heinrich Von Ahaus

مكتباتهم. ومن ناحية ثانية كانوا ينسخون الكتب بالأجر للآخرين من أجل التكسب وتحصيل لقمة العيش. لقد وضعت لوائح إتحاد مونستر لسنة ١٤٩٩م قواعد محددة لإنتاج الكتب وبيعها. ففى كل معقل لهم كان هناك ناسخ مسئول عن المنسخ فى هذا المعقل، كما كان هناك المزخرف المساعد للناسخ والذى كان مسئولاً عن زخرفة الكتب وخاصة تحمير الحروف الأولى. وفى حالة اللجوء إلى استخدام ماء الذهب فى الكتابة فلابد من تصريح الرئيس بذلك. كذلك كان فى كل منسخ مجلد للكتب يعمل تحت إشراف الناسخ. وكان الناسخ يتلقى أوامر نسخ الكتب والقيام ببيعها من الرئيس وكان يسلمه حصيلة البيع أيضاً. وبهذه الطريقة كان إخوان الحياة العامة يكسبون عيشهم وعلى سبيل المثال فإن إخوان دير **لوختنهوف**[1] فى **هيلدشايم** كسبوا أكثر من ألف جولدن ذهب فى سنة ١٤٥٠م. وقد تلقى دير زوول خمسمائة جولدن ذهب ثمناً لنسخة واحدة من الكتاب المقدس.

وكانت الكتب التى يصير إنتاجها للاستخدام الداخلى تسلم إلى أمين المكتبة، الذى كانت واجباته تدور حول حفظ المجموعات وصيانتها وتنظيمها تنظيماً جيداً، ووضع علامة الملكية على المخطوط فى بدايته ونهايته وإعداد فهرس المكتبة من نسختين: إحداهما تبقى لدى أمين المكتبة والثانية تسلم إلى الرئيس، كما أن على أمين المكتبة أن يرعى النظام العام فى استخدام المكتبة. هذا النظام كان يشمل إعارة الكتب مقابل رهن أو وديعة أو تأمين لأطول فترة استعارة وهى أربعة شهور.

كان الاسم الحركى لأعضاء إخوان الحياة العامة هو «إخوان القلم». وكانت مخطوطاتهم متميزة بوضوحها وإرتقاء نوعيتها وهوامشها العريضة وخطها الأنيق وجلودها البديعة الصنع. وكان الإخوان يهتمون اهتماماً خاصاً بدقة النص وصحته. وفى بعض كتب الإنشاد كانت صنعة الكتب تقترب من مستوى الأسلوب الفنى.

---

(١) Lüchtenhof

ولما ظهرت الطباعة كان على الإخوان أن يسايروا العصر ويراعوا الظروف الاقتصادية الجديدة ومن ثم تبنوا الطباعة فى إنتاجهم للكتب منذ بداية انتشارها. وفى سنوات أوائل المطبوعات كانت لهم مطابعهم فى بروكسل ولوفان. أما في ديفنتر فقد عملوا مع الطابع **ريتشارد بافرايت**[1]. أما في ألمانيا فقد أسست مطابعهم الأولى حول سنة ١٤٦٨م فى مارينتال فى منطقة الراين، بينما كانت أخصب مطابعهم إنتاجاً هى تلك التى كانت فى روستوك.

الكارثوزيون[2]

كان الكارثوزيون يعيشون فى أديرة متناثرة مبعثرة ولم تحاول تلك الأديرة اللحاق بحركة الإصلاح الدينى التى دخلت إلى أديرة الطوائف الأخرى المختلفة. وهناك مقولة طريفة لذلك قالها مؤسس الطائفة (برونو الكارثوزى) وهى «**أن الكارثوزيين لم يكونوا أبداً فى حاجة إلى إصلاح لأنهم لم يكونوا أبداً متخلفين**»[3]. وفى القرن الخامس عشر عرفت هذه الطائفة بحبها للعلم والبحث والدرس ومن ثم بمكتباتها القيمة التى زادت زيادة كبيرة من خلال دأب رهبانها على عملية النسخ. وفي بازل، كولون، إيرفورت،ماينز، بلغت مكتبات الكاثوزيين حجماً عملاقاً بمعايير العصور الوسطى. ولكن حتى فى الأديرة الأصغر فى **أجزباخ** فى النمسا **وبوكسهايم**[4] فى أسوابيا كانت هناك مكتبات جيدة أيضاً. ولكن للأسف تبعثرت مجموعات تلك المكتبات وتمزقت شر ممزق باستثناء حالات قليلة من بازل وماينز؛ وصلتنا ووصلتنا فهارسها.

وتحت وطأة التطور السريع فى مجال الكتب والمكتبات، كان على أديرة الكارثوزيين أن تتبنى أساليباً وطرقاً جديدة فى فهرسة وتنظيم المجموعات. وكانت كتب تلك المكتبات متاحة لاستعمال عامة الناس وليس فقط لرهبان الطائفة، وحيث تشير سجلات الإعارة التى وصلتنا من أديرة بازل إلى حرية الاستعارة ومرونة قواعدها. وقد وصلتنا لوائح مكتبات بازل وماينز.

(١) Richard Paffraet

(٢) Carthusians

(٣) Carthusia nunquam reformata; quia nunquam deformata

(٤) Aggsbach; Buxheim

ومهما يكن من أمر حجم المطبوعات فى تلك المكتبات من الناحية العددية فإنها من الناحية النوعية لم تكن واسعة المدى حيث لم يكن الكارثوزيون جماعّى كتب بل كانوا منتجين لها حسب حاجتهم منها، وحاجتهم منها كانت مقصورة عل مجالات بعينها مثل: اللاهوت، والكتاب المقدس وشروحه، وكتب الطقوس والشعائر والزهد، وهى جميعاً توجد بكميات ضخمة. لقد زادت مجموعات الكتب في مكتبات الكارثوزيين فى بازل عن الحد المتوسط وربما يرجع الفضل فى ذلك إلى الهدايا الى تلقتها من جوهان هينلين فون شتين (١٤٨٧م)؛ وجهود رئيس الدير يعقوب لاوير (١٤٨٠-١٥٠٠م) الذى كان صديقاً لكل من **جوهان أميرباخ وجوهان ريشلين**. كما استفاد الكارثوزيون فى بارى من رعاية **ريموندلول** الذى أهدى كتاباته العديدة إلى الدير الخاص بهم سنة ١٣١٣م.

د - مكتبات النبلاء

رأينا فى القرون السابقة من العصور الوسطى كثيراً من الأمراء يقدمون هدايا الكتب للمكتبات ولكنهم لم يكونوا جماعين للكتب مكونين للمكتبات الشخصية، ولم يكن فى تلك القرون جمع الكتب يمثل ظاهرة بل كان مجرد حالات فردية نادرة بين النبلاء. إلا أنه في القرن الثالث عشر ظهر فى بلاطات النبلاء أمراء جماعون للكتب مكونين للمكتبات الشخصية وكان الحكام رعاة أسخياء للأدب والإنتاج الفكرى وأصبحت مجموعات الكتب والمخطوطات الثمينة الغالية مظهراً لا غنى عنه فى بلاطات الأمراء. ونستعرض على الصفحات التالية عينات من اهتمامات النبلاء فى تلك الفترة بالكتب والمكتبات.

فردريك الثانى(١)

فردريك الثانى: الامبراطور بين سنتى ١٢١١-١٢٥٠، كان راعياً للفكر والباحثين وهو مؤسس جامعة نابلى سنة ١٢٢٤م وقد قدم ترجمات أرسطو هدية إلى جامعة بولونا سنة ١٢٣٢م. وكان فردريك نفسه مؤلفاً وكاتباً وكان مراقباً

(١) Frederick II

فطناً للتاريخ الطبيعى وكان بصفة عامة متعشطا نهماً لايشبع إلى المعرفة والعلم. وكان يقرأ باستمرار حتى فى ظل وطأة مسئولية الحكم وأعمال السياسة وكان دائماً يتحدث عن حاجته إلى «عدد كبير من الكتب متنوعة الموضوعات، متنوعة الخطوط بحيث تثرى مجموعات مكتباتنا». وكان فردريك ينظر نظرة إجلال وتقدير خاصة لأعمال أرسطو والتى جعلها متاحة للغرب من خلال الترجمات التى أمر بها. أما حفيده الملك **روجر الثانى**(١) ملك صقلية فقد جمع العلماء والدارسين حوله فى بلاطه فى باليرمو وبعد ذلك فى جامعة نابلى. لقد قام بإستئناف جهود جده فى ترجمة وشرح العديد من الكتب التى دفع لمترجميها بسخاء. لقد كان هناك تيار متدفق من الفلسفة الأرسطية العربية يقارن إن لم يعدل ذلك التيار الذى كان موجوداً في طليطلة يخرج من البلاط الكبير لأباطرة هوهنزتاوفن يثرى الحياة الفكرية والعلمية.

لقد كان من بين العلماء الكبار فى بلاط فردريك **مايكل سكوتوس**(٢) الذى ترجم أعمال أرسطو فى الحيوان وترجم شروح ابن سينا وابن رشد على أعمال أرسطو التى أحضرها الامبراطور من طليطلة واستخدم فردريك مثلهم المنجمين فى البلاط ١٢٢٧-١٢٣٥. كما قام العلماء اليهود والمترجمين المحترفين منهم فى العصور الوسطى بخدمة الامبراطور وخاصة فى نقل الكتب الميمونية إلى اللاتينية.

وقد عمل الامبراطور على نشر تلك الترجمات وبثها فأرسل نسخة مايكل سكوتوس عن كتاب ابن سينا فى الحيوان والتى كان سكوتوس قد أهداها إلى الامبراطور إلى **ماستر هنريتش** فى كولون لنسخها وتوزيعها سنة ١٢٣٢م، كما تلقت الجامعات الإيطالية ترجمات أعمال أرسطو. وهناك من الشواهد ما يؤكد وجود منسخ داخل البلاط الامبراطورى كان يتوفر على نسخ الكتب ووجود مكتبة جيدة تجمع الكتب وتقدم الأصول للنسخ فى المنسخ. والحقيقة أنه لم

(١) Roger II

(٢) Michael Scotus

تصلنا معلومات كافية مؤكدة عن مكتبة بلاط فردريك التى جاءت مجموعاتها الأساسية من كتب الملوك النورمان. وهناك بعض الشواهد من خلال الفهارس التى تؤكد على أن المجموعة اليونانية المبكرة فى المكتبة البابوية فى مكتبة بونيفيتيانا برومار رغم تدمير ٣٢ مخطوطة منها - جاءت أصلاً من مكتبة الإمبراطور فردريك. ذلك أن هذه المجموعة كان ملك صقلية **مانفريد**(١) قد آلت إليه ثم بعد ذلك استولى عليها **تشارلز من أنجو**(٢) كغنيمة حرب مع سائر الكنوز الملكية وقدمها للبابا كليمونت الرابع. وكان **وليام دى موربيكا**(٣) هو آخر مترجم لأعمال أرسطو يستخدم مجموعة مخطوطات هوهنزتاوفن فى الفاتيكان. ولو كان هذا الغرض الذى قدمه كارل كرست صحيحاً فإن مكتبة النورمان - هوهنزتاوفن تكون هى أول مكتبة ملكية تستمر فى الوجود طيلة قرنين من الزمان رغم تغير ملكيتها.

مانفريد(٤)

اقتفى مانفريد ملك صقلية ١٢٥٨-١٢٦٦م أثر والده فى إرسال ترجمات أعمال أرسطو إلى جامعة باريس حوالى سنة ١٢٦٣، وأعار إلى جامعة بولونا نسخته من كتاب **بيتر دى فنيا**:(٥) مقدمة إلى مؤلفات فردريك الثانى. وقد استمرت أعمال الترجمة طوال حكمه. وكان المترجم الرئيسى فى تلك الفترة هو **بارتولوميوس من مسينا**(٦) الذى ترجم كتاب **الأخلاق الكبير**(٧) وأعمال أرسطو الأخرى. وقد ألف الملك كتاباً جيداً عن البيطرة (الصقور) وأنتج في هذا الموضوع مخطوط مزخرف آخر (موجود الآن فى مكتبة الفاتيكان) ربما لحسابه

---

(١) Manfrid

(٢) Charles of Anjou

(٣) William De Moerbeka

(٤) Manfred

(٥) Peter de Vinea

(٦) Bartho lo maeus of Messina

(٧) Magna Moralia

وقد كلف أيضاً إنتاج نسخة الكتاب المقدس المعروفة باسمه والموجودة أيضاً فى مكتبة الفاتيكان.

تشارلز من أنجو ١٢٦٦-١٢٨٥[١]

استمرت جهود الترجمة فى جنوبى إيطاليا حتى بعد سقوط الملوك الهوهنزتاوفن وشهدت بعثاً جديداً فى ظل تشارلز من أنجو، هذا العصر الذهبى لنشاط الترجمة استمر حتى نهاية حكم حفيده **روبرت العاقل** ١٣٠٩-١٣٤٣م[٢] الذى أضفى رعايته على بترارك. وكما كانت ترجمة أعمال أرسطو هى محور النشاط فى العقود التى سبقت فقد أصبح الطب فى هذه الفترة هو نقطة النشاط فلقد أمر تشارلز بترجمة كتاب الرازى الكبير فى الطب والذى توفر على ترجمته **فرج اليهودى** من مخطوطة أتى بها تشارلز من تونس. وقد عرضت هذه الترجمة ذات المجلدات الخمسة على أطباء ساليرنو ونابلى ووافقوا عليها. ولعله من نافلة القول أن تشارلز قد أنفق بسخاء على هذه الترجمة. وهذه النسخة الأصلية موجودة الآن فى المكتبة الأهلية فى باريس (تحت رقم ٦٩١٢ مخطوطات لاتينية).

كان النساخون يعملون فى قلعة **كاستللو دل أوفو**[٣] على خليج نابلى حيث كانت المكتبة جزءاً من الكنوز. وكان أطباء البلاط مسئولين عن إدارة المكتبة. وقد وصلتنا أسماء أمناء المكتبة كما وصلتنا أسماء النساخ والمصححين والمزخرفين والمجلدين وذلك من سجلات البلاط، كما وصلنا فهرس المكتبة عن سنة ١٢٨٢م.

ألفونسو العاشر[١]

يقول المؤرخون عن ألفونسو العاشر ١٢٥٢-١٢٨٤م بأنه لم يسبقه حاكم آخر

Charles of Anjou (١)

Robert the Wise (٢)

Castello dell' ovo (٣)

فى كل العصور الوسطى فى اهتماماته العلمية سواء من حيث الموسوعية أو خصوبة الإنتاج. ويقال بأن الإنتاج الفكرى الوطنى الأسبانى قد بدأ به فقد كان شاعراً وباحثاً ومشرعاً ومؤرخاً لبلده، مسئولاً عن لغة الكتابة الأسبانية وعن إنشاء شبكة الجامعات فيها. وقد حرص على إنتاج كتبه بشكل فاخر رائع: كتاب الجواهر، كتاب الألعاب، كتاب مجموع الأغانى بصوره البالغة ١٢٩٢ صورة. هذه المخطوطات تعد من أفخم ذخائر مكتبة الاسكوريال ونحن فى الحقيقة لم تصلنا معلومات عن المكتبة التى اعتمد عليها الملك فى استقاء معلوماته فى كتبه وفى قراءاته العامة. ولكننا نعلم أنه كان يرتاد مكتبات الأديرة ولدينا قوائم بالكتب التى استعارها من أديرة **سيلوس، ألبلدة، ناجيرا**[٢].

فرنسا - لويس التاسع (سانت لويس)

إذا كانت عملية جمع الكتب بين البلاطات الإيطالية والأسبانية عملية متقطعة لاتمثل ظاهرة عامة، فإنها فى فرنسا على العكس من ذلك تمثل ظاهرة عامة دائمة. وعلى الرغم من أنه لم يأت بعد شارل الأصلع أى حاكم لديه نفس ولوعه بالكتب والهيام بها، إلا أن جمع الكتب وإنشاء المكتبات كان القاعدة العامة التى لم يخل منها بيت من بيوت الحكم.

وكانت المكتبة الملكية تنتقل من حاكم إلى حاكم وهذه المكتبات هى التى قامت عليها المكتبة الوطنية فى باريس فيما بعد. ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأن الملكية الفرنسية قد ساهمت مساهمة إيجابية فى التقدم الفكرى الفرنسى، الذى غطى فى ذلك الوقت جميع فروع المعرفة البشرية والفنون ودفع بالجامعة الفرنسية ومكتبتها والبحث العلمى إلى الأمام.

لقد قام لويس التاسع (أو القديس لويس) ١٢٢٦-١٢٧٠م بإنشاء العديد من

---

(١) Alfonso x

(٢) Silos; Albelda; Nájera

المكتبات على الأقل تقليداً لأعدائه. وطبقاً لما ذكره **جيوفرى من بولييه**[١] أن الملك أثناء غزوته الصليبية التى قادها على مصر سمع عن سلطان لديه كل أنواع الكتب فى مكتبته وهو يسمح للباحثين فى بلده باستخدامها، وهو فى كل يوم تنسخ له الكتب وتنظم فى تلك المكتبة ولم يشأ الملك بعد فك أسره من مصر أن يضيع الوقت فقرر أن يبدأ بنسخ كل الكتابات المقدسة التى توجد على الأرض الفرنسية. والكتب التى نتجت عن هذه العملية أمر لويس بوضعها فى كنيسة صغيرة لكى توضع فيها الكنوز الملكية. وكان الملك يذهب إلى هذه المكتبة يومياً بمفرده ولكنه كان يسمح لمن يطلب بالإطلاع. وكان لويس يفضل عملية نسخ الكتب على عملية الشراء وذلك لأنه بالنسخ يمكن التحكم فى تنمية المقتنيات بينما الشراء يجعل المكتبة تحت رحمة المعروض من الكتب. وخلال سنوات التفاوض من أجل الوحدة الكنسية مع روما قام الامبراطور **مايكل الثامن باليولوجوس** البيزنطى[٢] بإهداء لويس نسخة من العهد الجديد باليونانية عن طريق السفير الفرنسى. هذا المخطوط الذى زوده راهب يجيد اليونانية بحواش فى الهوامش وترجمة لاتينية مازال موجوداً فى فرنسا.

والحقيقة أن معاصرى هذه المكتبة لم يذكروا منها سوى الكتب اللاهوتية مثل الأناجيل ونسخ الكتاب المقدس وشروحه وكتابات آباء الكنيسة ولم يتحدثوا عن الكتب الأخرى. ولم نعرف شيئاً عن أمين هذه المكتبة حتى القرن التاسع عشر، وهو **فنسنت دى بوفيه**[٣] المؤلف الموسوعى الشهير، الذى كان يستخدم مصادر المكتبة فى كتابة موسوعته كما كان يزودها بالمستطاع من الكتب. وتصمت وثائق العصور الوسطى عن ذكر أى شئ يتعلق بالمجموعات وكل ما نعرفه هو أن الملك رحب بأمين المكتبة فنسنت وحياه على عمله الموسوعى الكبير.

---

(١) Geofrey of Beaulieu

(٢) Michael VIII Palaeologus

(٣) Vincent de Beauvais

ولابد من التنويه هنا إلى أن تزويد المكتبة بالكتب كان عملاً شخصياً بحتاً من جانب لويس ولم يكن عملاً قومياً يستمر فى أسرته من بعده ذلك أن وجود مكتبة متكاملة تستمر بعد انقضاء أجل مؤسسها لم يكن أمراً مألوفاً أو فكرة شائعة فى ذلك الوقت من العصور الوسطى بل هو من مفرزات العصر الحديث. ولذلك فإنه قد أوصى فى وصيته الأخيرة بأن تقسم مخطوطات هذه المكتبة بين الدومنيكان والفرنسيسكان فى باريس وأديرة **رويومونت و كومبين**[(1)] باستثناء الكتب التى تستخدم فى العبادة فى الكنيسة. وهكذا وصلتنا الكتابات المقدسة والمزامير التى كانت موجودة فى مكتبة لويس التاسع بكنيسته. وتعد هذه المخطوطات من أفخر ما أنتجته صناعة الكتب الباريسية فناً وخطاً، تلك الصناعة التى كانت تخطو أولى خطواتها فى ذلك الوقت بدعم وتأييد من لويس التاسع.

والحقيقة أن سيادة الكتاب الفرنسى فى أوربا عموماً ترجع إلى وقت لويس هذا.

وكان انتشار هذا الكتاب الفرنسى ومكانته لاحدود لهما، وهى نفس المكانة ونفس الانتشار الذى حققه الإنتاج الفكرى الفرنسى أو الفكر الفرنسى نفسه. وكانت زخرفة الكتب الفرنسية فناً راقياً حتى عرفت زخرفة الكتب بأنها فن باريسى.

لم يكن جمع الكتب حتى زمن لويس ينم عن حب حقيقى لها وإنما استمر فيه الملوك المتعاقبون باعتباره مظهراً من مظاهر السيادة والسلطة والأبهة والتميز. ومنذ عهد الملك **فيليب أوجست**[(2)] ١١٨٠-١٢٢٣م والملكات **إنجبورج، بلانش، مارجريت**[(3)] وكثير من الأميرات، كانت قد تأصلت عادة اقتناء كتب الصلوات الفاخرة الإخراج. وكانت عادة شراء الكتب وإهدائها للمكتبات أيضاً قد انتشرت

(١) Royaumont; Compiégne

(٢) Philip August

(٣) Ingeborg; Blanche; Marguerite

بين خلفاء لويس المباشرين. وبعد ذلك التاريخ أصبحت هواية جمع الكتب والولوع بها عادة موروثة بين الملوك الفرنسيين واستمر هذا الحب حتى فى وقت الشدائد التى اجتاحت البلاد خلال حرب المائة عام. ولقد اتخذ الجمع الملكى للكتب إتجاهاً آخر، فبدلاً من البحث عن الكتب العلمية ذات المستوى الفكرى الراقى أصبح البحث عن المخطوطات الفاخرة ذات الزخارف الغالية باللغة المحلية؛ ويستثنى من ذلك فيليب الرابع، العادل ١٢٨٥-١٣١٤، الذى كان باحثاً ومفكراً والذى كان له اهتمام بموضوعات الطب والعلوم الطبيعية.

مكتبة اللوفر

كان **جون الثانى**، الطيب ملك فرنسا ١٣٥٠-١٣٦٤م[١]، الذى اعتاد أن يكتب اسمه على مخطوطاته بنفسه كعلامة ملكية، أباً لأجيال من جماعى الكتب. وكانت عملية جمع الكتب حتى ذلك الوقت مجرد هواية وليس عن ولع بها مارستها الأجيال المتعاقبة؛ إلا أنه مع **شارل الخامس، العاقل** ١٣٦٤-١٣٨٠م[٢]، أخذ جمع الكتب إتجاهاً آخر هو اتجاه إنشاء المكتبات بالمعنى الحديث للكلمة. وقد أطلق عليه معاصروه لقب «منشئ المكتبات» وقارنوه بالحكام المصريين، وقيصر وشارلمان الوحيد فى العصور الوسطى الذى عرف بإنشاء المكتبات. ولقد كتب شاعر البلاط **كريستين دى بيزان**[٣] قصيدة عن شارل يقول فيها ما ترجمته:

ماذا أقول فى حكمة شارل ذلك العظيم،
وعن حبه الكبير للمعرفة والعلوم؟ لقد عبر
عن نفسه بتلك المجموعة من الكتب القيمة العجيبة
ومكتبته الجميلة التى تضم بين جنباتها أحسن
مؤلفات عظماء المؤلفين، وتزدان بثروة الكتابات

---

(١) John II the Good

(٢) Charles V, the Wise

(٣) Christine de Pisan

المقدسة، واللاهوت والفلسفة وكل أنواع العلوم.
كل شئ كتب بخط جميل وزخرف كأحسن ما يكون.
فالملك دائماً يستخدم أحسن النساخين، كما أن قاعة
المكتبة قد رتبت أحسن ترتيب وأثثت بأفخر الأثاث
على ذوق الملك الذى يريد كل شئ تاماً منظماً وجميلاً
ولايمكن أن تكون أحسن من ذلك.

ولكى تعبر المجلدات عن نفاسة محتوياتها صنعت من أفخر أنواع المواد وكسيت بالمعادن النفيسة ومن لآلئ وأحجار كريمة مثبتة بشرائح من الذهب، أو بشرائح من الفضة المذهبة، والكتب المحببة إلى الملك كانت تبصم بالطفراء الخاصة به. وفى البداية كانت المكتبة موضوعة فى الجناح الملكى الخاص فى قصر اللوفر ثم بعد ذلك فى سنة ١٣٦٧- أو - ١٣٦٨م جهزت ثلاثة طوابق فى **برج اللوفر**[١] لتضم مجموعات الكتب. وإلى جانب ذلك فقد كانت القلاع الملكية الأخرى تضم مكتبات صغيرة للملك مثل قلاع: **فنسن، ميلون، سانت جيرمان - أون - لاى**[٢]. وفي هذه القلعة الأخيرة كانت هناك قطع ثمينة من المخطوطات.

وكما ورد فى قصيدة الشاعر الذى عاش فى بلاط الملك، كان الملك يستخدم أحسن الخطاطين والفنانين فى باريس فى إنتاج كتبه، نعرفهم بالاسم من حرد المتن الذى سجلوا فيه أسماءهم.

لقد عمل المترجمون فى مكتبة الملك يداً بيد مع النساخين، فكما أن البابا **نيقولاس الخامس**[٣]، أراد أن يثرى مكتبة الفاتيكان بترجمات الكتب اليونانية فإن شارل الخامس أراد أن يفض مغاليق الإنتاج الفكرى الأجنبى أمام شعبه من خلال ترجماته، التى تمثل جانباً كبيراً من مجموعات مكتبة اللوفر. هذه الترجمات لم

(١) Tour de La Fauconnerie
(٢) Vincennes, Melun, St. Germain-en-Laye
(٣) Nicholas V

تكن تتم فقط عن اللاتينية إلى الفرنسية وإنما أيضاً عن اللغة اليونانية؛ حيث قام **نيكولاس أوريزم**(١) بترجمة أعمال أرسطو السياسية والاقتصادية والأخلاقية. لقد كانت مكتبة اللوفر - حيث المخطوطات اللاتينية نادرة قليلة - تؤذن ببزوغ فجر نوع جديد من المكتبات يقف جنباً إلى جنب مع المكتبات البحثية فى الأديرة والجامعات. لقد كانت مجموعة من الكتب كتبها مؤلفون مدنيون علمانيون وتنطوى على ثروة هائلة من الإنتاج الفكرى العلمى العام رالآداب الموجهة لتنوير الشعب وترفيهه.

ومنذ سنة ١٣٦٩م وصاعداً أصبح **جيل ماليت**(٢) أمين مكتبة شارل الخامس والمشرف عليها؛ لم يكن عالماً أو باحثاً ولكنه كان شخصاً يثير الإعجاب فلقد قام بواجبه فى الحفاظ على الكنوز التى عهد إليه بها وتنميتها ولقد استمر فى عمله بعد وفاة شارل الخامس فى ظل شارل السادس حتى وافته المنية سنة ١٤١١م. وقد ظل الفهرس الذى أعده للمكتبة سنة ١٣٧٣ مع بعض الإضافات مستخدماً طوال العصر الذهبى لقصر اللوفر.

لقد كان فهرس ماليت عبارة عن قوائم سريعة تعطى نبذات خاطفة عن المخطوطات ولكنها لاتحدد مكان كل منها. وقد حلت محلها فهارس أخرى أكثر تفصيلاً وخاصة تلك التى أعدها **جان لوبيجى**(٣) سنة ١٤١١م.

لقد بدأ مجد مكتبة اللوفر فى الأفول فى عهد شارل السادس ١٣٨٠-١٤٢٢م. رغم أنه قام بإضافة ٢١٠ مخطوطات إلى مجموعات المكتبة وضعت على كل منها بطاقة ملكية تحمل صورة غزالة وتحتها كلمة «أبداً»(٤) كما أضيفت مجموعة من الكتب العبرية التى غنمها شارل السادس من اليهود، بلغت سنة ١٣٩٧م مائة وأربعة عشر مخطوطاً. وقد بدأ الانهيار بعد عمليات الاستعارة

---

(١) Nicholas Oresme

(٢) Gilles Malet

(٣) Jean le Bégue

(٤) Jamais

المتعددة من جانب أفراد الأسرة الملكية وعدم إرجاع الكتب المستعارة مما أدى إلى تبعثر وتبديد مجموعات المكتبة. وسرعان ما تحولت المكتبة إلى مخزن مفتوح مهمل يستطيع أى شخص الدخول إليه والحصول على أى كتاب منه. لقد قامت عاشقة الكتب الملكة **إيزابيلا**(١)، ملكة بافاريا ودوقة أنجو وبيرى وبيرجنديا بإثراء مكتبتها الشخصية بالإعارة والسطو على مكتبة اللوفر. كما امتدت يد عابثة إلى القطع الثمينة المرصعة بالجواهر من كتب المكتبة لتقدمها مهوراً للأميرات أو هدايا للأصدقاء أو الحكام الأجانب. ومن هنا فإنه فى سنة ١٤١١م كتب أمين المكتبة الجديد **لوبيجى** تقريراً عن فقد ١٨٨ مخطوطاً، وقد تم إعداد ما لا يقل عن خمسة عمليات جرد فى السنوات بين ١٤١١-١٣٢٤م مما يقف شاهداً على افتقار المكتبة للأمن. وآخر جرد تم بعد وفاة الملك شارل السادس وفيه تم إثبات وجود ٨٤٣ مخطوطة، وفى ذلك الوقت كانت باريس قد وقعت فى أيدى الإنجليز. وقد طالب الحاكم الملكى **جون بلانتاجينت**(٢)، دوق بدفورد المكتبة بدفع نصف الضرائب ونقل المكتبة إما إلى انجلترا أو إلى قلعته فى **رووين**(٣) سنة ١٤٢٩م وحيث هدد الفرنسيون بتحرير باريس. وكان لوفاة عاشق الكتب الإنجليزى هذا أثر كبير على تبديد مجموعات المكتبة وتبعثرها نهائياً. وبذلك انتهت مكتبة اللوفر الجميلة التى تغنى بها الشاعر كريستين دى بيزان. ومن بين مجموعاتها الكلية التى لم تكن تقل عن ١٢٣٩ مخطوطة لم يصلنا سوى مائة مخطوط فقط مبعثرة الآن بين عدد كبير من المكتبات.

إخوة شارل الخامس

توفر إخوة شارل دوقات أنجو، بيرى، بيرجنديا هم الآخرون على جمع الكتب والاهتمام بالمكتبات. ولو أنشأوا مكتبات أسرية على غرار مكتبة اللوفر وتابع خلفاؤهم تنمية هذه المجموعات. وكانت تلك المكتبات فى الأعم متشابهة

(١) Isabella

(٢) John Plamtagenet

(٣) Rouen

فى طبيعتها فقد غلب على المجموعات الإنتاج الفكرى الفرنسى وخاصة الأدب ثم آداب اللغات الأخرى بما فى ذلك الكلاسيكيات التى ترجمت إلى الفرنسية. وإذا كان أحد هؤلاء النبلاء متعلماً فوق العادة فإن مكتبته تضم الأدب اللاتينى أيضاً. وكان الهدف من تلك المكتبات هو التنوير والترفيه حيث إن المجموعات كانت مجموعات استخدام يومى. وقد تفوقت موضوعات التاريخ والطب والفلك على اللاهوت الذى تمثل فقط فى بعض كتابات الوعظ والشعائر. وكانت المخطوطات المزخرفة المرصعة هى القطع التى يسعى إليها هؤلاء النبلاء لتزيين مجموعاتهم وإضفاء المظهرية عليها.

لويس الأول من أنجو[١]

كان لويس الأول من أنجو والذى أصبح ملكاً على نابلى سنة ١٣٨٢م والمتوفى بعدها مباشرة سنة ١٣٨٤م من جماعّى الكتب المعدودين وقد أورث حب الكتب لحفيده **رينيه** المتوفى سنة ١٤٨٠ والذى تذكر المصادر أنه فاقه وبزه فى هذا الصدد بعد أن أصبح «كونت بروفنس» ١٤٣٤م ثم ملك نابلى ١٤٣٥م. وكان **رينيه** يعرف **بالملك الطيب**[٢]. لقد كان حاكماً وفى نفس الوقت شاعراً وفناناً جعل من بلاطه مقراً للعلماء والباحثين فى أنجو و بروفنسى. وكانت مكتبته فى **آنجبير**[٣] حتى سنة ١٤٧١ ثم بعد ذلك فى **آيلى**[٤] وهذه المكتبة تشير إلى تنوع اهتمامات صاحبها وتكشف عن أنه كان عالماً وجمّاعا للكتب ذلك أنه تمثلت فيها اتجاهات الإنسية الجديدة إضافة إلى علوم النهضة الحديثة.

وكان رينيه يتابع العصر فجمع إلى جانب المخطوطات المطبوعات الباكرة التى نشرت فى وقته، ولم يكتف بالأدب الفرنسى والإيطالى بل جمع جانباً هاماً من الأدب الكلاسيكى أيضاً. وكانت له صلات واسعة مع الباحثين والدارسين

---

(١) Louis I of Anjou

(٢) Le bon roi René

(٣) Angiers

(٤) Aix

الإيطاليين وكان يقرأ كتب دانتى وبوكاتشيو بلغتها الأصلية؛ وكانت هذه الكتب تشاهد كثيراً على مناضد القراءة فى مكتبته. وتقف المخطوطات اليونانية والشرقية شاهدة على أن رسله وصلوا إلى الشرق الأقصى فى سبيل جمع الكتب. ويمكننا أن نتعرف على يد الملك فى الصور والخطوط التى تزين **كتاب السواعى**[١] الذى نشر أول مانشر فى منطقته. وكما هو حال المكتبات، بددت المكتبة وتبعثرت ولكننا لانملك معلومات كثيرة عن مصيرها.

جان دوق بيرى[٢]

قد يقارن جان دوق بيرى المتوفى سنة ١٤١٦م بالملك شارل العاقل فى جمعه للكتب وحبه لها. ورغم أن مجموعته كان أصغر يقيناً من مجموعة اللوفر إلا أنها كانت تكشف عن درجة راقية من العلم. وبينما كان شارل على علم واسع فإن أخاه جان كان فناناً موهوباً وجمّاعا نهماً للكتب. ولم يكن فى مكتبته كتاب إلا وكانت فيه ميزة تميزه وجمع من أجلها كأهمية النص أو جمال الخط أو رقى التصوير. وكما كان الدوق سخياً فى هداياه من الكتب كان يتلقى هدايا كثيرة منها من علية القوم. وكثير من المؤلفين أهدى كتبه إليه. فى كثير من الأحيان كان الدوق يدفع ثمناً باهظاً فى سبيل الحصول على الكتب، كما كان يكلف أمهر النساخين وأحسن الفنانين بإعداد كتب معينة له ومن بينهم الأسماء اللامعة: **أندريه بونيفيه؛ جاكمارت دى هدسان؛** و **الفلمنكى بول دى لمبورج**[٣].

ومن خلال الجرد الذى أعد للمكتبة عند وفاته قدر ثمن **كتاب السواعى** سالف الذكر والموجود الآن فى المكتبة الأهلية بباريس (لاتينية ٩١٩) بمبلغ ٤٠٠٠جنيه. ومن الواضح أن تكلفة الكتب كانت باهظة وتفوق إمكانيات الدوق المالية مما جعل الديون تتراكم عليه وحتمت بيع ذلك الكتاب الرائع بالمبلغ المذكور وفاء لديونه. وبسبب فخامة كتب هذه المكتبة فقد قدرت عند بيعها بأكثر مما قدرت

(١) Livres d'heures

(٢) Jean Duke of Berry

(٣) André Beauneveu; Jaquemart de Hedsin; Pol de Limbourg

مكتبة قصر اللوفر. ومن حسن الحظ أن أكثر من ثلث مخطوطات تلك المكتبة قد وصل إلينا. ويمكننا أن نميز مخطوطات تلك المكتبة عن طريق منقوشاتها التى تتصل بالدوق وسكرتيره **جان فلاميل**[١] وشعار الدوق والعبارة المنقوشة تحته **«الأوقات الطيبة»**[٢].

بيرجنديا[٣]

كان **فيليب الثانى الملقب بالجسور**[٤] المتوفى سنة ١٤٠٤م هو أصغر أبناء جون الطيب، وأصبح دوق بيرجندى سنة ١٣٦٣م. وكما أسس دولة بيرجنديا فإنه أسس أيضاً مكتبة عظيمة فى بلاطه وقد عاشت تلك المكتبة وعمرت أطول مما عاشته مكتبة أخيه الأكبر شارل الخامس، تلك المكتبة التى وضعت فى مرتبة تالية مباشرة لمكتبة باريس والتى ورثها عنه إبنه **جون غير الهياب**[٥] (المتوفى سنة ١٤١٩).وكلاهما ـ الأب فيليب والابن جون ـ اجتذب إلى البلاط، الشعراء والمترجمين والنساخين. وكلاهما نشد مساعدة الصيارفة ـ رابوندى من بروغيز ـ فى شراء الكتب لهما.

ويعتبر كتاب **بوكاتشيو «ديكاميرون»**[٦] من أجمل المخطوطات فى هذه المكتبة وكان قد كلف **لورانت دي برميرفيت**[٧] بترجمتها إلى الفرنسية. وفى هذا المخطوط الجميل نصادف صوراً رائعة تزين كل قصة من قصص الكتاب. هذا الكتاب وجد طريقه إلى مكتبات كونتات بلاتين فى هيدلبرج.

لقد كانت أزهى فترات البلاط البيرجندى هى فترة حكم **فيليب الثالث، الطيب**

---

(١) Jean Flamel

(٢) Le temps Venra

(٣) Burgundy

(٤) Philip II, the Bold

(٥) John, the Fearless

(٦) Boccaccio/ Decameron

(٧) Laurent de Premierfait

١٤١٩-١٤٦٧م[١]، ففى تلك الفترة كان أقوى حاكم فى الغرب وقد تواكب عصر الفروسية مع بزوغ فجر عصر الفن والعلم وسارت رعاية الفنون والآداب يداً بيد مع اضطراد عمليات جمع الكتب وإنتاج النسخ الفاخرة من الكتب على يد مدارس الخطوط الفلمنكية. وكان من ألمع وراقى تلك الفترة **جان ووكيلان، دافيد أوبيرت، جان ميلوت**[٢]، الذين استخدموا عدداً كبيراً من المترجمين والنساخين والمزخرفين، وكانوا أخصب وراقى المخطوطات ومنتجيها فى بيرجنديا. وقد عرف عن فيليب أنه (أبو الكتَّاب). وفى سنة ١٤٢١م، اشترى مجموعة من المخطوطات قوامها ٢٤٨ مخطوطة وخلّف مكتبة قوامها ٩٠٠مجلد. وبعد أفول نجم اللوفر، يمكننا القول بأن مكتبة فيليب كانت هى أكبر وأغنى مكتبة فى كل **الغرب المسيحى**[٣]، «مكتبة لانظير لها فى أى مكان» على حد تعبير واتنباخ نقلاً عن أوبيرت وبعد هزيمة شارل الجسور فى موقعة نانسى سنة ١٤٧٧م؛ ذلك «الصيف الهندى» للعصور الوسطى انتهى. ورغم انهيار البلاط الحاكم وسقوط الأسرة الملكية فإن المكتبة قد استمرت بعد ذلك وأصبحت نواة المكتبة الملكية فى بروكسل التى تعرف لهذا السبب أنها مكتبة دوق بيرجنديا. ويوجد **كتاب الصلاة** الخاص بشارل الجسور والذى أنتجته أيدى أمهر المصورين والخطاطين الآن فى المكتبة الوطنية فى فيينا.

وقد حمل **أنطونى البيرجندى**، الابن غير الشرعى لفيليب الطيب، والمعروف **باللقيط الكبير**[٤] رسالة جمع الكتب وتقاليده حتى بداية القرن السادس عشر (توفى ١٥٠٤م). وكانت مكتبته فى قلعة (لاروش) فى آردينز[٥] غنية بالمخطوطات الفاخرة والتى وضع عليها علامة ملكيته لها. وقد تبعثرت بقايا هذه المكتبة فى كل أنحاء أوربا. وقد وصل كتاب **جان فرواسارت**[٦] رباعى المجلدات

(١) Philip III, the Good

(٢) Jean Wauquelin, David Aubert; Jean Miélot

(٣) Christendom

(٤) Anthony of Burgundy , Grand Batard

(٥) Ardennes

(٦) Jean Froissart

الذى أنتجته ورشة دافيد أوبيرت الوراق سابق الذكر إلى برسلاو مع كل كتب **توماس ريدجر**(١). ومع نهاية عهد بيرجنديا نصادف أعظم جماعى الكتب الفلمنكيين **لويس من بروغيز** المتوفى ١٤٩٢م(٢)، والذى تمثل المخطوطات التى جمعها أزهى فترات خطاطة وزخرفة المخطوطات الفلمنكية والتى كانت تمد الملك الفرنسى لويس الثانى عشر باحتياجاته من الكتب الفاخرة.

بلوا وبداية المكتبة الملكية الفرنسية

بعد انهيار مكتبة اللوفر، توقف نشاط الأسرة الحاكمة عن جمع الكتب. وكان لويس الحادى عشر ١٤٦١-١٤٨٣م داهية سياسية حمل فى رأسه أهدافاً أخرى غير جمع الكتب ومع ذلك فإن إقطاعييه والنبلاء الفرنسيين لم يتوقفوا عن جمع الكتب ونذكر منهم هنا **جاك دارماناك دوق نيمور**(٣)، الذى كون مكتبات متعددة فى قلاعه المختلفة واستخدم أحسن النساخين والمزخرفين ومن بينهم **جان فوكيت** الذى صور كتاب **«التراث اليهودى القديم»**(٤) بناء على طلب منه. وفى سنة ١٤٧٧م قام لويس الحادى عشر بقهر أعداء لدودين له ومن المقاطعات المهزومة غنم ستين كتاباً، ضمها إلى الممتلكات الملكية.

وكانت الأسرة الحاكمة فى أورليانز هى أول أسرة تحيي تقاليد لويس التاسع (سانت لويس)، فى جمع الكتب. إذ قام لويس دوق أوليانز ١٣٧٢-١٤٠٧، وهو ابن شارل الخامس بتأسيس مكتبة عظيمة فى قصر الأسرة فى باريس بمساعدة زوجته عاشقة الكتب فالنتين التى انحدرت من عائلة فيسكونتى ذات التاريخ العريق فى جمع الكتب. وبعد وفاته نقلت المكتبة من باريس إلى **بلوا** سنة ١٤٠٩م(٥). وقد تابع ابنه **شارل من أورليانز** ١٣٩٤-١٣٦٥م(٦) مسيرة أبيه

(١) Thomas Rehdiger

(٢) Louis of Bruges

(٣) Jacque d'Armagnac Duke of Nemours

(٤) Jean Fouquet/ Atiquités Judaiques

(٥) Blois

(٦) Charles of Orleans

وقد كان في وقته شاعر فرنسا الأول ومنافس رينيه من أنجو سابق الذكر. وقد استطاع شارل هذا في فترة إقامته في انجلترا ١٤١٥-١٤٤٠م أن يستعيد بعض تراث أبيه وأن يسترد بعض المخطوطات التي كانت من مقتنيات مكتبة اللوفر وتسربت إلى انجلترا بعد وفاة دوق بيدفورد؛ على النحو الذي أتينا عليه سابقاً. وقد تم إعداد عدد من القوائم الحاصرة لهذه المكتبة. وقد ظل يعمل على تنمية هذه المكتبة وتزويدها بما استطاع من مخطوطات حتى وفاته. ومع كل ذلك فإن العصر الذهبي لمكتبة **بلوا** جاء في حكم **لويس الثاني عشر** ١٤٩٨-١٥١٥م[١] الذي ضم مجموعات أسلافه إلى المجموعات التي غنمها من نابلي وبافيا إضافة إلى المخطوطات التي أخذها من لويس من بروغيز سابق الذكر. وبهذا تكونت نواة المكتبة الملكية والتي نقلها الملك **فرنسيس الأول** إلى **فونتينبلو**[٢] سنة ١٥٤٤م وأضاف إليها مجموعاته الخاصة والتي كانت تدور حول الإنسية والأدب الإنسي. ومما يجب ذكره في هذا الصدد وينسب إلى هذا الملك العظيم أنه أول من سن قانوناً للإيداع لإثراء هذه المكتبة من المطبوعات حيث أصدر سنة ١٥٢٨، قانوناً يحتم على كل طابع فرنسي أن يودع في المكتبة الملكية نسخة من كل كتاب يطبعه. وبهذا حافظت فرنسا على تراثها الفكري منذ بداية عصر الطباعة، متصلاً مستمراً.

أفجنون[٣]

بدأت في جنوب فرنسا مكتبة بابوات أفجنون وكانت تلك المكتبة في ذلك المكان غريبة أجنبية غرابة البابوية نفسها وقد جاءت المكتبة والبابوية إلى هنا ضد تيار التاريخ وقواعده، حيث كانتا في روما منذ البداية. لقد أصبح المقر الجديد للمجلس البابوي بدلاً من روما مقراً للمكتبة وسوقاً رائجة للكتب يقارن بسوق باريس وبولونا، وقام بدور عظيم في نشر تجارة الكتاب الإيطالي/ الفرنسي باتجاه الشمال.

---

(١) Louis XII

(٢) Francis I; Fountainebleau

(٣) Avignon

لقد استمر هنا التقليد البابوى فى جمع الكتب وتنمية المكتبة رغم الخسائر الفادحة فى **مكتبة لاتيران**[١] على النحو الذى بسطناه فى الفترة السابقة. وتكونت هنا مكتبة جديدة سميت مكتبة (**بونيفاتيانا**) نسبة إلى البابا بـ**ونيفاس الثامن**[٢] ليس كمؤسس لهذه المكتبة وراعيها الأول بل لأنها انتهت على يده، والذى طلب إعداد فهرس لها سنة ١٢٩٥م وقد وصلنا هذا الفهرس. ورغم فترتها القصيرة كانت المكتبة تنمو باطراد من خلال جهود البابوات والهدايا التى تقدم لها. وبسبب الصراع الذى نشب بين **فيليب العادل** والبابا نقلت الكنوز البابوية بما فى ذلك الكتب أولاً إلى **أناجنى** ثم بعد ذلك إلى **بيروجيا** سنة ١٣٠٤م[٣]. ويقال أنه عندما استقر البابا كليمونت الخامس فى أفجنون أعاد المكتبة والأرشيف إلى أفجنون مرة ثانية. ولكن الأرشيف وحده هو الذى وضع فى قصر البابوية الجديد، واستمرت المكتبة فى مكانها القديم فى رأى بعض الكتاب. وكانت مجموعات المكتبة (بونيفاتيانا) سنة ١٣١١م وهى فى بيروجيا تبلغ ٤٣٠ مخطوطة وبقيت فى أسيسى. وكان مقر هذه المكتبة فى كنيسة سانت فرانسيس. وبعد إعداد العديد من الفهارس لها فى ١٣٢٣، ١٣٢٧، ١٣٣٩، أهملت المكتبة ونسيت وبدأ البابوات فى أفجنون فى إعداد مكتبة جديدة هناك. ويقال أن البابا **أوربان الخامس**[٤] قسم البقية الباقية من كتبها بين الكنائس فى روما. ولعله من نافلة القول أن مجموعة مكتبة بونيفاتيانا كلها كانت حديثة لا تتجاوز القرن الذى عاشت فيه المكتبة وهو القرن الثالث عشر ولم يصلنا منها شئ تقريباً.

أما المكتبة التى بدأت من جديد فى أفجنون وعرفت باسم (**مكتبة أفجنون**)[٥] فإنها قد نمت بسرعة مذهلة فى فترة قصيرة، وأصبحت فيها مجموعة بحثية كبيرة تضارع مجموعات كلية السوربون. وقد مد البابوات يد المساعدة لها وكان أبرزهم

(١) Lateran Library

(٢) Bonifatiana/ Boniface VIII

(٣) Anagni; Perugia

(٤) Urban V

(٥) Avenionensis

فى هذا الصدد:

جون الثانى عشر ١٣١٦-١٣٣٤

بندكت الثانى عشر ١٣٣٤-١٣٤٢

كليمونت السادس ١٣٤٢-١٣٥٢

جريجورى الحادى عشر ١٣٧٠-١٣٧٨

والحقيقة أن سجلات كنوز البابوية ووثائقها تمدنا بمعلومات خصبة عن المكتبة، استفاد منها **ف. إيرل** فى كتابة **تاريخ المكتبة القديمة والجديدة** على السواء(١)، ولكن من أسف يقف هذا التاريخ حتى سنة ١٣٧٥م. وكانت كنوز البابوية والمكتبة يعتبران عادة وحدة واحدة ولذلك وضعا معاً فى **برج الملائكة**(٢) من القصر المنيف الذى كان البابا يسكن فيه. وقد أعدت قائمة جرد للمكتبة سنة ١٣٧٧م أى قبيل عودة البابوية إلى روما مباشرة تحصر ١٦٧٧ مخطوطة. وقد تركت المكتبة فى أفجنون ولم تنتقل مع البابوات، ومن ثم بدأت يد الإهمال والعبث تمتد إليها وبدأت رحلة التشتت والبعثرة.

وكان الانشقاق على الكنيسة والذى انتهى بطيران **بندكت الثالث عشر** الأسبانى (**بيتر من لونا**)(٣) إلى أفجنون والهجوم عليها سنة ١٤٠٨م واستولى على جانب كبير من المخطوطات القيمة فى المكتبة وعاد بها إلى **قلعة تمبلار** فى **بنسكولا**(٤) على الساحل الشرقى لأسبانيا. ومن خلال الجهود التى بذلها الكاردينال **بيتر من فواكس**(٥)، أخذت هذه المخطوطات مع بعض الخسائر إلى تولوز سنة ١٤٢٩ ومنها إلى مكتبة **كولوبيرتينا** ١٦٨٠ نسبة إلى **جان بايست**

---

(١) F. Erhle/ Historia bibliothecae Romanorum pontificum tum Bonifatianae tum Avenionensis

(٢) Tour de Anges

(٣) Benedict XIII (Peter of Luna)

(٤) Templar fortress/ Pe´niscola

(٥) Peter of Foix

كولبيرت[1] (المتوفى سنة ١٦٨٣ والذى كان أمين المكتبة الملكية الفرنسية. وكانت مكتبته الشخصية تصل إلى أربعين ألف مجلد، اشترتها المكتبة الملكية سنة ١٧٣٢). والجزء الذى بقى من المكتبة فى أفجنون نقل إلى قصر بورجيز بروما على يد البابا بول الخامس ١٦٠٥-١٦١١. وهذا الجزء الذى بلغ نحو ٣٣٠ مخطوطة نقل إلى مكتبة الفاتيكان سنة ١٨٩٢. وقد وصلنا من مجموعات مكتبة أفجنون اليوم نحو ٤٠٠ مخطوطة من إجمالى ألفى كتاب كانت فيها مما يكشف عن المصير المؤسف الذى آلت إليه المكتبة. والمخطوطات التى وصلتنا مبعثرة الآن بين باريس، وروما وأفجنون نفسها.

أسبانيا

لم تقدم أسبانيا هى الأخرى بلاطات ونبلاء يهتمون بالكتب وينشئون المكتبات إلا فيما ندر.

ومن بين هؤلاء يذكر النبيل **الأرغونى فيرنانديز دى هيريديا**[2] المتوفى سنة ١٣٩٦م كبير فرسان سانت جون (**التمبلاريون**)[3] والذى كون مجموعة كبيرة من الكتب فى أفجنون ضمت فيما ضمت ترجمات للكلاسيكيات اليونانية واللاتينية. كذلك كان **إفيجو لوبيز دى مندوزا مركيز سانتيلانا**[4] من أهم جمّاعى الكتب فى أسبانيا فى القرن الخامس عشر. وقد كان يقتنى الكتب شراء ونسخاً من أسبانيا، فرنسا، إيطاليا، مما مكنه من تأسيس مكتبة عظيمة فى قصره فى **جواد الاجارا**[5].

انجلترا

كانت فرنسا بلا منازع هى أرض حب الكتب وجمعها رغم تدميرها بسبب حرب المائة عام، ولم تستطع انجلترا، الجزر المعزولة المحمية من أعدائها بالبحر، مجاراتها فى هذا الصدد.

(١) Colbertina (Jean Bapisle Colbcrt)

(٢) Fernández de Heredia (Aragon)

(٣) Templars

(٤) I´nigo Lopez de Mendoza (Morquis of Santillana)

(٥) Guadalajara

كان هناك اثنان من الأسرة الملكية الإنجليزية من أنجح جماعى الكتب وهما إبنا هنرى الرابع: جون دوق بدفورد ١٣٨٩-١٤٣٥، وهمفرى دوق جلوكستر ١٣٩٢-١٤٤٧م. وقد عرضنا من قبل للإبن الأول الذى استولى على مكتبة اللوفر والتى تبددت بعد وفاته. ومما يذكر عنه أنه عاشقاً للكتب الفرنسية. أما شقيقه الأصغر دوق جلوكستر فكان أكثر تقدماً فى تفكيره وكان قد تعلم فى جامعة اكسفورد واكتسب منها نظرة تقدمية إلى الحياة، وروح النهضة الحديثة ولم يترك تلك الفرصة تمر لاقتناص الكتب إلا ويغنمها، فجمع كميات كبيرة من الكتب. وقد قدم لجامعة أكسفورد نحو ٦٠٠ مخطوطة بين سنة ١٤١١ و ١٤٤٧ سنة وفاته بعضها من مكتبة اللوفر والبعض الآخر جمعه وكلاؤه الذين جابوا إيطاليا وفرنسا لهذا الغرض. ولم يكتف جلوكستر بهذه الهدية من الكتب وحسب بل بنى مدرسة اللاهوت على حسابه (١٤٣٠م) وحيث خصص الطابق الثانى ليكون مكتبة وكان لوفاة الدوق المبكرة أثر فى تعطيل إتمام بناء المكتبة التى تأخر افتتاحها ونقل مكتبة همفرى إليها إلى سنة ١٤٨٨م. وبعد أقل من قرن من الزمان تقريباً شكل الملك إدوارد السادس لجنة لتقييم مكتبة همفرى، وقد قررت اللجنة أنها مجرد مجموعات بابوية لاتستحق وفى سنة ١٥٥٥ تم التخلص من الكتب والأثاث. ولم يصل إلينا من مجموعات هذه المكتبة سوى ثلاث مخطوطات استخلصها **توماس بودلى**[١] فى المكتبة التى أسسها فى جامعة أكسفورد.

ولابد أن نذكر هنا أنه مهما كان مصير مكتبة همفرى فإنه كانت له علاقات جيدة مع امبراطورية القارة الأم: إيطاليا الجديدة فقد رعى الدوق كلاً من **ليوناردو أريتينو برونى** و **بيترو كاندينو ديسمبريو**[٢] اللذين كانا يترجمان عن

---

(١) Thomas Bodley

(٢) Leonardo Aretino Bruni; Pietro Candino Decembrio

اليونانية، كما موّل ترجمة بعض كتب بوكاتشيو التى قام بها **لودجيت**(١). وقد وصفه **آينياس سلفيوس بيكولوميني** (البابا بيوس الثانى فيما بعد)(٢) كأنه راعى الشعراء والباحثين. وقد كانت هديته إلى جامعة أكسفورد تضم العديد من كتب دانتى، بترارك، بوكاتشيو.

ألمانيا - البدايات

لم تظهر مكتبات أمراء أو بلاطات، أو نبلاء فى ألمانيا فى الفترة المدروسة إلا بعد منتصف القرن الرابع عشر. شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإيطاليين، وحيث كانت تلك المكتبات هى ثمرات للحركة الإنسية التى ظهرت آنذاك. ومن العبث البحث عن أصول أو جذور لتلك المكتبات فى القرن الثالث عشر. وكان لظهور الجامعات فى الولايات الألمانية المختلفة أثره فى دعم تلك المكتبات وتنمية مجموعاتها. ولم يحذ أحد من خلفاء شارل الرابع حذوه وانتهت رعاية الفكر فى لوكسمبورج بنهاية إبنه **فنكسلاوس**(٣). ولم يأت القرن الخامس عشر بمزيد من النبلاء الذين لهم اهتمام بالكتب والمكتبات.

كذلك فإن مكتبات البلاطات الملكية كانت مهملة منسية. وكانت مجموعات الكتب القيمة هى تلك الموجودة فى الأديرة والكنائس والكاتدرائيات ولدى جمَاعِّى الكتب خارج دائرة النبلاء والبلاطات. وربما كان الاستثناء الوحيد بين بيوت النبلاء هو عائلة **ويتلزباخ فى بلاتينيت**(٤). وقد كانوا متأثرين فى ذلك بنماذج من البلاطات الغربية والذين كانوا تربطهم بهم وثائق عائلية. ومهما يكن من أمر تلك النماذج فإن من الأوفق تتبع جذور حبهم للكتب فى تفتحهم الفكرى والذى جعل من دوقات البلاتين أنصاراً لحركة الإنسية.

والحالة الوحيدة التى سجلها القرن الرابع عشر للرعاية الفكرية فى شرقى

---

(١) Ludgate

(٢) Aeneas Sivius Picolomini

(٣) Winceslaus

(٤) Wittelsbachs of Palainate

أوربا حدثت سنة ١٣٥٣م عندما قام **لودفيج دوق بريج** ١٣٥٢-١٣٩٨م[١] بتمويل تأليف وإنتاج الكتاب المعروف باسمه (**أساطير لودفيج**)[٢]. وهذا المخطوط ينطوى على ستين صورة وقد أنتجه منسخ دير **بياريست**[٣] فى بوهيميا، وقدمه الدوق لكنيسة سانت هيدويج فى بريج التى أسست سنة ١٣٦٩. ونحن نعرف أنه كانت لدى هذا الدوق مكتبة خاصة من واقع الوصية التى تركها والتى تتحدث عن المخطوطات اللاتينية فى المكتبة تلك الوصية كتبت سنة ١٣٦٠م أى فى فترة مبكرة من حياته ولما كان الدوق قد عاش حتى سنة ١٣٩٨م فمن الضرورى أن تكون مكتبته قد نمت نمواً كبيراً فى غضون تلك الفترة.

شارل الرابع[٤]

كان شارل الرابع الامبراطور بين ١٣٤٧-١٣٧٨، أول امبراطور ألمانى بعد فردريك الثانى، وأول امبراطور يهتم إهتماماً حقيقياً بالكتب والمكتبات. ولقد بلغ نضجه الفنى فى باريس وأفجنون، وأثناء إقامته هناك جمع عدداً كبيراً من الكتب أحضرها معه إلى بوهيميا مملكته. وهنا أقام مدرسة لزخرفة الكتب على غرار المدارس الأجنبية التى شاهدها فى الغرب. وقدم المخطوطات التى جمعها لمكتبات الأديرة والكنائس فى براغ وإلى مكتبة الجامعة فى مملكته. ونحن لا نعرف الشئ الكثير عن مكتبته الشخصية والتى ربما تكون موجودة مع الأرشيف فى قصره فى **كارلستين**[٥]. لقد كان شارل الرابع ورئيس ديوانه **جوهان فون نيومارك**[٦] الذى أحاط نفسه بالناسخين والمزخرفين وكبير أساقفة براغ، **جوهان فون درازك**[٧]، الذى أهدى مجموعة كبيرة من المخطوطات جمعها من أفجنون إلى دير القانونيين النظاميين فى رودنتز؛ هؤلاء الثلاثة تشبعوا بالأفكار الجديدة التى

(١) Ludwig Duke of Brieg
(٢) Ludwig Legends
(٣) Piarist
(٤) Charles IV
(٥) Karlstein
(٦) Johann Von Neumarkt
(٧) Johann Von Drazic

جاءت إليهم عن طريق اتصالاتهم مع كلٍ من **كولا دي رَينزو**[1] وبترارك. وفى عهد ابن شارل المدعو فنكسلاوس المشار إليه سابقاً والذى أصبح امبراطوراً بين ١٣٧٨-١٤٠٠م كان هناك تحول قوى نحو الأدب الفرنسى. وقد آلت مكتبة فنكسلاوس ومن بينها كتاب **فيينا المقدس** الشهير، إلى أخيه **سيجيسموند**[2] وبعد وفاة سيجسموند باعتباره آخر آل لوكسمبرج آلت المجموعات إلى آل هابسبرج. وكان آخر عهدنا بها فى فينر - نيوشتادت سنة ١٤٥٥م[3].

هيدلبرج ـ لويس الثالث (أمير البلاتين)

كان لويس الثالث عمدة البلاتين بين سنتى ١٤١٠-١٤٣٦م، أول عمدة للبلاتين يقوم بتوسيع نطاق المكتبة الصغيرة التى ورثها على أسس علمية مدروسة. ونحن نستطيع أن نحكم بذلك بناء على القائمة الطويلة من الكتب اللاتينية التى قدمها لتكون فى مكتبة كنيسة الروح القدس سنة ١٤٢١ وسنة ١٤٣٨م لقد كان لويس الثالث شخصية وسيطية بمعني الكلمة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة ونستطيع استنتاج ذلك بوضوح من الكتب التى قدمها للكنيسة والتى تعكس المناهج والمقررات التى كانت تدرس فى الجامعة فى الفترة الأولى؛ حيث كان اللاهوت يحتل المرتبة الأولى فيها ثم القانون ثم الطب؛ وقد غابت الكلاسيكيات عن المجموعة تماماً. ولكن يبدو أن المجموعة التى قدمها للكنيسة كانت مجرد جزء واحد من مكتبته حيث أنه كان دائم السفر فى طلب الكتب ومن ثم فإنه قد جمع كتباً أكثر فى مجالات أوسع. ولقد توفر **بوتيريتش فون رايتشرتز هاوزن** البافارى على وصف مكتبة قصر لويس الثالث الخاصة حيث قال عنها إنها تضم عدداً لاحصر له من الكتب الألمانية.

---

(١) Cola di Rienzo

(٢) Sigismund

(٣) Wiener - Neustadt

وبعد لويس الثالث أصبح جمع الكتب عند حكام بلاتين عادة متأصلة تقليدية فيهم فهذا هو **فردريك المنتصر** ١٤٤٩-١٤٧٦م[١]، رغم الاضطرابات التى سادت عهده لم يتخل عن عادة جمع الكتب، تلك العادة التى لازمته منذ شبابه حيث كان يعشق قراءة الكتب الكلاسيكية. وتكشف وصيته الخاصة بكتبه (١٤٧٦) عن اهتمام خاص بكتب الحركة الإنسية والتى رعاها فردريك ممثلة فى قادتها الأول: **بيتر لودر و ماتياس فون كمنات**[٢] ومن بين كتب فردريك كان هناك ٢٠ فى الدين، ٤٥ فى الكلاسيكيات، ١٣ فى الفنون، و٦ فقط باللغة الألمانية. وكانت الكتب المطبوعة ماتزال نادرة - ١٩ فقط - وكانت الغلبة لمخطوطات الرقوق والندرة للورق حيث بلغت الرقوق ٤٢ مخطوطة. ومكتبة فردريك هذه تعكس التناقض بين الرغبة فى الأدب الرفيع للبلاط الأميرى والعلم العميق الجامعى الذى ظل متأصلاً فى الجامعة لفترة طويلة تالية.

ويتضح التناقض بين الجامعة والبلاط الأميرى على أشده فى عهد **فيليب المخلص**[٣] ١٤٧٦-١٥٠٨م الذى جعل من بلاطه مركزاً **للفكر الإنسى الألمانى**. ولذلك كانت مكتبة الأمير أقوى ماتكون فى الأدب الألمانى. ولذلك تدين إمارة البلاتينيت بكنوزها إلى فيليب هذا تلك الكنوز التى تمثلها المخطوطات الألمانية من العصور الوسطى. كما كان له الفضل أيضاً فى جمع مجموعة نادرة من المخطوطات الفرنسية المحفورة. وكانت مكتبة القصر فى **قصر يوتنبول**[٤] هى القرين الألمانى للمكتبة الفرنسية والمكتبة البيرجندية. وقد ظلت هذه المكتبة قائمة حتى موعدها المحتوم سنة ١٦٢٣ حين خربت، رغم أن الكونت **أوتنريتش**[٥] كان قد قدم جزءاً منها إلى مكتبة الإمارة فى كنيسة الروح القدس.

(١) Frederick, the Victorius

(٢) Peter luder; Mathias Von Kemnat

(٣) Philip, the Sincere

(٤) Juttenbühl

(٥) Otteinrich

ميختلدة أميرة بلاتين[١]

ورثت ميختلدة (١٤١٨-١٤٨٢) عن أبيها لويس الثالث حب الكتب والاهتمام بالمكتبات وكانت هذه الشخصية الجامعة التى ساهمت فى إنشاء جامعتى فرايبورج ١٤٥٧، توبنجن ١٤٧٧م، هى أرملة الأرشيدوق ألبرت الرابع (المتوفى سنة ١٤٦٣م) لها صالون أدبى فى قصرها فى **روتنبورج - على - نيكر**[٢]. وكان بيتها مركز حياة فكرية مزدوجة: من ناحية لشعراء الفروسية المتميزين ومن ناحية ثانية للقصاصين الفرنسيين وقصاصى القصص القصيرة من الإيطاليين. وقد أسبغت رعايتها على: قصاص البلاط **هيرمان فون ساكسنهايم**[٣] والمترجم إكليرى مدينة هيدلبرج **نيكلاس فون فايل**[٤]. كما أضفت الرعاية على كاتبى القصص القصيرة الإيطاليين وعلى قسيس القصر **أنطونى من بفور**[٥] الذى ترجم كتاب بيديا (**كليلة ودمنة**)[٦] وهو كما نعلم مأخوذ عن النص الهندى، مجموعة من القصص والخرافات التى تدور على ألسنة الحيوانات والطيور. وتشتمل مكتبتها على عدد من الترجمات للقصص الفرنسى التى كانت فى ذلك الوقت القراءات المفضلة لدى الطبقة الراقية فى المجتمع فى منتصف القرن الخامس عشر. ولأنها كانت تريد توسيع مجموعاتها من الكتب عمدت إلى تنظيم عمليات مبادلة مع جمَّاع الكتب البافارى جاكوب بوتريتش ريتشرتز هاوزن، سابق الذكر والذى عرفت عنه جمعه لمجموعة طيبة من كتب الفروسية. وكانت هناك رسائل متبادلة بينهما فى هذا الخصوص ولكن لم تصلنا وثائق التبادل نفسها كما أننا لم نعرف مصير مكتبة هذه الأميرة.

---

(١) Michthild

(٢) Rottenburg -on-the- Neckar

(٣) Hermann Von Sachsenheim

(٤) Niklas Von Wyle

(٥) Anthony of pforr

(٦) Directorium humanoe vitae

الكونت إيبرهارد إم بارت[1]

إيبرهارد إم بارت (١٤٤٥-١٤٩٦) هو ابن ميختلد وقد حذا حذو أمه فى رعاية الفنون والآداب. وكانت له مكتبة عظيمة وشعاره على كتبها كلمة **«حاول»**[2] بيد أن هذه المكتبة قد تبددت ولم تصلنا معلومات عن حجمها. ولم يصلنا منها سوى سبعة عشر مخطوطة معظمها ترجمات. وما وصلنا يكشف عن أن صاحبها كان شخصاً متعدد الإهتمامات بصرف النظر عن جهله باللاتينية. من جهة ثانية فإن الوثائق التى تحت أيدينا لاتكشف إلا عن القراءات الترويحية والترفيهية لوالدته ميختلد. من بين المخطوطات التى وصلتنا عن إيبرهارد هناك أربعة كتب قصص ألمانى، وكتاب الصلاة المصور الخاص بالأمير، وترجمة كتاب بيديا الفيلسوف. وقد قال المؤرخ الحولى الأسوابى: **جوهان نوكليروس**[3] وهو معاصر للأمير إيبرهارد: «لقد بحث عن وقرأ كل الكتب المكتوبة باللغة المحلية، إضافة إلى ذلك موّل ترجمة كثيراً من الكتب الممتازة من اللاتينية إلى الألمانية».

ميونيخ وفيتنبرج[4]

لم يكن هناك بين آل ويتلزباخ البافاريين من يقارن فى جمع الكتب بفرع آل بلاتينيت من نفس العائلة. وينطبق ذلك الحكم أيضاً على **ألبرت الرابع، العاقل** ١٤٦٥-١٥٠٨م[5]، رغم أنه كان فى بلاطه ابوتريتش فون ريتشرتزهاوزن[6]، سالف الذكر **وأولرخ فيوترر** آخر المشتغلين بجمع الأدب فى العصور الوسطى. وهذا الأخير جمع كل قصص آرثر فى مجلد ضخم يدور حول قصص المغامرات (١٤٩٠). وهذا المخطوط، رغم وجوده فى مكتبة الأمير (وهو الآن فى مكتبة ولاية ميونيخ) إلا أنه لم يضف عليها أهمية خاصة لأن هذه المكتبة عموماً ليست

---

(١) Count: Eberhard im Bart

(٢) Attempto

(٣) Johannes Nauclerus

(٤) Munich; Wittenberg

(٥) Albert IV, the Wise

(٦) Ulrich Füetrer

مؤثرة ولا تعتبر امتداداً للمكتبة الدوقية، أو سلفاً صالحاً لمكتبة الدوق ألبرت الخامس دوق النمسا التى أسسها فيما بعد. وليس هناك أى دليل على أن ألبرت الرابع كان جمّاعا منهجياً للكتب.

وفى شمالى ألمانيا لم يكن أمراء ساكسونيا بجمّاعين مهرة للكتب، ولم يكونوا يبدون بها إلا اهتماماً طفيفاً بجمع الإنتاج الفكرى الألمانى. وفى سنة ١٤٣٧م كانت مكتبة قصر الإمارة فى فتنبرج تضم فقط واحداً وثلاثين كتاباً ألمانياً صفت فى خزانتين. وهذه المكتبة كانت نموذجًا لما كانت عليه مكتبات الأمراء فى ذلك الوقت سواء من حيث الكم أو الكيف أو الأهمية.

آل هابسبرج الأوائل

فى ثلاثة مناسبات متفرقة تزوج ثلاثة من حكام بابنبرج النمساويين ثلاث زوجات من بين نبيلات البلاط البيزنطى. ومن هنا ربما يرجع التأثير البيزنطى على تصوير الكتاب النمساوى والذى يمكن تتبعه من خلال الكتب التى جاءت بها وصيفات الأميرات معهن من بيزنطة إلى البلاط النمساوى.

ونحن لا نعرف حقيقة ما إذا كانت هناك كتب فى خزائن آل بابنبرج على زمن **ليوبولد السادس** دوق استريا والنمسا (المتوفى سنة ١٢٣٠م)، تلك الخزائن التى كانت موجودة فى قلعة **استارهمبرج**(١) والتى كان يحرسها فرسان الطائفة التيوتونية. ولكننا نعرف أن القصة الشعرية عن **النبالة**(٢) كانت قد وضعت فى النمسا حول ١٢٠٤م على يد شاعر مرتبط ببلاط الدوقات فى فيينا وباساو. كذلك نعرف أن الدوق ليوبولد السادس نفسه كان مغنياً وراعياً للمغنين الفرسان والشعراء فى عصره. وكانت له كتب ولكن لم يصلنا منها شئ. كذلك لم تصلنا أية معلومات عن مجموعات كتب لآل هابسبرج فى زمن سابق.

أما فيما يتعلق بالملك ألبرت الأول ١٢٩٨-١٣٠٨م فقد ذكر أن الأب **إنجيلبرت من أدمونت** والذى أعد العديد من الكتب قد أعد كتاباً فى مبادئ

(١) Starhemberg

(٢) Nibelungenlied

الأخلاق[١] لتأديب أبناء الملك، وقيل أن ثمة مخطوطة نمساوية عبارة عن حولية في دير الكارثوزيين فى جافنج وجد عليها جملة «هذا الكتاب يخص أ [لبرت] ملك الرومان». ويرى كارل كرست أن ذلك المخطوط والجملة يرجع إلى الملك ألبرت الثانى ١٤٣٨-١٤٣٩ وليس ألبرت الأول.

وهناك من الأدلة ما يشير إلى وجود مكتبة لدى الأميرة **أجنيس**[٢] أخت فردريك العادل، أرملة الملك المجرى **أندرو الثالث** وكان لها بلاط صغير فى كونجسفلدن في منطقة آرجاو سنة ١٣٠١. كما يذكر أن أوتو المرح[٣]، أحد أشقاء فردريك العادل الذى فضل أن يعيش فى منطقة استيريا، كان راعياً للشعر النمساوى وقد أهدى إليه كتاب عن فنون الحرب لم يعرف مؤلفه.

وكان إنشاء جامعة فيينا على يد **رودلف الرابع**[٤] حدثاً بالغ الأهمية فى تاريخ الكتاب النمساوى والمكتبة النمساوية. وكان هناك فى فيينا اهتمام عريض بالعلوم الطبيعية، وحيث عمل هناك **كونراد من ميجنبرج**[٥]، أول مؤلف لكتاب عن التاريخ الطبيعى باللغة الألمانية، في الفترة بين ١٣٣٧-١٣٤١.

وكان أول جمَّاع كتب يخرج من بيت هابسبرج هو الدوق ألبرت الثالث ١٣٦٥-١٣٩٥ والذى أنشأ حدائق للحيوان والأسماك في مدينة **لاكسنبورج** سنة ١٣٧٧م[٦]. وكان ألبرت نفسه ذا شغف بالزراعة وعلومها واهتم اهتماماً بالغاً بعلم النبات. وقد وضع كتاباً عن جهود **بالاديوس**[٧] (من القرن الرابع الميلادى) فى علم الفلاحة باللاتينية وترجم إلى الألمانية بيد أن تلك الترجمة الألمانية لم تصلنا. وقد وصلنا نسخة من الإنجيل المكتوب بماء الذهب ومصورة تصويرا

---

(١) Speculum Virtutum

(٢) Agnes

(٣) Otto, the Merry

(٤) Rudolph IV

(٥) Conrad of Megenberg

(٦) Laxenburg

(٧) Palladius

رائعاً، هذه النسخة أنتجت لحسابه سنة ١٣٦٨ على يد **جوهان فون تروباو**[١] القانونى فى كنيسة **برون** و **باستور من لانكسكرون**[٢]. وحوالى نفس الوقت كان **ليوبولد شتينرويتر**[٣]، يترجم كتاب **وليام دورانتى فى العلم الإلهى**[٤] وكتاب **كاسيودوروس** عن **التاريخ الثلاثى**[٥] إلى اللغة الألمانية أيضا لحساب الدوق. وفى كتاب دورانتى نجد صوراً شخصية للدوق وأربعة من الشمامشة من جامعة فيينا. ونزولاً على رغبة الدوق قام **هنريتش من لانجنشتين**[٦] بترجمة العديد من الرسائل التى ألفها باللاتينية إلى الألمانية، كما ترجم عديدون آخرون كتبًا متنوعة. كذلك هيأ ألبرت الثالث المناخ الملائم لإنشاء ورشة لتجليد وزخرفة المخطوطات فى البلاط الملكى فى فيينا.

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية بخيلة فى معلوماتها عن مكتبات آل هابسبرج الأوائل، إلا أن المرء يتوقع أن تكون تلك المكتبات من حجم معقول. أما الدوق ألبرت الخامس الذى أصبح فيما بعد الملك ألبرت الثانى فقد موَّل إنتاج كتاب صلاة غالى الثمن لنفسه كما موَّل تأليف كتاب صغير عن تاريخ الأباطرة والملوك الرومان توفر على تأليفه له **ديتريتش من نيهايم فى ماريازيل**[٧]. وكلا الكتابين وصلا إلينا. ومن المحتمل أن يكون الملك ألبرت هذا هو المقصود بالإهداء الذى ورد فى الترجمة الألمانية لكتاب **جايلز الرومى عن أصول الحكم**[٨] والذي أنتجه جوهان جلاتز من لنجنلوار سنة ١٤١٢م. كذلك كان ألبرت يتلقى الهدايا العديدة من المخطوطات الفاخرة من جانب آل لوكسمبورج بعض هذه الهدايا موَّلها ملك بوهيميا فنكسلاوس الرابع ١٣٧٨ ـ ١٤١٩ عندما كان ملكًا

---

(١) Johann von Troppau

(٢) Pastor of Lankskron

(٣) Leopold Steinreuter

(٤) William Duranti/ Rationale divinorum

(٥) Cassiodorus / Historia tripartita

(٦) Heinrich of Langenstein

(٧) Deitrich of Nieheim, Mariazell

(٨) Giles of Rome / Deregimine principum

لألمانيا باسم فنكسلاوس الأول ١٣٧٨ - ١٤٠٠م. وكثير من هذه المخطوطات مثل نسخة الكتاب المقدس المصور الخاص بالملك فنكسلاوس موجود الآن فى مكتبة فيينا الوطنية.

وفى سنة ١٤٥٥ طلب ابن ألبرت الثانى المدعو **لاديسلاوس بوستوموس**[١] من الأمبراطور فردريك الثالث الوصى عليه أن يعيد المخطوطات المائة وعشرة التى نقلها من فيينا إلى فينر - نيوشتادت. وكان من بين هذه الكتب مخطوطات عبرية قيل إنها تساوى ٣٠٠٠ جولدن، كان أبو لاديسلاوس قد حصل عليها سنة ١٤٢٠ خلال فترة اضطهاد اليهود.

وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن الامبراطور فردريك الثالث هذا كانت لديه مكتبة كبيرة كان يضع على كتبها علاماته وهى الحروف المتحركة فى اسمه. وقد وصلنا من كتبه نحو ستين مخطوطة. وكان هذا الامبراطور يعتبر كتبه جزءاً من الكنوز لا ينبغى التفريط فيها. ومن هنا يمكن أن نعتبر تلك المكتبة بداية وسلفاً لمكتبة البلاط فى فيينا والتى أسسها فيردناند الأول سنة ١٥٢٦.

وفى سنة ١٤١٠ قام **فردريك الرابع من تايرول**[٢] والمذكور سابقا عند حديثنا عن مجلس كونستانس، قام بشراء المكتبة الخاصة لأسقف تايرول جورج فون ليختشتاين، كان من بينها كتاب عن الأعشاب الطبية فيه صور ملونة لها، إضافة إلى كتب فى الفلسفة واللاهوت أما **سيجموند الغنى**[٣]، دوق تايرول فإنه يستحق مكانه بين الأبطال الألمان. لقد تأثر الرجل بفكر الإنسيين العلماء من أمثال آيناس سلفيوس، جوهان فوخزماجن وغيرهما. لقد أهدى **هنريتش من شتينهويل**[٤] ترجمته لقصص آيسوب إلى سيجموند، كما قام كل من **ألبرت من بونستيتن وهنريتش من جوند يلفنجن** بإهداء أعمالهما التاريخية إليه.

---

(١) Ladislaus Posthumus

(٢) Frederick IV of Tyrol

(٣) Segmund the Wealthy

(٤) Heinrich of Steinhowel

لقد كانت **إليانور الاسكتلندية** شريكة سيجموند والتى أهدى إليها هنريتش من شتينهويل سابق الذكر ترجمته لبعض كتب بوكاتشيو، كانت هى نفسها مترجمة للقصص الفرنسية. وقد توفر الناشر الطابع **جوهان شونزبيرجر** على نشر بعض أعمالها المترجمة ١٤٨٥ ـ ١٤٨٨م. كما قام سيجموند بتبادل الكتب مع ألبرت دوق بافاريا. وتشير الوثائق إلى أن باعة الكتب فى أوجزبرج ومن بينهم كايستلين وبريمائير باعوا كتبًا مطبوعة إلى بلاط دوق تايرول.



الفصل السادس

المكتبات الخاصة فى العصور الوسطى المتأخرة

تواكب مع ظهور المكتبات الجامعية ومكتبات البلاطات ظهور المكتبات الخاصة بالمواطنين كنوع متميز من المكتبات. وقد تطورت هذه المكتبات بشكل نمطي وجاءت جذورها من ظهور تلك الطبقة المثقفة المتعلمة المتحررة من كل قيود الرهبنة والحياة الديرية بل والكنسية، وخرجت من بين الناس العاديين شريحة من الأشخاص التى تهتم بالإنتاج الفكرى وتقدر قيمة الكتب وترغب فى تملكها. وقد وصلتنا سجلات عديدة من نهاية العصور الوسطى عن مكتبات خاصة ملك للأفراد وتزداد هذه السجلات فى القرن الخامس عشر على وجه الخصوص. هذه المكتبات الخاصة كما أنها تهمنا فى دراسة تاريخ المكتبات فإنها بذات أهمية أيضا وربما أكثر لتاريخ الثقافة فى الغرب وتاريخ الأدب، ذلك أن تلك المكتبات قد تنوعت تنوعًا كبيرًا بحكم اختلاف الأشخاص الذين كونونها، وهم بطبيعة الحال يختلفون فى ظروفهم وميولهم واهتماماتهم ومواقف كل منهم. ومن جهة أخرى فقد كانت فترة حياة هذه المكتبات الخاصة قصيرة مرتبطة بحياة أصحابها أو تدمج أثناء حياتهم فى مجموعات أكبر، ولم يصلنا من غالبيتها سوى قطع محدودة. ونظرًا لكثرة هذه المجموعات الخاصة فقد يكون من المفيد أن نلقى الضوء على نخبة منها لصعوبة الحصر وعدم جدواه. ونراعى فى هذه النخبة من المكتبات أن تكون ذات فلسفة معينة فى جمعها متوازنة زمنياً بقدر الإمكان.

أولاً: فى فرنسا وانجلترا وإيطاليا

ريتشارد دى فورنيفال ١٢٠١ ـ ١٢٦٠[١]

كان الإكليريون فى بداية أمر الكنيسة ولمدة طويلة ينكرون حق تملك الكتب على النحو الذى بسطنا جانبًا منه فيما سبق، رغم أنهم كانوا باحثين وعلماء ومفكرين. هؤلاء الإكليريون هم أنفسهم عندما نشأت الجامعات نشدوا الحرية

(١) Richard de Fournival

الفكرية فيها واشتركوا فى عملية التعليم والدراسات الجامعية. وكان من بين الأوساط الجامعية فى السوربون (باريس) الباحث ريتشارد دى فورنيفال، الإكليرى الذى عمل فى ديوان الكاتدراتية فى **أمينز**[١] اعتباراً من ١٢٤٦م. وكان أيضا شاعراً ينظم الشعر الرمزى الكلاسيكى الشائع آنذاك. والكتاب الذى حقق له مكانة رائعة فى تاريخ المكتبات فى العصور الوسطى والذى كتب بأسلوب أدبى رفيع هو: **ريتشارد جماع الكتب رئيس ديوان كاتدراتية أمبيان**[٢]. وفى هذا الكتاب يصف المكتبة التى أنشأها ابن من أبناء أمينز ـ ربما كان هو نفسه ـ وذلك لخدمة طلبة المدينة وقرائها. الحديقة التى يجد الزوار فيها أنواعاً مختلفة من الفواكة. وهذا الكتاب هو دليل إلى الإفادة من المكتبة. هذا الدليل يقود الزائر فى الحديقة من خلال ثلاثة مداخل: المدخل الأول خاص بعلوم **الفلسفة** والمدخل الثانى خاص **بالطب والقانون** والمدخل الثالث خاص **باللاهوت**. وداخل كل منها مناص وضعت عليها المخطوطات. وعلى كل مخطوط سجل رقم الطلب الخاص به وهو عبارة عن حرف يحدد القمطر الخاص به. وكل مجال من المجالات الثلاثة له حروفه الخاصة ومع ذلك فالحروف الأربع والعشرون لم تكن تكفى لتسجيل هذه الكمية الكبيرة من الكتب ولذلك كان على مكتبة العصور الوسطى أن تستخدم تركيبات من الحروف أو تضيف علامات أخرى إليها.

ولكن مؤلف الكتاب (جمع الكتب) طور طريقة جديدة لتكعيب الكتب: لقد استخدم الحروف بأشكالها المختلفة: كبير، صغير، أونسيال، نصف أونسيال، مضلع، مدور... كما ميز بين المجالات المختلفة بالألوان فبالنسبة للفلسفة التى كان فيها الجزء الأكبر من الكتب استخدم الألوان الزاهية ـ الأزرق ـ البنفسجى ـ الأحمر ـ الأخضر. واستخدم للطب والقانون الفضى واستخدم للاهوت اللون الذهبى.

لقد كان تصنيف هذه المكتبة أيضا مبتكراً ابتكار التكعيب وبنى كلية على أسلوب استرجاع الكتب فى ذلك الوقت فقد جرت العادة أن يبدأ بالكتاب

---

(١) Amiens

(٢) Bibliomania magistri Richardi, cancellari ecclesiae Ambianensis

المقدس ثم شروحه ثم كتابات آباء الكنيسة ثم المدرسين وينتهى التصنيف عادة بالكتب العلمانية. ولكن ريتشارد بدأ فى تصنيفه بالفلسفة التى ضمنها فى تصنيفه **الثلاثى والرباعى**(١) وباعتباره من الأرسطيين فقد ضمن فى تصنيفه الموضوعات الضيقة مثل الطبيعة، وما وراء الطبيعة والأخلاق ثم تابع بعد ذلك تقسيمه للمعرفة فوضع الطب ثم القانون بفرعيه: الكنسى والعلمانى ثم أخيراً تاج الحكمة كما يسميه: اللاهوت. وربما يكون ريتشارد قد بنى تصنيفه هذا على الخطة التى أقامها إيزيدور الإشبيلى سابق الذكر فى كتابه «**علم الاشتقاق**»(٢) والذى نظر إليه على أنه «قانون» فى العصور الوسطى، وربما يكون ريتشارد قد تأثر بالاتجاهات الحديثة لحركة البحث العلمى باعتباره شخصاً متعدد المواهب والميول، وربما يكون قد بنى نظامه وهذا أقرب للواقع على طريقة التدريس الأكاديمية فى الجامعات الجديدة آنذاك. وأيًا كان الأساس الذى استقى منه ريتشارد تصنيفه للكتب فقد وضع أول خطة منهجية محددة لترتيب الكتب فى المكتبة.

وبعد أن شرح ريتشارد خطة التصنيف فى كتابه سجل كتب الفلسفة والطب البالغة ١٦٢ كتابًا بينما لم يسجل من كتب القانون واللاهوت إلا تلك المتعلقة بعلم التصنيف. ومن المؤكد أن حجم المكتبة كان ضعف العدد المسجل فعلاً على الأقل.

يقول **ديليزل**(٣) بأن مكتبة أمينز لم تكن لها أساس من الواقع وإنما كانت من خيالات ريتشارد وأحلامه ومثله العليا التى كان يرغب فى تحقيقها. وأن ما قام به هو مجرد تجميع ببليوجرافى بدليل أنه أدرج كثيراً من كتب المعارف العامة والمجاميع وأن المخطوطات نفسها، لم تكن فعلا مجمعة فى مكان ما على هيئة مكتبة. إلا أن **بيركنميجر**(٤) قد دحض كلام ديليزل من أساسه وأثبت أن

(١) Trivium, quadrivium

(٢) Etymologia

(٣) De lisle

(٤) Birkenmajer

مجموعة مخطوطات هذه المكتبة قد ضمت إلى مكتبة السوربون كجزء مما ورثته هذه المكتبة من **جيرارد دابفيل** (المتوفى ١٢٧٢)[١] غريم توما الإكوينى وقد تم تسجيلها فى فهرس السوربون لسنة ١٣٣٨م وكثير من هذه المخطوطات الآن موجود فى المكتبة الأهلية فى باريس.

كذلك يؤكد كارل كرست على أن كتاب (جمع الكتب) يصف فعلاً مكتبة كانت موجودة أقامها ريتشارد بنفسه وبعد وفاته آلت إلى جيرارد المذكور ومنه تسربت إلى السوربون وكانت تمثل جزءًا هامًا من مقتنيات تلك المكتبة.

ريتشارد دى بيرى ١٢٨٧ - ١٣٤٥م[٢]

إن كتاب (**أسماء الكتب**)[٣] الذى وضعه ريتشارد دى فورنيفال لم تصلنا منه سوى نسخة وحيدة فى حالة سيئة نسخت فى القرن الخامس عشر، وقد بقيت مطمورة إلى أن أعيد اكتشافها فى القرن التاسع عشر. على العكس من قرينه الذى وضعه ريتشارد دى بيرى بعنوان (**جماع الكتب**)[٤] ذلك الرجل الإنجليزى الذى أشرنا إليه من قبل والذى جاء بعد دى فورنيفال بقرن من الزمان وقد ذاع صيت هذا الكتاب واحتل مكانته اللائقة بين الانتاج الفكرى العالمى وأعدت منه نسخ كثيرة ضمنت له الاستمرار عبر القرون لما تضمنه من دفاع مقنع عن جنون جمع الكتب. فقد وصلنا من هذا الكتاب ٤٦ مخطوطة من العصور الوسطى وثلاث مهاديات (أوائل المطبوعات) وخمسة نسخ مطبوعة قبل ١٧٠٣م. كما صدرت منه سبع طبعات جديدة اعتباراً من ١٨٥٦م وهناك عدد من الترجمات لهذا الكتاب فى لغات عديدة.

الحقيقة أن ريتشارد دى بيرى كجامع للكتب مثال يندر أن يتكرر. ولقد كان لجاذبيته الشخصية التى لا نظير لها فى العصور الوسطى أثرها فى الطابع المتجدد

(١) Gerard d' Abbeville
(٢) Richard de Bury
(٣) Biblionomia
(٤) Philobiblion

الذى اصطبغ به كتابه مما يجعل قراء اليوم يستمتعون به ويقبلون عليه. وكما يقول بعض الكتاب إن هذا الكتاب هو الأغنية الكبرى فى عشق الكتب عبر القرون.

ولد ريتشارد فى **بيرى سانتى ادموندز**(١) وهو ينحدر من آل **أونجرفيل**(٢) الذين قدموا إلى انجلترا مع **وليام الفاتح**(٣)، وتلقى تعليمه فى عمل القساوسة فى أكسفورد. وقد كلفه الملك إدوارد الثانى بتعليم وريث الأسرة المالكة. وعندما اعتلى ذلك الطفل العرش باسم إدوارد الثالث سنة ١٣٢٧م عين أستاذه السابق أسقف ديرهام ١٣٣٣م وبعد ذلك بقليل أصبح رئيس الديوان وحامل الختم الكبير، وامتلأت سنواته التالية بالكثير من البعثات الدبلوماسية التى أخذت الأسقف إلى أفجنون، باريس، الأراضى الواطئة، اسكتلنده، ألمانيا. أما سنواته الأخيرة فقد قضاها فى ديرهام يمارس طقوسه الدينية ويقرأ كتبه التى جمعها ويستمتع بصحبة الأصدقاء العلماء.

وفى زياراته إلى أفجنون بين ١٣٣١ و ١٣٣٣ عرف ريتشارد : بترارك وهو لقاء بين عصرين، فالرجل الإنجليزى ينتمى إلى العصور الوسطى والدراسات الرصينة، بينما كان بترارك يحتقر علوم العصور الوسطى واتخذ سبلاً جديدة إلى العلم والبحث، يضاف إلى ذلك الخلاف فى المواقف الاجتماعية فأحدهما دبلوماسى وإكليرى فى أعلى المناصب والثانى كان ما يزال رجل أدب مغموراً، يعمل فى دار مجلس الشيوخ. . وهكذا لم تتطور علاقة صداقة بينهما ولم نعرف عن مقابلاتهما إلا من خلال كتابات بترارك فقط. وفى نفس الوقت كانت اهتمامات بترارك منصبة فقط على أقصى شمالى الجزيرة. وقد انحصرت علاقة دى بيرى به فى طلب كتبه أو تأمين كتب له من إيطاليا. ومهما يكن من أمر فإن ريتشارد دى بيرى كان معجباً بـ «بترارك». وكان ريتشارد يشارك بترارك فى التدقيق الشخصى وقوة الملاحظة، والسيرة الذاتية واتفقا على نقطة واحدة على

---

(١) Bury st. Edmunds

(٢) Aungerville

(٣) William the Conquerar

الأقل هى العاطفة الجياشة نحو الكتب رغم أنه كانت لكل منهما نظرة خاصة إليها. كان بترارك إنسيًا متأثرًا بالقدماء وكانت الكتب بالنسبة له المعبر الذى عن طريقة تتصل أرواح القدماء وعلومهم بالحاضر. لقد كان متذوقًا للجمال استوت عنده محتويات الكتب، وخطوطها وزخارفها طالما اتسمت بمسحات الجمال المطلوبة، بينما كان ريتشارد مجرد جمّاع نهم للكتب يهمه فقط جمع أكبر عدد منها بصرف النظر عن محتوياتها. وهو يكشف عن عقلية كنسية صحيحة كانت الكلاسيكيات بالنسبة له لا تعنى شيئًا كثيراً ولم يكن الشكل الخارجى للكتب مما يسترعى اهتمامه كثيرًا وإنما كان يجمع ما يصادفه، وأكثر من هذا كان ضد المبالغة في زخرفة الكتب والمبالغة فى تصويرها وإثقال جلودها بالأشغال المعدنية. وكان يرى أن اللغة وشكل التعبير هى مرآة للمحتويات ومن أقواله: خصوبة الكتاب اللاتين، المنطق الواضح للإيطاليين، الأسلوب المزدحم السقيم للإنجليز. وقد سبق أن عرضت أراء كثيرة له فى الكتب من قبل.

وكان ريتشارد فى نظر معاصريه رجل دولة من الطراز الأول ولم يكونوا على وعى بملكاته الفكرية وعاطفته تجاه الكتب ولذلك كانوا يتعجبون من الكمية الكبيرة من الكتب التى جمعها. وقد قرر بترارك «أنه ما من أحد جمع كتبًا قدر ما جمع». والنص الذى ساقه **وليام دى شامبر**(١) مؤرخ ديرهام عن ريتشارد يقول:

«إنه يملك من الكتب أكثر مما جمع أساقفة انجلترا جميعا. فإلى جانب تلك الكتب التى وزعها فى بيوته المتعددة هناك أكوام منها جمعها هو وحاشيته خلال رحلاته المتعددة وضعت فى حجراته المختلفة بحيث لا يستطيع الداخل إليها أن يشق طريقه فيها أو حتى يجد مكانًا يقف فيه. إنه يجد سعادته البالغة وابتهاجه فى أكوام الكتب الكثيرة».

وفى سنة ١٥٠٠م - أ ى بعد وفاته بأكثر من قرن ونصف - وصفه تريتموس بأنه «أشهر جمّاع وحيد للكتب فى كل العصور ».

William de chambre (١)

ولأن جمع ريتشارد للكتب جاء من عاطفة داخلية غير مرئية بالنسبة للناس فقد ألصقت به تهم كثيرة فقد وسمه **آدم موريموث**[1] الراهب السسترى (المتوفى سنة ١٣٤٧) بأنه أسقف علمانى حاز أهميته من طموحه ومساندة الملك له وبسبب مبالغته فى اقتناء الكتب مات فقيراً معدماً. واستمر موريموث يقول بأن السبب الرئيسى الذى من أجله جمع ريتشارد كل هذه الكتب التى لم تكن تكفى لحملها خمس عربات هو هبوط مستواه **الفكرى**[2] ومحاولته الظهور أمام الناس بأنه عالم كبير وباحث. ولم يكن كتاب ريتشارد (جماع الكتب) دفاعاً عن حبه الغريب للكتب وغرامه بها والذى لم يكن توقفه الفيضانات أو الطوفان بل كان أيضاً إشباعاً لرغبة شخصية وتعبيراً عنها. وربما كان الجانب الخفى فى ضميره والذى يؤنبه على تبديد أمواله فى جمع الكتب هو الذى دفعه إلى كتابة هذا الكتاب. وهذا التأنيب والشعور بالذنب نجده شائعاً فى مرحلة الانتقال هذه فهذا هو بترارك يسجل شكوكه حول الكتب والتأليف ويقول ألم يكن من الأوفق البحث عن الله فى مظاهر الطبيعة المختلفة بدلاً من البحث عنه فى ثنايا الروح المسجلة فى الكتب. وبوكاتشيو أراد أن يحرق كتاباته وكتبه جميعاً، تلك التى جمعها طول حياته.

لقد وجد ريتشارد الحل المثالى لمعاناته النفسية ووجد معنى وهدفاً لجمعه تلك الأكوام من الكتب تلك الهواية الوسيلة والغاية فى وقت واحد، هذا الحل هو أن ينشىء كلية فى جامعة أكسفورد ويقدم لها كتبه حتى يستخدمها الأساتذة والطلاب على الدوام وكان ذلك هو هم الأسقف العجوز فى ذلك الوقت. ووضع مجموعة من اللوائح أو لنقل القواعد للمكتبة بناها على تلك المتبعة فى السوربون. تلك القواعد كانت تحدد بالضبط واجبات أمين المكتبة وتحدد كيفية استخدام الكتب من جانب الطلاب ووضعت سياسة مرنة جداً للاستعارة على الرغم من أنه حرم نسخ الكتب.

ولكن الوفاة المبكرة التى حاقت به حالت دون تنفيذ مشروعه الكبير. وطبقا

(١) Adam Murinuth

(٢) Medioriter literatus

لما قاله موريموث فقد مات ريتشارد فى حالة من الفقر المدقع نتيجة إنفاقه كل دخله الكبير على شراء الكتب وعلى حياته العامة والخاصة. ورغم كل ذلك فإن مصير مكتبته العظيمة التى بلغت على الأقل ١٥٠٠ مخطوط غير معروف لنا. ولا نستطيع التعرف إلا على كتابين فقط من كتبه أحدهما موجود الآن فى مكتبة بودلى فى جامعة أكسفورد والثانى فى المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف). وهذا الأخير يحمل حواش تدل على أنه تم شراؤه سنة ١٣٤٥م على يد الأب فى دير سانت أولبانز من ناظر عزبة ريتشارد. وهذا الكتاب واحد من ست وثلاثين كتاباً حصل عليها ريتشارد من أحد الأبوات فى الدير فى مرحلة سابقة. بعضها بالشراء وبعضها بالإهداء.

جى دى بوشامب (- ١٣١٥م)[١]

كان جى دى بوشامب **إيرل وارويك** (المتوفى ١٣١٥م)[٢] واحداً من النبلاء الإنجليز الذين كونوا مكتبة خاصة جيدة وقد عثرنا على وثيقة إهداء منه إلى **دير بوردزلى فى وركسترشاير**[٣] لعدد ٤٢ مخطوطة ويحتفظ لنفسه في هذه الوثيقة بحق الاستعارة منها له ولذريته. وتتضمن هذه المجموعة كتاب أغانى من عصر شارلمان وكتب شعرية أخرى. وهناك نسخ من كتب كلاسيكية، تراجم القديسين وأعمال أخرى فى التعليم من بينها كتاب دراسى فى الفلسفة الطبيعية وآخر فى الجراحة وإذا حكمنا بمعايير الحياة الفكرية في ذلك الوقت فإن المجموعة تعتبر موضة قديمة وربما كانت تضم كتباً ورثها الإيرل عن أسرته والقائمة تكشف عن سيادة الثقافة الفرنسية فى انجلترا القرن الثالث عشر، وهى دليل حى على ذلك التأثير الفرنسى الذى نسى فى وسط الزحام. وهذه المكتبة الخاصة إنما تعبر عن تأثر النبلاء بالأمراء والبلاطات الحاكمة فى تكوين المكتبات.

(١) Guy de Beauchamp

(٢) Earl of warwick

(٣) Bardesley Abbey in worcestershire

رجال القانون الإيطاليون

كان على أساتذة الجامعة والوراقين فى الجامعات الإيطالية أن تكون لديهم كتبهم الخاصة. وفى جامعة بولونا كان **فرانسسكوس أكورسيوس** الذى وضع **شروحاً مستفيضة على مجموع القوانين**(1) قد جمع مكتبة شخصية هامة قوامها ٢٠٠ مخطوطة، كانت تعتبر فى وقتها من أهم المجموعات الخاصة فى العصور الوسطى. وبعد وفاته قسمها أبناؤه فيما بينهم. ونحن نعرف على وجه الدقة ماذا كان من نصيب **سيرفتو**. ذلك أن أخاه الأصغر **جوجللمو**(2) قد أقام دعوى فى المحكمة يطالب بنصيب أخيه سيرفتو فى الكتب وقوامها ٦٣ مخطوطة وكان قد أجرها لاثنين من الموثقين العموميين. وكان هذان الموثقان قد أعطيا هذه المخطوطات للنساخين لنسخ ملازم ونسخ منها وبالتالى أعطيا جوجللمو $\frac{٢}{٣}$ العائد من وراء المكسب.

ولقد وصلتنا معلومات أكثر عن مخطوطات العالم/ تاجر الكتب **مارتينو سوليمانى**(3) أكثر وراقى جامعة بولونا احتراما وكان أستاذاً للقانون فيها. وكانت مكتبته المتخصصة غالباً فى القانون قد بلغت خمسة وستين كتاباً فى سنة ١٢٨٩م، تضمنها سجل أعد فى تلك السنة.

ثانياً: فى ألمانيا:

هوجو فون ترمبرج ١٢٣٥ - ١٣١٣(4)

لعله من الجدير بالذكر أن أول جامع خطير للكتب فى ألمانيا كان رجلاً من عامة الناس، ويمكن اعتباره فى زمرة الباحثين رغم وضعه البسيط فى الحياة والمجتمع. ولكن هوجو فون ترمبرج كان يمثل ظاهرة خاصة لا تتكرر. لقد كان

(1) Franciscus Accursius/ Glossa Ordinaria on Corpus Juris

(2) Cervetto , Guglielmo

(3) Martino Solimani

(4) Hugo Von Trimberg

هذا الرجل مدرساً فى مدرسة بامبرج، ولم يكن مجرد جامع للكتب وإنما كان أيضاً مؤلفاً لثمانية كتب بالألمانية وخمسة باللاتينية ومن بين الكتب الألمانية لم يصلنا سوى كتاب **المتسابق**[١] وهذا الكتاب عبارة عن قصيدة تعليمية أراد مؤلفها من خلال مصادره العديدة وعلمه الواسع الغزير وخبرته بالحياة أن يملأها بنصائح وملح رجل عجوز.

لقد كان هوجو قارئاً ممتازاً وهو لا يمل الإشارة إلى الكتب الكلاسيكية وكتابات آباء الكنيسة، بينما هو لا يشير إلى الكتب الحديثة بالاسم رغم أنه أخذ منها كثيراً ربما على اعتبار أنها معروفة للقراء ويمكنهم تخمينها. لقد تأثر الرجل بالشعر الألمانى تأثراً بالغاً، وكان مؤلفه المفضل هو **بيرنهارد فرايدانك**[٢]، كما أنه يشير إلى القصص الألمانية باحترام شديد كذلك كان يقدر الشعر الشعبى تقديراً كبيراً ولأنه ربما بسبب أحوله البورجوازية لم يكن ميالاً لشعر البلاط، كما كان لا يكف عن الحديث بأن قصص الفروسية ليست سوى أكاذيب وخيالات ونحن نعرف الكثير من المعلومات عن معرفة هوجو بعالم العصور الوسطى والتى حصلّها من خلال تعليمه الإكليرى عن طريق كتابه عن **الشعراء القدامى واللاتين** والذى قصد به أن يكون دليلاً للقراءة والتعليم[٣] وكان هوجو ينقل الاستهلاليات فى تلك الكتب مما يكشف عن أنها كانت تحت يده كذلك لانشك فى أنه عندما كان يؤلف كتاب (**المتسابق**) كان ينطلق من كتب خاصة به، كما استعان بكثير من الكتب فى مكتبة الكاتدرائية ومكتبات الأديرة الكثيرة فى بامبرج.

وهو فى كتاب **المتسابق** يذكر عرضاً أنه جمع مائتى كتاب فى مكتبته الخاصة ويأمل فى أن يستخدمها فى سنواته الأخيرة (بعد المعاش). وكان يقصد من وراء ذلك كما ضربنا مثلاً آخر من قبل أن يؤجر هذه الكتب للطلاب والنساخ وأن يبيعها للطلاب الذين كان عليهم أن يشتروا الكتب الدراسية من المدرس. وقد

(١) Der Renner

(٢) Bernhard Freidank

(٣) Registrum multorum auctorum

خاب أمله لأن المدارس أصيبت بالانهيار، ولم يعد التلاميذ راغبين فى التعلم ولم يعودوا يقبلون على تعلم اللغة والنحو.

أسرة فنتلر[١]

وصلتنا بعض السجلات والتقارير عن وجود مكتبات خاصة لدى أسرة من أسر النبلاء من نهاية القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر، تلك الأسرة هى أسرة فنتلر التى عاشت فى قلعة **رونكلشتين** بالقرب من **بوزين** (بولزانو) فى جنوبى **تايرول**[٢] وفى سنة ١٣٨٥ اشترت أسرة فنتلر القلعة وقام **نيقولاس فنتلر** بتأثيثها تأثيثاً فاخراً وزخرفها بزخارف الفروسية. وهناك ألف خليفته **هانز فنتلر** أحد كتبه سنة ١٤١١. وكان نيقولاس قد بدأ تكوين المكتبة وقام هانز بتوسيع نطاقها كماً وكيفاً. وقد استخدم نيقولاس: **هينز سنتلنجر**[٣]، أحد أبناء الأسر النبيلة فى ميونيخ، فى أعمال النسخ والخطاطة. وفى سنة ١٣٩٤م قام هينز هذا بنسخ كتاب (**تاريخ العالم**)[٤] لسيده، وهذا الكتاب من تأليف هنريتش من ميونيخ. وفى سنة ١٣٩٩ نسخ نسخة ثانية لـ ليوبولد فنتلر، موظف الجمارك على حدود **بريينر باس**[٥]. ولو درسنا الرسومات الجصية والفرسكية على جدران القلعة لأمكننا تخمين محتويات المكتبة، وحيث كانت كتب القصص من الأدب الألمانى الوسيط العالى ممثلة بغزارة.

بوتريتش فون ريتشرتزهاوزن ١٤٠٠-١٤٦٩[٦]

كانت القصص الشعرية فى العصر الوسيط الألمانى العالى ماتزال هى نمط الشعر السائد لدى النبالة البافارية فى القرن الخامس عشر. بينما كان الأدب المفضل فى غربى أوربا هو القصص النثرى. وكان هذا النمط الأدبى الجديد

(١) Vintler Family

(٢) Runkelstein; Bozen, (Bolzano), Tyrol

(٣) Heinz Sentlinger

(٤) Weltchronik

(٥) Brenner Pass

(٦) Püterich Von Reichertshausen

يعكس أذواق القراءة لدى النبيلات وقد بدأت هذا الإتجاه نحوه الأميرة ميختلد كونتيسة بالاتين التى صادفناها من قبل والمترجمتان إليزابث من ناساو - زاربروكن وإليانور النمساوية. وكانتا لديهما مجموعات من الكتب تقارن بمجموعة ميختلد والفارس البافارى بوتريتش فون ريتشرتز هاوزن.

وكان الفارس بوتريتش قد كتب رسالته الشعرية فى سنة ١٤٦٢م إلى كونتيسة بلاتين ميختلد، وتقع الرسالة فى ١٤٨ بيتاً يعلن فيها الفارس الشاب مبايعته للأميرة الصغيرة. ويصف فى هذه القصيدة حياة الوحدة وعدم الاستقرار ورحلاته الطويلة بحثاً عن الكتب فى موضوع الفروسية وزياراته المتعددة لقبور مؤلفيها. ولقد عمل بوتريتش فيما بعد مستشاراً لعدد من دوقات بافاريا. والمناسبة الحقيقية لقصيدته إليها هى حبهما المشترك للكتب. وقد استثمرت ميختلد معرفتها بالرجل لكى تنمى فى الواقع مكتبتها الشخصية. وقد أعارت الرجل ٩٤ قصة ينسخها لنفسه فى سبيل أن يقدم لها هو الآخر ما ليس فى مجموعتها وقد قارن بوتريتش قائمة كتب ميختلد بقائمة الكتب عنده فوجد أنه لا ينقصه سوى ٢٣ كتاباً فقط من قائمتها وهو يقص علينا كيف جمع هذه الثروة من الكتب خلال أربعين عاماً من الرحلات المتواصلة بين المجر وبرابنت فى هذه الكلمات: «فى سبيل تكوين هذه المكتبة: هذه الكتب كانت جاءت عن طريق الاستلاب، السرقة، النهب وأيضاً الاستعارة. وجاء بعضها عن طريق الإهداء، وعن طريق النسخ، وعن طريق اللقيا». وهو يقول أيضاً أن الآخرين كانوا يخونونه ويخدعونه ويستغفلونه بسبب حبه للكتب وكثيراً ما كان أصدقاؤه يستعيرون منه الكتب ولايردونها. وكان الخدم فى البلاط يخدعونه بقصص وهمية عن عثورهم على كتب قديمة ويستمر فى القول «كل هذا عانيته فى سبيل البحث عن الكتب القديمة».

لقد كان بوتريتش يعبد القديم «لقد كنت أفضل أن أقضى ساعات طوال مع كتاب قديم ولا أقضى دقيقة واحدة مع كتاب حديث». لقد كانت عنده كتب

للمؤلفين **هارتمان فون أوى؛ جوتفريد فون ستراسبورج**، وعلى الأخص **فولفرام فون إيشينباخ**[١] وغيرهم ممن كان يكن لهم احتراماً خاصاً. وبعد الكتب الكلاسيكية على رفوفه تأتى الكتب المتفرعة عنها للمؤلفين الخلفاء مثل:

أولرخ فون زازيكهوفن
فرنت فون جرافنبرج
كارل ستريكرز
رودلف فون إيمز
أولرخ فون إيشينباخ
أولرخ فون ليختنشتاين
جوهان فون فيرزبرج
بلبير

لقد كانت كونتيسة بلاتين تملك مجموعات كتب من نوع آخر. لقد كانت تميل إلى الكتاب المحدثين، ولانعرف مدى اهتمامها بالكتب الكلاسيكية، طالما أنه من قائمة كتبها الأربعة والتسعين لم يذكر لنا بوتريتش سوى ٢٣ كتاباً لم تكن عنده. ولكن باستثناء كتب فولفرام فون إيشينباخ فإن بقية الكتب المذكورة عبارة عن قصص ترفيهى يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر: أساساً ترجمات من الأدب الفرنسى. وتكشف مجموعتها عن أنها لم تكن أساساً تروق للفارس بوتريتش كما أن مراسلاته مع ميختلد تكشف عن أنه كان يأمل فى العثور على الكتب التى كانت فى حوزة أبيه لويس الثالث التى رآها كثيرة لاتحصى فى مكتبة أبيه فى هيدلبرج.

دخول الكتب المطبوعة: ديبولد لاوبر ورعاته[٢]

فى القرن الثالث عشر وصاعداً، أصبح نسخ الكتب حرفة، وأصبح الوراقون يحترفونها لإنتاج الكتب على الإطلاق أو بتكليف محدد من رعاة الإنتاج

(١) Harmann Von Aue; Gottfried Von Strassburg; Wolfram Von Eschenbach
(٢) Diebold Lauber

الفكرى، لإنتاج كتاب محدد أو كتب بعينها لحسابهم. وكان إنتاج الكتب قبل ذلك القرن كما رأينا يتم فى الأديرة حسب خطط محددة وكان الناسخون في المدن قلة ويعملون لحساب الآخرين فقط. كما رأينا مِن قبل قصة وراقى الجامعات وأسلوب عملهم. وفى القرن الخامس عشر بدأت دور الوراقة الخاصة تعمل على نطاق واسع لتلبية الاحتياجات التعليمية التى بدأت يتسع نطاقها مع التوسع فى المدارس والجامعات والبحث العلمى المتزايد. ولذلك ازداد إنتاج الكتب لبيعها فى السوق التجارية على التوازى مع إنتاجها لحساب الرعاة والمهدين. وفى الدول الرومانسية (فرنسا وماحولها) قامت حوانيت النسخ بإنتاج وبيعا لكتب الشعبية، بينما ظلت الكتب الأكاديمية والدراسية هى مهمة الجامعات.

وفى ألمانيا ظل إنتاج الكتب بفترة طويلة يقوم على أساس التكليف لحساب الآخرين. ولم يكن هناك سوى استثناءات قليلة من هذه القاعدة. ومن بين هذه الاستثناءات واحد يستحق الوقوف أمامه ألا وهو ورشة: **ألساتيان**(١) فى استراسبورج فى السنوات ١٤١٨-١٤٢١، حيث كانت الكتب تورق وتباع.

وفى سنة ١٤٢٧ قام ديبولد لاوبر بافتتاح حانوت وراقة فى هاجيناو، وربما كان هذا الحانوت فرعاً من مؤسسة أكبر فى ستراسبورج تشبه مراكز النسخ الشهيرة فى بيرجنديا وتجارات الكتب قبيل عصر النهضة. وكان ديبولد لاوبر هو ناسخ حاكم الولاية فى قصر هاجيناو، وفى نفس الوقت كان ينتج الكتب التى شعر أن الناس فى حاجة إليها، كما كان ينتجها بتكليف محدد لحساب الآخرين مما مكنه من أن تكون لديه قائمة يعتد بها. وكان يغزو السوق بمخطوطاته التى ينسخها بمهارة شديدة. وقد وصلنا ما لايقل عن خمسين مخطوطة تحمل علامته التجارية وبياناته. ومعظم تلك المخطوطات كانت فى حوزة أشخاص من جنوبى وغربى ألمانيا ومن بينها كتب شعبية كتبت باللهجة الألزاتية ومزخرفة بزخارف بسيطة. ولقد وصلتنا بعض وثائق عن أعمال لاوبر، ومن بينها خطاب موجه منه إلى أحد النبلاء. وفى هذا الخطاب يتحدث عن كتب أعدت لحساب الدوق

(١) Alsatian

روبيرت (ربما كان روبيرت من بفالز ـ سيميرن[1]، أسقف استراسبورج ١٤٢٠-١٤٧٨) ويعلن عن كتب جديدة ويقول فى خطابه «إذا كنت تريد **الملك آرثر والسير إيفان** فأنا على استعداد لنسخها لك». كذلك وصلتنا قائمة منسوخات لاوبر. وفى أحد المخطوطات الموجودة الآن فى لندن نجد الإعلان الآتى «الكتب المفضلة لدى كل إنسان كبيرة أم صغيرة، دينية أم علمانية، مزخرفة زخرفة جميلة، يمكن الحصول عليها من ديبولد لاوبر، النساخ فى قصر هاجيناو» وبعد هذا الإعلان فى ذلك الكتاب نجد قائمة منسوخاته التى تضم أربعين كتاباً، والتى تكشف عن تجارة منظمة متوازنة. هذه القائمة تضم كتب التكريس، ومجموعة من الكتب الدينية وأخرى من الكتب العلمانية. وفوق كل هذا كان عنده رصيد من قصص الفروسية القديمة والجديدة. لقد كان هذا النوع من الأدب يقبل عليه النبلاء بعد أن فات زمن الشعر والأغانى الشعبية، لقد جدد لاوبر البيعة للأدب التقليدى، ورغم أن لاوبر ظل حياً حتى سنة ١٤٦٧، إلا أنه لم يهتم بنسخ القصص النثرى والمترجمات الإنسية.

لقد كانت زبائن لاوبر هم من الأرستقراطيين ومن بينهم كونتيسة بلاتين: ميختلد من هيدلبرج. وهم جميعاً كانوا من الطبقات العليا فى المجتمع ولكنهم لم يكونوا زبائن منتظمين أو جماعين للكتب الثمينة الفاخرة على النحو الذى نستشفه من قائمة الكتب المصورة عند لاوبر. وذلك على النقيض مما كان عليه الحال فى نبلاء فرنسا أو بيرجنديا.

لقد كانت مخطوطات لاوبر تتخذ طابع الإنتاج بالجملة مع كل ما فى هذا الإنتاج من عيوب. فالنوعية كانت أقل من المخطوطات الباكرة وأقل من تلك المنتجة لحساب الآخرين (فهو يستخدم الورق بدلاً من الرقوق والخط سريع غير محسن، وإن كان مقروءاً، الإيضاحيات بسيطة غير ملونة...). وقد أمكننا التعرف على خطوط عدد من النساخين الذين عملوا مع لاوبر.

---

(١) Rupert of Pfalz-Simmern

لقد بلغت تجارة لاوبر فى الكتب أوجها بدون منافس ولكنها أيضاً بدون خلف. لقد بدأت بدون سلف وانتهت بدون خلف، انتهت فى الوقت الذى بزغ فيه فجر الطباعة فى ماينز وربما أيضاً فى استراسبورج القريبة.

مجالس الإصلاح(١)

على عكس ماكنا نتوقع لم تقم مجالس كونستانس أو بازل بتمهيد الطريق نحو الحركة الإنسية. ومع ذلك كان لها الفضل فى إنشاء وإثراء المكتبات سواء بكتب تلك المجالس التى أنتجت لحسابها أو بالأموال التى قدمتها لأعضاء تلك المجالس لشراء الكتب، لمكتباتهم الشخصية أو لمكتبات الكنائس والأديرة التى يتبعونها. لقد كانت هذه المجالس تقوم بوظيفتين فى وقت واحد الاجتماعات المهنية وأسواق الكتب؛ حيث كان الباحثون الذين يحضرون هذه المجالس يحاطون بالنساخين وتجار الكتب الذين يعرضون خدماتهم لنسخ وتوريد الكتب الدينية وكتب القوانين الكنسية. وإلى جانب ذلك كانت هناك عمليات إنتاج نسخ محددة لحساب بعض الأعضاء وذلك بالاستفادة من وجود أصول مخطوطات كثيرة فى مكتبات جنوبى ألمانيا وكذلك وجود هذا الحشد من الباحثين الحاضرين فى تلك المجالس. لقد وصلت تأثيرات هذه الأنشطة النشرية إلى قلب السويد. ومما يذكر فى هذا الصدد أن الوفود البولندية كانت من بين أكثر الوفود شراء للكتب على النحو الذى نشاهده اليوم فى مكتبات **جنسن** و **كراكاو**(٢).

وفى كونستانس قام **جون الثالث أبيكزير**، أسقف **إيرملاند** ١٤١٥-١٤٢٤م(٣)، بطلب إعداد نسخ من بعض الكتب الكلاسيكية لحسابه من بينها كتب فيتروفيوس كما اشترى أيضاً كتب بترارك و بوكاتشيو لمكتبة كاتدرائية فى فراونبورج فى إيرملاند. تلك المكتبة التى دمرت مع الكاتدرائية على يد الغزاة السويديين.

(١) Reformation Councils

(٢) Gnsen; Kracow

(٣) John III, Abeczier of Ermland

ومن الشخصيات الكنسية/ السياسية اللامعة أيضاً فى مجال جمع الكتب والبحث العلمى القانونى **هنريتش توك** من **مجدبورج**[(١)] والذى تكشف أعماله الفكرية عن سعة اطلاع واستخدام واسع للمكتبات فى بازل. وهناك من الشواهد ما يؤكد أنه كانت له مكتبته الشخصية العظيمة والتى جلب لها الكتب من رحلاته المتعددة فى إيجر، براغ وغيرهما. كذلك كان عدد الكتب التي قدمها له المجلس بصفة شخصية كبيراً.

وكان من بين أعضاء الوفود الفرنسية إلى كونستانس الكاردينال **غليوم فيلاستر**[(٢)] الذى جمع قدراً كبيراً من الكتب لمكتبة كاتدرائية ريمز كان من بينها كتب كثيرة من تأليف الإنسيين مما جعل هذه المكتبة تبرز غيرها من المكتبات فى هذا الصدد. وبينما كانت المجالس تسودها روح الحقد والضغينة البغضاء، وكانت مكتبات الأديرة القريبة مثل دير سانت جال، ريشيناو، فينجارتن، كلونى، وحتى فولدا؛ فى طريقها إلى التحلل والانهيار بسبب عدم رد الكتب التى استعارها أعضاء الوفود منها، بينما كان ذلك كذلك فإن مكتبات بازل على العكس من ذلك تستفيد من تلك المجالس فقد ورث الدومنيكان فى بازل المكتبة الفنية للكاردينال **جون من راجوزا** (١٣٤٣م)[(٣)] والتى تميزت بمخطوطاتها اليونانية التى حصل عليها الكاردينال أثناء بعثته البابوية فى القسطنطينية.

المكتبات الخاصة فى القرن الخامس عشر

لقد كان القرن الخامس عشر هو قرن المكتبات الخاصة فى العصور الوسطى بحق حتى إذا نحينا جانباً تأثير الحركة الإنسية على إنشاء المكتبات، تلك الحركة التى قادت إنشاء المكتبات الخاصة وجمع الكتب بهمة ونشاط. ولقد تميز الباحثون والنبلاء على وجه الخصوص فى هذا الصدد.

الباحثون

كان الباحثون الذين تميزوا بإنشاء المكتبات الخاصة وجمع الكتب فى القرن

(١) Heinrich Toke of Magdeburg

(٢) Guillaume Fillastre

(٣) John of Ragusa

الخامس عشر هم بالدرجة الأولى أعضاء فى صفوف الجامعات. فقد كون الأساتذة مكتبات خاصة تركوها بعد ذلك إرثاً لجامعاتهم وهو إجراء ساد فى ذلك الوقت باعتباره واجباً من قبل هؤلاء نحو الأكاديميات التى عملوا فيها أو تخرجوا فيها. وكان من بين هؤلاء ريتشارد دى فورنيفال (السوربون) فى فرنسا، وكذلك روبرت جروستست وأيضاً ريتشارد ذى بيرى (أكسفورد) فى انجلترا وامبلونيوس (إيرفورت) فى ألمانيا. وقد أشرنا إليهم من قبل، يضاف إليهم أيضاً جوهان فون جموندن (فيينا)، مارسيليوس من إنجهن وكونراد من جلنهاوزن (هيدلبرج) وهم جميعاً ممن ألمحنا إليهم فيما سبق، وكذلك هنريتش روبيناو (جريفزوالد).

ومن الطريف أنه كان إلى جانب أساتذة الجامعات، طلاب عديدون ممن لهم مكتبات شخصية وقد ذكرت المصادر العديد منهم وكيف أن الواحد منهم كان ينفق كل ما لديه من مال على شراء الكتب بل ويستدين أيضاً فى سبيل أن يشترى كتاباً.

وكان الإكليريون فى القطاع العلمانى من المجتمع ينافسون الباحثين فى الجامعات فى عملية جمع الكتب. وقد آلت مكتباتهم أيضاً فى النهاية إلى مؤسسات المجتمع المختلفة كالجامعات والأديرة والكاتدرائيات. وعدد حالات الإرث ومانتج عنها من كتب والمسجلة فى السجلات المختلفة كان ضخماً.

لقد خلف **بيرنهارد من كرايبورج**[1] أستاذ القانون فى جامعة فيينا ومستشار كبير أساقفة سالزبورج، وأسقف كيميس، وراءه مكتبة كبيرة. وقد استطاع **بول روف**[2] بعد مجهودات ببليوجرافية كبيرة أن يتعرف على مائة مخطوطة من هذه المجموعة فى مكتبة الدولة فى ميونيخ ومكتبة الجامعة فى سالزبورج، ومكتبة الدولة فى فيينا، هذه المخطوطات المائة ليست سوى جزء صغير من مجموعات هذا العالم البافارى الشخصية.

Bernhard of Kraiburg (١)

Paul Ruf (٢)

من بين جماعى الكتب الإكليريين المشاهير يبرز اثنان من سويسرا: **فليكس هيمرلى**(١) كاهن كنيسة جروسمنستر فى زيورخ وكانت له مكتبة شخصية تربو على خمسمائة مجلد تحدث عنها صديقه **نكلاس فون فايل** بإعجاب شديد ولكن للأسف تم السطو عليها وتبدها عندما سجن هيمرلى بعد اتهامه بالانضمام إلى الاتحاد السويسرى. والشخصية الثانية هو **جوهان هينلن فون اشتين**(٢) المدرس والواعظ الشهير، والذى كان من أشد المعجبين بالإصلاحيين ودخل الدير الكارثوزى فى بازل وحمل معه إلى الدير مكتبته الشخصية التى بلغت ٢٨٣ مجلداً والتى جعلت من مكتبة الدير أهم مركز كتب للطابعين والباحثين فى بازل.

كذلك لم يعدم الكتاب الألمانى من يسعى إلى جمعه والحفاظ عليه فهذا هو الباحث **مايكل دى ليئون**(٣) الباحث فى الأنساب اليهودية والكاهن فى كاتدرائية فيرزبورج أراد أن يعد نوعاً من «الببليوجرافيا العالمية» جمع فيها كمية كبيرة من الكتب التى رآها تستحق القراءة وعلى رأسها جميعاً ـ الشعر الألمانى ـ وكانت هذه القوائم أداة أساسية فى إحياء والتعريف بكتاب فون ترمبرج **(المتسابق)** سابق الذكر، وكانت لها الفضل فى حفظ الأغنية الشعبية الألمانية والشعر الشعبى الألمانى وكذلك القصص الألمانى. ومن المؤكد أنه كانت لدى مايكل مكتبة قوية استند اليها فى نسبة كبيرة من المداخل التى ضمنها فى قوائمه.

وبسبب التداخل الدقيق بين اللاهوت وسائر العلوم فى العصور الوسطى فإن مكتبات تلك الفترة كانت تتسم بطريقة أو بأخرى بنوع من الشمولية من جهة ومن جهة ثانية كانت كل مكتبة على حدة تصطبغ بصبغة صاحبها المهنية والشخصية مما كان يعطيها أيضاً ضرباً من ضروب التخصص.

وباعتبار إيطاليا بلد رجال القانون كان لابد أن تتوافر بها المكتبات الشخصية ذات الصبغة القانونية، وعلى الرغم من البدايات المتواضعة لتلك المكتبات إلا أنها

---

(١) Felix Hemmerli

(٢) Johann Hynlin Von Stein

(٣) Michael de Leone

نمت مع الزمن وتزايد حجم المجموعات فيها. تذكر المصادر أن مكتبة **جيوفانى دا إيمولا**[1] رجل القانون والتى احترقت مع حرق بولونا سنة ١٤٢٢م كانت تضم أكثر من ٦٠٠ مجلد.

وفى ألمانيا كانت المجالس المحلية (الحاكمة) فى المدن تحرص على إنشاء مكتبة قانونية فى ديوان عام البلدية. ومما يذكر عن بلدية هامبورج أن المدير المالى **هنريتش بوكلاند**[2]، أحضر كتباً قانونية كثيرة من أفجنون فى الفترة بين ١٣٣٨-١٣٤٥. وبالمثل فإن بلدية برونزفيج، انتهزت فرصة سفر نساخها إلى كونستانس سنة ١٤١٦ ليشتروا من هناك كتباً قانونية لمكتبتها. إن محتويات مثل تلك المكتبات الرسمية يمكن أن نراها بوضوح فى المكتبة التى ورثتها بلدية فيينا من أحد موظفيها الرسميين سنة ١٤٢٥ وهو الأستاذ **هانز سندرام**[3] مدرس القانون والموظف الرسمى فى دوقية باساو، وكذلك من مكتبة **فيكار كونراد ستنهوب من لوبيك**[4]، التى كان فيها كتب مطبوعة توفر فيكار نفسه على زخرفتها، وقد وصلنا منها مجموعة كتب محفوظة الآن فى مكتبة روستوك.

نفس القول ينسحب على المجموعات الطبية، ذلك أن العصر الذهبى لمدرسة الطب فى ساليرنو (القرنان الحادى عشر والثانى عشر)، وانتشار الكتب الطبية اليونانية والعربية والاعتماد عليها، وتأليف عدد آخر من الكتب الطبية فى أوربا، كل ذلك أدى إلى زيادة واضحة فى الإنتاج الفكرى الطبى فى أوربا خلال القرن الثالث عشر شأنه فى ذلك شأن الإنتاج الفكرى القانونى. وتكشف المكتبة الخاصة للأسقف **برونو من هيلدشايم**[5] وكانت تدور أساساً حول موضوعات طبية عن تماثلها مع مكتبة مدرسة ساليرنو والقسطنطينية فى هذا الصدد. ومن الجدير بالذكر أن الأسقف برونو ومكتبته يرجعان إلى القرن الثانى عشر. أما

---

(١) Giovanni da Imola

(٢) Heinrich Bucgland

(٣) Hans Sindram

(٤) Vicar Conrad Stenhop of Lübeck

(٥) Bruno of Hildsheim

مجموعة **آرنولد من فيلانوفا**[١] وهو طبيب توفى سنة ١٣١٢ فتكشف بوضوح عن خلط اللاهوت بالطب. وبنفس القدر مكتبة الطبيب **آمبلونيوس راتنك دى بيركا**[٢] وفى هذه المكتبة الأخيرة كان هناك مائة من المجاميع الطبية تنطوى على ما لا يقل عن ٣٠٠ نص طبى - وقد خلف الطبيب **أوجولينو دا مونتكاتينى**[٣] الفلورنسى نحو ثمانين مخطوطة طبية عندما توفى سنة ١٤١٥م. أما **جوهان سندل**[٤] المتوفى سنة ١٤٤٣م فقد أوصى بمجموعته الطبية/ الرياضية البالغة مائتى مجلد إلى مكتبة جامعة براغ ومن المعروف أن سندل كان الطبيب الخاص للامبراطور فردريك الثالث. كذلك كانت لطبيب البلاط فى بافاريا المدعو **سيجموند جوتزكيرشن**[٥] والذى حصل على الدرجة العلمية من بادوا سنة ١٤٤٢، مكتبة طبية كبيرة. أما الطبيب السيليزى **جوهان شون من لاندزهوت** فكانت له مجموعة متواضعة من الكتب الطبية لاتزيد عن خمسة عشر مجلداً. وقد توفى جوهان شون سنة ١٤٧٤. وقد فحصت بلدية المدينة هذه المجموعة واستولت عليها لتجعلها نواة لمكتبة طبية متخصصة. وهو نفس الإجراء الذى قامت به بلدية مدينة هامبورج عند وضع مجلس المدينة يده على ٤٠ مجلداً طبياً بها ١٥٩ عملاً ليقيم بها مكتبة متخصصة لاستخدام طبيب المدينة.

النبلاء والبورجوازيون[٦]

كانت المكتبات الخاصة بالنبلاء والبورجوازيين تختلف حتماً عن مكتبات الباحثين، تلك التى عرضنا لها سابقاً. ذلك أن مكتبات الباحثين غالباً ما اتسمت بصفة بحثية متخصصة، أما مكتبات النبلاء والبورجوازيين فقد جنحت إلى الكتب الألمانية. وكانت فى الأعم الأغلب ثلاثية الهدف: التثقيف، الترفيه، التعليم.

---

(١) Arnold of Villanova

(٢) Amplonius Ratinck de Berka

(٣) Ugolino da Montecatini

(٤) Johann Ssindel

(٥) Sigmund Gotzkirchen

(٦) Nobility and Bourgeoisie

وكان النبلاء من بين الجماعين الكبار للكتب وهم الذين قادوا تلك الحركة فى القرن الخامس عشر. وكانت التكليفات بإنتاج كتب محددة تأتي للنساخين غالباً من هؤلاء النبلاء، كما كانوا الزبائن الدائمين والمنتظمين لتجار الكتب من أمثال ديبولد لاوبر المشار إليه من قبل. كما كان هؤلاء النبلاء كثيراً ما يستأجرون النساخين فى قصورهم لنسخ الكتب فيها على نحو ما فعلت أسرة فنتلر المشار إليها من قبل. لقد أقبل النبلاء كما أشرنا من قبل على اقتناء الكتب فى فرعين أساسيين: فى البداية قصص الفروسية والبطولة الوطنية، وبعد سنة ١٤٤٠م كان إقبالهم على القصص النثرى الفرنسى القديم. هذا الشكل من الكتب كان موجوداً فى فرنسا فى القرن الثالث عشر وأضيفت إليه بعض خصائص القصة الإيطالية فى عصر النهضة. وإلى جانب هذين الفرعين أو لنقل النمطين جاء نمط ثالث كان شائعاً فى كل المكتبات الخاصة لدى النبلاء هى الكتب التعليمية التثقيفية والتى تشمل كتب المحافظة على الصحة، كتب التدبير المنزلى، الكتب القانونية، كتب الشعائر والطقوس، الرسائل العامة، كتب التأمل والتفكير، كتب الحوليات.

وقد لهثت البورجوازية احتذاء بالنبلاء خلف جمع الكتب. ونجد فى مكتبات البورجوازيين الكتب الثمينة الغالية الفاخرة الزخرفة، والكتب الشعبية البسيطة على السواء. وإن لم تنتشر مكتبات البورجوازية فى ألمانيا قبل ظهور الطباعة وبداية حركة الإصلاح.

والحقيقة أن محتويات المكتبات الشخصية كانت واحدة تقريباً سواء كانت تلك المكتبات لنبلاء أو لأشخاص من عامة الناس أو من طبقة البورجوازية. ونكرر هنا أن الأدب الشعبى لم يلق اهتماماً يذكر من جانب الطبقة الأرستقراطية، هذا الأدب الذى لم يلق انتشاراً واسعاً إلا بعد ظهور الطباعة بوقت كاف.

وكما رأينا من قبل كانت مكتبا ت جى دى بوشامب، ميختلد، بوتريتش فون ريتشرتز هاوزن، أسرة فنتلر تمثل المكتبات الأرستقراطية خير تمثيل، ومن الطبقات الأرستقراطية الجامعة للكتب أيضاً نجد فى الأراضى الواطئة إيرل بنتهايم، إيرل

بروكهاوزن وفى أرض الراين نجد أسر ماندرشيد - بلانكنهايم؛ ناساو- ديللنبرج؛ كاتزينلنبوجن. وفي بادن نجد إيرل زاهرنجر؛ وفى فرانكونيا نجد إيرل أورتنبورج - تامباخ. وفى أسوابيا نجد إريل فيرزتنبرج؛ لوبفن - ستولنجن، أوتنجن - فالرشتاين؛ زيميرن. وفى استيريا نجد السير/ أولرخ فون فلادنتز.

ومن أثمن وأحسن الهدايا التى وصلتنا معلومات موثقة عنها تلك الهدية التى قدمها الكونت **جيرهارد فون زاين**(١) إلى دير مارينشتات السيسترى فى فيسترفالد سنة ١٤٩٠م. وكانت عبارة عن ١٢٨ مخطوطة على رقوق. وكانت مكتبة هذا الدوق مكتبة غير عادية، تتألف من كتب قانون كنسى، وكتب لاهوتية حيث درس فى صباه علم اللاهوت وبقى متمسكاً بذلك بعد أن كبر، وتدل وصيته سنة ١٤٩١ أن مكتبته كانت تضم أيضاً كتب الأدب الألمانى وبكثرة. وقد أوصى لأبنائه **بالقصيدة التعليمية الطويلة**(٢) التى تصل إلى ستة آلاف بيت والتى ربما يكون قد وضعها سنة ١٢٧٢، الشاعر ألبرت فون شارفنبيرج والتى بنيت على قطع شعرية من وضع فولفرام فون إيشنباخ. ولأن هذه المكتبة أيضاً كانت مكتبة روحانية فإن ترجمات الكتابات المقدسة باللغة الألمانية كانت من بين مقتنياتها.

وكان من بين جماعى الكتب نساء عديدات، ولقد بدأ الجمع النسوى للكتب فى البلاط الفرنسى، ويمكن تتبع أصول هذه الظاهرة من **إنجبورج**(٣)، شريكة فيليب أوغسطس مروراً بـ **إيزابيلا** البافارية وانتهاء بـ **آن** من بريتانى. وكانت الأميرات الأجنبيات يجلبن معهن القصص والأغانى الخاصة بهن، والتى كانت تترجم إلى الألمانية وتنسخ ثم يعاد نسخها كثيراً. لقد كانت هناك من تنافس ميختلد فى جمع الكتب وتكوين المكتبات الشخصية، ونخص بالذكر **مارجريت من سافوى**(٤)، شريكة لويس الرابع من بلاتين ثم بعد ذلك الدوق أولرخ من

(١) Gerhard Von Sayn

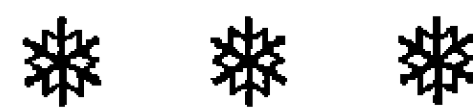
(٢) Titurel

(٣) Ingeburg

(٤) Margarete of Savoy

فيرتمبرج وهى تعتبر ثانية أنجح النساء الجمآعات للكتب، ثم تأتى بعدهما **إليزابيث النمساوية من فولكنزدورف**[1] (١٤٥٠) والتى سجلت الخمسين مخطوطة فى مكتبتها على آخر ورقة فى كتاب **رودلف فون إمز**[2]. وهى مثل بوتريتش كانت تجمع الكتب القديمة، كتب «الأيام الجميلة القديمة» أما الكتابات المعاصرة فلم تكن تروق لها كثيراً.

من جهة ثانية فليس لدينا معلومات كثيرة عن مكتبات البورجوازيين فى تلك الفترة. وهى شريحة هامة فى المجتمع الأوربى آنذاك سعت هى الأخرى إلى تكوين المكتبات وجمع الكتب وخاصة الكتب الدينية والكتب الترويحية وكتب التدبير المنزلى والكتب المدرسية. ولعل فى الهدايا التى قدمتها بنات تلك الأسر البورجوازية إلى دير سانت كاترين فى نورمبرج، تكشف عن أن بعض تلك الأسر كان لديه مكتبات عظيمة في تلك الفترة فإحدى البنات الصغيرات أحضرت وحدها ٢٣ مخطوطة إلى هذا الدير. ولأن طبقة البورجوازية نشأت أساساً فى إيطاليا ثم انتشرت منها إلى أنحاء أخرى من أوروبا فقد كان للبورجوازية الإيطالية فضل السبق فى تملك المكتبات الخاصة. ومما يذكر فى هذا الصدد أن تاجر قماش إيطالياً سجل قائمة مخطوطاته التى بلغت ٣٧ مخطوطة كلها من الكلاسيكيات فيما عدا كتب دانتى. ولدينا سجلات أخرى عديدة للهدايا والوصيات وإثبات المكتبات والإرث كلها تدل على وجود مكتبات خاصة لدى البورجوازيين وإن كانت هناك حالات كثيرة يتضح منها ملكيات مخطوط واحد وربما اثنين.



(١) Elsbeth of Volkensdorf

(٢) Rudolf Von Ems

الفصل السابع

المكتبات المفتوحة: الأديرة ، الكنائس ، المدن

فى القرن الخامس عشر ظهر اتجاه متزايد نحو فتح المكتبات للاستخدام العام خارج دائرة أصحاب تلك المكتبات المباشرين. حدث ذلك فى مكتبات الأديرة والكنائس، بينما ظلت المكتبات الجامعية فى الأعم الأغلب قاصرة على أعضاء الجامعة موصدة فى وجه غير الأعضاء.

وظهر نوع آخر من المكتبات على المسرح ذلك هو مكتبات البلديات أو مكتبات الحكومات المحلية كما تسمى أحيانا، تلك المكتبات التى نمت جزئياً من خلال شراء الكتب اللازمة للإدارة وجزئياً من خلال الهدايا التى كان المواطنون يقدمونها لها. وفى حدود معلوماتنا كانت كتب تلك المكتبات عبارة عن كتب أكاديمية بالدرجة الأولى لا تروق إلا للأشخاص الذين يقرأون باللغة اللاتينية وكان هذا هو نفس الوضع فيما يتعلق **بالمكتبات المفتوحة** التى أنشئت فى إيطاليا فى تلك الفترة والتى يبدو أنها نسجت على غرار المكتبات العامة الرومانية القديمة.

وكانت مكتبات الأديرة الكارثوزية تتميز بأنها تفتح أبوابها للجمهور العام. وكان البيت الكارثوزى فى بازل يتنافس مع الدومينكان فى أن يكون مركزاً للحياة الثقافية فى المدينة ومصدر الكتب للباحثين والطابعين. ويبدو أن دير سانت أولرخ كان يحاول أن يقوم بنفس الدور بالنسبة لمدينة أوجزبرج. ونفس الاتجاه نصادفه فى أديرة اتحاد وندشايم وأديرة إخوان الحياة العامة. وقد صار هناك اتجاه إلى جعل المخطوطات باللغة الألمانية مكتبة لرجل الشارع، وعلى الرغم من أن تلك الأعمال باللغة المحلية قصد بها أن توجه إلى الرهبان الذين لا يستطيعون القراءة باللغة اللاتينية؛ ولكن الطبيعة العامة لهذه الكتب جعلتها متاحة أيضا لرجل الشارع الذى لا علاقة له بالحياة الديرية. وفى لائحة ١٤٥٥م لدير سانت توماس الأوغسطى فى ليبزج نجد بنوداً تسمح لغير أعضاء الدير باستخدام المكتبة والإفادة من كتبها، كما أتاحت الاستعارة الخارجية بعد إذن رئيس الدير، على أن يكتب المستعير تعهداً بإعادة الكتاب ويودع وديعة مالية بقيمة الكتاب. وكان الإيصال

الذى يكتبه المستعير يثبت فى سجل الإعارة بنفس الأسلوب الذى صادفناه فى المكتبات الجامعية من قبل.

وكانت كنيسة الأبرشية باعتبارها مركز المجتمع هى المكان الطبيعى لمكتبة المجتمع، حيث كانت تجمع الكتب وتنظمها وتتيحها للجميع. ولعل أقدم نموذج ألمانى على هذا الإجراء هو ذلك الذى حدث سنة ١٣٩٩ فى مدينة **ألزاى**(١) حين قام جوهان فون كيركدورف، وهو قس من ماينز، بإنشاء تلك المكتبة وفتحها للجميع كما قام مجلس المدينة بإنشاء مكتبة فى كنيسة سانت نيقولاس، حيث كان القساوسة والمثقفون يستخدمون تلك المكتبة التى كان قوامها ٧٣ مخطوطة.

وفى **أولم**(٢) قام هنريتش نيتهارت راعى الأبرشية فى مونستر (كنيسة البلدية) وسليل عائلة كريمة في أولم بوضع مخطوطاته هناك والبالغة ثلاثمائة مخطوطة أساساً فى اللاهوت والقانون، وأتاح استخدامها من جانب الجميع بلا قيود. وفى سنة ١٤٤٤ قام ورثة نيتهارت بإعداد الطابق الثانى من كنيسة الأسرة فى برج تونستر ليصبح مكتبة تضم مخطوطات نيتهارت ووضعتها فى خدمة كل المواطنين. وقد قام أفراد الأسر بإدارة المجموعات بأنفسهم من حيث الفهرسة والتصنيف والصيانة والترفيف وتيسير الاطلاع ووضعوا لائحة الاستخدام التى تعطى الأولوية للإكليريين والطلاب من مدينة أولم. كذلك كانت هذه المخطوطات تعار لمدة خمس سنوات وربما حتى ثمانى سنوات للأشخاص الذين يدرسون القانون الكنسى أو العلمانى.

وقام أساتذة الجامعات بالتوصية بكتبهم لكنائس المدن التى عاشوا فيها، وعلى سبيل المثال **ستيفان هوفنر**(٣) (المتوفى سنة ١٤٦٦م) قام بإهداء مجموعته إلى قرية بريتين بالقرب من ميرسيبورج، مسقط رأسه، كما قام **نيقولاس ماتز**(٤) بتقديم كتبه إلى ميشيلشتادت فى منطقة أودينفالد سنة ١٤٩٩م، كما ترك ماتز أموالاً

---

(١) Alzai

(٢) Ulm

(٣) Stefan Hufner

(٤) Nicholas Matz

تستخدم فى بناء مكتبة حيث توضع فيها مخطوطاته البالغة ١١٧ مخطوطة مربوطة بسلاسل الحديد وحيث يمكن لجميع مواطنى المدينة من دينيين وعلمانيين الاطلاع على الكتب وقراءتها.

ويعتبر مبنى مكتبة **سانت أندرياس**[١] فى **برونشفيج** الذى وصلنا بكامله اليوم، النموذج الحى على معمار المكتبات الألمانية فى العصور الوسطى: مبنى من الطوب على هيئة الكنيسة على بعد سبع خطوات خارج مبنى الكنيسة وقد قام ببناء هذا المبنى راعى الكنيسة **جوهان إيمبر**[٢] بين سنتى ١٤١٢ - ١٤٢٠م وذلك لتسكين مجموعة من الكتب كانت موجودة بالكنيسة فعلاً منذ سنة ١٣٠٩م. وقد وصل حجم المجموعة إلى ٣٣٦ كتابا بعد ميراث من **جيروين فون هاملن** سنة ١٤٩٥م[٣].

وبالمثل يمكن تتبع مبدأ المكتبة المفتوحة فى أهم كنيسة فى شرقى ألمانيا وهى كنيسة سانت ميرى فى دانزج، والتى بناها الراعى **أندرياس سلوموف** سنة ١٤١٣م[٤]. ومكتبات الكنائس الباكرة هذه يمكن اعتبارها مكتبات مفتوحة أو مكتبات عامة لأنها لم تكن ترد أى قارىء خائباً أو توصد أبوابها دونه.

وكما ألمحت سابقاً فإن محتويات مكتبات المدن كانت موجهة أساساً لسد احتياجات إدارة البلدية والمحاكم. كانت هناك كتب قانونية لأعضاء مجلس المدينة والإكليريين، وكانت هناك كتب طبية لطبيب المدينة وكانت هناك كتب التاريخ والحوليات لتسجيل أحداث المدينة ووقائعها. لقد كانت كتباً لأغراض عملية براجماتية ولم تتنوع مجالات تلك الكتب إلا عن طريق الهدايا وبدأت مكتبات المدن تتوسع رويداً رويداً سواء فى عدد الكتب أو فى المجالات التى تغطيها بفضل مجلس المدينة وبفضل المواطنين.

ومن النماذج الطيبة على مكتبات المدن، مكتبة بلدية هامبورج وبرونشفيج

(١) St. Andreas in Brounschweig

(٢) Johann Ember

(٣) Gerwin Von Hameln

(٤) St. Mary in Danzig, Andreas Slommov

حيث كانت فيهما كتب طبية وكتب قانونية وقد قام عمدة هامبورج هنريتش ميرمايستر بتقديم مكتبته القانونية لمكتبة مدينته التى تحولت إلى مكتبة عامة سنة ١٤٢٠م.

وفى نورمبرج قام راعى كنيسة سانت لورانس الدكتور **كونراد كونهوفر**(١) بتخصيص ١٥٠ مخطوطة فى سنة ١٤٤٣ «لخدمة أعضاء المجلس وجميع أفراد المجتمع. وهيئت لها حجرة قراءة خاصة زودت بقمطرات ومقاعد ورفوف داخل الجدران. وفى عهد **هانز توكر**(٢) تضاعفت المجموعات عن طريق الهدايا والشراء وخاصة شراء مكتبة **هيرمان شيديل**(٣) عند وفاته. بحيث أصبح هناك ٣٧١ مخطوطة ترقد على ٣٣ رفاً ومسجلة على فهرس عبارة عن لوحين كبيرين من الخشب. وقد وصلتنا سجلات عن شراء رسمي لكتب وإيصالات استلام هدايا من جانب مدينة بروتشفيج سنة ١٤١٣م، ومن جانب مدينة ريجنزبرج سنة ١٤٣٠م، ومدينة بازل ١٤٥٨م، ومدينة فيينا سنة ١٤٦٦م، فرانكفورت سنة ١٤٨٤م. إلى هذا الحد كان الاعتراف بأهمية المكتبات المفتوحة وضرورة دعمها، تلك الأهمية التى تزايدت بسرعة قبل نهاية القرن الخامس عشر. لقد أتى دعم مكتبات الأديرة المفتوحة من جانب أفراد بسطاء يقدمون الأموال لشراء الكتب لتلك المكتبات وعلى سبيل المثال تلك الهدية التى قدمها صانع الصفيح (السمكرى) إلى دير الكرمليين في فرانكفورت سنة ١٤٧٧م، أو ذلك النجار إلى دير القانونيين النظاميين فى **إكزانتين**(٤) سنة ١٤٨٥.



---

(١) Conrad Konhofer

(٢) Hans Tucher

(٣) Hermann Schedel

(٤) Xanten

الفصل الثامن

المكتبات فى الدول الاسكندنافية

أدخلت البعثات التبشيرية التى قدمت من شمالى ألمانيا وانجلترا إلى أرض الشمال، اللغة والكتابة اللاتينية وكذلك الكتاب الغربى وكانت الكتب الأولى التى دخلت هناك هى بطبيعة الحال الكتاب المقدس وكتب الطقوس الدينية ولم تصلنا أية معلومات عن الكتابات **الرونية القديمة**[1] أو مخطوطات مكتوبة بها. ومع القرن الثانى عشر بدأت الجامعات فى **شارترز**[2] وباريس تجتذب الطلاب الدنمركيين والسويديين وبدأت دور الضيافة المخصصة لهم فى الظهور. وفيما بعد بدأت الجامعات الإنجليزية والألمانية والإيطالية تجتذب طلاب دول الشمال هذه، وعن طريق هؤلاء الطلاب بدأت الكتب والدراسات من جامعات باريس، أكسفورد، بولونا، ساليرنو، براغ، فيينا، كولون، إيرفورت وغيرها، تجد طريقها إلى المكتبات الاسكندنافية. كذلك كان أعضاء هيئة التدريس يقومون من حين لآخر بزيارات ورحلات إلى تلك الدول، يحملون معهم الكتب إلى هناك كما يحملون الفكر الجديد الشفوى إلى تلك المناطق. ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن الأمراء العلمانيين والكنسيين والآباء والرهبان والقساوسة البسطاء فى تلك البلاد يعودون من رحلاتهم إلى البلاط البابوى ورحلات الحج إلى روما محملين بالكتب الكنسية والقانونية، والدينية والعلمانية إلى بلادهم تلك مما أثرى الحركة الفكرية هناك. وهكذا فإن الطوائف الديرية والدينية فى تلك البلاد عندما كانت تبعث بأعضائها إلى الدول الأجنبية منذ فترة مبكرة كانت تثرى مكتباتها فى دول الشمال بطريقة أو بأخرى. ولقد شهدت كثير من مدن الكاتدرائيات والأديرة في مناطق الشمال هذه إنشاء المناسخ والمدارس النشطة فى ذلك الوقت. ومنذ القرن الثالث عشر وربما قبله بقليل كان الملوك الاسكندنافيين يحيطون أنفسهم بالمستشارين المفكرين، وغالبا من بين. الإكليريين المهرة في الكتابة والخطابة. وكانت الثقافة الأوروبية وترجمات أدب البلاط وخاصة قصص الفروسية غالباً ما تلقى الترحيب فى البلاطات الملكية فى الشمال.

---

(١) Rune Alphabet

(٢) Chartres

والحقيقة أنه لم يصلنا من مقتنيات المكتبات الاسكندنافية فى العصور الوسطى إلا قطع محدودة وبقايا يسيرة، حيث دمر الجانب الأكبر من مقتنيات المكتبات خلال الحروب والحرائق، وجانب من تلك المقتنيات وقع ضحية حركة إصلاح الأديرة، حيث هجرت الأديرة وخربت وأهملت المكتبات وحملت كتبها إلى خارج الأديرة إلى حيث لم يعرف لها مصير. كما أن كثيراً من المخطوطات التى تحمل الفكر الدينى الكاثوليكى فقدت أهيمتها وقيمتها خلال عملية الإصلاح ومن ثم جرى تفكيكها واستخدام أوراقها كأغلفة أو كمظاريف للوثائق والسجلات الرسمية. ولقد قام النبلاء والأساقفة والدارسون ومواطنون عاديون بجمع ما أمكنهم جمعه من المكتبات القديمة خلال القرون السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر، هذه المجموعات آلت فيما بعد إلى المكتبات العامة فى مختلف مدن الشمال مثل كوبنهاجن، آرهوس، ستوكهولم، أوبسالا، لوند، جوتبورج، أوسلو، بيرجن.

وفى خلال المائة سنة الأخيرة، اهتمت المكتبات الاسكندنافية بقطع المخطوطات التى اكتشفت كمغلفات لكتب أو سجلات أخرى، وأعادت انتزاعها وإصلاحها وقامت بفهرستها وصيانتها ووصفتها فى خدمة الباحثين والدارسين. لقد قدر توئيفو **هابانن**[١] عدد المخطوطات الرقية التى استخدمت جلودها فى تغليف الوثائق والسجلات بما يدور بين ٥٠٠٠و٦٠٠٠ مجلد فى السويد وفنلندا وحدهما. وقد قرر **تونى اشميدت**[٢] عدد القطع التى وصلتنا بهذه الكيفية بنحو عشرة آلاف قطعة. كما اكتشف **فردريتش ستيجمولد**[٣] نسخة بخط المؤلف من الكتاب الثانى من **شروح ألبرتوس ماجنوس على كتاب الجمل**[٤]، الذى أخذ إلى الشمال ذات يوم وجرى تفكيكه.

وجل فهارس مكتبات الشمال وقوائم الجرد فيها لقيت نفس مصير المخطوطات التى كانت موجودة فى تلك المكتبات. حقاً لقد وصلتنا بعض الوصايا والتعهدات

(١) Toivo Haabanen

(٢) Toni Schmidt

(٣) Freidrich Stegmuller

(٤) Albertus Magnus' Commentaries on the Sentences

التى جرى فيها ذكر للكتب كما وصلتنا قوائم جرد العقارات والمنقولات وسجلات الهدايا وغيرها من الوثائق التى تتضمن بعض المعلومات عن الكتب وقد نشر كثير منها ولكن لم يصلنا شيء يذكر عن المكتبات والمخطوطات الاسكندنافية قبل القرن الثانى عشر. وحتى بعد سنة ١٢٠٠م فإن المصادر مبعثرة مليئة بالفجوات والمبالغات والغموض؛ ولا تكفى لمتابعة المكتبات الشخصية وقتفاء أثرها فى كل العصور الوسطى.

لقد قام باحثون اسكندنافيون أجلاء مشكورين بجمع قطع تاريخ مكتباتهم فى الشمال وحاولوا نسجها بحيث تعطى صورة متكاملة عن هذا التاريخ وعلى رأس هؤلاء:

أ. كوليجن ـ أو. ايه. جونسين ـ إى جيرنسين ـ أو. كولزرود ـ ايه. مالين ـ و. مونتيه ـ إى. أولمر ـ س إس. بيترسون ـ أو. والديه ـ ل. ويبول(١).

ويتضح من الدراسات التى قاموا بها أن الأديرة فى دول الشمال كانت بها مكتبات أفضل وأحسن من مكتبات الكاتدرائيات. كذلك فإن محتويات مكتبات دول الشمال لم تكن تختلف كثيراً عن مقتنيات المكتبات فى أوروبا الغربية بصرف النظر عن الترجمات التى وقعت بلغات تلك الدول. كما أن بعض الكتابات فى مكتبات غربى أوروبا لم تصل حتماً إلى مكتبات الشمال ولكن القاسم المشترك، مايزال أعظم فعلاً.

وكان الأمراء الكنسيون فى حقيقة الأمر يملكون مجموعات قيمة من الكتب فالفهرس الخاص بمكتبة **آرن سيجوردسون**(٢)، أسقف بيرجن ١٣٠٥ ـ ١٣١٤، والذى نشره أخيراً أو. كولزرود يكشف عن مجموعة جيدة كنموذج على مكتبات الباحثين النرويجيين فى خلال العصور الوسطى. كذلك المجموعة التى خلفها الدنمركى **جنز جراند**(٣)، أسقف لوند الذى توفى فى البلاط البابوى فى أفنجنون سنة ١٣١٠م.

---

(١) I. Collijn , O. A. Johnsen , E. Jorgensen , O. Kulsrud, A. Malin, W.Munthe, E.olmer, C.S.Paterson, O.Walde, L.Weibull

(٢) Arne Sigurdsson

(٣) Jens Grand

وعلى نحو ما كان فى كل الغرب المسيحى كان الإكليريون فى الشمال هم أعمدة الحياة الفكرية وقد وصلتنا وثائق باللاتينية عن أنشطة **الملك القديس أولاف**[1] من منتصف القرن الحادى عشر كما وصلتنا بعض المدونات القانونية باللغات المحلية من القرن الحادى عشر أيضاً. وفى ختام القرن الثانى عشر كتب **أندرياس سونيسون سداسياته**[2] فى أكثر من ثمانية آلاف **تفعيلة سداسية**، كما كتب **ساكسو جراماتيكوس** كتابه: **تاريخ الدول الاسكندنافية**[3]. وهو تاريخ مطول للعصور الأولى من حياة الدول الاسكندنافية. كذلك كان لترجمة النصوص اللاتينية إلى اللغة السويدية أثر كبير فى نقل الفكر الغربى وتفهمه من جانب أهل الشمال. هذه الترجمات لم تقتصر فقط على الكتاب المقدس، قصص الرسل والطقوس وكتابات آباء الكنيسة الأقدمين ولكن أيضا ترجمت أعمال القديسين وشروحها مثل كتابات: أوغطين الممجد، برنارد من كليرفو، هيجو من سانت فيكتور، هنريتش فون هيسين، جان جيرسون، توماس كمبس وغيرهم كثيرون. من جانب آخر قام مؤلفو الشمال بتأليف إضافات عظيمة: لاهوتية، تاريخية، علوم عملية، سير القديسين، العظات الدينية، اجتماعية، تفاسير، الإنشاد الدينى. . . كذلك فإنهم قاموا بإعداد تنقيحات ومراجعات عديدة للكتب المدرسية وأعدوا حواش وشروحاً عليها. كذلك فإن مجموعة القوانين الاسكندنافية منذ القرن الثالث عشر من القوانين التى لها أهمية خاصة فى هذا المجال.

كذلك فإن كثيراً من المؤلفين الاسكندنافيين الذين درسوا فى دول أجنبية كان لهم إسهامهم الفكرى ونشروا أعمالهم فى تلك الدول. وهناك نموذجان هامان على ذلك: أولهما **بوثيوس دى داكيا**[4]، وهو سويدى من أوسترجوتلاند **وبيروماجنى دى لودوسيا**. ففى سنة ١٢٧٠م تقريبا كان **داكيا** فى كلية الآداب فى جامعة باريس وقد أدخل هناك فلسفة ابن رشد. ورغم أنه منع من التدريس إلا

(١) King Olaf

(٢) Andreas Suneson / Hexameron

(٣) Saxo Grammaticus / Gesta Donarum

(٤) Bothius de Dacia , Bero Magni de Ludosia

أن كتاباته قد انتشرت انتشاراً واسعاً فى ألمانيا والنمسا. أما **لودوسيا** فقد امتد نشاطه بين ١٤٣٣ - ١٤٦٥ فى جامعة فيينا وكانت كتاباته ومحاضراته واسعة الانتشار ويمكن قراءتها اليوم فى المكتبات النمساوية. وقد أهدى مجموعته الشخصية وقوامها ١٣٨ مخطوطة إلى كاتدرائية إسكارا.

وأقدم سجلات المكتبات فى السويد ترجع إلى القرن الثالث عشر وهى تتعلق بمكتبات الكاتدرائيات فى إسكارا، لنكوبنج، أوبسالا؛ ولكن ما وصلنا منها قليل. ولعل أحسن المجموعات التى وصلتنا هى تلك التى وصلتنا من كاتدرائية **سترانجناس**[١]. وكذلك عاشت مجموعات مكتبة كاتدرائية **تروندهايم**[٢] إلى مابعد حركة الإصلاح بينما اختفت مجموعات مكتبات الكاتدرائيات فى أوسلو وبيرجن.

وأقدم الأديرة فى السويد هى أديرة السستريين، وقد أنشئت أولياتها فى منتصف القرن الثانى عشر. ومع القرن الثالث عشر بدأ الدومنيكان والفرنسسكان فى بناء أديرتهم فى المدن. وفى نهاية العصور الوسطى كان هناك حوالى ١٣ ديراً للسستريين، ٢١ ديراً للفرنسسكان و١٦ ديراً للدومنيكان فى المنطقة التى تعرف اليوم بفنلندا والسويد. هذه الأديرة قدمت خدمات ثقافية عديدة لتلك الدول. ومع أن بعض تلك الأديرة كانت فيها مكتبات كبيرة إلا أن غالبيتها كانت مكتباته صغيرة محدودة. ولعل أكبر تلك المكتبات كانت هى مكتبة دير **فاديستينا**، الدير الأم فى **بروجتين**[٣] (التابع لطائفة المنقذ المقدس الأكبر) وكان فى هذه المكتبة نحو ١٤٠٠ مخطوط، وهو رقم نادراً ما يصل إلى دير فى العصور الوسطى. وصلنا من هذا العدد ٤٤٤ مخطوطة وعدد معقول من أوائل المطبوعات موجودة الآن فى مكتبات أوبسالا واستوكهولم. وكان الراهب **ثوريروس اندراى** (المتوفى سنة ١٤١٨م)[٤] قد اشترى كتباً كثيرة لهذا الدير عندما كان يحضر مجلس الكنائس فى كونستانس وفى نفس الوقت كان الدير يشترى كتباً من باريس وريفال وانجلترا.

---

(١) Strangnas

(٢) Trondheim

(٣) Vadstena , Bridgettine

(٤) Thorirus Andrae

وتقترب من حجم مكتبة فاديستينا وأهميتها مكتبات أديرة الفرنسسكان فى استوكهولم والدومنيكان فى لوند وسيجتونا. ولم يكن للمكتبات الجامعية فى جامعتى أوبسالا (أسست سنة ١٤٧٧) وكوبنهاجن (أسست ١٤٧٩) أهمية تذكر فى تاريخ المكتبات والحركة المكتبية فى دول الشمال.

ولايزيد عدد المخطوطات التى وصلتنا من المكتبات الدنمركية الوسيطة عن ٣٠٠ مخطوطة إلا قليلاً، من بين هذا العدد ١٦٠ فقط موجودة داخل الدنمرك وكانت أكبر الخسائر للمخطوطات الدنمركية هى تلك التى حدثت فى حريق كوبنهاجن سنة ١٧٢٨م، والذى طال مكتبة الجامعة أيضاً وتسبب لها فى خسائر كبيرة.

وكانت أقدم المكتبات فى فنلندة هى مكتبة الكاتدرائية فى **آبو(توركو)**[١]. وقد أسست فى منتصف القرن الرابع عشر. وقد دمرت مجموعاتها تدميراً كبيراً على أيدى الدنمركيين.

وكلما انعقد المجلس الكنائسى فى كونستانس، كلما ترددت حكايات وجود نسخ من كتب ليفى النادرة فى مكتبات الشمال، وكانت تلك الحكايات تلهب مشاعر الإنسيين من أمثال كوزيمو دى مديتشى، وتجعلهم يدفعون برسلهم ورحالتهم للبحث عنها فى الدول الاسكندنافية وخاصة فى دير **سورو على أرض البحر** الدنمركية[٢]،والبحث أيضا عن أية كنوز يونانية أو رومانية. وقد أرسل البابا نيقولاس الخامس رسوله **إينوخ من أسكولى**[٣] إلى منطقة البلطيق فى بعثة مماثلة سنة ١٤٥١. وفى سنة ١٤٥٧م أرسل البابا **كالستوس الثالث**، المحارب الصليبى الواعظ **مارينوس دى فريجينو**[٤]، بنفس الطريقة للبحث عن المخطوطات القديمة. وقد وجد مارينوس نفسه فى مواقف عصيبة كثيرة بسبب البحث عن تلك الكتب. هذه الرحلات لصيد المخطوطات القديمة فى أرض الشمال رغم أنها لم تكن مثمرة ولا مجدية إلا أنها لم تتوقف ولم تنقطع حتى

---

(١) Abo (Turku)

(٢) Soro on Seeland

(٣) Enoch of Ascoli

(٤) Callistus III , Marinus de Fregeno

حركة الإصلاح الدينى. واليوم تملك المكتبات الاسكندنافية فى كوبنهاجن، لوند، أوبسالا، استوكهولم مخطوطات قيمة من العصور الوسطى تخدم فى نقد النصوص وتاريخ الحياة الثقافية. ولكن الكتب الكلاسيكية منها موجودة بنسخ ليست قديمة إنما نسخ من العصور الوسطى المتأخرة.

كذلك فإن أيسلنده لم تقف فى العصور الوسطى موقفاً منعزلاً ولكنها ككل دول الشمال دخلتها اللغة اللاتينية والكتابات اللاتينية، وهى الأعمدة الأساسية للمسيحية فى نفس الوقت الذى دخلته إلى الدول الشمالية الأخرى. أشهر مدرستان هناك أنشئتا فى القرن الحادى عشر: في كاتدرائية اسكالهولت ١٠٥٦م وفى كاتدرائية هولار ١١٠٦م[١].

كذلك أنشئت المدارس فى الأديرة البندكتية والأوغسطية فى **ثنجييرر؛ مونكاؤوفيرا؛ ثايكربابر**[٢] وغيرها. وقد تخرج فى هذه المدارس عدد من الباحثين والشعراء وعندما أسس الأسقف **جيسور**[٣] طائفته الدينية فى نهاية القرن الحادى عشر أعفى القساوسة من دفع ضرائب الكتب وأدوات الموسيقى الكنسية.

لقد دخلت الكتابة إلى أيسلندة مع النصف الأول من القرن الثانى عشر ومن ثم كانت هناك قوانين مدونة فى سنة ١١١٨م. وبسبب موقعها على الحافة البعيدة من دائرة الثقافة الغربية فقد باتت الكنيسة فى أيسلندة بعيدة مستقلة عن السلطة الكنسية المركزية، دون سائر الغرب. ونمت النزعة القومية فيها نمواً مطرداً وقوياً مما أدى إلى تطور اللغة المحلية واستخدامها إلى جانب اللاتينية فى الإنتاج الفكرى. وجدت الثقافة المسيحية لها هناك مكانة ولكن التقاليد المحلية كانت فى ازدهار مستمر راسخ الجذور بسبب العناصر الاجتماعية المؤثرة فى ذلك. فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ذاع هناك حديث كل من **آرى** و **صايموند**[٤] باعتبارهما علماء فى الشئون القديمة حيث قاما بكتابة تاريخ بلدهما القديم. وقد تمت ترجمات كثيرة هناك ليس فقط لأجزاء من الكتاب المقدس ولكن أيضا

(١) Skalholt , H-lar

(٢) Thingeyrer. Monkaovera , Thykkribaer

(٣) Gissur

(٤) Ari, Saemund

لشروحه وسير القديسين ومحاورات جريجورى الكبير، قصص القديسين، كتابات التكريس، النحويين القدماء بل وهناك ترجمة لأحد الكتب فى علم وظائف الأعضاء وكتابات سانت أوغسطين وأتباعه. كذلك ترجمت كتب في تاريخ العالم، وكتب ساللوست وغير ذلك كثير. إلى جانب تلك الترجمات كانت هناك كتب رحلات، وتراجم قادة الكنيسة المحليين مكتوبة باللغة الأيسلندية؛

وفى أيسلندا نصادف **كتاب الأغانى الجديد، وكتاب الأغانى القديم** [١] . كتاب الأغانى الجديد جمعه فى سنة ١٢٢٠، الباحث المدنى **سنورى ستورلوسون**[٢] ويتضمن الأغانى الاسكندنافية القديمة الشعبية أو الملكية (أغانى البلاط)، وتوجد من هذا الكتاب نسخ من القرن الثالث عشر والرابع عشر. وكتاب الأغانى القديم وسمى بذلك منذ القرن السابع عشر تمييزاً له عن الكتاب الجديد - عبارة عن مجموعة كبيرة من الأغانى تدور حول الآلهة والأبطال مع نماذج حديثة من الفترة بين ١١٥٠ - ١٢١٠. ويبدو أنه جرى جمع هذا الكتاب على يد كاتب أيسلندى بعد عشرين سنة من كتاب سنورى (كتاب الأغانى الجديد). أما القصص النثرية وقصائد البطولة الشعرية المعروفة باسم **ساجا**[٣] الأيسلندية فلم يعرف جامعها ولا وقت جمعها. هذه القصص والقصائد يقوم بتأديتها الشعراء فى حفل من الناس وفى الاحتفالات والمهرجانات وفى البلاطات النرويجية. وكانت لمدة طويلة تنتقل بين الناس شفاهة. وللأسف لم يصلنا من هذه الساجا سوى قطع صغيرة من القرن الرابع عشر والخامس عشر على رقوق. ومن القرن السابع عشر والثامن عشر على ورق.

كذلك قام الإكليريون بتسجيل قصص القديسين وكتب القانون وجمعوها فى مجموعات، لأن تلك المجلدات الضخمة كانت تحتاج إلى إمكانيات المناسخ التى كانت مجهزة لإعداد الرقوق أو قادرة على شرائها والتى كانت قادرة على دفع النساخين المهرة إلى ذلك. ولما كان التعليم متاحاً أيضاً للعامة فى مدارس الأديرة

(١) Later Edda , Earlier Edda

(٢) Snorri Sturluson

(٣) Saga

فإن المخطوطات كانت تنسخ أيضا لحساب هؤلاء العامة عندما يريدون. وكثيراً ما كان رجال القانون قضاة وحامين يطلبون نسخ مثل تلك الكتب لهم.

فى مكتبات مدارس الكاتدارئيات والأديرة كنا نصادف دواوين الشعر، القصص، وكتب القانون جنباً إلى جنب الكتب اللاتينية. **وكانت الشخصيات من ذوى الحيثيات فى المجتمع**[1] (المدرسون والرؤساء المحليون) تسعى إلى تكوين مكتبات شخصية فهذا هو **جون هاكونارسون**[2] يشترى بعض الكتب على حسابه الشخصى فى القرن الرابع عشر (بعضها موجود الآن في المكتبة الملكية الدنمركية فى كوبنهاجن) ومجموعة الكتب هذه تتضمن كتابات قديمة، من بينها نصوص تتعلق باستقرار النرويجيين فى أيسلندة ٨٧٠ ـ ٩٣٠م ونصوص من عصر الساجا ٩٣٠ ـ ١٠٣٠م، واكتشاف الساحل الشرقى لأمريكا سنة ١٠٠٧م على يد مستوطنين من أيسلندة انطلقوا من جرينلاند.

لم تخرج أحسن دواوين الشعر وقصائد البطولة (ساجا) من بين الدوائر الثقافية المسيحية اللاتينية، وإنما ترجع أصولها إلى القبائل الجرمانية والوثنية المتأثرة بالكلتيين الذين سكنوا أيسلندا قبل النرويجيين؛ تلك القبائل التى شكلت لنا الأشكال الأولى من الساجا والأغانى والنصوص والأقوال بل والقوانين التى وجدت فى أيسلندا فى فترة مبكرة. وهكذا فإن الشعب الأيسلندى رغم أنه فرع صغير من الشعوب الجرمانية إلا أنه قدم إضافات رائعات لها قيمتها العالمية والفريدة فى تاريخ الكتاب فى العصور الوسطى.

كذلك كان لأيسلندا تأثيرها على النرويج. ولقد كان للمؤلفين النرويجيين دور هام وبارز فى تطور الكتاب اللاتينى الوسيط منذ منتصف القرن الثانى عشر، على الرغم من أن القصائد والقصص النرويجية القديمة لم تسجل. وتدور الإضافات النرويجية حول القوانين والتواريخ الشفوية غير المكتوبة من القرن الثانى عشر حتى القرن الرابع عشر.

وفقط منذ منتصف القرن السابع عشر بدأ بعض أفراد الشعب الأيسلندى فى

(١) Goden

(٢) Jon Hakonarson

نسخ وكتابة المخطوطات القديمة وجمعها. ومن الجماعين المشهورين للمخطوطات فى ذلك القرن: **آرنى ماجنوسن** (١٦٦٣ ـ ١٧٣٠)[١] . وكانت مجموعته ـ التى فقدت جزءاً منها فى حريق كوبنهاجن ١٧٢٨م قد نقلت إلى مكتبة جامعة كوبنهاجن بعد وفاته وماتزال موجودة فيها حتى الآن. كذلك فإن المكتبات الشخصية للعديد من الأيسلنديين قد استقرت خارج أيسلندا فى مكتبات الأرض الأم فى كوبنهاجن، استوكهولهم، أوبسالا، أوسلو، ولفنبوتل، باريس بل وحتى انجلترا.

ومن الطريف أنه لا يوجد داخل أيسلندا من المخطوطات الأيسلندية السبعمائة التى سلمت من الخراب والدمار سوى مخطوط واحد.



(١) Arni Magnusson

القسم الخامس

الكتب والمكتبات فى الدولة البيزنطية

وعند اليهود

الفصل الأول: الأرض التي نبتت فيها الكتب والمكتبات البيزنطية

الفصل الثانى : الكتب والقراء في الدولة البيزنطية

الفصل الثالث : الإيضاحيات والزخارف في الكتب البيزنطية

الفصل الرابع : المكتبات البيزنطية فى العصور الوسطى

الفصل الخامس : المكتبات اليهودية فى العصور الوسطى الأوربية

الفصل الأول

الأرض التى نبتت فيها الكتب والمكتبات البيزنطية

تستمد الدولة البيزنطية اسمها من اسم مستعمرة يونانية قديمة، أقامها اليونانيون القدماء منذ القرن السابع قبل الميلاد على البوسفور باسم بيزنطة[١] نسبة إلى القائد اليونانى بيزاس[٢] وقد أعاد بناءها قسطنطين الكبير وجعل منها عاصمة الامبراطورية الشرقية كما سنرى بعد ولكن تحت اسم جديد هو القسطنطينية. ولقد أخذ المؤرخون اسم المستعمرة القديم وأطلقوه على تلك الدولة الإغريقية فى العصور الوسطى على وجه الإجمال.

إن اصطلاح الدولة البيزنطية أو الإمبراطورية البيزنطية أو مجرد بيزنطة، إنما يطلق على ذلك الكيان الذى انسلخ من الإمبراطورية الرومانية فى الشرق من البوسفور حتى الفرات فى عهد أركاديوس سنة ٣٩٥م واستمر حتى سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م ومن هنا تكون الدولة البيزنطية قد عمرت أكثر من ألفية كاملة.

لقد بدأت بوادر انسلاخ تلك الدولة من الامبراطورية الرومانية الكبرى عندما كان الفرس يهددون شرقى الامبراطورية الرومانية، ثم ترسخ هذا الانسلاخ بعدما غزا البرابرة الجزء الغربى من الامبراطورية وأسقطوا روما وسيطروا على هذا الجزء الغربى وبالتالى بات انشطار الامبراطورية إلى شطرين: شرقى وغربى أمراً واقعاً وأصبحنا أمام دولتين متميزتين، بل وفى ظل البرابرة المسيطرين على الأجزاء الغربية أصبحت الدولة البيزنطية هى الوريث الطبيعى للامبراطورية الرومانية بأسرها بعد سنة ٤٧٦م.

ولقد لعبت الخلافات الدينية المسيحية القاتلة دوراً هاماً فى إضعاف تلك الامبراطورية وعجزت عن صد هجمات المسلمين على أطرافها بعد سنة ٦٣٢م،

---

(١) Byzantion

(٢) Pizas

وقد انتزع المسلمون منها سوريا ومصر وشمالى إفريقيا وبلغوا حدود القسطنطينية مراراً. لقد ازدهرت الدولة البيزنطية أيما ازدهار فى عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٧م) التى اشتهر من بين حكامها باسيليوس الأول (٨٦٧-٨٨٦م)، نيقفور الثانى فوقاس، يوحنا الأول تزيميسكيس. ولقد دخلت الدولة البيزنطية فى صراع مرير مع الدولة الحمدانية فى حلب وكانت هناك سلسلة معارك حربية فى مد وجزر دائمين. ومن الطريف أن الحروب الصليبية قد طالتها هى الأخرى وأضعفتها وعملت على تجزئتها سنة ١٢٠٤م حتى سقطت أمام ضربات محمد الفاتح وخرجت من الوجود سنة ١٤٥٣م.

وقبل أن ندخل فى بعض تفاصيل قيام وتطور الدولة البيزنطية وخلفية عمل الكتب والمكتبات فى تلك الدولة نقدم الجدول الآتى بالأسر والأفراد الحاكمين لتلك الدولة حتى نكون على بينة من هذا التطور والتأثير والتأثر:-

تحت حكم الرومان

الأسرة القسطنطينية

قسطنطين الأول	٣٢٤-٣٣٧
قسطنطين الثانى	٣٣٧-٣٦١
بوليانوس	٣٦١-٣٦٣
بوفيانوس	٣٦٤.

الأسرة الثيودوسية

ثيودوسيوس الأول	٣٧٩-٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥-٤٠٨
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨-٤٥٠
مرقيانوس	٤٥٠-٤٥٧

الأسرة التراقية

ليون الأول	٤٥٧-٤٧٤
ليون الثانى	٤٧٤.
زينون	٤٧٤-٤٩١

تحت حكم اليونان

أنستاسيوس الأول	٤٩١-٥١٨	
بوستينوس الأول	٥١٨-٥٢٧	
يوستنيانوس الأول	٥٢٧-٥٦٥	
يوستنيانوس الثانى	٥٦٥-٥٧٨	
تبيريوس	٥٧٨-٥٨٢	
موريقيوس	٥٨٢-٦٠٢	
فوكاس	٦٠٢-٦١٠	
هرقل	٦١٠-٦٤١	
قسطنطين الثالث هرقل ٦٤١.		
هرقل هيرقلوناس	٦٤١.	
كونستاس بوجوناتس	٦٤١-٦٦٨	
قسطنطين الرابع	٦٦٨-٦٨٥	
وستنيانس الثانى	٦٨٥-٦٩٥	
ليونتيوس	٦٩٥-٦٩٨	
تبيريوس الثالث	٦٩٨-٧٠٥	
يوستنيانوس الثانى	٧٠٥-٧١١	(للمرة الثانية).
فيليبكوس باردانس	٧١١-٧١٣	
انستاسيوس الثانى	٧١٣-٧١٥	
تيودوسيوس الثالث	٧١٥-٧١٦	
ليون الثالث	٧١٦-٧٤٠	

قسطنطين الخامس	٧٤٠-٧٧٥	
ليون الرابع	٧٧٥-٧٨٠	
قسطنطين السادس	٧٨٠-٧٩٠	
إيرين	٧٩٠.	
قسطنطين السادس	٧٩٠-٧٩٧	(للمرة الثانية)
إيرين	٧٩٧-٨٠٢	(للمرة الثانية)
نقفوروس الأول	٨٠٢-٨١١	
ستوراكيوس	٨١١.	
ميخائيل الأول	٨١١-٨١٣	
ليون الخامس	٨١٣-٨٢٠	
ميخائيل الثانى	٨٢٠-٨٢٩	
ثيوفيلوس	٨٢٩-٨٤٢	
تيودورا	٨٤٢-٨٥٦	
ميخائيل الثالث	٨٥٦-٨٦٧	
باسيليوس الأول	٨٦٧-٨٨٦	
ليون السادس	٨٨٦-٩١٢	
إسكندر	٩١٢-٩١٣	
قسطنطين السابع	٩١٣-٩٢٠	
رومانوس الأول	٩٢٠-٩٤٤	
قسطنطين السابع	٩٤٤-٩٥٩	(للمرة الثانية)
رومانوس الثانى	٩٥٩-٩٦٣	
باسيليوس الثانى	٩٦٣.	
نقفوروس الثانى فوكاس	٩٦٣-٩٦٩	
يوحنا الأول	٩٦٩-٩٧٦	

باسيليوس الثانى	٩٧٦-١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥-١٠٢٨
رومانوس الثالث	١٠٢٨-١٠٣٤
ميخائيل الرابع	١٠٣٤-١٠٤١
ميخائيل الخامس	١٠٤١-١٠٤٢
زوئبه	١٠٤٢.
قسطنطين التاسع	١٠٤٢-١٠٥٥
تيودورا (أخرى)	١٠٥٥-١٠٥٦
ميخائيل السادس	١٠٥٦-١٠٥٧
إسحق الأول	١٠٥٧-١٠٥٩
قسطنطين العاشر	١٠٥٩-١٠٦٧
أفدوكيا	١٠٦٧.
رومانوس الرابع	١٠٦٨-١٠٧١
ميخائيل السادس	١٠٧١-١٠٧٨
نقفوروس الثالث	١٠٧٨-١٠٨١
ألكسيوس الأول	١٠٨١-١١١٨
يوحنا الثانى	١١١٨-١١٤٣
مانويل الأول	١١٤٣-١١٨٠
ألكسيوس الثانى	١١٨٠-١١٨٣
أندرونيكوس الأول	١١٨٣-١١٨٥
إسحق الثانى	١١٨٥-١١٩٥
ألكسيوس الثالث	١١٩٥-١٢٠٣
إسحق الثانى	١٢٠٣-١٢٠٤
ألكسيوس الخامس	١٢٠٤.
قسطنطين الحادى عشر	١٢٠٤.

فى نيقية

قسطنطين الحادى عشر	١٢٠٤.	
تيودوروس الأول	١٢٠٤- ١٢٢٢	
يوحنا الثالث	١٢٢٢- ١٢٥٤	
تيودوروس الثانى	١٢٥٤- ١٢٥٨	
يوحنا الرابع	١٢٥٨.	
ميخائيل الثامن	١٢٥٨-١٢٦١	

فى القسطنطينية

ميخائيل الثامن	١٢٦١-١٢٨٢	
أندرونيكوس الثانى	١٢٨٢-١٣٢٨	
أندرونيكوس الثالث	١٣٢٨-١٣٤١	
يوحنا الخامس	١٣٤١-١٣٥٤	
يوحنا السادس	١٣٥٤-١٣٥٥	
يوحنا الخامس	١٣٥٥-١٣٧٦	(للمرة الثانية)
أندرونيكوس الرابع	١٣٧٦-١٣٧٩	
يوحنا الخامس	١٣٧٩-١٣٩١	(للمرة الثالثة)
يوحنا السابع	١٣٩١	
مانويل الثانى	١٣٩١-١٤٢٥	
يوحنا الثامن	١٤٢٥-١٤٤٨	
قسطنطين الثانى عشر	١٤٤٩-١٤٥٣	

* * *

لقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول الوقت الذى قامت فيه الدولة البيزنطية وأول أباطرتها ولم تحسم هذه القضية حتى الآن ولذلك يتتبعون تاريخها منذ أن أصبحت قسماً متميزاً داخل الامبراطورية الرومانية الكبرى. ومن هنا يرى البعض أن بداية الدولة البيزنطية هى سنة ٣٢٤م ففى تلك السنة انفرد الامبراطور قسطنطين الكبير بحكم الامبراطورية الرومانية وفيها أمر بتشييد مدينة القسطنطينية

فى نفس مكان المستعمرة اليونانية القديمة بيزنطة وكأنه بطريقة لاشعورية أعطى إشارة بدء انشطار الامبراطورية إلى نصفين شرقى وحاضرته تلك المدينة الجديدة التى قامت على أنقاض القديمة؛ وغربى حاضرته المدينة العجوز روما (حوالى ٧٥٣ ق.م). وهناك تاريخ آخر يقول به بعض المؤرخين وهو ٣٩٥م حين عزز أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م) استقلال وانسلاخ شرقى الامبراطورية عن حكومة روما. وهناك من يرى أن الدولة البيزنطية لم تصبح واقعاً قائماً بذاته يستحق هذه التسمية (الدولة - الامبراطورية) إلا بعد سقوط روما على أيدى برابرة الشمال وانتهاء الامبراطورية الرومانية رسمياً بعد سنة ٤٧٦م وتقسيمها إلى دول على رأس كل منها حاكم بذاته. ومن هذا المنطلق فعلاً تكون الدولة البيزنطية هى دولة العصور الوسطى قامت معها وانتهت معها؛ ويكون زينون هو أول أباطرتها الفعليين ويكون قسطنطين الثانى عشر هو آخر أباطرتها. ورغم أننا نميل إلى هذا الرأى الأخير إلا أننا نود أن نتتبع قيام الدولة البيزنطية أو إرهاصات قيامها فى بطن الامبراطورية الرومانية الكبرى.

لقد ورثت روما ملك الامبراطورية اليونانية فى القرن الثانى قبل الميلاد. وبلغت الامبراطورية الرومانية أوج عظمتها وعزها فى القرن الثانى بعد الميلاد عندما أصبح البحر الأبيض المتوسط فيما يقولون بحيرة رومانية ورغم أن الرومان كانوا قوماً أجلافاً إلا أنهم تشربوا الحضارة اليونانية وتحضروا مع مرور الوقت ولم يحاولوا ككل المنتصرين تدمير حضارة المهزوم بل أفادوا منها وحافظوا عليها لدرجة أن العبد اليونانى كان يعلم سيده الرومانى وورث الرومان الكتب والمكتبات اليونانية حتى لقد قال أحد المؤرخين الكلاسيكيين عبارته الشهيرة «لقد غلبت أثينا فاتحها البربرى».

يقول الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع فى كتابه (دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ط٥: ١٩٩٥) بأن الامبراطورية الرومانية بعد ازدهار القرن الثانى واجهتها فى القرن الثالث الميلادى ثلاث أزمات هزت أركانها هى:

أ - الاضطراب السياسى والاقتصادى

ب - إغارة القبائل الجرمانية والفرس عليها من حين لآخر

جـ - تهديد المسيحية للعقيدة الوثنية، تلك الوثنية التى لم تعد قادرة على سد الحاجات الروحية لدى الناس وتمكينهم من السلام النفسى.

وفى ذلك القرن الثالث غلب على الامبراطورية الرومانية الطابع اليونانى المسيحى، وبدأ الطابع اللاتينى الوثنى يتخلى عنها بالتدريج. وفى ظل تلك الظروف بدأ الانهيار والتخلف يصيب مؤسسات الدولة الاجتماعية والسياسية والفكرية ولم يعد الحاكم أو مجلس الشيوخ قادراً على إدارة دفة الأمور وأصبح العسكريون فى الولايات المختلفة للامبراطورية هم الحكام الفعليون، يعزلون ويعينون من يشاءون من الأباطرة مما مهد الطريق للحروب الأهلية.

ويقول الدكتور حسنين محمد ربيع أيضاً فى كتابه سابق الذكر أن الانهيار الاقتصادى كان أمراً طبيعياً فى ظل الانهيار السياسى والإدارى وضغط الفرس والبربر على أطراف الامبراطورية من الشرق والشمال، مما أدى إلى فقدان التوازن التجارى مع الشرق وقلة المتحصلات الضرائبية وزيادة نفقات الدولة، وانتشار الأوبئة والطواعين نتيجة الفقر والضعف وسوء التغذية وأدى هذا كله بالضرورة أيضاً إلى قلة عدد السكان ونقص القوى البشرية فى مجال الزراعة خاصة. واضطر الأباطرة إلى غش العملات النقدية عن طريق زيادة نسبة المعادن الخسيسة فيها مما جعل العملات الذهبية تختفى وحلت النحاسية محل الفضية فانحطت قيمة العملة والتهبت الأسعار. واهتزت الثقة فى العملة الرومانية (العملة الرومانية بدأت فى الظهور ٣٣٥ ق.م)، وحدث التضخم الذى لانظير له واضطر القوم إلى اللجوء لنظام المقايضة وترك التعامل بالنقد.

وفى ظل هذا الانهيار والتخلف الشامل انتهزت القبائل الجرمانية فى شمالى أوربا الفرصة وأغارت على أطراف الامبراطورية واقتطعت أجزاء منها كما قام الفرس من الشرق أيضاً بالإغارة على الأقاليم الرومانية المتاخمة لهم.

ونستطيع أن نتلمس بذور قيام الدولة البيزنطية فى عهد دقلديانوس الذى

وصل إلى السلطة فى ظل هذه الفوضى الشاملة ٢٨٤م واستمر حكمه حتى سنة ٣٠٥م حيث قام بالعديد من الإصلاحات على رأسها:

أ - الفصل التام بين السلطتين العسكرية والمدنية.

ب - إصلاح الإدارة وجعل السلطة العليا فى يد امبراطورين لا واحد كل منهما يلقب بلقب أوغسطس أحدهما يحكم الشطر الشرقى والثانى يحكم الشطر الغربى وأكثر من هذا يكون لكل امبراطور نائب بلقب قيصر.

ج - تقوية الحصون والثغور وإعادة تنظيم القوات وتقوية الجيش وإعادة توزيعه.

ومن المعروف أن الامبراطورية الرومانية كانت تضطهد المسيحية والمسيحيين إلى حد إصدار المراسيم التى تحرم اعتناقها، وتكريس اعتناق الوثنية. ولم يقم دقلديانوس بإلغاء تلك المراسيم وإن انتهج سياسة التسامح الدينى مع المسيحيين.

ثم نكص عن ذلك فى أواخر أيامه بتحريض من نائبه فى الشرق جاليريوس وأصدرا معاً بين ٣٠٢-٣٠٥م عدة مراسيم تحث على اضطهاد المسيحيين.

ولما تولى قسطنطين الكبير السلطة لم يتبع فقط سياسة التسامح الدينى مع المسيحيين بل واعترف بالمسيحية ديناً فى الدولة. وقد اختلف المؤرخون فى دوافعه إلى ذلك، ومهما كانت الدوافع فقد ازدهرت المسيحية أيما ازدهار وتبلورت الدولة البيزنطية فى ظلها أكثر وأكثر وإن لم تكن قد خرجت إلى الوجود بعد.

وبعد وفاة قسطنطين الكبير قسم القسم الشرقى من الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة قسطنطين الثانى وقسطنطيوس وقنسطانز سنة ٣٣٧م مما أدى إلى نزاع وصراع مرير بينهم حتى تغلب قسطنطيوس بعد مقتل أخويه وأصبح الامبراطور بين ٣٠٥ و ٣٦١م. وبعد وفاته ولم يعقب أصبح جوليان ابن عمه خلفاً له.

كان جوليان معجباً وبالفن والثقافة ميالاً إلى الفكر الكلاسيكى اليونانى

الرومانى على السواء وكان هو نفسه مؤلفاً وفيلسوفاً. لقد درس الرجل فى نيقوميديا وخاصة على يد الفيلسوف ليبانيوس، أعظم علماء البلاغة فى عصره، كذلك درس جوليان فى أثينا. وربما كان ذلك سبباً فى ميله إلى الوثنية ونكوصه عن المسيحية ومن حسن الحظ أن فترة حكمه كانت قصيرة جداً (٣٦١-٣٦٣م). وفى نهاية القرن الرابع تهددت هذا الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية ما تهدد الجزء الغربى من إغارات الغوط والهون وارتكب امبراطور الشرق فالنسى خطأ فادحاً عندما سمح للغوط بدخول أراضيه هرباً من الهون والإقامة فيها حيث دخل نحو مليون منهم، وسرعان ما انقلبوا عليه وحاربوه وقتلوه وأحدثوا فوضى لا حد لها وإن لم يقتحموا المدن الرئيسية ومنها القسطنطينية. ولما تولى ثيودوسيوس الأول عرش القسم الشرقى هذا (بيزنطة) حدث نوع من الهدوء والاستقرار وسمح للغوط بالبقاء على الأطراف وحماية الدولة من القبائل الجرمانية.

وبعد أن توفى يودوسيوس العظيم فى سنة ٣٩٥م قسمت الامبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه فكان الجزء الشرقى (بيزنطة) من نصيب ابنه أركاديوس[١] والجزء الغربى من نصيب ابنه هونوريوس[٢] . ومن هنا نظر بعض المؤرخين إلى هذا التقسيم إلى شرق وغرب على أنه الميلاد الحقيقى للدولة البيزنطية. وسلك كل قسم مسلكاً مختلفاً وتبلور تاريخ خاص بالجزء الشرقى منفصل عن الجزء الغربى. وأصبح يطلق على الدولة البيزنطية اسم الامبراطورية الرومانية الشرقية، والقسم الغربى اسم الامبراطورية الرومانية الغربية.

الامبراطورية الرومانية الغربية أصبحت منذ نهاية القرن الرابع وحتى الربع الأخير من القرن الخامس هدفاً مستمراً لإغارات البربر وخاصة القبائل الجرمانية. ومن سخرية القدر أن يغرى حكام بيزنطة الغوط بالهجوم على الامبراطورية الرومانية الغربية. واستمر الوضع السيئ يتفاقم هناك حتى سقطت روما على

---

(١) Arcadius

(٢) Honorius

أيدى هؤلاء البرابرة وتمزقت الامبراطورية الغربية وخلع آخر أباطرتها (رومولوس أغسطس) على يد القائد الجرمانى أودوفاكر. وتوفى زعيم الغوط الشرقيين تيودوريك[1] حكم إيطاليا وقتل أودوفاكر. ومن الطريف أنه اعتبر نفسه ممثلاً للامبراطور الرومانى الشرقى الحاكم فى القسطنطينية.

المهم أنه بينما تمزقت الامبراطورية الغربية ونشأت ممالك جرمانية مختلفة جديدة على أنقاضها، سلمت الدولة البيزنطية ودخلت فى مرحلة من الثراء والازدهار.

لقد عرف البيزنطيون بالجدل العقيم، وحكاية الدجاجة والبيضة مشهورة معروفة عنهم، أيهما جاء من الثانى، وكان الجدل الدينى سبباً فى انقسام المجتمع البيزنطى واندلاع الخلافات المذهبية. وقد اتسع نطاق هذا الجدل بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية واعترافه بها. لقد امتد هذا الجدل إلى طبيعة المسيح (الناسوت واللاهوت)، تلك القضية التى كادت تدمر المجتمع البيزنطى وشغلت حتى الأباطرة لأكثر من خمسين عاماً؛ منذ آثار القسيس السكندرى آريوس[2] هذه القضية.

لم ينته القرن الخامس الميلادى حتى تمكنت المسيحية من الدولة البيزنطية واعتبرت القسطنطينية هى روما الجديدة وأصبحت كنيسة القسطنطينية هى ثانى الكنائس بعد كنيسة روما مباشرة. وقام ثيودوسيوس الثانى بن أركاديوس بتأسيس معهد دينى مسيحى سنة ٤٢٥م لمناهضة معهد أثينا الوثنى الذى كان يدرس علوم الفلسفة اليونانية. وفى نفس السنة أصدر الامبراطور قراره بإعادة تنظيم المدرسة العالية التى كانت موجودة فى القسطنطينية بحيث غدت جامعة يدرس فيها واحد وثلاثون أستاذاً علوم النحو والبلاغة والقانون والفلسفة والطب والفلك واللغة اليونانية. وقد أدى ذلك كله إلى أن تصبح القسطنطينية مركزاً للعلم والثقافة

(١) Theodoric
(٢) Arius

وبعث العلوم اليونانية القديمة ومركزاً لنشر الكتب وتجارتها وغدت اللغة اليونانية بالتدريج اللغة الشائعة فى الامبراطورية وحلت محل اللاتينية بالتدريج. وكانت أوربا قد سقطت فى مستنقع العصور الوسطى المظلمة.

لم تنتشر المسيحية في الدولة البيزنطية على أسس علمية سليمة بل شابتها شوائب وثنية ليس أخطرها الجدل حول طبيعة المسيح، بل كان أخطرها على الإطلاق عبادة الأيقونات. هذه الأيقونات وإن كانت تماثيل أو صوراً للمسيح وأمه ويحيى المعمدان والقديسين وغيرهم، ولم تكن تماثيل لآلهة اليونان إلا أنها فى حقيقة الأمر كانت شركاً صريحاً وغدت مشكلة حقيقية تهدد الامبراطورية فى عقيدتها وثقافتها وحضارتها وانقسم القوم بين مؤيد لعبادة الأيقونات ومحرم لها وكان بين المؤيدين والمعارضين على السواء رجال دين على مستوى عالٍ وأباطرة حكام. ولقد مزقت قضية الأيقونات هذه الامبراطورية طوال قرن ونصّف من الزمان على الأقل بين ٧١٧-٨٦٧م، إلى أن انتهى الأمر بتحطيم الأيقونات.

من جهة ثانية كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم قد بعث فى بداية القرن السابع الميلادى، وكانت الدولة البيزنطية فى حرب مع الفرس الذى أغاروا فى ذلك الوقت منذ ٦١٠م على الشام واستولوا على أجزاء منه وزحفوا على مصر وسقطت الإسكندرية فى أيديهم سنة ٦١٩م؛ وبعد ذلك استرد الامبراطور البيزنطى هرقل جميع الأرض التى استولى الفرس عليها وانتهى النزاع البيزنطى الفارسى سنة ٦٢٧م.

لقد بدأت الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق وقد وجهت أول ما وجهت إلى الشام واستطاع المسلمون الاستيلاء على كل الشام فى فترة وجيزة سنة ١٥هـ (٦٣٦م) وهزم البيزنطيون هزيمة ساحقة فى وادى اليرموك وأجنادين وبيت المقدس. وبعد ذلك فتح المسلمون مصر سنة ٦٤٢م ومنها خرجوا إلى سائر شمالى إفريقيا فى عهد عثمان بن عفّان سنة ٢٧هـ (٦٤٧م) وهزم البيزنطيون فى موضع قريب من القيروان الحالية ولم يعد للدولة البيزنطية مكان فى شمالى إفريقيا. وتابع المسلمون فتوحاتهم فى جزر البحر الأبيض المتوسط تمهيداً لحصار القسطنطينية عاصمة الامبراطورية وقد انتصر المسلمون فى

معركة بحرية ضد بيزنطة عرفت فى مصادر التاريخ الإسلامى باسم (غزوة الصوارى) وكان الامبراطور البيزنطى قنسطانز قد قاد جيوشه فى هذه المعركة وكاد يقع أسيراً فى يد العرب. وبعد ذلك توقفت الفتوحات الإسلامية بسبب الفتن والقلاقل داخل الدولة الإسلامية إلى أن قامت الدولة الأموية التى استأنفت الفتوحات. وفى سنة ٤٩هـ (٦٦٩م) بعد سنة واحدة من تولى قسطنطين الرابع الحكم، جهز الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان جيشاً كبيراً بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية إلا أن المسلمين فشلوا فى اقتحام المدينة الحصينة.

ولابد من أن نذكر هنا أن الخليفة عبد الملك بن مروان الذى تولى حكم الدولة الإسلامية فى نفس السنة التى تولى فيها جستنيان الثانى حكم بيزنطة خلفاً لأبيه قسطنطين الرابع، قام بعملين عظيمين هما تعريب الدواوين وسك النقود العربية وبالتالى خلص الشام من النفوذ البيزنطى إلى حد كبير.

حاول المسلمون مرة ثانية فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٧م فتح القسطنطينية إلا أنهم فشلوا أيضاً فى تحقيق ذلك الحلم القديم رغم ما حشد له من إمكانيات هائلة حتى لقد قيل بأن السفن الإسلامية التى اشتركت فى الحصار بلغت ألفا وثمانمائة من السفن.

ولم تتوقف غارات المسلمين على الدولة البيزنطية وصوائف الخلفاء مشهورة معروفة وكانوا أحياناً ينجحون وأحياناً أخرى يفشلون ويهزمون. ورغم أن العباسيين نقلوا عاصمة ملكهم من دمشق إلى بغداد بعيداً نسبياً عن الدولة البيزنطية إلا أنهم واصلوا حملاتهم على الدولة البيزنطية فقد وجه الخليفة المهدى سنة ١٦٥هـ (٧٨١م) حملة على رأسها ابنه هارون الرشيد، وصلت إلى شاطئ البوسفور، اضطرت معها الامبراطورة إيرين إلى دفع الجزية. وقام هارون الرشيد نفسه عندما أصبح خليفة سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) بتوجيه حملات أيضاً ضد الدولة البيزنطية. وفى تلك الأثناء نظمت الملحمة البيزنطية التى سنشير إليها فيما بعد وهى ملحمة ديجينس أكريتاس[1] .

وعندما خلف المأمون أباه الرشيد حذا حذوه فى توجيه حملاته إلى بيزنطة.

(١) Digenis Akritas

وكما يقول الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع فى كتابه دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية لجأ الخليفة المأمون إلى محاربة البيزنطيين بخطتين **الأولى** تأليب الطوائف وإشعال الفتن الداخلية لإضعافها من الداخل **والثانية** حربها والهجوم عليها من الخارج. وذلك على نحو ما فعل مع الامبراطور ميخائيل الثانى.

وقام الخليفة المعتصم سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م) بحملة كبيرة على الدولة البيزنطية استولى فيها على عمورية الشهيرة الى خلدها الشاعر أبو تمام الطائى المتوفى ٢٢٨هـ فى قصيدته البائية الرائعة التى مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب — فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى — متونهن جلاء الشك والريب
يايوم وقعة عمورية انصرفت — عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد — والمشركين ودار الشرك فى صبب

وبعد ذلك لم يتوقف المسلمون من حين لآخر عن الحرب ضد بيزنطة فى البحر الأبيض المتوسط وشمالى إفريقيا لتصفية الجيوب التى بقيت لهم هنا وهناك؛ وخاصة جزيرة كريت التى استولى عليها المسلمون لمدة قرن وثلاثين سنة، وصقلية ومنها تقدم المسلمون إلى جنوبى إيطاليا. إلا أن انهيار الدولة العباسية وتفككها قد أدى إلى توقف المسلمين عن مهاجمة الدولة البيزنطية.

ويتفق المؤرخون على أن الفترة مابين ٨٦٧ و ١٠٢٥ تعتبر العصر الذهبى للامبراطورية سياسياً واقتصادياً وحضارياً وفكرياً. ذلك أنه فى القرن العاشر توسعت حدود الامبراطورية مرة أخرى واسترد البيزنطيون كريت وصقلية من المسلمين بل وخضعت لهم مدن دمشق وصيدا وبيروت وفتحوا الباب على مصراعيه بعد ذلك للحروب الصليبية وفى الاتجاه الأوربى استولى البيزنطيون على مناطق من بلاد البلغار ومنها العاصمة نفسها وفى بداية القرن الحادى عشر أصبحت للبيزنطيين السيطرة على شبه جزيرة البلقان وامتدت حدود تلك الدولة فى أوج مجدها من الشام إلى الدانوب ومن أرمينيا إلى جنوبى إيطاليا. ودانت الأمم والشعوب المجاورة بالولاء لهم. وكان من الطبيعى أن يتبع هذا الانتصار

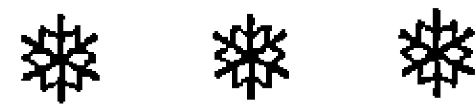
العسكرى والاستقرار السياسى رخاء اقتصادى: زراعى وصناعى وتجارى وفى تلك الفترة بدأ تكون التنظيمات المهنية والنقابات. وقد أسفر عن هذا كله انتشار للمسيحية واسع النطاق وازدهار غير مسبوق فى الحياة الفكرية والثقافية وانتعاش فى حركة نشر وتجارة المخطوطات وقد أعيد إحياء جامعة القسطنطينية، والتى كانت موجودة فى القرن الخامس الميلادى. ويشير الدكتور حسنين محمد ربيع إلى أن الذى قام بهذه المهمة هو القيصر بارداس خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره. وقد قام بارداس هذا بتعيين الفيلسوف ليو مديراً للجامعة. كما يشير إلى أنه قد واكب حركة إحياء الفكر فى البلاط البيزنطى حركة الترجمة الكبرى فى الدولة الإسلامية للمؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية فى البلاطات الإسلامية وخاصة بلاط الخليفة المأمون الذى حاول استقطاب الفيلسوف ليو المشار إليه وقدم له عرضاً مغرياً للقدوم إلى بغداد بيد أن الامبراطور البيزنطى منعه من ذلك وجعله يبقى فى بيزنطة.

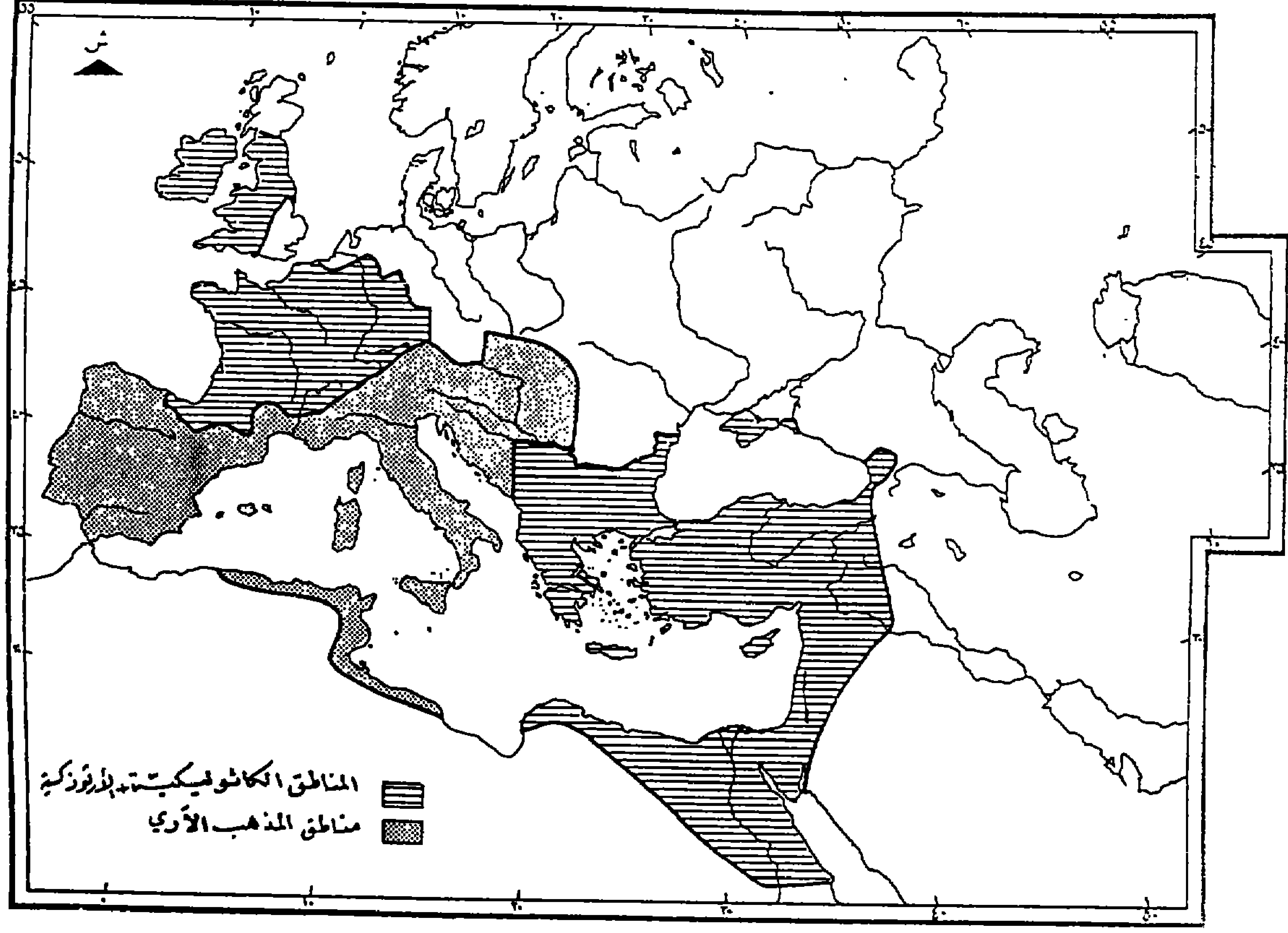
يتفق المؤرخون على أنه بعد وفاة الامبراطور باسيليوس الثانى سنة ١٠٢٥م تدهورت الأوضاع السياسية ودخلت الدولة فى حالة من الفوضى والعبث والاضطراب كانت بداية النهاية لهذه الامبراطورية سواء من الناحية السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أو الفكرية، وحدثت صراعات لاحد لها بين طوائف الدولة وطبقاتها المختلفة: بين المدنيين والعسكريين؛ بين العسكريين وأرباب القلم، وقصرت فترات حكم الأباطرة ولم يمكنهم ذلك من إدخال التحسينات على مرافق الدولة وتحقيق الاستقرار، ودخل النظام الإقطاعى من أوسع الأبواب إلى الدولة وتمكن منها وأصبح لأصحاب الإقطاعيات الكبيرة نفوذ وسلطان لا حد وتمكنوا من طبقة المزارعين الصغار. ومع هذا الانهيار والتدهور من الداخل وضعف الإدارة بدأت إغارات الدول الأجنبية مرة أخرى على أطراف بيزنطة من الشرق والشمال والغرب. وكان أخطر هذه الشعوب السلاجقة الأتراك والبوشناق والنورمان وكانت الهزيمة تلو الهزيمة من نصيب البيزنطيين.

وبعد تولى ألكسيوس الأول كومينين الحكم ١٠٨١م حاول إحياء مجد الامبراطورية بعد أن انكمشت انكماشاً كبيراً، فنجح أحياناً وفشل أحياناً أخرى.

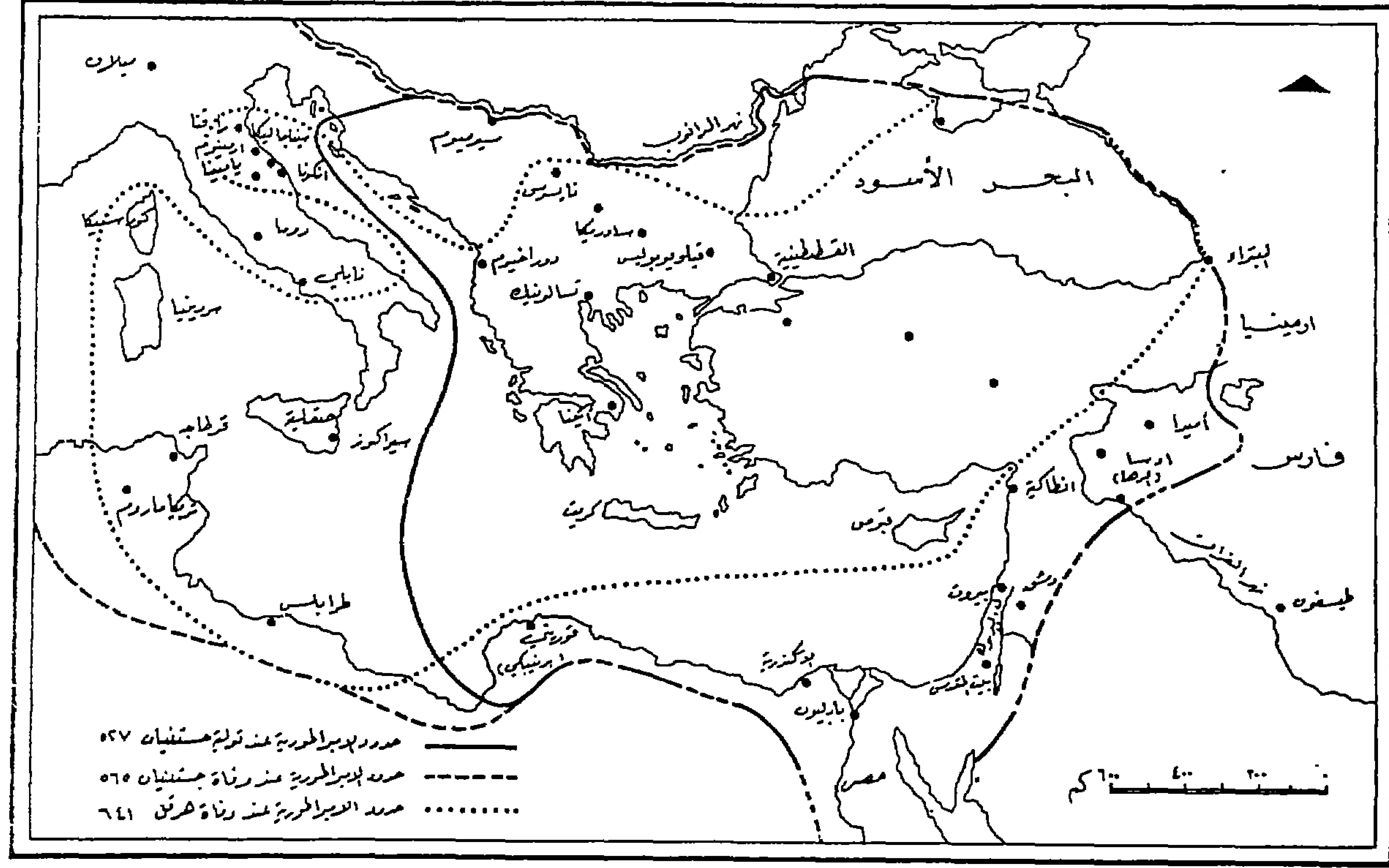
وفى عهده بدأت فى أوربا حركة الدعوة إلى الحروب الصليبية وكانت القسطنطينية فى بعض الأحيان مكان تجمعهم وكان ألكسيوس يمدهم بلوازم الحملة (١٠٩٦-١٠٩٧). وبعد ذلك تجمعت خطوب كثيرة لتهدد الدولة البيزنطية.

ويعتبر المؤرخون السنوات بين ١٢٠٤-١٣٥٤م أسوأ فترات التاريخ البيزنطى على الإطلاق ففى سنة ١٢٠٤ توجهت حملة صليبية إلى القسطنطينية لتستولى عليها بدلاً من أن تتوجه إلى الشام لتخليص الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين واعتبر اللاتين بيزنطة مثل فلسطين فيما عرف بالحملة الصليبية الرابعة، التى دعا إليها البابا أنوسنت الثالث. وقد أدت تلك الحملة إلى سلسلة من الانهيارات والتصدعات في بنيان الدولة البيزنطية. حيث عاث الصليبيون فى القسطنطينية فساداً وسلبوا ونهبوا واغتصبوا وقتلوا ودمروا وأتلفوا كل ما وصلت إليه أيديهم؛ وحرقوا الكتب وهتكوا الأعراض حتى الراهبات. وبذلك تكون الدولة البيزنطية قد انتهت من الناحية السياسية وظهر اسم جديد هو **المملكة اللاتينية** فى القسطنطينية، وقد استمر ذلك حتى ١٢٦١م، حين استردت قوات ميخائيل باليولوجوس في الخامس والعشرين من يوليو من تلك السنة مدينة القسطنطينية. وظلت الدولة البيزنطية تتجاذبها الأنواء وتعصف بها الأقدار إلى أن استولى محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وغير اسمها إلى اسلامبول (استانبول). وبالتالى تكون الدولة العثمانية قد ابتلعت الدولة البيزنطية برمتها مع نهاية **العصور الوسطى** وبداية العصر الحديث.

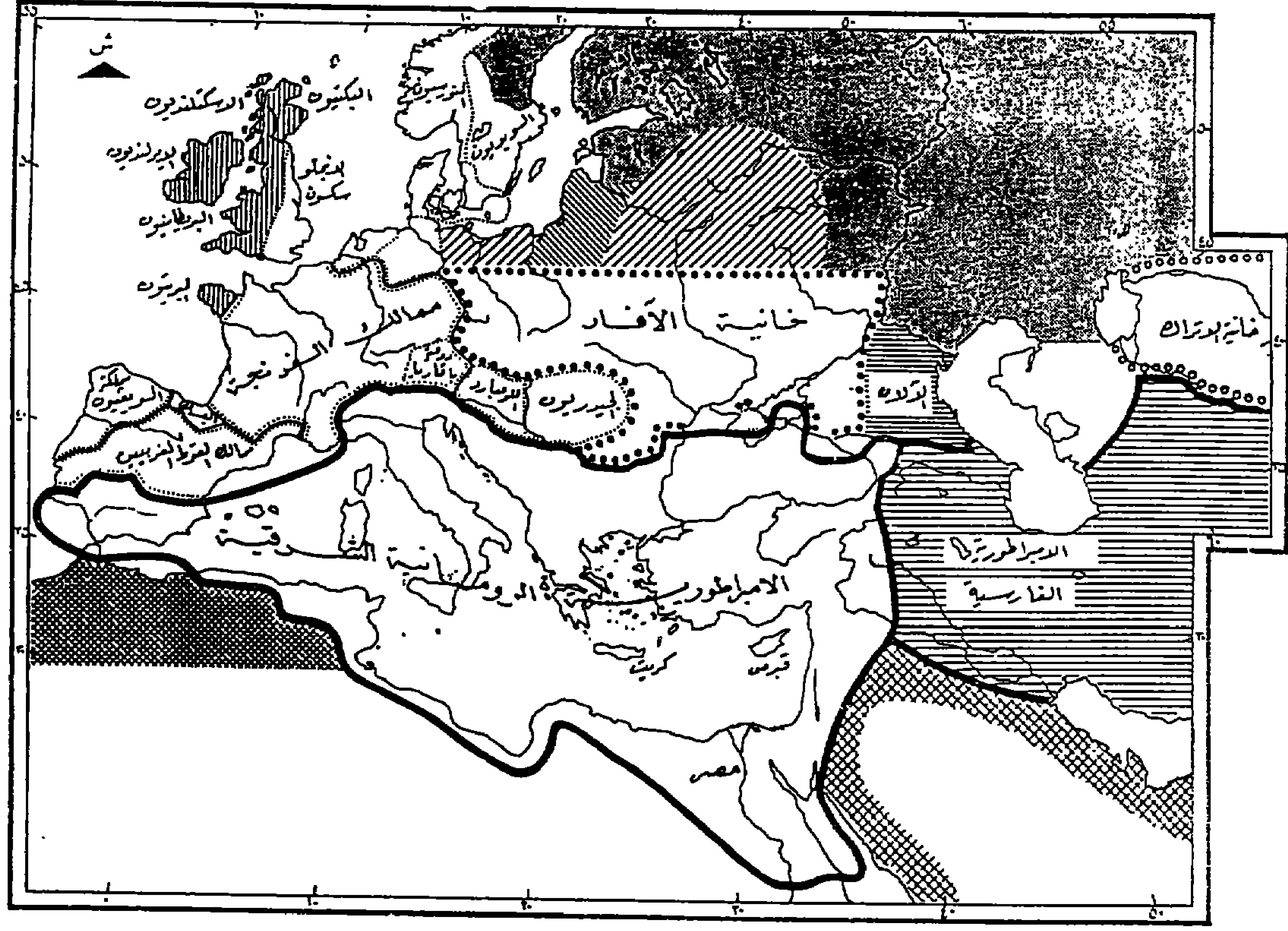




الامبراطورية في أوائل القرن السادس



الامبراطورية البيزنطية (٥٢٧ - ٦٤١)



الامبراطورية في عام ٥٦٢م

فراء
عنبر
رقيق
رقيق
ميلان
روما
تسالونيكا
القسطنطينية
انطاكية
قرطاجة
قمح
قمح
الري
همدان
طيسفون
طيسفون
اصطخر
طريق الحرير
الاسكندرية
القمح البردي
توابل - ذهب - عاج - رقيق
توابل

الطرق التجارية ٥٢٨م

الفصل الثانى

الكتب والقراء فى الدولة البيزنطية

نحاول فى هذا الفصل أن نعطى صورة دقيقة عن إنتاج الكتب وصناعة النشر بأطرافها المعروفة فى عصر الخطاطة وحجم السوق المتاحة للكتاب البيزنطى.

لقد كانت مادة الكتابة السائدة فى الدولة البيزنطية هى بكل تأكيد الرقوق ولكن هناك من الشواهد ما يؤكد على أنه كان هناك نقص شديد فى هذه المادة؛ رغم أنه كانت هناك مصانع للرقوق فى مدينة كورنثة[١] فيما يقول أحد كتابهم وهو قسطنطين بورفيروجينتيوس[٢] فى كتابه عن الإدارة الامبراطورية[٣] والذى حرره وحققه مورافسك وترجمه جنكنز (الطبعة الثانية ١٩٦٧). بل إن جنكنز نفسه رأى فى عبارة بورفيروجينتيوس دليلاً على وجود مصانع للورق وليس للرق رغم أن نيجيل ويلسون يرى فى ذلك مبالغة لأنه من غير المعقول أن يكون فى بيزنطة مصانع للورق فى منتصف القرن العاشر الميلادى. وفى القسطنطينية نفسها كانت هناك صناعة للرقوق فى دير استوديوس[٤] . ويرى نيجيل ويلسون أنه ربما كانت هناك مصانع للرقوق فى مناطق أخرى ولكن لم تصلنا عليها أدلة. ويبدو أن مصانع الرقوق وصانعيها كانوا من القلة بحيث لم يكونوا اتحاداً أو نقابة كما حدث بالنسبة للصناعات الأخرى فى بيزنطة فليس لهم ذكر فى كتاب الأبرشية[٥] . وفى كورنثة جرى ذكر صانعى الرقوق بين المهن الامبراطورية المحترمة كالبحارة والصيادين الذين لايفرض عليهم أن يقدموا الخيول عندما تطلب للجيوش. وربما اعتبرت هذه الجماعة نقابة محلية لاتذكر على مستوى الدولة كلها.

وتتضح صورة النقص فى الرقوق اللازمة للكتابة مرة ثانية عندما يعبر الرهبان

(١) Corinth

(٢) Constantine Porphyrogenitus

(٣) De Adminstrando Imperio

(٤) Stoudios

(٥) Eparch

والمؤلفون عن عجزهم عن الحصول على الرقوق اللازمة لهم لنسخ الكتب. وكان على الواحد منهم أن يقطع مسافات طويلة ورحلات كي يحصل على الرق اللازم له ففى القرن العاشر على سبيل المثال قام سانت نيلوس(١) بالارتحال إلى روزانو(٢) بناء على أوامر من رؤسائه لشراء بعض الرقوق. وإن لم تكن إيطاليا بأسعد حظاً من بيزنطة فى هذا الصدد حيث المخطوطات التى وصلتنا من القرن العاشر إما أنها كتبت على رقوق من نوع ردىء أو رقوق مستعملة من قبل. ولم يكن نقص الرقوق قاصراً على الأقاليم فى الدولة البيزنطية بل كان ظاهرة عامة حتى في العاصمة نفسها في القرن الثانى عشر فقد وصلتنا شكوى أحد مدرسى المدارس فى العاصمة من صعوبة الحصول على مواد الكتابة. وفي القرن الثالث عشر يكتب ماكسيموس بلانوديس(٣) إلى صديق له فى آسيا الصغرى يطلب منه تدبير بعض الرقوق له لأن النوعيات الجيدة المطلوبة غير متوافرة فى المنطقة التى يعيش فيها (القسطنطينية)، وللأسف لم يتلق من صديقه سوى بعض الجلود رديئة الصنع التى لم تشبع حاجته؛ وربما كان صديقه أضطر إليها لأنه لم يجد غيرها فى السوق.

وفى خطابات البطريرك جريجورى بطريرك قبرص نجد أدلة كثيرة على أن صناعة الرقوق وطرحها فى السوق كانت مسألة موسمية فهو يقول بالنص «إنه لا يستطيع أن يحصل على نسخة من كتاب ديموثينز(٤) لأنه لا يوجد فى السوق رقوق حتى فصل الربيع حين يبدأ الناس فى أكل اللحوم!!».

وثمة دليلان آخران على النقص الحاد فى الرقوق. **الدليل الأول** أن كمية الرقوق التى تؤخذ من الحيوان الواحد كانت قليلة للغاية نستشف ذلك من ملحوظة موجودة فى أحد المخطوطات فى أكسفورد تؤكد على أن الحيوان الواحد لا نحصل منه إلا على أربع ورقات (٨ صفحات) من القطع الكبير. ومن

(١) St. Neilos
(٢) Rossano
(٣) Maximos Planudes
(٤) Demosthenes

الملاحظات المثيرة التى أثارها نيجيل ويلسون أن حيوانات العصور الوسطى كانت أصغر حجماً من حيوانات العصر الحديث لأن عمليات التهجين والتسمين وليدة القرن الثامن عشر ولم تعرف فى العصور الوسطي. **والدليل الثانى**: كثرة الطروس فى ذلك الوقت حيث كان تجار الرقوق يأخذون الكتب غير الهامة في نظرهم ويمحون ما عليها من كتابة ثم يعيدون طرحها لاستخدامها من جديد. هذه الممارسة السيئة حدت بالمجلس الكنائسى إلى إصدار قانون يحرم هذا الإجراء بالنسبة للنصوص المقدسة. وفى شكوى لأحد المؤلفين وهو ميخائيل كونييتس(١) يقول فيها إن إنتاج الكتاب البيزنطى سوف يتوقف كلية لأن سفينة رقوق بأكملها قد صدرت وبيعت للإيطاليين، ويجب أن نلاحظ أن هذه الشكوى حدثت حتى قبل كارثة الغزو اللاتينى سنة ١٢٠٤م.

لقد كان ورق الكاغد بصفة عامة قليلاً وأقل تحملاً ولكنه نسبياً كان أرخص من الرقوق وكان مستعملاً فى بيزنطة عموماً فى القرن الحادى عشر بدليل أنه كان موجوداً فى الديوان الامبراطورى سنة ١٠٥٢م وهو تاريخ أحد الأوامر الامبراطورية الذهبية(٢) ولكن المخطوطات المكتوبة على الورق لم تكن شائعة فى تلك الفترة الباكرة حتى لو سلمنا بأنه كانت هناك تجارة ورق معقولة فى تلك الفترة حيث انتشرت صناعة الورق الإسلامية على حدود بيزنطة فى ذلك الوقت.

ونخلص من هذا كله إلى أنه كان هناك فى بيزنطة خلال القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر نقص شديد فى مواد الكتابة مما أثر بكل تأكيد على عملية إنتاج الكتب. ولقد انعكس هذا النقص انعكاساً كبيراً على أسعار الكتب التى تم إنتاجها فى ذلك الوقت. ولقد أمدنا نيجيل ويلسون ببعض الأسعار فى علاقتها بمرتبات موظفى الدولة فى ذلك الوقت لأنهم فى اعتقاده كانوا السوق المحتملة أو الرئيسية للكتاب فى بيزنطة فقد كان مرتب الوظيفة المدنية

---

(١) Michael Choniates

(٢) Chrysobull

يبدأ بمبلغ ٧٢ مسكوكة ذهبية فى السنة وأقصى مبلغ وصلنا ذكره وهو يمثل استثناءً هو ٣٥٠٠ مسكوكة ذهبية فى السنة أيضاً. وربما كان المتوسط هو مئات قليلة فى العام. وأقل سعر وجدناه لكتاب هو ثلاثة مسكوكات ذهبية دفعت ثمناً لنسخة من الإنجيل من القطع الصغير سنة ١١٦٨م ونسخة الإنجيل كتبت فى القرن الحادى عشر وأسعار الكتب الأخرى يقيناً كانت أعلى من ذلك على الرغم من أنه يصعب علينا فى كثير من الأحيان أن نعزل أسعار الرقوق عن أجور النسخ.

لقد وصلتنا أسعار أربعة من كتب آريتاس(١) وبالتالى نستطيع تكوين صورة متوازنة عن أسعار كتب ذلك الزمان:ـ

كتاب إقليدس ٣٨٧ ورقة فوليو ٢٢٠ × ١٨٠مم ١٤ مسكوكة ذهبية

كتاب أفلاطون ٤٢٤ ورقة فوليو ٣٢٥ × ٢٢٥مم (٢١ مسكوكة) ١٣ مسكوكة ذهبية للنسخ و٨ للرقوق

كتاب أرسطو (أورجانون) ٤٤١ ورقة فوليو ٢٦٠ × ١٩٠مم ٦ مسكوكات ذهبية

كتاب كليمونت السكندرى ٤٠٣ ورقات فوليو ٢٤٠ × ١٩٠مم (٢٦ مسكوكة) ٢٠ للنسخ، ٦ مسكوكات للرقوق.

ويعتقد نيلسون أنه فى حالة كتاب أرسطو دفعت المسكوكات الذهبية الست للرقوق فقط دون النسخ وأن الأربعة عشر مسكوكة التى دفعت فى كتاب إقيلدس قد دفعت للنسخ دون الرقوق، قياساً على كتاب أفلاطون وكليمونت السكندرى. وأعلى مبلغ فى الجدول السابق وهو ٢٦ مسكوكة ذهبية كان مبلغاً ضخماً بكل المعايير لا يقوى عليه الموظف العادى.

وثمة أسعار أخرى وصلتنا عن الكتاب البيزنطى وهى رغم قلتها تؤكد كذلك أن الكتب كانت بضاعة فوق متناول الشخص العادى فإن نسخة من كتاب

(١) Arethas

كريسستوم[١] كتبت سنة ٩٣٩م وتتألف من ٣٠٢ ورقة فوليو، تكلفت سبعة مسكوكات ذهبية. ونسخة كتاب أعدت لشخص اسمه يناير[٢] سنة ١٠٥٧م وجدت عليها ملحوظة تقول بأنه دفع ١٥٠ مسكوكة ذهبية ثمناً لسبعة مجلدات أى أن المجلد الواحد بلغ سعره أكثر من ٢١ مسكوكة. وثمة كتاب عن الطقوس مؤرخ سنة ١١٦٦م تكلف ١٢ مسكوكة إضافة إلى ستة مسكوكات لإدخال النوتة الموسيقية وفى القرن الثالث عشر نجد أحد أصحاب المخطوطات يعجز عن دفع ثمن بعض الرقوق اللازمة لاستبدال أوراق ناقصة وتالفة فى نسخته.

ولنا أن نتصور من هذا العرض لإنتاج الكتب البيزنطية وأسعارها كيف تكون تجارة الكتب فى ذلك الزمان. وكان من النادر أن يذكر تجار الكتب فى المصادر وذلك لقلتهم وهامشية دورهم يحدثنا أجاثياس[٣] عن أحد الحوانيت التى كان يجلس فيها أحد معاصرية لمناقشة قضايا فلسفية مع زبائن آخرين كما حدثنا ميخائيل كونييتس سالف الذكر عن بعض باعة الكتب الذين كانوا يتاجرون أيضاً فى الرقوق. ومهما يكن من أمر تلك العبارات الطائرة فإن نشاط تجار الكتب والرقوق يغلفه غموض ما بعده غموض. ويمكننا أن نستنتج بصفة عامة أن تجارة الكتب كانت أساساً في الكتب المستعملة وأن الناسخين كانوا ينسخون الكتب **بالمقاولة** على النحو الذى سنراه فيما بعد. بل إنه حتى تلك التجارة فى الكتب المستعملة كانت جد محدودة. يدلنا على ذلك ما ذكر عن ميخائيل كونييتس من أنه بعد أن فقد مكتبته فى غزو أثينا سنة ١٢٠٥م، استعاد بعض كتبه من تجار الكتب المستعملة وأوصى اثنين من أصدقائه للبحث له عن بعض الكتب القيمة التى كان من الصعب الحصول عليها، مثل كتاب إقليدس عن **العناصر** وشروح **ثيوفلاكت** على رسائل سانت بول، وهذا الكتاب الأخير كان ميخائيل قد كتبه بخط يده. وهناك حالة مشابهة تذكر عن قسطنطين لاسكاريس فى القرن الخامس عشر حيث عثر فى مسينا على رواية تراجيدية يونانية كان قد فقدها منذ ثمانية عشر عاماً. وهذه الحادثة مسجلة على نصف ورقة بيضاء فى النسخة نفسها.

(١) Chrysostom

(٢) January

(٣) Agathias

لقد كان جمهور القراء مشتريى الكتب فى بيزنطة أساساً هم الموظفون فى إدارات الحكومة، وخاصة من الإكليريين الذين كانوا يحتاجون إلى جانب النصوص المقدسة والطقوس، فإنهم أيضا كانوا فى حاجة إلى كتب اللاهوت الأخرى التى كان يجرى إنتاجها أساسا فى الأديرة وخاصة دير تيودور استودايت[١] أو طبقاً للمعايير الفكرية لهذا الدير. فى هذا الدير وفى الأيام التى ليس للرهبان فيها عمل يدوى يقوم أمين المكتبة بقرع الناقوس حتى يتجمع حوله الرهبان ويقوم كل منهم باختيار كتاب يقرؤه حتى حلول الظلام. وكان من بين القراء المهنيين المحامون، الأطباء، الموظفون الحكوميون، ضباط الجيش، المدرسون لدرجة أن المرء كان عندما يلتقط أحد المخطوطات البيزنطية يستطيع تخمين متملكه من واقع محتوياته وموضوعاته والسؤال الذى يسأل فى هذا الصدد هو هل كان القراء العاديون فى حاجة إلى الكتب التى يمكن أن توصف بأنها كتب غير مهنية؟ وهل وجد مثل هؤلاء القراء خارج العاصمة؟

إن من المنطقى أن يكون هناك قراء عاديون فى العاصمة البيزنطية القسطنطينية ومن الأمثلة الحية على ذلك حلقة آجاتياس[٢] ونحن هنا أمام محام له اهتمام أدبى وله حلقة من الأتباع المفكرين. لقد كان اهتمامه الأصلى في الشعر وإلى جانب ما وصلنا من إنتاجه الأدبى فإنه قد كتب تسعة كتب من الشعر الجنسى سداسى التفاعيل. وقد جمع مجموعة من النصوص بعنوان (الدائرة) يصف نفسه فيها بأنه ينطوى على حكمة لا توجد عند أى شخص آخر. وطالما أنه يقلد كاليماخوس فى هذا الصدد فإن قراءاته قد امتدت إلى المجاميع الهللينية واليونانية الرومانية الأصلية التى جمعها كل من ملياجر وفيليب. وفى هذه القراءات لابد وأن يكون قد تعرف على ماكتبه نونوس وبول الصامت ولكن معرفته بالشعراء القدماء كانت محدودة وأقل مما أراد لنا أن يظهر به فالاقتباسات التى أتى بها فى مقدمته من بندار ويوربيدس عبارات عامة تتردد فى الإنتاج الفكرى كالشعارات.

---

(١) Theodore Studites (Stoudios)

(٢) Agathias circle

كذلك فإن قراءاته في المؤرخين الكلاسيكيين ليست بالعمق ولا التوسع الكافيين. وربما تكون قراءاته فى هيرودوت وثيوكيديدس لا تتعدى كتاباً أو كتابين لكل منهما أو مجرد فقرات من مجاميع عامة. ويتضح لنا من تاريخ آجاثياس حقيقتان هامتان: الأولى أن أصدقاءه هم الذين شجعوه على التحول من الشعر إلى كتابة التاريخ حيث نجد صدى ذلك فى مناقشات حلقة القراء. والحقيقة الثانية أنه كان يقضى يومه كله فى قراءة كتب القانون وعمله القانون بينما الليل يقضيه فى الحلقة وفى قراءة المؤلفين الكلاسيكيين ويدرس استخداماتهم اللغوية حتى يستطيع إعادة صياغة أفكارهم بأسلوب يفهمه معاصروه. والمؤلفون الكلاسيكيون الذين عناهم هما بالدرجة الأولى هيرودوت وثيوكيديدس إلى جانب آخرين مثل بوليبيوس وديودوروس.

وإذا كانت هذه هى حلقة أو مجلس علم أجاثيوس فإن شخصية أخرى هامة كان لها أيضاً الحلقة أو مجلس العلم الخاص بها وهو: فوتيوس[١] .لقد شاع فى مجالس العلم أو ما يسمي بنوادى القراء البيزنطية مصطلح «مكتبة[٢] للدلالة على سجل الكتب التى تدرس أو تقرأ فى تلك الحلقة أو النادى. ولكن من خلال دراسة تاريخ حياة فوتيوس يتضح لنا أن مصطلح مكتبة كان له معنى آخر وهو قائمة بقراءات فوتيوس الخاصة (فهرس شيوخ بالمعنى الإسلامى).

إلى جانب هذين المجلسين من مجالس العلم كانت هناك جماعات قراء أخرى ولو أنها كانت محدودة العدد والعدة. فهناك أعمال فكرية ظهرت فى القرن العاشر الميلادى البيزنطى لابد وأن يكمن خلفها جماعات وليس أفراداً؛ مثل تلك الأعمال الموسوعية التى قام بها قسطنطين بورفيرجنيتس[٣] ومعجم سودا[٤] ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تلك الأعمال الجماعية اللهم إلا بالنسبة لسودا الذى هو عمل علمى قام به أحد المجمعات. وهناك جماعة خاصة ورد ذكرها عند

(١) Phothius

(٢) Bibliotheca

(٣) Constantine Porphyrogenitus

(٤) Suda

جون تزتزس[1] عند شرحه على **ضفادع أرستوفانيس**. ويبدو أنه كان هناك مجلس علم من المدرسين استقى منهم تزتزس شروحه على ارستوفانيس من حين لآخر، زاعماً أنها كلها من عنده. ولكن كل منهم أدعى بعد ذلك الشروح ووضعها على نسخته من الضفادع. وقد كشف النقاب بعد ذلك أنه ليس من بين الشروح والتعليقات التى جاء تزتزس بها ما هو جديد أو خاص به دون غيره. وقد أصر مجمع المدرسين أن يروا نسخة تزتزس الشخصية وعندما قرأها لهم اتضح أنها ليست شروحاً وتعليقات على ارستوفانيس ولكنها نصوص من يوربيديس وأوبيان.

ومن الواضح أن جماعات القراء كانت قليلة من حيث العدد ولم يكن أفراد المجموعة الواحدة ليزيدوا عن أصابع اليدين. ويقول نيجيل ويلسون إن عدد القراء الذين كانوا يقرأون كتبا غير مهنية فى العاصمة البيزنطية لم يكن ليزيد بحال عن بضعة عشرات إبان ازدهار الإمبراطورية ولم يكن بحال يعد بالمئات لأن المئات كثيرة على الدولة البيزنطية. وإذا كان هذا هو حال العاصمة فالأحوال فى المقاطعات لم يكن يزيد كثيرا عن ذلك.

وفى معالجتنا للقراء يبقى أن نفحص محتويات عدد من المكتبات الخاصة باعتبارها مرآة لسوق القراء. فقد كانت تلك المكتبات عموما مكتبات صغيرة جزئيا بسبب ارتفاع اسعار الكتب وجزئيا لأن الكتب نفسها لم تكن كثيرة فى السوق. وعلى سبيل المثال لم يستطع **ايفاجريوس**[2] أن يجد نسخة من تاريخ أجاثيوس على الرغم من أن مؤلفه لم يكن قد مر على وفاته أكثر من عشر سنوات وتكشف رسائل الباحثين عن الفترات التى كانوا يحتاجون فيها لاستعارة الكتب فيما بينهم.

لقد كان حجم المكتبات الخاصة عموما محدودا يتراوح بين عدد قليل من المجلدات لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة إلى ٢٤ مجلداً كما نلاحظه فى مكتبة

---

(١) John Tzetzes

(٢) Evagrios

آرتياس[١] إلى عدد لا يخص كما هو الحال فى مكتبة ميخائيل أتاليتس[٢] والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو هل تكشف فهارس المكتبات الخاصة عن عادات واتجاهات المثقفين البيزنطيين فى القراءة وشراء الكتب؟ ولعل بعض الملاحظات حول بعض الأمور غير العادية أو الاستثنائية في هذا الصدد تكون ضرورية قبل الإجابة على هذا السؤال. مثلا ماذا تفعل نسخة من كتاب اقليدس فى الهندسة فى مكتبة أريتاس التقى الشاب الذى يكرس حياته للكنيسة، وربما كانت الإجابة على ذلك هى أنه درس الهندسة كجزء من المقرر الرباعى الذى درسه كذلك يمكن تفسير وجود نسخة من كتاب أرسطو (الأورجانون) بنفس الطريقة.

لقد وصلتنا فهارس مكتبات خاصة أخرى من بينها فهرس مكتبة لشخص اسمه هيليودوروس[٣] من القرن الثالث عشر. وقد قام صاحب المكتبة بنفسه على إعداد هذا الفهرس. والجزء المقروء من هذا الفهرس يضم أعمال بعض الروائيين اليونان؛ وأعمال أخيليس تاتيوس[٤]، بعض الشعر الكلاسيكى وبعض كتب اللاهوت وهناك كتابان نادران لميخائيل أتاليتس واكسفيلينوس[٥] وبعض كتب الطقوس. وقد وصلتنا قائمة استعارات من مكتبة شخصية أعدها صاحب المكتبة لتذكره بما استعير من كتبه. وتشتمل القائمة على إثنى عشر كتاباً بعضها أعير ثلاث مرات ومن بين المستعيرين البطريرك نفسه. والسؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن متى يحتاج البطريرك أن يستعير بهذه الطريقة، فالكتب التى استعارها منها كتب كلاسيكية قديمة وكتب لاهوتية وليس هناك شىء مشترك بينها. وربما كانت أكثر الكتب ندرة وغرابة فى هذه المجموعة هما: شروح تيودوريت على إيزاياك

(١) Arethas
(٢) Michael Attaleiates
(٣) Heliodorus
(٤) Achilles Tatius
(٥) Xiphilinos
(٦) Theodoret on Isaiah

وشروح دوكسوباتريس على هيرموجينس[1] أما القوائم والفهارس الأخرى التى وصلتنا فتدور فى غالبيتها حول مجموعات لاهوتية. وهناك فهرس من بينها يذكر صاحبه فيه المكان والزمان الذى أعده فيه (سالونيك سنة ١٢٧٠) والمجموعة تبدأ بعشرة كتب فى اللاهوت ونجد فيها بعد ذلك خليطاً من كتب طبية وكلاسيكية تصل إلى اثنى عشر مجلداً. وربما كان أحسن ما فى هذه المجموعة هو كتاب يضم بعض أعمال ديونسيوس من هاليكارناسوس [2]. وللأسف لم يصلنا اسم صاحب هذه المكتبة التى وجدت فى الأقاليم وليس فى العاصمة وربما كان راهباً يدرس فى أحد الأديرة الكبيرة التى كان بها المدرسة والمستشفى.

ومن المحتمل أن تكون أكبر المكتبات الشخصية فى الأقاليم هى مكتبة أحد ملاك الأراضى المدعو إستاثيوس بويلاس[3] . فقد سجلت وصيته خمسين مجلداً من عناونيها نستطيع معرفة محتويات كل منها والمجموعات تضم هنا أساساً كتب اللاهوت بحيث تغطى تغطية متوازنة، وتتجاوز هذا المجال إلى مجالات أخرى حيث تضم بعض أعمال الروائى أخيليس تاتيوس كما تضم أعمال للمؤلف الوثنى آيسوب[4] و (جورج) بسيدس[5] وهناك أيضاً كتاب فى قواعد النحو وآخر في تفسير الأحلام غير معروف المؤلف وعلى الرغم من أن صاحب المكتبة يملك عزباً وأراض شاسعة إلا أنه ليس ريفياً بالمعنى الدقيق للكلمة بل هو شخصية مرموقة ذات عادات حضرية وعقلية متفتحة.

وهناك جامعان آخران للكتب كونا مكتبات شخصية ويستحقان أن نتوقف أمامهما. **أولهما** هو جون كومنينوس سينادينوس[6] وهو جنرال مقرب من الامبراطور وكانت له مكتبة لاهوتية أكبر من مكتبة أى جنرال أو موظف حكومى

---

(١) Doxopatres on Hermogenes.

(٢) Dionysius of Halicarnassus .

(٣) Eustathios Boilas .

(٤) Aesop .

(٥) Pisides.

(٦) John Comnenos Synadenos .

فى زمنه. وقد عرف عنه أنه ينفق الذهب والأحجار الكريمة فى سبيل الكتب بلا حساب وأياً كانت التكلفة ومن المؤسف أنه لم يصلنا سوى ثلاث قطع من مكتبته ليس من بينها شيء نادر أو خارج عن المألوف **وثانيهما** هو تيودور سكوتاريوتيس[1] الذى أصبح أسقف سايزيكوس[2] وكان من بين مقتنياته **مكتبة فوتيوس**، إحدى الحوليات، أعمال الأخوان كونييتس وكتاب أرسطو الشهير الشعر، الخطابة، وغيرها. كما كان فيها شروح كريسستوم علي ماتيو. وبات من الواضح من استعراض عناوين مكتبة هذا الرجل أن مدى قراءاته أوسع بكثير من المتوسط العادى إلا أننا لا نعرف عنه الكثير، رغم أنه كان يمثل فى حينه رجل الكنيسة البيزنطى المتنور.

إن العرض السابق لبعض المكتبات الشخصية يكشف عن أن معظم الكتب فيها كانت نصوصاً دينية عادية وأن قلة قليلة من الكتب هى التى كانت نصوصاً غير عادية ونادرة وكانت المجموعات فى جل المكتبات الشخصية مجموعات صغيرة عموماً لا تزيد عن دستتين من المجلدات فى الحالات التى نعرفها جيداً، وربما كان ذلك كما أسلفنا بسبب ارتفاع الأسعار من جهة وانخفاض عدد الكتب المنشورة من جهة ثانية.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو كيف كان الطلاب الذين ينخرطون فى برامج الدراسة الطويلة يدبرون الكتب العديدة التى يدرسونها فى المدارس البيزنطية؟ لابد وأنه كانت هناك طريقة يقدم بها التلميذ فى سنة أعلى كتبه المستعملة للتلميذ فى المرحلة الأدنى أو كان التلميذ ينسخ كتبه بنفسه.

والآن نتحول قليلاً بعد مواد الكتابة والجمهور القارىء إلى الناسخين الذين كان لهم الفضل فى إنتاج الكتب. ومن حسن الحظ أنه قد وصلتنا معلومات غزيرة عنهم، عما وصلنا بالنسبة لغيرهم من أطراف الكتاب البيزنطى.

---

(١) Theodore Scutariotes.

(٢) Cyzicus.

ولعل أول من وصلنا ذكره من الخطاطين المشاهير فى بيزنطة هو ذلك المدعو تيودور[1] الذى ورد ذكره في محاضر أعمال المجلس الكنائسى عن سنة ٦٨٠م. لقد كان لهذا الرجل محل أو مكتب فى حى يسمى جون وفوكاس[2] ، (ولم يرد فى الدراسات الطبوغرافية أى ذكر لهذا المكان).

ويبدو أن هذا المحل كان ملكية خاصة وكان النسخ هنا مشروعاً شخصياً، فى مقابل مبلغ معين يحدده على أساس تجارى وذلك على عكس مناسخ الأديرة التى كانت مسئولة فى تلك الفترة عن جل ما يصدر من كتب. وهذا التقدير ليس تقديراً شخصياً وإنما بنى على البيانات التى ترد فى حردمتن الكتب والتى تنص على أن الناسخ ناسخ محترف أو مهنى. ومن الطريف أن ٥٠٪ من هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم صفة الخطاط المحترف يقولون عن أنفسهم أيضاً أنهم رهبان وقساوسة وكهان أو قراء. ويدخل هنا أيضا الإكليريون الذين لا يسكنون الأديرة أو يعيشون فيها. وقلة قليلة من الخطاطين خارج الفئات السابقة يطلقون على أنفسهم صفة (الموثق العام ـ الكاتب العدل). وبعضهم لا يتبع اسمه بأية صفة أو لقب. وفى مخطوط مؤرخ ٩٩٧م نجد اسماً لناسخ يعمل لحسابه وفى مخطوط مؤرخ ١٠٦٤م نجد اسماً لشماس.

وفى المجموعة المسماة بمجموعة البحيرة المؤرخة مخطوطاتها بين ٨٣٥م ١٢٠٠م وكذلك فى مجموعة البروفسور تورين[3] المؤرخة بين ١٢٠١ و ١٤٠٠م لا نصادف سوى مخطوط واحد يحمل صفة (الخطاط) وهذا الخطاط كان أيضاً قسيساً. وهناك من المخطوطات المبكرة في القرن الثامن (العهد القديم) نجد الناسخ يشير إلى نفسه بصفة الراهب الخطاط.

لقد كان عدد الخطاطين المستقلين الذين يعملون بالنسخ خارج الأديرة متواضعاً للغاية. ويبدو كذلك أن النساخين من الرهبان داخل الأديرة كانوا يتقاضون مبالغ

---

(١) Theodore

(٢) John and Phocas

(٣) Turyn

من المال من الأهالى فى مقابل نسخ الكتب لحسابهم ولم يقصروا جهودهم على الأديرة التى عاشوا فيها أو المؤسسات الدينية التى انتموا إليها. ولعل أحسن نموذج على ذلك هو النساخ إفراييم(١) الذى كان ينسخ كتب بولبيوس(٢) وكتب أرسطو وخاصة الأورجانون للاستخدام فى الأديرة العادية وكذلك فى المدارس التابعة لبعض الأديرة.

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه فى نهاية القرن الرابع عشر قام أحد الرهبان ويدعى جون اسفودروس(٣) بإعداد قائمة بالكتب التى نسخها فى حياته وكانت فى مجموعها تمثل مكتبة لاهوتية كاملة تصل إلى نحو عشرين مجلداً.

وقد كتب بعضها على حساب جون كومنينوس سابق الذكر. وإن المرء ليفكر فى جامع الكتب هذا فى القرن الثالث عشر الذى توفر على جمع كتب هذا الناسخ أم أن تلك الكتب قصد بها أن تقتنى فى مكتبة دير واحد والمبالغ التى دفعت أجراً لهذا الناسخ الذى قضى جانباً من عمره فى نسخها.

وفى مخطوط منسوخ سنة ١٠٥٧م كتبه ناسخ اسمه سايميون(٤) لشخص اسمه يناير نجد عبارة تدل على أن هذا هو المجلد السابع من نسخ سايميون، وقد تقاضى عنها (المجلدات السبع) ١٥٠ مسكوكة ذهبية. ولقد تم التكليف بهذا النسخ عن طريق شخصى يدعى بوثوس(٥).

وهناك مخطوط آخر مؤرخ بسنة ١١٨٠م يعطينا صورة حية عن الخطاطين فى الأقاليم أثناء عملهم فالناسخ يهدى هذا المجلد إلى دير باتموس(٦) مع عبارة رقيقة تقول «ليس لافتقار الدير إلى الخطاطين واللغويين ولكن حتى لا يتفوق دير آخر

---

(١) Ephraem.

(٢) Polybius .

(٣) John Sphodroes

(٤) Symeon .

(٥) Pothos.

(٦) Batmos .

على هذا الدير فى مقتنياته». فهذه الكلمات تكشف بوضوح عن وجود منسخ وناسخين داخل الدير الموجود فى الأقاليم خارج العاصمة وربما كان يعنى ذكر اللغويين فى نفس العبارة وجود مدرسة ملحقة بالدير وكانت وظيفة اللغويين إعداد النصوص اللازمة لتلاميذ تلك المدرسة وربما كان بعض الخطاطين لغويين ايضاً ومن المعروف أن دير سافوار[1] فى مسينا كان هناك ذكر للخطاطين واللغويين ومدرسى الكتابات المقدسة والذين أيضاً عرفوا بانغماسهم في التعليم العلمانى. وهناك نموذج آخر على هذا النوع من النشاط المتعدد من دير سانت نيقولاس فى كاسول خارج أوترانتو[2] ومن المؤكد أنه كان هناك فى سالونيك مثل هذا النشاط وفى مدن أخرى غيرها.

وثمة نقطتان أخريان تتعلقان بالناسخين **الأولى** أنه طالما أن الباحثين ومدرسى المدارس إضافة إلى الطلبة لم يكونوا من ذوى اليسار فإنهم بالضرورة كانوا يلجأون إلى نسخ الكتب اللازمة لهم بأنفسهم توفيراً للمال بدلاً من اللجوء إلى الناسخين المحترفين. ولعل هذا يبرر الظاهرة الغريبة فى الكتاب البيزنطى وهى وصول كميات كبيرة من المخطوطات البيزنطية الأصول بخط أصحابها أى متملكيها من الباحثين والمدرسين مما حد بالضرورة من كمية العمل المتاح أمام النساخ المحترفين. **والثانية** تتعلق بنوعية الأديرة التى كان لديها مناسخ فمن المعروف أن حركة إصلاح الأديرة التى قادها سانت بازل والتى أدخلها إلى الدولة البيزنطية تيودور ستودايتس[3] كانت تقضى بوجوب إنشاء منسخ داخل الدير. ومن هنا قيل بأن المنسخ هو ملمح أساسى فى الأديرة البازلية مما يفسر ظاهرة أن جل النساخين الذين وصلنا ذكرهم كانوا ينتمون إلى هذه الطائفة.

ويبدو أن مهنة النسخ هذه كانت مربحة لبعض الأشخاص فقد ذكر البروفيسور لوميرل فى كتابه (الإنسى البيزنطى الأول)[4]، عن ناسخ يدعى أثناسيوس

(١) Savoir .

(٢) St. Nicholas at Casole outside Otranto.

(٣) Theodore Studites .

(٤) Le Premier humanisme byzentin .

توماتورجوس[١] أنه كسب ٩٠٠ مسكوكة ذهبية من خلال عمله بالنسخ على مدى ٢٨ سنة أى بمعدل ٣٢ مسكوكة فى السنة الواحدة وهو مبلغ لا بأس به، إذا قيس بأجور الموظفين على النحو الذى أشرنا.

ونأتى أخيراً إلى الطرف الأهم فى عملية إنتاج الكتاب البيزنطى ألا وهو **المؤلف**. ويجب أن نلاحظ فى البداية أن جزءاً كبيراً من الكتب البيزنطية لم يكن يقصد به أن يوجه إلى الجمهور العام مباشرة، أو على الإطلاق وعلى سبيل المثال كتاب **التاريخ السرى** الذى وضعه بروكوبيوس[٢] وبعض كتابات الكاتب الذى مر بنا ذكره من قبل قسطنطين بورفيروجينيتوس، وكتاب الاستراتيجية[٣] الذى وضعه كيكومينوس[٤] ؛ذلك أن موضوعاتها وطريقة معالجتها لا تروق إطلاقاً للقارىء العام ولم توجه أصلاً له. ومن جهة ثانية كانت القاعدة العريضة المطلقة من القراء وراء كتب اللاهوت وحسب وخاصة تلك الكتب التفقيهية فى الدين؛ كما كانت تلك القاعدة العريضة تسعى بعد. ذلك إلى كتب سير القديسين والقصص التعليمى والأدب الشعبى كما سنرى فيما بعد وكان من المؤلفين الذين لهم قبول لدى الناس جون موسخوس[٥] وكذلك سايميون ميتنافراستوس[٦] الذى بسَّط حياة القديسيين بأسلوب جديد. ومنهم أيضاً هـ . زيلياكوس[٧] وقسطنطين بورفيروجينتس الذى تردد ذكره من قبل. ولقد كان من بين المؤلفين الذين لهم قبول شديد على الأقل بين أفراد طائفته الدينية سانت باراس[٨] مؤسس دير برودروموس بترا[٩] تلك الشخصية المصرية الغامضة والذى ختم حياته فى

(١) Athanasios Thaumaturgus .
(٢) Procopius .
(٣) Srategikon .
(٤) Cecoumenos .
(٥) John Moschos .
(٦) Symeon Metaphrastes .
(٧) H. Zilliacus .
(٨) St. Baras .
(٩) Prodromos Betra .

القسطنطينية وكانت أغانيه تنشد فى الأديرة. وقد كتب جون مورروبوس[1] عن هذه الشخصية بين من كتب من القديسين.

لقد كان للمؤلفين الدينيين ممن سبق ذكرهم انتشار بين أفراد الطوائف الدينية وعموم القراء. أما كتاب الأعمال العلمانية فإنهم كانوا يتحركون فى دائرة جد محدودة من القراء. أصدقاء وتلاميذ وحاشية البلاط. وكانت شروح الأعمال الوثنية وشروح الكتابات المقدسة توجه أساساً للاستخدام داخل المدارس. وكان مؤلفو هذه الشروح يأملون أو هم يعدونها بطريقة تجعلها مستخدمة لفترات طويلة ويستطيع الشخص العادى الانتفاع بها. ولكن الحقيقة أن كتبهم لم تكن لتختلف كثيراً عن الكتب المهنية الموجهة للمتخصصين فى مختلف المهن.

ونستطيع أن نتلمس فى الإنتاج الفكرى البيزنطى نسبة عالية مما يمكن أن نطلق عليه «كتب المناسبات» الموجهة إلى فئة محددة من المستفيدين فى مناسبات محددة: طقوس الجنازات وخطبها؛ مجموعات الرسائل التى تتداول بين الأصدقاء؛ المحاضرات غير الرسمية التى يلقيها أساتذة الجامعات؛ الكتيبات المعارضة للاهوت الكنيسة اللاتينية، والهراطقة. والمشكلة أن هذا النوع من الإنتاج الفكرى كان فى الأعم الأغلب لا يعد منه سوى نسخة واحدة أو على الأكثر نسختين توضع فى مكتبة البطريركية ولم تكن لتتداول بين جمهور القراء إلا إذا كان المؤلف من ذوى الحيثيات.

هناك كذلك نوعان من الإنتاج الفكرى البيزنطى يجب أن نتوقف أمامهما فسحة من الوقت **الأول** كتب الحكم والأمثال والعبر مثل تلك التى كان يكتبها تيودور استودايتز وجون جيومترز[2] ويبدو أن هذا النوع من الكتب قصد به أن يطور قراءات الرهبان فى الأديرة. لقد كان أجاثياس كما رأينا سابقاً كاتباً من هذا النوع وكانت له دائرة قراء محدودة وربما كان جون جيومترز له أيضاً دائرة

(١) John Mauropous .

(٢) John Geometres.

محدودة من القراء الأصدقاء يكتب لهم. **والثانى** كتب التاريخ والحوليات وللأسف لم يصلنا من الامبراطورية البيزنطية من كتب التاريخ والحوليات من العصر البيزنطى أكثر من خمسة مخطوطات وهو عدد محدود للغاية إذا ما قورن بما وصلنا من إيطاليا النهضة. ولعل أشهر المؤرخين فى العصر البيزنطى هو جون مالالاس[١] وكذلك ليونتيوس من نيابوليس[٢] الذى كتب حياة سايميون. ويدخل فى فئة المؤرخين الحوليين الذى كانوا يسجلون الأحداث بطريقة الحوليات مرتبة زمنياً ويمثل هذه الفئة ثيوفانيس[٣] وسينسيلوس[٤] ويبدو أن هذا النوع من الكتب كان له رواج وتداول أوسع من رواج كتب التاريخ العادية إذا حكمنا على ذلك الرواج بما وصلنا من عناوين حيث وصلنا نحو ست كتب منها؛ وبعض هذه الحوليات تتضمن أحداثاً تاريخية عادية ثم سرد زمنى قصير على نحو الكتب التى خلفها لنا نايسفورس[٥]. ولكننا فى الواقع لا نعرف مدى الإقبال على هذا النوع من الكتب من جانب جمهور القراء. إلا أننا نعرف أنه كان هناك قبول من جانب قراء الأديرة لما يكتبه مؤرخ مثل ثيوفانيس.

وثمة نوع من الإنتاج الفكرى البيزنطى لا مؤلف له ذلك هو «الأدب الشعبى» الذى شاع بين طوائف الشعب وعامة الناس. يقول هانس ـ جورج بيك فى مقاله عن «دائرة قراء الأدب الشعبى البيزنطى فى ضوء ما وصلنا من مخطوطات». أن المؤلف هنا هو الشعب نفسه هو الجماعة غير المتعلمة والتى لا تبدى اهتماماً بالأدب الرفيع. وربما يلتقط أحد الكتاب هذه الموروثات الشعبية ويبلورها فى قصة أو حكاية ولكن يظل المؤلف هو الشعب نفسه. كذلك قد تتبلور الموروثات الشعبية فى حكم وأمثال عامية أو خطب أو مواويل.

---

(١) John Malalas .

(٢) Leontios of Neapolis .

(٣) Theophanes .

(٤) Cyncellus.

(٥) Nicephorus .

وقد وصلنا عدد من كتب الأدب الشعبى هذه من أنواع مختلفة مثل مجموعات جريجوريوس من نازيانس[1] وأعمال كل من أفطونيوس[2] وهيروموجينس[3] وكتاب «مرسال فاندزبيكر» لماتياس كلاوديوس[4].

لقد كانت الأغنية الشعبية أيضاً من بين الموروثات الشعبية التى جمعت فى كتب وانتشر انتشاراً عظيماً بين الناس ويحضرنا فى هذا الصدد مجموعات الأغانى والقصص الشعرى لأولاد اندرونيكوس والتى ذكرها لنا آرتياس. وكانت الشعراء والمغنون الرحالة يغنونها فى الشوارع والطرقات والميادين العامة. وكانت فى البداية تغنى فى البلاط مقابل قطع من النقود الرنانة التى تلقى عليهم وبعد أن تغنى فى البلاط تنتشر بين العامة. وهنا لابد من التفريق بين اللغة الكلاسيكية الرسمية (الفصحى) التى كانت شائعة بين المتعلمين فقط فى الدولة البيزنطية واللغة العامية التى كانت شائعة بين كل طبقات الشعب من متعلمين وغير متعلمين.

والمشكلة فى كتب الأدب الشعبى أن الناسخين الذين كانوا ينسخونها لم يكونوا يولونها العناية الكافية سواء فى الشكل أو الأسلوب أو حتى فى قواعد اللغة باعتبارها نصوصاً للتسلية وليست للتعلم أو التفقه ولم يكن لها مؤلف يرعى نسخها ويحافظ على سلامة إخراجها. بل إنهم كثيراً ما تعاملوا مع النصوص الشعبية باعتبارها ملكاً لهم فأخذوا الأشكال والقوالب التى كانت مألوفة شائعة من قبل وأضافوا إليها واعادوا صياغتها ودسوا أحداثاً وحزفوا أحداثاً وتوسعوا فى وصف الأشخاص حسبما تراءى لهم بل وفى بعض الأحيان كانوا يمزجون أكثر من عمل ويخرجون منها بعمل شعبى جديد.

(١) Gregorios of Nazianz .

(٢) Aphthonios .

(٣) Hermogenes .

(٤) Mathias Claudius .

إن رواية الإسكندر التى رواها الشعب البيزنطى عبر العصور والتى سجلها أكثر من ناسخ من بينهم كاليسثين(١) وبتوكوبرودروميكا(٢)، قد وصلتنا فى العديد من الصيغ والأشكال يمكن النظر إلى كل منها على أنها عمل جديد ولا يمكن أن نعثر بين هذا العدد على أصل يرد إليه العمل ويقاس عليه. وكل محقق يحاول أن يرد هذه الأعمال الشعبية إلى أصل معين يصاب باليأس الشديد لاستحالة ذلك. وكل من يتصدى لتوحيد هذه الأعمال الشعرية كان يتسم بالبطولة والإقدام ولكن محاولاته كان يحكم عليها بالفشل.

لقد كان هناك أيضًا نوع من الأدب الشعبى السياسى؛ حيث كانت هناك أعمال شعبية شعرية غالباً تتناول موضوعات الساعة يرددها الفنانون والرواة فى الحوارى والأزقة، ولا نغالى إذا قلنا أن الطبقات العليا فى المجتمع وسكان البلاط والعلماء قد استمعوا واستمتعوا أيضًا بتلك الأشعار الشعبية الساخرة ومن الشعراء الشعبيين الذين صاغوا الموضوعات السياسية شعراً شعبيًا: ثيوفانيس(٣) ويجب أن نتأكد من أن الأشعار الشعبية هذه كان لها وزن وقافية أيضاً.

يقول هانس ـ جورج بيك أن الحياة الاجتماعية كانت مفتوحة فى بيزنطة وكانت الثقافة منتشرة وإن كانت ثقافة سطحية ولكن الثقافة والعلم كانا يعنيان الكثير فى بيزنطة عنه فى الغرب المسيحى وقد وصلنا كتاب المراسم للامبراطور قسطنطين السابع والذى يكشف عن هذا الاتجاه.

لقد وصلنا أيضًا نوع من الأدب لا هو بالشعبى ولا هو بالفصيح، فهو لم يكتب بالألفاظ والتعبيرات والتركيبات اللغوية الفصيحة ولم يكتب بالعامية القح ولكن كتب بلغة وسط بين هذا وذاك، ونشأ فى أوساط العلماء والمثقفين الذين كانوا يتقنون فنون الأدب الكلاسيكى وأريد به مجرد التسلية والمتعة فى ذاتها وليس التعليم والتثقيف والتفقيه ومن هنا يميل الخبراء إلى اعتباره أدبًا شعبيًا.

(١) Kallisthenes.

(٢) Ptochoprodromika.

(٣) Theophanes و Anna Komnene.

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة السجن التى نظمها ميخائيل جلايكيس[1] وكذلك القصائد التى نظمها بتوكوبرودروميكا فى القرن الثانى عشر وإن كان هانس - جورج بيك يميل إلى استبعاد مثل تلك الأعمال من الأدب الشعبى ويبرر ذلك بأنه رغم أن صلب العمل موجه إلى الشعب والعامة إلا أن البداية والإهداء إلى الامبراطور أو الأمير كتبا بلغة راقية نقية لا تنتمى إلى الأدب الشعبى، كذلك النهاية أو الخاتمة التى يطلب فيها الحماية أو النفحات المالية. ونجد فى الواقع تشابهًا لغويًا فى أبيات البداية والنهاية رغم اختلاف الشعراء واختلاف القصائد.

ويظهر هذا الاتجاه الوسط أكثر ما يظهر وتغلب اللغة الشعبية فى المفردات والأسلوب عندما تعالج الحياة الزوجية أو الحياة الدينية الديرية أو يوجه الشعر إلى الطبقة العاملة القارئة. والحقيقة أن هذا الاتجاه الوسط لم يكن يعنى أن الشاعر لا يسيطر على الفصحى ولكنه يعنى أن الشاعر كان ثنائى اللغة، وأن تلك كانت «الموضة» فى محاولة إرضاء أو التوجه إلى جميع القراء من طبقات راقية وما دونها من طبقات.

وكما نشأ أدب شعبى من بين الأوساط الشعبية فى الدولة البيزنطية، حدثت عمليات تبسيط للأدب الراقى حتى ينتشر بين الأوساط الشعبية ولا نعرف الدوافع إلى ذلك التبسيط، هل كان لأغراض تسويقية بحتة أم كان لهدف سام نبيل هو نشر العلم والأدب بين العوام. لقد تمت إعادة الصياغة هذه لكتب تاريخية وكتب خطابة وبلاغة وكتب قصصية. ولقد بدأ هذا الاتجاه فى القرن العاشر على استحياء وازداد تدريجيًا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وأصبح ظاهرة فى القرن الرابع عشر والخامس عشر. وفى الأعمال المبسطة كانت الكلمات والأساليب الكلاسيكية المهجورة والصعبة تستبدل بكلمات أكثر شيوعًا وأكثر انتشاراً بين العوام. كما كانت التركيبات اللغوية المعقدة تحول إلى جمل فرعية بسيطة وتراكيب سهلة مألوفة؛ حتى أطلق على الأسلوب المتبع فى تبسيط تلك ....

---

(١) Michael Glykes.

الأعمال «الأسلوب اليونانى السوقى». ولم يكن سبب التبسيط كما تصور البعض هو تدهور لغة العلماء ولكن فيما أعتقد المحاولة للاقتراب من الجموع ومن العوام حيث كانت تظهر من الكتاب الواحد فى بعض الأحيان نسخ أصلية باللغة الكلاسيكية ونسخ أخرى باللغة المبسطة «اليونانية السوقية» أى الشعبية تلك للعلماء وهذه للعوام. وقد انتشر هذا الاتجاه المزدوج فى النشر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن وبشدة من المسئول عن إعادة الصياغة أو من ذا الذى كان يقوم بها؟ إنهم فى اعتقادنا أناس يتقنون اللغة الفصحى ويسيطرون فى نفس الوقت على اللغة العامية وإلا لما كانوا يستطيعون فهم النص الأصلى ويستبدلون الألفاظ والأساليب والتركيبات اللغوية الكلاسيكية بألفاظ وأساليب وتركيبات لغوية شعبية «سوقية». لقد كانت هناك بكل تأكيد دوائر ـ ولو قليلة ـ تتقن اللغة الكلاسيكية وتستطيع التعامل معها وتدرك الهوة بينها وبين اللغة الجارية المستعملة.

إن محاولات تبسيط الكتب القديمة بلغة «حديثة» قادت إلى محاولة أخرى وهى نسج وتأليف كتب جديدة على غرار الكتب القديمة ولكن بلغة حديثة؛ حدث هذا بصورة جلية واضحة فى القرن الثانى عشر فى مجال الرواية بالذات حيث قلدت الروايات الكلاسيكية القديمة فقد ظهرت روايات عديدة تقلد روايات العصور الوسطى الباكرة وربما أواخر العصور القديمة من أمثال روايات هليودروس(١) وأخيلس تاتيوس(٢) ولونجوس(٣) إن القارىء الحديث لم يستسغ تلك الروايات القديمة، لأنه ببساطة لم يستطع فهمها والسيطرة عليها ومن هنا كان لابد من ظهور روايات حديثة تنهج نهجها وتسير على منوالها؛ ولكن بالمستوى اللغوى الجديد على نحو ما فعل كاليماخوس فى رواياته، تلك الروايات البسيطة

(١) Heliodros .

(٢) Achilles Tatios .

(٣) Longos.

التى كانت مفرداتها مشتقة من العامية وتتحرر من التراكيب الكلاسيكية. لقد انتشرت تلك الروايات فى القرن الرابع عشر واستمرت حتى القرن السادس عشر.

هناك من الشواهد ما يؤكد اتساع دائرة قراءة تلك الروايات، ربما نتيجة للنزول بمستوى اللغة؛ رغم أن الشعب البيزنطى عموما كانت تسوده نزعة تدينية متشددة جدًا حيث ساد المذهب الأرثوذكسى وكانت تسيطر عليه القيم والمبادىء التى يفترض أن تبعد به عن مثل هذه القصص والروايات التى كانت فى مجملها بعيدة كل البعد عن المبادىء المسيحية رغم أنها لم تكن خليعة بالمعنى المعروف؛ وكانت غالبًا ما تدور حول الحب والعلاقات بين المرأة والرجل.

لقد اتسعت أيضًا دائرة قراء الشعر والأغانى المبسطة والشعبية أيضًا وخاصة تلك التى كانت تدغدغ أحلام البسطاء؛ على نحو ما نصادفه فى أغنية الشاعر العظيم بليزاريوس(١) وهذه الأغنية فى الواقع تتسم بالمضمون الأخلاقى فى المقام الأول، ويريد الشاعر بها أن يوصل رسالة إلى القيصر مؤداها أن الشعب البسيط هو وحده الذى يستطيع أن يقدم له النصيحة الخالصة الخالية من كل نفع شخصى، بينما طبقة النبلاء التى يملؤها الحقد والمنافع الشخصية تضر بمصالح الامبراطورية العليا، وهذه القصيدة الشعبية أو الأغنية الوطنية تكشف يقيناً عن وجود طبقة وسطى مناهضة لطبقة النبلاء. فالبطل فى هذه الأغنية بليزار هو رجل من الشعب وعائلة فيلانثروبنوا(٢) هى أسرة وطنية أيضًا متوسطة الحال تقف مع البطل فى مواجهة طبقة النبلاء فى عهد الامبراطور أندونيكوس الثانى. وهذه القصيدة الشعبية فى الحقيقة تكشف عن أن عاصمة الامبراطورية بدأت لأول مرة تلعب دوراً فى الاتجاهات السياسية والأدبية إلى جانب الأقاليم، وأنها كانت قادرة فى القرن الرابع عشر على دفع الأدب فى اتجاه التطور والتأثير فى دوائر المثقفين والمتعلمين.

---

(١) Belisarios.

(٢) Philanthropenoi

إلى جانب الأدب الشعبى، كان هناك فى بيزنطة ما يمكن أن يسمى «التاريخ الشعبى» وقد ترك لنا الشعب عدة كتب وخاصة تلك التى تدور حول تاريخ قبرص، بعضها كتب مباشرة على أرض تلك الجزيرة وبعضها كتب فى إيطاليا. لقد اتخذ التاريخ الشعبى هذا شكل الحكايات والروايات التى تحكى أحداثًا شعبية وتؤرخ للأفراد من خلال أحداث الرواية نفسها والحكاية، ولا يجب أن ننتظر منها تطبيق قواعد كتابة التاريخ عليها.

ويمثلها رواية الفارس امبريوس(١) وعلاقاته بـ مارجيرونا(٢) وحكاية الجميلة ماجيلون(٣) وحبيبها بير(٤) وكل ما كتبه فلوار(٥) وبلانشفلور(٦) .

لقد ظهر فى الأدب الشعبى البيزنطى نوع من الأدب الشعبى السياسى على غرار «كليلة ودمنة»، وهو عبارة عن قصص وحكايات ساخرة على لسان الحيوانات والطيور والنباتات وقد وصلتنا عينات رائعة من تلك القصص مثل: «قصة الطيور»؛ «قصة ذى الأربع»؛ «قصة الثعلب والذئب والحمار»؛ «كتاب الفواكه»؛ «كتاب الأسماك»؛ «قصائد من القط والفئران» وربما كانت المعلومات الموجودة فى تلك القصص معروفة ومستقاة من الآداب القديمة ولكن أعيدت صياغتها بأشكال وقوالب جديدة. وقد فرغت القصص من معناها الدينى واتجهت اتجاهًا دنيوياً وأصبح هدفها المطلق هو النقد الساخر.

لقد كان النقد الساخر هذا موجوداً فى العصر البيزنطى الباكر ولكنه فى ذلك الوقت كان فى الغالب قاصراً على العلماء والأدباء داخل البلاط فى القصر الامبراطورى حيث كان هؤلاء يسخرون من بعضهم البعض ويتنافسون على المناصب والتقرب للحاكم ويحقدون على بعضهم البعض. ولكنها كانت سخرية

---

(١) Imberios .

(٢) Margerona .

(٣) Maguelonne .

(٤) Pierre .

(٥) Floire .

(٦) Blanchflor .

وانتقادات مكتومة غير مباشرة ولكى تفهم فلابد من فك **شفرة** السخرية لمعرفة من توجه إليه حيث كانت تلك السخرية على نطاق ضيق ولأشخاص محددين وفى مجال معين. أما القصص الساخر فى العصر البيزنطى المتأخر فقد كان عبارة عن نقد عام ويوجه إلى المجتمع ككل أو لطبقة معينة أو لظاهرة بالذات. وعلى سبيل المثال فإن نصيباً كبيراً من السخر والتهكم كان يصيب طبقة المثقفين التى كانت تعتقد أنها تعلو وتفوق عامة الشعب البسيط. لقد كان نقداً اجتماعياً ساخراً. والنقد فى **كتاب الطيور** لم يكن موجها لطبقة ما أو أشخاص بعينهم وإنما كان موجهاً إلى عامة الشعب إلى الشخص العادى «الشخص الغبى المقهور المغلوب على أمره المستسلم لقدره» كما كان موجهاً أيضًا إلى «الشخص المغرور الأجوف الذى ليس بداخله شىء». وللأسف كانت هناك كتب من هذا النوع تسخر من الإنسان الذى لا ينتهز الفرص التى تلوح أمامه، وتحتقر سوء التصرف وتمتدح من يدبر أمور حياته بالمكر والخديعة. لقد كان هناك نقد سياسى لاذع وساخر موجه أساساً للبلغار.

لقد قام سيريل مانجو[١] بمحاولة طيبة لدراسة مدى توافر الكتب فى الدولة البيزنطية فى فترة من أخصب فتراتها أى بين ٧٥٠ ـ ٨٥٠م، وقد اختار هذه الفترة لأنها تمثل نقطة تحول فى تاريخ الكتابة اليونانية فقد شهدت بداية إدخال استعمال الخطوط الصغيرة[٢]، كما شهدت حركة النهضة البيزنطية الوسيطة (المقدونية) والتى ندين لها ببعث وإحياء كثير من مؤلفات المؤلفين اليونانيين القدماء وفى هذه الفترة أيضًا سادت حركة تحطيم الأيقونات[٣] ومن المعروف أن مجلس الأيقونات فى حراء[٤] قد انعقد سنة ٧٥٤م، كما أن المجلس المسكونى (العالمى)[٥] السابع، انعقد سنة ٧٨٧م، وأن المجلس الأيقونى الثانى قد انعقد سنة

(١) Cyril Mango .

(٢) miniscule .

(٣) Iconoclasm .

(٤) Hiereia .

(٥) Ecumenical .

٨١٥م، وأن التصفية النهائية للأيقونات والتخلص منها كانت سنة ٨٤٣م. ولقد توفر عديد من الباحثين على رصد التداعيات الخاصة بتلك الظواهر المتزامنة، واستخلصوا منها الكثير من النتائج. وبعض هؤلاء الباحثين يعزو بعث التراث اليونانى وإحياء الكلاسيكيات إلى رواد وحملة حركة الأيقونات والذين نادوا بالتعليم العلمانى والعلم المدنى، بينما آخرون يدعون أن حركة إحياء التراث اليونانى فى بيزنطة لم تبدأ إلا بعد ٨٤٣م أى بعد التحطيم النهائى للأيقونات والبعض الآخر يرى أن صلة مباشرة بين «نقحرة المخطوطات» وإحياء الآداب الكلاسيكية؛ بل ذهب البعض إلى أنه ليس ثمة علاقة.

إن دراسة مدى توافر الكتب فى الدولة البيزنطية يتطلب فحص كتابات المؤلفين الذين عاشوا تلك الفترة عن قرب وأثروها بإنتاجهم بدءًا بالقديس جون داماسين(١) الذى مات حوالى ٧٥٠م، البطريرك نايسفوروس(٢)، جورج سينسيلوس(٣)، تيودور المجد(٤)، ثيوفانيس المعترف(٥)، إجناتيوس الشماس(٦)وكذلك فوتيوس(٧) الشهير الذى بدأ نشاطه الفكرى قبل ٨٥٠م وامتد بعدها. ومن خلال دراسة أعمال هؤلاء المؤلفين البيزنطيين يمكن التعرف على المصادر التى اعتمدوا عليها والاقتباسات والإشارات المرجعية والاستشهادات التى تضمنتها والتى تلقى حتمًا الضوء على مدى توافر الكتب وخاصة إذا كانت تلك الاستشهادات قد أخذت مباشرة من الأصول أو بطريق غير مباشر عن طريق مصادر وسيطة، وهو أمر كان منتشراً فى الدولة البيزنطية.

إن أول الكتب التى تطالعنا في تلك الفترة هى محاضر جلسات المجلس

---

(١) St.John Damascene.

(٢) Patriarch Nicephorus.

(٣) George Syncellus.

(٤) Theodore the Studite.

(٥) Theophanes the Confessor.

(٦) Ignatius the Deacon.

(٧) Ignatius the Deacon.

المسكونى (العالمى) السابع والتى تعتبر من أهم وأخطر الوثائق ذات المعلومات الغزيرة المفيدة. وكانت المجالس الكنسية من القرن الخامس وحتى السابع الميلادى تعتمد على كتابات آباء الكنيسة ويتضح ذلك أشد ما يتضح فى مجلس لاتيران[(١)] لسنة ٦٤٩م، كما يتضح أكثر فى المجلس المسكونى السادس ٦٨٠ ـ ٦٨١م الذى أعطى اهتمامًا متزايدًا لتحقيق وضبط الكتابات التى خلفها آباء الكنيسة مما أدى إلى أن يطلق عليه اسم مجلس الآثاريين والباليوجرافيين. لقد كان الاعتماد على كتابات آباء الكنيسة مسألة راسخة قبل اندلاع أزمة الأيقونات. وفى خلال أزمة الأيقونات تم الاعتماد أيضًا إلى حد كبير على سلطة آباء الكنيسة وآرائهم. ومن الطريف أن يقود هذا الأمر إلى بذل مجهود ببليوجرافى كبير، مجهود ببليوجرافى تبذله الدولة، وهو مجهود كان يستفيض بقدر ما تسمح به الظروف. ولما لم يكن لدى آباء الكنيسة شيء كثير يقولونه عن موضوع الصور والأيقونات فكان لابد من الغوص فى أعماق الكتب بدقة وعناية لاستجلاء الأمر وكان لابد من معالجة مسألة صحة وعدم صحة النصوص التى يعتمد عليها فى هذا الصدد وليس مجرد عرض آراء المؤلفين المؤيدين والمعارضين للقضية. وكان جانب كبير من العمل التحضيرى قد تم قبل البحث الرسمى لموضوع الأيقونات سنة ٧٣٠م. وهناك أيضًا من الشواهد ما يؤكد وجود بحث ببليوجرافى مستفيض قبل مجلس سنة ٧٥٤م. ففى كتاب **نصائح الرجل القديم فيما يتعلق بالصور المقدسة**[(٢)] الذى يقع بين سنتى ٧٥٠ و ٧٥٤م نجد تسجيلاً ووصفًا للخلاف الذى وقع فى سليزيا بين محب الأيقونات وجامعها الراهب جورج القبرصى والمعارض الأيقونى الأسقف المدعو كوزماس. وقد استخدم هذا الأخير فى دفوعه حجج ثلاثة من الكتاب

(١) Lateran Council .

(٢) Admonition of the Old Man Concerning the Holy Images .

(٣) Epiphanius of Salamis .

(٤) George of Alexandria .

المسيحيين الأوائل وهم: إبيفانيوس من سلاميسا[٢] وجورج السكندرى[٤] وسيفيروس الأنطاكى. ويضيف «ولهذا فإن أراءهم وكتاباتهم تدرس بإمعان في القصر فى كل ساعات اليوم». ولم يكن اختيار هؤلاء المؤلفين اختياراً موفقًا فيما يذهب سيريل مانجو طالما أن جورج السكندرى[١] كان آريوس[٢] (نسبة إلى آريوس الكاهن السكندرى الذى توفى سنة ٣٣٦م والذى قال بأن الابن عيسى غير مساو للآب فى الجوهر)، وطالما أن سيفيروس الأنطاكى[٣] كان من القائلين بوحدة طبيعة المسيح[٤] أما أساقفة سنة ٧٥٤م فقد كان رأيهم أفضل على النحو الذى نستقيه من التعريف الذى وضعوه. من جهة أخرى فقد كان لدى محبى الأيقونات وجامعيها ما يبررون به موقفهم بدءاً من القديس سانت جون داميسين. وباختصار شديد فإنه يمكن القول بأنه قد سبق مجلس سنة ٧٨٧م نصف قرن من البحث الببليوجرافى فى الاتجاهين المؤيد والمعارض وكان من الواضح أن وقائع هذا المجلس قد أعد لها وحضرت بعناية شديدة.

وطبقاً لما قام به سيريل مانجو فإن وقائع مجلس ٧٨٧م تنطوى على اقتباسات من سبعين مصدراً من كتابات آباء الكنيسة، المجالس الكنسية، سير القديسين، المصادر التاريخية وغيرها من المصادر بالإضافة إلى الديباجات المتصلة بالصور والأيقونات نفسها والتى كانت تقرأ علناً وتناقش والتى جمعها ب. فان دن فن[٥].

وقد أشار **سيريل مانجو** إلى أن كل نص كان يتلى فى وقائع المجلس كان يوضع كتابه الأصلى أمام المجلس تحت بصر المجتمعين. وكان المحاضر يبدأ بمقدمة الكتاب ثم يعمد بعد ذلك إلى النص المحدد. وسبب إحضار الكتب كاملة

---

(١) George of Alexandria.

(٢) Arian.

(٣) Severus of Antoich.

(٤) Monophysite.

(٥) P. Van den Ven.

أمام المجتمعين فى المجلس يرجع إلى أن معارضى الأيقونات فى مجلس ٧٥٤م كانوا يكتفون فقد بتقديم مستخرجات من الكتب يدللون بها وحدها على مايقولون ولم يقدموا الكتاب الكامل. وكانت تلك المستخرجات فى بعض الأحيان مزورة أو تؤول خارج سياقها العام. ولذلك كان لابد من تدارك ذلك فى مجلس ٧٨٧م. ولقد إشترك الأسقفان: جريجورى أسقف قيسارية الجديدة وثيودوسيوس أسقف عمورية فى المجلس الأيقونى، كما حضرا مجلس ٧٨٧م وتم سؤالهما مرة أخرى حول تلك المستخرجات. وكان إصرار مجلس ٧٨٧م على ضرورة دقة النصوص فى سياقها الكامل، مدعاة لبعض المواقف الكوميدية أحياناً فذات مرة تمت قراءة نص من لفافة بردى وليس من كراس مما حدا بأب دير استوديوس[١] إلى أن يقفز من مكانه ويسأل لماذا يقرأ هذا النص من لفافة وليس من كراس، فرد عليه البطريرك تاراسيوس[٢] بأن تلك هى الوثيقة الأصلية التى تحمل توقيعات الآباء وقد أنتجت على شكل لفافة وأن الأسقف بيتر أسقف نيقوميديا هو الذى نسخ «الكراس» الذى يحمل نفس القوانين.

ومما يجمل ذكره فى هذا الصدد أيضاً أن الكتب التى قدمت إلى المجلس انتسخت فى معظمها من مكتبة البطريركية فى القسطنطينية. وتلك حقيقة أكدها موثق البطريركية وكاتبها العام فى عبارة تقول «لقد جئنا نحمل الكتب المقدسة التى أحضرناها من بين تلك الكتب الموجودة فى مكتبة البطرخانة المقدسة فى القسطنطينية وعلى الأخص قوانين الرسل المقدسة؛ والمجمعات الكنسية المقدسة[٣] وكتب أبينا القديس بازل وغيره من الآباء القديسين». وفى حالة واحدة جاء كتاب «معجزات القديسين كوزماس ودميان»[٤] من كنيسة هذين القديسين فى القسطنطينية. وفى حالة أخرى جاء كتاب الشهداء[٥]، وقصة صورة كامو ليانا[٦]

---

(١) Studius

(٢) Tarasius

(٣) Synods

(٤) Miracula SS. Cosmae et Damiani

(٥) Martyria

(٦) Camuliana

من مكتبة كنيسة البطرخانة التى يفترض أن مجموعاتها منفصلة عن المكتبة الرئيسية فى البطرخانة. ومن بين السبعين كتاباً التى استعان بها المجلس فى أعماله، من الواضح أن خمسين منها على الأقل توفرت اللجنة التنظيمية على تدبيرها. أما العشرون الأخرى فقد تم تأليفها وإنتاجها فى فترة انعقاد المجلس على الطبيعة ومن واقع الحال على يد الأساقفة والآباء المجتمعين. إن أعمال هذا المجلس وماجرى فى اجتماعاته أمدتنا بكثير من المعلومات المتعلقة بالكتب البيزنطية. وعلى سبيل المثال قام الحبر الأعظم[١] جون، حبر البطرخانات الشرقية بعرض كتاب من تأليف انستاسيوس الأنطاكى وقال «هذا الكتاب أيها الآباء المبجلون، عثرت عليه فى مدينة الامبراطورية (القسطنطينية) فى حوزة بروكوبيوس[٢] الصامت، وعندما وجدته سررت به كثيراً لأننا فى الشرق عندنا نفس النسخة بالضبط» وبعد ذلك قرأ العبارة المطلوبة والخاصة بالأيقونات من داخل نص الكتاب. ومثال آخر عندما نهض الأسقف إيثيمس من سارديس[٣] وقال «بين يدى الآن كتاب من تأليف المقدس المعترف ماكسيموس[٤] وأنا أقدمه الآن للقراءة» ثم تلا الفقرة التى تؤيد وجهة نظره. أما بيترأسقف نيقوميديا فقد قال «إن لدى نفس كتاب سانت ماكسيموس وإن رغبتم قرأت أنا أيضاً نفس الفقرة» ثم أعيدت قراءة الفقرة للتأكيد على أنه ليس هناك أى تزوير».

لقد كان من بين العشرين كتاباً التى تم تأليفها وإنتاجها تلقائياً فى فترة انعقاد المجلس، كتابان ينتميان إلى طائفة كتب الخواطر الشخصية[٥] وهما بالتحديد: **خرافة أيقونة بيريتوس**[٦] المنسوب إلى سانت إثناسيوس وخطاب سانت بازل المزور إلى الامبراطور جوليان، بينما كانت بقية الكتب من الأعمال المحترمة ذات القيمة العلمية، على الرغم من أن بعضها اتسم بعدم الدقة فى بعض معلوماته.

(١) Vicar
(٢) Procopius
(٣) Euthymius of Sardis
(٤) Maximus
(٥) Spuria
(٦) Berytus

وبصفة عامة فإن اللجنة التنظيمية للمؤتمر هى الأخرى قد توفرت على إنتاج عدد كبير من الكتب من سير القديسين كانت من أحسن الكتب المعروضة فى المجلس.

لقد كانت هناك كتب معروضة في المجلس منسوخة من مكتبات غير مكتبة البطرخانة والمثال على ذلك يأتينا من كتاب جون موسخوس[1] الذى نسخه أب دير ماكسيمينيوس وقد قال عنه فى اليوم التالى بطريرك تاراسيوس (طرسوس): «بالأمس قدم لنا أب ماكسيمينيوس الكتاب وقد قرئ أمامنا. ونحن أيضاً وجدنا فى المكتبة نسخة من نفس الكتاب ولكن الورقة الحاملة للمعلومات عن الأيقونات منزوعة» وإذا كان المقصود هنا هو مكتبة البطرخانة فإن معنى ذلك أنه لم يكن بها سوى نسخة واحدة من هذا الكتاب هى تلك النسخة المعيبة.

من جهة أخرى يقرر فان دن فن أن مجلس ٧٨٧م «لم يستفد من الأيقونة الخاصة بالقديس جون دامسين» والتى وضعت بين يدى المجلس. وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه كان من الضرورى قراءة الآراء والنصوص من الكتب الفعلية وهو أمر لم يكن مرتبطاً بأية أيقونات موجودة، بل كان النقاش عاماً غير محدد بأيقونات معينة فى مجلس نيقيا.

ورغم أن المجلس قد اعتمد أساساً فى أعماله الخاصة بالأيقونات على رصيد مكتبة البطرخانة حيث أنها كانت المستودع الرئيسى للإنتاج الفكرى المسيحى فى القسطنطينية فإن مجموعاتها لم تكن شاملة فيما يبدو وأنه كان بها فجوات كثيرة كان لابد من تعويضها من مكتبات الكنائس والأديرة بل وحتى مكتبات الأفراد. يدعم تلك الحقيقة بعض الفقرات التى وردت فى الأعمال التحضيرية للمجلس الأيقونى الثانى سنة ٨١٤م. وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر أن تلك اللجنة كانت تتألف من ستة أفراد أشهرهم على الإطلاق جون النحوى - بطريرك المستقبل - وقد قامت هذه اللجنة بأعمال التحضير للمجلس ستة شهور كاملة وقد ورد فى أعمال اللجنة عبارة تقول «وقد طلب جون من الامبراطور تخويله سلطة الفحص والتفتيش عن الكتب القديمة فى كل مكان وخاصة تلك الموجودة فى الأديرة والكنائس وأنه قد أجيب إلى طلبه وسمح له بذلك...» ومن هنا فقد

---

(١) Leimonarion/ John Moschus

جمعوا كمية كبيرة من الكتب وبحثوا فيها ولكنهم لم يجدوا فيها شيئاً سوى هراءات وخرافات إلى أن وضعوا أيديهم على أعمال المجمع الكنسى(١) للقسطنطينية وقد حصلوا منها على الاستهلاليات التى دلتهم على الفقرات المطلوبة ومن ثم استطاعوا الوصول إليها فى الكتب ووضعوا عليها علامات تحدد مواضعها فى تلك الكتب. وقد أرادوا من تتبعهم لهذا العدد الضخم من الكتب أن يستخرجوا منها النصوص التى تقول بتحريم وتجريم عبادة الأيقونات. وإذا نحينا جانباً الآراء التى تقول بأن جون النحوى مد عمليات الفحص والتفتيش إلى الكتب الكلاسيكية والمؤلفين القدامى قبل المسيحية فإن هناك نقطتين تبرزان فى هذا السياق، **الأولى**: أن تلك اللجنة التى اتخذت من القصر الامبراطورى واستصدرت أمراً من الامبراطور بالبحث عن الكتب فى الأديرة والكنائس، معناها أن مجموعات المكتبة الامبراطورية لم تكن كافية وأنها لم تقتن كل كتابات آباء الكنيسة. لقد كانت هناك مكتبة امبراطورية فى ذلك الوقت كما سنرى فى فصل لاحق ولكنها فيما يبدو لم تكن كبيرة وشاملة. **والثانية** أن أعمال المجمع الكنسى فى القسطنطينية سنة ٧٥٤م كانت تسجل استهلاليات الكتب التى اقتبست منها بعض النصوص ومن ثم يمكن أن نستنتج أن ذلك المجمع بذل هو الآخر جهداً ببليوجرافياً محموداً على العكس مما أثير فى مجمع سنة ٧٨٧م.

هذا فيما يتعلق بأعمال المجمع المسكونى، أما النوع الثانى من الكتب فهو كتب التاريخ. ولعله مما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن أعظم الحوليات البيزنطية وأكثرها طموحاً تقع فى هذه الفترة وهى حوليات: جورجيوس سنسيللوس(٢) التى تم تجميعها في العقد الأول من القرن التاسع. وجورجيوس كما يشير إليه لقبه كان يحتل مرتبة عالية فى البطرخانة ومن ثم كان يستطيع استخدام مكتبة البطريركية. وقد قام صديقه ثيوفانيس ـ بعد وفاته ٨١٠/ ٨١١ بتكملة حولياته. وهو يخبرنا في المقدمة بأن جورجيوس قد توفر على دراسة كثير من الحوليات وكتب التاريخ

(١) Synodicon
(٢) Georgius Cyncellus

ومؤلفيها دراسة واعية؛ وقد خلف لصديقه، ثيوفانيس المصادر والمراجع التى يستطيع منها إتمام العمل. وإن نظرة فاحصة على حوليات جورجيوس بمصادرها الفنية الكثيرة والمؤلفين القدماء الذين استعان بمؤلفاتهم، وكذلك قائمة الحكام المصريين، الفالدونيين والآشوريين وغيرهم؛ لتدل دلالة قاطعة على درجة عالية من العلم والإحاطة بلغها جورجيوس. ومع ذلك فإن هناك إحساساً عاماً بأن كل المعلومات التاريخية التى أتى بها جورجيوس قد استقيت أساساً من ثلاثة مصادر رئيسية هى: العصر القديم ثم حوليات بانودوروس[١] المفقودة وحوليات أنيانوس[٢] المفقودة أيضاً وكلتاهما تبدآن من سنة ٤٠٠م تقريباً. وإلى جانب ذلك هناك إشارات عابرة إلى آباء الكنيسة من أمثال جريجوري نازيانزن[٣] و سانت جون كريسستوم[٤]. وليس فى حولياته ما يدل دلالة قاطعة بأنه استعان مباشرة بأعمال كل من إيسيبوس[٥] و جوليوس أفريكانوس[٦] رغم أنه يورد اقتباسات منهما كما أنه لايكشف عن الرجوع إلى الفكر الكلاسيكى الأصيل.

ولابد من أن نتوقف هنا أمام أعمال ثيوفانيس[٧] لأنه أعد كتابه ليس فى القسطنطينية وإنما فى دير ميجاس أجروس[٨] فى الغرب من فم رايندداكوس[٩] وقد أتمه فى فترة قصيرة لاتزيد على ثلاث سنوات؛ إذ توقف عن الكتابة قبل أن يجهر ليو الخامس بعدائه للأيقونات فى نهاية سنة ٨١٤م. وهل معنى ذلك أن كل المصادر التى استعان بها ثيوفانيس فى عمله كانت موجودة فى دير ميجاس أرجوس؛ لانعتقد ذلك لأنه هو نفسه يقول بأنه تعين عليه أن يبحث عن مصادره

(١) Panodorus
(٢) Annianus
(٣) Gregory Nazianzen
(٤) St. John Chrysostom
(٥) Eusebius
(٦) Julius Africanus
(٧) Theophanes
(٨) Megas Agros
(٩) Rhyndacus

بأقصى طاقة ممكنة لديه؛ أى أنه ربما كان يستعيرها من الأديرة المجاورة أو من القسطنطينية. والمصادر التى كانت تحت يديه كانت أكثر عدداً من تلك المتاحة لسلفه جورجيوس سنسيللوس. ففى الجزء الباكر من عمله حتى وفاة ثيودوسيسو الثانى يعتمد اعتماداً أساسياً على كل من سقراط؛ سوزومينوس؛ ثيودوريت. وليس ثمة شك فى أن تلك المصادر كانت متوافرة ومتاحة فى قسطنطينية القرن التاسع الميلادى. ومع ذلك يبدو أن ثيوفانيس لم يرجع إلى هذه الأعمال مباشرة ولكن من خلال أعمال وسطية مثل تجميعات ثيودوروس ليكتور(١). وفى الفترة التالية وحتى حكم هيراقليوس(٢)، اعتمد ثيوفانيس على برسكوس(٣)؛ بروكوبيوس(٤)؛ أجاثيوس(٥)؛ مالالاس(٦)؛ يوانيس إيبيفانيوس(٧)؛ ثيوفيلاكت سيموكاتا(٨) ثم أخيراً على جورج من بيسيديا(٩)، على الرغم من أنه لم يرجع إليهم مباشرة بل عن طريق مصادر وسيطة غالباً.

وأهمية كتاب ثيوفانيس بالنسبة لنا تكمن أساساً فى أنه المصدر الوحيد للمعلومات عن فترة مابعد هيراقليوس على الرغم من فقر الاقتباسات والإشارات البيليوجرافية فى هذا القسم من العمل. وليس هذا القسم بالذات من العمل هو الذى يعتمد عليه فى معرفة مدى توافر الكتاب البيزنطى والمصادر فى القرنين السابع والثامن. أما فيما يتعلق بالفترة بعد سنة ٧٧٥م فإن هناك كتاباً آخر عظيماً يشارك هذا العمل فيها وهو الكتاب الذى وضعه جامع الأيقونات ومحبها البطريق

---

(١) Theodorus Lector

(٢) Heraclius

(٣) Priscus

(٤) Procopius

(٥) Agathias

(٦) Malalas

(٧) Ioannes Epiphaneus

(٨) Theophylact Simocatta

(٩) George of Pisidia

نايسفورس[١] بعنوان المختصر[٢]. ولابد من الإشارة هنا إلى أننا نتعامل هنا مع حولين بيزنطيين لاتتعدى كتاباتهم دائرة القسطنطينية. وعندما وضع ثيوفانيس يده على مصدر دقيق عن القسطنطينية فإنه اتبعه بحذافيره. ومع ذلك فقد خرج عن هذا الإطار واعتمد على حولية شرقية ربما كانت قد ألفت فى فلسطين واشترك مع ميخائيل السورى فى الاعتماد عليها، مما يدفع باضطراب عملية التأريخ فى القسطنطينية في تلك الفترة. يقول سيريل مانجو إننا لو قيمنا حوليات ثيوفانيس ككل فسوف نجد أنه لم يعتمد فى استقاء مادته العلمية على أكثر من خمسة عشر مصدراً.

وعندما نترك ثيوفانيس إلى مؤلف آخر فيجب أن نتوقف أمام **موسوعة فوتيوس**[٣] ذلك أن هذه الموسوعة هى معين هام لحصر عدد كبير من المصادر فهى تشير إلى ٢٧٩ مصدراً (كراسات) بعضها قصير صغير للغاية. والحقيقة أن بعض إشارات واقتباسات فوتيوس إلى تلك المصادر جاء مستفيضاً طويلاً وبعضها جاء عابراً محدوداً قد لا يتضمن سوى اسم مؤلف العمل الأصلى وعنوانه وفى البعض الآخر قام فوتيوس بنقل قائمة المحتويات كاملة مفصلة. وقد جمع الإشارات السريعة الموجزة معاً فى بداية الموسوعة (الببليوجرافية) بينما رحَّل الإشارات المفصلة إلى نهاية العمل. وفى بعض الأحيان نجد تكراراً حيث عرضت بعض العناوين مرتين بدون أى تفسير لهذا التكرار. والأعمال التى عرضت فى هذه الموسوعة الببليوجرافية تضم كتباً مسيحية ووثنية على السواء؛ وإن غلبت الكتب المسيحية عدداً. وتمتد هذه الببليوجرافية فى تغطيتها من القرن الخامس قبل الميلاد (هيرودوت، ستسياس[٤]) حتى القرن التاسع الميلادي (سيرجيوس المعترف). والتركيز فى هذا العمل على الفترة الأسباتانتية[٥]، ومن الطريف أننا

(١) Nicephorus

(٢) Breviarium

(٣) Photius Bibliotheca

(٤) Ctesias

٥) Spätantike

لانجد سوى عدد محدود من المؤلفين البيزنطيين فى فترة مابعد حكم هيراقليوس. وكل أعمال هذه الفترة نثرية وتدور حول الحفاظ على «سمك القد». أما الإشارتان رقما ١٨٣، ١٨٤ فهما عن بعض كتب العهد القديم المكتوبة شعراً بواسطة الامبراطورة إيدوكيا[١]. لم يعرض فوتيوس إشاراته فى سياق محدد أو طبقاً لنظام واحد؛ اللهم إلا فى أحيان قليلة عندما جمع الكتب ذات الموضوعات الدينية (مثل أعمال المجالس الكنسية، التاريخ الكنسى، ...) أو جمع كتب بعض المؤلفين معاً تحت المؤلف. ومن الواضح أن الكتب التى جاءت فى هذه الموسوعة الببليوجرافية توفر فوتيوس على قراءتها. والموسوعة تتضمن خطاب إهداء وملحق موجهين من المؤلف إلى أخيه تاراسيوس[٢]. ونكتشف من الخطاب أن فوتيوس كان قد بعث به إلى الشام قنصلاً لبلاده وقام بعمله هذا أثناء هذه البعثة.

لقد أثارت هذه الببليوجرافية كثيراً من الجدل فبعض الباحثين يرى أن فوتيوس قرأ كل الكتب المسجلة فيها أثناء وجوده فى القسطنطينية وأن الخطاب والملحق مجرد واجهة ربما وضعا بطريق الصدفة مع العمل. والبعض يرى أنه حمل معه كتبه إلى الشام وقرأها فى الطريق أو أثناء إقامته والبعض يرى أنه قرأها فى بغداد. وهناك خلاف أيضاً حول تاريخ إنجاز هذا العمل والتاريخ المقبول هو ٨٥٥م وعلى رأسهم ب. همردنجر[٣]. والبعض يرى أنه ٨٣٨م وعلى رأسهم السيدة/ هـ. أهرفيلر[٤]، بينما يؤكد الأب هالكن[٥] أنها وضعت بعد سنة ٨٧٦.

ولو صحت رواية أن فوتيوس حمل معه تلك الكتب فى رحلته ولم يجمع بياناتها من المكتبات العراقية والشامية على نحو ما هو معروف لنا فى بحثنا الببليوجرافى فإننا يجب أن نراجع معلوماتنا ونصححها عن الكتاب البيزنطى فى القرن التاسع.

(١) Eudocia
(٢) Tarasius
(٣) B. Hemmerdinger
(٤) H. Ahrweiler
(٥) Halkin

ويسأل سيريل مانجو سؤالين يتصلان بهذه القضية اتصالاً مباشراً الأول ما هى القيمة المادية للكتب التى حملها فوتيوس معه إلى الشام والعراق وعددها ٢٧٩ كتاباً وما هو الوقت اللازم لقراءتها. لقد ناقشنا من قبل أسعار الكتب البيزنطية فى القرن التاسع حسبما أورد عيناتها نيجيل ويلسون ومؤداها أن المخطوطة التى تقع فى ٣٠٠-٤٠٠ ورقة تتكلف مابين ١٥-٢٠ مسكوكة ذهبية سواء للرقوق أو الكتابة. هذه الأسعار تتصل بالمخطوطات التي تنسخ أو تكتب حسب الطلب؛ وليست الكتب المستعملة ولكن يبدو أن الفروق بين أسعار الكتب الجديدة والمستعملة كانت كبيرة. ومن الصعب بطبيعة الحال أن نحول عملة ذلك الزمن إلى عملتنا الحالية لأن التركيبة الكلية للأجور والأسعار كانت مختلفة تماماً عن أوضاعنا الحالية. وربما يمكننا الوصول إلى تقديرات تقريبية إذا قسناها على تقديرات الدخل ـ ليس على أساس دخل العمال الحرفيين الذين كانت أجورهم منخفضة (من ٦-١٠ مسكوكات ذهبية فى السنة) ـ ولكن على أساس أجور موظفى الحكومة المدنيين وجنود الجيش أى الطبقات الاجتماعية التى تستطيع شراء الكتب. فقد كان مرتب الموظف الحكومى العادى ٤٠ مسكوكة ذهبية فى السنة، وكان مرتب القسيس الشهير كتيناس[1] سنة ٩٠٧/٩٠٨م يصل إلى ٧٢ مسكوكة فى السنة. وإذا كان لنا أن نحول هذا المبلغ الذهبى بما يعادله من الدولارات الأمريكية الآن لبلغ ٦٠٠٠دولار بينما كان سعر الكتاب من الكتب المتوسطة الحجم يعادل ٣٠٠٠ دولار. ومن هنا فإن كتب فوتيوس يمكن أن تزيد على نصف مليون دولار. ومن ثم فإن البعض يرى أنه من غير المعقول أن يكون فوتيوس قد حمل معه فى سفارته تلك الثروة، أضف إلى ذلك أنه لم يكن فى بيزنطة كلها شخص مهما كان وضعه الاجتماعى يمتلك مثل هذا العدد من الكتب. أما هل كان لديه وقت لقراءة هذه الكتب جميعاً فإن البعض يرى أنه كان فى حاجة على الأقل لعشرة أعوام كاملة إلا إذا قدرنا أنه لم يقرأها من الجلدة للجلدة بل تصفحها مجرد تصفح لأن القراءة الكاملة لايمكن أن تكون عملاً فردياً

(١) Ktenas

بل عمل فريق. ومن واقع الملخصات الى قدمها فوتيوس يمكننا أن نرجح عملية التصفح وعدم القراءة المتصلة فقد قال فى ملخص الكتاب رقم ٩٧، الخاص بالدورات الأولمبية والذى ألفه فليجون من تراليس(١) وفيه قائمة بـ٢٢٩ دورة أولمبية، أنه لم يقرأ إلا حتى الدورة الـ ١٧٧، لأن الكتاب ممل.

ونأتى الآن للإهداء والملحق الخاصين بهذه البيليوجرافية، فالملحق كما ذكرت المصادر كتب أولاً. ويقول فوتيوس فيه بطريق مباشر «هذه هى الـ ٢٧٩ كتاباً التى أذكر أننى قرأتها خلال دراساتى منذ بدأت أستوعب استيعاباً نقدياً الكتب وحتى الآن. وإذا استطعت أن أعود من سفارتى حياً فسوف أرسل لك باتارسيوس مجموعة أخرى ليست أقل من هذه» ومن هذه السطور يجب أن نتوقف أمام أمرين: **الأول** ليس هناك ذكر لأى مجلس علم «دائرة قراء» وعلى العكس من ذلك يؤكد فوتيوس أنها قرأها بنفسه.

والثانى أن هذا هو الكم الذى استطاع قراءته منذ شبابه وحتى وقت سفارته **وربما يكون ذلك كله عبارة عن كتب دراسية** قرأها فى حياته العلمية [أى فهارس الشيوخ].

هذا عن الملحق، أما خطاب الإهداء الذى وجهه لشقيقه فهو الوثيقة التى يعتمد عليها الباحثون أساساً فى تحليل هذا العمل ودوافعه، وهذه الوثيقة تقول شيئاً مختلفاً عما يقوله الملحق. فالخطاب يقول بأن فوتيوس قد اختير ليكون سفيراً لبيزنطة فى بلاد العرب، وهو يرسل إلى تارسيوس ملخصات الكتب التى قرأها فى غيابه، أى منذ غادر أخاه فى بيزنطة، وهو يؤكد على الرقم ٢٧٩ كتاباً مرة أخرى فى الخطاب. ويذكر أنه نجح فى ذلك وأنجز العمل بسرعة لأنه وجد سكرتيراً يساعده فى البحث عن الكتب. وقد رتبت الملخصات بالطريقة التى يتذكرها بها فوتيوس، وربما تكون الملخصات غير كافية لأنه من الصعب تذكر كل المحتويات بعد فترة طويلة من قراءة الكتب، وخاصة هذا العدد الكبير. ومن

(١) Philegon of Tralleis

الطبيعى أن كتباً مثل تلك الكتب واسعة الانتشار والتى درسها تاراسيوس كان لابد من استعراضها عن طريق التلخيص وليس مجرد بيانات ببليوجرافية عامة. وقد استنتج الباحثون من رسالة فوتيوس هذه إلى أخيه أن تارسيوس كان عضواً فى مجلس علم «دائرة قراء» وأن هذا المجلس هو مجلس شقيقه فوتيوس وأن هذا المجلس كان فى القسطنطينية، وعندما غادرها فوتيوس فى سفارته استأنف هذا العمل مع أخيه على الأقل.

ومهما يكن من أمر فإن هناك صعوبة بالغة فى التدقيق بين المعلومات الموجودة فى الملحق وتلك الموجودة فى الرسالة وتلك التى نستقيها من القائمة الببليوجرافية نفسها خاصة أن بعض مفرداتها يحمل تاريخاً متأخراً بعد أن أصبح فوتيوس (بطريقاً) فى أواخر حياته.

وقد سبق أن عرضنا لثلاثة تواريخ لنشر هذه الببليوجرافية هى ٨٣٨م، ٨٥٥م، ٨٧٦م. وهذا التاريخ الأخير يعتقد كثيرون أنه أقرب التواريخ للصحة والدقة وهو التاريخ الذى قدره الأب **هالكن** بناء على فحصه للكتاب رقم ٢٥٢ وهو المتعلق بسيرة البابا جريجورى الأكبر والذى وصلتنا نسخه المكتوبة باليونانية ويعتقد أنه قد اشتق من كتاب أكبر باللغة اللاتينية توفر على إعداده فى روما جون هيمونيدس[١] ليس قبل سنة ٨٧٥م. وإذا افترضنا أن النسخة اليونانية قد أعدت مباشرة بعد تأليف النسخة اللاتينية فلايمكن أن تكون قد وصلت إلى فوتيوس قبل عام كامل من نشرها فى روما إلى القسطنطينية على أكثر تقدير. يساند تلك الحقيقة الى يفرزها الكتاب رقم ٢٥٢، الكتاب رقم ٥٢ فى الببليوجرافية وهو الكتاب المتعلق بأعمال مجلس كنائسى غامض عقد فى **سايد**[٢] سنة ٣٨٣م ليدين بدع وهرطقة كتب الصلاة[٣]. وهو يقول فى هذا الصدد عن هذا الكتاب «وقد وجدنا نحن أيضاً أثناء تتبعنا لبعض الأشخاص أنهم بعيدون عن هذا الخطأ ـ الذى

(١) John Hummonides

(٢) Side

(٣) Messale

بدأ يستشرى مرة ثانية ويبعث من جذوره - أن كتب الصلاة بدأ يدخلها خلط كثير وبدع وهرطقة». ويبدو أن محاولة تنصير هؤلاء الأشخاص الذين ذكرهم فوتيوس قد جرت وهو بطريرك بعد سنة ٨٥٨م وليس أثناء خدمته المدنية. يضاف إلى ذلك أيضاً أن هناك عدداً من الكتب الموجودة فى الببليوجرافية سجل أثناء حياته فى العمل البطريركى. فالعمل رقم ١١٥ والموجه ضد اليهود وجماعة عشر الربع[١]؛ يجعلنا نتساءل ما الذى جعل فوتيوس يعجب بهذه الجماعة الغامضة التى ازدهر نشاطها فى القرنين الرابع والخامس الميلادى. ونحن نعلم من كتاب طقوسه السابع عشر أنه نجح فى تنصير عدد من هراطقة هذه الجماعة التى استمر بعض أتباعها حتى عصر فوتيوس حتى تم تحويلهم إلى النصرانية على يديه سنة ٨٦٧م. ويجب أن نضع فى اعتبارنا أيضاً الطقوس: الخامس عشر والسادس عشر التى قدمها سنة ٨٦١ و٨٦٧م كذلك. هذه الطقوس ربما كانت جزءاً من مواعظ عامة قدمت فى خمسة آحاد متعاقبة فى الصيام الكبير وحيث قص فيها قصة الآريوسى الملحد وقد بدأها بحياة آريوس نفسه ولعنه فى مجلس نيقيا وأنهاها بالمجلس المسكونى الثانى. ويمكننا تتبع المصادر التى استخدمها فى الجانب الأكبر من طقوسه والتى تضم إضافة إلى أعمال سانت إثناسيوس والمؤرخين الكنسيين (سقراط وسوزومينوس وتيودوريت وفيلوستورجيوس[٢])عدداً من سير القديسين وخاصة متروفانيس[٣] والإسكندر وبول البيزنطى وإثناسيوس. وليس أبداً من قبيل الصدفا أن يجتمع كل هذا الحشد من التوثيق فى ببليوجرافية فوتيوس ويجب القول بأن فوتيوس قد قرأ كل هذه الكتب ودرسها أثناء إعداده للطقوس والشعائر المذكورة وليس قبل ذلك بعشرة أعوام عندما كان موظفاً حكومياً مدنياً. ونتأكد أيضاً من ذلك الاتجاه عندما عرض فوتيوس لكتاب حياة قسطنطين الذى ألفه إيسيبيوس وهو الكتاب رقم ١٢٧ فى موسوعته الببليوجرافية وكذلك الحال

Quartodecimans (١)

Philostorgius (٢)

Metrophanes (٣)

فى الكتاب رقم ١٧٩ ، والذى ألفه أجابيوس وفى الكتاب رقم ١٩٧ ، الذى كتبه كاسيان والخاص بتعاليم الأديرة والذى قال عنه فوبيوس بأن الدير الذى يواظب على ممارسة هذه التعاليم سوف يزدهر وينتعش والدير الذى يهمل تطبيقها محكوم عليه بالفشل؛ وخلص فى ملخصه عن هذا الكتاب إلى ضرورة الالتزام بما جاء فيه من أحكام. وفى الكتاب رقم ٢٢٨ نشعر بسلطة البطريق حين يعلق على مؤلف الكتاب إفراييم بأحكام دينية.

ولكن كيف نحل مشكلة التوفيق بين الملحق والقائمة وخطاب الإهداء. إن سيريل مانجو يسرد تتابع الأمر على النحو الآتى: لقد ذهب فوتيوس فى سفارة إلى المنطقة العربية ولكننا لانعرف على وجه التحديد متى كان ذلك ولكنه غالباً قبل أن يصبح بطريقاً وبهذه المناسبة قام بإعداد تلك الببليوجرافية التى تتضمن ملاحظاته على الكتب التى قرأها ووجهها إلى أخيه ولكن ليست الموسوعة التى وصلتنا بشكلها الحالى ولكن قائمة أصغر كثيراً وبتعليقات أقل كتبها يقيناً من الذاكرة كما يقول هو نفسه وربما كان رقم ٢٧٩ كتاباً هو الرقم الذى وعد أخاه به عندما يعود حياً إلى بيزنطة من سفارته وهو ما أتمه فعلاً ونشر مطبوعاً بعد ذلك فى ألف صفحة من القطع المتوسط وبقيت الببليوجرافية الصغيرة داخل نطاق الأسرة لم تنشر. وعندما عاد من سفارته أخذ يضيف إليها سنة بعد أخرى حتى نهاية عمره وخاصة خلال فترة بطرخانته الأولى (٨٥٨-٨٦٧م). وربما كانت الإضافات أقل أثناء فترة اعتزاله فى الدير إذ كان يشكو من قلة الكتب فيه، ولكن دب فيها النشاط بعد عودته إلى القسطنطينية حوالى سنة ٨٧٥م. وأخيراً نشر الملف الذى تضمن كثيراً بما فيه من تكرار وعدم توازن فى المعالجة وافتقاره إلى التنظيم. وربما حدث هذا النشر أو الإصدار بعد أن طعن فوتيوس فى السن وربما بعد وفاته وهذا أقرب للصحة. وربما يكون المحرر ـ غالباً آرتياس[١] ـ قد قرر إرفاق خطاب الإهداء والملحق مع أصل العمل عند نشره وربما أيضاً يكون التغيير الوحيد الذى أدخله على الخطاب والملحق وعنوان الببليوجرافية هو تعديل رقم

---

(١) Arethas

عدد الكتب. ولو كان هذا الاستنتاج صحيحاً فإن رقم ٢٧٩ كتاباً ممثلاً للكتبالتى دسرها فوتيوس طول حياته العلمية وهو رقم طبيعى بالنسبة لقارئ نهم مثل فوتيوس. وهو فى نفس الوقت يمثل صلب عدد الكتب الى كانت متوافرة فى بيزنطة أو على الأقل فى القسطنطينية فى القرن التاسع الميلادى.

ورغم المؤشرات الببليوجرافية الكثيرة التى تنطوى عليها «مكتبة» فوتيوس - وحيث كان يقول لنا إنه رأى عدداً من المخطوطات للعمل الواحد، بعضها تختلف فى العنوان، أو ينطوى على عدد متفاوت من الفصول والأبواب . . . - إلا أنها تصمت فى نقطة بالغة الأهمية بالنسبة لنا وهى «**مصدر المخطوط**» الذى يتحدث عنه، أين رآه، أين يوجد؟ ونحن لانستطيع أن نخمن معلومات المصدر إلا فى طائفة واحدة من الكتب التى وردت فى قائمته وهى كتب الهرطقة التى حلل منها عدد كبير. ذلك أن المجلس الكنائسى لسنة ٧٨٧م قد أدان تلك الكتب ولم يحرم فقط نسخها بل طالب بحرقها، ونفس هذا المصير أيضاً أعلن بالنسبة لأعمال الأيقونيين، ولكن القانون رقم ٩ طالب بتسليمها إلى ديوان النسخ بالقسطنطينية لتودع فى المستودع إلى جانب كتب الهراطقة الأخرى». وكانت هناك غرامة توقع على كل من يتداول هذه الكتب. وبمعنى آخر فإن كتب الهراطقة التى عرض لها فوتيوس فى موسوعته الببليوجرافية لايمكن أن تكون جاءت إلا من مصدر واحد هو «مكتبة البطرخانة» التى كان من السهل عليه الوصول إليها والحصول على مافيها. أما فيما يتعلق بالكتب العلمانية فإن من الصعب تحديد مصادرها ومن الصعب القول بأنها جميعاً كانت من ممتلكات فوتيوس نفسه فنحن لا نعرف شيئاً كثيراً عن مكتبته الشخصية وربما يكون قد استعار تلك الكتب من مصادر مختلفة.

إن التحليلات السابقة جميعاً تكشف عن أن الكتب فى الامبراطورية البيزنطية بين ٧٥٠ و ٨٥٠م - ومن ثم فى كل قرونها - كانت قليلة نادرة ومرتفعة الثمن بالمعايير السائدة آنذاك. ولم تكن هناك فى تلك الفترة مكتبة مركزية باستثناء تلك التى كانت موجودة فى البطرخانة، والتى كانت غالباً مقتصرة على الكتب

الكنسية بل ولم تكن كاملة شاملة فى هذا الاتجاه وجهود الأديرة الأرثوذكسية فى المجال البيليوجرافى جهود محمودة وكبيرة وخاصة تلك التى بذلها سانت تيودور العالم (المجد)(١). وطالما أن البطرخانة كانت لفترة طويلة فى أيدى الأيقونيين فقد حرم على المعارضة الأرثوذكسية الوصول إلى مكتبتها وهى المستودع الوحيد الشامل فى كتب الأيقونات؛ ولذلك لجأ الأرثوذكس كما سنرى فى فصل تالٍ إلى إقامة مكتبات مستقلة بعيدة عن مكتبة البطرخانة. ومن هنا وجدنا أنفسنا أمام وظيفة خارجة عن طبيعة الأديرة البيزنطية. وكان للصلات المباشرة للرهبان الأرثوذكس بإخوانهم فى المناطق التى يسيطر عليها العرب فى الشرق والغرب على السواء، أثرها فى تسهيل هذه العملية. وكان تدفق المخطوطات اليونانية على فلسطين بالذات تدفقاً مستمراً غير مقطوع.

ومع اعترافنا بتلك الحقيقة فإننا لاينبغى أن نبالغ فى مدى نسخ وإنتاج الكتب فى الأديرة الأرثوذكسية. ويعزى الفضل فى بدء ذلك الاتجاه نحو إنتاج الكتب وإنشاء المكتبات فى الأديرة الأرثوذكسية إلى عم تيودور، القديس بلاتون(٢) الذى أصبح راهباً سنة ٧٥٩م وتوفى سنة ٨١٤م. يقول تيودور فى خطبة جنازة بلاتون «إن وفرة الكتب» فى الأديرة ترجع إلى النشاط الشخصى لعمه بلاتون، أى إلى ناسخ فرد. ونستطيع القول بأن الناسخ المحترف كان يحتاج إلى أربعة شهور لإتمام نسخ كتاب من ٣٠٠ ورقة وبلاتون لم يكرس كل وقته فى عملية النسخ ومن هنا فإن عدد الكتب التى يمكن أن يكون قد نسخها يدخل فى عداد العشرات وليس فى عداد المئات ولم يقف الرجل وحده فى مضمار النسخ ونستطيع أن نميز إضافة إلى سانت تيودور، سانت مكاريوس من بليكيت وسانت ثيوفانيس المعترف وكلاهما كان ينسخ الكتب فى نهاية القرن الثامن الميلادى.

وإذا كانت مشكلة الأيقونات والخلاف الحاد حولها كانت سبباً فى اضطراد إنتاج الكتب وزيادة عملية النسخ فإن نفس المشكلة كانت سبباً فى عمليات بحث

(١) St. Theodore The Studite

(٢) St. Platon

ببليوجرافى مستفيض ترعاه الدولة والمجهودات التى بذلت فى هذا الصدد قبل سنة ٧٥٤م، تكررت وعلى نطاق واسع فى السنوات قبل سنة ٧٨٧م ومرة أخرى سنة ٨١٤م. ونجد أثر هذه المجهودات الببليوجرافية فى عمل فوتيوس الذى سجل كتباً تشتمل على نصوص لها علاقة بالأيقونات، على الرغم من أن الأيقونات نفسها لاعلاقة لها بإنتاج الكتب. ولكنها كحركة أدت إلى إحياء الكتب الكلاسيكية وأدت أيضاً إلى الجمع المنهجى والدراسة المتأنية لكتابات آباء الكنيسة. وقد صب هذا التيار المتدفق بالضرورة فى نبع الإنتاج الفكرى العلمانى.

وعندما نحاول مسح الإنتاج الفكرى للدولة البيزنطية فى القرن الثامن نجد فجوة كبيرة قد تمتد لنحو خمسين سنة من وفاة البطريرك جيرمانوس[1] بعد سنة ٧٣٠م بقليل وحتى المجلس الكنائسى السابع. فى تلك الفجوة لم يحدث كسر كامل فى العملية التعليمية كما توحى به القصة الملفقة التى تقول بحرق الجامعة بكتبها وأساتذتها كما سنرى فيما بعد. فالبطريق تارسيوس يعتقد أنه ولد سنة ٧٣٠م كان بكل تأكيد رجلاً متعلمًا رغم أنه لم يذكر فى عداد المؤلفين وليس من قبيل الصدف أن أعلام الفكر الذين لمعوا فى نهاية القرن الثامن جاءوا من جيل واحد. فالبطريق نايسفورس ولد حوالى ٧٥٨م، وسانت تيودور المجد (العالم) ولد سنة ٧٥٩م وثيوفانيس المعترف ولد سنة ٧٦٠م ويعتقد أن جورجيوس سنسيللوس قد ولد بسنوات قليلة قبل تلك التواريخ. وهؤلاء الرجال الذين وصلوا نضجهم الفكرى فى وقت المجلس السابع، كونوا شبكة رائعة فى الوظائف المدنية: تارسيوس تقلد منصب سكرتير أول الدولة (ثامن أرفع منصب فى الدولة) قبل أن يدخل إلى الكنيسة؛ وكان أعظم عم لـ فوتيوس الذى أصبح أيضاً سكرتيراً أول للدولة. أما نايسفورس ابن السكرتير الامبراطورى فقد تقلد نفس المنصب كمساعد لـ تاراسيوس. وتيودور المجد كان ابن مدير الخزانة وتقلد منصباً مدنياً كبيراً. وخدم عمه سانت بلاتون كذلك فى الخزانة العامة. وثيوفانيس ابن حاكم جزر بحر إيجة تقلد هو أيضاً واحدة من أرفع مناصب

(١) Germanus

الدولة. لقد كانوا رجالاً مهمين وبعضهم كانت له صلات وثيقة بالأسرة الامبراطورية. ونستطيع أن نجزم باختفاء مثل هذه الطبقة المثقفة فى الفترة التى سبقتها وذلك بسبب القضاء على الطبقة الأرستقراطية فى بداية القرن الثامن الميلادى فى عهد الامبراطور جوستنيان الثانى[١] ومرة أخرى فى عهد ليو الثالث[٢]، ويقول ثيوفانيس عن ليو الثالث لقد عاقب الأرسقتراطية عن طريق «الجدع والبتر، والجلد بالسياط، والنفى، والتغريم خاصة هؤلاء المتميزين بالمولد أو التعليم ومن هنا فقد أغلقت المدارس أبوابها».

ونستطيع القول أيضاً بأن الخط الصغير الذى أدخل في تلك الفترة جاء لاستخدامه أساساً فى كتب المكتبات، جاء لأغراض الدراسة الصامتة فى مقابل القراءة بصوت مرتفع. كما كان وسيلة لتوفير الرقوق والإسراع فى النسخ. وكان إدخال هذا الخط يفترض وجود طبقة مثقفة لايهم حجمها تستطيع اقتناء الكتب، تلك الطبقة التى بدأ تكونها مع سنة ٧٩٠م. كانت تلك طبقة محبى الأيقونات وجامعيها فى مواجهة طبقة المعارضين لها ـ رجال من أمثال جون النحوى وليو الرياضى اللذين انتميا إلى الجيل الذى تلا ـ وليس من قبيل الصدفة أن سنة ٧٩٠م هى سنة إدخال الخط اليونانى الصغير وتمهيد الأرض لانتشاره.



(١) Justinian II

(٢) Leo III

الفصل الثالث

الإيضاحيات والزخارف فى الكتب البيزنطية

جرت العادة على أن تعد الرسوم والزخارف فى المخطوط البيزنطى تبعاً لحاجة العميل المستهلك للكتاب. ذلك أنه فى العصور الوسطى كانت الكتب غالباً مايتم إنتاجها بناء على طلب من العميل وعلى حسابه ومن هنا فإنه هو الذى يحدد سلفاً(١) مدى الإيضاحيات وتفاصيلها بل وفى بعض الأحيان هو الذى يحدد جوانب الأيقونات. ويصدق ذلك أكثر ما يصدق على المخطوطات الفاخرة التى يحتاج صاحبها إلى أن تكون فريدة متميزة فى رسومها وصورها. وكانت هناك طريقتان لإعداد الإيضاحيات بطريقة اقتصادية. **الأولى** هى تحليل بنية صور موجودة بالفعل فى منمنمات ثم تكبيرها حسب الدوائر التى تشغلها وخاصة إذا كانت صورة لشخصية. **والثانية** هى دراسة الإنتاج الفكرى الوسيط وقراءة الفقرات من الكتب التى تتعلق بعمل وتوزيع الكتب المصورة.

لقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الإيضاحيات فى المخطوطات البيزنطية:-

١- منمنمات العناوين. والتى قد تصور إما المؤلف أو المهدى أو الراعى أو حتى صورة مهداة. وهذا النوع من الصور لايقتصر على طائفة معينة من الكتب أو النصوص. ويمكن أن نجد أى شخصية مشهورة جديرة بأن تصور، توضع صورتها هنا على العنوان.

٢- الإيضاحيات العلمية. مثل الرسوم البيانية، تخطيطات، أدوات وآلات غريبة الشكل من كل نوع، صور نباتات، صور حيوانات، صور آدمية. وهذه الصور لاتمثل أية مشكلة بالنسبة للمستهلك الذى ألف هذه الصور كجزء من المادة العلمية.

---

(١) a Priori

٣- إيضاحيات النصوص الأدبية. والتى يكثر وجودها فى كتب الأدب كالقصص والشعر والمسرحيات وغيرها.

وهذا النوع الثالث من الإيضاحيات هو الأكثر إثارة وانتشاراً لأن النوع الأول كان مستقلاً تماماً عن نص الكتاب الذى يحمله ولا علاقة له به. والنوع الثانى لا دخل للمستهلك به لأنه غالباً وضع بأمر من المؤلف ويكثر نقله من مخطوطات العصور القديمة الكلاسيكية وإن انتشر فى مخطوطات العصور الوسطى، فهو مجرد نسخ من تلك الكلاسيكية.

لقد ساد كتب الأدب نوع من الإيضاحيات عبارة عن منمنمات على هيئة دوائر أو هالات؛ وكان ذلك بطبيعة الحال يتوقف على شعبية الكتاب نفسه ومدى تداوله من جهة وعلى نوعية القصة التى يقدمها الكتاب من جهة ثانية؛ حيث أن أحداث القصة كان لابد وأن تشحذ خيال الفنان، أحداثاً يرويها المؤلف وتقدم خبرات بصرية يمكن ترجمتها إلى صور ورسوم تنبض بالحياة، وتعكس تلك الخبرات. تلك التجارب هى الأرض المشتركة التى يلتقى عليها الكاتب والفنان، وكل منهما يستخدم وسيلته الخاصة به فى التأثير على القارئ؛ رغم أنه فى العصور الوسطى والعصور القديمة لانصادف تعاوناً من أى نوع بين المؤلف والرسام فى إنتاج الكتاب المصور كما يحدث فى أيامنا الحالية. ذلك أنه باستثناء بعض الأبحاث العلمية كان المؤلف يكتب النص دون أى اعتبار لإدراج الصور والرسوم؛ وهو الأمر الذى قد لايحدث إلا بعد طرح الكتاب فى السوق واتضاح شعبيته، وغالباً ما يكون ذلك بعد فترة طويلة من تأليف الكتاب وربما بعد وفاة المؤلف.

والحقيقة أننا لانعرف على وجه اليقين الظروف التى كانت تؤدى بكتاب ما إلى أن يكون مجالاً لوضع الإيضاحيات فيه بعد طرحه فى السوق وخروجه من يد المؤلف بدون تلك الإيضاحيات؛ خاصة أن ما وصلنا من هذا النوع من المخطوطات قليل على العموم من العصر البيزنطى. وبصفة عامة يمكن أن نقسم

الإيضاحيات إلى نوعين: إيضاحيات أساسية فى النص؛ وإيضاحيات ثانوية مقحمة. **الأساسية** نصادفها على هيئة حلقات تؤدى فى النهاية إلى قصة أو سلسلة من القصص تتداعى بدون أى تقاطعات على نحو ما نصادفه فى قصائد هوميروس أو بعض أسفار الكتاب المقدس. أما **الثانوية** فإنها تقحم على النص لتفصيله وشرحه فقط سواء كان هذا النص إعادة صياغة لعمل قديم؛ شروحاً لمتن؛ شعيرة دينية، عظات دينية. وفى معظم الكتب التى وصلتنا تتوافق النصوص والصور وإن لم يكن ذلك هو الحال دائماً. وسوف نتناول فيما يلى تصوير أهم فئات الكتب البيزنطية.

١- الكتاب المقدس(١)

يأتى على رأس الكتب التى لها انتشار شعبى واسع وذات الطبيعة القصصية ومن ثم كانت تنسخ أكثر من غيرها: قصائد هوميروس؛ تراجيديات يوربيدس الكلاسيكية؛ وبعض فصول الكتاب المقدس؛ التى انتشرت انتشاراً كبيراً فى بداية الحقبة المسيحية والعصور الوسطى. هذه الكتب كانت مجالاً خصباً للإيضاحيات وخاصة ذات الدوائر أو الهالات. ويمكننا بطبيعة الحال أن نقتفى أثر تلك الإيضاحيات فى الكتاب المقدس. ومما يجدر ذكره هنا أن الإيضاحيات فى بادئ الأمر لم تشمل كامل نص الكتاب المقدس ولا حتى كل العهد القديم بل بدأت فقط بأجزاء صغيرة من العهد القديم وبالتدريج انسحبت على وحدات أخرى.

وكان أكثر الأسفار جاذبية للفنانين بسبب شعبيته وكم الأسطورية والدراما فى قصصه هو سفر «التكوين»(٢). وأهم ثلاث نسخ بيزنطية وصلتنا نجد فيها تكوينات صورية ورسومات مختلفة، وقد تمت فى مناطق مختلفة والاختلاف فى تلك الإيضاحيات بين النسخ لا يتأتى من اختلاف البيئات التى تمت فيها تلك الرسومات وإنما يتأتى أكثر من أن كل نسخة من النسخ الثلاث موجهة لنوع مختلف من القراء.

---

(١) Bible

(٢) Genesis

ويأتى على رأس النسخ الثلاث نسخة المتحف البريطانى المعروفة بنسخة كوتون[١]. وترجع هذه النسخة إلى القرن السادس الميلادى وقد وصلتنا مقطعة بسبب الحريق الذى تعرضت له، وهى الوحيدة بين النسخ الثلاث التي تتضمن النص الكامل لسفر التكوين وحده وتنساب الصور بين جنباتها على مسافات قصيرة وكل حادثة تروى فى النص يلحق بها تصويرها دون أي تمييز فعلى بين حادثة كبيرة الأهمية أو حادثة قليلة الأهمية وقد حشيت الفصول الخاصة بالنسل والميلاد (فصل ٤، ٥ على وجه الخصوص) بمناظر الإنجاب والولادة والتى لا تختلف من موضع لآخر إلا اختلافاً طفيفاً. ففى نص إنجاب كاين[٢] (التكوين ٤ : ١) نجد صورة لآدم وحواء على أريكة يحتضنان، بينما الصورة الثانية على نفس الصفحة تصور آدم يناول حواء المولود الجديد قابيل[٣] على نفس الأريكة. أما صورة إنجاب ميتوسيلاه[٤] لـ إينوخ[٥] فهو يختلف عن منظر الأريكة وقد زود بمناظر معمارية داخلية. وعندما يستأنف الفصل الحادى عشر فكرة النسل فإننا نجد نفس مناظر الإنجاب والميلاد تتوالى بنفس الوتيرة وإن كانت أكبر حجماً، ففى إحدى الورقات مثلاً نجد على الوجه صورة إنجاب أرفاكساد[٦] لابنه كاينان[٧] وإنجاب كاينان لابنه سالا[٨] بينما ظهر الورقة يحمل أو بمعنى أدق يستأنف نفس الأسلوب فى تصوير ميلاد هيبر[٩] لـ سالا و فالج[١٠] لـ هيبر. (أفراكساد كاينان سالا هيبر فالج). أى ان المصور هنا يحاكى تتابع الرواية الأدبية ويدخل فى أدق تفاصيلها. وكل صورة تأتى مباشرة عقب النص الذى تمثله فى محاولة لتثبيت

Cotton Genesis (١)

Cain (٢)

Abel (٣)

Methuselah (٤)

Enoch (٥)

Arphaxad (٦)

Cainan (٧)

Sala (٨)

Heber (٩)

Phaleg (١٠)

العلاقة بينهما. وقد بلغ عدد المنمنمات هنا ٣٣٠ منمنمة فيما يشبه شريط السينما فى أفلامنا المتحركة الآن. ومثل هذا الكتاب بهذا التصوير لابد وأنه كان موجهاً لقارئ يحب تتبع القصة فى صور تتبعه للنص نفسه.

والنسخة الثانية من سفر التكوين هى نسخة فيينا[١] (موجودة بالمكتبة الوطنية النمساوية) وهى ترجع أيضاً إلى القرن السادس الميلادى. ولكن العلاقة بين النص والصور مختلفة تماماً. والفكرة السائدة فى هذه النسخة هى تخصيص النصف العلوى من الصفحة للنص والنصف السفلى للمنظر المصور؛ مما أدى إلى اختصار النص فى الجزء العلوى الذى كتب بخط الأونسيال[٢] بماء الفضة على رق قرمزى. وهذا التشويه والبتر للنص أدى إلى عدم توافق مع الصور والمناظر التى تمثل فى بعض الأحيان فقرات تم حذفها من النص لدرجة أنه فى الفصل الخامس والثلاثين نجد الأحداث مصورة وحدها فى الجزء العلوى وتنتمي لنصوص تم حذفها وغير موجودة. ويقول كورت فايتسمان[٣] فى هذا الصدد أنه ربما كان هذا المخطوط قد أعد لرجل غنى، امبراطورى جامع للقطع الفنية يستمتع بجمال الصور ويهتم بها أكثر من اهتمامه باكتمال النص.

أما النسخة الثالثة فإنها تضم سفر التكوين ضمن أسفار العهد القديم[٤] الثمانية وهنا نصادف أيضاً علاقة مختلفة بين الصورة والنص. وقد وصلنا خمس نسخ ترجع للفترة بين القرن الحادى عشر والثالث عشر، كلها غنية بالصور ذات الهالات والدوائر وهى جميعاً ذات حواش مستفيضة لدرجة تغطى السطور القليلة من نص الكتاب المقدس فى بعض الصفحات كما فى حالة منمنمة سيراجليد فى الأسفار التى تصور آدم وقد وضعه الله فى جنة عدن وحيث لم يكن هناك مكان للصورة فى النص الذى تصوره وأضطر الرسام إلى حشرها داخل الحواشى التى

(١) Vienna Genesis

(٢) Uncial

(٣) Kurt Weitzmann

(٤) Octateuch

لا علاقة لها بها. وهكذا فإن ظروفاً خارجية هى التى تتحكم فى وضع الصورة إن كانت توضع فى وضعها الأساسى فى سياقها مع النص أو فى وضع ثانوى مع الحواشى أو بعيداً عن سياقها الأصلى. وفى هذه النسخة ـ على عكس نسخة فيينا ـ كان الاهتمام الأساسى بالنص وليس بالصور. والاهتمام بالصور جاء فى المرتبة الثانية ويتضح ذلك ليس فقط من الوضع غير المنطقى للصور بل أيضاً فى تصغير حجم الصور وتقليص عددها. وكلما كبر حجم النص كلما كان الفراغ المتروك للصور أقل. فبينما في نسخة كوتون بلغت الصور كما رأينا ٣٣٠ منمنمة فإننا نجدها فى النسخة الثالثة هذه (أوكتاتش) لاتزيد عن ١٧٠ صورة ويبدو أن الأصل الذى أخذت عنه هذه النسخة وقبل إضافة الحواشى كان أغنى بالصور ويبدو أن هذه الأسفار قد أعدت لقارئ متعلم مثقف وليس بالضرورة من الأكاديميين ولكنه شخص مثقف ثقافة عالية بما فى ذلك ـ فى الحضارة البيزنطية ـ الامبراطور نفسه. ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن نسخة سيراجليو هذه قد أعدت لشخص اسمه: إسحق بورفيروجنيتوس[1] إبن ألكسس الأول كومنينوس[2] ومن الواضح أنه ينتمى للأسرة الامبراطورية، كذلك فإنه من الجدير بالذكر أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم[3] مصورة هى الأخرى تصويراً كبيرًا بنفس طريقة سفر التكوين.

إلى جانب أسفار العهد القديم فإن بعض الأسفار ذات المعلومات التاريخية تجتذب أيضاً الرسامين بسبب ثرائها بالأحداث الدرامية كما هو الحال فى أسفار **جوشوا والقضاة**. ومن أهم نسخ هذا السفر **لفافة جوشوا** فى مكتبة الفاتيكان وهى مخطوطة فاخرة يبدو أنها أعدت لحساب أحد الأباطرة. وفى هذه النسخة نجد أن الفنان بالغ فى عملية التصوير ربما أكثر من مخطوطة فيينا فى سفر التكوين. وهنا نجد أن الرسام قام بتكبير الصور التى أخذها من العهد القديم وقلص النص كثيراً عما توحى به الديباجة. والمناظر هنا لاتكتفى بالارتباط

Isaak Porphyrogennetos (١)

Alexis I Comnenos (٢)

Pentateuch (٣)

والتوحد مع خلفية بانورامية ولكن فى كثير من الأحيان تتحول الصور لتجعل من الإسرائيليين جيشاً موحداً متقدماً، على النحو الذى نشاهده فى أعمدة النصر التى تأثر بها الفنان كثيراً. مثل هذه الفخامة فى التصوير تجعل من هذه الصور عملاً متفرداً لانظير له من قبل أو من بعد فيما يذكر كورت فايتسمان. وكان ينظر إليها فى وقتها على أنها قطعة فنية رائدة وقد تركت أثرها فى الأسفار التى تليها.

وربما كان أكثر شعبية من سفر جوشوا والقضاة **الأسفار الأربعة للملوك**، وذلك بسبب الاهتمام البالغ بسيرة **الملك داود** فى فكر العصور الوسطى. وأكثر من هذا فإن تقلب حياته التى تجعل منه فى بعض الأحيان مغامراً، كانت عامل جذب شديد للرسامين. ولعل أغنى نسخة يونانية بالمنمنمات ذات الهالات هى تلك النسخة التى ترجع إلى القرن الحادى عشر ـ الثانى عشر والموجودة الآن فى مكتبة الفاتيكان (تحت رقم ٣٣٣ يونانى) وهى على شكل كراس ولكن هذه النسخة لاتعكس للأسف مدى التصوير الأصلى فى الأصل الذى أخذت عنه. حتى الكتاب الأول فى هذه الأسفار والذى يتضمن ١١٨ منظراً لا يمكن أن يمثل الأصل فى اكتماله؛ على الرغم من تشابه البدايات وتتابعها، فبعد نوع من منمنمات العناوين التى تعرض إلكاناه مع زوجتيه الاثنتين **هنا** و **بننا**[١] تتتابع المشاهد بعد ذلك: **هنا** تصلى قبالة إلى[٢] مع الطفل صمويل، **هنا** و **إلى** تتحدثان مع بعضهما البعض، **هنا** تقابل إلكاناه وبعد ذلك تلد صمويل، ثم يلى ذلك منظر آخر فيه إلكاناه يتحدث مرة أخرى مع **هنا** وتستمر القصة هكذا. أما الحلقات فى السفر الثانى فإنها تتقلص إلى مجرد ٣٩ منظراً. ويبدو بعد ذلك أن الرسام قد سئم الرسم فيقلص عدد المناظر فى السفر الثالث إلى تسعة مناظر فقط وإلى منظر واحد فى السفر الرابع. والحقيقة أن الأسفار من الثانى إلى الرابع فى الأصل غنية بالمناظر غنى السفر الأول على نحو ما نصادفه فى نسخة باريس (٩٢٣ مخطوطات يونانية) والتى ترجع إلى القرن التاسع الميلادى. وإذا كانت قصص

(١) Hannah, Peninah

(٢) Eli

حياة الملك داود مشهورة هكذا فى العالم المسيحى فإنها لابد وأن تكون كذلك وأكثر بين اليهود على نحو ما نصادفه فى مناظر العبادات الجماعية الجصية فى دورا[١] حيث تمثل مناظر الملك داود الديكور الرئيسى للجدران وتنتمى المناظر هنا إلى نفس المناظر الموجودة فى نسخة الفاتيكان، وهما يدلان على أن الأصل المشترك بينهما قديم يرجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادى إن لم يكن أقدم من ذلك.

إن الأسفار الشعرية فى العهد القديم بسبب طبيعة الاستعارات والأساليب المجازية الكثيرة فيها كانت تلقى بصعوبات كثيرة على الرسامين الذين تعودوا على تصوير الأحداث والأفعال وليس الصور البلاغية. وبسبب الأهمية البالغة للطقوس فى المزامير فقد بذل الرسامون جهد الطاقة فى سبيل التغلب على تلك العقبات، وأسرفوا فى تصوير تلك المزامير وسوف نعود إلى إيضاحيات المزامير فيما بعد.

ولعل السفر الشعرى الآخر الذى أسرف أيضا فى تصويره وإغراقه بالإيضاحيات هو سفر أيوب[٢] وقد وصلنا منه مالايقل عن خمس عشرة نسخة غنية بالمنمنمات ومعظم الصور هنا مبنية على نص الكتاب المقدس نفسه وليست خاصة مفصلة على هذا السفر ولكن في بعض الأحيان عندما يكون نص الكتاب المقدس قصيراً فإن بعض فقرات من كتابات آباء الكنيسة كانت تدرج. ومن خصائص التصوير فى هذا السفر أن الرسام كان يركز أساساً على الفصلين الأولين من السفر والفصل الأخير منه كذلك حيث نجد آلام أيوب ومعاناته تفصل تفصيلا شديدا بالنص والصورة وحيث نجد لب السفر ومحاورات أيوب مع أصدقائه، وكيف أنه في النهاية يصاب بنوع من الإحباط فالإستسلام والصبر. ومن النسخ الهامة من هذا السفر نسخة مكتبة الفاتيكان (٧٤٩ مخطوطات يونانية) والتى ترجع إلى القرن التاسع حيث نجد بيتا واحد من الشعر (البيت رقم

---

(١) Dura

(٢) Job

٢٠) في الفصل الأول صور بثلاثة مشاهد متتابعة فيها نجد أيوب يمزق عباءته ويقطع شعره ويركع ضارعا بين يدى الله،وهو ما تفعله السينما فى أيامنا. بينما فى الفصول من الثالث إلى الواحد والأربعين يحاول الرسام جاهدا أن يملأها بما تيسر له من المشاهد والمناظر من البداية للنهاية وفى الأعم الأغلب كانت المناظر تكراراً مملاً تدور حول محاورات أيوب مع أصدقائه. وهى نفس العقلية التى صادفناها من قبل فى سفر التكوين فى نسخة كوتون حيث يكرر الرسام ويكرر منظر الانجاب والولادة فى الفصول الخاصة بالنسل والنسب.

ورابع مجموعات أسفار العهد القديم هى أسفار (الأنبياء) وتشيع فيها الأحداث الدرامية وجلها تروق للرسامين وتستهويهم. ونصادف فى شريط جصى على حائط دورا سابق الذكر كل خصائص الإيضاحيات الموجودة فى هذا السفر ولكن للأسف لم يصلنا من هذا السفر سوى نسخة واحدة مصورة نعتقد أنها أصل صور هذا الشريط الجصى، وفى هذا الشريط نجد مناظر أو مشاهد تغطى فقط النصف الأول من الفصل السابع والثلاثين من سفر حزقيل[١] حيث نجد هذا النبى مصورا مالايقل عن ست مرات بدءا من صورة يد الاله وهى تضعه فى وادي العظام الجافة ثم صور لإعادة تكوين العظام والأجسام ثم نفخ الحياة فيها ثم مناظر مواجه الجيوش المحاصرة وكما صادفنا فى سفر الملوك فإن الصور تتواكب مع فقرات النص وتوازيها، مما يكشف عن أن المخطوطات والصور الجصية أخذت من مصدر واحد مشترك. وحتى إذا نحينا جانبا جصيات دورا هذه فإن الصور الواردة فى أسفار (الأنبياء) يمكن تتبعها أيضا فى نسخة باريس[٢] تحت دانييل[٣] ويوناه[٤] وغيرهما من الأنبياء.

وإذا كانت شعبية وقصصية أسفار التكوين والملوك وأيوب والأنبياء قد سهلت إلى حد كبير تصوير الأحداث على شكل مشاهد ومناظر متتابعة ومواكبة للنص

---

(١) Ezekiel

(٢) Sacra Parallela

(٣) Daniel

(٤) Jonah

فكيف كان ذلك ينطبق ويصدق على الأناجيل الأربعة. لقد كشفت الدراسات التى أجريت فى هذا الصدد أنها هى الأخرى خضعت لنفس عمليات التصوير المكثفة ولعل دليلنا على ذلك هو «كتاب الإنجيل» فى فلورنسا (مكتبة لورانت) والذى يرجع إلى القرن الحادى عشر والذى يضم ٢٩٠ قطعة نصوص على هيئة شريط تتخللها ٧٥٠ صورة ففى مثل هذا النص المقدس نجد كل سطر فيه - ولايهم مدى أهميته - قد حظى برسم على نحو ما نصادفه فى إنجيل متى الذى يضم الفصل الثامن فيه أقل من عشرة سطور. وأول شريحة فيه تصور علاج حماة بيتر فى لقطتين، أما الشريحة الثانية فتتضمن أيضا منظرين من مناظر العلاج ويأتى بعد ذلك تصوير لمنظر لا أهمية له على الإطلاق وهو منظر المسيح وهو يأمر بنقله بالقارب إلي الشاطىء الآخر من البحر. والشريحة الثالثة تصور المسيح وهو يتكلم إلى الناسخ عن الثعالب فى جحورها والطيور في أعشاشها وتنتهى هذه الشريحة بالمسيح وهو يتحدث إلى أحد اتباعه الذى يريد دفن أبيه. وهذه الشريحة بالذات تمثل كثافة التصوير بدون مبرر حقيقى ورغم تلك الكثافة فإن هذا المخطوط يفتقر إلى التصوير فى بعض المواضع الهامة جدا مثل مناظر المسيح فى «الجثمانية»[١] (الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس)، خيانة يهوذا[٢] والمرأة عند القبر. وربما كانت هذه المناظر مفقودة أو غير موجودة فى الأصل الذى أخذت عنه هذه النسخة ويعتقد الباحثون أنه رغم كثافة تصوير هذه النسخة إلا أن الأصل كان أكثر ثراء وغنى وغزارة تصوير من هذه النسخة الرفيعة المستوى. إن هذه النسخة رغم ارتفاع مستواها التصويرى من الناحية الفنية إلا أنها تعكس حرص الفنان على إرضاء القارىء التقى المتدين أكثر من حرصه على إرضاء عاشق الفن، لأنه استخدم الأسلوب البسيط السهل فى التصوير.

وعلى الرغم من أن أعمال الرسل[٣] لم تكن لها أبدا شعبية الأناجيل فإنها هى

(١) Gethsemane

(٢) Judas

(٣) Acts of Apostles

الأخرى تعرضت لكثافة التصوير. ففى مخطوطة روكفلر ماكورميك من العهد الجديد فى شيكاغو[1] قد لانجد هنا سوى ١٢ منمنة فى كل النص إلا أننا يجب أن نكون متأكدين أننا أمام نموذج مختصر للأصل المفصل على نحو ما نصادفه فى نسخة من كتاب الأناجيل فيها ٦٩ صورة فقط، كاختصار للمئات الموجودة فى الأصل الذى أخذت عنه. ويمكن أن ندرك ذلك أيضا من نسخة أعمال الرسل فى باريس التى تتضمن ١٧ منظرا من الأعمال، بعضها قيمته محدودة. وربما كانت عمليات اختصار عدد المناظر فى نسخ أعمال الرسل راجعة إلى عدم شعبية تلك الأعمال قياسا على الأناجيل، على نحو ما نصادفه فى نسخة أعمال ترجع إلي القرن الثانى عشر (موجودة فى باريس تحت رقم ١٠٢ مخطوطات يونانية) حيث التقطت أربعة مناظر من أهم المناظر واسعة الانتشار وجمعت معاً فى صفحة واحدة. وهذه اللقطات هى: لقطة من الفصل الثالث التى تمثل بيتر وبول يعالجان الكسيح المقعد، ومن الفصل السابع لقطة رجم ستيفن بالحجارة. ومن الفصل الحادى عشر منظر قتل جيمس أخ جون ومن الفصل الثانى عشر منظر تسلم بيتر من السجن. إن جمع هذه المناظر فى صفحة العنوان فى بداية العمل يؤكد أن النص الذى أخذت منه كان مكتظا بمناظر كثيرة منبثة فيه، اختيرت من بينها أهمها هذه الأربعة.

٣ـ أبوكريفا (الأسفار الملحقة بالعهد القديم) والنصوص التقليد[2]

إذا استرجعنا أن الشعبية والقصصية فى النص كانتا أهم دافع لدى الرسام كى يقوم بتصوير العمل فإن الأسفار الأربعة عشر التى ألحقت بالكتاب المقدس (العهد القديم) (البروتستانت لا يعترفون بصحتها) وكذلك الكتابات القانونية كانت من المجالات الخصبة التى استهوت الرسامين في المواضع القصصية على وجه الخصوص. وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن الأناجيل الأولى لجيمس وشبيه متى[3] قد صورت تصويرا مكثفا فى الحقبة المسيحية الباكرة. ومن الشواهد على

(١) Rockefeller Mccormick New Testament

(٢) Apocrypha and Pseudepigrapha

(٣) James and Pseudo - Matthew

ذلك الأعمدة الرخامية فى قبة مدبح كنيسة سانت مارك فى فينسيا التى كشفت الأبحاث أنها ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر تقليداً لما كانت عليه المخطوطات فى الحقبة الباكرة وأن هناك سلسلة من تلك المخطوطات عبر القرون وأن ثمة نسخة من القرن الرابع عشر تؤكد ذلك وأن هذه النسخة تنسب ـ وليس من قبيل الصدفة ـ إلي فينسيا هذه النسخة تقليد لإنجيل متى وموجودة فى باريس وهى مصورة تصويرا متقدما (المكتبة الوطنية برقم ٢٦٨٨) هذه النسخة لا يقل عدد المنمنمات فيها عن ٥٢ منمنة؛ إحدى هذه المنمنمات تصور المنظر المألوف لأفرودوسيوس حاكم سوتين[(١)] يعبد العذراء وإبنها، بينما الـ ٣٦٥ وثنا التى يبدو منها اثنان فقط ـ تتساقط من قواعد أعمدتها. وهذا الأسلوب فى التصوير هو أسلوب بيزنطى بحت يشير إلى أن أصله يونانى رغم أن نص الكتاب لاتينى.

ومن الطريف أن نفس مخطوطة باريس هذه، لها نص آخر بصور روائية؛ وبنفس القدر من الشعبية والإنتشار ونفس القدر من الأسطورية التى للإنجيل الأول إنجيل المهد. هذا النص هو: **قصة صورة المسيح فى إديسا**[(٢)] والمعروف باسم **مانديليون**[(٣)] وهى تتضمن أربعة وعشرين صورة تشير إحداها إلي العثور على المانديليون فى سور مدينة إديسا. والحقيقة أن هذه الحلقة ليس لها سوى علاقة بسيطة بالمنمنمات البيزنطية التى زخرفت بها إحدى اللفافات فى مكتبة مورجان فى نيويورك وترجع إلى القرن الرابع عشر (تحت رقم ٤٩٩ مخطوطات) والتى تمثل مناظرها الإحدى والعشرون عملية تبادل الرسائل بين أبجاروس[(٤)] والمسيح بخصوص رسم صورته. وهذا النص هو اختصار للمديح المنسوب إلى قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس الذى يعتقد أنه يحمل الإيضاحيات الكاملة والذى فيه نجد عملية إحضار المانديليون إلى الملك المريض ابجاروس وجعله يتماثل للشفاء وفى هذه النسخة نجد صورتين من الصور المفاتيح فى كتاب قصة

(١) Affrodosius of Sotinen

(٢) Edissa

(٣) Mandylion

(٤) Abgarus

صورة المسيح ويقول كورت فايتسمان إننا لو ربطنا هذا المديح بسلسلة الصور المختصرة بما جاء فى إحدى المخطوطات في المتحف التاريخى في موسكو (تحت رقم ٣٨٢) سوف نتأكد من أن الأبوكريفا كانت منذ العصر المسيحى الباكر والعصور الوسطى الباكرة مجالا خصبا للتصوير وعلى نطاق واسع وحقيقة أن قصة أبجاروس قد أدت إلى أن يدور حولها أكثر من صورة، هى فى حد ذاتها دليل على انتشارها وشعبيتها.

ولعل انجيل العاطفة: إنجيل نيقوديموس[١] كان أقل شعبية من إنجيل المهد ومع ذلك فقد تعرض هو الآخر لعملية تصوير تتابعية منذ الحقبة المسيحية الباكرة ونجد بعض صور على الأعمدة الرخامية لمذبح كنيسة سان ماركو ومن حسن حظنا أنه قد وصلتنا نسخة مصورة من انجيل نيقوديموس توجع إلى القرن الثالث عشر (موجودة الآن فى المكتبة الوطنية الأسبانية فى مدريد تحت رقم ٢٣ـ ٨) وهى تشير إلى شمالى ايطاليا كموطن أصلى لها. وهناك علاقة وثيقة بين الصور الواردة فيها والواردة على الأعمدة الرخامية المشار إليها. هذا المخطوط الموجود فى مدريد يضم ستة عشر منمنة تبرز من بينها منمنة أنستاسس[٢] كأشهر وأحسن منمنة تعكس الأسلوب البيزنطى الوسيط فى التصوير.

ولقد كانت لنصوص الأبوكريفا مشاكلها وصعوباتها الخاصة في التصوير، فهى مثل القصص الشعبية وقصص العفاريت عرضة للتغير فى التفسير وعرضة للتفاوت فى المعالجة ومن ثم فهى عرضة للتفاوت والتغيير المستمر فى تصويرها ورسمها ومن ثم نواجه صعوبة بالغة فى تحديد تاريخ الأصول التى اعتمدت عليها. وهناك نسخة إنجيل أبوكريفا مكتوبة باللغة العربية فى مكتبة لورانت فى فلورنسا (تحت رقم ٣٨٧) مؤرخة بتاريخ ١٢٩٩م ونسخت فى ماردين بالعراق. وهذه النسخة ثرية جدا فى رسومها وصورها وهى ليست من نسخ إنجيل المهد ولا من نسخ انجيل العاطفة ولكنها تمزج بين الإثنين مع بعض أحداث اضافية من حياة

(١) Passin Gospel of Nicodenus

(٢) Anastasis

المسيح وبومستارك[١] وفى هذه النسخة العربية نجد ٥٤ رسما بالقلم منبثة فى ثنايا النص على نفس نحو ما نجده فى النصوص الفولكلورية ورسومها ويمكن مقارنة هذه الرسوم بما نجده فى رسوم السحر فى البرديات الباكرة.

ولما كانت نواة نص هذه النسخة قد استقيت أساساً من الأناجيل القانونية فإن الرسام قدر استطاعته قد رجع إلى كتب الأناجيل المصورة من العصور القديمة الباكرة والعصور الوسطى المتأخرة ولم يحاول أى من الرسامين الابتكار أو الخروج على ذلك وهكذا فإنه فى صورة تجلى العذراء[٢] فى المعبد نجد العناصر المقبولة والتقليدية وهى: العذراء تحمل الطفل، سميون يمد ذراعيه لتلقى الطفل، ويوسف مع القربان (الحمامتان) وتفتقر الصورة شأنها شأن كل الأناجيل القانونية - إلى منظر النبية[٣] هنا كذلك فإن المنمنمة التى تصور يوسف ومارى يقابلان أفرودوسيوس، بينما الأوثان تتساقط من فوق قواعد أعمدتها، تتألف من نفس العناصر التى رأيناها في المخطوطة اللاتينية للانجيل تقليد متى؛ وهو النص المشترك بين كلا العملين. بيد أن الرسم العربى يصور جزئيا الوجه المبكر للقصة: مارى لم تكن قد ترجلت عندما كان يخاطبها أفرودوسيوس مما يفترض معه وجود وجهان أصليان لنفس القصة. ومن ناحية أخرى فإن الوثن المتساقط من على قاعدته فى كل منمنة يعكس تشابها شديدا مما يوحى بوجود أصل يونانى قديم مشترك بين كل هذه النسخ المتعاقبة، وأن هذا الأصل لم يصل إلينا.

وفى الأقسام الأخيرة من المخطوطة، تعكس المنمنمات تنوعا فى المصادر التى أخذت عنها ففى المنظر الذى يتبدى فيه المسيح للمريمين تبدو المرأة الأولى على أنها أم المسيح والثانية على أنها مريم المجدلية[٤] وهذا يخالف ما جاء فى الأناجيل القانونية حيث تظهر المرأتان على أنهما أولا مريم المجدلية ومريم أو جيمس. ولكن إحلال مريم أم المسيح نجده يبدأ مع الأناجيل الباكرة، أناجيل رابولا[٥]

(١) Bounstark
(٢) Presentation
(٣) Hannah
(٤) Mary Magdalen
(٥) Rabula Gospels

وفى صورة باكرة وجدت فى سيناء. وهنا نصادف ملمحا فلسطينيا خاصا عن المسيحية الباكرة. وأكثر من هذا فإن صورة تجلى المسيح[١] يتركب معها صورة بيتر وهو يركع في أسفل اليسار وهو يشير إلى أعلى، بينما جون يسقط على الأرض ويحول وجهه، وجيمس يحاول أن يغطى عينيه من الضوء المبهر، هذه الصورة بهذا التركيب تمثل طريقة ما بعد الأيقونات. ومن الخصائص المميزة لتلك الأحداث فى تلك الفترة تصوير الأعياد الكبرى للكنيسة الأرثوذكسية من خلال الأبوكريفا. ورغم أنه لم تصلنا مخطوطات يونانية مصورة للأبوكريفا فإن تأثر اللغات الأخرى لابد وأن يعكس وجود مثل هذه الأعمال وعلى نطاق واسع ولكن لأنها لم تكن مقبولة بصفة رسمية فإنها لم تتداول لا بين أوساط طبقة المثقفين العالية فى البلاطات الحاكمة ولا بين طبقات الرهبان فى الأديرة، أى المؤسستين اللتين حفظت لنا مكتباتهما الكتب سواء المصورة أو غير المصورة.

لقد حفلت نصوص الأبوكريفا بسلاسل المنمنمات، ليس فقط نصوص بيتر وبول أشهر هذه النصوص ولكن نصوص الرسل الآخرين بنفس القدر. وأكثر من هذا فإن أغلب النصوص التى صنفها تشارلز على أنها تقليد لنصوص العهد القديم[٢] كانت تجتذب الرسامين لتصويرها بنفس القدر الذى كانت عليه الأبوكريفا (أسفارموسى الخمسة)، وذلك للطبيعة القصصية فى هذه النصوص، وحيث يمكن إتباعها برسوم قصصية توضيحية وعلى سبيل المثال خطاب المسمى أريستياس[٣] الذى يسبق الأسفار الثمانية[٤] كمقدمة أو تصدير لها.

وليس من قبيل الصدفة أن أقدم نسخة مصورة من هذه النصوص (مخطوطة الفاتيكان رقم ٧٤٧ يونانية) والتى ترجع إلى القرن الحادى عشر وأقرب نسخة للأصل، أن نصادف فيها أكمل حلقات تصوير لخطاب أريستياس تبدأ بمنظر ديمتريوس الفاليرى[٥] يرسم تذكرة باقتراح ترجمة الكتاب المقدس العبرى إلى

(١) Transfiguration

(٢) Pseudoepigrapha of the Old Testament

(٣) Aristeas

(٤) Octateuchs

(٥) Demetrius of Phaleray

اللغة اليونانية على اليسار، وعلى اليمين الملك بطليموس يعطى تعليماته إلى إليعازر(١) حبر اليهود الأكبر بكتابة خطاب يوصى فيه بعملية الترجمة هذه. وفى المنمنمات الست التى تتلو - وهى كل ما نجده من منمنمات فى النص - نصادف منظر المأدبة؛ تقديم هبة؛ وأحداثاً أخرى تسبق عملية الترجمة.

أما منمنمات التيه(٢) فإنها توحى بأن نصوص تقليد العهد القديم الأخرى قد خضعت لعمليات تصوير مستفيضة وتحتاج منا إلى دراسات أخرى فى هذا الصدد ليس هنا مجال تفصيلها. ففى نسخة جراندفال من الكتاب المقدس(٣) - وهو نسخة كارولنجية من مدينة تورز - والتى تعتمد صورة التكوين فيها كلية على أصل أو نموذج يونانى ذى صلة وثيقة بنسخة «كوتون» من سفر التكوين، فى هذه النسخة نجد صورة حواء تجلس فى كوخ وهى ترضع طفلاً، وهذه الصورة هى أحسن نموذج لنص موجود فى تقليد العهد القديم(٤) . ويؤكد هذا أيضاً نسخة من «أشعياء» في الفاتيكان (٧٥٥ مخطوطات يونانية) ترجع إلى القرن العاشر فيها صورة استشهاد النبى أشعياء(٥) مضافة مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن ثمة نصاً سابقاً مبكراً من تقليد العهد القديم أخذت عنه تلك النسخة.

لقد اجتذبت النصوص المصورة من الأسفار الخمسة وتقليد العهد القديم قطاع البسطاء فى المجتمع، لأنها تركز أساساً على الجانب الأسطورى فى العمل، لأن هؤلاء البسطاء كانوا عادة ما يقعون تحت تأثير «المعجزات» وأصحابها أكثر مما يقعون تحت تأثير الجانب الفكرى. ولنفس هذا السبب لانجد لمثل هذه النصوص المصورة انتشاراً كبيراً بين أوساط الإكليريين المثقفين من ذوى التعليم الراقى والذين كانوا يقومون بعمليات تزويد مكتبات الكنائس والكاتدرائيات والأديرة بالكتب وأكثر من هذا فإن هذه النصوص لم يكن يتم إنتاجها ونشرها كنسخ فاخرة للطبقة الراقية الجمَّاعة للكتب.

---

(١) Eleazer

(٢) Stray miniatures

(٣) Grandval Bible

(٤) Apocalypsis Mosis

(٥) Isaiah

٣ ـ التاريخ

لم تكن كتب التاريخ وخاصة تلك التى تحلل الأسباب والنتائج من الكتب التى تستهوى الرسامين لتصويرها ولذلك فليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن كتابات ثيوكيديدس[١] قد تم تصويرها وينطبق نفس الكلام على كتابات ليفى[٢] الذى لم يدخل التصوير على كتبه إلا فى القرن الخامس عشر فقط تحت تأثير النهضة الإنسية.

وفي الحقبة المسيحية الباكرة كان أساس تصوير كتب التاريخ مزدوجاً: فمن ناحية لدينا الحوليات[٣] ذات المداخل القصيرة السريعة التى تزين بصور مختصرة زاد اختصارها فيما بعد إلى مجرد تخطيطات قليمية ومثالنا على ذلك من القرن الحادى عشر حيث وصلتنا قطعة من حوليات رافينا[٤] من مكتبة كاتدرائية ميرزبورج التى تنسخ نسخاً أميناً أصلاً يرجع إلى القرن الخامس ـ السادس الميلادى. وقد وصلنا منه فقط نصف ورقة يبدأ وجهها بحادثة سنة ٤٣٥م التي فيها يرفع الامبراطور ثيودوسيوس[٥] الثانى آيتيوس[٦] إلى رتبة «النبالة» ويعطيه لقب نبيل[٧]. وما يميز الصورة هنا هو أن الامبراطور يجلس على نموذج الكرة الأرضية، وهو شعار دينى مسيحى انعكس بشدة على نص علمانى.

ومن **الناحية الثانية** فإن لدينا التاريخ الأسطورى الذى يمثله خير تمثيل القصة الشعبية الشهيرة قصة: **العثور على الصليب المقدس**[٨] والتى فى نسخة مكتبة الدولة فى ميونيخ (مخطوطات لاتينية رقم ٢٢٠٥٣) وترجع إلى العصر الكارولنجى، تضم ثمانية عشر رسماً حياً، والتى تبدو كتخطيطات ورسومات

(١) Thucydides

(٢) Livy

(٣) Fasti , Annals

(٤) Ravenna Annals

(٥) Theodosios II

(٦) Aetius

(٧) Patricius

(٨) Finding of the Holy Cross

بدائية نفذت بدون أصل قديم. ولكننا نعرف اليوم يقيناً نسخاً يونانية وسوريانية مصورة عديدة من قصة الصليب المقدس[1] تعتمد على أصول قديمة باكرة. ذلك أن منظر الصلبان الثلاثة في نسخة ميونيخ والتى يجرى اختبارها فوق إحدى الجثث لاكتشاف الصليب الحقيقى عن طريق قوة البعث، هو صورة طبق الأصل من النسخة السوريانية. وقد عثر عليها أيضاً فى نسخة من كتاب الفصول التوراتية[2] الموجودة فى برلين (مكتبة الدولة: سخاو ٣٠٤) وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى وهنا نصادف مجموعة مصغرة من أربعة مناظر من الأسطورة المصورة تسبق قراءات السابع من مايو وهو التاريخ النسطورى لعيد الاحتفال بذكرى الصليب المقدس. وأكثر من هذا فإن ثلاثة مناظر من مناظر التيه فى النسخة اليونانية قد وجدت طريقها إلى مواعظ **جريجورى من نازيانزوس**[3] فى نسخة المكتبة الوطنية الفرنسية فى باريس (مخطوطات يونانية رقم ٥١٠). ومن الواضح أن هذا النوع من التاريخ الأسطورى قد حظى بقدر كبير من اهتمام الرسامين واخترق الثقافة اليونانية والسوريانية واللاتينية أيضاً.

ولعل أغزر وأكمل نص تاريخى مصور هو (حوليات العالم)[4] الذى جمع تقاليد التصوير المشروحة سابقاً كلها. ومن حولية العالم السكندرية وصلتنا قطعة بردية من القرن السابع موجودة الآن فى متحف بوشكين فى موسكو، نجد فى هوامشها صوراً مركزة صغيرة ـ تختلف عن صور حوليات رافينا المذكورة سابقاً. كما نجد فى قطعة جلدية موجودة فى برلين رسومات منبثة فى النص نفسه تحمل نفس الخصائص حيث صغر المنظر بأقصى ما يمكن.

لقد كتبت **حوليات العالم** بطريقة روائية متصلة مما دعا الرسام إلى أن يستخدم نفس الأسلوب القصصى فى رسوماته على نفس نمط رسومات الكتاب المقدس ومع ذلك فلم تصلنا نسخة يونانية من **حوليات العالم**، وإنما وصلتنا فقط الترجمات السلافية عنها. كذلك فإن (حوليات العالم) التى كتبها قسطنطين

---

(١) Inventio Sanctae Crucis

(٢) Lectionary

(٣) Homilies of Gregory of Nazianzus

(٤) World Chnonicles

منازيس[١] والتى تبدأ منذ خلق العالم حتى وفاة نايسفووروس بوتانياتس[٢] سنة ١٠٨١م والتى تم تصويرها مباشرة بعد أول نشر لها لم تصلنا إلا فى ترجمة بلغارية من القرن الرابع عشر (موجودة فى مكتبة الفاتيكان: مخطوطات سلافية رقم ٢). وليس هناك شك فى أن الصور كالنص تماماً ترجع إلى أصول يونانية رغم أنه من حين لآخر هناك تعديلات أدخلها المترجم البلغارى. وكثير من المنمنمات التسع والستين ينطوى على منظرين أحدهما بجانب الآخر أو أحدهما تحت الآخر ولذلك فإن السلسلة قد تصل صورها إلى نحو مائة صورة بدءا بصور من سفر التكوين مأخوذة يقيناً من نموذج من الكتاب المقدس. وهكذا فإنه أيضاً فى الصور التى تعبر عن المناسبات المختلفة مثل مآدب الطعام والمعارك الحربية فإنها يمكن أن تكون عبارة عن تكوينات مأخوذة من الكتاب المقدس، ولو كانت تلك المناسبات بعيدة تماماً عن الوقائع الدينية كما هو الحال فى المنمنمات التى تمثل قسطنطين السابع بورفيروجينوس وهو يحتفل بتسار سيميون[٣]،والبلغار وهم يهاجمون ويهزمون الامبراطور البيزنطى.

وثمة **حوليات عالمية** أخرى، تلك التى وضعها جورجيوس همارتولوس[٤] والتى تغطى الأحداث حتى وفاة ثيوفيلوس سنة ٨٤٢م ولم يصلنا منها سوى ترجمة روسية فى نسخة ترجع إلى القرن الرابع عشر وهى موجودة الآن فى مكتبة لينين فى موسكو (المكتبة الوطنية) وهى مزدانة بسلسلة غنية من المنمنمات لا تبعد كثيراً عن تلك الموجودة فى حوليات ماناسيس. وهناك من الأسباب ما يدعونا إلى القول بأن هذه النسخة نصاً وتصويراً بنيت على أصل يونانى، وأن هناك انطباعاً بأن الحوليات العالمية المصورة لم تكن عملاً فردياً بحتاً بل كانت «نوعاً» واسع الانتشار بين الرسامين ذا تاريخ طويل وسلسلة متعاقبة. وإذا استندنا إلى بعض المنمنمات الموجودة فى مخطوطة جريجورى فى باريس التى تصور

(١) Constantine Manasses

(٢) Nicephorus Botaneiates

(٣) Tsar Simeon

(٤) Georgios Hamartolos

نهاية جوليان المرتد[1] فإننا نستنتج بشيء من الاطمئنان أن حولية العالم التى وضعها جون مالالاس فى القرن السادس كانت بالفعل فى وقتها مصورة.

ولم يقتصر التصوير على الحوليات العالمية بل امتد أيضا إلى الحوليات التى تعالج فترة زمنية محدودة أو مكان بالذات، وكلما كان النص محدوداً بفترة ضيقة كلما حاول الرسام التوسع فى تصوير تعاقب الأحداث على شكل شريط سينمائى. وهو ما نصادفه فى نسخة نهاية القرن الثالث عشر من حولية جون سكايلتزس[2] الموجودة فى مدريد والتى تغطى الفترة من ٨١١ ـ ١٠٧٨م والتى نجد فيها عدداً غير عادى من المنمنمات: ٥٧٤ منمنمة. وفى صفحة من حياة كل من قسطنطين السابع بورفيروجينتوس ورومانوس الأول[3] نجد الرسام بعد منظر استقبال المانديليون؛ يقدم صوراً للتوأم السيامى وفصلهما على يد الطبيب فيما لا يقل عن ثلاثة مراحل على نحو ما نقوم به فى تقاريرنا الحديثة.

وكما هو الحال فى الحولية العالمية التى كتبها قسطنطين ماناسيز التى تمثل نوعاً من النصوص المصورة يمكن تتبعها حتى نهاية العصر الكلاسيكى فإننا أيضاً من نفس المنطلق يجب أن نتوقع وجود حوليات تغطى فترات محدودة منذ العصر الكلاسيكى حتى حولية سيلتزس، ومن واقع منمنمات التيه يمكننا من الناحية المنهجية البحتة أن نستنتج من استخدامها **كاقتباسات النصوص**، أنه كانت هناك حوليات بيزنطية باكرة مصورة بنفس الطريقة. وهناك على سبيل المثال فى مخطوطة جريجورى سابقة الذكر الموجودة فى باريس منمنمة تتعلق بمناظر اضطهاد الارثوذكس تسبق عظة «ضد آريانوس». [4] ويمكننا تفسير صور الشرائح الثلاث بطريقة أفضل وأكثر تفصيلاً عن طريق (التاريخ الكنسى) الذى وضعه سوزومينوس[1] والذى يغطى الأحداث من ٣٢٤ ـ ٤٣٩م بطريقة أحسن مما هو

(١) Julian the Apostate

(٢) John Scylitzes

(٣) Romanos I

(٤) Contra Arianos

واقع فى نص مخطوطة جريجورى. ومن هذا العمل يمكننا أن نستنتج أن الصور رسمت خصيصاً لتاريخ سوزومينوس، ومنه استقى رسام مخطوطة جريجورى الصور التى وضعها فيها. ومن بين تلك الصور صورة طيران أثناسيوس فى سنة ٣٥٦م؛ حرق الكنائس فى مليتوس واستشهاد ماركوس أسقف آريثوزا. وهناك مناظر أخرى فى مخطوطة جريجورى تشير إلى أنها مأخوذة من **التاريخ الكنسى** الذى وضعه **ثيودوريت**(٢) كما تشى فى نفس الوقت بأن حولية القرن الثالث - الخامس التى وضعها سقراط(٣) كانت مصورة. وإذا كان ذلك كذلك فإننا نكون كما أسلفنا أمام «نوع» من الحوليات المصورة واسع الانتشار ولكن لم يصلنا منها سوى كسرة صغيرة، وذلك لأن الحوليات عموماً - بسبب أنها كانت نسخاً تهدى للملوك والأباطرة - كانت تحفظ فى المكتبات الامبراطورية أكثر من حفظها فى مكتبات الأديرة ولذلك كانت أكثر عرضة للتخريب والتدمير.

ولابد هنا من القول بأن بعض كتب التاريخ المصورة ترجع إلى الفترة البيزنطية المبكرة جداً، إن لم ترجع فعلاً إلى العصر الكلاسيكى المتأخر. ففى مخطوطة باريس من «الند المقدس»(٤) نجد إلى جانب نص «الحسناء اليهودية»(٥) الذى وضعه فلافيوس جوسيفوس(٦) صوراً ومناظر عن القصة المخيفة للمرأة اليائسة التى قامت أثناء حصار القدس بقتل طفلها، ثم طبخته وقدمته للجنود الثائرين. إن هذه القصة مصورة فى أربعة مراحل متتابعة ولابد أن يكون الأصل الذى أخذت عنه أكثر تفصيلاً وثراءً فى التصوير.

٤ - سير القديسين(٧)

من وجهة نظر الكنيسة كان التاريخ الذى يستحق أن يسجل هو تاريخ حياة القديسين وقد انعكس ذلك الاتجاه اليوم في مقتنيات مكتبات الأديرة وما وصلنا

(١) Sozomenos : Historia Ecclesiastica
(٢) Theodoret : Historia Ecclesiastica
(٣) Socrates
(٤) Sacra Parallela
(٥) Bellvm Judaicum
(٦) Flauius Josephus
(٧) Hagiographia

منها حيث تحتل نصوص سير القديسين[1] مساحات واسعة من الرفوف، بينما سير العلمانيين نادرة وشحيحة، ومن هنا فإن من الطبيعى أن تحظى هذه الفئة من الكتب باهتمام كبير فى عمليات التصوير ومن ثم وصلنا كم هائل من هذا النوع من المخطوطات التى كان يتم إنتاجها لتنوير وتثقيف القارىء التقى المتدين وكان إنتاجها بصفة عامة أرقى من التصوير العادى المتوسط؛ وهناك بطبيعة الحال استثناءات أعلى من هذا المستوى وأدنى على النحو الذى نصادفه فى مخطوطة الفاتيكان الموجهة إلى بازل الثانى[2] (مخطوطات يونانية رقم ١٦١٣). فى هذه المخطوطة العجيبة نجد أكثر من ٤٠٠ منمنمة توفر على رسم كل منها فنان مختلف وقعها بإمضائه. والنص فى هذه المخطوطة قصير جداً يملأ فقط النصف السفلى من الصفحة. وفى هذا الأسلوب التصويرى تتشابه سيرة القديس بازل مع **مخطوطة التكوين** فى فيينا حيث اختصر النص كثيراً لحساب الصور، كما لو كان الهدف الأصلى هو التصوير وليس النص.

وتذكر المصادر أن **الإصدارة القياسية** من حياة القديسين هى تلك التى توفر عليها سيميون ميتافراستس[3] والتى توزع عادة على من اثنى عشر مجلداً كل مجلد منها لترجمة شهر واحد إلى أربعة وعشرين مجلداً كل منها لنصف شهر من هذه التراجم. وقد جرت العادة على أن يتوازن عدد الصور مع طول النص ففى مجموعة من ١٢ ـ ٢٤ مجلداً يكون عدد المنمنمات تحت كل ترجمة (سيرة) محدوداً. ونقابل نفس الشىء فى تصوير الكتاب المقدس. فى الكتاب المقدس نجد منمنمة واحدة تتصدر كل سفر من أسفاره، على الرغم من أن كل سفر على حدة يسمح بسلسلة متصلة كبيرة من الصور. ومن هذا المنطلق فإن نموذج «سير» ميتافراستس يقدم منظراً واحداً فى صدر كل سيرة وفى بعض المخطوطات مثل تلك الموجودة فى موسكو (متحف التاريخ برقم ٣٨٢) والمؤرخة سنة ١٠٦٣م والتى تضم مختارات فقط من سير القديسين تقع بين مايو وأغسطس من تلك السنة وتمثل مجلداً واحداً من ثلاثة مجلدات، كإصدارة مختصرة من العمل الكامل، نصادف منظرين لا منظراً واحداً. وعلى سبيل المثال فى بداية سيرة

(١) Monologia

(٢) Basil II

(٣) Simeon Metaphrastes

القديس بانتليمون[1] نجد القديس **يعالج صبياً عضه ثعبان** وضرب عنق القديس.

أما إذا كانت الترجمة فردية خاصة بقديس واحد فإن التصوير لابد وأن يكون أغزر وأعمق مما نصادفه فى تلك «السير» المجمعة. وعلى سبيل المثال فإن الترجمة الفردية لنفس هذا القديس (سانت بانتليمون) والتى ترجع إلى أوائل القرن الثالث عشر نجد فيها ستة عشرً رسما مأخوذة من إطار أيقونة لهذا القديس ومن الطريف أن المنظرين الموجودين فى مخطوطة باريس مأخوذان من هذه المناظر. ويرى كورت فايتسمان أن الأيقونات الخاصة بالقديسين وخاصة الأطر الموضوعة فيها تعتبر معيناً لا ينضب لاستقاء المنمنمات التى توضع فى سيرهم المكتوبة.

ولعل من أمتع السير والتى تقع فى منطقة وسط بين النص الكامل شديد التفصيل الذى وضعه ميتافراستس والنص الفردى لسيرة واحدة هو المخطوط المعروف باسم كتاب «اسفيجمينو ١٤»[2] على جبل آثوس وهو يتضمن ثمانى سير فقط اختيرت من سير ميتافراستس بين شهر سبتمبر وديسمبر، وهى الأخرى تمثل ثلاثة مجلدات كاختصار للطبعة الكاملة. وقد وصلنا من صور الصفحة الكاملة ست صور لستة قديسين من الثمانية. وفى كل صفحة نجد شريطين أو ثلاثة شرائط من الصور على وجه الصفحة وظهرها على السواء. وفي هذا العمل نجد سيرة القديس يوستراتيوس وأصدقائه الأربعة مصورة فى صفحتين وتدور الصور حول اعترافات الشهداء الخمسة وموتهم؛ ولاشىء آخر من أحداث حياتهم. وهناك سيرة فردية خاصة بنفس هذا القديس يوستراتيوس وأصدقائه الأربعة. ترجع إلى القرن الثانى عشر (موجودة فى مكتبة تورينو الوطنية). وقد كتب النص بالخط العريض بحيث لا تستوعب الصفحة سوى عشرة سطور فقط وتملأ العمود الداخلى وحده بينما ادخر العمود الخارجى للمنمنمات. وقد وصلنا من تلك المنمنمات أربع عشرة منمنمة من بينها منمنمة قطع رقبة أوكسنتيوس[3] واعترافات ماداريوس أمام

St. Panteleimon (١)

Esphigmenu (٢)

Auxentios (٣)

لسياس[1] .لقد كانت هناك فى هذا الكتاب منمنمات أكثر بكثير مما وصلنا ولكنها قطعت؛ ولا نستطيع تحديد عددها على وجه اليقين لأن عدداً كبيراً من الأوراق مفقود بكامله وقد يكون الوجه والظهر فيها حاملين للمنمنمات. ولعله من نافلة القول التأكيد على أن سلسلة صور يوستراتيوس فى مخطوطة اسفيجمينو ومخطوطات تورينو قد أخذت من مصادر مختلفة وليس لهما أصل واحد. ولعله من الطريف أن نتذكر أو ربما نستنتج أن كل سيرة فردية كانت تصاغ وتصور بطريقة مختلفة حسب المكان الذى تصدر فيه والذى يكون فيه للشهيد أو الشهداء شعبية خاصة. ومثالنا على ذلك من صور مخطوطات تورينو التى تضم حياة الشهداء الخمسة من ساباستى[2] والتى راجت فى هذا المكان. ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضاً كثير من «السير» التى ترجع إلى القرن الحادى عشر خاصة، وعلى رأسها سيرة القديسة مارجريتا، والقديس لويتجيروس الموجودة الآن فى برلين والتى أعدت فى فيردن، وسيرة سانت رادجوند والتى أعدت فى بواتييه وماتزال محفوظة هناك، وسيرة سانت إدموند المحفوظة الآن فى مكتبة مورجان والتى أعدت في بيرى سانت إدموند وغيرها. هذه وإن كانت سيراً غربية إلا أنها تدعم النظرية فيما يتعلق بالدولة البيزنطية على النحو الذى ذهبنا إليه. إن الفضل يرجع إلى سيرة سانت يوستراتيوس الموجودة الآن في تورينو والتى كشفت لنا عن وجود مثل تلك السير فى الدولة البيزنطية.

وفى نفس الوقت لا ينبغى أن يذهب بنا الخيال إلى أن كل نسخة من «السير الخاصة» المأخوذة من السير المجمعة الكاملة عند ميتافراستس، تحمل سلسلة كاملة من المنمنمات فهذا ضد طبيعة الأشياء. وفى الصور التى صورت بها نسخة الفاتيكان من ترجمة بازل فإن مشاهد الاستشهاد تتكرر كثيراً بما لا يتلاءم مع النص الذى تصحبه وهذا الأمر يفترض أنه لم يكن هناك تقليد متبع بصرامة، وأن الرسام استخدم فقط قالباً موروثاً دون أن يراجع سياق القصة التى يصورها،

(١) Madarios , Lysias

(٢) Sabaste

ويؤكد ذلك أيضاً استخدام صورة أحد القديسيين فى واجهة الترجمة بدلاً من استخدام صورة «منظر» أو «حادث».

٥ ـ مخطوطات الأديرة

لقد كانت سير بعض القديسين ـ مثل سيرة سانت يوستاس[١] ـ تقرأ وتنتشر بين الناس قراءة وانتشار الروايات والقصص الهللينية؛ والفارق الوحيد بينهما أنها كانت تنتهى بالشهادة. ونحن نعلم من إحدى برديات القرن الثانى الميلادى الموجودة الآن فى المكتبة الوطنية فى باريس والمصورة تصويراً حسناً، وكذلك من بعض قطع الفسيفساء، وأيضاً من بعض مخطوطات العصور الوسطى أن الروايات كانت مجالا خصباً للتصوير منذ العصر الكلاسيكى على نحو ما نستشفه من قصة أبوللونيوس ملك تاير[٢] ،وأن هذا التصوير كان يتم على نطاق واسع بما فى ذلك قصص الحب والمغامرة والقصص التاريخى (مثل قصة الإسكندر تقليد كاليستينز) وقصص الرعاة والقصص الرمزى مثل قصة إيروس وبيشة[٣] بل وربما جاء تصوير سير القديسين جزئياً بدافع من تصوير القصص والروايات.

ولابد من أن ندرك تماماً أن أشهر القصص المسيحى البيزنطى وأوسعها انتشاراً بين الناس: قصة بارلام وجوزاف[٤] والتى تم تصويرها بغزارة وعناية، قد تأثرت تأثراً بالغاً بتصوير القصص القديم. ومن بين النسخ العديدة التى وصلتنا تلك النسخة الموجودة فى مكتبة دير جبل آثوس والتى تحمل صوراً عديدة من نوعية راقية وترجع إلى القرن الثانى عشر. ويبلغ عدد الصور فيها نحو مائتى صورة فى ثمانين شريطاً منمنماً؛ وهى أغنى فى ثرائها بالصور من أى سيرة خاصة؛ وتشكيلات الصور فيها هى تشكيلات تقليدية فى الأعم الأغلب مثل مناظر تسليم وتسلم البريد، والسفر على ظهور الخيول وبالقوارب وكذلك صور المناقشات بين

---

(١) Eustace

(٢) Apollonius King of Tyre

(٣) Eros and Pysche

(٤) Barlaam and Joasaph

الأشخاص، تلك المناظر التى كانت من الثوابت فى القصص الكلاسيكية. ولكن طالما أن الأصل الذى أخذت عنه قصة بارلام وجوزاف هى أسطورة بودا متنكرة فى ثوب مسيحى فإنها لا يمكن أن ترجع لأبعد من القرن الثامن الميلادى، وربما يكون أصل الصور متأخراً عن ذلك التاريخ، ومن هنا فإن الرسام يكون قد مزج بين مصادر مختلفة فى استقاء الصور وهناك على سبيل المثال مناظر من العهد القديم مثل منظر الخروج وعبور البحر الأحمر كذلك فإن مناظر الاستشهاد مأخوذة غالباً من سير القديسين ومناظر بناء الكنائس مأخوذة من كتب التاريخ الكنسى البيزنطى الباكرة وهكذا فإنه بينما نحن نتعامل مع نص أساسى فإن الصور التى تبنى على هذا النص إلى حد كبير تستقى مع ذلك من العديد من المصادر. وأكثر من هذا فإن نسبة عالية من المنمنمات تصور حياة الرهبان في الأديرة وكهوف الصحراء، وهنا نصادف مرة أخرى بعض لمسات جديدة من الخيال الذى لا أصل له مكتوب.

إن هذا النوع من صور الحياة الديرية يسيطر على معظم المخطوطات الديرية الشعبية التى تم تصويرها فى الشرق البيزنطى ويمثلها فى هذا الصدد مخطوطة (السلم الإلهى) التى وضعها جون كاليماخوس. فى هذا العمل بالذات (كما وصلنا في مخطوطة دير سانت كاترين في سيناء من القرن الثانى عشر) لا نتعامل مع أحداث روائية ولكن مع صور ثابتة تمثل مواقف فردية منعزلة كما هو الحال فى منمنمات الفصل الخاص بالوحدة وكما هو الحال أيضاً فى تصوير أنماط الحياة الثلاثة فى الدير: الحياة فى الخلوة؛ مع المجموع؛ أو كناسك؛ ومثل هذه الصورة الساكنة نصادفها كثيراً مع النصوص التى لا تصور سير الرهبان بل تصور فقط حياة الأديرة وأنشطتها.

ونظرة على مخطوطة ديرية أخرى نجدها فى إحدى منمنمات التيه فى مخطوطة باريس «الند المقدس» سابقة الذكر، هذه المنمنمة تصور الرهبان فى حياة الفضيلة والرذيلة بصور تصاحب فقرات عن الآباء المصريين في الصحراء. وربما كان هذا النص مصدراً للصور المشابهة فى قصة بارلام وجوزاف سابقة الذكر

وقصة «الجنة السماوية»[1].

٦ ـ الملاحم والأعمال الدرامية[2]

لا تلعب الملاحم والأعمال الدرامية الشعرية دوراً كبيراً فى الإنتاج الفكرى البيزنطى ولذلك يجب ألا نتوقع شيئاً كثيراً مصورا من هذه الأعمال. ولم تصلنا الملحمة الوطنية الكبرى التى تتعلق بالأعمال البطولية التى قام بها **ديجينس أكريتاس**[3] فى أية نسخة مصورة، بل لم تصور فى أى شكل آخر حسب علمنا حتى الآن. وكل ما وصلنا من معلومات عن نسخ مصورة من ملحمة ديجينس أكريتاس عبارة قالها أحد الرهبان واسمه قيصاريوس دابونتس[4] الراهب فى دير آثوس فى القرن الثامن عشر، من أنه رأى نسختين من نص الملحمة إحداهما تحمل منمنمات. وقد وصلتنا قطعة فخار من القرن الثانى عشر ـ الثالث عشر، عثر عليها فى حفائر أجورا فى أثينا عليها صورة رجل يذبح تنيناً وحيث تخترق رقبته خمس رماح. هذا المنظر نصادف له نصاً يعبر عنه فى ملحمة أكريتاس ولا يمكن أن تكون الصورة من اختراع صانع فخار بسيط ومن ثم فإننا نستنتج وجود نسخة مصورة من هذه الملحمة لم تصل إلينا. هذا الاستقاء لصور الأوانى الفخارية من صور نصوص مكتوبة هو استلهام قديم يرجع ربما إلى الفترة الهللينية الباكرة فيما يعرف بـ «سلطانية هوميروس» والتى تستقى صورها من النسخ البردية لملاحم هوميروس. ونجد مثل هذا العمل أيضا في ملحمة الفردوس الإيرانية حيث بعض الأوانى الفخارية الفارسية (موجودة الآن فى قاعة فنون فرير فى واشنطون) تحمل صوراً من الشاهنامة وترجع تلك الأوانى الفخارية إلى القرن الثالث عشر.

إن الدراما البيزنطية هى الأخرى تثير المشاكل، لأنها فى مجملها بنيت على

(١) Scala Paradisi
(٢) Epos and Drama
(٣) Digenis Akritas
(٤) Kaisarius Dapontes

الدراما اليونانية القديمة وخاصة دراما يوربيديس الذى كانت تراجيدياته تصور بكثافة وخاصة فى الحقبة اليونانية ـ الرومانية؛ وربما على نفس النطاق الواسع الذى كانت عليه ملاحم هوميروس. ورغم أن تراجيديات يوربيديس المصورة قد عرفت في العصور الوسطى البيزنطية فإنه لم تصلنا نسخ مصورة من التراجيديات البيزنطية حتى تلك التى بنيت على أعمال يوربيديس.

لقد تقصى كورت فايتسمان بعض العظات اليونانية ذات الطبيعة الروائية التى تحولت إلى أعمال درامية مثل **عظة العذراء** التى كتبها جاكوبوس كوكينوبافوس[١] وقد صلتنا منها نسختان مصورتان بغزارة وأناقة إحداهما فى مكتبة الفاتيكان (مخطوطات يونانية برقم ١١٦٢) والأخرى فى تاريخ لاحق في المكتبة الوطنية فى باريس (مخطوطات يونانية برقم ١٢٠٨). وفى أحد المناظر نجد الملاك يطير داخلاً من خلال إحدى نوافذ الطابق الثانى. ويرى فايتسمان أنه ليس هناك تأثير يذكر من جانب التراجيديات اليونانية وخاصة تراجيديات يوربيديس على المواعظ الدرامية فى بيزنطة العصور الوسطى، وإن كانت قد ظهر بعضها على منمنمات النهضة المقدونية. وبمعنى آخر فإن المواعظ الدرامية التى تركها جاكوبوس كوكينوبافوس يجب أن تصنف على أنها مواعظ وليست تراجيديات تمثل على خشبة المسرح.

٧ ـ الأعمال المقتبسة[٢]

بعد أن استعرضنا تصوير النصوص الأساسية، يمكن أن نتحول إلى النصوص المحورة أو التى أعيدت صياغتها فى شكل آخر وكيف تأثرت فى تصويرها بالأعمال الأم التى حورت عنها ومدى الاتفاق والاختلاف بينهما. ومن الطبيعى فى الأعمال المقتبسة كتلك التى خرجت من بطن الكتاب المقدس أن تتأثر بدرجة قلت أو كثرت وتقترب وترتبط بالنص الأصلى فى إيضاحياتها.

هناك على سبيل المثال فى كلاجنفورت فى كارنثيا مخطوطة ترجع إلى القرن الثانى عشر تعرف باسم سفر تكوين ملشتات[٣] وتضم سفرى التكوين والخروج

(١) Jacobos Kokkinobaphos

(٢) Paraphrases

(٣) Millstatt Genesis

كتب النص فيها على هيئة قصيدة مقفاة باللغة الألمانية العليا الوسيطة(١). ولم يصور فى هذه المخطوطة سوى سفر التكوين على الرغم من أن سلسلة الصور قد قلصت إلى ثلث الأصل فقط وتم تبسيط كثير من الرسوم ويبلغ عدد الرسوم هنا نحو مائة رسم استقيت غالباً من نسخة كوتون التى أشرنا إليها سابقاً. ولم يتم تصوير سفر الخروج ربما لأنه لم تتح نسخة أم مصورة وكانت النسخة المصورة لسفر التكوين وحده. والمشكلة الرئيسية هنا هى هل النص الجديد (المحور) أدخل أية تغييرات مهما كان حجمها صغيراً فى سلسلة الصور أم لا؟

لقد رأينا من قبل كيف أن الصور فى نسخة ملشتات من سفر التكوين تظهر فيها الجوانب العاطفية أكثر من تلك الموجودة فى الكتاب المقدس. وعلى سبيل المثال صورة حواء وهى تأكل الفاكهة المحرمة، فيها تعبير صارخ عن الريبة والترقب والخوف والتردد. تلك العاطفية هى سمة من سمات الشعر الألمانى المعاصر. وفى الوقت الذى أنتج فيه المخطوط كانت خاصية ملاحظة السلوك الإنسانى ظاهرة عامة فى فنون الرسم والتصوير. وبالتالى ليس هناك ما يدعونا إلى القول بأن العمل المقتبس كان هو الدافع إلى هذا التحول فى التصوير. وبصفة عامة فإن الاختلافات عن نص الكتاب المقدس لم تكن بذات بال وأن القيمة الكبرى للصور تكمن فقط فى توسيع قدرتنا على تتبع سلسلة التصوير فى سفر التكوين.

إن الأعمال المقتبسة من الكتاب المقدس ترجعنا إلى الفترة المسيحية الباكرة التى ازدهرت فيها الأبوكريفا والنصوص التقليد(٢) .وعلى سبيل المثال فإن الجزء الأول من الكلاسيكيات اليهودية(٣) من تأليف فلافيوس جوزيفوس، هو نوع من أنواع الأعمال المقتبسة ينهج نهج الكتاب المقدس فى السرد والرواية من بدء الخليقة وحتى سنة ٤٠٠ ق.م تقريباً، رغم اختلاط معلوماته بشىء من الأساطير. ومن

(١) Middle High German

(٢) Apocrypha & Pseudepigrapha

(٣) Antiquitatates Judaicae

خلال إحدى منمنمات التيه فى مخطوطة «الند المقدس» الموجودة فى باريس والتى أشرنا إليها قبلاً نعرف أن هناك نسخة مصورة من الكلاسيكيات اليهودية لابد وأن تكون قد أنتجت وأن الرسام الأول لهذا الكتاب استخدم فى تصويرها نسخاً مصورة من الكتاب المقدس كمصادر لتصوير المناظر الملائمة فى هذا العمل. ومن الطريف أنه لو كانت هناك مناظر أسطورية لا يشرحها نص الكتاب المقدس وإنما قام جوزيفوس بشرحها فى كتابه، فإن مصور الكتاب المقدس نفسه يستقى رسوماته من شرح جوزيفوس هذا. وهو نفس الحال الذى فى المنمنمة الخاصة بالأسفار الثمانية[١] التى تلى سفر العثور على موسى فى النيل حيث تقوم ثيرموثز[٢] ابنة الفرعون بتقديم الطفل الصغير إلى أبيها.

بمثل هذه المناظر نرجع إلى الأساطير اليهودية، وحيث نجد عناصر غير موجودة أصلاً فى الكتاب المقدس ولكنها استقت من الأسفار الثمانية التى لا يفسرها النص عند جوزيفوس. وفى نفس نسخة سيراجليو من الأسفار الثمانية نجد تصويراً لإغراء حواء والتى فيها يظهر الثعبان على ظهر جمل، وهو تفصيل نجد تفسيره فى كتاب الربانى إليعازر المسمى بيركى[٣] رغم أن هذا الكتاب الذى يرجع إلى القرن التاسع لم يتم تصويره ولم يكن فى يوم من الأيام مصدراً لاستقاء الصور فى الأسفار الثمانية. ويؤكد فايتسمان أن كتاب إليعازر فيما يتعلق بقصة الخلق اعتمد على مصادر أخرى ترجع إلى القرن الأول الميلادى؛ فى مثل هذه المصادر يجب أن نبحث عن أصل ومصدر مثل هذا النوع من الصور والمنمنمات الأسطورية. إن الأعمال المقتبسة المصورة هى ذات صلة وثيقة بالأسفار الخمسة والأسفار الثمانية وهو موجهة أساساً إلى قارئ هذه النصوص وهو أثناء القراءة يستمتع بالصور ربما أكثر من استمتاعه بالنص نفسه. إن هذه الصور تصل فى كثير من الأحيان مستوى شعبى فولكلورى، وإن كنا لا نعدم من حين لآخر نسخاً فاخرة أنيقة منها.

---

(١) Seralgio Octateuch

(٢) Thurmathis

(٣) Pirke

٨ ـ الشروح والتعليقات[١]

بينما كانت اقتباسات الكتاب المقدس وإيضاحياتها المصورة ذات طبيعة روائية سردية، إلا أن شروح الكتاب المقدس كانت عبارة عن طروحات لوجهات نظر وتعليقات ذات طابع علمي تتوسع في بسط النص وتستخرج منه أحكاماً شرعية عملية وطقوساً وشعائر، أو بمعنى آخر تستخلص منه فكراً مجرداً؛ وهو ما يعتبر عقبة حقيقية أمام التصوير البصري، ونتيجة لذلك فإن معظم تفاسير وشروحات الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية بقيت بمنأى عن التصوير.

ومن بين الاستثناءات القليلة في هذا الصدد **المزامير**[٢] الذي عثرنا على نسخة من شروحه (مكتبة الفاتيكان، مخطوطات يونانية برقم ٧٥٢) مؤرخة بسنة ١٠٥٩م وتتركز فيها الصور في الشرح والتفسير دون المتن. وفي كثير من الأحيان بنيت الصور على إيضاحيات موجودة في أسفار الملوك والأناجيل ولكنها عدلت لتلائم تفسير النص، وفي أحيان أخرى نجد الرسام يبتدع مناظر من عنده للشروح وخاصة تفسير إثناسيوس وتيودوريت على المزامير. والصعوبات العديدة التي تواجه تصوير الشروح والتفاسير تتمثل كأحسن ما يكون في هذا المزمور وعلى سبيل المثال فإن تيودوريت في تعليقه على المزمور رقم ٢٠ فإنه يشير إلى مرض الملك حزقيا وصلاته إلى الله، نجد الرسام لا يعكس الصلاة بل يرسم بدلاً من ذلك صلاة الملك داود لله وهي صورة مستقاة من قطع فسيفساء في المعابد اليهودية. ورغم تأثر الرسام بالشرح والتفسير إلا أنه يعبر عنه بطريقته الخاصة ومثل هذه المنمنمات ليست لها قيمة تصويرية أو فنية ولا نصادف فيها أي تتابع، بل نجد فيها ضرباً من ضروب التفكك وعدم الترابط.

وما ينطبق على الشروح والتفاسير المسيحية ينسحب أيضاً على التفاسير الكلاسيكية واليهودية. وبينما كانت ملاحم هوميروس وأشعاره كانت أكثر النصوص تعرضاً للتصوير فإنه من الواضح أن أياً من شروح وتفاسير

(١) Commentaries

(٢) Psalter

أرستارخورس فى العصور القديمة أو تزدزس ويوستاثيوس فى الحقبة البيزنطية لم تتعرض للتصوير. وبالمثل فإن الأساطير اليهودية عندما كانت تعرض بطريقة قابلة للتصوير كانت تستخدم فى تفسير بعض نصوص الكتاب المقدس والأسفار الخمسة.

ومن الواضح أن شروح وتفاسير الكتب المقدسة ـ باستثناء أمثال مزامير الفاتيكان المذكورة ـ كانت توجه أساساً لطبقة مثقفة ثقافة عالية وذات وضع اجتماعى غير عادى وخاصة الإكليريين التى كان يهمها التفسير والشرح بالدرجة الأولى والتى كانت لديها ملكات عقلية ولاهوتية من نوع خاص.

٩ ـ العظات الدينية(١)

يتأرجح تصوير الجانب الأكبر من العظات الدينية بين طرفى النقيض: تصوير غزير فى العظات الدينية ذات الطابع الروائى القصصى وإن كانت نادرة؛ والافتقار الكامل إلى التصوير فى العظات اللاهوتية التى تحاجى العقل والمنطق والتى تمثل الغالبية العظمى من العظات. وكما قررنا سابقاً فإن عدد المنمنمات عادة ما يتناسب مع حجم النص نفسه وطوله ولذلك لا ينبغى أن نندهش من أن أثرى الأعمال بالصور هى العظات الفردية، كما حظى سفر التكوين المنفرد بأقصى عدد من الصور ولعل أحسن نموذج على ذلك هى عظات جاكوبوس كوكينوبافوس سابق الذكر عن العذراء والتى تشتمل على ٨٢ منمنمة بعضها ينطوى على منظرين أو أكثر. وطالما أن عظات جاكوبوس هذه تفصل تفصيلاً شديداً على الأناجيل القانونية وأناجيل الأسفار الخمسة فإن من المتوقع أن تستفيد صور هذه العظات من تلك المصادر. ومع ذلك فإن النص يذهب إلى أبعد من مجرد تلك المصادر فإن الرسام لم يتردد فى اختراع مناظر جديدة على غرار تلك التى وجدها فى تلك المصادر، وعلى سبيل المثال فإنه عندما يصف الاستعداد للعمل في المعبد فإن المنمنمة تبدأ بمنظر طفل العذراء بين يواقيم وأنا، وقد استقاها بكل تأكيد من

(١) Homilies

صورة سابقة فى الإنجيل المسمى بإنجيل جيمس المصور والذى يرجع إلى الحقبة المسيحية الباكرة. وبقية المنمنمات التى فيها سائر المشاركين فى إعداد المعبد يشاهدون أمام منازلهم فى انتظار التعليمات، بينما يقوم أحد الخدام بتوزيع الشموع عليهم، وهذه المناظر بنيت كلها على نص العظة البحت والتى قام الرسام الأول بإعدادها. وهناك تتابع وتماسك فى هذه المنمنمات التى تحكى المناظر وتسردها على مراحل، ولكنها من حين لآخر يقطعها مناظر من العهد القديم تقتضيها مراجع النص نفسه. ومن هنا فإن السلسلة ليست كلها بالقطع روائية قصصية كما هو الحال فى سلاسل الكتاب المقدس الأساسية.

وهناك عظة فردية أخرى لها نفس الخصائص هى عظة ميلاد المسيح المنسوبة فى بعض المخطوطات إلى جون الدمشقى[١] ، بينما آخرون ينسبونها إلى جون من يوبيا[٢] ومن هذه العظة نسخة فى مكتبة بطرخانة القدس. وفى هذه النسخة نجد ستاً وخمسين منمنة وزعت على الأعمدة اليسرى فى الصفحات بينما وزع النص على الأعمدة اليمنى. وكما هو الحال فى عظات جاكوبوس كوكينوبافوس استقيت الصور إما من الأناجيل القانونية وأناجيل الأسفار الخمسة أو اعتمدت على نص العظة نفسها وفي أحيان قليلة تدخل عليها مناظر من العهد القديم. ومن المناظر التى اعتمدت على تتابع النص فى العظة تلك التى تصور وصول ماجى[٣] وحدبهم على الطفل المسيح. هنا يعتمد الرسام على الملامح الأسطورية في نص العظة على نحو ما يفعل الراوى. وهنا نجد المثال الذى يصحب الماجى لعمل أيقونة للعذراء والطفل ثم تثبيت الأيقونة على «مدخل معبد الأمة الفارسية على شرف إله الشمس ويسوع العظيم» وهناك أخيراً منظر نجد فيه كل فرد من آل ماجى وهو يأخذ المسيح بين ذراعيه وأولهم بجده «غير بالغ» وثانيهم يجده «أصغر من سن الثلاثين» بينما ثالثهم يجده «رجلاً عجوزاً».

(١) John of Damascus

(٢) John of Euboea

(٣) Magi

وثمة نسخة أخرى مصورة من هذه «العظات» بسلسلة أوسع وأكبر وأكثر تفصيلاً من النسخة السابقة. هذه النسخة موجودة في مكتبة دير جبل آثوس (برقم ١٤). وهى ترجع إلى القرن الثانى عشر. والجديد والأصل في نص هذه النسخة وصورها يقع فى زيارات الماجى إلى مهابط الوحى المختلفة مثل مكان أبوللو فى دلفى. ومع ذلك فإن الرسام لم يصور المرجل ولا النبية التى يطلق عليها النص اسم القسيسة، ولكنه رسم بدلاً من ذلك رسم تمثالاً تقلدياً فى معبد مستدير. ورغم أن عظة «ميلاد المسيح» هذه تمثل وحدة متكاملة فقد يكون من المفيد أن نذكر أن النسخ المصورة تتكامل فيما بينها لتكون نصاً أكبر.

والمشكلة الرئيسية إنما تعكسها الإيضاحيات المستفيضة فى مجموعات العظات الأشهر والأوسع انتشاراً والأكثر قراءة وبالتالى الأكثر انتساخاً «آباء الكنيسة». ومن الواضح أن عظات جريجورى من نازيانزوس[١] كانت تصور من حين إلى آخر وبغزارة مع وجود اختلافات كبيرة بين النسخ المختلفة، أكثر وأكبر من أى أب كنيسة آخر . وقد وصلنا عدد كبير نسبياً من نسخ هذه العظات هذا العدد ليس وليد الصدفة والحظ وإنما وليد أسباب مختلفة من بينها: ـ

١ـ على عكس عظات جون كريسستوم التى تملأ مجلدات عديدة فإن عظات جريجورى الخمس والأربعين يمكن ضغطها فى مجلد واحد يمكن تصويره بسهولة شديدة.

٢ـ من بينها هناك العديد التى لا علاقة لها بتأويل الكتاب المقدس، بل هى أقرب إلى رواية القصص وبعضها فيه معلومات تاريخية، سير، مما يسهل تصويره تصويراً روائياً.

٣ـ إن أسلوب السرد الزمنى لبعض العظات ومن بينها جوليان المرتد وثودوسيوس الثانى الخائف من الله كان يدعو إلى إنتاج نسخ فاخرة امبراطورية.

٤ـ اختيار ستة عشر عظة من بين هذه العظات لتصبح كتب خدمة طقسية، جعلها مجالاً خصباً للتصوير والرسم.

(١) Gregory of Nazianzus

وهناك نسخة مصورة بالكامل من كل العظات الخمس والأربعين الخاصة بـ جريجورى من نازيانزوس، ترجع إلى القرن التاسع، موجودة فى مكتبة أمبروز فى ميلانو، تغطى رسومها الذهبية الفجة الهوامش. وبالإضافة إلى العديد من الصور الشخصية والميداليات، هناك مناظر فردية قليلة مختصرة من العهد القديم والجديد. وفى عظة «ضد جوليان الأول»[١] نجد مناظر مختلفة من حياة هذا الامبراطور المرتد، مثل زيارته لأنصاف الآلهة اليونانية فى سبيل الحصول على الوحى، هذه المناظر صورت فى ترتيب زمنى. ولعله من نافلة القول التذكير بأن المنمنمات فى هذا المخطوط تتمشى تماماً مع النص؛ وليس هناك أية صور مقحمة على السياق التصويرى بل كلها تقابل أحداثاً حقيقية فى النص نفسه. يؤكد ذلك إضافة إلى المناظر السابقة سلسلة الصور التى تصور الآلهة الوثنية التى يسخر منها جريجورى نفسه. هنا نجد أن كرونوس[٢] قد تم تصويره وهو يخص أورانوس وذلك عن طريق شق قطعة من السماء بالفأس. ومن الواضح أن الرسام ليس لديه فكرة واضحة عن الأسطورة ولم يتح له صور كلاسيكية قديمة. ويبدو أن مخطوطة ميلانو هذه قد أعدت فى منسخ أحد الأديرة الذى لايملك رصيداً كبيراً من الكتب المصورة يعتمد عليها فى تصويره. وأن خيال المصور كان محدوداً جداً فى تصوير نص العظات. ومن الواضح أن تلك المخطوطة كانت معدة لاستخدام البسطاء من القراء.

وثمة نسخة شهيرة أخرى من مخطوطة عظات جريجورى هذه (رقم ٥١٠ مخطوطات يونانية) فى باريس، وتنتمى إلى فئة مختلفة تماماً. وقد أعدت هذه النسخة للامبراطور بازل الأول بين سنتى ٨٨٠-٨٨٦. هذه المخطوطة نسخة فاخرة من الواضح أنها أعدت فى منسخ أحد البلاطات أو القصور، يبدو أنه كان مليئاً بالمخطوطات الفخمة المصورة حيث كان الرسام يستطيع أن ينقل منها صوراً فردية أو مجموعة. فقد قام بجمعها فى شرائح على صفحات كاملة، بحيث

(١) Contra Julian I

(٢) Chronos

تسبق إحداها كل عظة. لقد طور الرسام مبدأ ميكانيكياً بحيث إذا كانت العظات تسمح بإدراج إيضاحيات على هيئة مناظر دون عظات أخرى، قام بتوزيع المناظر على المساحة كلها حتى ولو لم تتوافق فى بعض الأحيان مع النص نفسه ويجد الإنسان نفسه فى حيرة لأنه لا يجد أية علاقة بين المنمنمة والفقرة التى جاءت تحتها أو معها. وعدم التوافق هذا نجده هنا كما وجدناه من قبل فى مخطوطة سفر التكوين فى فيينا. ومثل هذا الموقف يتأتى من إعطاء الصور أولوية على النص نفسه. لقد كان من بين المصادر الرئيسية لصور هذه العظات **كتاب الفصول**[١] (فصول من التوراة للقراءة فى القداس)، حيث استقيت منه صور الأعياد الكبير ومناظر من قراءات السبت ـ الأحد. كذلك استقيت الصور تقريباً من كل سفر من أسفار العهد القديم (التكوين ـ الخروج ـ جوشوا، القضاة، الملوك، المزامير، أيوب، الأنبياء). وبعض هذه المناظر تساعد كثيراً فى فهم المراحل الأولى من تصوير هذه الأسفار. والمناظر فى عظة سايبريان و جوستينا[٢]، ربما تكون قد استقيت من كتب سير القديسين، سواء كلياً أو جزئياً. والظاهرة الواضحة فى صور نص عظات جريجورى أن قليلاً منها فقط هى التى اخترعت اختراعاً من واقع النص نفسه.

وبينما نسخة ميلانو ونسخة باريس الكاملتان اللتان تضمان النص الكامل للعظات الخمس والأربعين، هما نسختان فريدتان[٣]، فإن الإصدارة الخاصة بالعظات الست عشرة الطقسية قد وصلتنا فى أكثر من عشرين نسخة. وهناك تصوير قياسى فى هذه النسخ جميعاً، حيث منمنمة عنوان فى كل عظة، وهى تتفاوت من صورة مؤطرة إلى حروف أولى مزخرفة داخل شكل. ومصادر هذه المنمنمات معروفة؛ وهى أساساً صور الأعياد مثل عيد ميلاد المسيح وعيد الغطاس وغيرهما، هذه الصور من كتاب الفصول سابق الذكر. بينما تلك الصور التى

(١) Lectionary

(٢) Cyprian & Justina

(٣) Unica

تصور جريجورى وهو يعلم، والأساقفة وهم يعظون ويخطبون فإنها قد اخترعت اختراعاً من وحى اللحظة. وقليل من هذه العظات يحمل صوراً ومناظر إضافية ليست موجودة أصلاً فى النسخة الكاملة الموجودة فى باريس (مخطوطات يونانية رقم ٥١٠) مثل صور عودة الحياة للطبيعة فى الربيع، راعى غنم يعزف على القيثارة خلف القطيع، بستانى يشذب شجرة، صائد الطيور ينصب شباكه، صياد الأسماك يسحب شباكه المليئة بالسمك من النهر.

إن الثراء الموجود فى تصوير «عظات جريجورى» يعكسه الفقر الموجود فى صور مخطوطات عظات جون كريسستوم فقد حاول الرسامون إدراج بعض الصور والرسوم القليلة فى هذه العظات ولكن معظمها جاء فى الهوامش. هذه الندرة والهامشية فى تصوير عظات كريسستوم ربما جاءت بسبب إحباط الرسام أمام هذه المجلدات الكثيرة الضخمة التى يضيع فيها أى جهد على نحو ما نصادفه فى الصور المبعثرة المشتتة التى تتخذ شكل الديكور وحسب فى نسخة القرن الحادى عشر والموجودة فى مكتبة دير جبل آثوس (تحت رقم ٢٢). وهناك فى المكتبة الوطنية الفرنسية فى باريس نسختان من هذه العظات وكلتاهما مأخوذتان من نسخة القرن الحادى عشر وتعكس إحداهما (رقم ٦٠٥ مخطوطات يونانية) بساطة التصوير الذى اقتصر على أشكال زخرفية للحروف الأولى فى بداية كل عظة بينما النسخة الثانية (٧٩٩ مخطوطات يونانية) فيها بعض منمنمات العناوين مثل تلك الموجودة فى عظات جريجورى.

وبينما النسخ الثلاث المذكورة نجد فيها نوعاً من التشابه فى الخطوط العريضة للتصوير فإن نسخة المكتبة الوطنية اليونانية فى أثينا (مخطوطات رقم ٢١١) التى ترجع إلى مطلع القرن العاشر، تعتبر متفردة لأنها تحمل أسلوباً مختلفاً فى التصوير يعتمد رسومات من خطوط متوازية تتجه إلى نقطة مركزية. وإحدى الصور التخصصية هذه تصور الامبراطور أركاديوس قائماً أمام ثلاثة من الشهداء على نحو ما قام به الامبراطور ليو السادس الذى يبدو راكعاً أمام المسيح فى لوحة الفسيفساء فى مبنى أيا صوفيا فى استانبول.

وطالما أن عظات جون كريسستوم قد وصلتنا مصورة ولو على نطاق ضيق فإن السؤال الذى يمكن أن يثار هو هل كانت عظات سانت بازل ـ الثالث فى ثالوث آباء الكنيسة الشرقية العظام ـ هى الأخرى مصورة؟ للأسف لم تصلنا حتى الآن أية نسخة مصورة من عظات بازل وإن كانت هناك بعض فقرات من عظات بازل المقتبسة فى بعض الأعمال الدينية قد صاحبتها صور ورسوم على نحو مانجده فى مخطوطة باريس من «الند المقدس»[١] حيث نجد فى عظة «المزامير» فى الهامش منظراً يشير إلى إحدى الفقرات المأخوذة من عظات بازل (مزمور ١٤) وفى نسخة من المزامير موجودة فى مكتبة الفاتيكان ترجع إلى أوائل القرن الثانى عشر نجد نفس المزمور السابق مصوراً بصورة جامعة فيها أجزاء من صورة المرابى الذى يقرض المال وهى نفس عناصر الصورة السابقة.

إن مخطوطة (الند المقدس) تشتمل على عدد من الإيضاحيات الهامة لعظات جريجورى؛ جون كريسستوم؛ بازل فقط دون سائر آباء الكنيسة الذين تم اقتباس بعض فقرات من عظاتهم والذين تأتى صورهم الشخصية أو شعاراتهم فى الهامش المقابل لتلك الفقرات. ومن الواضح أنه ليس هناك أية مناظر تصور تلك الفقرات مما يعنى أنه ليس هناك تصوير فى الأصول التى أخذت منها تلك الاقتباسات، وأن الصور الشخصية فى (الند المقدس) هى فقط من وضع رسام هذا المخطوط، الذى حاول أن يستغل أية مساحة متاحة أمامه. إن أصحاب العظات الذين لم ترد لهم صور مناظر فى هذا المخطوط يبرز من بينهم:

١ـ إثناسيوس[٢]

٢ـ سيريل السكندرى[٣]

Sacra Parallela (١)

Athanasius (٢)

Cyril of Alexandria (٣)

٣ـ ديديموس السكندرى(١)

٤ـ جريجورى النيساوى(٢)

وربما كان السبب وراء ذلك ـ أى عدم تصوير عظات هؤلاء وغيرهم ـ افتقار عنصر الرواية والقصصية فى هذه العظات، وانحسار شعبية هذه العظات وعدم انتشارها بين طبقات الشعب. يضاف إلى ذلك أن العظات لم تكن الوعاء الوحيد لفكر آباء الكنيسة. فهناك العديد من أشكال الكتابات اللاهوتية الأخرى مثل الكتابة فى العقيدة، الكتابة فى التفسير؛ كتابات الجدل والدفاع عن الدين، وغير ذلك من الكتابات اللاهوتية ومن بينها المجموعات الضخمة من الرسائل، والتى يمكن أن تكون مجالاً للتصوير.

اـ كتب الطقوس(٣)

تعتبر كتب الطقوس نوعاً مختلفاً من النصوص الدينية وبالتالى نشأ فى أحضانها نوع خاص من الإيضاحيات خاص بتلك الأعمال التى يطلق عليها «كتب الخدمة»(٤) ويأتى على رأسها كتاب الفصول(٥) المأخوذ من الأناجيل. وكان مكان كتاب الفصول الدائم ليس فى المكتبة وإنما منضدة المذبح فى الكنيسة. وحتى لا يقاطع القارئ بين حين وآخر بالصور والمنمنمات فى هذا النص فإن كتب الفصول الأولى قد خلت من الإيضاحيات. ولكن مع مرور الوقت زحفت تلك الإيضاحيات إلى كتب الفصول هذه. وباعتبار كتاب الفصول من أكثر الكتب الدينية توقيراً واحتراماً فقد تم تصويره أكثر من أى كتاب آخر على الرغم من أنه لم يقصد بتلك الصور أن تكون مجالاً للتفكر أو التدبر أو التأمل. وكان التركيز فى كتب الفصول الأولى على استخدام الخط كعنصر جمالى واستخدام الزخرفة فقط دون الصور والمنمنمات. ففى نسخة من كتاب الفصول فى المكتبة الوطنية

Didymus of Alexandria (١)

Gregory of Nyssa (٢)

Liturgia (٣)

Service boots (٤)

Lectionary (٥)

الفرنسية (برقم ٢٨٧ مخطوطات يونانية) ترجع إلى نهاية القرن التاسع الميلادى كتبت بخط أونسيال تذكارى أثرى صفحة بصفحة وليس هناك سوى عدد قليل جداً من العناصر التصويرية مثل صورة الملاك فوق الخط الكبير لقراءة يوم الرابع والعشرين من يونية يوم عيد ميلاد يوحنا المعمدان. وكانت أول الصور التى زحفت إلى كتاب الفصول هى صور الإنجيليين الأربعة التى كانت توضع على مسافات محددة هامة دون أن تعوق إنسيات القراءة والفصول. وخير مثال على ذلك نسخة مكتبة الفاتيكان (رقم ١٥٢٢ مخطوطات يونانية) والتى رغم أنها ليست معاصرة لنسخة باريس ولكنها كتبت بنفس خط الأونسيال بل وربما كتبها نفس الخطاط، رغم علمنا التام بأنه فى القرن التاسع حل الخط الصغير محل خط الأونسيال. وقد استمر استخدام حرف الأونسيال فى كتب الفصول بالذات حتى القرن الحادى عشر. ومن هذا المنطلق أصبح خط الأونسيال وخط الفصول مترادفين. ولعل من أهم وأفخم كتب الفصول نسخة جبل سيناء (رقم ٢٠٤) والتى ترجع إلى حوالى سنة ١٠٠٠م. وقد كتبت هذه النسخة صفحة بصفحة بخط الأونسيال المذهب شديد الأناقة شديد الجمال. وقد زينت هذه النسخة فى مواضع هامة بخطوط من ذهب. فى هذه النسخة نجد صفحات كاملة مليئة بالمنمنمات مثل المسيح، الإنجيليين الأربعة، العذراء، راهب يدعى بيتر، وكل هذه الصور تم تنفيذها بأسلوب جديد وجمعت معاً فى ملزمة واحدة فى بداية النص.

ويعتقد كورت فايتسمان أن أياً من نسخ كتاب الفصول الفاخرة الثلاثة المذكورة سابقاً لم تكن تستخدم للقراءة فى الخدمة الدينية لأنه ما من نسخة منها كانت كاملة النص أو حتى كل قراءات يوم السبت ـ الأحد، فهى جميعاً تقع فى إطار ما يسمى «نسخ المختارات». ويبدو أن هذه النسخ الفاخرة كان يقصد بها أن ستخدم كنوع من الزينة فى المذبح أو تحمل للعرض حول المدخل الصغير، بينما كانت القراءة أثناء الخدمة تتم من نسخة عادية. بل إنه كان من النادر أن تفتح هذه النسخ، ويفسر ذلك أن كثيراً من المنمنمات فى النسخ الفاخرة على نحو ما نصادفه فى نسخة سيناء ماتزال تحتفظ برونقها وكمالها.

وإضافة إلى التصوير الفنى الداخلى الجميل لكتاب الفصول فقد جرت العادة على أن يحلى جلد الكتاب بطبقات من الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ والمينا حتى يبدو فى أبهى حلة ومظهر ممكن. وعلى الرغم من أن انغرب المسيحى كما رأينا من قبل (الغرب اللاتينى)، كان يحلِّى بهذا الأسلوب جلود ليس فقط كتاب الفصول، بل أيضاً جلود الكتاب المقدس كله، والمزامير وكتب الأسرار المقدسة وغيرها من الكتب ذات الصلة مثل كتاب التراتيل وكتاب الترانيم[1]، على الرغم من ذلك فإنه فى ظل الكنيسة البيزنطية كانت أفخر الجلود وأغلاها على الإطلاق تخصص لكتاب الفصول فقط دون غيره حتى لايدانيه فيها منزلة وربما كان ذلك للتوقير والتبجيل الذى يجب أن يمنح له أثناء الطقوس؛ وذلك على نحو ما نلاحظه فى النماذج القليلة التى سلمت من التخريب ووصلت إلينا.

وعندما دخلت الصور والمناظر إلى نص كتاب الفصول وذلك فى نهاية القرن العاشر الميلادى؛ جاءت الصور من مصدرين مختلفين **أولهما** كان بطبيعة الحال هو كتاب الإنجيل الذى استقيت منه الصور فى صيغتها الأصلية وربما لم يدخل عليها سوى تعديل واحد هو أن توضع الصور دائماً فى بداية «الطقس» حتى ولو كانت الفقرة صاحبة الصورة فى نهاية الطقس، حيث لايمكن قطع سياق الطقس بأى شئ تحت أى ظرف من الظروف. فى الجزء الذى وصلنا من كتاب الفصول فى نسخة المكتبة العامة فى لينينجراد (تحت رقم ٢١ مخطوطات) والتى ترجع إلى منتصف القرن العاشر الميلادى نجد أن الإيضاحيات الخاصة **بمعجزة كانا** والتى تسبق قراءة يوم الإثنين من الأسبوع الثانى بعد عيد الفصح، قد قسمت إلى شريطين: العلوى يصور المسيح فى المأدبة وهو يرتدى الزى المسيحى الباكر. والشريط السفلى يظهر فيه المسيح وهو يحول الماء إلى نبيذ.

والمنظر هنا فى الشريطين يحافظ على الطابع الروائى للنص ولكن إذا قورن بالمنظر الوارد فى كتاب الإنجيل، نجده أكبر حجماً حتى يكون له الطابع التذكارى الذى يملأ الصفحة بأكملها بحيث يناسب الصبغة الأثرية لكتاب الفصول. أما

---

(١) Antiphovary & Gradual

المصدر الثانى فهو صور الأعياد الكبيرة مثل عيد أنستاسيس، عيد الفصح الكبير بالكنيسة الأرثوذكسية. وقد يكون من المفيد هنا أن نقول بأن كتاب الفصول كجزء من مكونات قدس الأقداس فى المذبح أصبح مع مرور الوقت شيئاً معبوداً مثل الأيقونات وكان غلاف هذا الكتاب يقبل مثل تقبيل الأيقونات نفسها.

يقول كورت فايتسمان بأن القسم الذى وصلنا من كتاب الفصول فى نسخة لينينجراد لايمكننا فى حقيقة الأمر من معرفة عدد المنمنمات الروائية المستقاة من كتاب الإنجيل أو عدد الصور الأثرية الدالة على الأعياد المسيحية الباكرة. وعلى الرغم من أن العدد التقليدى فى رسوم الأيقونات الخاصة بالأعياد هو اثنى عشر، إلا أنه فى حالة كتاب الفصول فإن الفنان ليس مجبراً على رسم كل هذا العدد وكثير من نسخ كتاب الفصول تضم إما أعلى من هذا الرقم أو أقل منه. كما أنه ليس من الضرورى أن تعتمد كل نسخ كتاب الفصول على المصدرين الخاصين بالصور بل إن بعضها قد يكتفى بمصدر واحد. فهناك من النسخ التى وصلتنا ما يقصر صوره على مناظر روائية من كتاب الإنجيل وحده مثل نسخة سانت جورجيو دى جريكى[(١)] فى فينسيا، وثمة نسخ أخرى تركز تماماً على صور الأعياد مثل نسخة فوكاس فى لافرا[(٢)] ذات الجلدة المذهبة بإسراف وفيها ثلاث منمنمات شبيهة بالأيقونات، خاصة بالأعياد الثلاثة التى يحتفل بها رهبان دير آثوس وهى: عيد الفصح ـ عيد الكريسماس ـ عيد تجلى العذراء. وهناك نسخة كتاب الفصول فى أيفرون الذى يشتمل على ستة صور أعياد.

ومع مرور الوقت تمت الاستعانة بمصادر أخرى لاستقاء صور كتاب الفصول. ففى الجزء الثانى من نص الكتاب الذى يتضمن قراءات السنة كلها نجد صور القديسين كل فى أيامه. وهناك نسخ من كتاب الفصول مثل نسخة الفاتيكان (مخطوطات يونانية رقم ١١٥٦) التى ترجع إلى القرن الحادى عشر، تركز على ذلك الجزء الثانى وهو مصور مثل كتب سير القديسين. وربما كان أعقد النسخ

(١) S. Giorgio dei Greci

(٢) Phocas Lectionary at Lavra

تصويراً من كتب الفصول، تلك النسخة الموجودة فى مكتبة دير جبل آثوس والتى ترجع إلى منتصف القرن الحادى عشر. وهى ككل منتجات المنسخ الامبراطورى تمزج مزجاً رائعاً بين مناظر الإنجيل وسير القديسين وخاصة نسخة سيرة سانت بازل الثانى فى الفاتيكان حيث نصادف قراءة يوم ٢٧ يناير تتصدرها صورة نقل رفات إجناتيوس الأنطاكى إلى تلك المدينة (أنطاكية). وهى نفس تكوينة الصورة الموجودة فى سيرة بازل فيما عدا أنها أبسط فى التركيب.

وأكثر من هذا هناك فى نسخة ديونسيو[١] العديد من المنمنمات التى اخترعت اختراعاً لهذه النسخة وليس لها أصول سابقة استقيت منها. وإلى هذه الفئة تنتمى مناظر ممارسة الشعائر، حيث نجد قراءة الرابع عشر من سبتمبر وعيد رفع الصليب المقدس، البطريق يقف فى وسط الشمامسة المنشدين فى كنيسة سانت صوفيا ويحرك الصليب فى الاتجاهات الأربعة. وتعتبر نسخة ديونسيو هى أحسن نموذج على سلاسل الإيضاحيات المبنية على روايات الإنجيل. وهذه النسخة أيضاً هى أحسن نموذج على «مختارات» الطقوس المصورة. وهنا أيضاً نتأكد من الحقيقة القائلة بأنه فى مثل هذه المخطوطات الفاخرة يكون التركيز على العمل الفنى أكثر من النص بل وعلى حساب النص.

إلى جانب **كتاب الفصول** هناك كتب طقسية أخرى كانت تدخل عليها عملية التصوير وإن كانت الصور فى مثل تلك الأعمال قليلة عموماً وليست لها قيمة فنية كبيرة تضارع القيمة الفنية العالية فى كتاب الفصول وليس فيها شئ جديد عما صادفناه فى كتاب الفصول بلا تكرار وتقليد لها فهى تدور فى فلك مناظر الإنجيل وصور الأعياد وصور القديسين. ومن الأمثلة على كتب الطقوس المصورة الأخرى والتى تكشف عن تلك الحقائق نسخة من كتاب **الشعائر**[٢] فى مكتبة بطرخانة القدس فى مجلدين (سابا ٦٣ وسابا ٦٨) وترجع إلى القرن الثالث عشر والتى تضم خمس عشرة منمنمة تدور حول الشهداء من الرسل. هذه النسخة

(١) Dionysiu

(٢) Menaion

بأسلوب التصوير فيها تكشف عن ورشة للإنتاج بالجملة لمثل هذه الأعمال، وقد أنتجت عدد كبيراً للغاية من كتاب الأناجيل الأربعة. وربما كان نفس المركز الفنى هذا هو الذى أنتج نسخ **«الخلاص»**[1] و **الأسفار الثمانية**[2] التى تزدان بعدد وافر من الصور. وكتاب **الترانيم**[3] الذى وصلنا منه عدد من النسخ المصورة من نفس أوائل القرن الثالث عشر يشير إلى نفس الحقيقة، وربما كان مركز إنتاج تلك الأعمال المصورة فى فلسطين. وفى بعض الأحيان نصادف كتاب الطقوس على لفافة من رق إلى جانب النسخ التى على شكل كراس، وذلك على نحو ما نجده فى إحدى النسخ الموجودة فى مكتبة البطرخانة فى القدس (استاورو ١٠٩) هذه اللفافة مصورة من هوامشها اليسرى واليمنى وترجع إلى القرن الحادى عشر، وكثير من صورها متصلة بالحروف الأولى فى النص المقابل بالمتن.

وهناك أحد كتب **التسابيح**[4] وصلتنا منه نسختان مصورتان تصويراً فاخراً للغاية، وترجعان إلى القرن الرابع عشر ـ الخامس عشر إحداهما فى مكتبة المتحف التاريخى فى موسكو (مخطوطات يونانية رقم ٣٠٣) والثانية فى مكتبة الاسكوريال (مخطوط رقم T/١/١٩). وتشتمل كل منهما على ٢٤ صورة روائية؛ ومن بينها: البشارة، الزيارة، عيد ميلاد المسيح وهى جميعاً مأخوذة مباشرة من الإنجيل أو من كتاب الفصول. إن صورة سقوط الأصنام مأخوذة من إنجيل المهد، تقليد متى. ولكن كثيراً من الصور فى هذا الكتاب توحى بأنها مخترعة اختراعاً لهذا العمل وليس لها أصول تحدرت عنها؛ مثل صورة العذراء وهى «تضئ كالمصباح فى ظلام الناس»، وقد تمثل المصباح فى شمعة هائلة تحترق.

لقد كان للتراتيل الدينية هذه جاذبية خاصة عند الجموع أدت إلى ضرورة

---

(١) Messina

(٢) Octoechos

(٣) Sticherarion

(٤) Akathistos Hymnos

تصويرها ولدينا من الشواهد مايدل على أن كتاب **التسابيح** سابق الذكر لم يكن كتاب التراتيل الدينية الوحيد الذى جرى زخرفته وتزيينه بالصور والرسوم رغم أنه فى نهاية الحقبة البيزنطية كان أوسع الكتب انتشاراً وكانت الصور الموجودة به لها نفس شعبية وتقديس الأيقونات ولوحات الفريسكو. ويعتقد كورت فايتسمان أن التراتيل التى كتبها الكاتب الأشهر فى تلك الفترة **رومانوس**(١) صدرت فى إصدارات مصورة ويستدل على ذلك بتلك الأيقونة الموجودة فى دير سيناء نجد فيها المسيح ـ على عكس نص الإنجيل ـ يحيى أمه كأول امرأة تنظر إليه بعد البعث والنشور، ويقول بأن النص الذى يعبر عن هذا المنظر لايوجد إلا فى تراتيل رومانوس.

ويبقى علينا الآن أن نناقش بشئ من الاستفاضة أحد الكتب الواسعة الانتشار الواسعة التصوير الذى يمكن أن يصنف فى أكثر من فئة من فئات الكتب التى عرضنا لها من قبل، ذلك الكتاب هو المزامير(٢). والمزامير من جيث النص هى سفر من أسفار العهد القديم، تحول فى وقت من الأوقات مثل الأناجيل إلى واحد من أهم وأخطر كتب الطقوس وذلك بتقسيمه إلى واجبات أو وجبات(٣) على الأيام والشهور، كما أنه ينتهى بسلسلة عظيمة من القصائد الغنائية(٤). وقد انعكست طبيعة هذا الكتاب الثنائية فى النص على طريقة تصويره أيضاً فى أقسامه الرئيسية.

إن إحدى النسخ الثلاث **الديرية** من المزامير كما يحلو للبروفيسور تيكانين(٥) أن يطلق عليها تلك النسخة الموجودة فى المتحف التاريخى فى موسكو (رقم ١٢٩) والمعروفة باسم **مزامير كلودوف**(٦) والتى ترجع إلى القرن التاسع

(١) Romanos

(٢) Psalters (Psalms)

(٣) Kathismata

(٤) Odes.

(٥) Tikkanen

(٦) Chloudoff Psalter

الميلادى. تلك النسخة تعطينا فكرة واضحة عن درجة تعقيد تصوير هذا الكتاب والذى يصل فى مستوى تصويره إلى مستوى أغنى كتب الفصول. كثير من الصور الموجودة فى هوامش هذه النسخة مستقاة فعلاً من نص المزامير وتتوافق معها بل وأكثر من هذا نجد أن اللغة الشعرية فى النص قد شحذت خيال الرسام وألهبته مما انعكس على شاعرية الصور والمناظر نفسها. ففى الآية التى تقول «إن سمهم كسم الأفعى لا يصغى لصوت الغانيات الفاتنات». نجد الرسام يرسم فاتنة على شكل ثعبان. إن هذا الرسم يكاد ينطق بألفاظ الآية نفسها، وهذا الأسلوب التصويرى نجده أيضاً فى الغرب اللاتينى ويمثله كتاب **مزامير أوترخت**(١) الذى استخدم فيه الرسام - أعظم رسامى العصر الكارولنجى - أقصى خيالاته الفنية فى تصوير اللغة المجازية فى المزامير. ولكن فى مزامير كلودوف ومايتصل به من مزامير يونانية بقى استخدام هذا الأسلوب التصويرى فى حده الأدنى، حيث استقى الجانب الأكبر من الصور من مصادر خارجية أهمها الكتاب المقدس.

وفى الآية ١٩ من المزمور ١٠٥ والتى تقول بأنهم «صنعوا عجلاً فى حوريب وعبدوا تمثاله المسبوك هذا» نجد الرسام يصور سلسلة من الأحداث تبدأ بصور موسى وهو يتلقى الوصايا وتستمر بصور نزوله من الجبل وغضبه من الإسرائيليين عندما رآهم يعبدون العجل وكسره للوح على الأرض. ومن الواضح أن الرسام هنا قد رسم أكثر مماهو مسجل فى نص الآية فى المزمور وليس لهذا سوى معنى واحد هو أن الرسام قد استقى صوره من سفر الخروج. وبمعنى آخر فإننا هنا أمام مشكلة تصوير أجزاء من «أسفار موسى الخمسة» وليس أمام تصوير نص محدد من المزامير.

وبمقارنة هذه الصور بما ورد فى «**الأسفار الثمانية**» اليونانية نجد مناظر مختلفة، وهى جميعاً تختلف عن نسخة المتحف التاريخى التى نحن بصددها.

إن المصادر التى استعان بها رسام نسخة المزامير هذه فى استقاء الصور، عديدة من بينها سفر الملوك الغنى جداً بصور الملك داود؛ سفر الأنبياء؛

(١) Utrecht Psalter

الأناجيل؛ أعمال الرسل؛ سير القديسين وغيرها. كذلك نجد صدى هذه المصادر فى صور القصائد الغنائية الملحقة بالمزامير. وهذا يعنى أن النسخة الأصلية قد أعدت فى منسخ غنى بالمخطوطات المصورة. وأن هذا المنسخ ربما كان مركزاً لإعداد المخطوطات الفاخرة المصورة تصويراً فنياً عالياً بل ومعقداً.

ويقدم لنا **تيكانين** إلى جانب «المزامير الديرية» هذه فئة ثانية من المزامير المصورة يطلق عليها اصطلاح «**المزامير الأرستقراطية**» التى وصلنا منها فيما يذكر نحو خمسين نسخة. مما يكشف عن انتشار واسع لتلك الطائفة من المزامير، على الرغم من أن تلك النسخ تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى عدد ونوعية المنمنمات التى تنطوى عليها. وأحسن نسخ هذه الطائفة من المزامير هى تلك الموجودة فى المكتبة الوطنية فى باريس (مخطوطات يونانية رقم ١٣٩) التى أثارت حولها جدلاً كبيراً والتى يرجع تاريخها للقرن العاشر الميلادى. والملمح الصارخ فى هذه النسخة أن الصور الموجودة بها لا تمت لنص المزامير بأية صلة فليس هناك صورة واحدة أعدت خصيصاً لهذا النص فيما عدا صورة العنوان التى نجد فيها داود يقف بين صوفيا وبروفيتيا. المزمور الأول تسبقه مجموعة من الصور الغنية من حياة داود نفسه مصدرها الأصلى سفر الملوك المصور، بينما صور عنوان القصائد الغنائية استقيت من الكتاب المقدس (أسفار موسى الخمسة؛ الملوك، الأنبياء، الأناجيل). ومع كل ذلك فإن سلسلة صور داود تختلف اختلافاً جذرياً عن صوره فى أسفار الملوك الأساسية سواء من حيث الشكل العام للصور أو الأسلوب الذى أخرجت به. ففى عدد من النسخ تبدأ سلسلة صور داود بصورة مولده وهى حادثة لم تذكر حتى فى الكتاب المقدس نفسه. ومن الناحية التصويرية البحتة بنى هذا المنظر على غرار ميلاد يوحنا المعمدان؛ أو ميلاد العذراء مريم، وأضيف إلى مجموعة صور داود داخل السياق العام حتى تكتمل حلقات حياة داود على نحو ما تكتمل سير القديسين والتى تبدأ عادة بصورة الميلاد.

ومن الناحية الفنية البحتة فإن استخدام نسخ مصورة من أسفار الملوك قد أدى بالتدريج إلى تحويل الصور من منمنمات على هيئة شريط ينبث بين ثنايا النص

إلى صور تملأ الصفحة بأكملها. وهذه العملية توازى أيضاً تحول منمنمات الأشرطة فى **الإنجيل** إلى صور الصفحة الكاملة فى **كتاب الفصول**. وكانت نتيجة هذا التحول فى كتاب الفصول بالذات أعظم وأحسن لأن صور الأعياد التى تملأ هذا الكتاب تحولت بدورها من صور فى نص إلى أيقونات تمثل تراثاً يعتد به؛ بينما هذا التحول فى المزامير يبدو شيئاً مصطنعاً. ففى منمنمة الحرب بين داود وجوليان المرسومة على مرحلتين فى سفر الملوك نجدها مشطورة إلى شريطين، ولكنها هنا قد ألغت الخط الفاصل بين الشريطين وبدت كصورة واحدة وفى نفس الوقت أعيد ترتيب العناصر المختلفة لتبدو فى ثوب جديد: فالجنود المترقبون المتحفزون فى منظر **الحرب** تم تحريكهم إلى أسفل ضمن منظر **ضرب العنق** حتى تتاح للرسام الفرصة لكى يضيف إلى الجزء العلوى شخص كل من **ديناميس** و **ألازونيا** والتى لاتوجد فى كتاب الملوك. إن نسخة باريس من المزامير هى نسخة فاخرة بكل المقاييس تعلو فيها القضايا الفنية ـ كما هو الحال فى لفافة جوشوا سابقة الذكر ـ على قضايا النص. فالمناظر الروائية هنا ترتفع إلى مستوى الأيقونات ولكن دون الصبغة التراثية. وبينما تعتبر نسخة باريس من المزامير منتجاً من منتجات المناسخ الامبراطورية فإن جل النسخ فى هذه الفئة من المزامير وجهت لطبقات ومستويات مختلفة من الزبائن: من المستوى الأرستقراطى وحتى المستوى شديد التواضع؛ مما يحمل معه الشاهد على سعة انتشار المزامير.

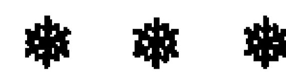
١١ـ كتب متفرقة[(١)]

هناك بعض الكتب الأخرى التى حفلت بعمليات تصوير فنية عالية وتخرج عن نطاق الفئات سابقة الذكر، ونأتى هنا على ذكر بعض منها مما يدخل فى باب العلامات البارزة فى عمليات التصوير والإيضاحيات فى الكتاب البيزنطى. من بين تلك الكتب كتاب **الطبوغرافيا المسيحية** الذى ألفه كوزماس إنديكوبلستيس[(٢)] الذى يوجد منه نسخة فاخرة فى مكتبة الفاتيكان (مخطوطات يونانية رقم ٦٩٩)

(١) Varia

(٢) Cosmas Indicopleustes

وترجع إلى القرن التاسع. وتوجد منه نسختان من القرن الحادى عشر، إحداهما فى جبل سيناء (برقم ١١٨٦) والثانى فى مكتبة لورنيتان فى فلورنسا. وكلا النسختين مليئتان بالمنمنمات التى يصل بعضها إلى مستوى الأيقونات. وثمة نسخة رابعة على غرار نسختى القرن الحادى عشر وكانت موجودة فى إسميرنا[١] ولكن النيران أتت عليها، هذه النسخة الرابعة تختلف فى صورها عن سائر النسخ الأخرى. ورغم أن طبوغرافيا كوزماس يقع فى مجال الجغرافيا إلا أنه فى الواقع ليس كتاباً علمياً بالمعنى الدقيق على نحو ما نجده فى كتاب كلوديوس بطليموس[٢] الذى ازدان بخرائط لجميع أنحاء الأرض المعروفة آنذاك. لقد حاول كوزماس أن يشرح العالم والكون على ضوء ما جاء فى الكتاب المقدس الذى استخلص منه أنواعاً مهجنة من الصور. ومن ناحية نصادف فيه خرائط، رسومات مبانى، وتخطيطات للعلوم مستقاة من البحوث الكلاسيكية. ومن ناحية ثانية هناك منمنمات توضح النصوص المقدسة. ويمكن القول بأن مناظر التكوين مثل تلك التى تصور «تضحيات اسحق» قد أخذت من الأسفار الثمانية. وفى صور أخرى مثل صورة تنصر بول الذى صور ليس أقل من خمس مرات نشعر بأن الصور استقيت من أعمال الرسل. ومهما يكن من أمر فإن الصور المأخوذة من الأسفار الثمانية وأعمال الرسل تؤكد جميعها على أن الصور فى كتاب كوزماس كانت فى مرحلة بدائية عما كانت عليه الصور فى الكتاب المقدس. والرسام نادراً ما يدخل تعديلات على الصور التى يدرجها فى نص كوزماس حتى تلائم هذا النص؛ فيما يذكر كورت فايتسمان.



إن نظرة فوقية طائرة على تصوير الكتاب البيزنطى تكشف عن أن كتب **اللاهوت** كانت تنفر بطبيعة نصوصها المجردة من أن تكون محلاً للتصوير. ولكن

---

(١) Smyrna

(٢) Claudius Ptolemy

مع كل ذلك فإننا من حين لآخر نصادف بعض كتب اللاهوت مزدانة بصور قليلة وخاصة فى حالة النسخ المهداة للأباطرة. ففى مجلد موجود فى المكتبة الأهلية بباريس (برقم ١٢٤٢ مخطوطات يونانية) مؤرخ ١٣٧٠-١٣٧٥م، ويتضمن كتابات لاهوتية للامبراطور جون السادس كانتاكوزينوس[١]، نصادف بالإضافة إلى الصور الشخصية والتى لاتعنينا كثيراً، صفحة كاملة لمنمنمة مسخ الكائنات[٢] المأخوذة من طقوس الإنجيل. إن هذا النص الامبراطورى الذى يشرح ويحلل ويبسط الكتابات الروحية الرمزية التى وضعها جريجورجيوس بالالماس[٣]؛ دفع الرسام إلى أن يفصل تفصيلاً كبيراً فى صورة المسيح والضوء العام الذى ليس له مصدر محسوس. وثمة منظر آخر لاجتماع مجلس الكنائس العالمى الذى ترأسه الامبراطور سنة ١٣٥١م، وهو منظر تقليدى مأخوذ من صور المجالس الباكرة، كانت فى يوم من الأيام تمثل منمنمة العنوان فى مجموعات أعمال المجالس. إننا نصادف منمنمة المجلس الكنائسى العالمى الثانى الذى انعقد سنة ٣٨١م فى مخطوطة جريجورى فى باريس والمؤرخة بسنة ٥١٠م. إن من الضرورى أن نعرف أن الرسامين فى كلتا الحالتين ـ كتابات كانتاكوزينوس وأعمال المجلس الكنائسى ـ حاولوا تصوير نصيهما تصويراً فاخراً فخماً ولكنهم قصروا عملهم على قليل من منمنمات العنوان فقط. ونفس هذا الوضع نصادفه فى الكتاب الذى كتبه الراهب يوثيميوس زيجابينوس[٤] بتكليف وإيعاز من ألكسيوس الأول كومنينوس[٥]. وقد وصلتنا من هذا العمل نسختان امبراطوريتان فاخرتان من القرن الثانى عشر، إحداهما موجودة اليوم فى مكتبة الفاتيكان (مخطوطات يونانية برقم ٦٦٦) والأخرى موجودة فى المتحف التاريخى بموسكو (مخوطات يونانية رقم ٢٢٤) وتكادان تتطابقان فى الصور الموجودة بهما. ومن بين الصور

---

(١) John VI Cantacuzenus

(٢) Metamorphosis

(٣) Gregorios Palamas

(٤) Euthymios Zigabenos/ Panoplia Dogmatica

(٥) Alexio I Comnenos

التى وردت بهما زوجان من المنمنمات المواجهة تصوران مجموعة من آباء الكنيسة تتجه نحو الامبراطور، وثمة منمنمة ثالثة تصور الامبراطور أمام المسيح متوجاً. وما يهمنا هنا أن نعرفه فعلاً من صور هاتين النسختين وكذلك من مخطوطة كانتاكوزينوس أن الرسام عندما كان يتجاوز الصور الشخصية ويذهب فيما وراءها فإنه كان يستعير مناظره من كتب مصورة سابقة من فئات أخرى وعلى رأسها كتاب الفصول.

وبينما كان لكتب اللاهوت بعض العذر فى إدراج صور الأعياد، فإن الكتابات الفلسفية البحتة لاتعطى مثل هذه الفرصة لإدراج الصور، ولا نعتقد على سبيل المثال أن كتابات فيلسوف مثل ميخائيل بسيلوس(١) كان يمكن أن تصور بخلاف صور شخصية للمؤلف.

أما كتب البلاغة فإنها كفئة يمكن أن تتيح الفرصة للرسامين أن يصوروها. ولقد سبق أن ذكرنا أن «عظات» جريجورى من نازيانزوس قد حظيت بمجموعة من المنمنمات الجيدة. وقد قام أحد بلغاء أنطاكية بشرح وتفسير هذه العظات ببلاغة عظيمة، مما جعل هذا الشرح أيضاً محلاً للتصوير المستمد من الأصل المشروح. وهناك كتاب بلاغة آخر يعرف باسم (مرآة الأمراء) ربما يكون مؤلفه هو أجابيتوس(٢) فى عهد جوستنيان، هذا الكتاب كان مصوراً وقد أصبح مصدراً لتصوير بعض الأعمال اللاحقة مثل القصة التى أشرنا إليها من قبل، وهى قصة بارلام وجوزاف.

من جهة ثانية فإن كتب قواعد اللغة (النحو) كانت تنطوى على نصوص جافة مجردة تنفر بطبيعتها من أن تكون محلاً للتصوير البصرى. ويمكن أن ينسحب ذلك أيضاً على كتب اللغة بعامة وعلى رأسها القواميس اللغوية. والمثال هنا من

---

(١) Michael Psellos

(٢) Agapetos

العمل اللغوى البيزنطى الشهير الذى وضعه سويداس(١) فى وقت ذروة النهضة المقدونية. هذا العمل لا يقتصر فيه المؤلف على شرح الاشتقاقات اللغوية للمفردات بل يدرج مقالات مطولة من علوم مختلفة، ومن بينها الأساطير على نحو ما نصادفه فى الموسوعات الكلاسيكية مثل موسوعة أبوللودوروس(٢). لم يصلنا من موسوعة سويداس اللغوية حتى الآن أية نسخة مصورة. ولكن كورت فايتسمان يفترض افتراضاً احتمال تصوير هذه الموسوعة اللغوية قياساً على موسوعة أبوللو دوروس الكلاسيكية ولكن ذلك الغرض لم يقم عليه دليل حتى الآن.

هناك طائفة أخرى من الأعمال التى كان يمكن أن تصدر منها إصدارات فاخرة فخمة ويحتمل مجرد احتمال أن تدخل إليها بعض التصاوير ألا وهى كتب القانون والتشريعات. يقول كورت فايتسمان فى هذا الصدد أنه طالما كان الأباطرة البيزنطيون هم الذين يتحكمون فى **مجموعات القوانين**(٣) وما يتصل بها من نصوص تشريعية فإنه كان من الطبيعى أن تهدى لهم نسخ فاخرة من الأعمال القانونية الرئيسية الثلاثة(٤)، وأن هذه الأعمال من المحتمل أن تكون مزخرفة ومصورة. ويتساءل فايتسمان هل كانت تلك الصور تتجاوز المنمنمات التى تصور الامبراطور. إن تنفيذ الأحكام وتوقيع العقاب على الذين يقعون تحت طائلة القانون كان يمكن أن يكون أيضاً محلاً للتصوير ولكن لم يصلنا حتى الآن شاهد حى على ذلك.

إننا يمكن أن نستمر هكذا إلى مالانهاية فى تتبع فئات الإنتاج الفكرى التى يمكن أن تكون محلاً للتصوير والإيضاحيات ولكن لأننا يجب أن نضع حداً لهذا التتبع فإن خلاصة القول بأن الرسام البيزنطى لم يدع فرصة فى الأعمال الفكرية الشهيرة واسعة الانتشار إلا واغتنمها وأدرج فيها سلسلة متلاحقة من الصور. وفى حالة النصوص المجردة التى لاتقدم شيئاً روائياً وقف الرسام عاجزاً مشلول الحركة لايقدم سوى القليل النادر من الصور أو لا يقدم شيئاً على الإطلاق.



(١) Suidas

(٢) Appolodorus/ Bibliotheke

(٣) Corpus Iuris

(٤) Novellae, Ecloga, Basilica



لفافة جوشوا



أسطورة ابجاروس



انجيل تقليد متي









الانجيل العربي



المزامير اليونانية

المزامير اليونانية

الفصل الرابع

المكتبات البيزنطية فى العصور الوسطى

يمتد التاريخ البيزنطى فى الزمان لأكثر من أحد عشر قرناً وحيث يبدأ بتأسيس القسطنطينية سنة ٣٣٠م وينتهى بسقوط المدينة فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة١٤٥٣م. ويمكن لأغراض هذه الدراسة أن نقسم هذه الفترة الطويلة إلى ثلاث فترات محددة **الفترة الأولى** لمدة ثلاثة قرون الأولى من التاريخ البيزنطى وتمثل إحياء الروح اليونانية الرومانية القديمة **والفترة الثانية** وتشغل القرنين التاليين وحتى سنة ٨٥٠م وكانت فترة انتقال وفوضى واضطراب **والفترة الثالثة** وتشغل نصف الألفية الأخير من عمر الدولة البيزنطية وتمثل فترة انتعاش ونهضة إلى حد ما وإن لم تكن كالنهضة الإيطالية.

والحقيقة أن دراسة الحياة الفكرية والثقافية وأعمدتها الكتب والمكتبات محفوفة بكثير من الصعاب لأن كثيراً من المخطوطات قد دمر وما بقى منه لا نعرف عنه إلا القليل من المعلومات. كذلك فإن المكتبات البيزنطية ـ رغم وصول عدد من فهارسها إلينا إلا أن هذه الفهارس لا تتضمن إلا بيانات عن الكتب الدينية والتعليمية وآباء الكنيسة ـ فإن معلوماتنا عنها قليلة.

ورغم أن من يتصدى لتاريخ المكتبات ليس عليه أن يقيم محتويات الكتب إلا أننا فى حالة المكتبات البيزنطية نجد أن الكتب التى كانت فى المكتبات البيزنطية القديمة كانت فى غالبيتها كتباً دينية. وكنت أعتقد أن مرد ذلك إلى أن المسلمين أخذوا من المكتبات البيزنطية الكتب الفلسفية والعلمية والطبية وتركوا لهم الكتب الدينية التى لا يفيد منها المسلمون شيئاً ولم تكن لهم بها حاجة ومن ثم لم يصلنا من المكتبات البيزنطية سوى الكتب الدينية على النحو الذى تمثلها فهارسها المنشورة اليوم. إلا أن مؤرخاً إنجليزياً شهيراً هو ج ب بيرى فى كتابه «تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية» يقول بالحرف الواحد فى صفحة ٤٤٨ من كتابه:

«إنه لمن المعروف عن العالم البيزنطى الذى أفرز لنا كثيراً من الرجال من ذوى العلم الواسع المتنوع ومن ذوى الذكاء العالى من أمثال **فوتيوس؛ سيللوس؛**

يوستاثيوس[1]. . . لم ينجب عبقرياً مبتكراً واحداً. والعلم الذى نشر فى هذا العالم ليس فيه أى كشف أو ابتكار وفلسفته ليس فيها أى جديد أو تفسير للكون، وجيل بعد جيل تتحرك أقلام لا حصر لها وبحيرات من الحبر تستهلك وليس هناك عمل فكرى واحد يحتل مكاناً بارزاً يذكر به بين كتب العالم. ويعتبر الإنتاج الفكرى البيزنطى بين فكر العالم شيئاً ميتاً. إن العالم البيزنطى لم يخلف لنا كتاباً خالداً واحداً يعلم أو يبهج الخلف».

والحقيقة أن قيمة الثقافة البيزنطية لا تكمن فى إضافتها إلى المعرفة البشرية بقدر ما تكمن فى أنها حفظت لنا بعض الإنتاج الفكرى الإغريقى وأيضا الرومانى. وربما بدون الإيمان والعمل الدؤوب من جانب النساخين البيزنطيين كنا فقدنا كثيراً من الكلاسيكيات اليونانية الرومانية. ومن هنا يصبح التعرف على المكتبات البيزنطية أمراً ذا بال. ولابد أيضا من التنويه هنا إلى أنه بينما كانت أوروبا تمر بما يعرف بالعصور المظلمة فقد كان فى بيزنطة حضارة مزدهرة تقوم على مكتبات ومدارس وقصور وحدائق وكانت العلوم الكلاسيكية تدرس فيها.

لقد آذنت مكتبة ديوقليد فى قصره فى بيقوميديا بوجود المكتبة الامبراطورية فى القسطنطينية فقبل سنة ٣٠٣م عندما بدأ ديوقليد اضطهاد المسيحيين كتب الأسقف **ثيوناس**[2] أسقف الإسكندرية (٢٨٢ ـ ٣٠٠) خطاباً مطولاً إلى **لوكيانوس**[3] رئيس الديوان الامبراطورى يحدد فيه مهام منصبه ويخصص فقرة كاملة لإدارة المكتبة: «إن عليه أن يعرف كل الكتب التى فى حوزة الامبراطور، وعليه حتى أن يقلبها جميعاً ويعيد ترتيبها بنظام الفهرس الموجود. وإن كان عليه مع ذلك أن يقتنى كتباً جديدة أو ينسخ كتباً قديمة فإن عليه أن يستخدم أدق النساخين وإن لم يمكنه ذلك فلابد له من تعيين رجال متعلمين لتصحيح ما ينسخون، وعليه بعد ذلك أن يكافئهم عن عملهم خير مكافأة ولابد له من أن

(١) Photius, Psellos , Eustathios

(٢) Theonas

(٣) Lucianus

يرتب ترقيم كل المخطوطات حسب حالتها. كما أن عليه أن يزخرف المخطوطات وألا يبالغ فى تلك الزخارف بل مجرد الزخارف النافعة المفيدة. ومن هنا ليس من الضرورى أن تكتب كل المخطوطات على جلود قرمزية وبحروف من ذهب، إلا إذا أمر الامبراطور بذلك ويجب أن يبذل قصارى جهده في أن ينفذ كل ما يطلبه القيصر. وكلما استطاع يجب عليه بكل التواضع أن يقترح على الامبراطور أن يقرأ أو أن يقرأ له تلك الكتب التى تناسب مقامه ومكانته، وتصلح للفائدة الحقيقية والنفع العام أكثر منها للمتعة والتسلية وهو نفسه أمين المكتبة يجب أن يكون على ألفة وثيقة بتلك الكتب وأن يتحدث عنها بثقة فى حضرة الامبراطور، وأن يبرز أمامه بطريقة مناسبة شهادة وتقدير الثقاة لهذه الكتب حتى لا يعتمد الامبراطور على رأيه الشخصى وحده فى هذه الكتب».

وعندما نقل قسطنطين عاصمته إلى البسفور قام هو وربما ابنه **قنسطانتيوس**[١] ببناء مكتبة وضعت فى الرواق المعمد بالقصر، اشتملت فى البداية على سبعة آلاف مجلد جلها عبارة عن كتب مسيحية. ومن هنا يمكن القول أنه كان هناك إحياء وبعث للكتب الكلاسيكية في الشرق أكثر منه فى الغرب. ولم تبد «روما الجديدة» تلك اللامبالاة التى ظهرت جلية فى الغرب بالمكتبات، والتى شكا منها مر الشكوى **إميانوس مارسيللينوس**.[٢] وكان قسطنطين مهتماً بأن يجمع فى مكتبته الكتب اللاتينية أكثر من الكتب اليونانية، وخاصة كتب التاريخ والقانون. وكانت اللاتينية ـ ولابد أن نتذكر ذلك مراراً ـ هى اللغة الرسمية للامبراطورية الشرقية حتى القرن السادس.

لقد ازدهرت المكتبة فى القسطنطينية ازدهاراً كبيراً فى ظل الامبراطور **جوليان**[٣] الذى جمع الكتب ـ مسيحية ووثنية على السواء ـ بإصرار ودأب. وفى سنة ٣٧٢م قام الامبراطور **فالينز**[٤] بتعيين أربعة ناسخين إغريق وثلاثة ناسخين لاتين لنسخ المخطوطات وترميمى التالف منها. وقد دأب الأباطرة البيزنطيون على

(١) Constantius

(٢) Ammianus Marcellinus

(٣) Julian

(٤) Valens

إهداء المخطوطات المزخرفة الفاخرة للكنائس وأمراء الدول الأجنبية. وقد أمر قسطنطين نفسه بأن تنسخ للكنيسة الجديدة فى القسطنطينية خمسون مخطوطة من الكتابات المقدسة والتى تعتبر من الأساسيات فى أية كنيسة بيد أمهر الخطاطين وعلى رق فاخر سهل الحمل ومتين. ولم تعين الحكومة فى المكتبة سوى أمهر النساخ وأحسن **الخزنة**[1] وكانت تدفع لهم أجورهم من الخزانة العامة للدولة ولم يأت القرن السادس إلا وكانت المكتبة الامبراطورية قد بلغت مجموعاتها ١٢٠,٠٠٠ مجلد وكانت بذلك وبكل تأكيد أكبر مكتبة فى كل أوروبا. ولكن هذه المكتبة العظيمة للأسف احترقت عن آخرها أثناء ثورة **بازلاكيوس**[2] (٤٧٧م) وكما يقول س. ك. بادوفر من الواضح «أن النيران التهمت كل المائة والعشرين ألفاً من الكتب بما فى ذلك النسخة من كتاب هوميروس المكتوبة بحروف من ذهب على لفافة من جلد الثعبان طولها ١٢ قدماً» ولكن ربما كانت هناك فى القسطنطينية كتب أخرى مبعثرة هنا وهناك، جمعت لإعادة إنشاء المكتبة حيث قام الامبراطور **زينو**[3] بإعادة تأسيسها وتزويدها بالكتب ويقال أنها استأنفت نشاطها مرة أخرى بهمة ونشاط. وهناك رواية غير مؤكدة وغير موثقة بأن **ليو الإسورى**[4] قد أحرق المكتبة فى القرن الثامن. ويرى بادوفر أن هذه القصة ربما تكون غير معقولة لأنها لم تذكر فى أى مصدر معاصر ولكن فقط ذكرت سنة ١٢٧٦م.

ومن المؤكد أنه كانت هناك خسارة كتب فادحة فى القرن الخامس الميلادى فى المدن الآسيوية ـ السوريانية التى دمرت بفعل الزلازل الواقعة آنذاك. كما كانت الحرائق أيضاً عدواً دائماً للمخطوطات وخاصة فى مدينة القسطنطينية التى كانت الجماهير الثائرة فيها والغاضبة عادة تعمد إلى عمل سياسى مباشر بإحراق ما تصادفه. ومن حسن الحظ أن مجموعات الكتب لم تكن تقتصر على العاصمة

(١) Antiquarii
(٢) Basilacius
(٣) Zeno
(٤) Leo the Isaurian

وحدها. فهذا هو **جون ستوبى**[1] فى مدوينا يشير إلى أنه فى القرن الخامس كان يستخدم مكتبته الخاصة التى كان فيها كتب علمانية إغريقية أو كان يستخدم المكتبة العامة فى المقاطعة. لقد كان فى القسطنطينية فى تلك الفترة جامعة وكان فيها بالضرورة مكتبة حيث كان فى هذه الجامعة خمسة عشر أستاذاً إغريقياً وثلاثة عشر أستاذاً لاتينياً. كما كان الامبراطور **ثيودوسيوس الثانى** (٤٠٨ ـ ٤٥٠)[2] نفسه باحثاً عظيماً وجامعاً للكتب. وكان يسيطر على اللغتين اليونانية واللاتينية وكان ينسخ الكتب بنفسه ويزخرفها ويعمل حتى ساعة متأخرة من الليل على ضوء لمبة اخترعها بنفسه.

وفى القسطنطينية العاصمة نفسها ـ على الأقل فى القرن السادس ـ لم يكن هناك سوى عدد محدود من المكتبات الخاصة؛ ولكن كان هناك عدد من جماعى الكتب الذين يسعون إلى جمع المخطوطات الفاخرة ذات الجلود الأنيقة المزخرفة والخط الرائع. بصرف النظر عن محتويات تلك المخطوطات فإنها كانت مزخرفة بإفراط مكتوبة على جلد قرمزى بالذهب والفضة وكانت جلودها موشاة بصفائح المعادن الثمينة والعاج. هذه الذخائر كانت تحفظ عادة فى خزائن مغلقة وتفتح فقط للضيوف والزائرين لإظهار ثراء ومكانة أصحابها واستثناء من قاعدة الغلق هذه كانت مكتبة البطريركية فى قصر البطريق بالقرب من سانت صوفيا. وقد وصلنا من القرن السابع معلومات عن وجود مكتبة خاصة واحدة على الأقل فى القسطنطينية ذلك أنه حوالى سنة ٦٢٠م قام **أنانياس من شيراك** (٦٠٠ ـ ٦٥٠م)[3] بمغادرة أرمينيا للدراسة فى عاصمة بيزنطة على يد معلم اسمه **تايكيكوس**[4] ويقول أنانياس فى هذا الصدد:

«وقد عشت معه ثمان سنوات وقرأت عليه وتعلمت كتباً كثيرة لم تكن مترجمة

(١) John of Stobi

(٢) Theodosius II

(٣) Ananias of Shirak

(٤) Thychicus

إلى لغتنا، لأنه كانت عنده مكتبة عظيمة فيها كتب سرية وأخرى علنية، دينية وعلمانية؛ علمية وتاريخية، طبية وحوليات. وأنا لا استطيع أن أسردها وأحصيها جميعاً فلم يكن لها كتاب جامع (فهرس) وعندما كان يترجم أمامى فإنه كان ينطلق كما لو كان يأتى الروح القدس».

يقول بادوفر إنه بالنسبة لقروى ساذج بسيط مثل أنانياس فإن خمسين أو مائة مجلد تعتبر مكتبة كبيرة ويجب ألا تؤخذ كلمة ضخمة التى استخدمها في وصف تلك المجموعة بحرفيتها.

وعند احتلال الفرس للإسكندرية سنة ٦١٧م، ومع تدمير المكتبات التى كانت موجودة هناك فإن بعضها لابد وأن يكون قد نجا من ذلك التدمير. ومن حسن الحظ أن ينجو دير **إيناتون**(١) من هذا الخراب بحكم كونه بعيداً عن المدينة. لقد اختفت المكتبات العامة من مدينة الإسكندرية قبل ذلك التاريخ بكثير ولكن كان هناك على الدوام بعض المكتبات الخاصة وكثير من مكتبات الأديرة فى مصر، رغم أن مكتبات الأديرة المصرية كانت كتبها دينية ولاهوتية. والحقيقة أنه لم تصلنا معلومات ذات بال عن المكتبات الخاصة فى الإسكندرية، اللهم إلا تلك المعلومات التى قصها علينا بطريقة عرضية **جون موخوس**(٢) . لقد كان موخوس سوريا استقر فى مصر فى نهاية القرن السادس مع تلميذه وصديقه **سوفرنيوس**(٣) وقد قضى الاثنان وقتاً طويلاً فى أديرة **طيبة**(٤) . وبعد ذلك ترهب سوفرنيوس. وكان لهذين الصديقين صديق مشترك اسمه **كوزماس**(٥) الطالب «الذى كانت عنده أحسن مكتبة خاصة فى كل الإسكندرية وكان يعير كتبه بلا قيود لكل القراء».

---

(١) Ennaton

(٢) John Moschus

(٣) Sophronius

(٤) Thebaid

(٥) Cosmas

وطبقا لما ذكره **زخارياس من ميتلين فى الحوليات السورية**[1] أن الإسكندرية كانت ماتزال فى ذلك الوقت مركزاً هاماً لتجارة الكتب. كما كان فن زخرفة المخطوطات يمارس على نطاق واسع وعلى درجة كبيرة من الإتقان.

هذا هو كل ما وصلنا عن المكتبات البيزنطية فى الفترة الأولى من التاريخ البيزنطى وننتقل بعد ذلك إلى الفترة الثانية «المظلمة» من التاريخ البيزنطى والتى تشمل أيضاً قرن الأباطرة الإيقونيين. ففى سنة٧٢٧م أصدر **ليو الإسورى** سالف الذكر قراراً بمنع الأيقونات (الصور والتماثيل الشخصية) وبدأ وقت تحطيمها والذى استمر حتى سنة ٨٤٣. ولم يكن ليو نفسه راغباً فى العلم أو مهتماً بالكتب والمكتبات. وقد أغلق الكلية الامبراطورية أو الأكاديمية التى كان أساتذتها جميعاً علمانيين وليسوا كنسيين والذين تم اختيارهم من بين «الصفوة الراقية فى الامبراطورية». وكانت مكتبة هذه الكلية فيما يذكر تضم نحو ٣٦,٠٠٠ مجلد «ست وثلاثين ألف مجلد». وقد أكد المؤرخ **زوناراس**[2] على قصة أن ليو الغاضب بسبب عجزه عن الحصول على تأييد أساتذة الأكاديمية فى حملته على الأيقونات قام بإحراق مبنى الأكاديمية والمكتبة بل وإحراق الأساتذة الاثنى عشر المعاندين. ومن مؤيدى هذه الرواية المؤرخ الشهير جيبون ولكن بادوفر يدحض هذه الرواية كلية ويقول بأنها محض اختلاق وافتراء من جانب مناهضى تحطيم الإيقونات، وأعداء الامبراطور ليو.

وقد يكون من المناسب فى هذا المقام أن نذكر شيئاً عن **تيودور من استوديوم**[3] الذى اشتهر بأنه مصلح ديرى عظيم ومجادل لاهوتى عنيف. وكان قد تلقى قسطاً كبيراً من العلم فى القسطنطينية حيث كانت الكتب والمصادر متاحة على الدوام. وهو مثل عمه الأب **بلاتو**[4] كرس وقتاً كبيراً لنسخ الكتب وكان محباً لها.

---

(١) Zacharias of Mitylene / Syria Chronicle

(٢) Zonaras

(٣) Theodore of Studium

(٤) Plato

وقد وضع تيودور تعليمات صارمة لتنظيم عملية نسخ الكتب فى ديره فى ستوديوم كان لها تأثيرها على الأديرة الأخرى وخاصة أديرة جبل آثوس(١). وبعض العقوبات التى وضعها للنسخ الردىء والمشوه تثير الدهشة. فالراهب الذى يفشل فى الحفاظ على الأصل الذى ينسخ منه والنسخة التى ينسخها نظيفين؛ أو يفشل فى وضع علامات الوقف والترقيم أو يفشل فى المحافظة على استواء السطور والمسافات بينها، والمسافات بين الكلمات، كان يعاقب بالسجود مائة وثلاثين سجدة. ولو أن الراهب حاد عن الأصل الذى ينسخه فإن العقوبة تكون بالإبعاد عن الدير ثلاثة أيام ولو أنه قرأ النص ـ أثناء الإملاء على الآخرين ـ فإنه يعاقب بالعيش على الخبز والماء وحدهما ثلاثة أيام. ولو أنه كسر قلمه فى نوبة غضب أو وقاحة فإن العقوبة هنا تكون ثلاثين سجدة. ولم تكن توجهات تيودور نحو العلم والبحث فى الكلاسيكيات الإغريقية تختلف عما كانت عليه توجهات البندكتين فى الأديرة الغربية فى القرن السابع عشر.

لم تتسبب حركة تحطيم الأيقونات فى القرن التاسع فى تدمير الإنتاج الفكرى كما حدث فى الفترة التالية، ذلك أن ليو الأرمينى(٢) الذى أصبح أمبراطور سنة ٨١٣م كان يفضل الدعاية والإعلام أكثر من العنف فى قضية الأيقونات فطلب من عدد من العلماء أن يبحثوا فى المكتبات عن أدلة عقلية ضد عبادة الأصنام (الأيقونات) ولذلك أعقب هذا الأمر فترة من النشاط العقلى والفكرى المحمود الذى اعتمد إلى حد كبير على جهود قيصر باردانس(٣) (المتوفى سنة ٨٦٦م) الذى رمم جامعة القسطنطينية ولم شعثها. وكان هذا الرجل عالماً فى القانون والرياضيات والفلسفة وملماً بالآداب والعلوم وكان يراسل عالم الرياضيات ليو الذى كانت له حظوة كبيرة فى بلاط الخليفة المأمون فى بغداد والذى دعاه لزيارته فى بغداد. وكان بارداس محاطاً بدائرة من رجال العلم ومحط رجالهم. وإلى

(١) Mount Athos

(٢) Leo the Armenian

(٣) Caesar Bardas

جانب **ليو** (الذى أصبح بعد ذلك كبير أساقفة تيسالونيكا) كان هناك البطريرك **فوتيوس**، والرسول السلافى **كيريلوس**(١) الذى أصبح فى نهاية حياته مدير مكتبة البطريزكية فى سانت صوفيا. هؤلاء الرجال علموا الكلاسيكيات ووسعوا دائرة التعريف بها وأصبحوا مصدر الإلهام فى الثقافة البيزنطية.

وفى سنة ٨٦٧م جاءت إلى حكم بيزنطة أسرة جديدة بدأت بالامبراطور **بازل الأول** (٨٦٧ ـ ٨٨٦م)(٢)واستمرت فى الحكم عملياً حتى القرن العاشر. وكان معظم أمراء هذه الأسرة من رعاة العلم والعلماء. وقد أصبح المناخ مهيئاً لإحياء العلوم ولذلك فإن بازل عندما اعتلى العرش استمر فى هذا التقليد العلمى الذى بدأه أسلافه وهو نفسه لم يكن متعلماً أو دارساً، إلا أنه كان يقدر العلم والعلماء. ولقد عاش فوتيوس داخل القصر معلما الأطفال البلاط وصبغ على البلاط الصبغة الفكرية والمناخ العلمى. ولابد من التأكيد هنا على أن عملية التعليم برمتها كانت لاهوتية بحتة. ولم يكن الفكر العلمانى يستخدم إلا فى حالة الجدل الدينى. ورغم هذا الهدف الضيق إلا أن عملية جمع الكتب العلمانية والكلاسيكية قد سارت قدماً بسببه، وخاصة فى المكتبات الخاصة والديرية على السواء، تلك المكتبات التى أنشئت بكثرة على جبل **آثوس** وجزر **باتموس ولسبوس**(٣). وليس ثمة شك فى أن فوتيوس كان أعظم علماء القرن التاسع الذى كان كتابه «المكتبة»(٤) أعظم إضافة إلى علم الببليوجرافيا فى العصور الوسطى. وكان منزله مزيجاً من الصالون وقاعة المطالعة فى آن واحد. هنا كان يجتمع الباحثون والدارسون المهتمون بالفكر من كل نوع وثنى ومسيحى، لاهوتى وعلمانى. وكان فوتيوس قارئاً نهماً كما كان ناقداً أدبياً فذاً؛ على الرغم من أن ببليوجرافيته لم تتضمن أعمال الشعراء وإنما اقتصرت فقط على الأدب النثرى .

---

(١) Thessalouica , Photius , Kyrillos

(٢) Basil I

(٣) Patmos , Lesbos

(٤) Myrobiblion or Bibliotheca

وقصة ببليوجرافية فوتيوس قصة طريفة تستحق أن تروى فقد ارسل فوتيوس في بعثة دبلوماسية إلى الشرق. وهناك تلقى خطاباً من أخيه **تاراسيوس**(١) يطلب فيه منه إمداده بنبذات عن الكتب التى تدرس هناك. وبدأ فوتيوس فى إعداد عمله ربما من المكان الذى كان فيه آنذاك وهو **سامراء**(٢) وقد كتب إلى أخيه من هناك الرسالة الآتية التى تعتبر وثيقة حية:

«بعد تعييننا سفيراً فى بلا **الشام**(٣)، واعتماد هذا التعيين من قبل السفارة وموافقة الامبراطور طلبت منى أن أمدك بملخصات تلك الكتب التى تقرأ وتناقش هناك خلال غيابك وقصدك من وراء ذلك أن تجد شيئاً يعزيك ويواسيك عن فراقنا الأليم، وفى نفس الوقت تحصل على بعض المعرفة حتى لو كانت غامضة ومبتورة من أعمال لم تقرأها ونحن معاً وعددها فيما أعتقد كان بالضبط ٢٧٩ عملاً وطبقاً لذلك ووفاء واستجابة لطلبك وكعهد مقدس؛ كلفنا سكرتيراً وحددنا كل الملخصات التى يجب جمعها. وليس هناك شك فى أننا لم نكن مجتهدين بما فيه الكفاية في تلبية رغبتك المحمومة وشوقك الذى لا حد له نحو الكتب ولكننا كنا أسرع مما توقعنا فى تلبية طلبك. وسوف ترتب تلك الملخصات بطريقة تستطيع ذاكرتنا استرجاعها، ولن تكون بكل تأكيد طريقة صعبة ـ إذا فضلت ذلك ـ أن نصف الأحداث التاريخية؛ والمادة الموضوعية المختلفة كل منها تحت رأس مستقل. ولكن إذا لم ترق لك هذه الطريقة واعتبرتها غير مفيدة فإننا يمكن أن نسجلها بدون تمييز اعتباطاً وكيفما اتفق بالنسبة لنا. ولو أنك أثناء دراستك لتلك المجلدات، وجدت أياً من الملخصات غير دقيق أو به عيوب فلا تندهش، إذ ليس من السهل أن تقرأ كل مجلد على حدة وتعمد إلى الفكرة الأساسية وتتذكرها ثم تسجلها. وعندما يكون عدد المجلدات كبيراً وتقضى وقتاً طويلاً فى تعقبها فإن من الصعب أن تسيطر على ما بها جميعاً بالدقة الواجبة. وفيما يتعلق بالأماكن

(١) Tarasius

(٢) Samarra

(٣) Assyria

العامة التى كانت تصادفنا أثناء القراءة والتى كنت تتوقف أمامها طويلاً ولا تمر عليها مر الكرام فإننا فى الواقع لم نعيرها اهتماماً كبيراً. وتعمدنا فى الواقع ألا نتابع بحثه بحثاً دقيقاً. وأنت فى الواقع ستكون أقدر منا فى الحكم على تلك الملخصات وما هو منها أكثر فائدة لك ويحقق توقعاتك منها. ومن المؤكد أن تلك الملخصات سوف تذكرك بما قد قرأته من تلك الكتب بنفسك من قبل؛ ومن ثم تحدد ماذا تريده منها، وأكثر من هذا سوف تساعدك فى قراءة مالم تكن قرأته بإمعان وروية من قبل أو لم تقرأه أصلاً».

لقد كان معظم تلك الكتب من كتب الأدب والبلاغة. ونحن مدينون لفوتيوس بهذا العمل الببليوجرافى الباكر الذى ضم بيانات ببليوجرافية عن أعمال فكرية كثيرة لم تصل إلينا. ولكن من سوء الحظ أنه لم يقل لنا من أين حصل على الكتب التى لخصها إذ رآها رأى العيان واستخدمها أثناء عملية التلخيص، وربما دعاه إلى ذلك أنه لم يكن من اللائق سياسياً هذا الأمر فيما يذهب بادوفر أيضاً. ومن المؤكد أن بعض مصادره لم يكن مسيحياً وربما كانت مكتبة بيت الحكمة فى بغداد من مصادره الأصلية فى هذا الصدد إذ كانت تضم فى عهد الخليفة المأمون مجموعة هائلة من المخطوطات اليونانية والفارسية واللاتينية إلى جانب المجموعة العربية الضخمة.

ونقدم فيما يلى بعض فقرات من ببليوجرافية فوتيوس لنرى منهجه الببليوجرافى فى إعداد هذا العمل الباكر:

- «إقرأ **التاريخ الكنسى** لـ«**سلامانيس هيرمياس سوزومين**»[١] فى تسعة مجلدات. أهدى للامبراطور **ثيودوروس** الأصغر. إنه يبدأ بقنصلية **كريسبوس** وأبيه قسطنطين ثم يستمر حتى حكم ثيودوروس الأصغر. لقد كان **سوزومين** فى وقت من الأوقات محامياً فى القسطنطينية. إن أسلوبه أحسن من أسلوب سقراط وهو يختلف عنه فى تفاصيل معينة.

---

(١) Salamanes Hermeias Sozomen

- إقرأ رسالة **سيريل**[1] أسقف الإسكندرية: **ضد تجديف النساطرة** فى خمسة مجلدات. وفى هذه الرسالة تبرز خصائص أسلوبه واستخداماته الغريبة للعبارات ولكنه هنا أوضح في عباراته من تلك الخطابات التى وجهها إلى هيرمياس ومن كتابه **«فى العبادة بالروح»**. اللغة هنا رشيقة ومرسلة تتوافق مع الموضوع الذى يكتب فيه، وهى تقترب هنا من الشعر المنثور.

- إقرأ مغامرات **كليتوفون وليوسبى** لـ **«أخيل تاتيوس»**[2] من الإسكندرية فى ثمانية مجلدات. إنه عمل درامى يعرض لبعض قصص الحب المستترة. اللغة والإنشاء رائعين، والأسلوب واضح والأمثلة التى يسوقها حين يسوقها تلائم المقام تماماً. والحكم والأمثال التى يضربها واضحة ومناسبة وحين تقرأ بصوت عال فإنها تطرب الأذن. ولكن فى أحكامه وتقديراته قد لا يحالفه الحظ والنقاء وتفتقر إلى الجدية وتجعل القصة التى يرويها مقرفة وربما تدعو إلى تركها بالكلية. وفيما عدا هذا فإن أسماء الشخصيات والحبكة القصصية والجدة فى الموضوع كلها جيدة المعالجة وتشبه **أخلاقيات هليودوروس**.[3]».

ومعظم الأعمال فى هذه الببليوجرافية أعمال لاهوتية والقليل الباقى: لغوية، بلاغية، تاريخية، فلسفية، علمية، قصصية. وتسيطر أعمال آباء الكنيسة اليونانية على ببليوجرافية فوتيوس إذ لم يرد فيها سوى عملين لاتينيين فقط للمؤلفين **جريجورى** و**كاسيان**[4]. والتاريخ يمثله فى هذه القائمة كل من: هيرودوت، ستسياس؛ ثيوبومبوس؛ ديونيسيوس بن هاليكارناسوس؛ آبيان؛ فلافيوس جوزيفوس؛ آريان؛ بلوتارخ؛ ديودوروس؛ ديون كاسيوس؛ هيروديان؛ بروكوبيوس. ولقد سجل الخطباء الأثينيون العشرة تقريباً فيما عدا ليكورجوس الذى قال عنه فوتيوس أنه لم يقرأ خطبه بعد. والحقيقة أن جل الأعمال التى ذكرها فى قائمته لم يصل إلينا وفقدت؛ وخاصة أعمال ممنون، كونون، آريان،

(١) Cyril

(٢) Achilles Tatius

(٣) Aethiopica / Heliodorus

(٤) Gregory , Casian

ديودوروس الصقلى. ويعلق جبّون على موسوعة فوتيوس قائلاً بأنها لا تتضمن شيئا عن الفنون أو العلوم اللهم إلا الشعر، لقد غابت جميعاً عن هذا الباحث العالمى الشامل الذى كان عميقا فى تفكيره موسوعياً فى قراءاته بليغاً فى أسلوبه.

لقد استمرت الدفعة التى أعطاها فوتيوس للعلم طوال القرن الذى تلا أى العاشر حيث كان هناك **آريتاس** تلميذه وتابعه الذى أصبح فى وقت ما حول سنة ٩٠٠م كبير أساقفة **قيسارية**(١) .وقد كان يلى فوتيوس في ملكيته لأكبر مكتبة خاصة فى زمانه وكانت تضم مجموعات لاهوتية وكلاسيكية فى نفس الوقت. وكثير من مقتنيات هذه المكتبة وصل إلينا وهى الآن مشتته بين مكتبات المدن: فلورنسا، روما، باريس، أكسفورد، لندن، موسكو وبعضها عليه ملحوظات تشير إلى شرائها ومصدر الشراء وثمنه أحياناً ففى سنة ٨٨٨م قام آرتياس بشراء كتاب إقليدس وهو الآن فى مكتبة بودلى فى جامعة أكسفورد؛ وقد دفع ثمناً له أربعة **نومزمات**(٢)(مسكوكات) تساوى ستين دولاراً (بسعر النصف الأول من القرن العشرين). وقد دفع للنساخ الذى نسخ له كتاباً آخر مبلغ ١٣ نومزمات.

لقد كان **قسطنطين بورفيروجنتوس**(٣) نصيراً وراعياً للأدب الكلاسيكى. وقد جاء إلى العرش سنة ٩١١م ومات سنة ٩٥٩م وقد كان هو نفسه طالب علم ومؤلفاً وقد أسس مكتبة طيبة فى قصره. وأنشأ فى العاصمة أربع مدارس أساسية متخصصة: مدرسة الفلسفة؛ مدرسة اللغة؛ مدرسة الهندسة؛ مدرسة الفلك. ولقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين له يقول:

لقد فعل ذلك لأنه هو نفسه كان ضليعاً فى اللغة، والفلسفة واعتبرهما أداة هامة لمن يعمل فى إدارة الدولة. وهو نفسه اهتم اهتماماً شخصياً بطلبة العلم وجعل منهم أصدقاءه الدائمين، وكان يشجعهم من خلال الهبات المالية والنصائح المخلصة... هذه المدارس تخرج فيها رجال علماء عينهم قضاة، نواباً، حكاماً فى أقاليم امبراطوريته.

---

(١) Arethas , Caesaria

(٢) Nomismata

(٣) Constantine Porphyrogenitus

يقول بادوفر إن انشاء مثل هذه المدارس العالية المتخصصة يعنى بالضرورة وجود مكتبات متطورة فيها، ورغم أن المؤرخين المعاصرين لم يذكروها ولم يكتبوا عنها بالتحديد إلا أن هناك إشارات تشير إلى أن قسطنطين قد أهتم اهتماماً بالغاً بجمع الكتب وتكوين المكتبات. ولكن الملاحظ على اهتمامات تلك الفترة وطابعها العام أنها **كانت تجنح نحو نسخ الكتب الكلاسيكية أكثر من التأليف الجديد** وكان الامبراطور نفسه مهتماً بالتاريخ ولذلك طلب إعداد مستخرجات تاريخية وصلنا منها اثنان. كذلك كان فى هذه الفترة نوع منإحياء دراسة اللغات وإعداد القواميس وخاصة أعمال **سويداس، هيسيخيوس**[١] **والقاموس الكبير**[٢].

لقد استمرت المدارس التى أنشأها قسطنطين لفترة تشع الفكر والثقافة ومركزاً للنشاط العلمى وخاصة داخل البلاط ولكن بعد وفاة قسطنطين أصيبت بالانهيار، وخاصة فى عهد بازل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) . ويعلق **مايكل سيولوس**[٣] بحزن وأسى على احتقار بازل للعلم والعلماء بقوله: «. . . إنه لم يعر العلماء أى اهتمام بل إنه كان يكن لهؤلاء الناس أعنى العلماء الاحتقار المطلق. وإنى لأندهش أنه في ذلك الوقت الذى كان فيه الامبراطور يبدى احتقاره للعلم والفكر والثقافة، كان هناك فيض من الفلاسفة والبلغاء. ولا أجد لدهشتى وحيرتى إلا تفسيراً واحداً، وهو تفسير صحيح وحقيقى هو أن هؤلاء الرجال قد قصدوا العلم والثقافة لذاتها وليس لغاية أخرى ينشدونها. ومعظم الرجال قد لا يذهبون هذا المذهب من وراء ممارسة العلم والاشتغال بالفكر، بل يسعول إلى تحقيق مصلحة شخصية يتعلمون من أجلها وإذا لم تتحقق هذه المصلحة نبذوا العلم وهجروا الفكر بلا تردد أو تأخير».

ولم يكن خليفتا بازل الثانى وهما **قسطنطين الثامن** (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م)

---

(١) Suidas , Hesychius

(٢) Etymologium magnum

(٣) Michael Psellos

ورومانوس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤م)[١] بأفضل منه أو أحسن فى مجال الفكر والاهتمام بالعلماء. وقد استمر إهمال العلم والفكر أو على الأقل عومل العلم والفكر بنوع من اللامبالاه والسطحية؛ حيث يقول سيلوس إن الكاتب منهم يتحسس السطح فقط، ولا يكاد الواحد منهم يسبر غور الفلسفة. ولكن عندما اعتلى قسطنطين التاسع مونوماخوس[٢] العرش سنة ١٠٤٢م بدأت النهضة تدب فى أوصال الفكر والإنتاج الفكرى. وفي خلال ثلاث سنوات رمم جامعة القسطنطينية ولم شعثها وأنشأ مدرسة للقانون كان مديرها يعين مدى الحياة ويشترط فيه إجادة اللاتينية وكان بدرجة وزير دولة. هذه المدرسة التى كان الطلاب يتعلمون فيها بالمجان، كانت فيها مكتبة خاصة بها وأمين المكتبة له فيها استقلاليته.

وكانت الحياة الفكرية فى تلك الفترة ـ التى لم تكن كلها لاهوتية ـ تنطوى فيما انطوت على اهتمام واسع النطاق بالكلاسيكيات الإغريقية وعلى سبيل المثال فإن المؤرخ مايكل سيلوس سابق الذكر عرف الإلياذة فى سن الثانية عشرة. وفى سن الخامسة والعشرين عرف كل ما كان هناك من علوم فى اللغة، الفلسفة، الهندسة، الموسيقى، القانون، الفلك، الطب، الفيزياء، الأفلاطونية.

وفى فترة لاحقة قامت أناً كومنينا[٣] بدراسة الكلاسيكيات من البداية للنهاية. لقد كانت عادة المثقفين الأدعياء أن يظهروا فى المحافل العامة حاملين أحد كتب أفلاطون فى أيديهم.

هذا الإقبال الشديد على الكلاسيكيات خلق بالضرورة تجارة كتب عظيمة فى تلك الفترة، وإنتاج العديد من المخطوطات الجديدة. وقد جاءت عمليات الاستنساخ الواسعة هذه من مناسخ الأديرة التى تناثرت فى عموم الامبراطورية. ورغم تجارة الكتب الواسعة هذه كانت ثمة شكوى من أن الكتب فى تلك الفترة

---

(١) Romanus III

(٢) Constantine IX Monomachos

(٣) Anna Comnena

(القرن الثانى عشر) وبالتالى العلم والمكتبات لم تكن متاحة إلا للأغنياء فقط. لقد كان أفراد أسرة كومنينا حقا من الدارسين وجماعى الكتب؛ ولكن على الجانب الآخر كانت فى الجامعة ومدارس الكنيسة مجموعات من الكتب الثمينة أيضاً. كما أن البطريرك هو الآخر قد أنشأ مكتبة كبيرة فيها كتب قانونية ولغوية وفلسفية ولاهوتية. ولابد أن هذه الكتب كان من السهل الاطلاع عليها وقراءتها والإفادة منها، ذلك أن الانتاج الفكرى المعاصر لتلك الفترة يحمل كمية مذهلة من الاستشهادات والنقول من الكتب الكلاسيكية والمثال على ذلك من القصيدة الضخمة التعليمية التى أبدعها **تزيتيزس**[1] (١١١٠ ـ ١١٨٠) ليست إلا توليفة حقيقية من كتب المؤلفين الأقدمين. فقد أخذ هذا الشاعر مقتطفات من أربعمائة مؤلف قديم وصاغها شعراً فى قصيدته فهو يأخذ شعراً من: هوميروس، هيسويد، بندار، ومن التراجيديا: أريستوفاينس، ثيوقريطس، أبوللونيوس روديوس، ليكوفرون، نيكاندر، ديونسيوس، بيريجيتسى، أوبيان، كوينتوس سميرنايوس. وفى النثر يأخذ من هيرودوت، ديودوروس، جوزيفوس، بلوتارخ، أريان، ديون كاسيوس؛ بروكوبيوس، ليسياس، ديموثينز؛ آيخينز، أفلاطون، أرسطو. وتكشف تلك القصيدة الطويلة عن اهتمام حقيقى بالأدب. كذلك فإن العلم لم يهمل كلية، يتضح لنا ذلك من فهرس وصلنا عن مكتبة البلاط البيزنطى ويشتمل على عدة عشرات من كتب التنجيم والفلك النادرة، وجد بعضها طريقه إلى إيطاليا.

وفى الأقاليم خارج العاصمة كانت هناك أيضاً مكتبات، حيث كانت الكتب تنسخ وتحفظ وخاصة فى الأديرة الكثيرة التى أشرنا إليها. وعلى سبيل المثال كان كبير أساقفة ثيسالونيكا، يوستاثيوس الذى سبقت الإشارة إليه (١١٧٥-١١٩٢)، كان باحثاً ممتازاً بذل جهوداً كبيرة فى سبيل نشر العلم والتنوير فى دوقيته. وقد قال ذات مرة لأحد الرهبان مقولته العظيمة:

«لماذا تعيش على الأرض أيها الراهب الجاهل. هل تضع مكتبة الدير على نفس مستواك الفكرى؟ ولأنك خال من الفكر فهل تفرغها هى الأخرى من

(١) Tzetzes

الفكر؟ دعها تؤوى كنوزها فإن شخصاً يأتى بعدك إن لم يكن فقيهاً فى العلوم فعلى الأقل صديقاً لها».

كذلك كان **مايكل أكوميناتوس**[١] تلميذ يوستاثيوس والذى أصبح كبير أساقفة أثينا سنة ١١٧٥م تقريباً، مثل أستاذه فى بذل الجهد لنشر العلم وإشاعة التنوير. إن أثينا التى كانت يوماً تشع العلم فى العصر القديم أصبحت الآن أطلالاً وحطاماً وحيث ترعى الأغنام فوق أطلال **الرواق الملون**[٢]، لايستطيع شعبها فهم المطارحات الكلاسيكية للأساقفة والمطرانات الجدد. وفى وحدته كان الأسقف يتأسى بالكتب التى جلبها معه من القسطنطينية وأودعها فى خزانتين بالقرب من مذبح **البارثينون**[٣]. لقد كانت هذه المكتبة أكبر مكتبة فى أثينا وتضم أعمال: هوميروس، أرسطو، إقليدس، ثوكديدس، جالينوس.

وربما كانت أكبر مكتبة إقليمية خارج العاصمة فى الدولة البيزنطية والتى وصلتنا عنها معلومات كثيرة هى مكتبة **باتموس**[٤]. ففى سنة ١٠٨٨م أعطى **ألكسيس كومنينوس**[٥] دير باتموس إلى **كريستودولوس**[٦]، وعلى الرغم من أن الدير كان يهاجم باستمرار من قبل العدو الأجنبى والموظفين المبتزين، فقد استمر الدير فى الازدهار لدرجة أن عدد الرهبان فيه بلغ فى القرن الثانى عشر نحو مائة وخمسين راهباً. ومن حسن الحظ أنه قد وصلنا فهرس مكتبة هذا الدير وفيه حصر للكنوز التى كانت فيه والتى تلقى الضوء على فكر العصر وثقافته والظروف الخاصة بالإنتاج الفكرى ويكشف النقاب عن شخصية سانت كريستودولوس لأنه كان محباً عظيماً للكتب جمّاعاً لها. ففى تعليماته لرهبان الدير يقول الأب:

«إن البارع منكم فى فن النسخ يجب أن يمارس هذا النشاط تحت إشراف

---

(١) Michael Acominatus

(٢) Painted Porch

(٣) Parthenon

(٤) Patmos

(٥) Alexis Comnenus

(٦) Christodulus

ومسئولية رئيس الدير» وفعلاً تم ذلك وعمل الرهبان بهمة ونشاط فى نسخ الكتب تحت إشرافه شخصياً وأضيفت النسخ الجديدة إلى الرصيد السابق فى المكتبة مما أثراها إثراء عظيماً.

لقد كان مؤسس دير باتموس هو نفسه رئيس دير الراهبات فى **سانت بول فى لاتروس**[1] الذى كانت فيه أيضاً مكتبة لابأس بها. وعندما هاجم الأتراك العثمانيون لاتروس سنة ١٠٧٩م جمع سانت كريستودولوس ذخائر الدير من المخطوطات وتقهقر بها إلى باتموس. ومرة ثانية يهجم الأتراك على مؤسسة القديس الجديدة باتموس فيجمع القديس كتبه ثانية ويهرب بها هذه المرة إلى دير بعيد جداً ومن على فراش المرض يوصى القديس بكتبه إلى دير باتموس ولكى يتأكد من أن وصيته سوف تنفذ أعد فهرساً بكتبه وأعطاه لأحد أتباعه المخلصين وأكد له على أنه سلم المخطوطات للأب الجديد فى الدير وصب اللعنات على من يخرق تلك الوصية. وحظر حتى تحويل ملكية مخطوط واحد من تلك المخطوطات ونص كلماته:

«وحتى لو حاول شخص ما باسم دير **استايلوس**[2] أو دير لاتروس أن يدعى ملكية أى من هذه الكتب التى أهداها إلى البطريرك فإن إدعاءه باطل مرفوض وسوف يجلب على نفسه لعنة الثلاثمائة وثمانية عشر أباً ولعنتى أنا أيضاً».

ولقد استمر خلفاء سانت كريستودولوس فى نفس سياسته الهادفة إلى إثراء مقتنيات المكتبة وصيانتها. وقام بعض الرهبان بتقديم كتبهم للمكتبة والبعض الآخر اجتهد فى نسخ المخطوطات لها. وفى القرن الثانى عشر قام أفراد من جميع عموم الامبراطورية البيزنطية ـ رودس، كيوس، كريت ـ فى محاولة للخلاص بتقديم كتب هدايا للمكتبة فى باتموس. وقد سجل أحد المهدين فى المخطوطة التى أهداها المبالغ التى أنفقها فى سبيل إعدادها ومن هنا فإنه بحلول القرن الثالث عشر كانت المكتبة فى باتموس تضم كمية كبيرة من الكتب. ويسجل

---

(١) St .Paul of Latros

(٢) Stylos

الفهرس الذى وصلنا عنها ٢٦٧ مخطوطة على رق؛ ٦٣ مخطوطة على ورق؛ ويكون المجموع بذلك ٣٣٠ مخطوطة ورغم أنه عدد كبير إلا أنه ليس مدهشاً خاصة إذا علمنا أن هناك نسخاً مكررة من كثير من الأعمال وأن جل ما فى هذه المكتبة عبارة عن كتب كنسية وخارج ذلك نجد أن الفهرس يسجل: كتابان فقط فى النحو، كتابان فقط فى الطب، كتابان فقط فى الحوليات، قاموس واحد. وليس هناك سوى عدد قليل جداً من النوادر لأرسطو، جوزيفوس، يوستاثيوس. وقد وصلنا فهرس آخر لنفس هذه المكتبة من نهاية القرن الرابع عشر لايسجل سوى ٣٠٠ مخطوطة فقط بنفس الصبغة. أما فى الوقت الحاضر فإن مكتبة دير باتموس تضم نحو ٧٥٠ مخطوطة جلها حديثة.

وبعد مكتبة دير باتموس تأتى فى المستوى مكتبات أديرة جبل آثوس، ولابد من التوقف أمامها قليلاً. هناك مكتبة كبيرة لكل هذه الأديرة استمرت فى الوجود حتى الآن ورغم أن الأتراك دمروا جانباً كبيراً من المخطوطات الثمينة فى هذه المكتبة سنة ١٨٢٠م. إلا أن المكتبة التى تحتل ثلاثة طوابق فى برج كبير، مايزال فيها حتى اليوم نحو عشرة آلاف كتاب ولكن معظم هذه المخطوطات حديثة جداً. والمخطوطات القديمة يغلب عليها الطابع الكنسى. والفهارس التى وصلتنا من جبل آثوس لا تسجل إلا عدداً قليلاً من كتب المؤرخين البيزنطيين ولكننا نصادف عدداً كبيراً من المؤلفين الكلاسيكيين وأعمالهم ومن بينهم: فوتيوس، سيلوس، فيليس، خرافات ومواعظ ليو الحكيم، خطابات مايكل جليكاس، تاريخ جوزيفوس، جغرافية بطليموس الشهير.

لقد حفلت المراكز الفكرية البيزنطية التى تناثرت فى عموم الامبراطورية بمكتباتها الخاصة ومثالنا على ذلك القدس (أورشليم) التى كان بها منذ عهد طويل مكتبة مسيحية قديمة والتى يمكن التأريخ لها من خلال نتف معلومات وبقايا مخطوطات مبعثرة هنا وهناك.

إن أقدم مخطوط فى مكتبة القدس هو المزامير التى كتبت سنة ٨٦٢م. هذا

المخطوط يضع أيدينا على أول خيط لوجود مكتبة فى بطريركية القدس. لقد كان تيودور ناسخ هذا المخطوط شماساً فى كنيسة **القبر المقدس**[1] والتى كان فيها أيضاً مدرسة خطوط. وطالما كانت هناك مدرسة خطوط فلابد أن تكون هناك كتب ومكتبة تشبه مكتبة البطريركية.

وتسجل فهارس مكتبة القدس والتى نشرت فى القرن التاسع عشر نحو ٦٤٥ مخطوطة، بعضها يرجع إلى القرن التاسع، ثلاثة فقط من القطع القديمة بخط **أونسيال** والباقى كلها بخط **الصغير** بما في ذلك نسخة القرن التاسع من الكتاب المقدس، ستة مخطوطات من القرن العاشر، ٢٤ من القرن الحادى عشر، ١٠ من القرن الثانى عشر، ٨ من القرن الثالث عشر، ٢٠ من القرن الرابع عشر؛ ١١ من القرن الخامس عشر؛ ٢٩ من القرن السادس عشر. وقليل من الكتب الكلاسيكية هى التى لها قيمة. ولعل أكثر المخطوطات قيمة ٣٤ طرساً تتضمن بعض قطع من أعمال يوربيدس كانت موجودة أساساً فى دير سانت جونز على نهر الأردن، ونقلها إلى أورشليم شخص يدعى **تيشندورف**[2]. وهذه الطروس ربما ترجع إلى القرن العاشر. ومن بين الأعمال الكلاسيكية الأخرى كتاب أرسطو فى المنطق، وكتاب للمؤلف **ماكسيموس بلانوديس**[3] يرجع نسخه إلى القرن الرابع عشر وتجميعات من كتابات جالينوس وأبقراط ترجع إلى القرن السادس عشر.

وعلى العموم فإن مجموعة الكتب فى مكتبات الامبراطورية البيزنطية وخاصة الكتب الكلاسيكية كانت أكبر مجموعات فى كل العالم المسيحى وأكثرها قيمة. ومن سوء الحظ تخلفت أوربا فى دراسة هذه المجموعات والتعلم منها وصيانتها وترجمتها كثيراً عن الشرق. وربما كان ذلك العامل الأكبر فى الانيهار الفكرى فى العصور الوسطى. ومن المعروف أن الحملة الصليبية الرابعة قد حرفها البنادقة عن

(١) Holy Seplucher

(٢) Tischendorf

(٣) Maximus Planudes

وجهتها الأصلية فبدلاً من أن تتجه إلى الأرض المقدسة وتخلصها من أيدى المسلمين، اتجه الصليبيون إلى القسطنطينية وحاصروا المدينة ونهبوها، وأثناء الحصار صبتِ النيران على المدينة وأحرقتها. أما الحريق الثانى الهائل فقد جاء بمحض إرادة بعض الجنود الفلمنكيين فى شهر أغسطس ١٢٠٣م واستمرت النيران لمدة يومين كاملين وطبقاً لأقوال المؤرخين «لقد دمرت القصور الفخمة المليئة بالقطع الفنية القديمة والكتب الكلاسيكية تدميراً تاماً». وبعد ثمانية شهور وفى الثالث عشر من أبريل ١٢٠٤، احتل الصليبيون المدينة نهائياً. وصب الفرنكيون البرابرة الجهلة جام غضبهم على «أمة النساخين والباحثين» وحملوا الأقلام والأوراق والمحابر على أسنة الرماح وساروا بها فى الشوارع. وقد علق المؤرخ الإغريقى **نكيتاس**[١] الذى شهد هذه الوقائع بمرارة قائلاً «ماذا يتوقع المرء من البرابرة الجهلة المتخلفين أكثر من هذا».

وليس هناك تقديرات عن عدد الكتب التى دمرها الصليبيون سنة ١٢٠٤. ولكن يبدو أن العدد كان ضخماً. لقد استمرت الوندلة (الإحراق العمد) خلال الاحتلال الفرنكى للمدينة. إن الأتراك العثمانيين عندما استولوا على المدينة سنة ١٤٥٣، لم يفعلوا ما فعله هؤلاء البرابرة بل حافظوا على المخطوطات إلى حد كبير.

يقول بادوفر نقلاً عن **هيرين**[٢] «لقد كان المسيحيون ـ وليس الوثنيون ـ هم البرابرة... وهم الذين دمروا الكتب الكلاسيكية بطريقة بشعة».

لقد شقت بعض المخطوطات الإغريقية من الدولة البيزنطية طريقها إلى الغرب لتضع شرارة النهضة التى تأججت فيما بعد. ونحن نعلم وكما أشرنا مراراً من قبل إلى أن كثيراً من المخطوطات الإغريقية قبل سنة ١٢٠٤م قد وصلت إلى إيطاليا. ففى سنة ١١٨٥م استولى النورمانديون على ثيسالونيكا وباعوا كثيراً من

(١) Nicetas

(٢) Heeren

الكتب إلى الإيطاليين، ويقال أن شحنات سفن بأكملها من المخطوطات اليونانية بيعت إلي الإيطاليين.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن **ليوناردو من فيرول**[١] رئيس ديوان **أخايا** فى القرن الثالث عشر كان يقتنى فى مكتبته الخاصة كتاباً يونانياً وحوليات وأكثر من هذا قام اثنان من النساخين فى المكتبة الملكية فى نابلى بنسخ مخطوط يونانى لحسابه وقام قسيس فرنسى وقسيسان إيطاليان بتصحيحه ومراجعته.

وهناك من الإشارات مايؤكد معرفة بعض الفرنكيين باللغة اليونانية بل إن هناك إشارة إلى كبير أساقفة من بينهم ترجم بعض كتب أرسطو. لقد كان هناك تيار مزدوج من الإنتاج الفكرى يسير فى الاتجاهين فبينما كانت المخطوطات والأفكار اليونانية تتجه غرباً، وترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية والفرنسية القديمة، فإن بعضاً من قصص البطولة الفرنسية القديمة طارت إلى الشرق. وفى نفس الوقت أبدى الإغريق ولأول مرة اهتمامهم بالأدب اللاتينى الكلاسيكى. ولقد قام ماكسيموس بلانوديس، سابق الذكر بترجمة كتب لقيصر، شيشرون، أوفيد، بوثيوس إلى اليونانية.

ولنعد إلى بيزنطة، إذ أنه بعد استيلاء الصليبيين على مدينة القسطنطينية انتقل البلاط إلى **نيقيا**[٢] التى أصبحت بذلك مركز الثقافة الهللينية. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر وطبقاً لأقوال **جورج القبرصى**[٣] «لقد أصبحت نيقيا أثينا أخرى من حيث وفرة العلماء بها». لقد دعا **تيودور لاسكاريس**[٤] (١٢٠٤-١٢٣٢) أول حاكم بيزنطى فى نيقيا العلماء والدارسين الإغريق إلى بلاطه. وخليفته **جون الثالث دوكاس فاتازيس**[٥]، رغم نشاطاته العسكرية الواسعة كان لديه الوقت لتأسيس المكتبات فى مدنه. و**تيودور الثانى** (١٢٥٤-

(١) Leonardo of Virali / Achaia

(٢) Nicaea

(٣) George of Cyprus

(٤) Theodore Lascaris

(٥) John III Ducas Vatazes

١٢٥٨) فقد كان مثل أبيه جون الثالث المذكور فى اهتمامه بالكتب والمكتبات وقد أسس عدداً من المكتبات. وكانت له مكتبة شخصية عظيمة يسمح للناس بالقراءة فيها بل واستعارة الكتب منها. لقد كان تيودور الثانى من أتباع **نايسفوروس بليميدس**[١]، وقد استمد نشاطه الكتبى هذا من أستاذه الذى كان يجوب الأقاليم لشراء الكتب وإذا لم يستطع شراءها نسخها.

لقد قام البيزنطيون سنة ١٢٦١م بقيادة **مايكل باليولوجوس**[٢] باسترداد القسطنطينية وطوال القرنين التاليين لم تقع للكتب والمكتبات أحداث عنف أو تخريب. ورغم أن القسطنطينية لم تعد مركز الثقافة الهللينية إلا أن هذه الثقافة لم تنقطع منها. لقد قام **مايكل** بترميم المكتبة ولم شعثها ووضعها فى جناح من قصره فى بلاشيرناى. ويشير المئات من المخطوطات الموجودة فى المكتبات الأوربية الآن بما تحمله من علامات وتجليد إلى أنها قدمت من القسطنطينية ففى المكتبة الأهلية فى باريس نجد مجموعة من الكتب اللاهوتية ترجع إلى سنة ١٢٧٦م كتب الناسخ عليها «بأمر مايكل باليولوجوس، قسطنطين الجديد وتيودورا، الجليلة الموقرة» كما نشرت مطبعة جامعة شيكاغو فى النصف الأول من قرننا العشرين نسخة مصورة من الكتاب المقدس.مع ٩٨ لوحة يعتقد أنها من مكتبة باليولوجوس.

وفى خلال القرنين اللذين سبقا استيلاء العثمانيين على المدينة خرجت إلى الوجود أنواع جديدة من المكتبات: ومن بينها مكتبات مدارس الأديرة التى انتشرت فى عموم الامبراطورية. وكانت الكتب والموضوعات الكلاسيكية تدرس فى تلك المدارس على النحو الذى نستشفه من قائمة الكتب التى خلفها جوزيف براينوا[٣] لكنيسة سانت صوفيا. لقد قام جوزيف بتدريس اللغة والبلاغة، والفلسفة للطلاب الإغريق واللاتين. وفى مكتبته الشخصية نجد كتباً دراسية فى

(١) Nice phorus Blemmydes

(٢) Michael Paleologus

(٣) Joseph Bryennois

المقاييس وعلم العروض، وكتب لأرسطو وبطليموس وعالم الرياضيات نيقوماخس من جرازا.

لقد جاءت نهاية الدولة البيزنطية رسمياً سنة ١٤٥٣م عندما استولى الأتراك نهائياً على القسطنطينية. ولما كان المتصرون غير راغبين فى كتب الكفار وكانت المخطوطات فى ذلك الوقت شيئاً ثميناً وبضائع غالية كان الغربيون على استعداد لأن يدفعوا فيها مبالغ كبيرة، فقد باع الأتراك العثمانيون أحمالاً من الكتب الإغريقية إلى المشترين الإيطاليين خاصة. وفى العقود التى تلت قامت الأسر اليونانية المقهورة ببيع مكتباتها فى المزادات العلنية كما فعل **مايكل كانتاكوزينوس**[١] سنة ١٤٧٨. وقام السلطان سليمان الثانى بإهداء مجموعة صغيرة من الكتب إلى السفير الأسبانى دييجو دى مندوزا. كما قام الرهبان الإغريق بشراء وتخزين بعض المخطوطات فى أديرتهم.

لقد احتفظت المقاطعات البيزنطية السابقة ـ العثمانية فى فترة الدراسة ـ لعدد كبير من المخطوطات اليونانية كثير منها يوجد الآن فى المنطقة التى تشكل رومانيا الحالية. وفى نهاية القرن السادس عشر طلب **إثيميوس** حاكم إقليم والاكيا من **ميليتيوس بيجاس**[٢] بطريرك القسطنطينية أن يرسل له نسخة من الإنجيل باللغة اليونانية وكتاب فى علم النواميس الطبيعية أيضاً باللغة اليونانية. وفى القرن السابع عشر نجد مكتبة يونانية فى قصر **بازل لابو**[٣] أمير مولدافيا. كذلك نجد أن بعض أمراء رومانيا مثل **قسطنطين كانتاكوزينوس؛ قسطنطين برانكوفينو**[٤]، كانت لديهم مجموعات كتب إغريقية وكانوا رعاة أيضاً للثقافة الهللينية. إن المخطوطات الإغريقية التى سلمت من أذى الدهر وحروفه نجدها مبعثرة الآن فى أنحاء متفرقة من أوربا ولكن ذخائرها وكنوزها نجدها فى مكتبات إيطاليا، فرنسا، النمسا، ألمانيا، بريطانيا، أسبانيا، روسيا.

(١) Michael Cantacuzenos

(٢) Euthymius; Meletius Pigas

(٣) Basil Lapu

(٤) Cantacuzenos; Brancoveanu

الفصل الخامس

المكتبات اليهودية فى العصور الوسطى الأوربية

كما أسلفت فى الكتابين السابقين: «**الكتب والمكتبات فى العصور القديمة**»؛ «**الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى: الشرق المسلم ـ الشرق الأقصى**» فإن الكتاب اليهودى كتاب له جنسية ولكن ليس له وطن وبنفس الطريقة فإن المكتبة اليهودية، هى مكتبة لها جنسية ولكن لا وطن لها. وكما يقول **بادوفر** هناك أشياء فى العصور الوسطى يقف أمامها العقل البشرى حائراً ومن بين هذه الأشياء بل أكثرها استعصاءً على الفهم النشاطات الفكرية لليهود. وقلة من الدارسين هم الذين لديهم رؤية واضحة عن هذه النشاطات وخصائصها ودوافعها ولكن كثرة غالبة من الدارسين ليس لديهم الفهم الواضح بل تغلهم غمامات التعصب ضد اليهود وتعصب اليهود ضد الآخرين، وهناك من يرى فى ظلام الدموع الأشياء متعددة الألوان متقزحة. وفى المقام الأول يصور المجتمع اليهودى دائماً على أنه مجتمع يبحث عن نفسه، طفيلى، أقلية أجنبية ترفض بإصرار الاندماج فى المجتمع. ومن جهة ثانية فقد يصور اليهود على أنهم جماعة من الأبطال يملكون وحدهم الذكاء والفداء والمثالية فى عالم من الجهل والتخلف والوحشية. وفى حقيقة الأمر كان اليهودى فى العصور الوسطى الأوربية كان مجرد أوربى عادى اضطرته ظروفه وأصوله السامية وتراثه السامى أكثر من ظروف العداء الاجتماعى له أن يبقى دائماً فى حالة علاقات دينية سيئة مع المسيحية.

يقول بادوفر أيضاً أن الدين اليهودى كون منذ البداية نوعاً من العداء والاعتراض على الفكر منذ وقت طويل قبل حركة الإصلاح الأوربية. وليس فيه قيادة دينية حقيقية، و**حلقات العبادة الجماعية**[١]، لم تكن فى حقيقة أمرها سوى اجتماعات للتدريس، والتنوير والعبادة والتنظيم. ولم تكن معابدهم فى يوم من الأيام للتقديس. وأكثر من هذا فإن رئيس كل طائفة، وربما كل ذكر كان له طبيعته الخاصة المتفردة. وفوق كل ذلك وبسبب ذلك كله كان على كل جماعة

(١) Synagogue

يهودية أن تكون لديها قدرات معينة على القراءة وتملك أنـواع محددة من الكتب.

ومن الجدير بالذكر أن العلم اليهودى لم يكن يدون باللغة المحلية أو باللاتينية، اللغة الدولية آنذاك ولكن كان يدون بالعبرية. وهذه الخاصية كانت لها نتيجتان أساسيتان فيما يتعلق بالفكر اليهودى. ففى المقام **الأول** نبذ المفكر اليهودى الجاد وألقى وراء الظهور؛ وبقى محصوراً فى مسارب ضيقة وانتهى به المطاف إلى نهاية مغلقة متخلفة جامدة عن أى تقدم فكرى. وفى المقام **الثانى** فإن هذا اليهودى من جهة ثانية هو نفسه ومن خلال لغته العبرية القريبة جداً من العربية وجد لديه عبر التاريخ رصيداً هائلاً من المعلومات الأدبية والعلمية غير المعروفة لأقرانه المسيحيين. ومن هنا وعندما حان الوقت المناسب فإن الباحثين اليهود قاموا بتحقيق إنجازات فكرية ضخمة ليس لأنفسهم فقط وإنما لكل أوربا الغربية.

وفي هذه الخصائص الفريدة لليهود يجب أن ننظر إلى أسلوبهم الذى عكسوا به المزاج الفكرى للناس الذين عاشوا بينهم. فإن كانت الثقافة غير اليهودية السائدة فى المجتمع ثقافة دينية تقية، جاءت الكتابات اليهودية لاهوتية تفسيرية تأويلية. كان ذلك يحدث فى شمالى أوربا حتى القرن الثانى عشر بل وأيضاً كان يحدث فى بيزنطة. وعندما يكون هناك نشاط فكرى خلاق، تجد لدى اليهود نفس هذا النشاط الأصيل الابتكارى. ومن هنا نجد اليهود فى الأندلس تحت الحكم الإسلامى يبرز من بينهم العلماء، والفلاسفة، بل والشعراء بينما نجدهم فى ألمانيا وانجلترا مثل جيرانهم المسيحيين غارقين فى الجدل اللاهوتى الباهت.

وكانت المكتبة اليهودية فى الغالب هى تلك المجموعة من الكتب التى تعرف بالكتاب المقدس. هذا الكتاب طوال التاريخ اليهودى كان يدرس بجدية بالغة ويحفظ بأقصى درجة من التوقير والتبجيل. وأقدم قطعة من الكتاب اليهودى المقدس المعروفة **ببردية ناش** تشتمل على **الوصايا العشر**[١] بالعبرية وترجع إلى القرن الأول الميلادى وهناك نصوص عبرية أخرى وصلتنا بعد ذلك بستة أو سبعة قرون أى فى صميم العصور الوسطى.

(١) Nash Papyrus, Ten Commandments

هذا الكتاب المقدس اليهودى صاحب اليهود فى هجراتهم أينما رحلوا وحلوا. وكان أسهل حملاً من مجلد التلمود الضخم الذى تراكمت فيه الشروح تلو الشروح مما جعله بحق (**مجموعة قوانين**)[1]. وكانت أكثر المجتمعات اليهودية عزلة تحتفظ بالكتابات المقدسة وليس دائماً بكتابات الربابنة. ومما يذكر عن يهود اليمن فى جنوبى جزيرة العرب أنهم استقروا هناك منذ اثنتين وأربعين سنة قبل تدمير المعبد الأول وقد كونوا لهم كما نعلم مملكة وكانت لغتهم هى العبرية وقانونهم هو الكتاب المقدس ولكنهم لم يحتفظوا بالتلمود. وفي القرن الثانى عشر عرف هؤلاء اليهود اليمنيون الشرح العربى الميمونى للمشناه ورسالته الفلسفية المسماة (دليل الحيران) فيما يذكر **الربانى بنيامين من توديلا**[2]. ويصدق نفس القول على الجماعات اليهودية المنعزلة فى بلاد فارس الذين يحتمل أن يكونوا بقايا الأسر البابلى. وقد قام أحد الباحثين اليهود فى قرننا العشرين بالرحلة إلى بلاد فارس (إيران)، وسمرقند وبخارى للبحث عن المخطوطات العبرية القديمة، وحصل على مخطوطات فى الفلك، الآداب (معظمها فارسية) والكتاب المقدس، قواميس وكتب نحو، تراث شعبى، **القبلانية**[3]، كتب الطقوس، رسائل ميمونية، كتب طبية.

ومما يذكر عن اليهود فى العصور الوسطى الإسلامية أنهم كانوا ذوى نشاط فكرى كبير فى المراكز الثقافية الإسلامية مثل بغداد والقاهرة وقرطبة أثروا الفلسفة الإسلامية والعلوم الإسلامية. وكانوا مثل نظرائهم المسلمين يحصلون العلم ويتحلقهم الباحثون ويجمعون المكتبات الخاصة. ويقول بادوفر إن المسلمين عاملوا اليهود معاملة عادلة ومهذبة وقد أمر النبى محمد (ص) نفسه بمعاملتهم بالحسنى. ومن هذا المنطلق اختلط العرب باليهود بحرية مطلقة وتبادلوا الأفكار

(١) Corpus Juris

(٢) Rabbi Benjamin of Tudela

(٣) Cabala

والمعلومات. ومن المعروف أن اللغة العربية واللغة العبرية بينهما قاسم مشترك وهما متشابهتان لدرجة أن العربية عندما تنقحر بحروف عبرية يمكن لليهودى أن يفهمها. وكان العكس يحدث أحياناً أن تكتب العبرية بحروف عربية كما هو الحال فى بعض وثائق الجنيزا فى مصر. وهكذا حفظت لنا معلومات عربية بالكتابة العبرية والعكس. وفى القرن الثالث عشر يقول لنا **شمتوف بن اسحق**(١) اليهودى الطرطوسى الذى استقر به المقام فى بروفانس فى مقدمة ترجمته لكتاب الزهراوى، أنه لمدة عشرين سنة وهو يكتب الكتب العربية بحروف عبرية. وكان هناك يهود آخرون كثيرون على شاكلته. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من المؤلفين اليهود اتخذوا أسماء عربية فلاتستطيع تمييز المؤلف اليهودى عن العربى. وقد كتبوا فى الطب والفلك والفلسفة وخاصة حول الفلسفة اليونانية القديمة أو المستقاة منها. والحقيقة أن بعض كتابات أبقراط وجالينوس وبطليموس لم تصل إلينا إلا من خلال المصادر العبرية ذلك أن العرب ترجموا عن اليونانية إلى العربية وقام اليهود بترجمة تلك العربية إلى اللاتينية.

واليهود عموماً يجلّون الكتب ويحلونها مقاماً عليا. واليهودى لاينبذ كتاباً قديماً أو يبيعخ وخاصة الكتب ذات الطابع الدينى. وعندما يستغنى اليهودى عن كتاب أو حتى بضعة أوراق قديمة فإنه يودعه فى الجينزا فى أرض المعبد عادة. والجينزا فيما نعلم عبارة عن مخزن تحت الأرض يدفن فيه اليهود الكتب والأوراق المستغنى عنها بدلاً من أن يحرقها أو يلقى بها وخاصة تلك التى تحمل اسم الله أو صفة من صفاته. وشكل هذه الجينزا كان يختلف من بيئة إلى بيئة وخاصة البيئة الثقافية. ففى بعض الأحيان كانت عبارة عن سرداب تحت الأرض فوقه فتحة على شكل مدخنة تدفن فيه الكتب والأوراق المستغنى عنها حتى تتحلل بفعل العوامل الطبيعية وتتسرب الأبخرة منها عن طريق فتحة المدخنة هذه. وشكل آخر هو غرفة تخزين تحت الأرض تخزن فيها الكتب بنظام وتعد قوائم بها، يرجع إليها عند الحاجة. وفى نهاية القرن التاسع عشر أى فى نحو ١٩٠٠،

(١) Shemtov ben Isak

عشر فى القاهرة على جينزا ضخمة ملأى بالمخطوطات القيمة وصف بأنه «**كنز لا يفنى من المخطوطات القيمة**» حمل إلى مكتبة جامعة كمبردج فى بريطانيا وفهرس وصدرت به فهارس مطبوعة. بعض تلك المخطوطات يرجع إلى القرن الثامن والغالبية من القرون التالية: من التاسع وحتى الثانى عشر. وكما هو الحال دائماً فإن معظم تلك المخطوطات عبارة عن نسخ من الكتاب المقدس أو التلمود وتتضمن أسماء الملاك المتعاقبين لتلك النسخ. ويغلب على الجينزا دائماً أن تكون مجموعات من الكتب أو الأوراق ذات الطابع الدينى. ففى أحد فهارس تلك الجينزات ـ موجود الآن فى مكتبة فرانكفورت ـ نجد ٢٠٠ كتاباً من بينها ١٩ كتاباً فقط عبارة عن كتب علمانية وقصص. وفى قائمة مبيعات أحد تجار الكتب فى القاهرة نجد نفس المعدل فمن بين ٧٧ كتاباً مجلداً مسجلاً فى هذه القائمة نجد غالبيتها من كتب الطقوس والشعائر وقلة منها فى النحو والطب والحساب.

وكان بعض العلماء اليهود وخاصة الأطباء منهم يعيشون فى مجتمعات غير يهودية ويقلدون العلماء المسلمين حيث يعقدون حلقات البحث والدرس ويساعدون الباحثين ويكونون لهم أتباعاً من الطلبة والتلاميذ وكما أسلفت يجمعون المكتبات الشخصية نذكر منهم: يعقوب بن يوسف بن كليس الذى كان مثالاً لرعاة الفكر فى القرن العاشر. وبعد حياة غير موفقة فى بغداد هرب إلى القاهرة حيث عاش فى بلاط الخليفة وبرز نجمه هناك (٩٧٩م). وقد بنى قصراً فخماً هناك وأغدق على العلماء وأكثر من هذا استخدم كثيراً من النساخين فى نسخ الكتب القانونية والطبية والعلمية. لقد عانت الطبقة المثقفة من يعقوب غريب الأطوار، فهو يهودى غير عادى ينفق من ماله بسخاء شديد على الباحثين والنساخين والمجلدين مالا يقل عن ١٠٠٠ دينار فى الشهر.

وكان هناك فى القاهرة أيضاً جمّاع يهودى للكتب هو الطبيب إفراييم الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر والذى كان تلميذاً للطبيب المصرى على بن رضوان. وقد كتب عنه ابن أبى أصيبعة فى معجم الأطباء يقول:

«لقد اهتم اهتماماً بالغاً بجمع واقتناء الكتب حتى حصل منها عدداً كبيراً فى الطب وغيره. وكان يستخدم عدداً من النساخين ينسخون له الكتب وكان يمدهم بكل احتياجاتهم اللازمة لذلك. وكان من بينهم محمد بن سعيد الحجارين المعروف بابن ملصقة. وقد رأيت عدداً من الكتب بخط يده مكتوبة لإفراييم ولقد قال لى والدى أن رجلاً جاء من العراق إلى مصر ليشترى كتباً ويأخذها معه وقابل إفراييم واتفق معه على أن يبيعه عشرة آلاف كتاب وكان ذلك فى زمن الفضل بن أمير الجيوش، وعندما سمع الفضل بذلك أمر ألا تخرج الكتب من مصر وأن تبقى فيها ومن ثم أرسل المبلغ المتفق عليه إلى إفراييم ونقلت الكتب إلى مكتبة الفضل وقد وضع اسمه على كل منها. وقد رأيت عدداً كبيراً من الكتب الطبية وغيرها عليها إسما: الفضل وإفراييم. وقد خلف إفراييم وراءه ما يربو على عشرين ألف مجلد وأموالاً كثيرة وعقارات.

وفى سنة ١٢٢٣م بيعت مكتبة اليهودى الفلسطينى المتوفى ابراهام بن هليل (أبو العز) فى مزاد علنى. وقد سجلت أسماء الكتب وأسماء المشترين فى سجل. وكان فى هذه الكتب إلى جانب الكتابات المقدسة كتب الميمون (الميمونيات)، كتب جالينوس، كتب ابن رشد، كتب أبقراط، ورسائل فى الفلك ورسائل فى أمراض الغنم. ومن المكتبات الشخصية اليهودية الغنية مكتبة **ليوموسكونى**(١)، الطبيب اليهودى فى مدينة مايوركا فى مطلع القرن الرابع عشر. وإلى جانب كونه طبيباً فإنه كان باحثاً مؤلفاً كتب حاشية على حاشية ابن عزرا على **«أسفار موسى الخمسة»**(٢). وبعد وفاته قامت أرملته منى **(مونا)**(٣) بحصر ممتلكاته المنقولة بما فى ذلك الأدوات الطبية والكتب وباعتها فى مزاد علنى. وقد أعد سجل للبيع العلنى هذا فيه عناوين الكتب وأسماء المشترين وثمن كل كتاب وقد بلغت حصيلة مبيعات الكتب بالتمام والكمال ١٤٧ جنيهاً و١٩

(١) Leo Mosconi

(٢) Pentateuch

(٣) Muna

سو. وقد ضمت مكتبة موسكونى كتباً علمانية إلى جانب الكتب الدينية. ومن بين الكتب العلمانية نجد كتب أرسطو (فى الطبيعة، الأخلاق، ما وراء الطبيعة) ونجد كتب ابن رشد، وكتب جالينوس، وكتب ميمون (الميمونيات) وكتاب بطليموس المجسطى بالعربية والعبرية، وكتب ابن سينا، وكتب ابراهام بن عزرا، وكتب **صمويل بن تيبون**[١]. كما كانت هناك رسائل فى الفلك؛ التشريح؛ الأرصاد؛ الطب؛ الفيزياء؛ الموسيقى؛ المنطق؛ الأخلاق؛ النحو. ومن كتب الأدب نجد بعض القصص وخاصة القصص الشهيرة فى تلك الفترة: «**بارلام وجوزافات**»[٢].

وكثير من المكتبات الشخصية الأخرى للأطباء اليهود كانت تنطوى على نفس محتويات مكتبة موسكونى تقريباً. وذلك على نحو ما نصادفه فى مجموعة الطبيب اليهودى **ديفيد (داود) دى استيلا**[٣]، الذي عاش فى فرنسا فى نهاية القرن السادس عشر وقد اشتملت فيما اشتملت عليه كتب أرسطو، جالينوس، ابن رشد، ميمون (الميمونات)، كما اشتملت على رسائل فى النحو، الحميات، الفيزياء، الأدوية، علم الحيوان.

وفى شمالى أوربا كان اليهود أقل نشاطاً من الناحية الفكرية من يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، فلم تصلنا معلومات عن يهودى جمّاع للكتب فى ألمانيا فى العصور الوسطى. وفى شمالى فرنسا شغل اليهود أنفسهم بالتلمود. وكان أكبر دارس للتلمود وشارح له هو **سليمان بن اسحق من تروى**[٤] الذى اشتهر باسم (رشى) المتوفى سنة ١١٠٤م وتابعاه: **رِبْ تام و راشبام**[٥]. هؤلاء اليهود الفرنسيون رغم أنهم كانوا على معرفة واسعة وعلم غزير إلا أنهم لم يستجيبوا للنهضة الباكرة فى القرن الثانى عشر فى فرنسا، والتى ساهم فيها يهود الجنوب.

---

(١) Samuel ben Tibbon

(٢) Barlaam and Josaphat

(٣) David d'Estella

(٤) Solomon bén Isaac of Troy (Rachi)

(٥) Reb Tam; Rashbam

ففى أسبانيا على سبيل المثال كان الميامنة من أكثر المفكرين بعثاً ونشراً للفكر الأرسطى وفلسفته. وكان **لموسى بن عزرا**[١] و يهوذا هاليفى شعر جميل كثير، كما قام **كيمخس** بتدوين قواعد اللغة العبرية، وجمع **الفاسى** القوانين اليهودية، وقام **ابن تيبون** بتأطير وتأصيل الدراسات اليونانية فى أوربا[٢].

ولم يكن يهود انجلترا متجمدين تماماً، فقد قام بعضهم بترجمة كتب علمانية، وألف بعضهم كتباً علمية، وقد اهتموا جميعاً بتحصيل العلم والمعرفة. ولقد قام الربانى **إلخانان** المعروف باسم: **ديوداتوس إبسكوبوس جودايورم** (اليهودى)[٣] المتوفى سنة ١١٨٤ بكتابة رسالة فى الفلك. كما قام **صمويل نكدا** من برستول[٤] بتأليف كتاب فى النحو العبرى سنة ١١٩٤م، كما قام **بندكت من أكسفورد**[٥] بترجمة كثير من الكتب العلمية من اللاتينية والفرنسية إلى العبرية. وكان من بين الكتب التى ترجمها بندكت كتاب **المسائل الطبيعية** التى ألفها **أديلارد من باث**[٦] والتى تتضمن محاورات بين عم وابن أخيه حول التاريخ الطبيعى. ويعلق بادوفر على ترجمات بندكت هذه ويقول ما نصه «إنها ليست حرفية، وليست دقيقة وقد أغفل أسماء الأعلام ولم يشر إلا إلى أرسطو فقط باعتباره [حكيم الجزيرة العربية وكيدير».

وقد نستطيع أن نستشف اتجاه اليهود الإنجليز إزاء الكتب والفكر من خلال مؤلفات أبراهام بن عزرا الذى كان اهتمامه البالغ يقع فى مجال القانون، الأنبياء، اللغة وعلم المعاجم والنحو على وجه خاص. وكان يعترض على إغراق اليهود فى دراسة النحو فيقول «حقا إنه من الحكمة أن يأخذ المرء بطرف من هذا العلم ولكنه لا ينبغى أن يقضى عمره كله فى دراسة النحويين القدماء »... ثم يختتم قائلاً «إن دراسة النحو شىء يسير بسيط».

Mose siben Ezra; (١)

Kimchis; Alfasi , Ibn Tibbon (٢)

Deodatus Episcopus Judaeorum (٣)

Samuel Nakda of Bristol (٤)

Benedict of Oxford (٥)

Quaestiones naturales/ Adelard of Bath (٦)

لقد أكد إبراهام على دراسة التلمود باتعباره مستودعاً لكل أنواع الحكمة الضرورية. ويسجل أبراهام أيضاً :

«إنه هو وحده الذى يعرف قوانين الظواهر الطبيعية ودلالاتها، ويعرف فنون الجدل التى عن طريقها تقام جدران وأعمدة المنطق والعقل. وهو الذى تعلم الفلك بناء على استنتاجات دقيقة مأخوذة من علم الحساب والهندسة وفن حساب المتوسطات والمعدلات؛ إنه وحده - أقول - الذى يعرف بأعلى درجة من الدقة خفايا الروح».

لقد كانت الكتب تلمودية وغير تلمودية نادرة وغالية. وكان هناك من بين اليهود فقراء كثيرون يعجزون حتى عن شراء كتب الصلاة. وكان على قائد المرتلين أن يقرأ الصلوات بصوت عال وبصوت خاشع مما يحفز اليهود على احترام وتبجيل الكتب فى العصور الوسطى تبجيلاً مبالغاً فيه.

وكان هناك كثير من الكتب اليهودية المزخرفة زخرفة عالية، على الرغم من أن الفنانين اليهود كانوا ممنوعين من رسم الأشكال فى مخطوطاتهم بحكم القواعد الدينية وكانوا يقتصرون على الأشكال الهندسية والنباتية فقط. ورغم ارتفاع الأسعار حتى أسعار الكتب غير المزخرفة، فقد تداول اليهود كتبهم على نطاق واسع وقد علم ابن تيبون المشار إليه سابقا ابنه فضيلة إعارة الكتب ولكنه نبهه إلى ضرورة أخذ إيصال أو مفكرة من المستعير قبل إن يغادر الكتاب المنزل.

وفى **كتاب التقوى**(1) الصادر فى القرن الثانى عشر نجد حثاً على إعارة الكتب وتوسيع نطاق الانتفاع بها (من اليهود فقط طبعاً). ففى هذا الكتاب نص يقول : «لو كان الشخص أ عنده ولدان، أولهما يكره إعارة الكتب، والثانى يعيرها عن طيب خاطر فإن الأب بدون شك يجب أن يورث كل مكتبة للابن الثانى حتى ولو كان الأصغر سناً».

بيد أن المكتبات اليهودية كانت دائماً تحت رحمة أعداء اليهود ومضطهديهم

(1) Book of the Pious

فبددت غالبا شذر مذر، وصودرت وأحرقت ودمرت. ففى سنة ١٣٩١م أعطيت كتب اليهود المنفيين من ألمانيا إلى جامعة هيدليرج والتى قامت بدورها ببيعها. وفى الإغارات والغزوات التى تعرضت لها المجتمعات اليهودية فى ألمانيا وكاستيل دمرت الكتب اليهودية ضمن تدمير ممتلكات اليهود الأخرى. وفى لشبونة أخذت الكتب اليهودية - والإسلامية - وأعطيت للمكتبات المسيحية. وفى سنة ١٤٤٠م عندما أرهب اليهود فى **سافوى** فى على يد **فيرا فايسنز**[1] ، خبأ اليهود كتبهم فى بئر. وفى أحيان أخرى وأماكن أخرى كان اليهود يضطرون إلى بيع كتبهم لجمع الأموال لافتداء أسراهم.

وفى حاشية كتاب مكتبة العصور الوسطى الذى حرره جيمس طومسون ١٩٣٩ نجد أسعار بعض الكتب اليهودية فى العصور الوسطى، بعملات الدول المختلفة التى كانت تباع فيها، ولا بأس من ذكر بعض الأمثلة :

فى سنة ١١٥٠م كانت نسخة **أسفار موسى الخمسة**[2] تساوى ٣ ماركات، بينما مرتب المدرس اليهودى طول السنة كان عشر ماركات فقط. وفى سنة ١٢٠٠م بيعت التوراه بمبلغ ٦٠ مارك؛ وفى سنة ١٢٧٢م بيع الإصحاح بثلاث أوقيات ذهبية؛ وفى سنة ١٣٠١م فى أشبيلية بيع الكتاب الطبى الشهير «المنصور» بمبلغ ٦جولدن ذهبية؛ فى سنة ١٣٠٢م بيعت أسفار موسى الخمسة بمبلغ ١٨ جنيهاً؛ فى سنة ١٣٨٤م بيع الدليل الميمونى بمبلغ تسعة دوكات. وفى سنة ١٤٢٧ بيع الكتاب المقدس اليهودى بمبلغ ٣٣ جولدن فى مدينة براندنبرج وكان فى ثلاث مجلدات قطع كبير (فوليو). وفى سنة ١٤٤١م دفع **مانيتى من فلورنسا**[3] مبلغ ٢١ جولدن فى شراء كتاب يهودى من القرن الثالث عشر. و فى سنة ١٤٥٤م بيع فى مدينة الجزائر بيع كتاب **ليفيتيكوس** وسفر تثنية الإشتراع (من أسفار التوراة) بمبلغ ٤ قطع ذهبية.

---

(١) Savoy , Fra Vicenze

(٢) Pentateuch

(٣) Manetti of Florence

المصادر

أولا : المصادر العربية

ـ أحمد عبد الكريم سليمان . المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجرى؛ التاسع والعاشر الميلادى .ـ ط١ . ـ القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٨٢ .

ـ حسنين محمد ربيع . دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . ـ ط٥ .ـ القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٩٥ .

ـ ديورانت، ول . قصة الحضارة . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر . ، د. ت .

ـ سيد أحمد على الناصرى . الروم : تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى . ـ الجيزة : مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٩٣ .

ـ عائشة شحاتة أبو الجدايل . الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى؛ الأول الهجرى : دراسة فى التطورات والتغيرات . ـ ط١ .ـ الرياض : المفردات للنشر والتوزيع والدراسات، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

ـ علية عبد السميع الجنزورى . المرأة فى الحضارة البيزنطية .ـ ط١ .ـ القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢ .

ـ فازيليف، أ . أ . العرب والروم / ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة فؤاد حسنين على .ـ القاهرة : دار الفكر العربى، د. ت .

ـ فايز نجيب اسكندر . موقعة ملاذكرد وصداها فى القسطنطينية : ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١ ـ ٤ أغسطس سنة ١٠٧٢ .ـ الاسكندرية : دار الفكر الجامعى، ١٩٨٨ . (بحوث ودراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية؛ ٤) .

ـ فوريس، ر . ج و ديكسفورهوز . تاريخ العلم والتكنولوجيا/ ترجمة أسامة أمين الخولى . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧ .

- ليلى عبد الجواد اسماعيل. الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين.ـ القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٥.

- مصطفى محمود سليمان. تاريخ العلوم والتكنولوجيا فى العصور القديمة والوسيطة.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

- هيسيل، ألفرد: تاريخ المكتبات / ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة.ـ القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٣.

- وسام عبد العزيز فرج. دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ط١: الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ ـ ١٠٢٥م.ـ الاسكندرية: المؤلف، ١٩٨٢.

- ولز، هـ. ج. معالم تاريخ الإنسانية/ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.

ثانيا : المصادر الأجنبية

- Adams, G.B. Civilization during the Middle Ages - Newyork, 1894.

- Ampére, J.J. Histoire Littéraire de la France avant Charlemagne.. Paris, 1868. zuols.

- Ampe're, J.J. Histoire Littéraire de la France sous Charlemagne.. Paris, 1870.

- Bastard, A. La Librairie de Jean de France, duc de Berri - Paris, 1834.

- Beck, Hans - George. Der Leserkreis der byzantinischen "Volksliteratur" im Licht der handschriftlichen Uberlieferung. in Byzantine Books and Bookmen.. Washington, 1975.

- Brownrigg, L.L. Medieval book production: assessing the evidence.. Los Altos: Anderson - Lovelace, 1990.

- Bulaeus. Historia Universitatis Parisientis ab anno 800.. Paris, 1665 - 1673 . 6 vols.

- Burkhardt, Jacob. Die Cultur der Renaissance - Berlin, 1877.

- Cassiodorus, Letters of / translated with an introduction by Thomas Hodgskin.. London, 1884.

- Compayré, Gabriel - Abelard and the origin and early history of universities. New York., 1893.

- Connolly, B. "Jesuit Library beginnings" **in** Library Quarterly. no. 30, 1960. pp 243 - 262.

- Crevier, J. B. Histoire de l'Université de Paris.. Paris, 1761. 8 vols.

- Delalain, Paul. Étude sur la Librairie Parisienne du XIIle au XV sie'cle - Paris, 1891.

- De Rancé . Traité de la Sainteté et de devoirs de la vie monastique.. Paris, 1682.

- Fosbrake, J.D. British monachisn: manners and customs of monks and nuns.. London, 1843.

- Tranklin, Alfred. La Sorbonne: ses origines et sa bibliothéque. - 2 éme edition .- 1875.

- Hallam, H. Introduction to the Literature of Europe in the Fifteenth, Sixteenth and Seventeenth Centuries.. New York, 1886. 4 vols.

- Harris, Michael. History of Libraries in the Western World.. Metuchen: The Scarecrow Press, 1984.

- Holzknecht, Karl J. Literary Patronage in the Middle Ages. Philadelphia, 1923.

- Huber, V. A. The English Universities.. London, 1840.

- Irigoin, Jean - Centres de Copie et des biblioteques **in** Byzantine Books and bookmen.. Washingron, 1975.

Jackson, Sidney. "Cassiodorus institutes and christian book selection" Journal of Library History, no. 1, 1966. pp 89 - 100.

- Jusserand, J.J. A literary history of the English people.. London, 1895 - 1896.

- Ker, N.R. "Cathedral Libraries" Journal of Library History, no 1, 1967. 38 - 45.

- Lacroix, Paul . Science and Literature in the Middle Ages.. London, 1886.

- Laurie, S.S. The rise and early Constitution of Universities, with a survey of medieval education.. New York, 1887.

- Mango, Cyril . The availability of book in the Byzontine Empire A. D 750 - 850. **in** Byzentine Books and Bookmen.. Washington, 1975.

- Montalembert, Count de. The monks of the West From st. Benedict to st. Bernard.. Edinburgh, 1861 - 1879. 8 vols.

- Mullinger, J. Bass. The schools of Charles the Great and the restoration of education in the ninth Century.. London, 1877.

- Muntz, Eugéne. La Bibliothéque du Vatican au XVsiécle.. Paris, 1887.

- Putnam, G. H. Books and their makers during the Middle Ages.. New York: Hilary House, 1962.

- Rachdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. Oxford, 1895. 2 Vols. New edition, 1936. 3 Vols.

- Scrutton, T. E. The Laws of Copyrigt.. London, 1883.

- Serrurier, Carnelia. Bibliothéques de la France. the Hague, 1946.

- Thompson, James Westfall. The medieVal Library.. Chicago: the University of Chicago Press, 1939.

- Weitzmann, Kurt. the selectiom of texts for cyclic illustratron in Byzentine manuscripts. **in** Byzentine Books and Bookmen.. Washington, 1975.

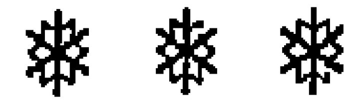
- West, A. F. Alcuin and the rise of the christian schools.. New York, 1892.

- Westwood, J.O. Facsimiles of miniatures and ornaments of Anglo - Saxon and Irish Mss. London, 1868.

- Wilson, Nigel G. Books and readers in Byzentium ..**in** Byzantine Books and Bookmen.. Washington, 1975.

- Wilson, N. G. "The Libraries of the Byzentine World". **in** Greek, Roman and Byzentine Studies. Vol. 8, 1967. pp 53 - 80.

المحتويات



هذا الكتاب

أخذ الأستاذ الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة على عاتقه أن يؤرخ لمسيرة الكتاب وعاء الفكر الإنسانى فى الزمان والمكان، والمكتبة حامية هذا الكتاب وقلمته أيضا فى الزمان والمكان. ومن هذه العقيدة أصدر سيادته الحلقة الأولى من هذه الموسوعة تحت عنوان «الكتب والمكتبات فى العصور القديمة»؛ ثم أصدر الكتاب الأول من الحلقة الثانية تحت عنوان «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى : الشرق المسلم والشرق الأقصى». أما الكتاب الثانى فى ذات الحلقة الثانية فهو الذى بين أيدينا الآن بعنوان: «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى: الغرب المسيحى والدولة البيزنطية واليهود». وهو بهذا العمل يستكمل التاريخ للكتب والمكتبات فى كل العصور الوسطى.

يعالج العمل تاريخ الكتاب الغربى فى العصور الوسطى على امتداد ألفية كاملة. كما يعالج المكتبة الغربية فى نفس الألفية فى الزمان مرة وفى المكان مرة. وهو فى كل حالة يعطى تفاصيل دقيقة للغاية. ونظراً لأن الدولة البيزنطية عاشت ردحاً قليلاً فى العصور القديمة وردحاً طويلاً هو كل العصور الوسطى تقريباً فقد وقف الباحث أمامها كذلك وقفة متأنية وعالج كتابها كما عالج مكتبتها بنفس الاستفاضة والإحاطة فى الغرب المسيحى.

والكتب والمكتبات اليهودية لها جنسية ولكن ليس لها وطن، ولم يشأ الباحث أن يغفلها أو ينسبها إلى الوطن الذى عاشت غريبة فيه، ولذلك أفرد لها فصلاً جمع فيه ما أمكنه من معلومات عنها.

ونظراً لضخامة حجم هذا لعمل حيث ربت صفحاته على الألف فقد وجد من الأوفق توزيعه على مجلدين.

والحلقة الثالثة قيد الطبع تعالج «الكتب والمكتبات فى العصر الحديث» فى نصف ألفية كاملة بين القرن السادس عشر والقرن العشرين.

الناشر



الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق ثروت - تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥
٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - ص . ب ٢٠٢٢ - برقيا دارشادو - القاهرة .

تصميم الغلاف : محمد طنطاوى